تراثنا

رسائل ابن سبعين

لأبي محمد عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي

٦١٣ هـ — ٦٦٩ هـ

حققه وقدم له الدكتور

عبد الرحمن بدوي

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

تراثنا

رسائل ابن سبعين

لأبي محمد عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي

حققه وقدّم له الدكتور

عبد الرحمن بدوي

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

فهرس

تصدير عام

ابن سبعين

— ١ —

حيـاته ومذهبه

يحق للمغرب أن يعتز بابن سبعين واحداً من بين أعظم أقطابه الروحيين . فهو وإن ولد في مرسية بالأندلس سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦/٧ م) من أسرة نبيلة وافرة الغنى هي أسرة ابن سبعين التي تذكر بعض المصادر أنها تصعد في نسبها إلى النبي ، وقضى مطلع شبابه في الأندلس ، حيث تعلم العربية والأدب ونظر في العلوم العقلية وأخذ التصوف عن أبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهاق ، فإنه قضى الفترة الخصبة من حياته الروحية في المغرب ، وفيه أيضاً ألف معظم رسائله ، وجرت له المناظرات العنيفة مع فقهاء المغرب من أعداء الفلسفة والتصوف ، فظهرت عليهم حجته وخصمهم بمتانة استدلاله وسعة اطلاعه . حتى إن أحد تلاميذ ابن سبعين ، ولعله يحيي بن محمد بن أحمد بن سليمان قال في رسالة دافع فيها عن أستاذه وسماها « بالوراثة المحمدية والفصول الذاتية » إن من بين الأدلة على أنه كان لابن سبعين الوراثة المحمدية أن ابن سبعين « كان من بلاد المغرب، والنبي عليه السلام قال : « لا يزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة » . وما ظهر في بلاد المغرب — هكذا يتابع تلميذه الدفاع — رجل أظهر منه ، فهو المشار إليه بالحديث ثم [إن] ... أهل المغرب أهل الحق ، وأحقّ الناس بالحق . وأحق المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط . وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم الذي يدور الكل عليه ويُعوّل في مسائلهم ونوازلهم ، السهلة والمريضة ، عليه . فهو [أي ابن سبعين] حقّ

المغرب ، والمغرب حق الله تعالى(١) »

انتقل ابن سبعين إلى العدوة ، أعنى المغرب ، وهو دون العشرين . فأقام أولاً فى سبتة هو وجمع من أصحابه وأتباعه الذين كانوا قد بدأوا يلتفون حوله وهو لا يزال فى الأندلس. وشاعت شهرته بالزهد والعلم ، فأعجبت به سيدة غنية من أهل سبتة وطلبت إليه التزوج منها ، فتزوجها . وأقامت له فى بيتها زاوية للعبادة . ويظهر أن شهرة ابن سبعين بالفلسفة قد استطارت فى الآفاق ، بدليل ما ورد فى مستهل كتاب « المسائل الصقلية » ، وهى المسائل التى كان الامبراطور فردريك الثانى ملك النورمانديين فى صقلية قد وجهها إلى علماء المسلمين « تبكيتاً لهم » فيما يزعم المقّرى ، أو للاستفادة وحب الاستطلاع لما كانت عليه شهرة المسلمين حينئذ بالفلسفة والعلم كما نرى ، وهذه الأسئلة الفلسفية وجه فردريك الثانى نسخاً منها إلى المشرق ومصر والشام والعراق والدروب واليمن ، لكن رجعت أجوبة حكماء المسلمين بما لم يرضه [فريدريك الثانى] . فسأل عن أفريقية [= تونس] ومَنْ بها فقيل له إنها عَرِيّة من هذا الشأن [أى من الفلسفة] ، وسأل عن المغرب والأندلس فقيل له إن بها رجلاً يعرف بابن سبعين . فكتب [فردريك] للخليفة الرشيد من أولاد عبد المؤمن فى أمرها . فكتب أمير المؤمنين لعامله بسبتة ، وهو : ابن خلاص ، أن ينظر فى الرجل المذكور أن يردّ الجواب على الأسئلة . وكان ملك الروم (يعنى فردريك) قد وجه جفناً فيه رسوله وجملة مال . فاستدعى ابن خلاص الامام قطب الدين وأوقفه على الأسئلة بأمر الخليفة ، فضحك (ابن سبعين) . . . وألزم نفسه الجواب . فدفع له ابن خلاص المال الذى جاء به رسول ملك الروم . فردّه ولم يقبله وقال : إنما < أجيب > عنها احتساباً لله وانتصاراً للملّة الاسلامية ، ثم قرأ قوله تعالى :

(١) المقرى « نفح الطيب » ١ / ٤١٦ ؛ القاهرة ١٣٠٢ هـ :

« قُلْ لاأسألكم عليه أجراً إلاَّ المودَّة فى القربى » . وجاوبه . فلما بلغ الجواب للملك (فردريك) أرضاه ووجه بصلة عظيمة فرُدّت عليه كالأولى » .

وهذه المسائل الصقلية التى سأل عنها فردريك الثانى علماء المسلمين هى :

المسألة الأولى عن العالم : هل هوقديم أو مُحْدَث . والثانية عن العلم الالهى : ما هو المقصود منه ، وما مقدماته الضرورية إن كانت له مقدمات . والثالثة عن المقولات أى شىء هى ، وكيف يتصرف بها فى أجناس العلوم حتى يتم عددها ، وعددها عشر ، فهل يمكن أن تكون أقل ، وهل يمكن أن تكون أكثر ، وما البرهان على ذلك . والمسألة الرابعة عن النفس : ما الدليل على بقائها وما طبيعتها ، ويتفرع عن هذه المسألة الأخيرة سؤال عن أين خالف الاسكندرُ الأفروديسى أرسطوطاليسَ .

ويظهر أن المكانة التى نالها ابن سبعين بهذا الجواب قد أوغرت صدور الفقهاء عليه . فراحوا يتهمونه بالكفر ، مما اضطر حاكم سبتة ، ابن خلاص ، إلى طرده منها . فسكن فى بجاية مدة ، فلم يطب له المقام نظراً لاغراء الفقهاء به ، وتحريضهم عليه ، وحسدهم له من كثرة أتباعه ومريديه ، فضلاً عما بدا فى كتاباته وأقواله من كلمات غريبة تشتم منها رائحة الكفر ، وقد أشاعوا عنه أنه قال : لقد تحجّر ابن آمنة واسعاً بقوله : « لا نبىّ بعدى » . فيقال إنه نفى من المغرب بسبب هذه الكلمة[1] . وكان خروجه من المغرب سنه ٦٤٢ ، وهو فى الثلاثين من عمره . ومعنى هذا أنه أقام بالمغرب حوالى خمس وعشرين سنة ، فيها ألّف جل كتبه إن لم يكن كلها ، باستثناء كتاب « بد العارف »

---

(١) ابن شاكر الكتبى : « فوات الوفيات » جـ ١ ص ٥١٧ القاهرة سنة ١٩٥١ ، طبعة الأستاذ محيى الدين عبد الحميد .

الذى قيل[١] إنه ألفه « وهو ابن خمس عشرة سنة » ، وإن كان فى ذلك صعوبة ، وهى كونه فى هذا الكتاب أشار إلى « المسائل الصقلية » (ورقة ١٤٩ ا من مخطوط جار الله باستانبول) . وهو لا يمكن أن يكون قد ألف « المسائل الصقلية » قبل سنة ٦٣٠ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها أبو محمد عبد الواحد الرشيد الملك فى المغرب . فمن الأرجح إذن أن ابن سبعين ألف « بد العارف » فى المغرب أيضاً ، وبهذا يكون قد ألف القسم الأكبر من رسائله وكتبه فى المغرب . بل لا نعرف أنه ألف شيئاً بعد رحلته عن المغرب فيما عدا الرسالة التى بعث بها أهل مكة يبايعون فيها السلطان المستنصر بالله تعالى أبا عبد الله محمد بن السلطان زكريا عبد الواحد بن أبى حفص ملك إفريقية وما إليها (تولى الملك فى تونس سنة ٦٥٧ هـ حتى سنة ٦٧٤ هـ) ، وعلى رأسهم شريف مكة أبو نُمَىّ محمد الأول (الذى كان شريفاً على مكة من شوال سنة ٦٥٢ إلى صفر سنة ٧٠١) ، فهذه الرسالة بالبيعة كانت من إنشاء ابن سبعين ، وقد سردها ابن خلدون بجملتها .

ارتحل ابن سبعين إذن عن المغرب فلجأ إلى المشرق . فمر بمصر ، وأقام بها مدة قصيرة فيما يبدو ، لأن هدفه الأول كان الحجّ . فقصد مكّة ، وهناك لقى من شريف مكة ، أبى نمى محمد بن أبى سعد الذى أصبح شريفاً على مكة فى شوال ٦٥٢ ، عطفاً ورعاية وشاع صيته بين أهل مكة بسبب سخائه ، فإن أهل مكة كانوا يقولون عنه « إنه أنفق فيهم ثمانين ألف دينار[٢] » ، وبسبب علمه وكثرة أتباعه . وظل فى مكة معتمراً ؛ ويقوم بالحج فى مواقيته . وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله ، ويهتدون بأفعاله .

---

(١) قال ذلك تلميذه يحيى بن محمد بن سليمان فيما نقله المقرى ١ / ٤١٦

(٢) «فوات الوفيات» ١ / ٥١٧ .

ويختلف الرأى فى سفره إلى المدينة ، فبعضهم ينكر ذلك ، لأنه فيما روى أبو الحسن ابن برغوش التلمسانى ، وشيخ المجاورين بمكة ، وكانت له به معرفة تامة ، كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة يُهراق منه دم كدم الحيض[1] ، أو لأنه عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها .

ويظهر أن ابن سبعين كان بسبب موقفه السياسى مضطراً إلى الإقامة بمكة . فقد قال حين سئل عن سبب إقامته بمكة : « انحصرت القسمة فى قعودى بها ، فإن الملك الظاهر يطلبنى بسبب انتمائى إلى أشراف مكة ، واليمن صاحبها لى فى عقيدة ، ولكن وزيره حَشَوىّ يكرهنى » . وصاحب اليمن كان آنذاك الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر (الذى تولى الملك فى اليمن فى ذى القعدة سنة ٦٤٧ حتى رمضان سنة ٦٩٤ هـ) .

فظل ابن سبعين فى مكة حتى توفى بها يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩ هـ[2] ، واختلف فى كيفية وفاته . فذكر ابن شاكر الكتبى فى «فوات الوفيات» قال : «سمعت عن ابن سبعين أنه فصد يديه ، وترك الدم يخرج حتى تصفّى » (١/٥١٧) .

* * *

ولم يكن قد نشر من مؤلفات ابن سبعين غير كتاب « الكلام على المسائل الصقلية » نشره شرف الدين يلتقايا فى بيروت سنة ١٩٤١ ، ثم قمنا نحن بنشر رسائل ابن سبعين فنشرنا منها حتى الآن : « رسالة النصيحة » أو « النورية » ، ثم « عهد ابن سبعين » ،

---

(١) المقرى ١/٤١٧ .

(٢) فى « فوات الوفيات » ١/٥١٧ أنه توفى فى ١٨ شوال سنة ٦٦٨ هـ ، وفى البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٦١ أنه توفى فى ٢٨ شوال سنة ٦٦٩ ، ومثله فى « شذرات الذهب » ٥/ ٣٢٩ . ويوافق على سنة ٦٦٨ هـ : ابن تغرى بردى ، « المنهل الصافى » ، المخطوط رقم ٢٠٧١ عربى بباريس ورقة ٣٤ ، والصفدى ، المخطوط رقم ٢٠٦٦ بباريس ورقة ١٢٩ ا — ١٣٠ ب .

ثم « الإحاطة » ، وها نحن أولاء فى هذا الكتاب ننشر ما بقى لنا من رسائله ، وسنعقب عليها بنشر كتاب « بدّ العارف » وهو أكبر كتبه حجما . ولابن سبعين طريقة فى الكتابة غريبة : فكلامه مفكك، قليل الاتصال، حتى قال قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد : « جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته ، ولا تعقل مركباته[1] » . وكذلك يتسم كلامه بكثرة ما يرد فيه من « ألغاز وإشارات بحروف أبجد ، وله تسميات مخصوصة فى كتبه هى نوع من الرموز » كما قال صاحب « عنوان الدراية[2] » .

فمن كلامه الغريب مثلاً ما يكرره فى كتاب « الإحاطة » من عبارة : « إيه ! » أو قوله : « الله فقط » ، وتكراره لكلمة « إيه » اثنتى عشرة مرة فى سطر واحد ، واستعماله حروف أبجد بطريقة من الصعب استخراجها ، كقوله فى رسالة « الألواح » : « علمه فى الإنسانية إنسان ، وفى ح ح ، وفى ن ن ، وفى ج ج ، وفى العالمية علم ، وفى العاقلية عقل » .

ومن أغرب كلامه الشاطح قوله فى ختام « الرسالة الفقيرية » : « السلام على المنكر والمُسلِم ، والعالم والمتعالم ، والغالط والمتغالط » (ص ٢٤٢ من المخطوط رقم ١٤٩ تصوف تيمور) .

ولنأخذ فى شرح المعانى الرئيسية فى مذهب ابن سبعين .

وحدة الوجود

وأول هذه المعانى وحدة الوجود ، وبسببها كان أغلب الهجوم عليه من معاصريه ومن

(١) « فوات الوفيات » ١/٥١٦

(٢) أورده المقرى ١ /٤١٩ .

كبار الفقهاء مثل ابن تيمية الذى طالما هاجمه فى رسائله[١] ، وفى «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول[٢] » .

فابن سبعين يرى أن آنية الله ، أى وجوده ، هى «أول الآنيات وآخر الهويات ، وظاهر الكائنات ، وباطن الأبديات » (الرسالة الفقيرية ، مخطوط تيمور ص ٢٣٤) « ولا حيّ على الحقيقة إلاّ الله » ، « ولا واحد على الحقيقة إلاّ الله ، إلا الحق ، إلاّ الكل ، إلاّ الهو هو ، إلا المنسوب إليه ، إلاّ الجامع ، إلاّ الأيس ، إلاّ الأصل ، إلاّ الواحد » (الموضع نفسه) .

ويشرح ابن سبعين فى كتاب « الاحاطة » المعارج التى يرتفع فيها السالك حتى يصل إلى معاناة هذه الوحدة المطلقة . فى المرحلة الأولى يتأمل السالك الذوات عرية عن المادة ، فيرى الوجود « يسيل ولا يقف ، ويستمر ولا يختلف » . وفى الثانية يكثر من فرض الاتحاد بالقوة الوهمية ، وفائدة هذا الاتحاد ضبط النفس بغبطة وهمية ، عسى أن تقلّ حركتها ، فيصح له « الشعور فى الضمير بالوحدة المخطوفة بالقوة النازلة من القصد إلى فيض الهوية » ، وهذه الوحدة المخطوفة مجرد إيذان بالوحدة الحقيقية . وفى المرحلة الثالثة يطرح البراهين العقلية والأقيسة الصناعية والنفسية وجميع أنحاء المقدمات التى بين أيدى الناس ، وبالجملة يطرح المنطق العقلى المشائى ويجعل من هذا الإهمال المنطق المشائى مقدمة ثم يجعل من التوحيد — الذى لا يصحّ معه توحيد بل يكفر به توحيد مَنْ لا يعلمه — مقدمة أخري . والحد الأوسط هنا خير الأمور ، والأصغر الوقار ، والأكبر التفريد . فالنتيجة هى الغبطة الروحية . وهذا النوع من القياس هو استخارة ، والبرهان هنا معناه انتظار الفتح من الله . ولا عليه أن يصيبه جنون فى هذه اللحظات ، لأنه فى عالم أكمل ، شرطه الأساسى هو الجهل بالعالم الذى ليس إياه .

---

(١) ابن تيمية : «مجموعة الرسائل والمسائل » ج ١ ص ١٧٨ . (٢) ج ١ ص ٤

ذلك هو طريق النفوس القوية ، المفطورة على التصوف . أما النفوس العادية فلها طريق آخر : تبدأ بتصفح أحوال الملّة وأحوال وضعها . لكن ليس عليه أن يوغل فيها شأن الفقهاء ، لأن غرضه أن ينال الإدراك المتوحد ، لا أن يتشتت فى الظاهر والفروع والجزئيات .

وبعد هذا عليه أن يفرض على وهمه تصور الفيض لكى ينقطع عنه الاستناد إلى العلم المنقول ، ويتصل بالصورة الحاضرة ، أعنى بواردات الحال والوقت ، فإن الصوفى الحق يجب عليه أن يحيا فى الحاضر باستمرار ، وأن يطارح الماضى ، إن حياته ووجوده فى حاضر سرمدى مستمر .

فإن استطاع أن يصل ، فبها ونِعْمَتْ . وإلاّ فليرحل إلى شيخ يدبّره بخواص الأسماء الالهية القائمة به . فإن نال ما يريد ، وإلا فليرحل إلى غيره يدبّره بالتصريف . وفى هذه المرتبة ينبغى للصوفى أن لا يقبل العبارة ولا الاشارة ، ولا اللطيفة ولا الدقيقة ولا الحقيقة ، إلاّ من جهة الشعور والنصيب الإلهي ، أى يجب عليه أن يحيا الأحوال فى نفسه تجاربَ حيةً ذاتيةً له ، وأن يشعر بأنها من مَدَد الله .

ولهذا ليس له أن يقول : إنى أعلم الموجود وأحيط بالموجودات ، فهذه معرفة عقلية فلسفية ، بل عليه أن يقول : أنا أجد الوجود وأتصرف فى الموجودات . وعليه أن يتابع هذا الذوق حتى يجد الذوات المجرّدة من تطوره ، أى أن يشعر بأن المعقولات من حاله ؛ وأن الممكن من وهمه ، والمحال من خبره ، والواجب عينه ؛ والرب المألوف حرفاً من حروف دينه الذى فرضه على نفسه لا الذى فُرض عليه ، فإن دينه المفروض عليه قد نسخه دخوله فى مضمار التصوف السالك . هنالك يدرك أن كلام الله معناه افتقار الذات إلى تَعين ماهيتها حالاً وخبراً ، وأن مشاهدته بسكون أخباره هى هويةٌ وآنية ، أى ماهية ووجود .

فإذا ما تنقل السالك فى عالم الأفلاك وما تحت فلك القمر من إنسان وحيوان ونبات ، وحلل وقسّم ، ثم ركّب ووصل ، وتخلص من القسمة ، هناك إذا رجع إلى نفسه وجد فيها جميع ما فى عالم الأفلاك وما تحت فلك القمر بوجه ألطف ، إذ يرى نفسه شبه أنموذج لهذه العوالم .

هذه العملية الكبرى التى يشاهد فيها السالك أنه محيط بالكل والكل محيط به ، وأن الكل فيض لواحد ، يسميها ابن سبعين بالإحاطة ، ويقصد بها الوجود كله بوصفه وحدة واحدة .

فى هذه الإحاطة يختلط الزوج مع الفرد ، ويتحد النَّجْو مع الورد ، وبالجملة : فى الاحاطة يكون السبت هو الأحد ، « والموحِّد هو عين الأحد ، ويوم الفرض هو يوم العَرْض ، والذاهب من الزمان هو الحاضر ، والأول فى العيان هو الآخر ، والباطن فى الجنان هو الظاهر ، والمؤمن فى الجنان هو الكافر ، والفقير هو الغنى » . (ص ١٦ من نشرتنا . مدريد سنة ١٩٥٨) .

وهذا الاتحاد بين الأضداد ، وهذه الإحاطة بما تجمع من موضوعات ونقائضها تذكرنا بنظرية هيجل فى « التصور » ، وفيها ديالكتيك حىّ متطور ، ولكن فى عالم روحانى ، لا عقلى كما هى الحال عند هيجل . والعبارات التى ذكرناها تنطوى على كثير من المذاهب الجريئة . فقوله : « الموحِّد هو عين الأحد » هو بعينه قول الحلاّج : « أنا الحق » . وقوله إن الذاهب من الزمان هو الحاضر هو قول بفكرة الحاضر السرمدى l'éternel présent التى أقام عليها الفيلسوف الفرنسى المعاصر « لوى لافل » L.Lavelle فلسفته الروحية .

وإذن فمذهب ابن سبعين هو اتحاد الأضداد ، ويلذّ له دائماً أن يتغنى به فى كل رسائله ، خصوصاً فى « الفقيرية » وفى « الاحاطة » . فهو يطلب من السالك فى « الاحاطة »

أن يقول : « سبحان الفرد الزوج ، الحضيض الأوج » (ص ١٧) ، أى أن يجمع دائماً بين الأضداد فى الوجود ، فالموجود يجمع بين الضدين ، بخلاف ما يزعمه المنطق الأرسطى وفى هذا بذور قوية لوضع ديالكتيك . ولو كان ابن سبعين توسّع فى هذا الباب ، وطبّق هذا الديالكتيك على الوجود العينى ، لكان مبشّراً بهيجل والديالكتيك عامّة . لكنه كان يجول فى ميدان الالهيات وحدها ، وكان هدفه التوحيد المطلق ، أى القول بالوحدة المطلقة فى الوجود ، وأنه ليس ثمّ غيرُ ولا سوى ، بل كل شيء هو الله ، أو على حد تعبيره فى « الاحاطة[1] » : « ليس إلاّ الأيس فقط » (ص ٢٣) أى ليس إلاّ الوجود فقط ، وهو هو الله الله ، ويكررها مراراً . ويلخص كل مذهبه فى هـذه العبارة : « إيه ! الله فقط لا شك فى ذلك ! » — وهى عبارة سيكررها مئات المرّات فى مختلف رسائله . ومعناها أن ليس ثمّ وجود إلا الله فقط .

وهذه الوحدة المطلقة يؤكدها ابن سبعين ضد كل محاولة للتمييز حتى عند الصوفية القائلين بالتوحيد . فإنهم يميزون بين توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال وهذه التمييزات التي وضعوها هى فى نظر ابن سبعين أوهامٌ فى أوهام ، كما قال فى رسالة « خطاب الله بلسان نوره » . ولهذا ينتهز هذه الفرصة فيحمل على سائر الطوائف . فيحمل على الفلاسفة فى قولهم بعالم العقل وعالم النفس وعالم الطبيعة ، والأول والعلة والواجب بذاته ، فهذه التفرقات كلها من مفروضات الأوهام ، « وذلك أنهم تظهر لهم من الحقيقة جملة مدركات وهمية بالمُدْرِك العظيم الذى يظهر لهم ، وهو أجلُّ من غيره » . ولهذا لا يستطيعون وصف الله إلا بالسلب كقولهم : عالم بعلم لا كالعلم ، حىّ بحياة لا كالحياة — أما الفقهاء فلا مرتبة لهم ، « لأنهم زعموا أن الأعمال هى المرتبة الشريفة لا من حيث الخلاص النفساني وما بعد العمل وفائدة التجرّد والتخلق وأسرارها الباطنية ،

---

(١) وترد أيضا فى « الفقيرية » ص ٢٣٤ من مخطوط التيمورية .

بل من حيث الحكاية ، وتلك الحكاية مكذوبة على المعلم أو محرّفة أو منقولة على غير وجهها . . . ومع هذا هي عندهم في الخبر لا في الأثر ، وفي المدرسة لا في حقيقة المدرّس ، وفي الكتاب لا في الكاتب ، وفي الكاغد لا في الضمير [١] » .

يأخذ ابن سبعين على الفلاسفة إذن أنهم يضطرون إلى القول بفروق لا محل لها ولا محصّل وراءها ، ويجرّهم ذلك إلى الوقوع في صفات السلوب حينما يريدون تحديد صفات الله . ويأخذ على الفقهاء أنهم يتعلقون بالظاهر ، بالأعمال الخارجية ، ولا يهتمون بخلاص الباطن ، خلاص النفس ؛ ولا يدركون سرّ التجرّد ، أي الفقر ؛ ويتعلقون بأحاديث إمّا مكذوبة ، أو محرّفة أو منقولة على غير وجهها . ولا يعنيهم التمثل بالنبي ، بل التعلق بما شاع من أقواله ؛ ويحرصون على التمسك بما في الكتب ، لا بما في ضمائر الكتاب ؛ ويتشبثون بالمدرسة ، أي بالآراء المجرّدة ، لا بالحقيقة الحية العينية لصاحب الآراء ، أي المدرّس . وهذه دعوة من ابن سبعين إلى التعلق بالنبي بوصفه النموذج العيني الأعلى الحيّ لا بمنعنات الفقهاء والمحدثين .

إن ابن سبعين ينظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم على أنه نور ، استناداً إلى قول النبيّ « اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ، ونوراً في جسمي ، ونوراً في شَعْري » وتتبع جوارحه كلّها ، ثم قال : « واجعلني نوراً » . والنبي لما توفي طلب الرفيق الأعلى عند موته ، وهو محلّ الأنوار ، وروح النبي هناك ، فهو نور ، ومع أنوار . ولهذا يكرس ابن سبعين رسالة خاصة « في أنوار النبي » ، لأن للنبيّ أنواراً تختلف باختلاف متعلّقاتها ومضافاتها ، ومن حيث الأقل والأكثر ، والأشد والأضعف . وعدّة أنواره التي يعدّدها ابن سبعين ثلاثة وثلاثون . فالأول

---

(١) مخطوط التيمورية ص ١٤٣ .

نور العزّة ، وهو نور الشهادة التي تقال مع شهادة الله . والثاني نور الغاية الإنسانية ، وهي الاسراء ، والإسراء إلى المسجد الأقصى معناه بلوغ الغاية ، الذي وصل به إلى محل الكروبيين ثم إلى آخر العمارة الروحانية والجسمانية . والثالث نور الإدراك فإنه أدرك الله وأبصره . والرابع نور النبوة ، وهو ما ظهر له من الآيات وما تحدى به من المعجزات . والخامس نور النشأة ، وهو الذي كشف له مكانته وعناية الله به وحفظه . والسادس نور السابقة ، فقد كان نبياً وآدم بين الماء والطين كما جاء في الحديث والسابع نور التشريف ، وهو الذي كشف له عن الخصوصية المكتوبة ورسم اسمه في الله وكتب بالنور . والثامن نور التدلل ، الذي كشف له عن مقام القرب وهو قوله تعالى : « ثم دنا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » . والسابع نور التركيب الذي كشف له عن الغاية العظمى في التوحيد . والعاشر نور المولد . والحادي عشر نور الخِلْقة . والثاني عشر نور التربية . والثالث عشر نور الانتقال وهو النور الذي كان يُبصَر في عين أبيه وأمه . والرابع عشر نور النهاية ، فهو نور الله تعالى الذي ختم به النبوّة الخ . وهكذا يستمر ابن سبعين في تعداد أنوار النبيّ ، ويختمها بقوله إن النبيّ هو النور المحض [1] .

وإذا كان كلام ابن سبعين يذكرنا هنا « بمشكاة الأنوار » للغزالي ، فإنه لا يريد منا أن نقول إنه تأثر بواحد من الفلاسفة أو الصوفية المسلمين السابقين ، لأنه لا يكن لهم أي احترام أو تقدير . إنه ينقدهم في كل فرصة تسنح له ، نقـــداً قاسياً لاذعاً ، مُبالغاً فيه .

لقد هاجمهم أولاً « في بدّ العارف » (ص٨٦ من مخطوط جار الله رقم ١٢٧٣

(١) راجع «رسالة في أنوار النبي» في مخطوطة التيمورية ص ٢١٧ — ٢٢٥ .

= ورقة ٣٨ ب فى مخطوط برلين رقم ١٧٤٤ [Wetz. II, 1524]) ، أى فى مطلع شبابه . فنقد ابن رشد لشدة افتتانه بأرسطو وتقليده الأعمى له حتى لو سمع أرسطو يقول إن القائم قاعد فى زمان واحدٍ لقال هو أيضاً بذلك واعتقده ، وابن رشد « قصير الباع ، قليل المعرفة ، بليد التصوّر غيرُ مدرِك ، غير أنه إنسان جيّد قليل الفضول ، ومنصف وعالم بعجزه » .

ويقرر ابن سبعين أن ابن رشد لا أصالة له لأنه مقلدّ لأرسطو . وحكمه عليه بالجملة حكم صحيح ، فيما عدا كلامه فى قلة معرفته وبلادة تصوّره ، فإن ابن رشد كان واسع الأطلاع . ولكن يظهر أن ابن سبعين يقصد بقلة معرفته : جهله بعلوم أهل الحقيقة ، أعنى بعلوم المكاشفة الصوفية الذوقية .

ويأخذ علي الفارابى أنه تناقض واضطرب ، فهو يقول بآراء مختلفة بحسب الكتب المختلفة ، كما حدث فيما يتعلق باعتقاده فى بقاء النفوس . لكنه يقدره ويقول إنه ، أى الفارابى ، « أَفْهَمُ فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو الفيلسوف فيها لا غير ، ومات وهو مدرك ومحقّق » . وحكم ابن سبعين على الفارابى فى غاية النفوذ والدقة .

أما خصمه الألد فهو ابن سينا ؛ فهو يرى أن ابن سينا « مموّه ، مُسَفْسِط ، كثير الطنطنة ، قليل الفائدة ؛ وماله من التآليف لا يصلح لشيء . ويزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية ، ولو أدركها لتضوّع ريحها عليه » . وحكم ابن سبعين هذا على ابن سينا ، رغم قسوته ، صحيح نافذ . فإن ادعاءات ابن سينا ، كما نراها فى مختلف كتبه ، خصوصاً فى مقدمة « منطق المشرقيين » ، ادعاءات جوفاء لم يحقق منها شيئـــــاً . وقد أصاب ابن سبعين الحقّ كل الحق حين قال إن ابن سينا يزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية ، ولو صح

هـذا لأفشاها وعرفنا ما هى . والواقع أن الفلسفة المشرقية المزعومة لا حقيقة لهـا ، كما أثبتنا ذلك فى تصدير كتابنا « أرسطو عند العرب » .

وحلل ابن سبعين حقيقة الغزالى تحليلاً عميقاً فقال إن « الغزالى لسانٌ دون بيان ، وصوتٌ دون كلام، وتخليطٌ يجمع الأضداد ، وحيرةٌ تقطع الأكباد. مرةً صوفى، وأخرى فيلسوف ، وثالثة أشعرىٌّ ، ورابعة فقيه ، وخامسة مُحَيَّرٌ [١] . وإدراكه فى العلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت . وفى التصوف كذلك لأنه دخل الطريق بالأضطرار الذى دعاه لذلك مِنْ عدم الإدراك » . لكنه يعقب على ذلك بإنصافه فيقول : « وينبغى أن يعذر ، ويشكر لكونه من علماء الإسلام على اعتقاد الجمهور ، ولكونه عظم التصوف ومال بالجملة إليه ، ومات عليه بحسب ما أعطاه كلامُه وفهم من أغراضه » . ثم يدلى برأى غريب خليق بأن يهتم به الباحثون ويبحثوا فى صحته بمناسبة الاحتفال بالغزالى وهو قوله إن الغزالى « كتابه على أكثر ما يظهر فى أكثر كلامه هو « رسائل إخوان الصفا » ، فإنه فى الفلسفة ضعيف مثل أصله » . فإننا لا نعلم أن أحداً اهتم بتحقيق الصلة بين الغزالى وبين آراء أصحاب « رسائل إخوان الصفا » .

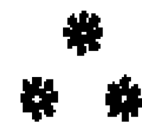
ونرى ابن سبعين مرة أخرى فى « الرسالة الفقيرية » يهاجم الفلاسفة الاسلاميين جملة فى عبارة واحدة هم وأستاذهم أو معلمهم الأول أرسطو. فيستعيذ من «توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية خاصة — فإن غيرها من سائر العلوم أحكمها ولم يغلط فيها إلا فى القليل — ومن شكوك المشائين ، وحيرة أبى نصر [الفارابى] ، وتمويه ابن سينا فى بعض الأمور ، واضطراب الغزالى وضعفه ، وتردّد ابن الصائغ ، وتنويع ابن رشد ،

---

(١) فى مخطوط جار الله : محيرا .

« وتلويحات » السهروردى مؤلف « حكمة الإشراق » والتلقيحات بمذهب أفلاطون ، وتشويش ابن خطيب الريّ [أى الفخر الرازى] » .

وفى هذا النقد نجد كما لاحظ الأستاذ ماسينيون أول محاولة لنقد نفسانى لتاريخ الفلسفة الإسلامية [١] .



وابن سبعين شخصية فذة فريدة فى نظراتها الإنسانية العامة. فهو رجل إنسانىٌّ عالمي غير مقيد بقيود دار العقيدة ، بل يسير على نفس المنهج الذى اختطه الحلاج من قبل ، حينما ارتحل عن بلاد الاسلام خارج منطقة شفاعة النبي كما يقول الأستاذ ما سينيون ، لأنه «صار يفكر فى الإنسانية كلها ، عبْر الأمة الإسلامية ، كيما يلقنها هذا الشوق الغريب إلى الله ، الشوق الصابر الرصين [٢] » . كذلك يروى « أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند ، وقال إن أرض الإسلام لا تسعه [٣] » لكنه لم يقم بهذه الرحلة . فإن صحّ هذا القول فإنما قصد به إلى ما قصده الحلاج من أن رسالته الروحية يجب أن يعمّ خيرها كل البشرية ، دون تفرقة بن دين ودين ، ووطن ووطن . وهى النظرة التى عبّر عنها ابن عربي فى أبياته المشهورة :

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبة طائفٍ ... وألواح توراة ومصحف قرآن

---

(١) راجع مقاله عن « ابن سبعين ، والنقد النفسانى فى تاريخ الفلسفة الإسلامية » فى تذكار هنرى باسيه ، باريس سنة ١٩٢٨ ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ ، وما يليها

(٢) راجع كتابنا «شخصيات قلقة فى الاسلام » ص ٦٨ . القاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٣) ابن تيمية : « الرسائل والمسائل» جـ ١ ، ص ١٨٢ ، المنار ، القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

أدين بدين الحبّ أني توجّهت ركائبه : فالحبُّ ديني وإيماني

وهـذه النزعة الإنسانية العالمية التى بشر بها الحلاج ومجـدها ابن عربى ودعا إليها ابن سبعين هى نتيجة منطقية لقولهم بوحدة الوجود ، وأنه ليس ثمّ إلاّ الله ، فكيف يحق له بعد هـذا أن يفرّق بين ناس وناس ، وبين وطن ووطن ! نعم إن حُبّهم شامل يشمل الانسانية كلها ، بل والوجود كله ؛ وإن نظرتهم وآفاقهم تنتظم الكون بأسره .

برن (سويسرة) عبد الرحمن بدوى

سنة ١٩٥٦

— ٢ —

هـــذه النشرة

وها نحن أولاء ننشر في هذا الكتاب طائفة من رسائل ابن سبعين هي كل ما يحتوى عليه المخطوط الوحيد الباقى من رسائله ، وهو المخطوط رقم ١٤٩ تصوف بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية بالقاهرة . ولم نعثر حتى الآن على مخطوط آخر لهذه الرسائل ولا لأية رسالة أخرى من رسائل ابن سبعين . ونحن ننشرها لأول مرة[1] .

أما كتابه الرئيسى « بد العارف » والذى طالما أشار إليه فى هذا الكتاب ، فقد أعددناه للنشر ، وفقاً للمخطوطات الثلاث التى عثرنا عليها حتى الآن . وسنطبعه عما قريب .

أما عن صحة نسبة هذه الرسائل إلى ابن سبعين ، فلدينا أولاً الأدلّة من شرح تلميذه على « عهد » ابن سبعين لتلاميذه ، إذ ورد فيه ذكر الكتب والرسائل التالية منسوبة إلى ابن سبعين :

---

(١) نشرنا ثلاث رسائل منها من قبل فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، وهى «رسالة النصيحة» (المجلد الرابع سنة ١٩٥٦ العدد ١ - ٢ من ص ١ — ٤٥ من النص العربى ، ومقدمة بالأسبانية من ض ١٣١ إلى ١٣٥ من النص الأسبانى) ؛ « عهد ابن سبعين لتلاميذه» (المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ العـدد ١ — ٢ ، ص ١ — ١٠٣ من النص العربى ، ومقدمة بالاسبانية ، من ض ٢٤٩ — ٢٥٣ من النص الأسبانى) ؛ «كتاب الاحاطة» (المجلد السادس ، سنة ١٩٥٨ ، العدد ١ — ٢ ، ص ١١ — ٣٤ من النص العربي ، ومقدمة بالأسبانية ، ض ١٠٣ — ١٠٥ من النص الأسبانى) .

١ — بدّ العارف (ص ١٦ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٩ بحسب أرقام صفحات المخطوط ، وهى الواردة هنا بين أقواس مربعة) .

٢ — الإحاطة (ص١٦) .

٣ — الرسالة الفقيرية (١٦ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٥٥ ، ٧٦)

٤ — نتيجة الحكم (ص ٢٢ ، ٢٥)

٥ — الرسالة الإصبعية (ص ٢٨ ، ٨٢)

٦ — الكلام على الحكمة (ص ٢٩)

٧ — الرضوانية (ص٣٣ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٨٢)

٨ — حكم القصص (ص ٤٥)

٩ — مسائل صاحب صقلية (ص ٧٩)

١٠ — الوصايا (ص ٨٣)

١١ — الفتح المشترك (ص ١٥ ، ٩٥ ، ٩٦)

١٢ — الألواح (ص ٣٨ ، ١٠٠)

١٣ — خطاب الله بلسان نوره (ص٣٨)

وفى مخطوطنا هذا نجد من بين هذه الرسائل والكتب ما يلي :

١ — الاحاطة (ص ٤٤٤ ـ ٤٧٤)

٢ — الرسالة الفقيرية (ص٢٢٥ ـ ٢٤٢)

٣ — الرضوانية (ص ٢٤٤ ـ ٢٧٧)

٤ — الألواح (ص ١٧٥ ـ ١٨١)

٥ — قسم كبير من « الوصايا » (منها وصية لأصحابه ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣)

٦ — خطاب الله بلسان نوره (١٢٨ ـ ١٤١)

هذا وقد ورد فى ورقة فى أول المخطوط (رقم ١٤٩ تصوف تيمور بدار الكتب المصرية) بيان بما فيه من رسائل هكذا[1] :

« الحمد لله ، فى هذا المجموع من الكتب ما يذكر :

كتاب العَهْد وشرحه (ص ٢ ـ ٧٩)

كتاب النصيحة وهي الرسالة النورية لابن سبعين (٨٢ ـ ١١٢)

كلام الشيخ ابن سبعين (١١٢ ـ ١٢٥)

أيضاً كلام الشيخ ابن سبعين (١٤١ ـ

كتاب الألواح لابن سبعين (١٧٥ ـ ١٨١)

كلام الشيخ ابن سبعين أيضاً (١٦٥ ـ

كلام الشيخ ابن سبعين أيضا (١٨١ ـ

كلامه أيضاً فى وصيّة (١٩٣ ـ

كلامه أيضا : في وصيّة لأصحابه (٢٠٢ ـ ٢٠٣)

كلامه أيضاً فى وصايا (٢٠٣ ـ

رسالة له أيضاً (١٩٩ ـ

---

(١) وضعنا بين قوسين أرقام صفحات المخطوطة .

— رسالة الصحبة للشيخ ابن وطيل .

— إيضاح ما استبهم من أحوال الفيض والمواهب فى تناول الطيبات وتركها ، وما لهم فى ذلك من المذاهب ، للشيخ سيدى عبد العزيز القسنطيني رحمه الله (٢٩٣ — ٣٠٤) .

— استنباط الوسيلة والذريعة له أيضا (أى لسيدى عبد العزيز) (٣٠٤ — ٣١٠) .

— وله أيضا (أى لعبد العزيز) مواعظ رحمه الله ورضي عنه .

— وله أيضاً (أى لعبد العزيز) فى جماعة اجتمعوا للزيارة وتخلف واحد منهم بغير إذن مَنْ قدَّموه : ما حكمه ؟ (٣١٠ — ٣١٥) .

— وله أيضاً (أى لعبد العزيز) فى سبب إقبال الخلق على العلماء وترك الفقهاء[1] (٣٢٠ — ٣٢١) .

— مرقاة الزلفى والمشرب الأصفى لأبى بكر بن طفيل[*] (٣٢٣ — ٤٠٠) .

— من كلام سيدى عبد العزيز فى التجريد والأسباب[1] .

— له أيضاً (أى لعبد العزيز) فى كلام سيدى عبد القادر (أى الجيلانى) رضى الله عنهم[2] .

— المقاليد الوجودية ، للشيخ الششترى (٤١٣ — ٤٤٣) .

كتاب الإحاطة للشيخ ابن سبعين (٤٤٤ — ٤٧٤) .

(*) هى رسالة حى بن يقظان لأبى بكر بن طفيل ، والنسخة كاملة .

(١) ورد بعدها رسالة لسيدى عبد العزيز « مما كتب به لبعض الاخوان المحبين » فى انحراف وعدم اعتدال بعض المنتسبين إلى التصوف ، وتقع من ص ٣١٥ — ٣١٩ .

(٢ ، ٣) هاتان الرسالتان ناقصتان من المخطوط ومكانهما ورق أبيض ص ٤٠١ — ٤١٢ .

— قصيدة من نظم الشيخ الششترى (وردت فى ثنايا المقاليد الوجودية).

— قطعة أيضاً من كلامه (أى الششترى) « رضى الله عنهم أجمعين » (٤٧٨).

وما لم يرد بعده ذكر لأرقام الصفحات من هذا البيان هو ما لم نجده أو لم نستطع تحديده فى هذه المجموعة.

ويلاحظ أن هذه المجموعة مجموعة مصطنعة مؤلفة من عدة مخطوطات كانت مستقلة ثم ضمّت فى مجلد واحد، وهى بخطوط مختلفة، ولكنها كلها مغربية الخط. فمن:

(ا) ص ٢ إلى ٢٩٢ بخط واحد مغربى دقيق، مسطرته ٢٧ سطراً، وهو الأساس فى هذه المجموعة.

(ب) ومن ص ٢٩٣ إلى ٣٢١ بخط مغربى آخر أوسع، ومسطرته ١٩ سطراً.

(ح) ومن ص ٣٢٣ إلى ٤٠٠ — وهى رسالة حىّ بن يقظان لأبي بكر بن طفيل بنصها الكامل — بخط ثالث، مسطرته ٢٦ سطراً.

(د) ومن ص ٤١٤ إلى نهاية المجموعة فى ص ٤٧٨ بخط رابع مغربي أيضاً، مسطرته ١٩ إلى ٢٢ سطراً، وهو خط أقل حسناً. ومن ص ١ إلى ص ٣٢١ ضبط المكتوب بالشكل الكامل تقريباً.

* * *

وعدد صفحات هذه المجموعة كلها ٤٧٨، ولكن فيه أوراقاً أو صفحات بيضاء هى: ٧٩ (كتب فيها سطر واحد والكلام لم يتم)، ٢٠٥، ٢٤٣، ٢٦٣، ٣٢٢، ومن

٤٠١ إلى ٤١٢ — وهذا النقص الأخير الذى يستغرق ١٢ صفحة يشمل رسالتين لسيدى عبد العزيز القسنطينى : الأولى فى التجريد والأسباب ، والثانية فى كلام سيدى عبد القادر (الجيلانى) .

ومقاس المكتوب فى الصفحة ٩,٤ × ١٥,٦ سم

ومقاس المخطوط نفسه ١٣,٧ × ١٩,٧ سم

الرسالة الفقرية

[تابع ٢٢٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

ولـه رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم كثيراً

سألتني أنعم الله عليك به به (١) عن الفقر ، ولم يُفصح لسانك بما تصوّره جنانك . وفهمت منك أنك أردت الكلام عليه من كلّ الجهات . وقد أسعفتُك فى الإنباء عنه من حيث اللغة ، والفقه ، والعقل ، والطريق . فاقتنع بذلك مني حتى يخرج للفعل صَلاحُ نِسبَتك الصوفية وتمحيصها ، ويشيع عند الجميع إصلاح نسبتك الصدِّيقيّة وتصحيحها ، وتكون من أولاد الإفادة والاستفادة ، ومن أهل الزيادة بخرق العادة وثبوت العبادة . وحينئذ أجعل فيه تأليفاً مختصراً وجيزاً جامعاً مانعاً قريب التحصيل وصحيح التفصيل ، يتضمن غرضه الأقصى ومنفعته ومرتبته ونِسبَته ونحو التعليم المستعمل فيه ، وما يدلُّ عليه اسمه ، ومَنْ الواضع له وما غايته الفاعلة والمنفعلة وما ماهيته فى الكمال الأول والثانى ، وكيف يطلق مع العلم المضنون به على أهله باشتراك ، ومع الحكمة بترادف ، وفى أىّ وجه هو من أوجه التصوف ، وأين مرتبته فى حبل التحقيق ، وأين هو من العوالم التى يتكلم عليها فى السفر ، التي لم تسمع قط ولم ينطق بها إلاّ القرآن خاصة ولا سمعه وفهمه [٢٢٦] إلاّ خواص الخواص .

فنبدأ بذكر ما وعدتك به ، فنقول : الفَقْرُ فى اللغة يطلق على أنحاء . يقال : افتقر فلانٌ فهو فقير ، وتمسكن فهو مسكين ، وتَسَكَّن لغة . ويقال : فقير وقير ، توكيد للفقر ، ورجل مُعْدِم ومُبْقِع ومُمْلِق ومُفلِس — قال الله عز وجل من إملاق — ومُدْقِعٌ ومُخِلٌّ ومُبلط ومُلْقِح ومُخِفٌّ ومُقْتِر

(١) كذا مكررة في المخطوط .

ومُمْون ومُسَبْرت وسُبْروت ، ، رجل ذو فاقة وحاجة وخصاصة وخَلة ومُخْتل وفي حبوة وفي نكال من عيشه وفي شدة وَضُرّ يَرِقْ في شَظَف وَبَدٍ وجَهْد . وتقول: بَدّ الرجل يبد بَدادة ، وبَدَتْ حاله فهو باد ، وحد فهو محدود ، ومحارب ومحروم . وهذا كله للقليل الكسب ، وهو أخلق الكسب . وتربَت يداه ، إذا لزقت بالتراب من الحاجة . ورجل معصب ومجدع ، جدعه الفقر ؛ ومؤتض — قال رؤبة بن العجاج :

وهل يرى ذا حاجة مُؤتضا[1]

وساف مالُ الرجل إذا ذهب ، ورجل مسيف . قال الشاعر :

أفي نابين نالهما إسَافُ   تآلَتْ ضَلَّتى ليست تنام

وقد جرز الدهر ماله ، ورجل مجروز . وقد ضنك عيشه ضَنْكاً ، وضنوكا : إذا ضاق . ورجل وَبِدٍ ولَزِق بالصّلة والصَّلْت : الأرض ، والصلت المطر القليل وجمعه صلال[2] . ويقال قد أصرم الرجل فهو مُصْرِم ، إذا أعدم . والفقر ضد الغنى . وهذا الفقر من حيث اللغة قد رسمت لك منه ما فيه الكفاية ، فاحفظه وحافظ عليه .

القول على الفقر على حسب رأى الفقهاء : إعلم أنّ الفقهاء يتكلمون في الفقر من حيث الأحكام الشرعية ، ويُنزلون لازمه ومدلوله على مفهومه من اللغة ولا يتصرفون فيه بغير ذلك . والنبيه الفاضل منهم يُسَلم لأرباب الأحوال من الفقراء الفضلاء ولمن يتكلم فيه من مقام آخر أجل من الفقه . والجاهل الغبيُّ منهم ينكر ذلك ويتخطى رقاب الصدّيقين ويتدلى طعم شيء لم يذقه ، وكذا جميع من لم تحذقه العلوم ولا أدَّبته المعارف . ومنهم من يرى أن المسكين أشدُّ حاجةً من الفقير ، وهو

---

(١) ائتض إليه ائتضاضا : اضطر إليه ، وقد ورد رجز رؤبة في « لسان العرب » تحت مادة : أضض هكذا :

داينتُ أروى ، والديون تُقْضَى
فمطلت بعضاً ، وأدّت بعضا
وهي ترى ذا حاجة مؤتضّا

فصواب البيت الوارد في النص هو كما في « اللسان » .

(٢) كذا في الأصل ، ولم نجده في المعاجم ، وربما كان هنا تحريف .

مذهب مالك وأبي حنيفة وزُفر والحسن البصري . ومنهم من يرى أن الفقير أشدُّ حاجة من المسكين ، وهو مذهب الشافعي والنَّخَعيّ والزُّهْري . وقد حُكِيَ ذلك عن سفيان الثوري وعن عمرو بن دينار . واختلف أهلُ اللغة في ذلك . فحُكِي عن الأصمعيّ أنه قال مثل قول الشافعي وجميع من قال بقوله؛ وعن الفراء وثعلب مثل قول مالك وجميع من قال بقوله . وذكر ابن الأنباري[1] في « الزاهر » عن أعرابي أنه سئل : أفقير أنت أم مسكين ؟ فقال : لا ، بل مسكين . فنبه على حاجته بذكر المسكنة . وحكى عن الأصمعي أنه شكَّ في الفقير والمسكين هل هما بمعنى واحد ، أو هذا غير هذا ، وفي تغايرهما بحسب الأشد والأضعف والأقل والأكثر . فاستفهم عن ذلك كله بعضَ العرب وزوجُه حاضرة [٢٢٧] فقال له الأعرابي : قال الله عز وجل « ويطعمون الطعام على حُبه مسكيناً ويتيما وأسيراً » فقدم المسكين على اليتيم والأسير ولم يذكر الفقير . فقالت زوجه : بل الكل فقراء ، والمسكين فقير الفقراء . وهذا الفقر من حيث الفقه قد تخلص مختصراً فاحفظه وحافظ عليه ، ولولا خوف التطويل والاحتياط على فهمك وانحيازك للسفر كنتُ أكتب لك في معاملة الفقير والفقراء مالا بد منه شرعاً وما يجب على الفقير ، وما يحرم عليه ، وكيف يتصرف في طريقه بالأحكام الشرعية على أتمِّ ماينبغي . وقد يمكن ذلك في وقت آخر بحول الله تعالى .

القول على الفقر من حيث المجرى الصناعي والنظر في ماهيته مجردة بحذف امتحان الألفاظ الدالة ومطابقتها وتخليصها وتلخيصها وتحريرها بالجملة : ونطلق فيه ألفاظاً مجملة غير مفسَّرة ، ومهملة غير مخصصة لأجل ضيق الوقت من جهتك وجهته وجهة أهله ، فنقول: الفقر فَقْدُ ماإليه يحتاج . رَسْمٌ آخر : الفقر والعُدْم من الأسماء المترادفة . رسم آخر : الفقر ليس محضاً[2] ، والغنى ليس بإضافة ،

---

(١) كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد بن الأنباري . ولد في ربيع الثاني ٥١٣ هـ / يوليو سنة ١١١٩ في الأنبار ، وتوفي في ٣ شعبان سنة ٥٧٧ هـ / ١٩ /١١٨١/١٢ . راجع عنه ابن خلكان برقم ٣٤٢ ؛ «فوات الوفيات» جـ ١ ص٢٦٢ . وله « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » و « أسرار العربية » و « الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين » و « لمع الأدلة في أصول النحو » .

وكتاب « الزاهر » هذا يظهر أنه مفقود .

(٢) ص : محض .

وبالعكس من حيث تمرتهما . رسم آخر : الفقر سلب والغنى إيجاب وبالعكس من حيث لواحقهما . رسم آخر : الفقر ضد الملكة ؛ وبالعكس من حيث الشرط والتضمن إذا نظر فى أسباب الكمالات الأُوَل والثوانى . رسم آخر : الفقر ماهية الحادث . رسم آخر : الفقر آنية الإنصاف عند الغلط بين الممكن الوجود والواجب الوجود . رسم آخر : الفقر فى الوجود المقيَّد نفىُ شىء عن شىء هو له ، وإثبات شىء لشىء ليس هو له . رسم آخر : الفقر من الأشياء التى لا يوصف الحق بالقدرة عليها ، لأن الحق عز وجل هو الغنىُّ بالذات وحده ، وغيره فقيرٌ بالذات . ومن المحال أن يفعل المحال أو ينفعل أو تنفعل الحقائق ويدخل ما لا يمكن فى حقيقة ما يمكن ويماثله ، وإنما القدرة تتصرف فى الفقر الإضافى الذى جرت به العادة — فافهم ! . رسم آخر : الفقر نسبة سَنِيَّة ونسبة سُنِّية . رسم آخر : الفقر حذف الإضافة المساوية وغير المساوية . رسم آخر . الفقر صرم المجاز وسرم الانصرام واقتران تعلق الأول والآخر والظاهر والباطن بالأول من الفقير والآخر والظاهر والباطن وما يلزم عنه ومنه وبه ، وجملة السكون فى المفارق التالى وغير المفارق التالى ، والرئيس والمرءوس من الممكنات — فافهم . واعلم أن الفقر به تتعلق الإرادة ، وفى ماهيته العامة والخاصة تتصرف القدرة وهو الممكن بوجه ما ، إذ الإرادة متعلقة ببعض المعلومات .

وكذلك القدرة ، فإن الغَنِى المطلق الغِنَى لا يفعل فى ذاته ولا ينفعل لأحدٍ ولا يمكن ذلك فيه عزَّ وجَلَّ ، بل هو الفاعل على [٢٢٨] الإطلاق فى غيره على الإطلاق . ومَنْ حَقَّق هذا عَلِم أن الفقر معقول الملك والملكوت المضاف والحضرة المنفعلة ، كما أن الغنى القائم بنفسه الواجب الوجود هو الملك الثابت الواحد بالذات من كل الجهات ، وحضرته هى الحضرة الفاعلة مِنْ كل الجهات متنزه العارفين . والعالم كله فقير بما فيه من الجسمانى والروحانى . فمن كان بالفقر المذكور فقيراً أو بالغنى المذكور غنياً ، كان فى الفقر المذكور غنياً . ولعلك يا هذا تقول : العَــدَم لا يفعل ولا ينفعل ولا يشار إليه وهو بالجملة غير ثابت لا يدركه الحسُّ ولا يتطرق إليه الوهم ولا يدلُّ عليه الدليل ، وأنت قد أطلقته على الفقر وعلى العالم بأسره ونحن نشاهده وجميعنا منه وفيه وهو هذا المشار إليه والمُخْبَرُ عنه وبه ومنه . وإن أردت بالفقر فقر الإضافة والاحتياج إلى الغنى الحق فهذا ظاهر ومعلوم عند الجميع ، والبيان عن المعلوم ضرب من الجهل . وإن أردت بقولك العدم المحض ما لا يمكن

وقوعه ، فأنت جاحدُ الضرورة أو مموِّهٌ أو مباهِتٌ أو مُمَخرق . فإن قلت ذلك وقدَّر أنك تقوله في نفسك أو في محشرك بين معشرك — فاسمع جوابك بالقوة ومخاطبتك بالفعل من حيث المضمار والتقدير في جملة هذا التقييد وأصِخْ الآن بسَمْع قلبك إلى ما أشير إليك به ولعلك أن تجد منه هديا يلقيك على جادّة الطريق . وشرطي عليك أن لا يقف عليه إلا مَنْ هو من خواص خواص الخواص وأن تكف[1] عن السؤال فيه بالمشافهة ، ولا تطلب مني مزيد بيان لأن المجال ضيّق والتكلم بالألفاظ على أمر هو من الأمور التي ليست من جنس ما يكتسب وهو من الغرابة بحيث لا يفهمه إلا السعداء الأخيار ، والكلام بما ليس من شأنه أن يلفظ به خبر وكأني بمن يقف عليه من الجهلة الخفافيش الذين تظلم الشمس والكواكب والأنوار الطبيعية وغير الطبيعية في أعينهم داخل الذهن وخارج الذهن — يتحرك في ميدان سُخفِه ويُظهر محاربة من يحيط ويقهره بالجملة ويتحرك في سلسلة جنونه . ونقول لقد أفرطت في تحقيقك وتدقيقك ، وعلَّلتَ وحلَّلت وركبت ، وقبضت وأرسلت ، ودفعت وجذبت ، وخصَّصْت وأهمَلْتَ ، وفسَّرْتَ وأجملت حتى انخلعت عن غريزة العقلاء ورفضت حكم المعقول ، فإن من أحكام العقل أن الشيء إمّا واحدٌ وإمّا كثيرٌ ، والمعلوم إما معدوم وإما موجود . فليتئدْ في غُلَوائه وليكُفَّ من غرب لسانه ، وليتهم نفسه وليعتبر في العادة الحسيسة والشأن الخلف والعالم المحسوس الذي هو بين أطباقه بنحو ما اعتبره المتكلم المذكور حيث كان يتوجه إلى قصده بمقصوده ثم إلى مقصوده خاصةً ثم إلى بُدِه بحذف الوسائط كلها بوجه ما فيراه على بُعْد ثم بتوجه إليه بقصد آخر وتوجُّهٍ [٢٢٩] أكمل فيراه على قرب بالإضافة إلى الأول ولا لشيء في نفسه . ثم وصل ثم اتصل ثم كان حيث لا مكان ولا زمان . ثم خرج عن السكون وعن ذلّه ، ثم انفصل وعلل انفصاله ، ثم اتصل وحقق اتصاله ، ثم شاهد ، ثم فني ، ثم ثبت ، ثم وقف ، ثم سلب لاسين ثم حصل بلواحقه على قبيل قاب قوسين ، ثم عرج به إلى آنيته الجامعة للآنيات ، ثم صرف على هُويته الداخلة في سائر الهويات ، ثم استخلف ، ثم ورث ، ثم حكم ، ثم زود إلى أكثر ، ثم بلغ إلى أكبر وأكبر من أن يقال له أكبر ، ثم لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم عرف البعض ، ثم أنشد في حاله بلسان حاله عقيب ترحاله :

---

(١) س : وأنت كف .

ألا كلُّ شيء ما خلاَ اللهَ باطلُ

ثم التزم الأدب ووكل الكل على الكل ، ثم قطع المسبب وأحال البعض على البعض ، ثم جرد السبب وجمع الفرع على الأصل ، ثم فرق المجتمع ، ثم أخلص بعد ألف إخلاص جاز عليه وقصد به إليه وأسلم وآمن بأحكام لم يسمعها قط ولا خطرت على قلبه ولا أبصرها ببصره ولا ببصيرته ودفع للحق ما يجب له ويجوز عليه و يستحيل فى حقه ، وقبض منه سلامة الخلاص وحكمة القصاص وأسباب السلامة وسير السلام وسَلم ، وسُلم عليه ، وعَلم وعُلم به وإليه ، وقطع عوالم الذات المجردة ومقامات النفوس المركبة المجددة ، وشرع فى الرحلة إلى الحضرة المشار إليها عند الخاصة ، ودخل فى عباد الله الصالحين ، وجعل نهاية نهاية لأقطاب بداية بداية بداية — فافهم !

واعلم أن جميع مادُوِّن فى التصوُف والحكمة وغير ذلك مما يجرُ إلى هذا الشان وجميع ما سمعت من العلوم المضنون بها والحكمة الإشراقية وسر الخلافة ونتيجة النتائج —كل ذلك فى الوجه الأول من وجوه التصوف .

والتصوف تسعة أوجه ، وبعدها حبل التحقيق . و بعد الحبل نبدأ بعالم السفَر ، و بعد السفر نقرع باب التحقيق والنور المبين ، والهرامسة خاصة عَلموه ، والكتب المنزّلة أفادتهم وأما الفلاسفة بأجمعهم ورؤسائهم من المشّائين ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملّة الإسلام : ثامسطيوس والإسكندر الأفرودسى[1] وفرفريوس القبرسى وأرسطاليس[2] الصقلى وأتباعه من ملّة الإسلام مثل الفارابى وابن سينا وابن باجه المذكور فى آخر « القلائد » والقاضى ابن رشد فى بعض أمره ، والسهْرَوَرْدى مؤلف « حكمة الإشراق » والتلقيحات[3] والنُبَذ فى أكثره ، والغزالى بوجه ما ، وابن خطيب الرىّ[4] فى بعض صنائعه ، وجميع النُبَهاء فإنهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه ، ولأن

---

(١) ص : والأفرودسى .
(٢) كذا وهو خطأ قطعاً ، ولعل المقصود أنباذقليس فهو من أغريغنتم بصقلية .
(٣) كذا وصوابه : التلويحات .
(٤) أى ابن الخطيب فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وكان أبوه خطيباً بليغاً فى الرى ، ولذلك سمى ابنه فخر الدين بهذا الاسم : ابن خطيب الرى ، وهذا الاسم الأخير نجده فى ابن أبى أصيبعة : « عيون الأنباء » ج ٢ ص ٢٣ س ٧ عنواناً للفصل الذى عقده له .

علومهم وصنائعهم دون ذلك كله والله على مانقول وكيل . والصوفية كذلك ، إلا السلف الصالح أعنى صحابة سيد السادات محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم عَلِمُوه ، ومُعَلِّمهم هو [٢٣٠] العظيم الذى إذا نظر العارف فى شأنه وتتبعه وتصفحه وتأمله على ما ينبغى ويجمُل به ويصحُ فى حقه عَلِم أنّ أهل الحق كلَّهم نقطةٌ من ذكره وذرة مِنْ قفره .

وهأنا أذكر لك فى العَدَم والمعدومات والإعدام مافيه الكفاية وبعض الجواب الذى وعدتك به فتصفحه ، والله يُخَلِّصك ويخصصك ويجعلك تفعل بإكسير سِرِّك الإنسانى الذى إذا جعلته فى بوط[1] التوجه والفكر على قلب الشرير داخل الذهن وخارجه ، وسبكته بنار العلم والذكر — انقلب فى الحين إلى ضِدّه واتصف المحلُّ به وظفر بجده وجهده بمنّه وكرمه فنقول وبالله التوفيق : العدم يُطلق على أنواع كثيرة،[2] أحدُها أن يَعدَم النوعُ ما < ليس > فى طبعه أن يوجد له ، مثل عدم النبات الحسَّ . والثانى أن يعدم الشىء ماشأنه أن يوجد له فى طبعه أو شأن جنسه مثل الإنسان الأعمى فإنه عدم من البصر ما فى طبعه أن يوجد له وفى طبع نوعه أو جنسه . أو يَعدَمَ ما شأنه أن يوجد له فى طبع جنسه لا فى طبعه مثل الخفاش ، فإنه عَدِمَ من البصر ما فى طبع جنسه الذى هو الحيوان أن يوجد له فى الوقت . والذى يعدم ما فى طبعه أن يوجد له نوعان : أحدهما أن يَعْدَم الذى شأنه أن يوجد له مثل أن يعدَم الطفلُ البصرَ خارج الرحم أو جرو الكلب فى الوقت الذى ينتح[3] فيه عينيه . والنوع الثانى أن يعدم ما فى طبعه أن يوجد له ، لكن لا فى الوقت الذى شانه أن يوجد له ، مثل عدم الطفل البصر فى الرحم ، والأسنانَ فى الشهر الأول من مولده . والعدم بالجملة إما أن يُنْسَب إلى شىء ما فى ذاته إذا كان فى طبعه ذلك الشىء الذى عـدم ، وإما أن ينسب الشىء بالإضافة إلى شىء آخر : إما إلى زمان ، وإما إلى جنسه ، وإما إلى موجود آخر أىٍّ موجود اتفق مما يوجد له ذلك الشىء ، وكلما انتزع من الشىء على جهة القهر فقد عَدِم ما فى طبعه أن يوجد له .

---

(١) بوط : بودقة .

(٢) توجد هذه التقسيمات فى « بدّ العارف » ورقة ٣٨٤ .

(٣) كذا ولعل اصله : يفقح — وعلى كل حال فالمعنى واحد .

وليست المعاني التي يدل عليها حرف السلب على عدد المعاني التي تدل عليها أسماء الأعدام ولا المعدومات ، فإنه يقال: «لامساويا» لماليس من شأنه أن يقبل الأصغر والأكبر ، وكذلك يقال : لا لون فيما ليس من شأنه أن يقبل لوناً ألبتة مثل قولنا في النقطة إنها لا لون لها . وهذه الأعدام ليس لها أسماء لا معدومة ولا عدمية، فافهم. والمعدوم هو المنتفي ، وهذا صحيح لأنه يتميز على الموجود . وقد يقال: المعدوم ماليس بشيء — وهذا يَطَّرِدُ وَيَنْعَكِسُ، لأنّ ما ليس بشيء فهو معدوم ، وما هو شيء فليس بمعدوم . فقد صَحَّ رَسْمُ المعدوم . ويقال إن المعدوم ماليس بموجود ، وهذا أيضاً صحيح ، لأن كل ما ليس بموجود فهو معدوم ، وما هو موجود [٢٣١] ليس بمعدوم . وهذه الرسوم التي ذكرتها لك لا تصح على رأي المعتزلة لأنّ عندهم أن العدم شيء ، فوصفوا المعدوم بأنه شيء ، وهذا خروج عن الملة وقولٌ بقدم العالم .

والمعدومات كلها على خمسة أضرب : معدوم لم يوجد ويستحيل وجوده مثل شريك لله تعالى وخالق كلامه وسائر صفاته . هذا معدوم لا يصح وجوده ، وهكذا اجتماع الضدين في محلٍّ واحد وكون الشيء في مكانين في وقت واحد . والثاني : معدوم ، وقد صح وجوده وانقضى ، وهو كل ما كان في العالم من يوم ابتدئ إلى يومنا هذا وقد انقضى ، من تصرفات الخلق . والثالث : معدوم لم يوجد ويصحُّ وجوده ، ولا يُدْرى هل يوجد أم لا ، مثل مقدورات الله تعالى التي يصحُّ تعلُّق القدرة بها مثل خلق عالم ثان وثالث وغير ذلك مما يصح تعلُّق القدرة به . والرابع : معدوم يصح وجوده ولا يوجد ، مثل رد أهل النار وأهل المعاد إلى دار الدنيا . ولهذا قال سبحانه « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه »[1] ولكنهم لا يُرَدُّون ، فأخبر سبحانه أنه جائزٌ رَدُّهم . والخامس : معدوم لم يوجد و يصحّ وجوده ويوجد قطعاً ، مثل الحشر والنشر والقيامة والحساب والثواب والعقاب وما جرى مجرى ذلك . وهذا التقسيم الذي رسمتُه لك في أنواع المعدومات لا يصحّ أكثره عند الفلاسفة إلاّ بوجه ما ونظر آخر مفارق لهذا . واسألني عنه مشافهة نخبرك عنه إن شاء الله تعالى .

والإعدام ليس بمعنى ، ولذلك لا يصح أن يتعلق بالفاعل ، ولا يصح أن يقال القديم سبحانه

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٢٨ .

خالق فيما يزال قبل خلق العالم ، ولا تارك له . وقالت المعتزلة : الإعدام معنى يخلقه الله لا فى مكان فيفنى به العالم . وهذا غلط ، لأن الإعدام هو أن لا يفعل الفاعلُ شيئاً ، وذلك نفىٌ لا يتضمن وجود معنى ، ولأن الإعدام لو كان معنى لكان يجب ثبوته مع الله فى الأزل ، وذلك محال . وإذا استحال وجوده فيما لم يزل استحال وجوده فيما يزال . ولا يَصحُّ قَوْلُ مَنْ قال إن الإعدام يتعلق بالفاعل ، لأن ما ليس بمعنى محدَث لايتعلق بالفاعل . وهذا العدم — أعزَّك الله — وأنواع المعدومات والإعدام قد رسمته لك ، وإن كان فى بعض ذلك تجاوزٌ ما ، ما حملنى عليه إلاّ ضرورة الوقت . فقِسْ الكلام الأول بالثانى وفُكَّ مُعَمّى المتقدم بالمتأخر وصَرِّفه تصريف المثانى وقل : المعلول الذى يعرض له شيئان مثل قولنا إن الزامر بالمزمار هو بعينه الذى يخيط إذا عرض أن كان الزامر بالمزمار خيّاطا — يلحق بكلمة الْهوَ هُوَ العَرضية ، وكذلك يقال فى الشيئين اللذين يعرض أحدهما للآخر مثل الطبيب والإنسان ، فإن الإنسان عَرَض له الطبيب أعنى أن الإنسان المطلق عَرَض له أن كان الإنسانَ الطبيب ، والإنسانُ الطبيب عَرَض أن كان الإنسانَ المطلق ، ولذلك ما نقول إن الإنسان المطلق هو بعينه [٢٣٢] الإنسان الطبيب وإن الإنسان الطبيب هو بعينه الإنسان المطلق . وإن كان ذلك كذلك لأن الإنسانية والطبيبية وجدتا لشىء واحد بعينه وهو المشار إليه . فلماَصدق على جالينوس أنه هو بعينه إنسان وإنسان طبيب ، صدق على الشبيه بذلك أن الإنسان المطلق هو الإنسان الطبيب ، وأن الإنسان الطبيب هو بعينه الإنسان المطلق . ولذلك إذا دخل على هذا القول السُّورُ الكُلّى لم يصدق عليه أعنى أن كل إنسان هو بعينه كل إنسان طبيب ، وكل إنسان طبيب هو بعينه إنسان ، لأن الهو هو بالعَرَض إنما يُوجد أولا بالتحقيق للأمور الجزئيات ، ثم يصدق على الأمور الكلية من حيث تشبهها بالجزئيات ، أعنى إذا أُخذ المعنى الكلى كأنه مشارٌ إليه . وأما الهو هو الذى هو بالذات فيقال على جميع ما يقال عليه الواحد ، فإن الأشياء التى عُنصرها واحد إما بالعدد وإما بالصورة يقال فيها إنما هى ، وكذلك الأشياء التى هى واحدة بالصُّورة فالهو هو بَيِّنٌ من أمره أنه إنما يقال على الأشياء التى هى واحدة من جهة واثنان من جهة ، فاعلم ذلك واختبر به ما تقدم واعتبر شأنك كله وجميعَ ما رسمته لك وانظر فى الأمور المقوِّمة وفى الأمور المتمِّمة للأشياء ثم انْسُبه للهو هو وجَرِّد المفارق منك للمادة وخَلِّص هويته من حيث هو

مفارق ، ثم جرده من عـلامته وحقق ماهيته فى الواجب الوجود ، واحمـل عليه الهو هو ، ثم فَـكِّر فى المحرّك الذى يحرك ولا يتحرك ، وفى المحرك الذى يحرك بجهة ويحرك بأخرى ، وفى الشيء الذى يحرك ولا يحرك غيره بوجه ولا يمكن ذلك فيه ، وفى الذى يلزم عند كل شيء ويظهر فيه ، وفى الذى يلزم مع كل شيء ويظهر فيه ، فافهم . وفـكر فى الذاتيات العامة والخاصة وفـكر فى الشيء الذى هويته غير آنيته وفى الشيء الذى آنيته وهُويته واحدة ، وفـكِّر فى الذى يفعل فى معلوله بذاته وهو أقرب المعلول من علته القريبة له ، وفـكر فى الذى يلزم فى كلّ شيء ويظهر فيه ، وفى الذى يلزم عند كل شيء ويظهر فيه ، وفى الذى يلزم بعد كل شيء ويظهر فيه ، وفى الذى يلزم مع كل شيء ويظهر فيه ، وفى الذى يلزم قبل كل شيء ويظهر فيه من كل الجهات ، وفى الذى هو بُدُّ كل شيء ويظهر فى ماهيته ، وفى الذى هو ماهية كل شيء ويظهر فى كل ماهية ، وفى الذى هو ولا شيء إلاّ هو ولا ماهية إلا ماهيته ولا آنية إلاّ آنيته — تجده وحده ، وتجد الوحدة غير زائدة على ذاته ووجوده مع الموجودات الممكنة مثل الـكلام مع المتـكلم ومن المتـكلم إذا قطعه انقطع مع أنه لا حقيقة له فى نفسه إلاّ بالموضوع الذى هو فيه وعليه ، وتجده إذا نظر إلى ذاته وجد كل شيء عنده بالقوة [٢٣٣] والفعل . وقسِّم الوجود إلى مطلق ومقيد ومقدّر ، والتزم فى ذلك كلّه الأدب تَسْعَدْ وتَصْعَد وتَنَلْ(١) الـكمالات وتَـكُنْ بحيث لا يمكن أن يزاد فيها ولا ينقص منك ، ولا يحتاج إلى غيرك الممكن منك ، ولا يبقى لك توجه إلاّ إلى بُدّك الحق الواحد الحق وحده ، ولا يستطيع أحدٌ أن يجعل فيك نقصاً ولا تتركه أنت إن شئت فى غيرك ، واخدمْ هويتك الثابتة اللاحقة المسكنة بالهو هو بالوجه الذى ذكرته لك ، وبالنقر المذكور بحسب الاصطلاح المذكور — تظفرْ بالعزة والجلال وتـكون على عرش كمالك وربُّك عنك راض ، ويحصل فى كسبك خمس خواص : أوّلُها : يظهر لك فى اليقظة ما كان يظهر لك فى النوم قبل ذلك ، وثانيها : تعلم بجوهرك الذى خرج قبل ذلك الفعل ما كنت تعلمه بالنظر والبحث والرويّة والفـكر ، وثالثها : تقدر على بعض الممكنات بوجه ما وتتصرف فيها بالشيء الذى تسميه عامة الصوفية همّة ، ورابعها: ترد عليك مواهب لا من جنس ما أنت عليه ،

---

(١) ص : تنال ... تـكون .

وخامسها : تخبر بأمور سنية ثابتة فى النظام القديم تكشفها وتسمها حضرة بالضرورة — فافهم . وهذا الفقر من حيث العقل والمجرى الصناعى وغيره قد تخلص الكلام عليه وتبيّن لك كيف ينعكس الهو هو رأساً برأس ، فافهم . وإن كنت قد رمزته لك وخلطت لك فى مدلوله وحذفتُ منه ما هو منه وألحقت به ما ليس منه ، فلم تخله من خير محض ونعمة وافية . ومن أراد المقصود منكم فعليه بكتاب « بُد العارف » ، فهو الكتاب الذى بَثَثْتُ فيه مالم يُبَثَّ فى كتاب قط ، وفيه هو هذا الشأنُ وغيرُه وجميعُ ما يخلص السعيد المسترشد فى أقرب وقت بالصنائع العلمية والعملية وبث الأمور السنية . فاطلبه من إخوانك واحفظه وحافظ عليه .

القول على الفقر من حيث الطريق ، وهو آخر الأقسام وهو مرادك : وهو الفقر الذى يشرحه عرْفُ الفقراء فى زماننا هذا ، ومقصودنا شرحه وَبثُّه على أكمل ما يمكن بحول الله تعالى فنبدأ فنقول : الفقر هو الصبر على المكروه ، وشكر المنعم الحكيم ، والفتوّة المحضة ، ورفع الأذى كله ، وفعل ما يجب كما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب ، وتتفق دعوته التى داخل الذهن مع التى خارج الذهن ، ويطلع بالتركيب إلى بُدّه ، ويهبط بالتحليل إليه ، ويدور بجملته عليه ، ويجعل الفقر الذى اتصف به نفسه وقصده ومقصوده دائرة وهمية ، ويجمع الوجود المقيد كله فى نقطتها والمطلق فى محيطها وينظر إلى الخطوط الخارجة من النقطة المذكورة إلى المحيط المذكور فى خلده ويراها متساوية وينسبها . وينظر إليها ثانية من المحيط ويحذف الوسائط ويبصر الواسع فى الضيق وينظر الأشياء فى نفسه ثم يقطع حبل النظر والمنظور فيه من حيث المجاز والشفع ، ويصل حبل [٢٣٤] النظر والمنظور فيه من حيث الحقيقة والوَتْر ، ويصل مع ذلك النقطة المتقدمة بالمحيط ويجعلها جزء ماهيتها ، ثم يحقق الأمر ثانية ويجعلها ماهية واحدة ويقول : «ليس إلاّ الأيس[1] فقط » و «هو هو ». ويتصفح قوله ويتأول ما يلزم عنه ، ويقطع الإشارة كما قطع العبارة ، ويسكن فى شأنه ويهمل مُهمله ومخصصه من كل الجهات ويقف فى ثلاثة مواطن ويموت ويحيى فى خمسة مواطن ويبعث من شأنه ويقذف فى موضوع سرّه المشهور بالبرهان أن آنية الله هى أول الآنيات وآخر الهُويات ، وظاهر الكائنات وباطن الأبديات . ويحدّث فى نفسه بالإسلام فيخبر عنه على غير ما كان يخبر ، ويحدث قبل ذلك ويشهد للشاهد والمشهود والشهادة بشهادة الإنصاف ، ويعكس الضمير الأول على المخاطب

---

(١) الأيس = الوجود ، وهو فى مقابل : الليس = اللاوجود .

الثانى، ويتوب من اللواحق ومن الحروف التى تجرُّ إلى الإضافة ويشعر بها ويقول: كل من فى العالم بأسره لا يفعل شيئاً والله هو الفاعل خاصةً ثم يُمَحِّص مدلول كلامه ويخلِّص جميع ما ارتهن فيه وينطق بالحق ويحذف المجاز وجميعَ ما يجرُّ إليه ويلزم منه وعنه، ويقول: العالم ميت بجميع ما فيه من مُفارق للمادة وغير مفارق لها، فلاحيَّ على الحقيقة إلاّ الله. ثم يَتَفَقَّهُ فى الإطلاقات باقترانها مع المضافات وارتباط بعضها ببعض ويقول: ما خالف الوحــدة المطلقة والوجود الواجب هو عدم من جهة ووجود من أخرى، فلا موجود على الإطلاق ولا واحد على الحقيقة إلا الله إلا الحق إلا الكل إلا الهو هو إلا المنسوب إليه إلا الجامع إلا الأيس إلاّ الأصل إلا الواحد إلا الأصح أصح لا صح ص ح حم صَمَد حَقّ ؛ لا تتهمه ولا تتوهمه. وكذلك يفعل فى كل نسبة متجانسة ثم يعلل جميع ما أطلقه، ويثبت ما ثبت بالبرهان وينتفى ما انتفى بالبرهان ويعلم كيف انصرام التوجه، وإلى أين يصل المتوجه وبأى وجه يعدم، وينسب مهمل الشريعة إلى مخصص الحقيقة ومهمل الحقيقة إلى مخصص الشريعة، ويقول: من صحا وصحح أسراره محا الله إصراره.

حكمة ثانية: ويقال الفقر هو الذى لا يظهر به على الفقير إلا لسان مخزون[1]، وقلب محزون، وفعل موزون، وفكرة تجول فيما هو كائن ومكون.

حكمة ثالثة: ويقال الفقر هو الخلافة الباطنة، كما أن الملك المشار إليه هو الخلافة الظاهرة.

حكمة رابعة: ويقال الفقر هو نوع من أنواع التصوف، وهو خيرها. ورُبَّ نوعٍ أفضل من جنسه، كالإنسان مع الحيوان.

حكمة خامسة: ويقال الفقر هو الذى تُرسم بدايته بالإرادة والعبادة والإســلام وعالم الشَّهادة والخروج من الشّر المحض إلى الخير المشترك والمجاهدة والطريق المقيد والتوكل والتسليم والتفويض والتوبة الأولى والخلوة المشوقة والدهليز الجامع [٢٣٥] والأربعينيات المحركة المهيِّئة. ويرسم سلوكه بالرِّضىٰ والإيمان والعبودية وعالم الملكوت والخروج من الخير المقيد إلى الخير المطلق والمكابدة والسفر فى الطريق المذكور قبلُ فى رسم البداية، والتوبة الثانية، والفكر التابع للسكينة، والذكر المحرك للتخلى والتحلى والتجلى، وبُعد الأهل والوطن، وحذف العلائق بالجملة، والتزام السوابع

---

(١) خزن اللسان: منعه الكلام.

الـكاشفة للمقصود ، ويرسم وصوله بالعبودية والمشاهدة وعالم الجبروت ومقام الإحسان والخروج من الخير المحض المقيد للـكل بالمقصود والاشتراك ، وصرف المحو إلى الصحو والتوبة الثالثة المصروفة فى السبعين مقاماً الفاصلة بالتخلق بالأسمـاء الحسنى وتدبير العالم الأول بالصنائع العلمية والعملية وبالاسم المشترك — فافهم !

حكمة سادسة : ويقال : الفقرُ هو الذى يجعل الفقير يجعل الشرع فى يمينه والعقل فى شماله وبينهما العلم ، ويحرك الـكل بالأدب والهمّة والحقيقة ، ثم يدفعها بالحقيقة مفردة، ثم يجذبها بالشريعة مركبة ، ثم يستغفر الله ويقطع الموصول ويصل المقطوع حتى يثبت مالا يمكن قطعه ولا اتصاله ، ولا هو من هذا القبيل — فافهم .

حكمة سابعة : ويقال : الفقرُ هو التجرُّد عن المواد والاتصال بالذوات المجردة المرسوم عليها فى موضوعات الشرائع والمعبَّر عنها فى اصطلاحهم: بالملائـكة وعالم الأمر ، ثم التجرُّد عنها والاتصال بالحـكيم العليم الذى أمر ؛ الحـكيم العليم المبدع الأول الذى أمر الحـكيم العليم الثانى ، ثم التجرد عن الجملة والاتصال بالحـكمة والـكلمة ، ثم التجرد عنهـا والاتصال بالحضرة السَّنية التى يظهر فيها الحـكيم العليم الأول المذكور أنه من عباد الله ، والله أعز من ذلك وهو عزيز لأنه اعتز على العلماء به قبل هـذه التى ليست من جنس ما يعلمه الفيلسوف ولا فهمه بعض الصوفية . وهو علم التحقيق الغريب الذى لم يخبر قط جميع من دوّن الدواوين كلها عنه ، ولا هو من قبيل السَّهْو والعويص ولا فى قوة البطىء مع الحريص . فاسمع ما أقوله لك ولا تلتفت إلى ما تخبط فيه شيعة أرسطو ، وكونهم يقولون : الحق عز وجل هو المحرِّك للجرم الأقصى بذاته . والمتأخرون منهم يقول : بل هو الذى فطر الأمر وهو الذى أمر بتحريكها ، وهو ثالث رتبة فوق محرك الأطلس . ومنهم من قال : هو ثانى رتبة ، فانظر ذلك فى آخر كتاب « المشـكاة » للغزالى وفى كلام ابن سينا والفارابى . وتحـيَّرَ ابنُ رشد فى ذلك ثم اختار قول الحـكيم ، وقال به وزال عن الغير . وتخبط فى ذلك ابنُ طُفَيْل وانفصل عنه بهَذَيانٍ لافائدة فيه للحكيم النبيه . وكذلك مذهب أهل الرواق وشيعة فيثاغورس ومن قال بالمُثُل[1] المعلقة والحياة السارية فى الموجودات ، والذى قال بالانتقال وبالأشياء المؤلفة من الفانى والباقى ، وكذلك [٢٣٦] جميع ما تسمع من بعض الصوفية الذين يقولون : مقام الإسلام والإيمان

(١) راجع كتاب : « المثل العقلية الافلاطونية » ، الذى نشرناه ، القاهرة سنة ١٩٤٧ . والقائل بالمثل المعلقة : السهروردى المقتول وأصحابه .

والإحسان والحق والمطلع والأفعال والصفات والذات ، والذى يقول : الأسماء والتخلق والأسماء التى تتصف ويتصف بها والاسم الفعال والأسماء المتحابة والاسم الذى يتصف — فذلك كله منه ما يصح بوجه ما ، ومنه ما لا يصح . وكذلك قائل : « والحق وراء ذلك كله » فإنه أراد المعلوم المضاف . وبالجملة ، ما عرفوا الله حق معرفته ولا علموه على ما ينبغى له ، فعليك بالرجال .

واعلم أن العلم الإلهى منه ما يُتَعَلَّم ، ومنه ما يورث ، ومنه ما يُتلقى من صدور الرجال ، ومنه ما يوجد حالاً وذوقاً ، ومنه ما يظفر به فى الجميع . فقُلْ : أعوذ بالمقصود المعلوم عند معلمى حيث معلمى : مِنْ توقُّف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية خاصة ، فإن غيرها من سائر العلوم أحكمها ولم يغلط فيها إلا فى القليل ، ومِنْ شكوك المشائين وحيرة أبى نصر[1] وتمويه ابن سينا فى بعض الأمور واضطراب الغزالى وضعفه وتردد ابن الصائغ وتنويع ابن رشد « وتلويحات» السهروردى مؤلف « حكمة الإشراق » والتلقيحات بمذهب أفلاطون ، وتشويش ابن خطيب الرى، وتخليط الأقدمين ، ورموز جعفر[2] المحتملة معرج التصوف مع الحكمة من حيث أتباعه ، ومن شطحات بعض رجال « الرسالة » الذين نطقوا من أحوالهم الأول ولم تحذقهم العلوم ولا الصنائع العلميـة ولا حققوا المبادى وجاوزوا المقدار بأقوالهم وأحوالهم بوجه ما يسلمه بعض الناس وينكره الأكثر ومن تصريف ابن مَسَرَّة[3] الجبلى فى الحروف والإطلاقات فى النطق اللاحق للأشياء وإضافته الآيات وفهم أقسام

---

(١) أى أبى نصر الفارابى .

(٢) جعفر الصادق المنسوبة إليه كتب الصنعة والسحر .

(٣) رحل أبوه إلى المشرق مع أخيه فى سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م ودرس الكلام عند معتزلة البصرة وعاد إلى بلاده . ولكنه حينما رأى اضطهاد أصحابه فى الأندلس عاد إلى المشرق وتوفى فى مكة سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩م . أما ابنه محمد بن عبدالله بن مسرة ، فقد درس على محمد بن الوضاح المالكى والخشنى المالكى ، واعتزل فى منطقة نائية فى جبل شارات قرطبة . وأنشأ مذهبا فى الفلسفة أقامه على مذهب أنباذقليس، فأثار شكوك الفقهاء . وكتب أحمد بن خالد الحبّاب (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م) صحيفة ضده فلقى الاضطهاد ، لهذا ارتحل إلى مكة حاجًّا . فلما تولى عبدالرحمن الثالث الإمارة (سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢ م) عاد إلى الأندلس ، واستأنف التدريس فى عزلته تلك . ولكن فقهاء المالكية ما لبثوا أن اتهموه، وأحرقوا كتبه علنا ، وتوفى فى ٣ شوال سنة ٣١٩ هـ (٢٠/١٠/٩٣١ م) .

بعض السور والإقدام على الأحكام واقتران بعض القرآن ببعض ؛ ومن تهذيب بعض الأسماء والصفات والكون والوجود والموجود والشفع والوتر والتوحيد على مذهب ابن قسيّ[١] صاحب « خلع النعلين » ، ومن الأجناس الجامعة المتقدمة والتأليف والمذاهب والذهاب والاعتبار المقدر المصرف في جملة الأسماء ومدلولها وفي الصفات الدائرة التي تدور من مدلولها على صيغها ، وبالعكس على مذهب ابن برجان ، ومن الوصول المنسوب والوقوف عنده بحسب متعلق الأسماء والصفات والمقامات والأرواح والتلوين والتمكين والمحبة والوجود والواحد والوحدة والإضافة المحذوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة بحسب « المواقف » المنسوبة[٢] إلى النفّرى المعلم الناقل عن المولّد على زعمه وغيره، فجميع ذلك كله لا خلاص فيه متمم ولا إخلاص مكمل ،وهو مما يتخلله الغلطُ من الصنائع عند طائفة ومن الأحوال عند آخرين ، ومن الاصطلاح عند قوم ، ومن الفهم عند آخرين ، ومن الرياسة

= راجع عنه ابن الفرضي ١٢٠٢ ، الضبي ١٦٣ ، ابن خاقان « المطمح » ص٥٨ طبعة استانبول ، المقري جـ ٢ ص ٣٧٦ .

وراجع خصوصا كتاب أسين پلاثيوس : « ابن مسرة ومدرسته » ، مدريد سنة ١٩١٤ .

M. Asin Palacios: Aben Massarra y su escuela, origines de la filosofia Hispano-Musulmana, Madrid, 1914.

« « : Emcyclopédie de l,Islam, s. v.

: Abenmasarra y Abenhazam, Bol. d. R. Accademia de Ciencias de Cordoba, VIII, 1929, No, 26, 7—22.

وله من الكتب : كتاب « التبصرة » وكتاب « الحروف » و « الإطلاقات » — وهي مفقودة كلها .

(١) ابن قسيّ : هو أبو القاسم أحمد بن قسيّ ، المتوفى سنة ٥٤٦ هـ — ١١٥١ م .

(٢) الاسم المعروف له هو النفّرى : محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفّرى ، من نفر بالعراق ، لا يعلم شيء عن حياته ، وقد ذكر حاجي خليفه أنه توفى سنة ٣٥٤ ، ولكن هذا التاريخ مشكوك فيه لأنه — أي النفّرى — يذكر سنوات ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ في كتابه . وكتابه المشهور هو « المواقف والمخاطبات » ، نشره الأستاذ آربري في لندن سنة ١٩٣٥ ضمن سلسلة جب التذكارية ، السلسلة الجديدة برقم ٩ (وطبع في دار الكتب المصرية بالقاهرة) . The Maw'aqif and Mukh'atab'at of M. B. A. Al-Niffarī, with other fragments. Ed. by A. J. Arberry (Gibb Memorial New Series IX),

ومن [٢٣٧] اللذة ومن سوء الفهم عند الأكثر . وهؤلاء منهم من تلذذ بالأنوار والأحوال ، وغَفَل عن الأصل ، وفرح بنفسه ولم يكمل ، ومنهم من علم المقصود ولم يتحرك إليه بالسلوك وغلبته الطبيعة والأمور الطبيعية والرياسة وحفظ الصيت عليه ، ومنهم من بهره حال الاتصال فغلط ، ومنهم مَنْ شك فى الأصل ودفع تارة وجذب أخرى ، ومنهم من كان أوَّله ضدَّ آخره وبالعكس ، ومنهم من وصف المقصود ولم يتّصِفْ به ، ومنهم من ضَرَّ بكلامه ونفع وتنوع أمره وانتقل ، ومنهم من ينفع من جهة ما ويضرُّ من جهات . ولولا ما قصدت فى هذا التقييد من الاختصار كنت أرسم لك مقاصدهم من حيث مواضعها والمسألة والجواب ونبين لك شأنهم كله وكيف الأمر فيهم على الإطلاق بالبرهان. وبالجملة ، عليك بالحق وفريقه وأهله وطريقه ، فإن الرجال إذا تنوعوا دار الأمر بينهم وفيهم وعليهم . لا زوال للحق ولا شك فيه ، ولا يأخذه النقص ولا يختلف ولا يتغير ، وهو الذى به هو الشيء وما هو ، وهو الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته ، وهو هو كما تقدم، وكل حائر فمن أجله كانت حيرته وفيه وبه . فافهم ، فإنه هو المطلوب وبه يطلب ، ومنه الطالب وله ومنه وعنه الكل . وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذى قصدناه فنرجع له بحول الله تعالى .

حكمة ثامنة : ويقال الفقر هو السَّلْبُ المنسوب للسالب والمسلوب الذى دار على نقطة وقاره بشأنه وتقديره وقراره ، وخرج عن قدره بمقداره ، ثم أجبر وجبر وطمع فى الإيجاب بعد فهم الجواب وكلم مقصوده بلسان ماهيته وسمعه بأذن آنيته المكتسبة ، وأبصره بجميع هويته . فافهم !

حكمة تاسعة : ويقال الفقر هو السكون عند عدم كل شيء يتعلق بمدلول العَماَ ، ويكون من لواحق الغيرية والحركة عند التقدير ، ثم السلب المحض بالإلزام . فافهم !

حكمة عاشرة : ويقال الفقر هو الذى يحصل للفقير به العلمُ الذى يدبّره ويدبر به ما بعده وما قبله ، والورع الذى يعصمه وينفعه ويحجزه ، واليقين الذى يحمله ، والذكر الذى يتأنس به .

حكمة حادية عشرة : ويقال الفقر هو الذى يُكسب الفقير دوام الافتقار للجبان فى كل الأحوال وملازمة السّنة العربية والقديمة اللازمة عند العادة والمشتركة .

حكمة ثانية عشر : ويقال الفقر هو الذى تُجْحَد فيه قضية الزمان والمكان .

حكمة ثالثة عشر : ويقال الفقر هو المترادف مع الخيرات المطلوبة .

حكمة رابعة عشر : ويقال الفقر هو الذى يسبح به فى بحر الشرف ، وينسخ العادة بأحكام خرق العادة ، وينسخ مقام الوحشة بالوحدة ، وينسخ مقام الوحدة بالحرية ، وينسخ الحرية بالعبادة فى حال الاتصال بالأدب [٢٣٨] المستولى ، وينسخ التوكل بالتسليم والتسليم بالتفويض ويترك معقوله فى معقوله متخيراً ، وينسخ التفويض بالرضى ، وينسخ الرّضى بالتوحيد ، ويقوّى التوحيد بالمحبة ويحفظ المحبة بالمعرفة ، ويخلّص المعرفة بالمشاهدة ، والمشاهدة بالمقامات الفارطة كلها ، والجميع بالتحقيق ، ويركبها ويسلسلها بالتوجه والبحث والإنابة والأوْبة ، ويصرفها بالكلام المقيد بالعبارة والإشارة وبالبعض ، ثم بالدقيقة وبالكل ، ثم باللطيفة وبالمذكور ، ثم بالحقيقة وبالمذكور فى المذكور — فافهم . ويُعَلِّلها بالأحوال ويقيدها بالتصريف ، ثم يجمع المتقدم والمتأخر فى كُنْهه وفى كل شأنه ، ويتصف بالجميع ، ويخصها فى محله ولا يهمله ، ويثبت الناسخ والمنسوخ فى ماهية شأنه كله ، ثم يحذف مراتبها التى تعددت ويدير عليها دائرة نتيجة شأنه الآخر بحرك شأنه الأول ، ويسكنها بظاهر كُنْهه ، ويجمعها بباطن كونه ، ويجعل على الكلّ وفى الكل ومن الكل الأول الآخر الظاهر الباطن ، وينظر إلى الأمر كلّه بعين التوحيد وكلمة السلب ويجدها قد اتّحدت فيه وتوحدت مِنْ أجله فينسبها إليه ويديرها ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة عليه ، ويعتبر جملة داخل الذهن كما اعتبرها خارج الذهن ، وينسب بالاستعارة بعض الأشياء إلى بعض ، ويجعل قلبَه التوبة وكَبِدَه المجاهدة ، ويَدَه الصبرَ ، ورجْلَه الأدب ، وعينه العلم ، وسمعه الخلق ، وشمّه اللطايف ، ولسانه الأحوال ، ولذته المعرفة والرضى والمحبة ، وحياته الوَتْر ، وموته الشفع ، وبالعكس ، ونطقه الإسلام ، وعقله الإيمان ، وروحه الإحسان ، ثم يسمى الجميع فقراً وفقيراً وقبراً — و « قبر » تأكيد للفقير كما تقدّم وبالعكس كما لزم — فافهم !

حكمة خامسة عشر : ويقال الفقر هو الحكمة التى تُرْسَم أنها الفهم عن الله عز وجل ، وهو الحكمة التى سماها الشرع سُنّة ، وهو الحكمة التى تفيد معرفة الأشياء حسبما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان ، وهو الحكمة التى يعرف بها ترغيب القرآن وترهيبه ، وجدله ، وقصصه ، ومثله ، ووعده

ووعيده ، وأمره ونهيه وأحكامها كلها وكونها تنحل إلى الأسماء والصفات وفهم الحروف المتحابّة ، وحروف أوائل السور مثل كهيعص وسائرها ومقايسة بعض المتحابة ببعض وتناسبها على وجه أكمل وأحكم وأنفع وألطف من الظاهر ومن جميع ما هم عليه بعض الناس ممن ينكر هذا الشأن العظيم — فافهم ! وهذا الفقر الذى اختاره خير البشر . والمتصف به هو الغنىُّ الشاكر [٢٣٩] حقيقةً فإنه غنىٌّ بجوهره ، والغِنى فيه ماهية ذاته إذ هو فعّالٌ بجوهره وعليه يجبُ الشكر الكثير الممتدّ إلى غير نهاية لأنه باق فيه — فافهم ! وأعْطِ المعنى المعقول مع شرف ذاته فى الدارين وسلامته ومناجاته وغيره من الأغنياء بضد ذلك ، وإن كان يشبهه هذا فى بعض شأنه فعنده من هذا الفقير بما يشبهه ، وإلاّ فلا سبيل إلى شىء من ذلك — فافهم . والفقير الصابر المعروف عند العامة هذا الفقير الغني خيرٌ منه على الوجه الذى ذكرناه ، وهو خيرٌ من الغنى من حيث العُرْف والعادة والجمهورية [١] . وبالجملة ، الفقر من جميع الوجوه هو المطلوب الشريف وحده ؛ وكل مطلوب شريف وحده لا شىء أفضل منه . فالفقر من جميع الجهات لا شَىْء أفضلُ منه .

حكمة سادسة عشر : ويقال الفقر الضعيف هو حَمْل الأذى وتَرْكُ الأذى ووجود الراحة ، والقوىُّ هو التصرُّفُ فى الأشياء بالكتاب والسُّنّة والإجماع والقياس والعقل وفعل ماينبغى كما ينبغى على ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى وفهم الأسرار والأحوال الإلهية قبْلُ وفروعها وأصولها وأسبابها. والفقر الشريف هو الذى إذا نظر الفقير به إلى نفسه لاغير نظر فيها جميع الأشياء المهملة والمخصَّصة ، والمجملة والمفسَّرة ، والمُطلقة والمقيدة ، والشريفة والخسيسة ، والمرءوسة والرئيسة ، ويجعل منها فى ماهيته النورانية ما يجب وينسبها بحده وفى ماهيته المادية وينسبها لضده ، ثم يحقق الشىء الثابت وحده وينظر إليه به ويغمض عين سريرته المكتسبة ويفتح عين بصيرته اللازمة ، ويقول عند تصوره لذلك كيف يظهر من به يُظهر وكيف لا < ... >[٢] حقه لا يُرَى إلاّ بنوره ولا يُشهد إلا بحضوره .

حكمة سابعة عشر : ويقال الفقر هو الجامع المانع .

---

(١) أى ما عليه جمهور الناس . (٢) خرق فى الصفحة .

حكمة ثامنة عشر : ويقال الفقر هو المعنى الشامل للملك والنبيّ والصدّيق والأمثل فالأمثل من حيث التخصيص والمخصوص ولكل ممكن على العموم من حيث العموم والعرف .

حكمة تاسعة عشر : ويقال الفقر ترك الرغبة إلاّ فى السعادة وأسبابها ، والعبادة وأحكامها ، وتدبير العادة وأحوالها .

حكمة عشرون : ويقال الفقر عدم خوف الفقر من المحل مع الامتحان الكلّى ، ولا يكون للفقير ما يتقرب به إلى ربه إلا هو ويُظهر الغِنى به مع الحاجة ، والشّبَع مع الجوع ، والفرح مع الحزن ، والمحبة لعدوه مع وجود الجور ، ويصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يظهر ضعفاً وكل ذلك بجد وصحة أصلية وخير محض .

حكمة حادية وعشرون : ويقال الفقر هو الذى تُعْرَف حقيقته اللفظية بما [٢٤٠] ذُكِرَ قَبْلُ ، والفقهية بما ذكر قبل ، والعقلية بما ذكر قبل ، والصوفية بورودها على المحلّ إذ كانت جزء ما هيته ويتصف بأعراض لاحقة لها ، ويغلبه [١] بذوقه ، ويخبر عنه بعد ذلك بغير الذى كان يخبر عنه قَبْلُ — فافهم !

حكمة ثانية وعشرون : ويقال الفقر حفظ السرّ المكنون ، والعلم المضنون به والمصون ، وأداء ما افترض ، وصيانة الدين والمقام .

حكمة ثالثة وعشرون : ويقال الفقر هو الكمال الأول مع العلم ، وهو الكمال الآخر مع المعرفة ، وهو الجميع مع خالص الإنسانية .

حكمة رابعة وعشرون : ويقال الفقر هو الذى لا يطلب به إلاّ الله ، وإن طُلِبَ لذاته أعنى الفقر ن مطلقاً لا خير فيه .

حكمة خامسة وعشرون : ويقال الفقر إذا تُصُفِّح وتُؤُمِّل وتُتُبِّع على أكمل ما يمكن قيل للفقير المتصف به فقيرٌ كما سمى اللديغ سليما ، ويعتبر شأنه ولفظه بالعكس . وهذا الفقر — أعزك الله وأعانك على تحصيله بحبيبك الأوّل الذى لا يكون متحركاً ولا ساكناً وهوليس بجسم ولا فى جسم

---

(١) وتقرأ أيضاً : ويعلمه .

وهو واحد من كل الجهات ووحدته بالذات ، وبحبيبك الثانى الذى لا يكون متحركاً ولا ساكناً وليس بجسم ولا فى جسم ولكنه يقال فيه إنه مع غيره الفاسق لا مرتكزاً ولا مربوطاً ولا مستنداً ولا ملتحماً ولا حالاً ، وهو بالجملة لا متصلا معه ولا منفصلا عنه غير أنه يلازمه ملازمة النوع للعنصر والفاعل للمفعول ويشار إليه معه صحبة المجموع الإنسانى مع أنه مفارق ومن قبيل المفارق . وخلصك الله من حبيب ضدك وموضوعك وروحك وأوحله وأكرمك الله بتحصيل أسباب <...>(١) بصلاح العادة والعبادة وحفظك فى شأنك كله حتى لا « ترفل فى أثواب اللاهى وَلا تغفل عن ثواب الله »(٢)، فطالعه واحفظه وحافظ عليه وحصل مدلوله بالقول وَالعقل والحال والمقدمة والنتيجة والمسألة والجواب ، ولا تبخل به ولا تمنعه عن أهله ولا تسمح فى ذم فرعه وأصله وخاصته وفصله . ولولا أنك محسوب علىَّ ومنسوب بمعناه إلىَّ ما أسمعتك به ، ولا قيدت لك فيه إلا ما يَجْملُ بك وبأمثالك وأهل وقتك . وشرطى عليك أن لا يقف عليه أحدٌ إلاّ الطلبة النبهاء والفقراء الفضلاء المحبُّون الأولياء ، ولا يقرؤه من المذكورين إلاّ من يتصفحه إلى آخره . وإن علم منه أنه ينكره يؤخذ من يده ، وإن توقع الضرر من لسانه وقلبه ويده ومن صعب عليه منه شىء يرحل به إلىَّ . وإن عسرت حركته أوتعذرت يرجع به إلىَّ ، ونجيبه فى الوقت بحول الله تعالى . [٢٤١] والاستقامة هى رأس العمل مع العلم ، وزوال الكسل والملل . واعلم أنّ الشقى هو الذى ذهب شبابه بلذّته ، وارتهنه بتبعته ، وخلف له التأسف عليه . والسعيد هو الذى علم أن أيّام الحياة حلم ، والموت يقظة ، وفى الحساب تفسير أضغاثه . فجدَّ واجتهدَ وكَرِه دارَ الفواسق حيث الظلُّ والذُّل والأبعاد الثلاث(٣) واللهو واللعب ولواحق اللهب ، وتوجّه إلى الحضرة السنِيّة التى تَبَّتْ بجحودها يدا أبى لهب . وإياك والغفلة والتغافل فإنهما يستلاّن الخير ويخصصان السر . والغافل والمتغافل واحدٌ ، لأن الغافل تؤديه غفلته إلى الفساد والمتغافل يُؤديه تغافله إلى الفساد ، فقد اتفقا فى المحصول الذى هو الفساد . وليس ينفع المتغافل معرفته بما تغافل عنه إذا لم يستعمل فيه ما يجب ، ولا يضر العاقل جهله بما لم يعلم إذا لم يعمل فيه ما يجب ، لأنهما قد اتفقا فى الإضاعة ، وتباينا فى العلم والجهل. وعليك بالهمة الجليلة

(١) خرم فى الورقة .

(٢) هذه العبارة وردت فى عهد ابن سبعين لتلاميذه فراجعها فى هذا الكتاب .

(٣) هى الطول والعرض والعمق ، أي المادة والجسم .

التى هى سوق لا يتبدل إمّا العُمرَ كله وإمّا فى أكثر الزمان إلى الشىء الذى هو وُكِلَ الإنسانُ أن يفعله فى حياته والخسيسة بضد ذلك. وبالجملة إن كان الشىء الذى تطلبه الهمة جليلاً قيل فى الهمة إنها جليلة، وإن كان خسيساً قيل فى الهمة إنها خسيسة. وعليك بالسيرة الجميلة التى هى الأفعال المحمودة التى يدور الإنسان عليها فى حياته ويجعل وَكْدَهُ أن يفعلها ويتخلق بها ويعامل بها ذاته وغيره، ويجعلها مقدمته لمقاصده الكريمة. وعليك بالصناعة الرئيسة التى هى رئيسة على الإطلاق، وهى التى تعرف أىّ الصناعات والعلوم ينبغى أن تكون فى المدن، وأى الصناعات والعلوم ينبغى أن تكون لكل واحد من أهل الخير والمدينة الصالحة والجماعة أن يتعلمه، وإلى أى مقدار ينبغى أن يبلغ المتعلم < . . . >[1] باكتساب الشىء الذى يسمى خيراً.

واعلم أنه لا بد لكل متوجِّه ولكل سعيد أو شقىّ أو غافل أو متغافل أو عالم أو جاهل من خير ما يتشوق إليه فى شأنه الذى هو فيه ويطلبه، ولكنه لا يطلق الخير حقيقة، ولا يعقل إلا فى الخير الذى هو سبب السعادة توجد عنده أو به أو معه أو فيه أومنه، أو إليه، أو عليه، أو عنه، أوله، ويطلع على لزوم الشرط والمشروط، مثال ذلك: الحياةُ شرط فى العقل، والعقل شرط فى العلم، والعلم شرط فى العمل الصالح، والعمل الصالح شرطٌ فى الفضل، والفضل شرطٌ فى السعادة، والسعادةشرط فى الكمال، والكمال شَرْطٌ فىالخير، والخيرشَرْطُه وأصله التخصيص، ولواحقه كثيرة هيئيةوطبيعية بل العنايةالإلهيةخاصة. وأنواع الخير ثلاثة: أحدهاالشىء الذى يُراد لأجل ذاته ولايراد فى وقت من الأوقات [٢٤٢] لأجل غيره. الثانى الذى يراد ويؤثر أبداً لأجل غيره ولا يؤثر أصلا ولا يراد فى وقت من الأوقات لأجل ذاته مثل الأشياء المؤذية المؤلمة كشرب الدواء المر الشنيع الطعم الكريه الرائحة فإن هذه شرورٌ بذواتها وخير بالإضافة إلى الانتفاع بها. والأوّلُ من هذه الأشياء هو الخير بالإطلاق، فعليك به وبما بعده. والذى حملنى على إفشاء هذا السر الذى لا يُظْفَر به فى كتاب ولا سُمع فى معتاد خطاب ما ظهر فى زماننا هذا من آراء فاسدة وأحوال سيئة، وقلة استقامة فى بعض الفقراء وعدم الإنصاف فى بعض الطلبة وسوء ظن العامة فى الجميع مع غيره من المشار إليه ويشاور ويشار إليه، ويعول على الله لا عليه.

وأنا أسأل الله العظيم أن يعيننى على الخير ويوفقنى إلى قبوله، وأسأل الواقفين على هذا الكلام

---

(١) خرق فى الصفحة.

أن يقبلوا عذرى فيما تساهلت فى تبيينه ، وتسامحت فى تعليمه وتثبيته ، لأنى أمليته فى بعض يوم على بعض الأصحاب والخاطر منقسم بالداخل إلىَّ والخارج عنى ، ولم يتسع الوقت لتصفحه وتبديله . ومن زعم أن يصل إلىَّ ويباحثنى ويطالبنى فيه فأهلاً وسهلاً به ، ومن غلبت دعوته على استطاعته يُمهل عليه وتدفع الفائدة برفق إليه ، ولسان حالى يُسلم للمنصف ويسلم عليه ، ولسان مقالتى يحمد الجميع ويعظم الكل . ولقد أطلقت على الرجال فى الكلام الأول ما نعلم ونتحققه أنه غير جارٍ ولا جائز عند الأكثر . ولكنى غلبت النصيحة على السياسة والحق أحقُّ أن يُتبع ، والسلام على المُنكر[1] والمُسلِم ، والعالم والمتعلم ، والغالط والمتغالط ورحمة الله تعالى وبركاته .

وسميتها لأحد أولادى بالعرض ولكافة الفقراء والجميع من انتسب إلىَّ بالذات و< ... >[2] فيها بالقصد الأول ، والجميع من ذكر بالقصد الثانى .

ومُعادُ التحية عليكم معشر الفقراء حيث كنتم من البسيطة ، ومن العوالم الثلاثة بحسب مراتبكم من عبد الله ، عبد الحق ، الكثير بالقول ، الواحد بالموضوع ، الواجب بآنيته ، الممكن بهويته ، ورحمة الله تعالى وبركاته . وصلى الله على سيدنا محمد وآله ! الله الله الله الله الله الله الله صح .

كملت الرسالة الفقيرية للسيد الشيخ المحقق المقرب سيدى أبى محمد عبد الحق بن محمد ابن عبد الحق بن سبعين نفعنا الله به وأعاد علينا من بركاته . وكان الفراغ من نسخها يوم الجمعة الخامس عشر من محرم سنة اثنتين وتسعمائة . عرفنا الله خيره ، وكفانا ضيره ، بمنه وكرمه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما !

---

(١) تأمل هذا التعبير الإنسانى الرائع : والسلام على المنكر والمسلم ! وقد كرره فى أواخر رسائل أخرى .

(٢) خرم فى الورقة .

[تابع ١١٢]

كتاب فيه حكم ومواعظ

بسم الله الرحمن الرحيم

وله رضى الله عنه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كثيراً

استمع لما يُوحَى ويستقرأ، وحَصِّل وحينئذ تكتب أو تقرأ: مَنْ أبصر مقصوده كَفَّ عن سواه لأنه سوّاه، وشرط من سُوى واستوى، قطع وَهْم السُّوى. مَن قربه الله، يقول: الله فقط – ويتبع هذه الكلمة بالهمّة قبل النية، ويحرر قضيته البسيطة بإطلاق الْهوية على الآنية، ويمد خط تأمله ويقبضه أيضا. وخفف عن نفسه حمل وَهم هذا، وهو، وذلك، وقال ما قال الله، ثم استقام لا على مدلول الأمر بل على فيض الآمر عز وجل. وجملة الأمر من قال الله ولم يستحق الجميع قال الباطل والله ما تجلى قط فاحتجب، لأنه يظهر بماهية العرفان وبما يلزم من الوجود الثانى المصاحب، ولا أقام قط فى قلب فرحل عنه، ولا تعلقت به همة رجل معتبر فخابت، ولا نظر إلى أحد فأهمله بعدها، ولا استجاب فى ماهية عارف فعرفت غيره قبل ذلك بما هو ذلك وصحّ له أنه ما كان ذلك بعد ذلك، ولا مع ذلك، ولا قبل ذلك. مَن قام به خوف الله لا يلتفت الأفعال فانها ضعيفة الإعانة، قوية الضجر والضرر. وإن عزم على الخوف فذاته أولا فإنها تحيل إليها كلّ التَعلقات وفى نفس العذاب عين العافية. وسبب الألم هو بعينه سبب اللذة، لأنها بالنظر إليها تحيل الأحوال كلها إلى الخير والسعادة وهذه فى نفس الولى نفس اللذة. فإن كان الحس يتألم [١١٣] وقد يستغرق فى جلالها ويفوته الألم وقد يتصرف فى نفسه فيُرْفع، وقد لا يُطلَق على الولى أنه يتألم مع التحصيل المحض، وقد يطلق بوجه ما. وبالجملة، انعقد إجماع الضمائر الصادقة على أن التعلق بجلال الله على أى نوع كان يمشى نحو الصواب: وذلك إما من جهة الاستحقاق، أو من قبيل المظاهر أو مفهوم قولك كأنه هو أو معى هو أو أنا. وهذه كلها إلى الله وبالله، بل هى الله. ومن يعلم كيف يصرف الأشياء إليه، ثم يعلم كيف يصرف هو الأشياء بوجه ما، ثم يعلم ما هى الأشياء فى التحليل وما هى فى التركيب، ثم يعلم ارتفاع الجميع، ثم يعلم ثبوت الجميع، ثم يعلم الله ولا شىءَ معه والأشياء الظاهرة للحس والعقل، أعنى

الأمور المعقولة والمدركات المحسوسة ثابتة ولا هي على جهة الافتقار وبالطريق التي يدل عليها علماء الأوهام فإنهم يقولون : الأشياء بالنظر إليها لاشيء لها ، وبالوجه الذي هي به ناظرة إلى ربها هي ثابتة ، وكأنهم يقولون : الوجود العارض للماهية بنوع من القول آخر هو في المفهوم ، وأعوذ بالله من الجميع . وعند العلم بهذه العلوم والعلم بهذه السيرة ينفتح له باب التحقيق الشريف ، متى سمع قط عن قريش الاخلاص قطع الطريق على دخيل الاضطرار ، متى حصل أحد على كنز محجوب عن غيره في غاية الظهور والوضوح له مع كونه تحت ملكته هو ومادته الأولى ، ومع هذا يعد الأنواع ولا تسع كميته الأشخاص ، ويقوم بشخصه هو فيخاف الفقر ويحتاج إلى مصانعة وسواس الحاجة . وبعدهذا كله النبيه هو الذي لايقنع من الله بجميع أفعاله ، ولايطلب منه إلا الذي يحمل منها إلى الذات ويمين الذات الصادرة عنه . آه آه آه آه يا فاقد ، بل يا حائد عن الفائد ، لا يخدعك وهم عادة نسك الآخذة عن نفوس الأغبياء الأشقياء ، أو المقيمة معهم على ماهم بسبيله ، أو المتشبهة بهم إذا فقدت الهمم الشريفة الحق المطلوب ، يقول لسان حالها : يا حزناه بما حزناه !

ومما يظهر لبعض الضعفاء الصلحاء أنهم استقاموا على الطريقة وزوج القصد لهم بين الشريعة والحقيقة . والدليل على غلطهم في الحق أنهم إذا فتح عليهم بوجه مايظنون أنه الطريق على الإطلاق ، وأن الأمر مابقي منه إلا نصيب الأحوال فقط . ومن غلطهم إذا فتح لأحدهم في شيء يشبه بالمضمار لاشيء يظنونه باب الله . وأعوذ بالله من همة تقف ، بل أعوذ بالله من عقل يقنع ، بل أعوذ بالله من زمان فرد لايحصل فيه مالا يأخذه الحصر في مدة الأبد المفروضة على معقول الكلي منه حتى يستشهد في ذلك بالحديث ويقول : « مَنْ رُزِقَ مِنْ بابٍ فلْيَلْزَمْه » . ومراد الحديث غير فهم هذا . وذلك أن الباب الذي يتوحد هو باب الافتقار ، الذي يصرف العبد إلى ساحته ، وهو ثابت ومنه يدخل على جميع الأبواب . وهو بالجملة واحد [١١٤] في مقامه عند العلماء والعباد وعند المحقق من أنواع نهاية صراطه الأول الجنسي . وأما أبواب الله المفتوحة فلا نهاية لها ، لأن مواطنها لواحق القدرة الإلهية والفيض الإلهي والإمكان المطلق ، ومفاتحها تخصيصه أو طريق تخصيصه . فباب من أجل مفتاح ، ومفتاح من أجل باب . وبالجملة ، أبواب مواهبه لا نهاية لها ، وباب الرجوع إليه واحد .. وعلى هذا تفهم توبة النبي عليه السلام بحسب رأي ما ، فإنه كان يبدأ بتأمل جلال الملكوت العام ،

ثم الخاص، ثم الجبروت، ثم الحد، ثم المطلع ؛ ثم يتبحر، ثم يقف، ثم يكون ما شاء الله . فإذا فرغت تلك المادة الخبرية أو العلمية أو الحالية أو الوقفية أو الوجودية أو ماشاء الله لمن رضى الله عنه ، يعود إلى المنعم حالُ نعمته يطلب منه نعمة أخرى بحالة أخرى فى معنى آخر من ذات واحدة . فباب المنعم الذى هو هو فقط واحد ، وبابه الذى هو به كالجنس العالى ، وأبوابه المولدة أجناس عالية. وبالجملة القناعة من الله حرمان. والنبى يتكلم ، والحكمة تشرح . وكذلك قوله : التدبير نصف العيش . ومراده للخواص : ترك التدبير هو العيش كله ، وللعوام ولمن يطلب الأسباب الحديث على ظاهره ، وبالجملة جميع ماتعطيه الحكمة الشريفة العلمية التى لاتطلق بحسب مذهب خاص ورأى خاص مجهول المكانة يحمل على الشارع ، وينسب بالمضمار إليه . وإن كان بالقصد الثانى ليت شعرى بأى لسان يقول القائل: «لاحول ولاقوة إلا بالله »؟ أبلسان العِىّ والغَىّ والسفاهة ، أم بلسان الصدْق والجد والنباهة ؟ فإن كان بالأول فذلك النفاق ، وإن كان بالثانى فلا يجعل مع الله فى ملكه ثانى . متى ثبتت سفسطة مبطل مع برهان المحق ، أى حاجة للمظلوم إلى شهادة من لا يحكم ؟ الحاكم الحكيم يعلم ذلك ، ويحكم به كذلك قدر أن السفيه الذابح الذى يطلق القول على ماهيته بتواطيء مع السفيه الناجح يخرجك من أرضه الظالمة وأنت من المظلومين . فهذه جملة نِعَم : منها الأسوة بالمهاجر الأعلى ، والخروج من محل الأثقال إلى الذى انقلبت إليه هذا من ذلك أوّلًا أَلَا ، والقول يدفع فى الآخرة والأولى ، والسياحة المزدوجة مع القريحة المستندة المفتقرة الحاضرة ، ونعمة التأنيس بقوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً »[1] الآية ، والتبدل مع النزهة فى البسيطة ومشاهدة الأحوال البسيطة ، وأن سجنك يكون فى عادة الصديق ، وتكمل النعمة عليك إذا لم تذكر حين تذكر غير المذكور وقول « سَبِّح اسمَ ربِّك »[2] خير من « اذكُرْنى عند ربك »[3] من أى شخص كانت ، لأن تعظيم الله هو المعتبر وما نقص من حقه عز وجل لا يسمح فيه لأحد — فافهم . وتتخذ الخلوة والعزلة الحسية الظاهرة وعند ذلك يذكرك بالباطنة وتجتمع . وإن كان تفرق الاتصال فقد أنعم عليك بالاتصال ، وأتحفك فى هيئة حتفك بالانفصال ، وحملك إلى حضرة الوصال ، وامتن عليك [١١٥]

(١) سورة « البقرة » آية ٢١٦ .

(٢) سورة « الأعلى » آية ١ .

(٣) سورة « يوسف » آية ٤٢ .

بالشهادة التى بمثلها يظفر بالحضرة التى تنزهت عن الذل حيث الظل واللهو واللعب وتبتْ بجحودها يدا أبى لهب . هذا إذا لم يكن مقام الرضى قد حكم ، والتوحيد قد جزم . فكيف إذا كان الأمر بالعكس وقوته أضعف من نملة فى رملة ، ومن ذرة فى كرة ، ومواكب مجده غير قافلة ، وكواكب سعده فى غرب غيبه عنه آفلة . وإذا أنشد الهوا فى نازلة سفيهة من أجل عرض عاجل ، ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر إطلاقه ذو الغيب ينبغى لراكبه ينشد فى حق الذى يهواه :

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك تَرضى والأنامُ غِضاب
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك الودُّ فالكل هيّنٌ ... وكل الذى فوق التراب تراب

ويقرأ : « قُلْ كلٌّ مِنْ عند الله » (١) ويتحدث بنعمة الله فى التحدث بالحديث : « اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة » ، ويذكر المثل الموزون وكل ما يفعل المحبوب محبوب ، ويحمد الله العظيم الذى جعله من جنس من ذكره فى سورة التقرير فى جواب القسم ، ثم قبل ثم حرر القول فيه بالاستثناء . هيهات ، هيهات ! هيهات !! النظر إلى الحق يصرف النظر عن الباطل . عجبت لمن آمن بالله ثم يخدعه وهم الانفعال لكنه كل شىء بقضاء وقدر . استقام القائل ، وأقامه الله على الحق بقوله « وعند الله تجتمع الخصوم » ، وحسنت خطبة المخاطب نفسه : يا نفس اعلمى أن الإضراب عن غير الله ملاحظة بعين الله . لله من قال : « لا تخالط الأشرار فإنهم يمنون عليك » ـ بالسلامة منهم عذرته ومن قال الله فقط غبطته ، ليعلم أن القاتل لأرواح الفضلاء فى عالم الطبيعة والسعداء فيما بعد الطبيعة لا بد أن تقتله الطبيعة وتعذبه الشريعة . ما الذى حمل من استند إلى جدار وهو يريد أن ينقض ! ما أظنه والله أعلم إلا كان الأمر عنده على معنى الحكاية ، ولذلك انقلب إلى النكاية ، وشرع مجاز صحته فى ابتداء الشكاية . هل على خليع مستصحب للخلاعة التى لا يصح معها صحو ولا عقل حد ؟ أو هل لمن سكر من الله عهد ، أو غبطة بوعد ، أو هيبة ملك أو رعد ، أو تعب أو جهد ، أو رب وعبد ، أو كفر وحمد ، أو رسم وجد ؟ أو كيف لمن وحد الكيف ، وملك الكم والكيف ، وأكرم داخل الذهن الضيف ، وقطع الهام بالوهم لا بالسيف ، ويحج إلى مجده المجيد لا إلى محل الرحلتين رحلة الشتاء والصيف ، ويقطع العوالم العلوية والسفلية عنده أسرع من الطيف ، ويصلى فى مسجد السلامة قبل مسجد كذا أو مسجد الخيف ، ملاحظة غير معناه

(١) سورة « النساء » آية ٧٨

المستولى على همه ، أم كيف لمن لايطلق على ماهية بماهية عن ماهية،ماهيته ، ثم،ماهى،ماهية من المطالب الأصلية إلاّ هَلْ ومن لعل العادة جادت براحة صدر الولى كما أن حرفها جاءه على سبيل الإكرام من العلّى الولى ؟! سررت بمن [١١٦] حذقته العلوم وهذبته هداية المعارف ، ودبرته نهاية العارف ، وآمنت بمن وجد الحق فلم يجد بعده، ولا وجد قبله مع كونه قبل أن يجد وجد وذلك ذلك ذلك أسرار الله، خزائنها فؤاد الثابت المستقيم .

إياك أن تتوهم فى أضعف رجال الله أنه يكترث بهذيان المنّان ، أو يتوقع بهتان اللسان أو تهابه سطوة مجان ، أو إرسال السهم ومقاتلة السنان ، أوهمة ترفع عليه فى الجنان، أو يقول : فاتتنى ساعة فى الدنيا ففوتتنى جنة فى الجنان ، ومنةً من الرحمن المنّان . بَلَغ خَلَدى على لسان حالى ماهية الهمة الواصلة إلى مارضيه الله ، وبذلك الرضى لايصح السخط والرضا ، ولا المحرك القريب والبعيد والأسباب إنها تقول يا جليل أنعم علىّ بجلالة مجد من بعضها الأمل ، وبغاية قصد فى ضمنه الأزل ، وبعادة عَوْنٍ فى عرفها المدد ، وبراحة قلبٍ فى قوته الوَجَل . ثم تقول : أنعِمْ علىّ بخيرٍ يقطع الأمل ـ لكونه هو الجامع المانع : فإما يعطى بغير مسئلة، وإما يفعل بغير واسطة إلا الضرورى الذى يستند إليه من جهة الافتقار المعقول لا من جهة الوجود الخاص أعنى القائم بالولى ، أو بكذا أو بأكثر من كذا ، ووجدت أن الإنسانية التامة بعثت إلى العالم العلوى رسولها بأنها حرة عنه وذلك الرسول قصدها ، ثم بعثت إلى الممكن العام أنها خارجة عن حكمه ثم وجهت إلى الواجب فى الممكن أنها منه فى وقت ما ، ثم توجهت هى إلى الواجب العَرىّ الذى يأخذ الوجود النائب عن المعتبر الأعلى ويربطه إلى الماهية القابلة المعقولة فى المُثُل المعلّقة وهى واحدة فى الأمر الكلى والمظهرة فى الأشخاص المنتصبة والظاهرة بمعنى الأمر الطبيعى وفى الأجسام سارية بالمشار إليها فيها ، وبالجملة : هى كثيرة بالنظر إلى واحد واحد ، وواحدة بماهية ماهية ، وموجودة بمضافها ومعدومة بوجه ما إذا طلبت ذاتها المشار إليها وممكنة فى الحكم المفروض وبالنظر إلى شخص شخص ، وعرفته أنها خارجة عنه ، ثم توجهت بعد ما وجدت وغرضها الله بحيث لايكون واسطتها هو فإن استجاب عندها وجدته ، وإن أنسها دون ذلك الوجود عبدته . وبلغنى عن رسول حكمة الأحكام خليل رسول الأحكام أنها تقول : الهيولى تنحل إلى أوهامى ، والصور المجردة تصدر عن تطوراتى ، والنفوس المجردة المحركة المعقولة فى الهياكل لأنها قوة شائعة

فيها من بعض محمولاتي ، والعقل القريب منها من بعض ملاحظتي ، وهكذا . والعقل الأول أو الفصل أو القلم أو القريب أو المدلول الشريف أو القضية أو النكتة الخاصة أو المظهر أرباب العوالم الكريمة أو صفة القديم مثل ذاتي المنسوبة . وهذا هو أيضا كذلك لأنه كلامنا والظاهر على ماهو بسبيله لا أنه أعني هذا المعنى يفقد هذا أو بموته وجهه الأعز . فإذا كان [١١٧] حالُ القوم هذا الحال ، وأمرهم من قبيل هذا الأمر ، وشأنهم هذا الشأن ـ كيف يطلب زعيمهم بسياسة أخس أضداده مع كون العوالم كلها عنده على كمالها ؟ ! وإياك أن يخط لك اعتراض الدعوى وميله إلى تعظيم نفسه فإنه يصدق جميع ماقاله على الله والذى يجد نفسه على معنى هو مؤلف من الذلة والصَّغار ، ومن عزة الطاعة والناموس ووضع الشيء فى محله وجعل ما ينبغى على ماينبغى وفى الوقت الذى ينبغي ـ ينبغي له أن يزهد ويتواضع بحسب المواطن المعروفة ، ويفزع إلى حفظ العادة وإلى أهلها . وهذا الرجل قد برأه الله من ذلك كله ، وقد كان فى ذلك قبل هذا . عجبت ممن يبحث عن سعادته الثالثة التى يصعب عليه أن تجد له ، وأنها هى التى يجد بها الإنسان جميع ما يوافقه ويلائمه فى حياته ومماته ، والتى يمشى بها نحو الصواب فى المدلول الشرعى ، وهى مدلول رضوان الله الكريم ثم يهمل طريقها بكونه يركن إلى غير ركن الأمين الجوهرى الذى هو التفويض المطلق أو السكون إلى أخباره الطيبة أو مدافعة ما بالمعنى الذى لا يختل معه الحال ، ولا يصعب معه القيل والقال ، ولا يفوت فيه للمحقق أن يكون مع الله على أى حال كان بالنظر إلى الأوّليات والسوابق وبالوجه الذى يصح فيه وبه رضوانه المعروف بعامل الشريعة المنكر عند قائل الحقيقة . ثم أضاف إلى هذا الذى هو مادة الهذيان المضحك هذيانا إذا أخبر عنه استعاذ منه الرجل الذى أهمل المصالح العامة والخاصة على الإطلاق . وذلك الشيء المضاف هو نصيحة شخص لا يستحسنه العقل ولا تحض عليها الشرائع ولا يسلمها المعروف ولا تمشى معها مصلحة مبطلة فتعقل أو مصلحة فتثبت أو تنقل . وقد قام البرهان على أن الأعلى الرئيس لا يدبره الأدنى الخسيس . فإما وهم وقت الغفلة عن خبره الكريم بوهم أوقع عنده خوفا ، وإما كان فى فترة من الجميع ، وإما أخذ القهقرى وإما اجتهد ، وذلك الاجتهاد ظنه به أنه يحفظ الوقت به ، وأنه بذلك على طريقة شرعية بل صوفية وتحقيقية . وهذا من انجرار الأوهام وبقية جَهْل وهى أحسن مما تقدم وأصعب للزوال لأنها غالطت الواصل . والقوى هو الذى يغلب القوى بالله عليك يجمل بعارف أو يحب فى المعرفة أو بقريب منهما أو بقريب من القريب وهكذا إلى غاية الإعياء أن ينحط . وكلامنا

لمن علم النازلة والنفس الشريفة والأخرى النازلة ، أو لمن يفهم الفائدة العامة بحسب الخطاب العام إلى رتبة تحطه من مقام السؤدد والمعنى المسوَّد الذى به يقال للفاضل أنت الأوحد ويقعده فى هيولى جهنم السيئة حيث هو ذلك الكلب الأسود .

أفى اللاهى قدرة على الله ؟ هل فى معاملة الله مجاز أو بالباطل على الحق يجاز ؟ من كان الله ضالته يطلب الأنعام ، ويتوهم أنه تعرض للإنعام . هيهات ! لاشك فى الله ، ولا شىء أعزُّ من الله ، ولا [١١٨] موجود على الإطلاق لا يفتقر إلى(١) الله ولا إله إلا الله . اعلم أن لا حول ولا قوة إلا بالله . يجب عليها الأدب والاستغفار عند الخواص إذا تمت على سدادها ، فكيف قول أنت أنت لمن إذا أطلق القول عليه مع العدم بترادف يسأل عنه المتكلم ، لأنه أضاف بعض المعلومات على رأى بعض الناس إلى شىء لا ينسب لشىء من هذا كله عند كل الناس ! فإن كلمة « لاحول ولا قوة إلا بالله » إن كان قالها وهو لم يعلمها إلا وقت همه وامتحانه فهذا فيه ما فيه ، وإن كانت المحنة هى التى ذكرته فأنحسُ وأخسُّ . وإن كان استعان بالله على بعض أفعاله فهو من الأمور المضحكة ، وإن كان قالها عبادة ، فأمره يتحمل وينحط عن رتبة الخواص . وإن كان قالها دون شىء ولا لها معتبر إلا مفهوم الذكر ، فذاته أولا . وبالجملة هى كنز من كنوز الجنة ، وكنوز الجنة هى من بعض أسباب بعض منّته . واعلم أن الذى يطلب الجنّة ولا يعتقد أنها سَبَبُ القرْب إلى رؤية الله ، فأهل النار أحسن منه بالنظر إلى همّته ومن جهة تعظيم المطلوب لا بالنظر إلى سخط الله . والجنة من جملة الخيرات التى تراد لغيرها ، هذا عند الضعفاء وفى سلوك الأرواح وهم بعض المجردين . وبوجه آخر لا يهمل الوجود على أى وجه كان وفى أى مظهر تُصوِّر ، ولا يتنوع فى ذاته الموجودة ؛ والتقديم والتأخير لا يغتبط به السعداء . مَنْ نَصحَ وأجاب فهو من الضعفاء ، إلا أن تكون النصيحة من بعض أخباره المهملة والناصح ضد ذلك الناصح .

إيه ! بالله منْ أقدم : المجازُ أم الحقيقة ؟ وكلاهما من حيث أصولها . فإن المجاز مع الحقيقة فى مفهوم العرض ، غير أن الحقيقة ترجع إلى الحق ، والحق يرجع إلى الله من حيث هو أهم ذات له ،

---

(١) ص : إلا .

والمجاز ينصرف إلى أفعاله ، وصفة ذاته قديمة ، وصفة فعله حادثة ، والأمر فيهما ظاهر جداً . يا هذا ! تعلقك بالقديم وإن كان على وجه ما بعيداً وفيه معقول المثلية هو الأكمل وهو الموصل وهو هو — فاعلم ذلك . سقطت مكالمة من كلم غير الله عند أهله . وإذا أردت البرهان على ذلك خذ نفسك بإنكاره ، فإن لم تستطع فاعلم أن الأمر صحيح . وجميع من قال : وجدت الاستغناء عن الله أو رأيت في الوجود غير الله ــ قل له : هذا من جهة العادة فقط ؛ أو من كونك لا تعلم إلاّ المحسوسات ، أو من كونك توهمت أحوال المؤمن والكافر ، وكونك تقول الضرورة لا يختلف فيها أحد . وأيّ منفعة للعلم إذا كان الله فى غاية الوضوح ! وهذا كله محض الأوهام والحرمان . وبعقد هــذا كله بصناعة التحليل والتركيب فى الشيء الواحد يظهر لك مدلول قولى . لا شيء أغرب عندى من رجل يقول الله بلسانه ثم يحرّره بقلبه ، ثم يطابقه على توجهه ، ثم يجده فى جملته ثم فى خارج ذهنه ثم فى الجميع من حيث ذلك الإجماع ، ثم من حيث ينزع إليه [١١٩] ويفتقر ثم يشعر ويشتغل — ومع هذا تبدّده مع ذلك خطراتٌ نفسانية ووساوس شيطانية . ومع هذا لا يعلم عنها وبغفلته عن تفقد محاربتها يكون منها أهلًا وسهلًا بثبوب الهمة على مضافها . وسلام الله ورحمته على ذواتها ! بأيّ دليل أو بأى حجة أو بأى عذر يصحُ الخروج عن قصدالله الصحيح ؟ ! وما أحسن روحاً يقرأ عقب التفكر فى المؤمن إذا نزع الوهم بينه وبين قصده بلسان حاله ! « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ » [(١)] أيْ مَنْ رضي عنه كانت الترهات تستطاب قبل ظهور الأخرى والأولى ، بل كانت الحكمة العلوية تعطى قبل الإلٰهية ، بل كانت السعادة تستعظم قبل معرفة التوحيد المعتبر الذى لا تلتفت السعادة معه والموحِّد فى حاله فإن ذلك يجر إليه الشِّرْكُ لكونه يقسِّم بساطته وإن لم يركبها ، فإذا زال عن ذلك لا أنه زال بمعنى مفهوم كان ، وإنما ذلك مما يشعر به فى مدلول حدّ ورَسْم ووَصْف أو فى قوة ذلك ، بل لا شيء إلاّ محض الوجود .

إلى الله أشكو أنسى وسرورى . خُذْ نفسك يا صاحبنا بالتشبه بالجليل ، وعظم سنة الحبيب والخليل ، ولا تتصف بصفة معلل التعليل. سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان الله ! ماشاء الله كان ! حسبي الله !

---

(١) سورة « القصص » آية ٥٦ .

إيه ! بالله عليك يأيها الباحث السالك : ماالذى زادك فى عادتك حتى تهتَ فى فلاة هفوتك تيه التالف الهالك ؟ هل ضاقت عليك المسالك ؟ أم جهلت حج حجتك لا حج المناسك ؟ أو خدعك باطل المموّه بسيرة المنقطع الناسك ؟ بحياتك ، بأى وجه تصرف وجه وصول نعمة النهاية من مقابلة مرآة الهداية ، وتوجهه إلى غير أصول البداية ؟ وبعيشك أخبرنى عن بصيرتك : هل جازت على سيرتك ، أم كادت على حاكم سريرتك ؟ أعوذ بالله من عدوّ الله الذى يصد العديم عن طريق الرحيم ، ويحمله إلى حيز اللعين الرجيم . خطر لى أن أنصحك ، فاقبل نصيحتى . وحاصلها : يا هذا إن استطعت تكمل إنسانيتك وتحررها من رق طلب كمالها ، وتجرّدها بتخصيص مهمل جمالها ، وتحسنها بتفسير مجمل فصولها — فانقطع فى مغارة الفوز حيث انقطع المحققون ، تجد ثمرة الجد التى تثمر الجد وهى واحدة تولد واحداً مثل شجرة الموز ، وهى الإنسان النبيه أنفع من أبيه ، وأكشف للعلوم من أبيه ، وبها يحصل المعنى الذى هو المتقدم منه يتلف بوجود المتأخر مثل النبات المسمى قاتل أبيه . واصبر على مكابدتها ، ولا تستوحش من وحش حشوها ، ولا تمرح فى ميدان البطالة حيث تختبر مطايا الباطل . وفرّ عن فحشها فإن مركوب الهوى يعثر فى التلف براكبه ويهوى فى الهاوية بصاحبه . واستجلبْ فى تلك الغربة للغريب ، وكلم بالمقرب المقرب القريب ، واعتمد على ما فى حاصل جنانك لا على غرْب لسانك وبهتان برهانك ، فإن همّام الدنيا مهموم ، وذمّام العليا فيها عند الله مذموم . ثم دُمْ على إحسانك وإيمانك ، فكم بين خوفك وأمانك ! وإن أردت تعجيل مدلول هذه الوصية [١٢٠] الصالحة التى تجارتها رابحة وسعادتها ناجحة ، وموازين رشدها راجحة — تأمل شخوص عين روح حبيب الجليل وانتقال وجه توجُّه قلْب الخليل ، وكيف ثبتت ملاحظة هذا حتى وقعت العين على العين ، ولم تُخْرِج إلى الكم والكيف والأين وما اشتغل بمدرك مقدَّر فى البسيط ، أو محمول فى المركب . واطّلع على الملكوت قبل تصفح أحوال الكوكب والفلك الأطلس والمكوكب ، وكيف استقام تصفح هذا ومتابعة الأشياء العسيرة شيئاً شيئاً ، وسبر مساحة افتقارها بطول التأمل الخالص المخصص فى الطول والعرض حتى حصل الحاصل الأول المعلوم الأول عند الأخير الأول ، فاطر السموات والأرض ، فأظهر الله عبرة الأول لأهل البصائر والسرائر وعبرة الآخر لذوى الأبصار والإبصار بالصنائع لا بالضمائر ، هذا مع الحال والخبر والآخر مع الفكر

والأثر ، وأدرك آخر أمره أول أمر ذلك ، ولأجل ذلك ما هو كذلك ، ولا يسع لسان الإنصاف إلا أن يقول : يا والداه ! لست من رجاله ، ولا رجالك كرجاله ، هو غريب فى مجاله ، وفى أفراحه وأوجاله ، وحقق النظر فيهاواحفظ الأثر المسموع من فيها ، وإن هممت بالاستقلال قبل الاعتدال فاعزم على قطع وهم الاختلال ، ولاتضرَّ نفسك بضرَّتين ، والمؤمن لايلدغ من جُحرٍ مرتين . وبالجملة : عليك بالشريعة ، فالسعيد مَنْ تعلق بأذيالها ، وزلزل نفسه زلزالها ، وأخرج بالخشية من عينه أثقالها ، ورفع بقوة التبعية عن النسمة أوحالها ، وكان بحيث تكاد فراسته تحدث أن الله أوحى لها ، حبيبنا صاحبنا مدبرنا . يا نحن ، يا هنا ، بل يا أنا ! عصمك الله وإيانا من الزلل ، ومن علة الكَلل والخلَل ، ومن القبيح فى كل الملل والكسل . إن أخبرك الوسواس حال هفوة مابضد هذه النكتة ، ويخطر ببالك أنها جاءت على جهة التوبيخ والجدل ، وأنها من قبيل الحكايات والمثل ، فاخرج عن خيال هذا الخاطر ، فإنه لايجمل بالقاطن ، ولا بالخاطر ، وادفعه بقوله : « وكان الإنسان أكثر شىء جدَلا »[1] بل بقوله « بئس للظالمين بدلا »[2] ، وآخرها سلام الله على أهله وأهلها من كل الجهات وعلى المنيب ، كذلك ، وعلى القريب من ذلك ، وعلى من هو دون ذلك ومن كان بضد أولئك أو ذلك فعليه سلام الله عادة وشريعة فقط ، وإن كان مطلقاً فيكون تخلقا . هذا كتابٌ أكثرُ فوائد من الأربعين ، نعم ومن المائة المتوجهة ، ومن الثانى ثم الثالث . ومن فهم مرادى فيه كان فى زمانه بل فى قرنه لا ثانى له ولا ثالث ، وفيه معانٍ تُدْهش الشايب والناشىء ؛ يعلمها العليم ، والضد يعترضها بالصنايع وبالقيل والقال صحبة العرف الفاشى ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الله فقط : خُذْ نفسك اليوم بتحسين أخبارها ، واجتمع فى ذاتك بالكلية ، ويصلك فتح الله المشخص . ثم اقطع ذلك الخبر بعينه وفرِّق المجتمع [١٢٩] تصِلْ بذلك إلى الله و يُفتَحْ به ما تشاء . وهذه أدوات الخواص لصنائعهم المحصلة فى جملة من فطرته واسطته إلى مافيها بالقوة . الله يعلم أن كلام الرجال نوره المرشد ، وهو يعلم أنهم نوره المستعار ، و هو محيط أنهم نعمته الكاملة. من توجه إلى حبك به اصطفه ، فإنه بذلك أنت المحرك ، ولاتهمل حقه . ومن كان بالعكس عامِلْه بحسب ذلك إن أنت قلت آه من غير أجل الحق ، وفى ذات عادتك فآه آه آه على ضميرك الراجع إلى وهْم نسبتك

---

(١) سورة « الكهف » آية ٥٤ . (٢) سورة « الكهف » آية ٥٠ .

الواقفة . وإن قلت ذلك من أجله بالجملة فنِعْم الحال ونِعْم الوصف ونعم ما قلت ، غير أنك غير الذى تختاره فى وهم كمالك . وإن كنت ذلك فى ذات شكل مألوفك طاب عَيْشٌ من جمع واحده على شمائله . الحمد لله على كُنهه المكتسب ، وأعوذ بالله من أضداد التوفيق . « أفى الله شك ؟ »[1] لقد طال عذاب من بحث عن الله ! وما أطيب عيش من أشار إليه أو وجده ! سلام عليك ! ما أشوقنى لصلاح حالك ! والحمد لله وحده .

الله فقط . يا هَمّام ! اهتمامك بماهية هِمّتك هو هَمُّك الأهم ، فعجِّلْ باهتبال عين كمالك ، ويكون شوقك إليه لا يتبدل إمّا العمر كله وإما فى أكثر الزمان فإنهُ وَكْدُكَ الذى يجب أن تحصله ماهية قرة العين . سلام الله عليك ذلك الصاحب أهلًا وسهلًا بك. يابْدَ الغبطة ، كيف حالك الثابت ؟ لقد همت النفس النفيسة بالكمال ، وهمّ بها لولا أن رأت برهان ربها . فلو أبصرت برهان ذاتها لم يعرض هو ولم تستغفرهى. يا أسفا على الجهل بجميل جمال يوسف ! لمن توجه إبراهيم إلى آخر من نظر فيه أو إلى أوله أو إلى وسطه أو إلى ما بعد ذلك ولا هو بالجملة غير ذلك ، أو إلى أمر لا يوصف بالوجود ولا بالعدم أو انصرف إلى المتوجه وعن من أعرض فى ذلك وانتقل .

إنا لله وبه إليه راجعون ، بالرجوع الذى لا يعقل القَبْلَ والبَعْد والقُرْب والبُعْد ولا فى مجموعه حجة مكانة الخلة جعلتهُ يحجُّ الكنعانى بالقول وماهية مشارها وغايتها صرفته فى مدلول طلب المذكور بالفعل بعد ذلك ، لأنه ظفر بالكيفية وأدرك التصرف فيه . فنعم ما فعل فى تطوره ، ثم فى كشف المذكور الخاص ، ثم فى توقفه فى المقدر ، ثم فى تصريفه فى بعض آثار المألوف ! لا بد لكل رجل من يوم وكوكب وساعة فى ذلك اليوم وحكم لذلك الكوكب . وأنت يومك يوم الأحد ، وساعتك أوله ، وكوكبك الشمس ، وهو صاحب اليوم ، وهو أول الأيام . ولا بد لكل عارف من مقام ، ولو كان فوق المقامات لكان مقامه إلاّ مقام ، ومقامك التوحيد ، وأنت فى وقتك فيه واحد الحال فأنت أحَدِىٌّ مِنْ يومك ومقامك وحالك . فانسَ نَفْسك ، ولا تكترث بما كان فى تلك الساعة ، أعنى ساعة الاختبار فى يوم الجمعة الفارطة ، فهى الساعة المشار إليها فيه ، بل هذه تزيد

(١) سورة « إبراهيم » آية ١٠ .

عليها ولأنها كانت داخل الذهن وخارجه ومحبة الاستعمال والتشبيه [١٢٢] بالخواص والظفر بخواصهم . ولولا أن الخبر لا يتوقف لقلت هى هى وأمرك كان الكاشف لما حتى أنك لو أرحتها لعلم وقت الساعة المبحوث عنها . فاحمد الله على نعمةالتخصيص . واستعذ من أهل السبت ، أهل الذل والتخصيص ، فهو اليوم الذى ذل به أهله قَبْلُ . والمنتسب إليه فى وقتنا هذا وكثير ما بين من ينتسب إلى الأحد ويقال له الأَحَدِىُّ ، وآخَرُ ينسب إلى أهل السبت ، ويقال له بذلك لا بغيره السَّبتى . استقام الموحد على صراط وحدته وتوحيده ، لأن الوحدة المحضة لا يمكن فيها الحيرة فإنها لا تصح فى أكثر من واحد . وهـذا الصراط لا امتداد له ، وهو أقرب إلى النقطة من الخط .

بحياتك لاتلتفت حـ إلى ـ الموتى ، وبعيشك لاتتحدث إلا فى عيش الآخرة ، وبحق الحق لاتسأل عن أهل الباطل . قل « قل اللهم مالكَ المُلْك » (١) وقل « قل هو الله أحد » (٢) ، قل « قل أعوذ بربِ الفلق » (٣) قل « قل أعوذ برب الناس » (٤) من الوهم ومن السكون بعده ومن المقدر والمألوف ومن من وأمثالها لأنها تتعلق بغير حق. ثم قل « قل يأيها الكافرون » (٥) فهوحالك معذلك الحالك إلى آخرها . لو كان فيهما موجود غير الله لـكان الله ، وبالوهم لفسدت . حافظ على القضايا والقضية الوسطى من كل الجهات، إيش تقول إذا قيل لك : مَنْ أنت؟ ما يكون جوابك إذا قيل لك : «ألا له الخلق والأمر (٦) » ؟ بماذا تستدل على ثبوت العالم وأنت قد سمعت ترجمان الغيب يقول أصدق كلمة قالها الشاعر كذا وكذا يا حق « أفى الله شك ؟ » . خير الكتب من كان ختامه مِسْك ومُسْك لأن ذلك لا يكون إلا من أجل أمر ما عظيم وآخر بعده أعظم منه . الله أعلم حيث يجعل تلك . والسلام على غاية قصدك منك وفيك .

الله فقط ! يا قُرَّة العين فى الغالب أو بالقوة ! بالله عليك اعتدِلْ واملأ صدرك من الله ، ثم قسِّم ذلك النصيب الشريف على جملة قواك الروحانية والجسمانية ، وافعَل بحسب ذلك ثم افعل ، ولازم

---

(١) سورة « آل عمران » آية ٢٦ .
(٢) سورة « الاخلاص » آية ١ .
(٣) سورة « الفلق » آية ١ .
(٤) سورة « الناس » آية ١ .
(٥) سورة « الكافرون » آية ١ .
(٦) « سورة الأعراف» ٥٤ .

حُبَّ الله حتى يظهر أو يظهر جاهُ ذاته بالذات فى الذات . وما أجلَّ ذلك ولو كان مَرَّةً فى العمر . وكثير بين من يتطور فى الأحوال ، وبين آخر بذلك النصيب بحقه على مهجتك الجليلة . خُذْ نفسك النفيسة باستجلاب ذلك ، واحمل عليها تلك الحلاوة . يابنية الحديين ! طال تنبيه الناصح المنبِّه، فانتبه ، فإنك بقولك لا بفعالك ولا بمقاماتك له وبه — وقل : « قل متاع الدنيا قليل »(١) . حتى امتحانها وقواطعها كيف يخاف عرض الفعل من هو جوهر الذات ، وآنيته تالية ، وفى مقابلته الأنموذج المترجم عن القبول ، وبين عينيه نوره الكاشف ورأيه النص على رأس مكانته ، وقلم الظفر يكتب : « الحمد لله على نعمه » ، ولسان العز يقول « كلمة الله هى العليا (٢) » مَنْ أقرَّ بالله ينبغى أن يتهم مدلول إيمانه ويحرره بالصدق الرابط لأجزاء علة الوصول ويصرفه فى كل أحواله ولا يجتمع من الحلو والمرّ أعنى من المعتقد ، فإن الجميع عن الله فقط بل يصبر أو يتلذذ ويجمع [١٢٣] بين الأحوال المكتسبة والطبيعية والمألوفة الجارية فى مجرى المكتسبة ، ثم ينظرها بنظر آخر أقرب من الأوّل إليه بل بآخر أقرب من الأول إليه، بل بآخر أقرب من ذلك ثم يلاحظ القضايا منه بالفعل، وإن كان الوهم يمنع ملاحظتها فقد يعلم ويتأنس بالنكتة المرتكزة الموقتة . من قال الله معى والله شاهدى والله حاضرى والله محيط بكل الأكوان المقدرة والحاضرة والذاهبة وبجميع ما هو من هذا القبيل الذى ينسب بالإضافة إلىّ ولا يصح إلاّ بوهم العبودية كيف يخاف أضعف الأوهام ؟ أرْجع البَصَر كرَّتين . عجبت من أمرك حتى لا شيء عندى أعجب منه : مرة تتحقق المطلوب وتتشوق إليه وتكون معه بكمالك وتحتوى عليه وتستقل أو تستجهل سَهْل بن عبد الله بل سهل بن مالك ، وأخرى تنقلب إلى ضدّ ذلك كله حتى يستخف منك المضمار على لسان حال سحنون من أتباع مالك(٣) .

---

(١) سورة النساء آية ٧٧ . (٢) سورة « التوبة » آية ٤٠ .

(٣) سهل بن عبد الله التسترى ، الصوفى الشهير ، توفى سنة ٢٨٣ هـ .

(راجع عنه « طبقات السلمى » ص ٢٠٦ — ٢١١ ، «حلية الأولياء» جـ ١٠ ص ١٨٩—٢١٢ ، « صفة الصفوة » جـ ٤ ص ٤٦ — ٤٩ ، « الرسالة القشيرية » ص ١٨) .

أما سحنون فهو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى ولد سنة ١٦٠هـ وتوفى فى سنة ٢٤٠هـ .

(راجع ابن خلكان رقم ٣٥٥ ، و« الديباج المذهب » ص ١٦٠) .

بأى حقّ تبدل حضرة الحق بحضرة الشيطان ؟ أعنى ما الذى حَمَلَك على تخصيص الوهم وإهمال الحق ؟ كُفّ عن متابعة التوقع ، واقطع حبل التذلل بمُدْيَة التدلّل ، واجمع الأشياء إليه واحكم عليها به وانظرها منه ، ولا تنكر الله على أى حال كان ، ولا تحب منه البعض وتكره البعض ، أعنى من حكمه وأفعاله وما تعلم منه وما هو عليه . بالله عليك لا تلتفت إلى وهم المبطل المموّه الغبىّ ، فإنه قتيل سنانه ومذموم لسانه ومخزون جنانه وجاهه قد سقط من عين الأمل المحمود سقطاً ، ورزقه لو مر عليه الطائر الخائف للقطه لقطاً . لا تقل إلى الله أشكو بثّى وحَزَنى وأنت محدى الطريق ؛ وافهم ما جاء فى قوله « واذكرنى عند ربك »[1] من حيث حال يوسف الصديق ، وفكر فى فكر أبى بكر الصديق الوقوف مع قوله : « قُلْ كلٌ مِنْ عندالله » صرف الوجه عن ملاحظة مقام الدعاء والغبطة بقوله : « قُلْ كلٌ يعمل على شاكلته »[2] وقف تردد الذهن فى قوله تعالى : « ورَبُّك يخلق مايشاء ويختار »[3] ومفهوم قوله « أفى الله شك »[4] فى مكان جمع الوحدة عطل اللسان عن ذكر لاحول ولا قوة إلا بالله ، والرضوان القريب محبة استصحاب المنة يفضل على كنز من كنوز الجنة .

ذكَرَ بَعْضُ الرجال عن رجل خَلَعَ الإنسانية المُشَخصة وكان الشىء الذى يقال له فى الإنسان الضمير يتكلم فيه وحده ويفصل عن الأزل بالمكانة حتى كان يصل ويستجيب فيه جميع المطلوب بوجه عزيز بالنظر إلى القطب الأمضى ، وذليل بالنظر إلى الأكل ، وهو الذى لا يصحُّ فى حقه ذلك أنه كان يقول إذا انحطّ فى وقت الفرق المميِّز له عن علل المشاكلة . يا لله ! إن كنت وكلْتَ الوهم بالضمائر وأطلقت له ذلك فعساك تستثنى منه خطفة الكسل ، فإنها تجر إلى نفوره عنك ، ويفوته ملاحظة جلالك .

جاء بعض الرجال إلى رجل قد تركبت طبيعته من ذلك ومن ذلك وذلك بالأقل والأكثر فى بعض المظاهر الجنسية الطارئة ، وقال له : « لم تنظر غير مقصودك ؟ » قال له : « لأنى وجدته حتى [١٢٤] فى قولك « غير » ، فهو المثل والغير » . فإذا كان الضمير لا يتوقف إلا فى القول به حتى يزيله ويكون عند هذا بمعنى واحد ، كَفَّ الضمير عن التلاعب المهْلِك له والصدق المحض يقول لا شك فى الشك ولا يقين فى اليقين لأن الأمور الراجعة إلى الاستحقاق لا تنفكُّ عن الأحكام

---

(١) سورة يوسف آية ٤٢ .
(٢) سورة الإسراء آية ٨٤ .
(٣) سورة القصص آية ٦٨ .
(٤) سورة إبراهيم آية ١٠ .

المخيّلة . هلك بعض الناس بمتابعة الأمر والنهي والـكلام في الروحاني وفي الجسماني وفي النفوس إذا توجهت عجائب لا تُحَدّ ولا تـكيّف . ومن عزم على تحصيل نصيبه وسَبَبِه قد قرب ثم يقف بعد ذلك — فقد انحطّ وزال عن يمين الـكمال وانتقل إلى شماله .

اذكر الله ثم قل عقب الذكر كف ، واذكر ثم قل كان ، واذكر ثم قل ثبت ، واذكر ولا تخبر ، واذكر وحرر ، واذكر وكرر نازلة إبراهيم : عرفها المختار وسلمها الصديق وطلب المحدث أن يحدث بها وتعـذّر عليه الحال . رب الجميع قسم النسب ، ووكل على محـل البهتان العلل والسبب ، والرجل الـكامل لا يختلف في قصده ويتنوع أمر طلبه من قبيل هذا كله . سلام الله على الظاهر والباطن منك ورحمة الله وبركاته !

الله فقط ! حفظكم الله ! نَفْسُ الوليّ مملوءةٌ بواحدها ، وهو المستولى على جملتها فلذلك لا تسأل عن غيره ، ولا تسأله شيئاً . ومجموعها ينحلّ إليها في صفة وَهْمِ نفسها ، ووجودُها يرجع إليه ، فشرُّها من نفسها أي من ذاتياتها . وهي أوهامها وخيرها أي وجودها . وفضل الله فيها من الله . فمن قال أنا بالوهم ما أنا به هوية ، وبالوجود ما أنا به آنية . والوهم والهوية إذا تشخص فيه أي بالله قال : كان ذلك من عند الله ، ويقرأ ضميره « ما أصابك مِنْ حَسَنَةٍ فمن الله »[1] يريد من جميع ما يظهر على جملتك المحررة ، — « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أي بما هي به أعني الوهم أو العدم ، وإنما يخشى الله من عباده العلماء . نبهت الضعفاء وأخبرت بشأن السعيد الموحد وكأنه قال من يعلم الله على ما يجب وبقدر ما يمكن من الإنسان المعتبر لا يخشى إلا إياه ، لأنه هو الفاعل في الغير ذلك ، وإليه يرجع الأمر كله . ومن خاف غير الله ، وذلك الغير يفعل أو ينفعل له الوهم ، لم يعلم الله حق معرفته ولم يشهد الله له بذلك ولا قال إنما . وقوله : « شهد الله »[2] الآية يدل على الوَحدة المطلقة والتوحيد السالم من علل المحتملات كلها لأنه لا يصحّ التوحيد ممن أشرك بالله بوجهٍ ما . والآية الشارحة لتلك وتلك قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أنداداً »[3] الآية وكون الله قال إن العالم هو

---

(١) سورة النساء آية ٧٩ . (٢) سورة آل عمران آية ١٨ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٢ .

الذى يخشاه وقد وجدنا بعض المخلوقات يخافها الكامل ، والشارع يأمره بخوفها ، والله قد أخبر بحصر الخوف ولم يجعله إلاّ منه ، فدل أنه ذلك المخوف كيفما كان . فقد أخبر عن نفسه فى المظاهر وفى المياكل ووحدة الوجود يشهد لسان حالها بذلك فهو هو . والفرق بين العالم والجاهل فى ذلك الخوف هو أن الجاهل يخاف الله[1] [١٢٥] ... أنت وسط فافهم . وقد ذكر سيدنا رضى الله عنه بعض هذا فى السلام فقال منهم الكلمة الجامعة المانعة ، والحقيقة الجاذبة الدافعة ، والآنية المرسلة ، والهوية السارية ، والخط الممدود والدائرة المحيطة ، فافهم ياهذا . الحج يفيد خرق العادة وموت الشهوات والخروج من كون ذل الطلب والإقامة فى الحضرة وفهم أمثلة العالم وفك مُعَمّى الوجود ، وكشف حقائق الموجودات ، وقطع أوهام الزمان والمكان ، وفهم أسرار الشريعة ، وعلم نكت الأنبياء عليهم السلام ، والاطلاع على أحوال القيامة ويفيدك السعادة ويقيمك فى رضوان الله وأسرار الحج ونكته ومثاله هو سيدى وسيدك الذى نحن نقتدى به ونحن تحت نعمه التى لا تحصى ، بل نحن نشأه وماهياتنا له من كل الجهات فعليك بمحبته واستغراق الحال فى ذلك ، وامتثال أمره ، والأدب معه ، والتشبه به والتخلق بأخلاقه على قدر الاستطاعة . واستجلب رضوانه ، ولازم طريقه ، وراقبه فى القرب والبعد ، واحمد الله الذى قبلك وجعلك من أصحابه ، واحترم أصحابه إخوانك وتعلق بكبارهم واطلب طريقه ومعرفته منهم فهم مظاهره ، ولا توافق نفسك فى مرادها فيفسد عليك جميع ما ذكر . وقد نصحتك وكتبتها للمستحق لها ولك بالقصد الأول ولا تمنعها من مستحقها .

قال ذلك يحيى بن أحمد بن سليمان البلنسى بالنسبة العرضية ، بن عبد الحق بن سبعين بالنسبة الذاتية . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً دائماً إلى يوم الدين .

(١) التعقيب فى ص ١٢٤ لفظة « الله » ولكن أول الكلام بصفحة ١٢٥ لفظة أنت ، وواضح أن ها هنا ورقا سقط ، وأن ما يتلو ماخوذ من رسالة أخرى .

الرسالة القوسية

لابن سبعين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم كثيراً دائماً

أصدق كلمة قالها القائل[1] : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

سألت أيها الصوفى السُّنِّى السَّنِىّ السَّيد السرىّ الذى سلك سبيل صَرْم التسويف وصرفه ، وملك نيل جزم التصريف وجذبه ، وخير خل خدينه فى التوجه فيه لله وحده ذلك منه وأَبَى ، وصير سر دينه عبد يقينه الإلٰهى الذى زَلّ وَكَبَا ، وفهم مسالك السور ومهالك الصور ، وخصص بالتقوى فى فصل العادة والعبادة ، وأسس بالتقرب أصل السيادة والسعادة ، وسارعَ فى الخيرات ولم يسارع فى الخيرات جوابا — سألت عن مدلول كلمات ملمه(؟) قدّرت صيَغها عن خواصّ الخواصّ وسُطِّرَت قصصها بعد خلاص الخواص ، لفظوا بها بعد خفض جناح الذل نفس الحال المضار ، ورفض جناح الكل فى المضمار ، وقوة قلة الالتفات إلى خلفهم وأمامهم ، وزوال زلة الالتفات عن سلفهم وإمامهم ومنهم من أطلقها فى حال الصحو بالقصد الاشتراط بالضد ، ومنهم [١٢٦] من تكلم بها مع أول حكم المحو والغيبة عن الاحتياط والرسم والحد ، ومنهم من لفظ بها على جهة الإلزام وقيد قوله ، ومنهم من أشار إليها ولم يحرك بها بقوله . وبالجملة هذه الكلمات المسئول عنها المشار إليها عند الصوفية فى الوجه الأول لازمة لأهل السلوك إذا لاح لهم بارق مقام الوصول فى التخلد ، ولأهل مقام الوصول إذا صرفوا الهمة إلى الهوية المحضة ، وعطفوا على الآنية المتوحدة ، ثم ربطوا القصد الأصلى والتوجه لمن هى آنيته وهويته واحدة ، مستحق كل آنية وهوية

---

(١) اى الشاعر لبيد .

متعددة بالإلزام ، ووجدوا الإضافة وصرفوا الضمير والإشارة بالعبارة وما أشبه ذلك تحت حد التلف ورسم السلف والمتكلم بها والمشير لمدلولها . وقد توجد من جميع الجهات فى هـذه المنزلة وحذف الوسائط كلها ، وذلك فيما هو إليه لا على ما هو عليه . وأهل التحقيق بخلاف ذلك وجميع من ذكر نقطة من بحرهم وذرة فى قفرهم وهو عندهم بمثابة السكران الذى يسكر من كاف اسم الكرم ، ويموه بالأمر العرضىّ وهو قد عدم الشأن الجوهرىّ ، ولا بأس بالاستغراق والشطحات والوله وإفراط الأحوال وتتبع التوحيد إذا جبر كَسْرُ عَظْم الاحترام ، وأعطى كل ذى حق حقه . ومن صحا وصحح أسراره محا الله إصراره . وكلٌ الكلمات المذكورة — أكرمك الله — التى سألت عن مدلولها تحت كلة متقدمة على جميعها بجميع أنحاء التقدم كتقدم المتكلم بها على المتكلم بالكلمات المذكورة حتى فى ترتيبها فى الكتاب وفى قوة الجواب . وأنا قد استخرت الله تعالى فى الكلام على مقصودك ، وما خاب من استخار ولا أدبر فى هزيمته من دَبَّر وفكر فى عزيمته . وأسأل الله العظيم أن يهب لنا الفهم فى مكنون ديننا ، وفك مُعَمَّى الذى طلب منا خليل خديننا ، ويعيننا على حمل أمانتنا وشكر سلامتنا ويرزقنا إيماناً نرجو به أماناً ، وإسلاماً يجلب لنا سلاماً ، وإخلاصاً يجر لنا خلاصاً ، ويبصرنا الحكمة ويجرد لنا أسماها وخصصها ورسمها ، ويفرج بناهم الهمم التى كابدت الدهر حتى قصم منها الظهر، ويقينا شرور الأعتياء ، ويجعل سريرتنا تشتغل بالزهد والطاعة ، وتبذل الجهد فى الاستطاعة ، ويحيينا حياه طيبة فى نفس مطمئنة فى حضرة فياضة تنادى محبوبها بحالها من حاله يا حبيب الحى حيا الحر حياه ، ومن استحيى من الله حياه . ومن شغف بتمحيص ما صدر من أحلام الأكابر بعبارته وفهمه ، وتخليص ما ظهر فى أحلام الأصاغر بعبارته ووهمه ، وبادر بالانتماء إلى خدمتهم ، والانحياز جهتهم ، والمباهاة بالاتصال إلى محامدهم النفيسة ، والبراعة فى الاتكال على مقاصدهم الرئيسة — ظفر بالحق وقطع كل الكون وأكل من كل لون وتوحَّد وجرَّد وشاهد الأمور العظيمة بعين آنيته الواردة عليه بعد الاستمداد وإفراط الانقياد ورفع الاستبداد وتجوهر بماهيتها وتطور فى مراتب أدوار آنيتها وزلزل قدم السلب والإيجاب [١٢٧] بعد وقته الفانى وثبَّت قدم الأدب والاكتئاب قبل موته الثانى ، وأحضر بعد حضوره فيه ومغيبه عنه وخروجه عنه ورجوعه له فى حضرة التمكين الفاضلة المحمولة على هويات الهمم الواصلة الموضوعة لآنيات الصور الحاصلة ، ثم يحضر فى الحضرة الحاضرة التى هماماها غير مهموم وذمامها غير مذموم ، ثم يصرف

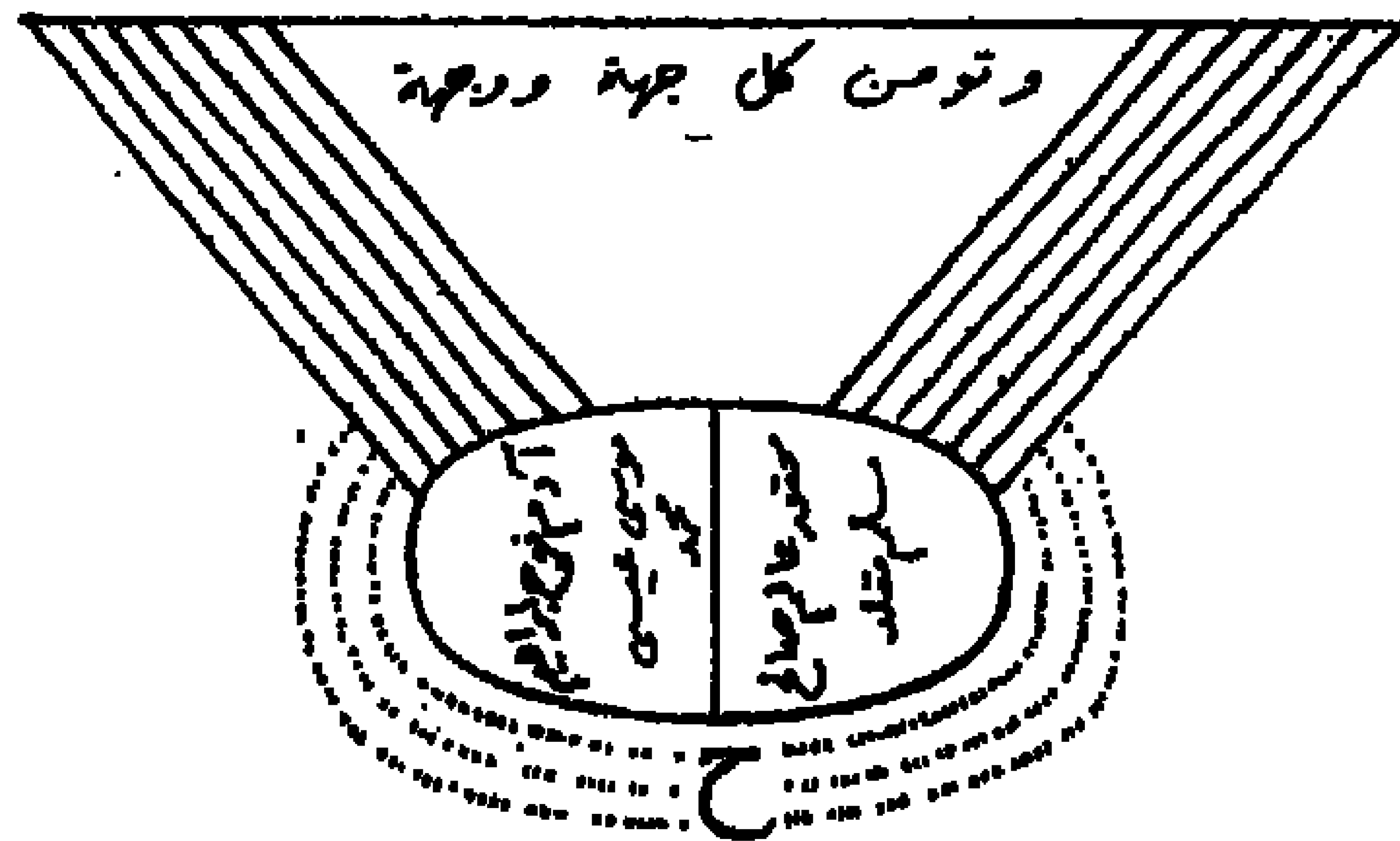
لسانه المضاف الذى يشار ويشار إليه ، ويعتقد ويعتمد عليه ، ويقرر عند ذلك ما تقدم . وحينئذ يبدأ بالذى بدأ به واللذة الأولى ، ويدخل فى عباد الله المخلصين ، ويفتح باب الحقائق ، ويضحك من حاله الأول ويخبر إذا أخبر عن نفسه لا عن الأول بالأول — فافهم — ويتوب من خطيئته المفقودة الواقع بعد السجود ، ويقرر عند ذلك على شأنه المتوسط بين الممكن المقدر والواجب المنفصل ، ويتنزه فى الجنة التى تحصل بشرط الأدب ويسكن فيها بإفراط المحافظة ويقيم فيها السعيد على خطر . وهو يلاحظ خطر شؤم شجرة موضوعة المضاف إليه بالمضار ، ويراقب حياة نفسها الثانية عن النفس النباتية ويتحفظ من محرك الشؤم فى الشجرة الملعونة أن تدخل محبة الحية المذكورة ، ثم يتوجه إلى مقصوده بصناعة التركيب ثلاث مرات ، ويجوز على مقامات ثلاث ، ويشكر الله العظيم على قطع العلائق وما أنعم به عليه من معرفة ملكوت كون الخلائق وخلاص طبيعة نفسه المحمولة على موضوع حركة لواحق حسه من عالم الطبيعة وما بعدها ، ووصوله إلى علم الوحدة وحضرة التوحيد ، ومعرفة الواحد ويفتح باب الغاية ويدخل إلى حضرة النهاية التاسعة ويكلم المعلوم الممكن بكنهه ويشاهد المعروف الواجب بجوهره ويعلم أن العالم والعلم والمعلوم واحد ويعلم ما لم يكن يعلم ، ويفتح له باب الألوهية ويبصر الوسائل والدرجات الرفيعة ، ويراقب الرفيق الأعلى ويلبس ليس ويسلب أيس وبالعكس ، ويسمى نفسه بمداول الأسماء الحسنى ويناديها به ويكثر من ذلك حتى يستجيب له الاسم الأعظم من مجموعها فيه — فافهم — ويدعو به ويملك فى الحين كل الكمالات الصديقية ، ويمكن من عالمها ويستخلف فى المنوطات كلها ويحكم على عالم السفر المرسلة ، ويتصرف فى رتب الحيل المنزلة ويشتغل بتدبير الضم ويمتحن بالحين والكم ، ويزيد على أبى يزيد [1] ويسال عن سيوف الشبلى والسرى [2] ويشرف على شأن شيخ الشوذى ويقول لأهل القرن الثانى والثالث والرابع قد نسخ حكم مزية تحقيقكم وصيته فى السابع ويصح له تبعية والد شرفه الثالث التالى للأب الثانى والأول صلى الله عليه وعليهما وعلى ما بينه وبينهما من النبيئين والمرسلين . وإذا كمل أمره وظهر

(١) أى أبى يزيد البسطامى ، راجع عنه كتابنا « شطحات الصوفية » ج ١ القاهرة ١٩٤٩ .

(٢) الشبلى هو الشبلى البغدادى ، والسرى هو السرى السقطى . (راجع عن الأول « الطبقات » للسلمى ص ٣٣٧ — ٣٤٨ ، « والحلية » ج ١٠ ص ٣٦٦ — ٣٧٥ ، و « صفة الصفوة » ج ٢ ص ٢٥٨ — ٢٦٠ ، وابن خلكان ج ١ ص ٢٢٥ ، وراجع عن السرى : « الطبقات » للسلمى ص ٤٨ — ٥٥ ، و « الحلية » ج ١٠ ص ١١٦ — ١٢٦ ، و « صفة الصفوة » ج ٢ ص ٢٠٩ — ٢١٨ ، وابن خلكان ج ١ ص ٢٥١) .

خيره واستقام سيره وسما على جادة سيده بإ مونه وسيرته مذ حط المغمار من [١٢٨] سيد ساداتهما الأب الثالث إلى والدهم الأول المذكور قبل ، وجعل نفسه فى أول الخط[1] نقطة لا كالجزء منه كما هو رسمها عند أهل التعليم النبهاء ، و نفس والد، الأول التى انتهى الخط عندها نقطة لا كالجزء منه بخلاف نقطته هو ثم نظر إلى أول الخط الذى بدأ من السيد ومرّ على السادات إلى السيّد ونظر إلى نفسه كما فرض فوجد الخط ينطوى بعضه على بعض ويرجع على نفسه ووجده مؤلفاً من النقط التى فرضها بالمعنى وأخرج نقطته عنها أدباً وقياساً ، ثم نظر إلى النقطة مفردة فألفاها مماثلة ونقطته المرسومة كذلك غير أنها خارجة عنهم من حيث المغمار المتقدم وداخلة معهم من حيث الأُبُوّة والبنوة والمماثلة ، ثم عاد نظره فى النسب والأنواع والأجناس وما يلزم عنها ونظر إلى خواصها ونظر فى معناها فى الخط المذكور ، ونظر فى لواحق كمالات الذين يمر عليهم الخط المذكور ، وحقق نظره فى مذاهبهم الإلهية وقطع أن الخط المذكور يتقوس بجهة ويمتد إلى غير نهاية بجهة أخرى ، وفرض فيه ظاهراً وباطناً وجعل فى ظاهره الاجتماع والتقويس ، وفى باطنه الافتراق والامتداد ، وكأنه فى التمثيل هذا الشكل المرسوم ، فتدبره ،وانظر إلى [وانظر إلى] الخطوط الموضوعة على باطنه الأعلى المتوازية المشار إليها بالمواهب الإلهية المفاضة على أربابها بحسب الأسماء الموضوعة لنا وانظر إلى ظاهره وإلى نقطته المتوهمة فى طرفيه ، ثم انظر إلى تقويسها وقل الجنس يجمع بالضرورة ، والفصل يعرف بالذات ، ثم قل النوع يجمع بالطبع ، والأعراض تفرق فى وقت ما ، ثم قل النسب تجمع والخواص تفرق بوجه لازم . فافهم واحفظ ماهية سعادتك بالتقويس وبعدها التقويس والله الموفق .

تمت « القوسية » بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده .



(١) ص : الخبط .

(١)
عهد ابن سبعين لتلاميذه

[٢] بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

يا هذا ! هل عمرك إلا كلمح ، أو إعطاء مُكْدٍ لا سمح ؟ ! وآمالك لهو وَعَلَل ، وأسحارك سهو وعِلَلٌ . وما سرورك إن صدر ، إلا وساء كدر . والغرض[٢] فى تحصيل الكمالات وأسبابها والتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية وبما يجب كما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب والاتصاف بالحكمة التى تفيد الصورة المتممة للسعيد ، وبالحقيقة التى تقيمه فى الصور المقوِّمة وتعمل على نيل الآلات التى تعطى الحق بحسب ما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان .

وتُحكِّمُ الشارع — عليه السلام — على جملتك ، وتمتثل أوامره ، وتعتقد أنه الخير بالذات ، وتصل حبل المعروف وجميع ما استحسنه العقل وحرره النقل ، وحضت عليه الشريعة ، وتقطع حبل المنكر وضدَّ ما ذكر قبلُ ، وتتخلص من كل قاطع يقطعك عن الله بعد ما تتصف بالعلوم الضرورية التى لا يحملها أحد عن أحد فى عرف الشريعة ، وبالأعمال التى تلزم لزوم هذه العلوم ، وبالعلوم التى تدخل بها فى زمرة الحكماء ، وبالحقيقة الجامعة التى فيها نتيجة الشرائع وغاية الحكمة وهى علوم التحقيق . وإن غلبت عليك شهوة حيوانية وما أشبه ذلك فاجبر وقتك مع الله بتوبة صادقة ، فإن بابه ما عليه بواب إلا رحمته خاصةً ورضوانه يأمرها بالمضمار .

---

(١) العنوان فى الورقة الخارجية التى بها أسماء الرسائل الواردة فى المجموع هو : « كتاب العقد وشرحه » .

(٢) يرد فى الشرح هكذا : « والغرض بحول الله تعالى فى تحصيل الكمالات . . . » . ويقصد : وإنما الغرض هو فى تحصيل . . .

واعلم أن مطالك مطال ومحالك محال . والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه ، والعلم للعلو علامة ، والسلم للعدو سلامة ، والصلح مع جملتك صلاح ، والدعاء بالإخلاص سلاح . وإياك من الأمل المهدوم ، ومن العمل المعدوم ، ومن الأمور التي تفسد حكمة العادة وأصول السعادة ؛ ومن الود مع الملل ، فإنه قبيح في كل الملل . والسعيد هو المصلح أعماله ، المطرح لله ماله . ولا تخالط إلا من قامت به الأوصاف المذكورة قبلُ إن استطعت ، وإلا الأمثل فالأمثل .

وحبيبك من يدبر أمر آخرتك ، ويعينك عليها ، ويذكرك بها ، ويهجرك ويصلك من أجلها . ومع هذا كله تَمَلَّهُ ورُحْ مملوء الراحة ، وَصِلْ وسِحْ < في >[1] الساحة ، ولا تغفل عن الدعوات المأثورة ، وأعظمها : اللهم اختر لي ، وأسماء الله < التي >[1] ما أحد معها مروع ، ولا سبيل إلى التعجب في قيامك وجلوسك ، وانتظر < >[1] وفلوسك . والتقي هو الذي طَرْفُهُ في حبوته مغضوض ، وخد البغي في < حضرته >[1] [٣] معضوض ، وهو الذي لا يرفل في أثواب اللاهي ، ولا يغفل عن ثواب الله . فإذا الله تاب عليه أنابه هو إليه ، وتأهب لجواز العقاب ، وكفاه الله سوء العقاب . والشرير الجاهل هو الذي لا يعرف معروفاً ، ويحسب ماله من البحر مغروفاً ، ونفسه تطمح وتشح ، ويده تجمع ولا تسح . فإذا قضى الله وفاته ، خانه الأمل وفاته .

فقد عاهدتك على هذا ، ورضيتك تلميذاً ، وجعلتك مع الأصحاب الذين يخاطبهم لسان الحال غبطة ويقول لهم : لا تكثرون وأنتم ترثون . وأشهد الله عليك العليم بخفيات الصدور ، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويجيب نفثات المصدور . وقد رجوت لك خبر الخلاص وخير الإخلاص . وصلى الله على الشرط في نيل الشرف والكمال ، محمد وآدم وما بينهما من النبيين والمرسلين وسلم تسليما كثيراً أثيراً . وبعد هذا كله تبارك المبدى المعيد ، قد صدق الوعد والوعيد .

---

(١) مطموسة في الأصل .

< الشـــــرح >

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً دائماً .

نوّر الله بصيرتك بنور التوفيق ، وأيّدك بروح التصديق ، وخلص إنسانيتك بنيل التحقيق .

سألتنى أن أشرح لك المرسوم الذى يسمى « العهد » من كلام سيدنا وقدوتنا رضى الله عنه . ولححت علىّ فى ذلك وأنا أتأخر عنه فيما تقدم ، احتياطاً على فهمك والله أعلم بذلك . وقد أسعفتك فى شرحه وتأويله ، وبيان مقاصده فى الكمال الثانى وإشارات من الثالث ، وتبيين الأول ، وتركيب الكلام فيه من أقرب العوالم ، وتبليغه إلى التحقيق الأول . ونفيد أنموذجاً من مقاصد المؤلف ، فاخدمه بذهنه وتوجهك وبحثك . وتحرك ولا تسوف نفسك بما سوفهـا الجـاهل البطال المتخلف . والله يدخلك فى زمرة المتقين ، وينظم إنسانيتك فى سلك ذوات المحققين .

فنبدأ فنقول : قوله رضى الله عنه : « يا هذا ! » : « يا » حرف نداء ، كما تقول : « يا زيد » ، « يا عمرو » ، فلو وقع على شخص معين كان يقول : يا فلان . فلما لم يكن واقعاً على معين فهو نداء ، وجه المعنى يحتمل أن يقول يا هذا الإنسان الفقير ، يا هذا الفقير ، إذ الخطاب بالاستدعاء للسعادة يقع على كل عاقل ، فهذا النداء « يا هذا » هو وجه لكل إنسان عامل < > (١) لزوم العموم فى التكليف أو لكل نبيه يطالب رشده ولا يهمل الأمر الأزلى فى الله إذا [٤] جعلناه على الخصوص ، أو لكل غافل عن مصالحه ورشده مع كونه فى إمكانه تحصيل السعادة وفى قوته كسبها إذا جعلناه بمعنى الشبيه .

وقوله رضى الله عنه : « هل عمرك إلا كلمح » : « هل » حرف استفهام ، ومطلبها يبحث عن وجود الشىء . « والعمر » هو المدة التى أعطيت للإنسان فى الدنيا . « واللمح » هى الخطفة التى يختطفها البصر فى أول نظرة فى الزمان الفرد الذى لا يسع قضيتين ، كما تقول : لمحت فلاناً .

(١) مطموسة فى الأصل .

ولمحت كذا بمعنى أنه خطفه البصر ولم يحققه ولا كرر النظر فيه زماناً ثانياً . وكأنها النظرة التى تقع بفجأة من غير قصد ولا تقدمتها نية ولا إرادة . ولذلك لا يطالب بها الإنسان فى رؤية ذوى المحارم إلا إن كرر النظر بالقصد . وقد ضرب الله المثل بذلك فى سرعة أمره الواقع فى الكون الممكن فى قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر »[1] . ولما كان الماضى من الأحوال التى يخبر عنها العبد من وقته إلى أول أمره خير حاصل له فى الحالة الراهنة ، وكل ما تقدم من خير وشر قد ذهب ، والمستقبل كذلك غير حاصل ولا معتبر فى تلك الحالة بعينها — فلم يعتبر وجود حال إلا الحاصل القائم بك فى الزمان الفرد الذى أنت فيه على ما أنت عليه . فكأنه قال لك : « الماضى من زمانك قد انقرض وذهب ، والمستقبل ليس إيجاده فى كسبك ولا هو حاضر عندك ، فمالك عمر إلا الحال القائم بك . والحال القائم بك مثل لمحة البصر . فكيف تغتر بلمحة ذاهبة وتنقطع عن السعادة الثابتة الأبدية ! ؟ » ولما كانت الأحوال عرضاً والعرض لا يبقى زمنين[2] ، والعرض الثانى فى الزمان الثانى هو خلق فى ذلك الزمان بعينه والأول قد انقرض ، والأحوال تجدد على العبد الممكن فى كل زمان فرد ، وهى تسيل بالذهاب وتجديد الإيجاد مثل سيلان الماء فى الانخفاض وأسرع — جعلها كلمح . ولما كانت مخلوقة والحق يعطيها فى كل وقت وذهابها لعينها وإيجادها لفاعلها ، جعلها كإعطاء « مُكْدٍ لا سمح » فإعطاؤها هو إيجادها من الله ، والمكدى هو المنقطع وكان قطع الأحوال ذهابها فى ذاتها . وهذا معنى قوله رضى الله عنه : « أو إعطاء مكد لا سمح » . ومعنى « لا سمح » لا يمكن ثبوتها ، إذ هى من صفة نفسها تقتضى الذهاب وصفات الأنفس لا تنفعل ، ولا تتبدل . فقوله رضى الله عنه « لا سمح » معناه لا يمكن ثبوتها ، أعنى الأحوال فإنها ذاهبة فى طبيعتها وصفة نفسها وهى موجودة من حيث خلق الفاعل لها . فأحوال العبد تجدد فى كل زمان فرد ، ولا يعتبر فيها إلا الحال الحاضر ، إذ الماضى قد انقرض ، والآتى ليس بحاصل عنده ، فعمره هو زمان فرد وهو أقل الأشياء . وقد ضرب الله تعالى المثل فى قوله « وأعطى قليلا وأكدى »[3]

---

(١) سورة « القمر » آية : ٥٠

(٢) هذا مذهب الأشاعرة ، خصوصاً الباقلانى .

(٣) سورة « النجم » آية : ٣٥ .

فلا غير لك إلا الحال التى أنت فيها ، فلا تفتن بها فتنقطع عن النعيم المطلق . ولذلك عملت الصوفية على حفظ الوقت وأضربت عن الماضى والمستقبل . ولما علم الصوفى أن ما < >(١) [٥] ولا ملك إلا الوقت القائم به أخذ نفسه بمراعاته وحفظه ولم يصرفه إلا فى فرضات الله ، وهو عندهم الضيف الذى يكرمه بالحفظ والكلاءة . وقد قيل إن رجلا راهباً سأل سليمان — على نبينا وعليه السلام ! — « هل تجد لذة لما ذهب من ملكك ؟ » قال : « لا ، لأنه قد انقرض » . قال : « هل تجد لذة للآتى ؟ » قال : « لا ، لأنه غير حاصل » . قال له : « فإذاً ما فِتَّنِي(٢) بشىء » — وذلك لضيق الزمان الفرد وقلته ولقوة تداخل العدم معه . فكأنه عَدَمٌ لسرعة ذهابه وتبدله وهو الوقت عند الصوفية ، وهو السراب عند بعضهم الذى لا حقيقة له إلا مستعارة ، وهو الظل بوجه ما إذا أهملت حفظ الحاضر منه واشتغلت بالماضى والمستقبل . فهو ظل من حيث يحجب عن الحقيقة ، وهو الأحلام الذى أشار إليه سيدنا رضى الله عنه فى « الرسالة الفقيرية » بقوله : « السعيد هو الذى علم أن أيام الحياة أحلام »(٣) ، وذلك لقلة ثبوتها . وهو نقطة من النقط التى يتركب منها الخط أعنى خط عمرك إذ عمرك مجموع من أوقات . ولذلك كان بعضهم يحفظ الأنفاس ويعدها . وإليه أشار سيدنا رضى الله عنه فى «الإحاطة» بقوله : « وقتك من أجزاء ماهيتك ، فلا تعامله إلا بالخير » . وهو القاطع عند بعض الصوفية لمن أهمل حفظه ، وهو الحجاب له ، وهو الشيطان ، وهو الظلام ، وهو البعد لمن اغتر بعاجله ، وهو الموصل لمن حفظه وانصرف به إلى فاعله ، وهو المطية الموصلة إلى المقصود ، وهو النور إذا نظر فيه الأصل ، وبالجمع فيه يشعر بالهاتف والبادِه والوارد وبه تستنزل الأحوال الكاشفة ، وفيه تنزل البشرى أو تقع المشاهدة إذا أصرف . وهو نفس الهاتف والوارد والطارق والهاجس بوجه آخر . وهو الطيف من سرعته . ومن وجه آخر هو فرع لا يوجد مع أصله ، ونوع يذهب فى جنسه ولا يتعين فى فصله ، وهو كلمة ترجع على قائلها وقضية مثبتها زائلها وهو

---

(١) مطموس فى الأصل .

(٢) ص : فتنى — أى ما أفدتنى بشىء .

(٣) هذا بعينه هو عنوان مسرحية كالدرون المشهورة La Vida es Sueno فهل يكون اخذه عن ابن سبعين ؟ هنا مجال للبحث شائق .

قضية تشكل الآنية ، وكذلك قضية التطور والتصور . وبتحقيقه ورفض تعيينه وتدقيقه يثبت الكمال للكامل والتجوهر .

وقوله رضى الله عنه : « وآصالك لهو وعلل ، وأسحارك سهو وعالل » — الآصال هى أواخر الأيام ، والأصيل آخر اليوم أعنى بذلك آخر النهار . والآصال جمع أصيل ، فهو كما ذكرناه آخر الأيام وهو ما قرب من العشية وغروب الشمس . قال الله تعالى : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا »(١) فالأصيل هو عشية النهار والآصال هو جمع ذلك . والأسحار هى أواخر الليالى وما قرب من الفجر ، والسحر هو واحدها والأسحار هو الجمع . واللهو هو الالتهاء عن الشيء بمعنى السلو والإهمال . يقال لهوت عن كذا بمعنى أهملته ، ولهوت عن كلام فلان بمعنى لم تعتبره . وتلهى فلان بفلان بمعنى ازدرى به واستخفه ، أو يقال فلان كثير التلاهى بمعنى قليل الجد لا حقيقة لكلامه . وبالجملة ، اللهو هنا هو السلو عن المصالح والإضراب عنها . والعَلَل هو التسويف يقال عللت [٦] فلانا بمعنى سوفته . والسهو هو الذهول عن الشيء ونسيانه ، أو يقال : السهو هو عدم تذكر الشيء فى الضمير . والعِلَل هى الأسباب المؤدية إلى الشيء كما تقول علة مرض فلان الحمى ، أو علة نبات الحشيش المطر ، أو علة علم فلان النظر والبحث ، أو علة الجهل الغفلة وعدم الاجتهاد وقلة المساعد وعدم المرشد وما أشبه ذلك . وبالجملة ، العلة هى السبب المؤدى إلى الشيء ، نقصاً كان أو كمالا . وكان الشيخ — رضى الله عنه — ذكر هذا هنا على جهة العتب للغافل عن مصالحه وعن طلب سعادته ، لما كان الالتهاء والتسويف يورث عدم الطلب والبحث والاجتهاد ، وعدم ذلك يترك الإنسان فى الجهل والغباوة ، والجهل أصل الشر والفساد ، والشر والفساد يورثان الشقاوة الأبدية والبعد عن الله — عاتبه على ذلك . ولما كان السهو معناه الغفلة والذهول عن المصالح وعدم التوجه وذلك يزل إلى النقص وعدم العلم بالله وقلة الطاعة ، وذلك كله يورث البعد عن الله والشقاوة الأبدية — عاتب من قام به ذلك وذمه ونبه الغافل لطلب رشده ومصالحه والأخذ فيما يجب من الأمور المؤدية إلى رضوان الله وإلى النعيم السرمدى والبقاء الدائم والأنس بالله والإقامة فى

---

(١) سورة « الإنسان » آية : ٢٥ .

حضرته — المقدسة عن الزمان والمكان وعن طرق الأغيار والأضداد — وحضه على الإضراب عن اللذة المحسوسة الخسيسة العاجلة المنقطعة التى توجد فى وقت دون وقت وتداخلها الأضداد والأغيار وتذهب بالموت .

فإن قيل : لم ذكر الآصال والأسحار ولم يذكر أوساط الليالى والأيام وما بينهما من الساعات والأحيان ، وطاعة الله وذكره يجب فى كل زمان ؟ قلنا : أعطى ذلك بالنظر فى مفهوم الخطاب فإنه إذا سلمت الطرفان من الشيء تضمنت سلامة الوسط . وأيضاً لما كان آخر النهار وقت ارتفاع الأعمال وصعود الحفظة بأعمال اليوم حض على الاجتهاد فى عشية النهار ليكون آخر ما تكتبه الحفظة خير عمل وخير عبادة وتوجه ، والأعمال بخواتيمها . وكذلك القول فى الليل لما كان آخره تصعد فيه حفظة الليل حض على الاجتهاد فيه والتوجه الصرف . ولأجل ما ذكرناه من مراعاة الخواتيم ، أو لكون الأواخر من الأعمال تنسخ ما تقدمها من البطالة والغفلة ، أو يكون الحض على ذلك والحث عليه من الأمور التى علمها الوارث وفهمها عن الشارع من تخصيص تلك الأوقات ، ومن نزول الرحمة فيها وقبول الأعمال بزيادة على غيرها من الأوقات ، لأن الله تبارك وتعالى قد مدح الذاكرين فى هذين الوقتين بقوله تعالى[1] « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » . وأيضاً لما كانت العشية تشعر بانقراض النهار وإقبال الليل وكأنه وقت فصل، وقعت الدلالة الصادقة فى القبول فى التبدل والتغيير على الفاعل المختار ، إذ الفعل الواقع [٧] يدل على الفاعل ، والتبدل يدل على ثبوته ، فكان وقت اعتبار ومشاهدة الفاعل فى تعيين الفعل الصادر فى الحال وانقراض الآخر وذهابه ، فكان من الأدلة الكاشفة للمقصود التى تفيد الاعتبار والخضوع والافتقار للفاعل المختار وتفيد المشاهدة والاستغراق فى جلال الله الذى أذهب الفعل الحاضر وأتى بضده . إذ الليل والنهار من الأضداد التى يتبين طروؤها وتبدلها أكثر من تبدل الأمثلة ، فإن تبدل النور بالنور والظلام بالظلام لا يتعين فصلها إلا بعد نظر فى حقيقة العرض وكونه لا يمكن فيه البقاء . وتبدل الأضداد والأغيار أشد ظهوراً لأنها يتعين للحس تبدلها ويظهر خالقها بذلك فيقع الاعتبار والحضور والمشاهدة عند تعيين ذلك . ولذلك كانت بعض الصوفية تستجلب أحوالها فى عشية النهار حتى تغرب

---

(١) سورة « النور » آية : ٣٦ — ٣٧ .

الشمس ، وكذلك من أول الفجر إلى طلوعها . وقد ندب الحق تعالى إلى ذلك فى مواضع كثيرة من القرآن فى قوله « من آناء الليل وأطراف النهار »[١] وقوله « بالعشى والأبكار »[٢] وقوله « بكرة وأصيلا »[٣] — فافهم . وأيضاً قد يطلق الليل باشتراك ، والنهار كذلك ، وينسب بالاستعارة وينصرف إلى أمثلتها . وقد أخذت بذلك الصوفية وطائفة من العقلاء . ويقال الليل الجهل ، لكونه يحجب حقائق الأشياء عن الجاهل ويعمى بصيرته عن إدراك المصالح والرشد ويحجبه عن معرفة ما يجب لله ويجوز عليه ويستحيل فى حقه . والنهار هو العلم بذلك كله وإدراك الفاعل على ما هو عليه ووصفه إما بالسلب أو الإيجاب . والأسحار آخر قضايا الجهل وانقراضها وأول لوائح العلم ومقدمات البرهان . فيجب على المكلف عند ذهاب الجهل ولوائح العلم وضع المقدمات الصادقة لتحصيل البرهان الكاشف للمطلوب وأن يحضر ويمعن فكره فى آخر المقدمات وترتيب القياس ويستغرق فى ذلك ، ويتحرز من الغلط ومن الأشياء المغلطة ، والأمور الإقناعية التى تحصّل البرهان الذى يفيد حقيقة المطلوب ويكشف له المعلوم على ما هو عليه . وهذا البرهان هو مثال النهار الكاشف لحقائق الأشياء . وكذلك يتحفظ من دخول الشكوك عليه إذا شرع فى مسألة ثانية ويضع لها مقدمات أُخَر ، فهى أيضاً مثل إقبال الليل لما فيها من الشكوك ومن الغلط فيحضر ويتوجه توجهاً تاماً عند دخول العوالم ، وقضاء المخاطبات عليه حتى لا تشككه وتغلطه . فيكون نهاره ما انجلى له من القضايا اليقينية بالبرهان الساطع ، وليله ما يستقبل من البحث بعد ذلك والطلب فى مسائل أُخَر ، والأسحار ابتداء كشف المسائل ، والآصال ابتداء البحث والتشكيك عند الشروع فى وضع المقدمات ، فيحتاج التثبت وإمعان الفكر وإحضار الذهن لأنها مواطن تحصيل المطلوب ، فلا تجوز الغفلة فى هذين الموطنين . ولذلك حض على الحضور والتوجه فى الغدو والآصال . ويقال الليل هو الغفلة [٨] والمخالفة ، لأنهما حجاب عن الحق وسبب البعد منه ، والنهار هو الحضور والاستقامة لأنهما قرب من الحق وسبب رضوانه ، والأسحار هى

---

(١) سورة «طه» آية : ١٣٠ .

(٢) سورة « غافر » آية : ٥٥ .

(٣) سورة «الإنسان» آية : ٢٥ .

ساعات التوبة واليقظة والغفلة . فحض على الحضور والتوجه هنا والتثبت لأنها آخر المخالفة والبعد ، وأول الطاعة والقرب . فيخاف على التائب هنا فى أول أمره أن تجذبه العوائد والعوالم الأول التى خرج عنها وتصرفه وترده إلى عالم المخالفة . فأمر بالحضور والتوجه والصدق فى هذا الموطن ليقوى خبر اليقظة التى نبهته على الرجوع إلى الله ، ويقوى عزم التوبة حتى تثبت حاله فى الهداية والاستقامة ، وتتجلى له مقامات الإرادة ويغتبط بها ويثبت فيها ويكشف له المطلوب بعد ذلك صحبة الصنائع العلمية والعملية . وقد يقال : الليل هو الطبيعة وعالم الأجسام واستيلاء الشهوات البدنية على جوهر الإنسان حتى يغمره ، والنهار هو إشراق العقل الفعال على جوهر النفس الناطقة وكشف الذوات الإنسانية مجردةً عن الزمان . والأسحار هى النفحات الواردة من العقل الفعال عند تحصيل العقل المستفاد . فأمر بالتثبت عند تجرد النفس من الشهوات الطبيعية والعزم السالب صحبة الهمة الجليلة ، إذ هو موطن صعب لا يقطعه إلا السعداء — وهذا بحسب رأى ما . وقد يقال : الليل هى الأخلاق السيئة ، وهو النفس عند الصوفية ، وهو الحجاب عندهم ، إذ هو من ظلمات الحظوظ . والنهار هو الأخلاق الطاهرة المطهرة ، إذ هى من صفات الذوات الروحانية ، وهى من أسماء الله الرحمانية . والأسحار هى الانفصال من الأخلاق الأول ، وابتداء الاتصال بالرحمانية المذكورة ، فيحتاج المنخلق بالاسم التوجه والتثبت وإحضار معانى الاسم وأجزاء ماهيته والسكينة فيه والاستيلاء عليه بالعلم والعمل . ويقال : الليل هو الشوق والقلق والوجد الواقع فى قلوب المحبين ، والأسحار هى الهواتف والهواجس والبواده والأحوال الكاشفة الواردة من نفحات المحبوب المتوجه إليه ، والنهار هو الواهب السلسلة والعلوم اللدنية التى تفيد المشاهدة الجنسية والإقامة فى الحضرة . ويقال : الليل هو التحير عند حال التوجه وتداخل العوامل على المتوجه ، ونزول الأحوال والأسحار هى الرؤية القمرية ، والنهار هى الشمسية الكاشفة للمطلوب على ما يجب له . ويقال : الليل هو وهم الإضافة ، والأسحار هى الحقائق ، والنهار هو إدراك الحق بالحق . ويقال الليل هو الوحدة التى لا يوجد معها شىء ، وهو الذى يشار إليه بالعمى ، والنهار هو وجود الأمثلة فى معقول الهباء ، والأسحار ما بينهما ، ويقال : هو معقول الفناء ، والنهار ما بعده من البقاء ، والأسحار ما يفهم من الربط بينهما . ويقال : النهار الشفع ، والليل الوتر ، والأسحار [٩] النسبة .

ويقال : الليل آنية الحصر ، والنهار خط الامتداد ، والأسحار ما بينهما ، والآصال ما يفهم من أواخر تشطيب الخط عند أهل الكمالات المهملة للكمالات — فافهم ذلك .

وقوله رضى الله عنه : « وما سرورك إن صدر إلا وساء كدر » . الوِرْدُ هو الشيء المورود عليه وهو المؤتَى كما تقول أتيت وردى من الليل ، معنى صلاتى التى كُنتُ نصليها وكأنه الشيء المطلوب الذى يورد عليه الراحة ، كما تقول وردت المكان الفلانى نطلب فيه خالق بمعنى أتيته . وتقول العرب : اترك ماء الجُحفَة [1] فإنه ورد بنى فلان ، بمعنى أن قبيلة من العرب ترد عليه فتسقى منه إبلها . فالورد هو الماء الذى يورد عليه ، والورود هو إتيان الإبل إليه ، والوارد هو راعى الإبل ، والواردات هى النوق . فالورد هو المحل المؤتى إليه ، والورود هو الإتيان ، والوارد هو الآتى . كما تقول ورد علينا فلان . فالورد هو الجمع الذى ورد عليه ، والوارد هو الواصل إلى ذلك الجمع ، والورود هو الوصول .

والسرور هو الفرح بالشيء كما تقول : سررت بتحصيل المائة دينار ، أو تقول : سررت بفهم المسئلة ، أو سررت بفهم الكتاب ، أو سررت بورود فلان أو بكلامه — معناه : فرحت أو تلذذت أو تأنست . وقد يطلق الأنس واللذة والسرور والفرح بترادف ، وقد يطلق بتشكيك .

وأما الصدور فهو بروز الشيء من الشيء ، وكأنه ظهور قضية فى محل لم تكن فيه قبل ذلك ، وظهور قضية من محل كانت فيه بالقوة — كما تقول : صدر من فلان فعل مذموم ، أو صدرت من فلان صفة حسنة ، أو صدرت من فلان معاملة جميلة — بمعنى ظهرت منه ، ووصلنى منه خير ، أو صدر لى منه إحسان ، أو صادرنى خيره بمعنى قابلنى خيره . فالصادر هو الفاعل الذى صدر منه الفعل ، والصدور هو الفعل الذى برز منه ؛ والمصدر هو المفعول به . فكأنه يقول : ما من شيء تأتيه ويكون مطلوباً محبوباً لك ويسرك إتيانه وتحصيله وتفرح به ، وما من

(١) الجحفة (بضم الجيم ثم السكون والفاء) : كانت قرية على طريق مكة ، وسميت بذلك لأن السيل جحفها ، وبينها وبين البحر ستة أميال .

شىء يصدر يعنى يصلك من الأمور الملائمة له وتسر به وتفرح — إلا وبعده كدر يحزنك ويسوؤك ويؤلمك . والكدر هو العكر الذى يزيل صفاء الماء — كما تقول : هذا ماء مكدر معناه معكر ، وكأنها إشابة تعكر الشىء وتخرجه عن طبيعته المعتدلة وتزيله عن صفائه ، وتركب بساطته ؛ فإن صفاء القلب هو عدم إشابته واعتدال مزاجه وإقامته فهى ماهية السرور ، فإذا تنكد تغير مزاجه ودخلته الإشابة وتعكر طبعه . فالتكدر هو التغير والإشابة والنكد . وقد يطلق الكدر والنكد والألم والتغير بترادف ، وقد يطلق بتشكيك . فكأنّ مضمون هذا الكلام يشير إلى تبدل أحوال الإنسان فى الدنيا ولقلة ثبوتها ولصورة ذهاب لذاتها وكونها تنال فى وقت دون وقت ، وتنقطع فى كل حين وتذهب جملتها بالموت . فأراد أن ينبه الغافل على ذلك وحضه على الزهد فى الخير الموقت المنقطع ، وأن يصرف همته إلى الخير الذاتى الذى لاينقطع [١٠] واللذات الروحانية التى لاتتبدل ولا يغيرها الزمان ولا تُعْدَمُ بتبدل الزمان ولا يفقد أنسها بفقد الإخوان ولا يفقد هنالك مطالعة جلال الرحمن — فافهم . وقد يكون أراد بذلك التنبيه على تبدل الأعراض لكونها تنعدم بالذات ليتنبه الغافل عن حدوثها وعلى حدوث الجواهر لكونها لاتَعَرّى ولاتنفك عن الأعراض ، فيستدل المسترشد بذلك على حدوث العالم وكونه فى هذه القضية المتضادة والمتغيرة من علوه إلى سفله ، وأن هذا التبدل يلزم العالم المطلق وأن إيجاده وخلق أمثاله وأضداده وأغياره وماأشبه ذلك لايكون من ذاته ؛ فيستدل بذلك على الفاعل المختار الذى أبرزه وهو معه بالإيجاد والتجديد والإبقاء ولا يفارقه ولا يغفل عن خلقه طرفة عين فيحصل للمسترشد بذلك العلم بخالقه ، وقلة الاغتباط بالمحدث ، والميل إلى القديم الأزلى ومحبته ويصرف همّته إليه ، ويتلذذ بعبادته وطاعته ومحبته ويتأنس بمنادمته ومناجاته فى الضمير ويشاهد كلمته وقدرته فى العالم المطلق فيذهل بذلك عن اللذات العرضية المتبدلة ، وترجع لذته جوهرية روحانية ثابتة ، ويرتفع عنه خوف المحدث ورجاؤه إذ هو فى الافتقار والانفعال والحدوث سواء معه . ويتبين له أن المثل المنفعل لايفعل فيزول من قلبه واعتقاده ربانية المخلوقات ، ويخرج من ذلك الكون ، ويتحرر ويعتبر بملاحظة فاعله ومشاهدته فى الكون وفى الحال وفى النوم وينال بذلك سعادته ، فاعلم ذلك . وبالجملة قوله « ماسرورك إن صدر إلا وساء كدر » أراد بذلك التنبيه على تبدل < >[1] العاجل وقلة ثبوته

(١) بياض فى الأصل .

وأن يظهر للمسترشد خساسة الدنيا، وأن لذتها يشترك الإنسان فيها مع الحيوان غير العاقل، وأنها ليست من الخيرات المطلوبة عند السعداء — فيصرف همته للخيرات الثلاث: أعني الذى يراد لذاته لا لغيره، والذى يراد لذاته ولغيره، والذى يراد لغيره لا لذاته. وهذه الخيرات ذكرها سيدنا رضى الله عنه فى « الرسالة الفقيرية » وفى « بد العارف » وفى « نتيجة الحكم ». وسرور السعيد لا يكون بالدنيا ولا بزهرتها، ولا يعتبر إلا نعمة الله الموصلة إلى رضوانه وكدره بضد ذلك. فإذا السرور المعتبر عند السعداء هو طاعة الله عند العبد وظهورها على محله ظاهراً وباطناً والكدر مخالفته. ونقول: الورد محبة الله تعالى، إذ هى سبب القرب منه؛ والسرور ما يحصل من اللذة عند تحصيل المقامات المقرِّبة إليه، والكدر هو الفترة التى تضعف محبته والكدر الذى يمنع من التوجه إليه. ونقول: الورد هو التوجه إلى الله بالصدق والإخلاص، والسرور هو اللذة الحاصلة محبة الأحوال الكاشفة والخواطر الصادقة والبواده والهواجس والعلوم [١١] اللدنية والإلهامية وما أشبه ذلك، والكدر هو ذهاب الأحوال وما ذكروا نصراف المتوجه إلى حالته الأولى ورؤية الأحساس والأغيار. ونقول: الورد هو التخلق بالاسم، والسرور هو مشاهدة المسمى، والكدر مجاهدة النفس عند الشروع فى تحصيل ذلك وبعد التحصيل فى حفظ الاسم. ونقول: الورد مقام المراقبة، والسرور حفظ الأحوال، والكدر ضبط القوانين وقهر النفس على ذلك. ونقول: الورد تحصيل الوسائل والسرور توفية شروطها، والكدر اختلال الشروط. ونقول: الورد إدراك التوحيد، والسرور بناء الموجد، والكدر وجود الشفع. ونقول: الورد قطع خبر الفناء، والسرور وجود السكينة، والكدر مدافعة الأوهام. وهذا فيه الكفاية — فافهم.

قوله رضى الله عنه: « والغرض بحول الله فى تحصيل الكمالات وأسبابها » — الغرض هى الإشارة المنصوبة، وكأنه هو المقصود الذى يعمل المتوجه على إصابته بسهم التوجه. فالمتوجه هو الرامى، والرمى هو التوجه. والغرض هو المقصود المتوجه إليه. فكأنه قال: القصد بحول الله تعالى فى الكمالات وأسبابها. والكمالات تطلق على أنحاء وإن كان حدها حداً واحداً، ولكن وجودها فى الكامل مختلفة الرتب. وحد الكمال هو الذى لا يقبل الزيادة ويختل بالنقصان، كما حده سيدنا رضى الله عنه. وهو يتمين بالنظر إلى مذهب، أو بالنظر إلى مطلوب الشخص، ولا يعقل إلا فى

شيء له غاية ووسط ومبدأ ، كما تقول : كملت الآحاد من العدد إذا بلغت العشرة ، وكملت العشرات إذا بلغت المائة ، وكملت المئون إذا بلغت الألف ؛ وتقول : فقيه كامل إذا بلغ الغاية فى معرفة أحكام المكلفين ، وطبيب كامل إذا بلغ من الطب مبلغاً لا يمكن أن يزاد عليه . والكلام فى الكمال البسيط والنقص البسيط والذى يكون بالإضافة إلى مذهب وإلى رجل قد ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « نتيجة الحكم » ، فانظره حيث ذكر . وهو يغنينا عن ذكره فى هذا الموطن ، ولكن نذكر منه هنا ما دعت إليه الضرورة فنقول : الذى أشار إليه رضى الله عنه فى هذا الموضع هو الكمال الإنسانى ، وهو واحد بالنظر إلى ماهية الإنسان ، كثير بالنظر إلى لواحقه وكونه . قال : « فى تحصيل الكمالات » — دل على أنها كثيرة . ولما أن كان قانونه يقتضى حصر القوانين وإهمال ما لا فائدة فيه منها وتخصيص المذاهب الخمس المعتبرة وتكميل الأربعة الناقصة وتقرير الواحد الكامل والحث على مذهبه — قال « والغرض بحول الله تعالى فى تحصيل الكمالات » وذلك أن سيدنا رضى الله عنه قد اطلع على القوانين المتقدمة كلها : الشرعية والفلسفية والأدبية ، وحصر الكتب ، المنزلة منها والغير منزلة ، من أول مبدأ العالم إلى وقتنا هذا وعرف مجملها ومفسَّرها ، ومهملها ومخصصها ، وفك غوامضها وخصص منها خمسة مذاهب وأهمل ما دونها ، وذكر أنه ما ينبغى أن تذكر ولا تجمل [١٢] مخاطبتها . ورتب قانونه وجمعه من المذاهب الخمسة وهى : مذهب الفقهاء ، والأشعرية ، والفلاسفة الأتقياء ، والصوفية الأولياء[1] . وبين الكمال الذى يراد بذاته والسعادة التامة الأبدية والخير المطلق الذى لا يحصر ولا يقدر فى مذهب المقرب . وجعل المذاهب الأربعة كل واحد مصيب فى بعض الأشياء وغير مصيب فى البعض ، فقرر كل واحد منهم على إصابته ونبه على المواطن التى أخطأ فيها وعلمه ونقله منها . وأمر المسترشدين المقتدين والطالبين طريقه والقابلين نصيحته أن يأخذوا بحسب نصه فى « الفتح المشترك » حين قال : « خُذْ من الفقيه المحافظة على الأحكام الشرعية ومدلول صيغه فيها ، ومن الأشعرى السياسة بك فى مذهبه لا به ، ومن الفيلسوف الصناعة الرئيسة والحكمة التى تفيد معرفة الأشياء حسب ما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان ، ومن الصوفى مكارم الأخلاق والتجرد المحض عنك حتى تجدك وتظفر بك ، ومن المقرب

(١) هنا اربعة فقط ، والخامس بحسب ما ورد بعد هو مذهب « المقربين » .

ماهية كمالك الأول والثانى . وكتبه كلها منبهة على هذه المذاهب الخمسة . فلما أن كان كمال مذهبه مجموعاً من هذه المذاهب ، ولكل مذهب منها كمال خاص بالنظر إلى غايته وبالنظر إلى الوجه المحمود منه ، سماها كمالات وجعلها كثيرة لهذا الوجه الذى ذكرته لك . وقد تكون الكمالات فى الشخص الواحد بالنظر إلى مراتبه وخواصه ، كما تقول : العلم بالله كمال أول ، والمعرفة كمال ثان ، وخلاص الإنسانية كمال ثالث ؛ أو تقول : قطع الوهم كمال أول ، وتحقيق الحق كمال ثان ،واستجابة الجميع فى الإنسان كمال ثالث — وهذا ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « الإحاطة » ، والقسم الأول ذكره فى « الفقيرية » . وها أنا نذكر كمال كل مذهب وغايته وفائدته بقدر الطاقه ، والله يؤيدنا بروح منه .

فنبدأ فنقول : الكامل عند الفقهاء هو الذى عرف أحكام المكلفين ، مفروضها ومسنونها ، وعلم السيرة الجميلة وتفسير كتاب الله ، وفهم مدلول التنزيل ، وعرف المحكم والمتشابه — وذلك كله بالدليل والبرهان — وهذا ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « بد العارف » . والكامل على ما يقتضيه مذهب الأصولية هو المحصل لما تقدم فى مذهب الفقيه ، ويزيد عليه بمعرفته ما يجب لله ويجوز عليه ويستحيل فى حقه ، ويحرر توحيده بالدليل المركب من المنقول والمعقول ، وينزهه من الحد والرسم ، ويعرفه بالوصف والاسم ، ويعلم أسماء ذاته وكونها ذات مسمى ، وأسماء صفاته ويزعم أنها لا هى هو ولا هو غيرها ، وأسماء الأفعال جعلها غيراً محضاً ، ويقطع الخصم المعطل[1] بدليل افتقار الفعل المحدث إلى محدثه ويقصم ظهر المشبِّهة بصفات القدم وما يليق . وبالجملة يعرف خواص المُحْدَثِ وصفاته وصفات القديم الذى يجب أن تنسب لذاته ، وانحصر مذهبه فى ميز الذوات وتقابل الجائزات [١٣] وتعلق الصفات . وهذا الكمال الذى وصفت فى الفقيه والأشعرى إنما هو بحسب ما يلزم من قوة مذاهبهم وما يلزم من مبادئ قوانينهم وغاياتها . وقد تقدم القول بأن الكمال هو الوصول إلى غاية ما لا تمكن الزيادة عليها فى تفسير ذلك المذهب أو تلك الصناعة ، فاحتجت أن أذكر غايات مذاهبهم التى لا يمكن الزيادة عليها فى صنائعهم . وأما الكمال الإنسانى فلم يتعرضوا

---

(١) المعطل : أى الذى لا يقول بصفات قديمة فى الذات الإلهية ، وهو مذهب المعتزلة .

إليه ، ولا يمكن قوانينهم أن تفيده ، ولا يتوصل بها إليه ؛ والدليل على ذلك أن الفقيه يزعم أن المرتبة الشريفة هي الأعمال فقط ، ولا يتعرض لثمرة الأعمال ، ولا يسلم تحصيلها إلا بعد الموت . وسعادة الإنسان عنده محتملة النقيض ، ولا يبحث عن الحقائق ولا يتوجه إليها ويزعم أن السعيد من المؤمنين. لا يتعين مقامه إلا بعد الموت . ولا يعلم مقاماً إلاّ محسوساً ولا جنة إلا محسوسة ، ولا لذة إلا طبيعية . ورؤية الحق تعالى مجهولة الكيف عنده ، وهو واقف مع الأمور المقبولة ، ونفسه مجهولة الماهية فلا كمال له فيما ذكرنا ولا خلاص ولا حرية .

وهأنا نذكر اعتقاد من تكلم في الكمال وعمل عليه ، وتكلم في النفس وبحث عنها ، وتكلم في الحقائق وتوجّه إليها ؛ ويظهر لك بذلك عدم الكمال عند من ذكرناه فنقول : مقصود العقلاء هو السعادة ، والسعادة هي النعيم الدائم الذى يستصحب ماهية السعيد ولا يفارقها ولا يمكن فيه الفقد ، ولا يتشوق الإنسان بعد تحصيلها إلى نعيم خارج جوهره ، ولا يطلب خيراً غير الذى قام به ويرتفع من محله خير الطلب والتشوق إلى غيره ، إذ لو بقيت عليه بقية يطلبها ويتشوق إليها ولذة يستدعيها ويتقدر عليه وجودها أو يبقى في ماهية احتمال تحصيلها أو ضده لم يكن سعيداً ولا منعماً في ذلك الحال ، إذ هو يستدعى لذات لم ينلها ولا قامت بمحله . وهو ليس بكامل إذ هو يستدعى الزيادة . ومن افتقر إلى الزيادة فهو في النقصان . فصح بهذا النظر أن الكمال هو تحصيل الغاية التي لا يقدر بعدها شيء يطلب ، وينقطع عندها كل مطلب ، ولا يوجد شيء خارج عنها ، ويذهب من جوهر الظافر بها كل أمل ، وترتفع أخبار الإضافة ، ويسقط التعليل هناك ، ويضمحل النقصان والعلل ، وتقع السكينة والغبطة والرضوان ؛ فيكون الكامل مقيما في جنة حضرته التي لا يشذ عنها شيء ، ولا يقدر فيه أنه يفقد ما هو عليه ولا يظفر بكمال ولا سعادة غير الذى هو فيه وإليه . فإذا كان الأمر كذلك فكل طالب ، وكل منتظر ، وكل واقف في مطلوبه على حاشيتي النقيض . وكل من يقدر كمالا أو سعادة غير الذى هو فيه وبه فليس بسعيد ولا كامل .

فنرجع للفقيه ، فنقول له : اعلم أن الأعمال الشرعية المراد بها إمساك النفوس عن الشهوات البدنية وتجريد الجوهر عن اللذات الطبيعية ورياضة الإنسان [١٤] بالأعمال العملية وتشويقه إلى الحقائق بالمباحث العلمية وتحليته بالتخلقات الربانية وتغذيته بالملذوذات الروحانية حتى يتجرد عن الجسم بموت شهواته ويتصل بالذوات المفارقة للمادة بعلمه وتخلقه ، وعلمه جوهره فيكون من جملة

الذوات المجردة ، وذاته مفارقة ليست بجسم ولا فى جسم ؛ والذوات المفارقة تعلم بغير نظر ، وتدرك بغير حواس ، وتشاهد ربهسا شهوداً غير زمانى ولا مكانى ؛ وهى مقيمة فى حضرته إقامة أبدية ، وتتلذذ بمطالعة جلاله و بما يسرى لها منه من الفضل والشرف والكمالات الذاتية التى لا تفارق الجوهر. فحينئذ يكون الإنسان باقياً لا يفنى ، ولا يجرى عليه الكون ، ويستحيل عليه الفساد ، ويتلذذ بلذات روحانية غير منقطعة ولا تنال فى وقت دون وقت ، إذ هى فى جوهره جوهرية له وصفة نفسه . وقد سلمت فى مقدماتك واعتقادك أن نعيم الجنة لا ينقطع وأن الإنسان فيها لا يموت ، ولكنك جهلت الكيفية ، فهذه كيفية ذلك . وزعمت أن ذلك لا يكون إلا بعد الموت الذى تعلمه فى عرفك وصدقت فى ذلك ، ولكنك عازك أن تعلم أن الإنسان المتوجه للقوانين الشرعية يموت عن الجسم قبل موته الذى تعلمه فى عرفك ويتجرد عنه تجريداً تاماً بحسب استغراق حاله فى ذلك ويدرك خاتمته ومقامه كما تخبر أنت أن ذلك يرى بعد الموت. والصوفية من أهل الملة كل واحد منهم متفق على هذا المعنى وقائل به ، وهذا هو المعروف المتعاهد عندهم . وجميع ما تقول أنت أنه يحصل فى الآخرة يدركه ويأكل بروحه من طرف الجنة و يشاهد مقعده عند الله ورتبته وخاتمته يقطع بها ويتكلم بالمغيبات ويكشف الواقعات قبل وقوعها هل هذا إلاَّ من مطالعة النظام القديم وكشف ما فيه . وهذا لا يكون إلا بجوهر روحانى مفارق للمادة . وأنت تسلم وتقول إن السعادة تنال بتوحيد الله تعالى ومعرفته والأعمال الصالحة وعلى قدر ما يستكثر الإنسان من الأعمال تكون درجته عند الله وسعادته — كذلك يقول الصوفى : على قدر الأعمال الشرعية والميل إلى الله حتى يستغرق أزمنته فى الأعمال والعلوم والمعارف ، بقدر ذلك تكون غيبته عن الجسم ؛ وبقدر ما يغيب عن الجسم يتصل بالأرواح الطاهرة المفارقة فى حضرة الله . فالمتصل بها يكون فى حضرة الله فى « مقعد صدق عند مليك مقتدر »[1] .

فهذه مقدماتك مسلمة أن الكمال الإنسانى فى القرب من الله ، والقرب من الله لا يكون إلا بقدر المعرفة به والطاعة له ، ومعرفته لا تكون إلا بالجوهر الملكى المفارق ، إذ الجسم لا يعلم لأنه ميت بالطبع ، والعمل الصالح هو أخلاق الذوات المجردة إذ الخير هو طبيعتها ، فتوحيد الله هو ذاتها ،

---

(١) سورة « القمر » آية : ٥٥

والسعادة فى التوحيد ، والعمل الصالح والخير المحض والسعادة والكمال [١٥] فى الذات المجردة بالذات . فافهم الشريعة على هذا الوجه وتكون من السعداء الصوفية الجِلّة .

وكذلك يقال للأشعرى — إذ هو يعتقد فى سعادة الإنسان ما يعتقده الفقيه لأنها عنده فى حكم الإمكان ومحتملة النقيض ، وبعد الموت يتعين منها ما شاء الله — فيقال له : جميع ما اعتقدته فى الله وكونه ليس بجسم ولا فى جسم ومنزه عن طرْء الأعراض الجسمانية عليه وأنه يعلم لا فى زمان ولا فى حاسة جميع ذلك هو الذى يقال على جوهر الإنسان . ولما كان الإنسان جوهراً ملكياً مفارقاً كان عارفاً بالله بالذات ، وتحت ربه من كل الجهات ، ومشاهداً له على الدوام ، وكامل العبودية له بالذات. فلما غمرته الطبيعة فى الأمور المحسوسة بمشاركة الأجسام احتاج إلى الحواس وآلة البدن لجاء التوجه وخطاب الشريعة كأنه يصرفه إلى عالمه فيجد كماله فى ذاته وجوهره صفة نفس ذلك الجوهر وتلك الذوات . وافهم ذلك من قوله تعالى : « ارجعى إلى ربك »[١] ومن قوله : « كما بدأنا أول خلق نعيده »[٢] ومن قوله : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون »[٣] . — هل هذا إلا إشارة للمُبْدَع الأول الذى خُلِق فى أحسن تقويم بمعرفة خالقه وباريه ومشاهدة جلاله والنظر إلى وحدته ، ثم رجع أسفل السافلين بمشاركة المواد وتدبير الأجسام ثم يردُّ إلى جوهره الأول بالإيمان والعمل الصالح ؟ فالكمال الإنسانى هو اتصال الإنسان بمبدئه الأول حيث هو رضوان الله وتوحيده ومشاهدته بالذات .

ويقال للفيلسوف : أنت تتكلم فى الكمال الإنسانى وتعمل عليه وتزعم أنه يحصل بتجرد الجوهر عن عالم الطبيعة والاتصال بالعقل الفعال على قولة الحكيم أرسطو بالجوهر وإلى الكلى بالعلم، وأن سعادة الإنسان فى القرب من الله ، والعقل أقرب الموجودات إليه ، فالسعادة فى الإتصال بالعقل ؛ وأن العقل جوهر روحانى غير مركب ، وما ليس بمركب لا يفنى فالعقل لا يفنى ، وأن

---

(١) سورة « الفجر » آية ٢٨ .
(٢) سورة « الأنبياء » آية ١٠٤ .
(٣) سورة « الواقعة » آية ٦٢ .

الروحانى لا يدخل تحت الزمان وما لا يدخل لا يتغير ، فالعقل لا يتغير ؛ وأن النعيم والسعادة والكمال فى الثبوت وعدم التبدل وإدراك الأشياء ومطالعة الأزل ، وهذا كله فى العقل من صفة نفسه. فالاتصال بالعقل هو الكمال الإنسانى . وأن شرف العقل وكماله من ذاته ، وأن الإنسان لا يصل إليه حتى يقطع ما بينه وبينه من الرتب ، وأن كل رتبة ضرورية فى تحصيل ما فوقها ، فتجد كمالا داخله النقص وسعادة مشوبة بالشقاوة ، فإنك تتعب فى قطع المراتب وتجتهد فى تحصيلها وتحصيل مابعدها، وتشقى بحولك وقوتك وتصل بعد ذلك كله إلى جوهرك الذى أنت به إنسان وإلى ذاتك الذى كنت بها فى أول التوجه كأنك حصَّلتَ بعد الجهد ما كان حاصلاً وطلبت القريب بالبعيد وبحثت عن الضرورى بالدليل وحجبت الظاهر الجلى بالتعليل ! ويحك ! كيف تتوجه إلى عقول [١٦] الأفلاك وعقلك مثلها ، وجعلت المثل يفتقر إلى مثله ، والجواهر المفارقة فضلت بعضها على بعض ، وجعلت الفضيلة ذاتية للجوهر وأنه استحق ذلك بحسب رتبته ؛ وكيف ذلك ، وجواهرها واحدة فى الاضطرار ! والاضطرار الموجود فى كل واحد منها هو الموجود فى الآخر ، وما عدم من كل منها عدم فى الآخر ، وهى واحدة فى وحدتها التى لا تنقسم،وكونها روحانية لاتركيب فيها ، وهى متساوية فى ذلك . فكيف يفتقر المثل إلى مثله من كل الجهات والذى عدم منه عدم من مثله ، والذى هو موجود فى مثله هو موجود فى ذاته هو ؟! فعليك بجوهرك الذى تبحث به عن غيره وابحث به عنه . واطلب الشرف والكمال من الواحد الحق الذى « أعطى كل شىء خلقه »[1] ثم هداه إلى نصيبه الموجود فى النظام القديم . واعلم أن جوهرك يأخذ نصيبه من الله كما يأخذه العقل الكلى والفعال وغيره ، وأن كلمة الله هى المفيضة على كل جوهر وهى المقوِّمة ، والمتممة لكل موجود : روحانياً كان أو جسمانياً ، وأن الله لا واسطة بينه وبين مفعوله ، وأن أمره هو الذى ينزل فى السموات والأرض . فعليك به ، ولا تهلك نفسك فى ذل الوسائط وتطلب القريب من كل الجهات من البعيد . فجميع ما أنت تصل إليه وتتوجه بعوالمك الروحانية والجسمانية إليه هو مثلك . وتخبر بالوصول وقطع المراتب وأنت لم تنفصل عنك وتفرح بخبر متوهم . واعلم أن مبادئ المتصوفة فى التوجه هى من فوق العقول التى تزعم أنها غايتك ، فإنك تزعم أن كمالك فى العقل الفعال وأن لا نصيب لك

---

(١) سورة طه آية : ٥٢ .

من الـكلى إلا العلم به ، والصوفى يجعل الـكلى والفعال و بالجملة الروحانى والجسمانى من تحت قدمه عند توجهه ، وذلك لما أن علمها أنها بجملتها واحدة فى قضية الافتقار والانفعال والإمكان وأنها متماثلة معه أهل الفعل وتوجه إلى الحق بالحق . فبالوجه الذى أهمل ذاته أهمل الـكون كله ، وحيث فنى هو فنيت العوالم بأسرها ، فعلومه من الـكلمة ، فإن عنده أن الممكن لا وجود له إلا بكلمة الحق فينْفى عن جملته ويثبت بالـكلمة أو تكون الـكلمة ذاته والـكلمة لا تفارق المتـكلم فهو لا يفارق الحق . أو تقول : الـكلمة ذات الصوفى وهى صفة الله ، وصفته غير زائدة على ذاته ، فالصوفى لا ذات له إلا الحق ، أو تكون ذاته من قبيل الوهم أو من قبيل الخبر أو من قبيل الأسماء ، فاعلم ذلك .

وقد تبين لك بهذا كله أن الـكامل عند الفلاسفة هو الذى يصل بالجوهر إلى العقل الفعال ، وبالعلم إلى الـكلى ، أو يكون فى الفعال بالجوهر وفى المقصود بالعلم . وقد ذكر سيدنا رضى الله عنه هذا فى « نتيجة الحـكم » فانظره هناك . وكذلك ذكر هناك أن الـكامل عند الصوفية فى الوجه الأول هو العالم بالمشروع [١٧] والمعقول بشرط أن يكون نحو الصواب فيهما ويغلّب الأحوال على الأقوال وكذلك الأفعال ، ويكون ثابتاً فى سريرته ويعلم ذلك من سيرته . والـكامل فى الوجه الثانى هو الذى حصّل مقام الإسلام والإيمان والإحسان بالتجوهر ووجد الآنية فى خبره ثابتة النسبة ، غير أنها تختلف فيه من جهة الشعور ويجد الافتقار إليها . والـكامل بحسب الوجه الثالث هو الظافر بالوجوه التسعة ، الذى حصل مفهوم الأسماء فى ماهيته ، وحصل الإحاطة ولم يتلاعب ضميره بوهم ولا كان من وهم ولا فى وهم . وهذا ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « النتيجة » ، إلا أنه ذكرته أنا لك بالاختصار فى وصف القسم الثالث . والـكامل عند أهل الحق فيما ذكر سيدنا رضى الله عنه فى « النتيجة » هو الذى لا يسلم الـكمال ولا يطلقه ؛ وإن صح عنده إنما يصح بإهمال هذا الـكمال وترك هذا الحشو . والعلم عنده ما يصح من الماهية أو هو يرجع إلى إخباره أو قضية راجحة منحطة . ويقول : أهل العـلم العلوى لا يعلمون الصنائع ولا يعرفون السلوك ، وغاية الصوفية والحـكماء الوصول إليهم . وهم من حيث مراتبهم لا استقلال لهم ، وأين الناس وأين الحق

منهم ؛ ؟ وهذا يقول إذا تكلم فى عادة الصوفية والحكماء وأما من حيث هو فلا علم له ؛ إلا واحد وهو هو — فاعلم ذلك .

فقد تبين لك بهذا النظر أن الفيلسوف يتوجه من الفعل إلى الفعل ويعبد العبد بالعبد أو يعبد العبد بالحق بنظر ما ، والصوفى تفوته المقارنة والنسبة ويتوجه بالصفة إلى الصفة ويخبر عن اللقاء بالوهم . وحمله على ذلك كله عدم الفهم لأنه جهل الحق عنده وتوهمه أنه وصله بفقده ، ومن حيث وجده فقده ، ومن حيث عينه غيبه ، وأخفاه من حيث أظهره ، وقبضه من حيث بسطه . والمحققُ جمالُه تَرْكُ كمالِه ، وجمالُه عَيْنُ جلالِه، وَتوجُّهه سكينةٌ فى ماهية اعتداله . والفقيه لا كمال له إنسانى ، ولا تجوهر له رحمانى . فإن اعتبرت به كمالا فإنما تعتبره بالنظر إلى مبدأ مذهبه وغايته : لا بالنظر إلى تجوهره وتجريد ذاته . وكذلك القول على الأشعرى .

فقد تبين لك الكلام فى الكمالات بحسب المذاهب المعتبرة ، وكيف هى فى الفقيه والأشعرى ، فى القانون لا فى الإنسان ، وفى المذاهب لا فى الجوهر من ذات الرحمن ، وفى الفيلسوف بجوهر ناقص وإنسان مستند ، وفى الصوفى بحق مضاف ورضوان مقيد . والمحقق كهف الكمالات وكنه الإمكانات — فاعلم ذلك . وهذا الكلام فى الكمالات قد فرغ منه ، فنبدأ بذكر أسبابها .

فنقول : أسباب الكمالات عند الفقيه فى تحصيل مذهبه معرفة لسان العرب ومعرفة اللغة العربية ، وحفظ الكتاب والسنة ، ومعرفة تاريخ الآيات والأحاديث ، والعلم [١٨] بالناسخ منها والمنسوخ ، والنظر فى المحكم والمتشابه . وأسباب الكمال بالنظر إلى مذهب الأشعرية سلامة العقل والفطرة والاجتهاد الكلى والبحث المسدد والمعلم الخبير الناصح . وأسباب الكمال عند الفيلسوف تحصيل المطالب الأصلية والعلوم المنطقية مثل كتاب إيساغوجى والمقولات العشر وبارى أرمينياس وأنالوطيقى وقاطاغورياس[1] والمخاطبات الخمس والأقيسة التسع وما يتبعها

(١) قاطيغورياس هى المقولات العشر — فلا محل لتكرارها — أما قوله المخاطبات الخمس فلا ندرى المقصود بها ، أهو الألفاظ الخمسة : الجنس ، النوع ، الفصل ، العرض العام ، الخاصة ؟ وكذلك لا ندرى لماذا حصر الأقيسة فى تسع !

وما يتقدم على ذلك من اعتدال المزاج وسلامة الفطرة وسعادة المولد وحسن المعلم ، وما أشبه ذلك وما يلحقها من التجرد والرياضة . وأسباب الـكمال عند الصوفية هى على أنحاء : فإن الصوفى يأخذ مقدماته الأُول من الفقيه فى الأعمال الشرعية ، ومن الأشعرى فى الاعتقاد العقلى ، ويركب على ذلك التوجه والمجاهدة والتوكل والتسليم والتفويض والرضى — وهذا سبب الـكمال عند بعضهم . ونقول أيضاً : سبب الـكمال عند الصوفية التخلى عن غير الله والتحلى بصفات الله ، والتجلى ثمرة ذلك كله . ونقول أيضاً : سبب الـكمالات الصدق والإخلاص واستصحاب الحال وثبوت القدم والتجرد المحض والتخلق الـكلى . ونقول أيضاً : سبب الـكمال على أى نوع كان لا يكون فى العبد من حيث هو وعقله ونفسه وجملته عاجزة عن استجلاب الخير وتحصيله وعن التوجه بالجملة . فإذا رأينا ذلك وثبت فى الرجل حكم ذلك علمنا أنه من عند الله وأن السبب فى ذلك قدرته وإرادته وحكمه وأمره . فصفات الحق هى سبب الـكمال وأصل فى وجوده ، وصفاته غير زائدة على ذاته ، فذاته سبب الـكمال فهو المتقدم على توجه المتوجه وهو الموجود فى نفس التوجه من حيث استحقاق الفاعل لفعله وهو الموجود عند الفتح والوصول ، وهذا معنى قول سيدنا رضى الله عنه فى الرسالة الفقيرية : « هو المطلوب وبه يطلب ، ومنه الطالب وله ومنه وعنه الـكل » — فاعلم ذلك . وأسباب الـكمال عند المحقق الأول زمان حائل ومكان آفل ، ومضاف زائل ، وطالب نائل ، وخبير خبره ذات مخبره ، وعليم علمه عين معلومه ، وحصر ممتد ، وقضية تجدد وفرع هو ذات أصله ، ونوع لا عموم لجنسه .

قوله رضى الله عنه « والتجوهر بمدلول الإمكانات الالهية » — التجوهر بالشىء هو حصوله فى ماهية المتجوهر مثل الشىء المطبوع الذى لا يمكن زواله ولا يقدر فقده وكأنه يعود له من صفات الأنفس التى لا انفكاك لها كما تقول : تجوهر فلان بحب فلان — بمعنى أنه غلب عليه حبه وحكم فى طباعه [١٩] وظهر فى شمائله ونعوته كلها . وبه قال بعض الفقراء حين سئل عن المحبة فقال : هى اتحاد النعوت . وكما تقول : تجوهر فلان بالخمر — بمعنى أنه لا يصحو منه . وقد حده سيدنا رضى الله عنه فى « النتيجة » فقال التجوهر هو أن يكون المتجوهر فى الشىء بعموم ماهيته . — والدال هو الناصب للدليل ، والدليل هو الحامل للمطلوب المستدل عليه ، والمدلول هو

المطلوب بالدليل ، والإمكان هو الجواز الذى يحكم بنفى الشىء أو إثباته حكماً واحداً على التساوى كما نقول فى قضية جائزة إذا قدرت وقوعها وهى من حكم الجائزات يمكن أن يكون خلد بمعنى يجوز ، ويمكن ألا يكون . وبالجملة : الممكن هو الجائز ، والإمكان هو الجواز ، وهو متوسط بين الواجب والمستحيل . فالواجب هو الذى يلزم من فرض عدمه محال ، والمستحيل هو الذى يلزم من فرض وجوده محال ، والممكن هو الذى يجوز وجوده ويجوز عدمه . وفى قضية الإمكان كان العالم قبل وجوده وفيها هو الآن فى بقائه وتجديد إيجاده ، وبالجملة كل فعل يفعله الحق تعالى وكل ما فعل هو فى الإمكان ، والإمكان هو حقيقة العالم بأسره . ولما كان الممكن لا يقع بنفسه لكونه لا يترجح أحد طرفيه على صاحبه ، فوقوعه يدل من صفة نفسه على الفاعل المختار . ولما كانت المفعولات أنواعاً كثيرة ، وكل نوع من مخلوقات الله تعالى له من الإمكان قضية تخصه سماها إمكانات بحسب الإمكان المقدر فى مخلوق مخلوق ، والإمكان من حيث هو هو واحد فى حكم العقل ويتعدد بحسب حكمه فى مخلوق مخلوق فتسمى إمكانات — كما تقول أعوذ بكلمات الله التامات ، وكلمة الله من حيث هى كلمة واحدة ، وتتعدد بحسب أثرها فى المخلوقات المتعددة ، وكذلك القول فى الإمكانات : هى كثيرة بالنظر إلى تعدد الممكنات ، والإمكان واحد من حيث معقوله المطلق . فلما كانت الإمكانات تدل بذاتها على الفاعل الذى يخصص ممكناً بدل ممكن ، والفاعل واجب الوجود ولا يظهر ممكن إلا بقدرته ومشيئته وعلمه وحكمه وأمره ، فكل ما يقع فى الممكن يدل بطبعه على صفات الحق تعالى وعلى وجود ذاته ووجودها وعلى قيامه بذاتها ، إذ كل ما يقع فى الممكن هو صادر عن ذاته . فمدلول الإمكانات هو الله تعالى وصفاته . وقوله رضى الله عنه : « الإلهية » الضمير يعود على الله وصفاته لا على الإمكانات . وكونه حض على التجوهر بذلك معناه أن لا تعقل لذاتك وجوداً إلا بصفات الله المقومة لوجودك والمتممة له والتى لا حقيقة لك إلا بها ، كما تقول : لا وجود للممكن إلا بقدرة الله ، والقدرة شرط ضرورى فى وجوده ، وما هو ضرورة [٢٠] الشىء فهو الشىء . فإذاً القدرة هى ذات الكون الممكن ، والقدرة صفة الله ، وصفته غير زائدة على ذاته . فالله هو ذات كل ممكن ووجوده بالوجه الذى ذكرناه . ومن حيث أنه إذا قدر ارتفاعه ارتفع وجود كل شىء فاعلم ذلك والزمه واعتقد الإفرادَ المحض مع قوة الملازمة .

فكأنه قال : لا وجود لك ولا حقيقة ولا ماهية ولا حال إلا بالله ، والله هو أصل وجودك وأحوالك ، وهو الظاهر فى ظهورك والباطن فى أسرارك وهو الكل من حيث استحقاق الفاعل للفعل. فتجوهر به : بمعنى أبصره أنه هو الغالب على ماهيتك بل هو ماهيتك كما ذكرنا ، وهو الموجود فى نعوتك كلها والسميع فى سمعك والبصير الذى يبصر ببصرك ويبطش بيدك ويسعى برجلك . فتجوهر به : بمعنى أنك لا تعول إلا عليه ولا تنادم إلا له ولا تبصر إلا وجوده ، فإنه أقرب إليك من وجودك لك . فافهم ذلك من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله : « إذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله » . . . الحديث — ومعناه : إذا أحببته ، والضمير فيه عائد على فهم العبد وعلمه بذلك ؛ وأما من حيث الحق تعالى فهو سمع كل شيء وبصره وجملته قبل وجود ذلك ومعه ولا يتنوع الأمر من حيث الله تعالى . ولا يمكن أن يكون فى وقت سمع العبد وبصره ولم يكن قبل ذلك كذلك ولا بعده ، هذا فى حق الله تعالى محال . وإنما معنى الحديث : إذا أحببته جعلت له فهماً يعلم أنى سمعه وبصره ويده ورجله وأنى كذلك كنت قبل ذلك بالإلزام الذى ذكرنا . ولما كانت المحبة نوراً يبصر به نعوت المحبوب وصفاته وذاته كان العبد عند وجودها ، أبصر قرب الحق منه، وكونه سمعه ؛ فصار التقديم والتأخير للفهم الذى يوجد عند العبد فيعلم قرب الحق واستحقاقه له . فتنبيه العبد الممكن على التجوهر بالواجب معناه أن يعلم أنه متجوهر بالواجب من صفة نفسه ، وأن الحق مقوم لوجوده ومتمم له وأنه معه على ما هو عليه فى كل الأحوال ، فنبهك أن تعلم ذلك — فافهم .

وقوله — رضى الله عنه : « وبما يجب كما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب » — أشار بذلك للآداب والتصريف الموزون ووضع الشيء فى محله ولما يبق فى الكلام المتقدم أن العبد فى حضرة ربه وبين يديه وأنه بعينه ولا يفارقه فنبه أن لا يتصرف فى تلك الحضرة إلا بما يجب . ومما يجب للعبد أن لا يذكر غير ربه وهو بحضرته ، وأن لا يطلب شيئاً من غيره وهو مقيم عنده ، وأن لا ينسب وجوده لغير حقه وهو به وله ، وأن لا يطلب نعمة من غير الله وهو بعين الله — فيكون ذلك من وضع الشيء فى غير محله ، وطلب الشيء من غير مالكه وفاعله ؛ وأن ينسب وجود الممكن للواجب فيكون من وضع الشيء فى محله . وأن لا يذكر أحداً إلا الله الذى هو [٢١] ذاكره

بالإمداد والتجديد وإعطاء الماهية فيكون من وضع الشيء فى محله وفعل ما يجب ؛ وأن لا يطلب نعمة من غير الله فلا نعمة لغيره إلا مستعارة ، ويطلبها من الحق فهو المنعم على الإطلاق ، ويكون ذلك من فعل ما يجب ووضع الشيء فى محله ، أولا يطلب نعمة إذ نعمة الله قائمة به لئلا يغيب عن الحاضر ويجحده بطلب الغائب المتوهم ويكون ذلك من فعل مايجب ووضع الشيءفى محله ؛ ولا يبصر وجوداً إلا الواجب إذ لاوجود لغيره معه ويكون ذلك مما يجب ، ووضع الشيء فى محله ؛ وبصره الذى يبصر به الواجب ينسبه للواجب فيكون ذلكمن وضع الشيء فى محله وفعل ما يجب . وإذا كان العبد ينسب الأشياء إلى حقيقتها ويضعها فى مواطنها ووجودها الذى هى به ماهية ويتركها على ما هى فقد فعل ما يجب كما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب ، لأنه ينظرها فىالله بوجودها على ما هى عليه فى أوقاتها وأحوالها وأمكنتها — وهذا هو التصريف الموزون ووضع الشيء فىمحله وفعل ما يجب . والمنصرف بهذا التصريف هو المتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية على التمام ، وهذا الذى يذكرالله من صفة نفسه ويجده فى جملته ويبصره فى أحواله كلها وفى الكون المطلق وفى بصره الذى يبصر به كما تقدم . وإذا صح بما ذكرنا أن الممكن لا شيء له ولا ذات إلا مستعارة من الواجب وهى بالجملة لا تفارق الواجب الذى هى منه وبه وعنده ، فإذاً لا ممكن على الحقيقة إلا متوهم أو خبر لا مخبر له خارج الذهن . فإذاً القضايا كلها واجبة ، فكل قضية يجب على البصير أن يتصف بها كما وقعت وكما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب إذ هى واجبة لا محيص ولا انفكاك لها عن ذلك كله لأنها وجود واجب . وهذا معنى قوله رضى الله عنه : « وبما يجب كما يجب فى الوقت الذى يجب » .

وقوله رضى الله عنه : « والاتصاف بالحكمة التى تفيد الصورة المتممة للسعيد » الاتصاف هو قيام الصفة بالمتصف حتى تصير له معنى ووصفاً لازماً يوصف بها وينعت بها — كما تقول : فلان العالم إذا اشتهر بالعلم وصار له نعتاً وأشير إليه به أعنى بصفة العلم ، وكما تقول : حاتم الكريم ، فصار يكنى بالكرم وينعت به لكونه صار له وصفاً لازماً ، وكذلك تقول : فلان الشجاع وما أشبه ذلك . والحكمة فى اللغة هى العلم والعدل كما رسمها سيدنا رضى الله عنه فى الكلام على أنواع الحكمة ؛ وفي « الرسالة الإصبعية » قال إنها العلم والعدل، وزاد : وضع الشيء فى محله . والحكمة في الشرع

هى السنة لقوله تعالى : « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة »[1]. والحكمة الفهم عن الله لقوله تعالى : « يؤتى الحكمة من [٢٢] يشاء[2] » معناه الفهم عنه — وهذا ذكره سيدنا رضى الله عنه فى رسالة « الكلام على الحكمة » وفى « الرسالة الفقيرية » . وإذا نظرت معناها يرجع إلى اشتقاقها فى اللغة ، فإن العلم والعدل هو معقول السنة والإيمان والعمل الصالح والعلم هو الفهم عن الله . فقوله : « والاتصاف بالحكمة » أراد بذلك أن تظهر الحكمة على العبد وتستجيب فى سيرته وتعلم من سريرته حتى يسمى بها حكيما لقوة ظهورها عليه بالعلم والعمل .

وقوله رضى الله عنه : « التى تفيد الصورة المتممة للسعيد » — قيدها ودل ذلك على أن الحكمة من الأسماء المشتركة وأن منها ما يفيد الصورة المتممة ومنها دون ذلك ، ولذلك قيدها بقوله : « التى تفيد الصورة المتممة » — فإنه قد يطلق الحكيم فى العرف على الذى يدبر الأمراض الجسمانية وهو الطبيب الذى يحفظ صحة البدن ولا يفيد الصورة المذكورة ، لكن كان له من الحكمة اشتراك وهو العلم بأخلاط الجسم والخاص بمضاره ومنافعه . وكذلك الفيلسوف الإلهى هو الذى جمع أقسام الفلسفة الأربعة يطلق عليه حكيما ويسمى بالحكيم ولكن ليس هو الذى أشار إليه سيدنا رضى الله عنه هنا إذ حكمته عندنا لاتفيد الصورة المتممة على التحقيق . وإن كان رسم الحكمة عنده معرفة الأشياء حسبما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان ، أو معرفة الأمور الإلهية والإنسانية والاعتناء بالموت أو المعرفة بالله على قدر طاقة الإنسان كما رسمها سيدنا رضى الله عنه فى مذهبهم فى « البد » فإنه لا يفيد ذلك على الوجه الذى يريده المحقق ، لأنه عرف الله على قدر طاقة الإنسان والإنسان ممكن الوجود ، والممكن الوجود لا يعرف الواجب الوجود على حقيقته إذ هو عاجز من كل الجهات . وقد تقدم قصور الفيلسوف وعجزه عن الحق فى الكلام على الكمالات — فانظره هناك . ودل من الكلام أنه لم يرد الحكمة التى يشير إليها الصوفى التى هى المشاهدة الحاصلة للنفس بالتوجه لله والتضرع له والتعرض لنفحات فيضه ، لأن ذلك كله يعطى الإضافة ويشعر بالنقص فى جوهر الإنسان .

---

(١) سورة « الأحزاب » : آية ٣٤ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٦٩ .

والصورة حدها هى التى بها الشىء ما هو . وقوله : « المتممة » يدل على أنه أراد تمام جوهر الإنسان بالحكمة فتحصل الصورة التى لا يمكن فيها الزيادة والنقصان ، ولا يكون ذلك إلا إذا وجد السعيد جوهره هو كل شىء ؛ والأشياء المختلفة فيه شىء واحد متفق من كل الجهات ولا ضد عنده ولا خلاف ولا غيره ، فلا نقص يهرب منه ، ولا كمال يرحل إليه ، ويكون خبره ذات مخبره ، وعينه ذات آنيته . وهذا هو الجوهر السعيد لأنه فى نعيم [٢٣] غير زائد عليه وبقاء غير ذاتى طبيعى له ، وهو فى حرم وحدته آمناً من طلب الزيادة وخوف النقصان . فصورته المتممة هى صورة الوجود من حيث هو مطلق . والحكمة التى تفيد هذه الصورة المتممة هى الحكمة التى تصرف الأشياء إلى شىء واحد ، وتحيل العدد إلى الواحد ، وتعين حقيقة اسم الصمد فى ذات كل واحد وموحِّد وموحَّد ، وترد الممكن واجباً ، وتقلب الموجب سالباً ، حتى يبصر الحكيم خبر الأعداد والإضافة ، لم يزل قبل ذهابه ذاهباً . فاعلم ذلك .

وحكمة الفيلسوف ليست حكمة فإنها تبصر الأغيار وتنتقل من أثر إلى أثر وفاتها كنز التخلق الذى تحت الجدار وكاملها فى كد الهروب من الكون وذل الزيادة الواردة على عقله الفعال . فليس له استقلال ، ولا لكماله ثبوت ولا قرار ، وهو بالجملة يتخبط فى وهم الإضافة ونظر الأغيار . وكذلك الصوفى : فإنه يتلذذ بالمشاهدة وتغايره الشهادة ويموه بالتوجه ويهلكه خبر التوله ويجعل غايته الفناء . وذلك كله يرجع إلى الحاصل الموجود عنده قبل وجود التوجه والاعتقاد . وبالجملة يقبل الزيادة ، ويجاهد شيطان الإضافة ، ويتعب فى جهدها بالإضافة ، ويطلب الخلاص من مكابدة وهم العادة ، وكأنه يحارب الباطل ويترك طور شهوده فى حق حقيقته ، ويترك الطور العامل هو العاطى ، ويجد الفصل هو الطالع من القضايا الوجودية والآفل ، وجوهره مع ذلك كله يخبر بالرفيع والنازل ، ولسان حاله بوجود الغيرية والإضافة قائل ، وللصورة المتممة المذكورة قَبْلُ غير قائل . فاعلم ذلك ، واعمل على تحصيل القسم الأول بالحكمة الأولى ، فهى عين الخبرة والصبر على الثبوت فيها بمدافعة غيرها من محله سر الأثر .

وقوله رضى الله عنه : « وبالحقيقة التى تقيمه فى الصورة المقومة » — والصورة المقومة هى التى قامت منها ماهية الشىء وكأنها الشىء المقول على جملته كما تقول : ما هى الصورة المقومة للجسم ؟

تقول : الجواهر الملتئمة بعضها مع بعض، والمتممة : الأعراض المحمولة عليه . أو تقول : ماهى صورة المقومة للسرير ؟ تقول الخشب والفاعل وكونه موضوعاً على قوائم المربع، والمتممة : على الرقاد عليه . وهى بهذا الوجه تقال على العلل الثلاث والرابعة هى المتممة . وإذا قلنا إن الصورة هى التى بها هو الشيء ماهو ، فنقول صورة الجسم المقومة له هى الجواهر والأعراض . أو تقول : ما الصورة المقومة للإسلام ؟ تقول الدعائم الخمس والثمانية أعمال على قوله ، وصورته المتممة هى السعادة التى تحصل به . أو تقول : ما الصورة المقومة للإنسان ؟ تقول الحياة والنطق ، والمتممة [٢٤] ما يحصل من الحكمة والمعرفة بالله والسعادة . وبالجملة ، الصورة المقومة هى المقولة على وجود الذى بها هو ما هو وكأنها كمال أول له ، والمتممة لتبعه من الأمور اللاحقة وكأنها له كمال ثان ويظهر منها أنها تقال على الأمور الذاتية التى لا يعقل الشيء إلا بها وهى له صفة نفس لا يمكن ارتفاعها . فإذاً تقول : الحقيقة التى تقيم الإنسان فى الصورة المقومة هى وجوده ، وهى الفطرة الأولى إذ وجوده هو الأمر اللازم الذى لو قدر ارتفاعه لم يبق من يخبر عنه . وكونه حض على الاتصاف به تنبيهاً للسعيد أن يعتمد على حقيقته وما قام به من الوجود ويلحظ فطرته الأولى ، ويقف عند ما أعطاه له القصد القديم وما أقامه الحق فيه من النصيب ويطالع النظام القديم والتعلق الأول فى نصيبه ، إذ ذلك النصيب هو الذى وهبه الله تعالى وفيه أقامه . ويلحظ الغيب فى الشهادة فيشاهد ربه فى نصيبه ويجده فى نفسه وفى جملته فيجد ذاته عند ربه ومنه وله فيكون مقيما فى حضرة الحق فيتأنس أنساً ثابتاً ، ويتلذذ لذة جوهرية . ويكون كماله حاصلا بحسب ذلك ، إذ لا يمكن أن يزاد فى وجوده الذى هو عليه ولا ينقص منه ويتحرر من ذل الكون والطلب ويسعد بعدم التخبط والاضطراب ، ويكون هوية مطمئنة فى جنة الرضوان والسكينة — فاعلم ذلك .

وقوله رضى الله عنه : « وتعمل على نيل الآلات التى تعطى الحق بحسب ما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان» — الآلة هى معنى رابط بين الفاعل والمفعول فكأنها السبب الموصل للشيء ، غير أنها أشد ضرورة من السبب وألزم فإنك تقول : النظر سبب العلم وقد يقدر علم بغير نظر ، والآلة سبب الشيء وكأنها شرط ضرورى فيه كما تقول المنشار والقيدهى آلة النجار ، والإبرة والخيط آلة الخياط . وقد تطلق الآلة والسبب بمعنى واحد بوجه ما . فإن قال قائل : قد ذكر فى الأسباب

الـكلام المتقدم ، فـكيف يعيده هنا ؟ يقال له قد يعيده ههنا للتأكيد ولاختلاف المتعلقات لأنه ذكر هناك أسباب الـكمالات وهذه أسباب البرهان ، والبرهان غير الـكمال لغة وعقلا ، فيـكون اختلاف اللفظ فيها باختلاف المتعلقات أو للتأكيد كما ذكرنا ، أو ليـكون هذا ألزم من هذا وأشد ضرورة كما ذكرت قبل . والحق هو كشف حقيقة الشيء المحقق أو خبر صادق داخل الذهن وخارجه ، أوالحق حصول حقيقة الشيء من نفس المحقق أو ضد الباطل ، أو الحق ما عين المطلوب ورفع اللبس وأزال الإشكال . أو الحق حقيقة الوجود وما به هو ما هو . والبرهان هو حجة المبرهن على حقه الموجود فى [٢٥] خلده لقوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١) أو تقول : هو دليل صدق مدع ، أو تقول هو بيان حق المبرهن ، أو تقول هو الحاصل عند المقدمات الصادقة ، أو تقول هو مقصود القياس ، أو تقول هو الذى لا ينفك من المحمول والموضوع إلى الغرض المطلوب بالمقدمة التى لا وسط لها . — فالآلات التى تعطى الحق للفقيه والنظر هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتاب الله عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مع العقل والنظر السديد فيهما والهداية الإلهية . والآلات التى تعطى الحق عند بعضهم : الـكتاب والسنة والإجماع والقياس والعقل مع الاجتهاد والنظر فيهما والتوفيق الإلهى . والآلات التى تعطى الحق عند الأصولية هى الضرورة والحواس والخبر والدليل — وينقسم إلى أقسام يطول ذكرها . والآلات التى تعطى الحق عند الفلاسفة هى صناعة المنطق ، وهى عندهم التى ترشد القوة الناطقة نحو الصواب وتحفظها من الغلط ، ولها أجزاء ماهية ذكرها سيدنا رضى الله عنه فى كتاب « بد العارف » وفى « الرسالة الرضوانية » يطول علينا ذكرها هنا ، فابحث عليها حيث ذكرت . والآلات التى تعطى الحق عند الصوفية هى الأحوال الـكاشفة والخواطر الصادقة والبواده والبوارق اللامعـة والإلهام والتحدث المحفوظ والمواجد الثابتة والأنوار الإلهية والعناية الأزلية والتخصيص الإلهى والنصيب الصحيح المؤيد . والآلات التى تعطى الحق عند المحقق : القضايا الوجودية والأخبار الذاتية فى الضمير المعتدل الخاص به ، والروح الباصر من عين ذاته ، والـكنه المحيط ، والـكمال البسيط ، والـكلمة المطلقة ، والحضور الغير مضاف ، والهوية المجردة مدركاتها عن

---

(١) سورة « البقرة » : آية ١١١

الزمان ، والشرف الذى يثبت الأنيات فى غير مكان ، والعين التى تعينها عين العيان . فافهم ذلك واعمل على نيله كما رُسم لك . والنيل هو تحصيل الشيء وملكته والتصرف فيه وبه .

وقوله رضى الله عنه : « و تُحكِّم الشارع — عليه السلام — على جملتك و تعتقد أنه الخير بالذات » — التحكيم هو دخول المحكوم عليه تحت حكم الحاكم بغير توقف . ونقول : التحكيم انفعال المحكوم عليه لأمر الحاكم ونهيه من غير تعليل . ونقول : التحكيم هو تقديم المحكوم عليه للحاكم على جملة تصرفه وإذعانه له ورعاية حدوده من غير تعد . ونقول : التحكيم هو أن يملّك المحكوم عليه نفسه وجملته للحاكم حتى لا تظهر عليه صفة إلا بأمر الحاكم ويمنع غير ذلك . والشارع هو المخترع للشريعة الموضوعة ليسلك عليها من معه ومن بعده لرضوان الله . أو نقول : الشارع هو المشرع للشريعة أى للطريقة التى يمشى ويسلك عليها للمقصود المطلوب [٢٦] بأيسر تكلف . كما تقول : شرع فلان إلى الماء طريقة سهلة ، بمعنى فتحها وسهلها وقصد بها الجهة القريبة المبلغة فى الوقت القريب . والشارع المذكور هنا هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والشريعة طريقته ومنهجه وموضوعه الذى وضعه ليمشى عليه أتباعه لرضوان الله ولسعادتهم المطلوبة .

والخير هو المطلوب المحبوب لكل حى حادث يتحرك بالشوق والإرادة ، وهو ينقسم إلى ذاتى وعرضى . فالعرضى هو فى الأشياء التى هو فيها بالاتفاق والمصادفة كسقوط حجر على ذى جرح وبطه له وأداء ذلك إلى برئه ، والذاتى هو فى الأشياء التى هو فيها بالذات ولا يحتاج فيها إلى غيرها ولا يفقد منها فى وقت ولا بوجه — مثال ذلك : السعادة فى العلم والهداية ورضوان الله والطاعة والسمع وما يتضمنه القدر من الخير المحض ، وهذا ذكره سيدنا رضى الله عنه فى «الكتاب الكبير» . ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم هو ذات العلم النافع ومرشد إليه يعرف بالله ودليل الرضوان إليه بوجه ومدلوله بآخر ، وهو ذات الرضوان وماهية الهداية ، ولا سبيل إلى السعادة إلا به وهو سببها وذاتها بوجه آخر ، وهو الخير المحض ، والخير فى طريقه ومنه وعليه ، وكذلك الكمال والرفعة والنعمة الأبدية — قال هو « الخير بالذات » ووجب أن يقال ويعتقد أنه الخير بالذات . ولما عُلِم ذلك واعتُقِدَ وجب أن تدخل النفوس تحت حكمه ، وتخرج عن اختيارها لاختياره ، وتترك آراءها لرأيه ، وتهمل اجتهادها بتقليده ، وتعجز عقولها وتتبع عقله .

وكأن معنى قوله : « وتحكم الشارع عليه السلام » على جملتك — يريد به ذهاب ماهيتك المجموعة من القوى الجسمانية والروحانية والمتوسطة واستيلاء النبي صلى الله عليه وسلم على جملتك ، وتجد ما أذهبته منك تأخذ بدله من النبى صلى الله عليه وسلم . وجميع القوى التى خرجت عنها يتصف مدلولها من قوى النبى ﷺ . مثال ذلك : إذا محوت عقلك بمعنى أنك لا تبصر به ، ولا تعمل برأيه تأخذ من الشريعة بما تبصر وتعمل . وبمثل هذا تقيس على جميع القوى ، فإذا لم تعتقد إلا بالشرع ولا تعلم إلا به ولا تتحرك إلا به ، فقد استولى النبي ﷺ على جملتك ، فإن ماهيتك آنية مجموعة من علم وعمل لا غير . فإذا لم تعلم إلا بالشارع ولم تعمل إلا به ، فقد استولى النبى ﷺ على جملتك وذهبت عنك وثبتّ به . والنبي هو الخير المحض كما تقدم ، وهو ذاتك كما لزم فى ذهابك ووجوده ، فذاتك الخير المحض إذا حكمته عليك كما ذكرنا . فنقول : من خرج عن نفسه للشرع كان فى ذاته معدوماً وبالنبي موجوداً ، ومن كان موجوداً بالنبي كان بالله ، ومن كان بالله كان كاملا ، ومن كان كاملا كان سعيداً ناجحاً وفى رضوان الله [٢٧] سابحاً . فاعلم ذلك واعمل به ، ومعنى هذا يفهم من قوله تعالى : «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم»(١) ومن قوله ﷺ : « لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ونفسه » . فهذه حقيقة الاقتداء بالنبي ﷺ . وفى ذلك قال بعض المشايخ : من صحب شيخاً ولم يملكه نفسه قيل لتلك الصحبة صحبة تَبَرُّك ، ومن ملكه نفسه قيل له مريد ومقتد . فنقول فيما قلناه : النبي نور الله ، والمؤمن لا ينظر إلا بالنبي ، فالمؤمن ينظر بنور الله . ونقول : النبي حبيب الله ومحبوبه ، والمؤمن لا ذات له إلا بالنبي ، فالمؤمن حبيب الله ومحبوبه — ويفهم هذا من قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » (٢) ونقول : النبي هو ذات التصريف الموزون ، والتصريف الموزون عين الحكمة ، فالنبي ذات الحكمة . والمؤمن لا تصريف له ولا ذات إلا بالنبي ، فالمؤمن ذات الحكمة والحكمة مقدمة الخير بوجه ، وهى ذاته بوجه . فالمؤمن ذات الحكمة وذات الخير . وهو معنى قوله تعالى : « ومَنْ يُؤْتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » (٣) . فاعلم ذلك واكتف به .

(١) سورة «الأحزاب» آية ٦ (٢) سورة « آل عمران » آية ٣١
(٣) سورة « البقرة » آية ٢٦٩

وقوله رضى الله عنه : « وتصل حبل المعروف وجميع ما استحسنه العقل وحرره النقل وحضت عليه الشرائع » — الحبل هو الشيء الرابط للأشياء المفترقة والحافظ لها والناظم بعضها إلى بعض والذى يصل المنفصلات بعضها ببعض ، مثل الإسلام الذى يجمع الأسباب المفترقة ويردها سبباً واحداً بالدين ، ويؤلف المتضادات ، ويرفع العداوة ويوقع الألفة ، ويجمع الذوات المفترقة كلها بقانونه — كما قال تعالى : « اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » [1] . والمعروف هو ما جرت به العادة ولم تنه عنه شريعة ولا حكمة . والعقل هو الذى يحكم بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . والحسن هو الذى يمدح به فاعله . والنقل هو حمل القضايا من شخص إلى شخص ، أو حمل الحديث من شخص إلى شخص . والنقل المراد هنا هو ما بلغنا من سنة رسول الله ﷺ وما نتلوه فى كتاب الله . والتحرير هو إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلى والظهور ، أو نقول : التحرير هو رفع الإشكال من الشيء وحفظه مما يلتبس به . والشرائع هى الطرق الموضوعة من الله — جل وعلا — على ألسنة رسله صلوات الله عليهم أجمعين . وكأنه قال : تصل مَقُولَكَ وفعلك وجملة معاملاتك الظاهرة والباطنة التى تختص منها بالخلق فيما بينك وبينه والذى يختص منها بك والتى بينك وبين الله ورسوله بالمعروف الذى تقدم حَدُّه ، وتعامل كل جهة من هذه الجهات المذكورة بما يحمده الشرع ويحض عليه ، ويمتحنه العقل ، ويمدح به فاعله ، وتقرره العادة الجميلة والسيرة [٢٨] الجليلة ، وينفع للطباع المعتدلة ويفيد النفوس أملها فى العاجلة والآجل . ومعنى ذلك أن تعامل الخلق بالإنصاف والعدل ، وحمل الأذى ، وترك الأذى ، ووجود الراحة ؛ وتعامل الحق تعالى بالافتقار والعبادة والتنزيه والمحبة ؛ وتعامل النبي ﷺ بالتبعية وما ذكرناه قبل ، وتعامل الرتب كلها بما يجب لها . وهذا هو حبل المعروف الذى جرت به العادة ولم تنه عنه شريعة ولا حكمة . وسمى حبلا لامتداده مع أمل المنصف به ولاتصال صُوَره بعضها ببعض فى فعله وحاله وقصده .

وقوله رضى الله عنه : « وتقطع حبل المنكر وضد ما ذكر قبل » — المنكر هو ما لم تجر به عادة

---

(١) سورة « آل عمران » آية ١٠٣

ولا حضت عليه شريعة ولا حكمة ، أو نهت عنه الشريعة والحكمة ؛ وهو ضد المعروف . والقطع هو تفرق الاتصال ، كما أن الوصل هو اتصال المتباين ، والوصل اجتماع المفترق ، والقطع افتراق المجتمع . والتضاد هو مدافعة الحكمين المتضادين بعضهما لبعض وعدم اجتماعهما بصفة الضدية ، ولا يمكن ذلك ؛ والضدان هما الشيئان اللذان لا يمكن اجتماعهما فى محل واحد فى الوقت الواحد . ولما كان المنكر هو ضد المعروف أمرك أن تصل المعروف الذى تقدم ذكره وفى اتصالك به وظهورك فيه وظهوره فى عوالمك قطع المنكر ومباينته وانفصالك عنه بالذات ، إذ الضد لا يجتمع مع ضده . وقد تقول أيضاً حبل المعروف هو الانحياش إلى الله وحزبه . وقطع حبل المنكر هو الانفصال من الشيطان وحزبه . ونقول : المعروف هو الخير المحض ، والمنكر هو الشر المحض . ونقول : المعروف هو النفس المطمئنة الفاضلة التى أمرت بوصل حبلها ، والمنكر هو النفس الأمارة الشريرة ، فأمر أن يقطع حبلها . والمسترشد المأمور هو الإنسان العاقل الذى هو فى مرتبة النفس اللوّامة . ونقول : المعروف هو العالم الروحانى الشريف العارف بالله بالذات ، والمقدّس له بالذات ، المنزّه من الإشابات . والمنكر هو الجسمانى الخسيس الذى فيه الموت والجهل والشهوة والغضب والفساد بالذات . والمسترشد هو النفس الناطقه الجامعة بين الروحانى والجسمانى . فأمر أن تصل العالم الروحانى وتقطع الجسمانى . ونقول : المعروف هو الأخلاق الطاهرة الحسنة ، والمنكر هو الأخلاق السيئة المشوبة بالحظوظ . والمتوجه يقطع هذه من نفسه ، ويصل هذه بوصفه . ونقول : المعروف هو صفات الله وخلقه ، والاتصال بهـا هو فهمها والتجوهر بها . والمنكر هو صفات البشرية ، والصوفى هو الذى يقطعها وينفصل عنها بجوهره ووصفه ويصل الجنس الآخر بذلك . أو نقول : المعروف هو صفات الذات القديمة ، والمنكر صفات العقل الحادث ، والإنسان [٢٩] المتوسط هو صفة المعنى. فأمر أن يتصل بصفات الذات ويتعلق بهـا ويهمل الحوادث ولا يعتمد عليها . وقد نقول : المعروف هو الذات الثابتة ، وضده هى الرّتب إذ هى زائلة — فاعلم ذلك .

وقوله رضى الله عنه « وتتخلص من كل قاطع يقطعك عن الله تعالى » — التخلص هو التحرير من الإشابة ، كما تقول هذا لبن خالص أى عَرِىٌّ عن الإشابة · والكل هو حرف الحصر والجمع ،

والقاطع هو الحائل والحاجز عن الشيء أو الفاصل له . والله هو الخير الذى يراد لذاته ولا يراد لغيره وهو الجليل المعتبر الذى لا يتردد الذهن فى ثبوته ويعجز عن تصوره ؛ أو هو المطلوب المعتبر ؛ أو هو محبوب السعداء أو كمال المحقق ، أو غبطة العقل أو معشوقه . فكأنه قال : سعادتك ورفعتك وكمالك وعزتك ونعيمك الدائم فى وصولك إلى الله وقربك منه ، فتخلص من كل شيء يقطعك عنه فتُقْطَعَ عن كمالك وسعادتك فتبقى فى النقص الخالد والشقاوة الأبدية . والقواطع عن الله قد عدها سيدنا رضى الله عنه فى بعض « الألواح » وفى « خطاب الله بلسان نوره » . فقال : هى الأجسام ولواحقها ، وقواها المتوسطة ، والطبيعة ، والنفس الحيوانية صراط لا يقطعه إلا السعداء ، والنباتية ، والمنجرّة المتطولة ، والكسل ، والخوف ، وفساد التوجه ، وعدم المرشد ، وقلة المساعد — جميع ذلك من أجزاء العلل والقواطع ، وكذلك المذاهب الفاسدة والطرق المبعدة — وما أشبه ذلك . والكلام فى هذه وكيف تقطع ، وبماذا ، وما يخص كل واحد من هذه من الفساد وأين رتبته من القطع والحجاب — يطول ذكره ههنا . فنقول القرب من الله لا يكون إلا بالنسبة والشبه ، والبعد منه بضد ذلك . فإذاً العلم يقرب من الله إذ هو صفاته وموجود فى ذاته ، والجهل يبعد منه إذ ليس هو موجود فى ذاته ولا نسبة بينه وبينه . وكذلك الرحمة صفته ، والإحسان ، والعفو ، والكرم ، والجود ، وما أشبه ذلك . فكل كريم جواد رحيم عفوّ محسن — قريب من الله من حيث الشبه أو النسبة كما ذكرنا . وكل بخيل مناع جاهل منتقم — بعيد من الله إذ لا نسبة بينه وبينه . وفى الأحاديث ما يقوى هذا ، والشرائع متواطئة على أن الرحيم مرحوم ، والمحسن مجازًى بإحسانه ، وأن مكارم الأخلاق صفات السعداء . والصوفية مجمعون على أن القرب من الله والتخلق بأسمائه هو المنهاج الجليل . والحق ليس بجسم ، فالأجسام وصفاتها قاطعة عنه . وكذلك الحق صمد فلا يتقرب إليه بالمجوَّف ولا بصفاته . وكذلك الحق واحد ليس بمركب ولا فى مركب ؛ فالمركبات قواطع عنه . وكذلك هو أحد لا مثل له ؛ فالمتماثلات قواطع عنه . وكذلك هو واحد ليس بعدد ، فالأعداد قواطع عنه . وهو [٣٠] واحد لا إضافة فيه ولا يقبل الزيادة وتقدس عن النقصان ، فكل من يقبل الزيادة وفيه النقصان ويعقل فى الإضافة فهو قاطع عنه . فإذاً العقول والذوات المجردة التى يعتمد عليها الحكيم ويقول إنها كماله وسعادته فى الوصول إليها ، وكذلك الأرواح المفارقة والأسماء المضافة التى يشير إليها الصوفى وكذلك المراتب التى يعتقدها بعض المحققين — قواطع عن الله ،

إذ العقول تقبل الزيادة ، وكذلك الأرواح والأسماء التي تعطى الإضافة ،والمراتب التي تشعر بالغيرية وهى غير معلومة فى ذات الله تعالى وهو منزه عنها . وكل ما سوى الله حجاب وقاطع عنه . فعليك بالحق المُعَـرَّى عن ذلك كله، الواحد من صفة نفسه، الذى لا ينسب ولا يكتسب ، فنيه كالك ، وعنده سعادتك ، وبه رفعتك ، وهو نعمتك وله وبه ومنه وعنه جملتك . فاقصد خرابك ، واهجر سرابك ، تسمع جوابك ، والسلام عليك إن فعلت .

وقوله رضى الله عنه : « بعد ما تتصف بالعلوم الضرورية التى لا يجهلها أحد عن أحد فى عرف الشريعة » — البعد هو تأخر قضية عن قضية فى وجد الشخص الواجد لها أو فى علمه وفعله ، كما تقول : وجدت المُزْدَلِفَة بعد مِنىً فى الصعود إلى عرفة ، ووجدت عرفة بعد المزدلفة كذلك — هذا بالنظر إلى المكان . وتقول : وجدت الجمعة بعد الخميس ، بالنظر إلى الزمان ، وتقول : وجدت العلم بعد النظر إلى السبب والمسبب. ولما كان الإيمان والواجبات الشرعية متقدمة فى الوجود على الانقطاع إلى الله والخلاص من القواطع وجاء اللفظ قدامها لضرورة الفصاحة — عطف عليها وأمر أن تقدم بالفعل لأجل تقديم الشرط على المشروط — فقال : بعد ما تتصف بالعلوم الضرورية . وهو جائز فى لسان العرب . وقد وجدنا فى القرآن مقدماً باللفظ ما هو متأخر بالوجود كقوله تعالى : « فجعله غُثَاءً أحوى »[1] . والنبات يكون أخضر قبل أن يكون يابساً ، والأحوى هو الأخضر ، والغثاء هو اليابس — فضرورة الفصاحة قدمت المتأخر على المتقدم .

فنرجع للضرورى فنقول : الضرورى هو اللازم للشيء الذى لا يمكن أن يوجد إلا به وهو له بالذات ، مثل التنفس للحيوان . والضرورى هو الذى يتوصل به إلى غاية ما ، ولا تنال إلا به ، وهو لها شرطى ذاتى مثل قراءة لسان العرب للكاتب ، أو الحركة فى الأمور الإرادية إذا شرع فى تحصيلها . وهذان الحدان المذكوران فى الضرورى ذكرهما سيدنا رضى الله عنه فى « بد العارف » . ولما كان العلم بالله من حيث ما يجب له ويجوز عليه ويستحيل فى حقه والعمل بطاعته المأمور بها شرعا — شرطاً فى تحصيل غاية الإيمان والإسلام جملتها علوماً ضرورية [٣١] وأعمالا كذلك .

---

(١) سورة « الأعلى » آية : ٦ .

ولما كانت هذه شرطا فى الانقطاع إلى الله تعالى والخلاص من القواطع ، والشرط متقدم على المشروط ، أمر أن يكون الخلاص من القواطع بعد تحصيل فرائض الإيمان والإسلام علماً وعملا .

فنذكر حد العلم فى ذاته ، وحينئذ نذكر العلوم ماهى والأعمال . فنقول:حد العلم عند الأصولية هو معرفة المعلوم على ما هو به . ومنهم من قال : حصول صورة المعلوم فى نفس العالم بمعرفة صادقة حققها القياس وأثبتها البرهان.وهذه الحدود ذكرها سيدنا رضى الله عنه فى « بد العارف » فى مذهب الأشعرية مع عدة حدود . ومنهم من قال : العلم ما أفاد التصور والتصديق — وقال سيدنا رضى الله عنه : هذا الحد من أقربها . ولما كان العلم يطلق باشتراك ويقال على كثيرين بحسب المذاهب ويختلف بالمتعلقات ، قيده بقوله : « فى عرف الشريعة » لكون علم الطب يطلق عليه علم وهو ضرورى فى كون الطبيب طبيباً وفى تدبير الأجسام وله أيضاً ضروريات تلزم فى نيله ، وكذلك الهندسة والحساب وما أشبه ذلك : هذه يطلق عليها علوم ولها ضروريات تلزم فى نيلها ولذلك خصصها بقوله : فى عرف الشريعة . ولما كانت العلوم الموجودة فى الشريعة والأعمال تنقسم إلى فرض وندب ، قيدها بقوله : « الضرورية » ، وعنى بها المفروضة . ولما كان المفروض ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية ، وفرض العين يلزم كل واحد فى ذاته ، وفرض الكفاية يحمله البعض عن البعض ، قيده بقوله : « التى لا يحملها أحد عن أحد » وأعطى البيان ورفع اللبس وبلغ الفائدة . والعلوم الضرورية هى سبعة علوم : أولها العلم بحدوث العالم ، والعلم بوجوب صانعه ، والعلم بقدم الصانع ، والعلم بتوحيده ، والعلم بصفاته ، والعلم بتنزيهه ، والعلم بجواز الرؤية . وهذه علوم عددها أبو إسحاق[1] ابن المرا وأخبر بوجوبها وأنها فرض على كل مسلم ، وذكر أبو المعالى[2] وجوبها فى « الإرشاد » وحكى فيها الإجماع

---

(١) أبو اسحق بن المرا بن ضحاك ولد فى مالقة وتوفى سنة ٦١٠/١٢١٤ وكان أستاذاً لابن سبعين . راجع ابن القاضى : « جذوة الاقتباس » طبع فاس سنة ١٣٠٩ ص ٨٧ ، ابن الخطيب « الإحاطة » طبع القاهرة سنة ١٣١٩ جـ ١ ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) هو إمام الحرمين الجوينى أحد أئمة الأشاعرة : أبو المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله ابن يوسف الجوينى إمام الحرمين ، ولد فى ١٨ محرم سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م فى بشتنقان بالقرب من نيسابور . وتوفى فى ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ . وكتاب الإرشاد هو « الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد إلى سواء الاعتقاد » ، نشره لوسيانى ، باريس سنة ١٩٣٨ (مع ترجمة فرنسية) .

ولم يعددها . وقد ذكرها المهدى[1] فى بعض تواليفه وقال فى أول ما أراد ذكرها « باب مالا يسع جهله » . وقد قرر سيدنا رضى الله عنه عليها فى هـذا الموطن : فأئمة الأشعرية مجمعون على ذلك .

وعلم الضرورة أيضاً هو ما يجده الإنسان فى فطرته من غير نظر ، كعلمه بأنه موجود وبأن فى الحى حياة وأن عشرة أكثر من ثلاثة وما أشبه ذلك . ولذلك قيد بقوله : « فى عرف الشريعة » ـ تحرزاً من الاشتراك .

وقوله رضى الله عنه : « وبالأعمال التى تلزم لزوم هذه العلوم » — أراد بذلك كونها واجبة شرعا معينة على كل مسلم فرضاً وضرورة مثل ما هى تلك العلوم ضرورية . وكونه ذكرها بعدها فى ترتيب اللفظ فعل ذلك لكونها متقدمة فى الوجود فى [٢٢] حق المكلف ، إذ العبادة لايقع فعلها إلا وقد تقدم اعتقاد موجود يعبد ولذلك يقع الخطاب الشرعى بكلمة لا إله إلاالله ، وحينئذ يطلب بالأعمال . والأعمال المفروضة هنا ثمانية : أولها شهادة أن لا إله إلا الله ، إذ اللفظ بها باللسان هو من أعمال الجوارح ، وعلمها فى الاعتقاد داخل تحت العلوم المتقدمة . والقسم الثانى من الأعمال إقامة الصلاة والقيام بها ، ثم الزكاة المفروضة ، ثم الصوم المفروض ، ثم الحج ، ثم التوبة ، ثم النصيحة ، ثم الألفة . فهذه الأعمال عددها أبو إسحاق بن المرا من علماء الأندلس ، واتفقت عليها علماء الأشعرية وأئمتهم . وهذه العلوم والأعمال لها لواحق من حيث أسبابها وما يحتاج إليه فى نيلها يطول ذكرها ، وهو غير ضرورى فى هذا الكتاب فاعلم ذلك . وقد تخلص الكلام فيها بحسب قصد الأشعرية والفقهاء فى البعض .

ونريد الآن أن نذكر شيئاً من مقاصد الصوفية بحسب ما يليق بأحوالهم إذ النبيه من إخواننا لا يقنع من المسألة إلا بتركيبها على التصوف والتنبيه على شىء من رتب الحبل[2] . وهذا الكتاب لم نقنع فيه بالشرح اللائق بالجمهور لما نعلم من مقاصد المؤلف وما وجدت فى تواليفه من تركيب المسائل

---

(١) لعله يقصد المهدى بن تومرت زعيم الموحدين .

(٢) كذا فى الأصل !

وتوفية العوالم المعتبرة عنده ، ولكون نسبتنا وإخواننا لا يقتنعون بالعالم الأول ولا يقفون عند المبادئ ، لأن سيرهم مطلق وتركيبهم لا نهاية له إلا بالنظر إلى حصر الواقع ، ويمتد أملهم مع النوازل التي لا يحصرها إلا التعلق القديم . ولما علمت أن في أصحابنا جلة ولا بد أن يقفوا عليه ، جعلت فيه مشرباً للقوى والضعيف والمتوسط . فنبدأ فنقول : العلوم الضرورية على ما يقتضيه نفس بعض الصوفية هو الارتباط اللازم الذى ينعكس المتقدم فيهمتأخراً فيوصل الأول بالآخر الذى يفيد المشاهدة فى مقام الإحسان . والأعمال التى تلزم لزوم هـذه هى العبادات التى تعكس الضمير الأول على المخاطب الثانى . ونقول : العلوم الضرورية عند طائفة أخرى هى إدراك مفهوم الأسماء وحصر خواصها الذاتية واللاحقة . والأعمال التى تلزم لزومها هى ترتيب خواص الأسماء ودورانه عليها فى ظاهره وباطنه حتى يتجوهر الطالب فى تحصيل أنواعها على طلبه فى كتبهم . فنقول : قد ذكر سيدنا رضى الله عنه فى « بد العارف » أن الفلسفة تنقسم إلى قسمين : قسم عملى ؛ وقسم علمى . فجزء الفلسفة العلمى ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها العلم الأسفل وهو العلم الطبيعى وعلم ذوات العنصر ؛ والثانى العلم الأوسط وهو علم الرياضيات وعلم ما ليس بذى عنصر موجود فى عنصر ؛ والثالث العلم الأعلى وهو علم ما بعد الطبيعة وعلم الثاولوجيا وهو الفحص عن وحدانية الله تعالى . وهذه [٣٣] الأقسام تنقسم إلى أقسام أخر ، فالعلم الطبيعى ينقسم إلى ثلاثة أقسام : أحـدها العلم بالأصول التى عنها وقع التكوين ، والثانى العلم بالحيوان ، والثالث العلم بالنبات . والعلم بالأصول التى عنها وقع التكوين ينقسم إلى ثلاثة أقسام : أحدها العلم بالفلك والكوكب ، والثانى العلم بالآثار العلوية الكائنة فى الجو ، والثالث العلم بالآثار السفلية الكائنة فى الأرض . والعلم بالحيوان ينقسم إلى قسمين : أحدها العلم بعلل الحيوان والعلم بأعضائها ومنافعها ، والثانى العلم بأخبارها وطبائعها . والعلم بأمر النبات ينقسم قسمين : أحدهما العلم بعلل النبات وأسباب اختلافه ، والثانى العلم بطبائعه ومنافعه . والعلم الرياضى الذى يقال له المتوسط ينقسم إلى أربعة أقسام : منها علم العدد ، وعلم الهندسة ، وعلم التنجيم ، وعلم تأليف اللحون(١) . وإنما سميت هذه رياضيات لأنها تروض الإنسان بالأشياء المتوسطة بين الجسم وما ليس بجسم ، فتنقله من الجسم ومن الأمور المحسوسة إلى ما ليس بجسم

---

(١) ص : اللحوم — وهو تحريف ظاهر والمقصود علم الموسيقى (اللحون جمع لحن) .

ولا يدرك بحس بل بالعقل وحده . والعلم الأعلى الذى يقال له الإلهى ينقسم قسمين : أحدهما العلم بوحدانيته تعالى ، والثانى العلم بالأشياء التى يوصف بها الله تعالى كالقدرة والحكمة والقوة وغير ذلك من الصفات التى تليق بالله عز وجل . فهذا هو جزء الفلسفة العلمى .

وأما جزؤها العملى فينقسم ثلاثة أقسام : أحدها سياسة الذات ، والثانى سياسة المنزل، والثالث سياسة المدينة . فسياسة الذات تنقسم ثلاثة أقسام وهى : إصلاح القوة الشهوانية وخضوعها للغضبية ، والثانى تعديل الغضبية وخضوعها للقوة التمييزية ، والثالث حفظ التمييزية وتحريكها بالآداب على الترتيب الذى ينبغى. فهذه آساس الفلسفة العلمية والعملية ، وبمعرفتها ومعرفة أنواعها وأشخاصها تدخل فى زمرة الحكماء . ونقول : العلوم التى تدخل بها فى زمرة الحكماء هى الذوات المفارقة التى توجب بورودها على المحل رفضاً للذات الطبيعية والشهوات الجسمانية وتظهر للنفس الناطقة ذهاب المحسوسات وعدم ثبوتها وخاصة عالم الكون وسرعة فساده، وتُسكِّره ذلك النفس وتشوقها إلى عالمها المفارق وتنبهها على الذات الروحانية وشرفها وعدم فسادها ، فتنقل جوهر الإنسان من عالم الكون بالصنائع العلمية والعملية، وتقيمه <فى> حضرة الذوات المبدعات ، وتجوزه من ظلمات الزمان والمكان . ونقول العلوم التى تدخل بها فى زمرة الحكماء هى الملاحظه الصادقة التى توقع فى محل العبد [٣٤] المتوجه تصفح أحوال الكون المقول على الذوات المفارقة وغير المفارقة وتطلعه على تماثله باحتياجه إلى الحق الأول وعدم استقلاله فى ذاته وتبطل الروابط المتوهمـة بين الذوات المتماثلة فتحض المتوجه على حذف الإضافة المتساوية ، وتصرف وجهه إلى الذى فطر السموات والأرض ، وتقيمه فى حقيقة الإنسان المرادف مع الاستخارة الواقعة بين يدى الكلمة المطلقة ، وتزيل الشرك الجلى المعروف عند الخواص لا عند الصم ، فافهم . ونقول : العلوم التى تدخل بها فى زمرة الحكماء هى فهم التداخل المعقول بين الوجود الواجب والوجود الممكن الذى يرفع الفصل ويوجب الخلاص ، بالمعنى الذى أثبتت أمثلته فى « حكم القصص » — فاعلم ذلك .

وقوله رضى الله عنه : « وبالحقيقة الجامعة التى فيها نتيجة الشرائع وغاية الحكمة وهى علوم التحقيق » — الحقيقة هى الشىء الذى لا يتبدل فى ذاته ، ولا يمكن أن تكون على غير ماهى عليه ، ولا تتغير فى وقت من الأوقات ، ولا يجاز بها عن موضوعها ، ولا يكون المحمول منها غير الموضوع ،

ولا تعلل بمعنى زائد عليها ، ولا تتصرف ولا يقدر فيها غير الهيئة التي هي عليه . وقد تقال على ماهية الشيء ، وقد يقال حقيقة الشيء وماهيته وذاته ووجوده وعينه بمعنى واحد . وقد تطلق الحقيقة على صفة النفس. وقد تطلق على الشيء الذى لا علة له وتكون علته ذاته وقائم بذاته فى ذاته. وقد ذكر سيدنا رضى الله عنه فى « نكرة عرفة » أن الحقيقة هى الشيء الذى يحيل العدد إلى الواحد بوجه ما . وقد تطلق على ضد المجاز . وبالجملة ، رسم الحقيقة الأول هو المقصود الذى يريد هنا .

والجامع هو الذى يحوى أشياء كثيرة ، ويكون إما موضوعاً لها أو محمولا ، وإما أن يكون ضرباً لها ، وإما أن تكون أجزاء ماهيته وتكون ذاته مجموع الكل كالجماعة فى الدار إذا نظرنا من حيث الظرفية ، ومثل أحكام العرض محمولة على الجوهر ويقبل منها . — « صفة وغاية كل حكمة » : ولما كانت الحكمة هى العلم والعدل ووضع الشيء فى محله وهى من صفة نفسها تحض على الخير وتحمل إليه ، والله هو الخير الذى يراد لذاته قال « وغاية الحكمة » ، أى أن الحكمة إلى الله حاملة وعنده واقفة ، فهو غايتها . ولما كانت الشرائع مقدمات علميات وعمليات ، وعلمها يفيد معرفة وظائفها ، والعمل بوظائفها يزيل الحظوظ النفسانية ويميت الشهوات البدنية ويقطع الروابط المادية ويجرد الإنسانية ويكشف الحضرة الرحمانية وهى حضرة الحق ، وحضرة الحق هى الحضرة الجامعة [٣٥] لحقائق الأكوان ، وهى بد كل شيء ووجوده ، وهى الماهية التى توجد فيها كل ماهية من حيث التقويم والتتميم ، قال : فيها نتيجة الشرائع . ونقول: علم الشريعة مقدمة العمل بوظائفها ، والعمل بوظائفها مقدمة لرضوان الله ، ورضوان الله يقيم العبد فى حضرته ، فعلم الشريعة والعمل بها يقيم العبد فى حضرته. فحضرته هى نتيجة الشرائع ، وحضرته فيها كل شيء ، فهى الحقيقة الجامعة. ونقول : الشريعة تحمل لرضوان الله ، ورضوانه صفته ، والصفة لا تفارق الموصوف ، والموصوف هو الله ؛ فالشريعة تحمل إلى الله. فالله هو نتيجة الشرائع بالوجه الذى ذكرنا. ونقول: الأعمال الشرعية إذا عمل بها على التمام تفيد التخلق بالأسماء الحسنى، والمتخلق بالأسماء إذا تجوهر بها تكون الأسماء ذاته وروحه، والأسماء صفات الله، وصفاته غير زائدة على ذاته. فالمتخلق بالأسماء ليس بزائد على ذات الله. فالظفر بالحق والاتصال

به هو نتيجة الشرائع . ونقول : أول وظيفة من وظائف الشريعة هى كلمة لا إله إلا الله ، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله ، فكل موجود فى الكون الله أوجده من حيث هو فاعله ، والفاعل لا يفارق مفعوله وهو معه بالإيجاد والإبقاء ولا وجود للشيء إلا به ؛ فهو الأصل الضرورى فى وجود كل شيء ، ولكل شيء حقيقة ، وهو وجوده الذى هو به ما هو ووجود كل شيء الذى هو به ماهو هو به ، ومنه وعنه وإليه . هو حقية كل شيء وماهيته ووجوده . فالله هو الحقيقة الجامعة ، كما تقدم من قول سيدنا رضى الله عنه . فإذا كان هو حقيقة كل شيء فالأشياء كلها هى به على ماهى عليه ، فهو الحقيقة الموجودة فى كل حقيقة ، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات . فهو مع كل شيء بوجوده فلا غيبة ولا حجاب ، والغيبة والحجاب هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذى ذكرناه والغفلة عن ملاحظته وشهوده فى كل شيء بل شهوده ولا شيء معه . وعلم الشريعة يزيل الجهل المذكور . ووظائفها ترفع الغفلة وتنبه على الحضور مع الحاضر فى كل حضور . فالحق هو نتيجة الشرائع . وعلوم الشريعة بهذا الوجه هى علوم التحقيق — فاعلم ذلك . فإذاً حقيقة لا إله إلا الله أن لا موجود إلا هو ، وما خلا الله باطل ، والوهم يشعر بغيره ، والوظائف الشرعية تذكر بالله ، وذكره يزيل الوهم ، ويمحو خبر الغيرية ويقيم العبد فى الحضرة الحاضرة فى حضوره . فالحق نتيجة الشرائع كما قال . وهذا الكلام فى نتيجة الشرائع والحقيقة الجامعة وعلوم [٣٦] التحقيق قد تخلص — فافهمه .

وقوله رضى الله عنه : « وإن غلبت عليك شهوة حيوانية أو ما أشبه ذلك فاجبر وقتك مع الله بتوبة صادقة فإن بابه ماعليه بواب إلا رحمته خاصة. ورضوانه أيضاً يأمرها بالمضمار». —الغالب هو الذى يؤثر فعله وتنفذ إرادته ، كما تقول : غلب فلان فلاناً أعنى خَصْمَه ، بمعنى أنه أثر فيه فعله ونفذت إرادته . ويقال : الغالب هو الذى يقع اختياره ويستولى فى المحل المتنازع عليه حكمه ، كما تقول : غلب الملكُ الفلانى الملكَ الفلانى واستولى حُكْمُه على البلد والأقاليم . ويقال : الغالب هو الذى يحيل الضد إلى طبعه ، ويحكم عليه بصفة خاصة به ، ويحكم فى المشترك ويستولى عليه ويظهر فيه أثره وفعله. والشهوة هى جذب الملائم بانبعاث منزعج . ونقول : الشهوة الميل إلى الغرض المطلوب بإفراط الحركة . ونقول : الشهوة هى الانصراف والتوجه إلى المحبوب الملائم بغير اعتدال ولا ترجيح

عقلي ولا شرعي. وقد تطلق الشهوة والإرادة باشتراك، غير أن الإرادة أعم منها وأثبت وأعدل حركة، لأن الشهوة تتحرك إلى المراد بانزعاج، وملكة الطباع والإرادة تتحرك إلى مرادها صحبة الاعتدال وضرب من السكينة. والذى تشبه فيه الشهوة الإرادة هو الميل إلى المطلوب ومعقول الحركة والجذب. وكونك تقول اشتهيت كذا بمعنى أردته، لكن يعقل فيه أنه ليس هو المراد مطلقاً بأن الذى يراد هو أكثر اعتلاقا من الذى يشتهى وكأنه إرادة فى وقت ما بحركة مزعجة كما تقدم. وبالجملة: الشهوة هى جذب الملائم بحركة مفرطة وغلبة طباع المحل الذى قامت به والقبول المحض على المراد المحض من غير أن تنظر عاقبته ولا يعتبر فيه الأكمل والأنقص، وكأنها تطلق مع الحظ النفسانى بترادف، لأنك تقول كلفى فلان بشهوة معناه بغرض وحظ لا بحق ولا باعتبار الكمال والنقص. والحيوان هو كل حى متحرك حساس يتحرك فى المكان بالحركة الإرادية ويختار بعض الجهات الممكنة فيه. والنفس الحيوانية حدها تمام طبيعى آلى حساس. ويقال: النفس الحيوانية تمام لجسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة. وهذان الحدان ذكرهما سيدنا رضى الله عنه فى « بد العارف ». ولما كانت الشهوة تقال باشتراك وتوجد فى العاقل وغير العاقل قيدها بالحيوانية، لأن الشهوة الحيوانية هى ميل النفس إلى الشهوات الجسمانية المحسوسة من غير أن ينظر فى عاقبتها ولا تعتبر فيها الأكمل والأنقص، ولا يلحظ فيها طلب سعادة ولا شرف، وإنما هى بحسب [٢٧] ذاتها المعينة العاجلة فقط. والجبر هو إصراف الشيء المختل إلى أصله وطبيعته الأولى، كما تقول فى اليد المنفكة أو الرجل: انجبرت يد فلان، بمعنى رجع العضو إلى موضعه واستقر على طبيعته المعتدلة وهيئته المستقيمة. والوقت هو الحال الحاضر الذى بين الماضى والمستقبل من الزمان. والله هو القائم بذاته الذى قام به غيره وليس لوجوده سبب، وهو الفاعل المختار الذى يثيب العبد المكلف على الحسنات ويعاقبه على السيئات إن شاء، ويقبل التوبة ويعفو عن السيئات كما وعد. والتوبة هى الرجوع لغة، وهى الندم على المعصية وتركها والعزم على عدم الرجوع إليها شرعاً. وتقول: التوبة هى رجوع التائب عن المعصية بأمر آمر بحكمه إلى رجوعه ويخوفه ويرغبه ويترك ما هو عليه لأجل ما نهى عنه ولأجل ما هو ترك له ويرجع إلى ما أمر به — وهذا القسم ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « الرضوانية ». وتقول: التوبة هي غسل الإشابة الواقعة في المحل الظاهر. وتقول التوبة هي انصراف العبد إلى ربه ورجوعه

إليه بالقوى الجسمانية والروحانية منه ومشيه على القانون الشرعى مصحبة العلم والعمل . ونقول : التوبة هى خروج العبد من اختياره وصفاته القائمة به ، وأخذه اختيار الشرع وتصرفه به ، وتوسط أقواله وأفعاله وجملته بين الأمر والنهى . ونقول : التوبة هى الخروج عن الهوية العرضية والأخلاق السيئة ، والدخول فى الآنية الذاتية ، والتجوهر بالأسماء الرحمانية . والباب هو المدخل للشيء ، وهو الذى يدخل عليه إلى الشيء ، وهو بيان الأول . والرحمة هى صفة الله التى يتعطف بها على عبيده فيبلغهم خيره ونعمته فيبدل الألم باللذة ويصل اللذة بمثلها . وقد نقول : الرحمة هى ترك الرحيم حقه للمرحوم وإعطاؤه من الخير ما لا يجب له عليه . وقد نقول : الرحمة هى إفادة الرحيم للمرحوم خيراً لا يستحقه عنده من حيث هو . وقد نقول : الرحمة هى إفادة الحق للعبد وجوداً ليس له . والرضوان هنا بحسب هذا التقييد هو صفة الخير الذاتى الموجود فى ذات الله تعالى ، مثل الشيء المطبوع الذى لا يمكن أن يكون الشيء إلا على تلك الصفة ؛ وهو الذى يوجب الرحمة بوجه محتوم لا يمكن أن يعقل المحل المشار إليه إلا كذلك . والضمان هو الحصر الذى يوجب حكما وتعينه تعيناً ذاتياً لا يمكن الانفكاك عنه ، إذ الممكن لا وجود له ولا ذات إلا بالواجب ، ولا تعقل له آنية إلا ما يسرى له من الواجب الوجود ، والواجب الوجود لا يفارق ماهو موجود به ولا [٣٨] يعقل له انفصال عن تقويمه وتشبيهه وإقامته فى هيئته التى هو عليها وهو معه بها على ما هى عليه ، إذ لو قُدِّر رَفْعُ الوجود الواجب من الموجودات الممكنة لارتفع وجودها ولم يوجد لها ذات ، وهو ارتفاع الفاعل إلى مفعوله بالذات ، والمفعول إلى فاعله بالذات . فكأن اتصال خط الارتباط بينهما من الأمور الضرورية التى لا يمكن أن تكون على غير تلك الهيئة . فلما كان ذلك كذلك كان رجوع العبد إلى ربه وانصرافه بماهيته كلها إليه بالذات وقبول الحق على عبده وإعطاؤه ماهية الشيء هى نعمة منه ورحمة صادرة عنه كذلك بالذات ، فكانت الرحمة من الأمور المحتومة الموجودة فى ذات الله لا يمكن غيرها ، ولذلك قال تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة »[1] بمعنى أنه لا يمكن فى ذاته إلا هى . ولما كانت الكتب بين الناس تحكم بوجوب الشيء ولزومه ، ضرب لهم بذلك مثلا ليعلموا أن الرحمة فى الله من الصفات اللازمة له التى لا يمكن فى ذاته ضدها . وقد قلنا فيما تقدم فى هذا القسم إن الرحمة إعطاء الشيء

---

(١) سورة « الأنعام » آية ٥٤ .

وجوداً ليس له . فوجود الموجودات الممكنة وذواتها رحمة من الله تعالى ونعمة منه إذ ليس لها ذلك حقيقةً من حيث هى . ولما كان العبد راجعاً بماهيته ووجوده وجملته إلى الله حتى رجوعه فى التوبة : فالتوبة والتائب حقيقة موجودة من الله وبه ومنه وعنه . فكأن نفس الرجوع نفس القبول ، ونفس وجودهما نفس الرحمة والرضوان ، بل هى متقدمة من الله فوجودها قبولها فلا برزخ بينهما ولا بون ، ولا يعقل الفصل والوسائط هنا بالجملة ، وإن عقلت فيستحقها الوجود الواجب كما ذكرنا . فلا بواب إذاً ولا حاجب ، ولا يرجع إليه إلا به ، ولا نعمة منه إلا به وله : فالواحد لا يحجبه شىء عن ذاته ، ولا فصل بينه وبين نفسه . ولذلك قال : « بابه ما عليه بواب » — لقوة لزوم الارتباط بين الواجب والممكن . فنقول : التوبة الواقعة فى محل العبد خلق الله ولا وجود لها إلا به ، فالعبد يرجع إلى الله بالله ، فلا بواب بينه وبينه ولا واسطة إلا صفته ، أعنى بذلك قدرته وإرادته ، وصفته غير زائدة على ذاته فى قول بعض الصوفية . فالحق هو التائب فى وجود التوبة بذاته ، وما هو معه بذاته لا ينفصل عنه ، فالتائب غير منفصل عن الله ولا محجوب . والله هو المطلوب الأعظم ، وهو الخير الذى يراد لذاته . فالتائب الصادق ظافر بمطلوبه واصل إلى الخير المحض . ونقول : العبد مضطر بوجوده وتوبته وجملته إلى الله ، [٣٩] فوجوده وتوبته وجملته هبة من الله ورحمة منه. فالحق معه فى وجوده وماهيته على ما هو عليه. فوجوده وماهيته وما هو عليه مع الله لا يفارقه ، إذ لزومه له بالذات كما تقدم. والله هو المطلوب ،وهو النعمة والرحمة والرضوان بالإلزام الذى ذكرنا . فالتائب ظافر بالنعمة والرحمة والرضوان ، والظافر بذلك سعيد ومنعم وكامل . فالتائب على هذا الوجه ظافر بمطلوبه وحاصل على مرغوبه. وكأنه نبه المسترشد على الارتباط الذاتى اللازم بين الممكن والواجب. فإذا فهم ذلك ، علم استحقاق الواجب للممكن وأخذه وجود الهويات المضطرة . فإذا علم ذلك ، علم وصوله . وإذا علم وصوله ، تعين محصوله وظفر بكماله وانقطعت آماله . فكأن التوبة هنا بمعنى الفهم عن الرجوع الذى هو موجود فى ذاته بالذات ، وفهم النصيب الإلهى القائم به ، وقطع الطلب والتشوف والسكون ، واللذة الذاتية الموجودة فى جوهره بالذات . فإذا كان ذلك كذلك امتنعت منه المعصية ، فإن المعصية تطلب لذة أو نيل لذة فى غير محله ، وذلك لا يمكن إلا مع توهم فقدها من محله . فإذا وجدها فى جوهره ذاتية بالنصيب القائم به امتنع من طلبها ، فإن

الحاصل لا يُبْتغى فيكون تائباً بمعنى محفوظاً . ومن هذا المقام يُحفَظُ الأولياء ، لأن اللذة القائمة بالجوهر والأنس الحاصل فيه منع الطلب وغبط الولى بذاته وأظهر له فيها كل شيء فانقطعت منه الآمال ووجد عنده ما يظهر لغيره بعد وسم الأجل . ومن هذا الموطن يكفر الولى إذا أوقع المعصية ، لأنه كفر بالنصيب الإلهى القائم بذاته . وهـذه التوبة مختصة بالصادقين لأن الصدق هو الذى يحذف المجاز ويقف عند الحقيقة . ولما كانت التوبة تطلق باشتراك وبحسب الأحوال قيدها بقوله « توبة صادقة » ، لأن الصدق هو الذى يرد الأشياء إلى واجبها ويقف عند الأمور الذاتية ويهمل العرضية . والذاتى فى محل كل تائب وفى ذات كل شيء هو الحق تعالى . ولا يمكن فى قوة ملازمته للأشياء واستحقاقه لها الرجوع إليه ، لأنه يستحق الراجع والرجوع والمرجوع إليه . فافهم ذلك واعلم التوبة بهذا الوجه والرحمة كما ذكرتها لك — تظهر بمرتبة الصادقين والله المستعان .

وقوله رضى الله عنه « واعلم أن مطالك مطال » — المطال تسويف ذوى الحقوق ، أو تسويف ذى حق ، أو تسويف الطالب ، كما تقول : مطلنى فلان فى إعطاء حق ، أى سوّفنى فيه ؛ وتقول مطلنى فلان فى مسئلتى التى سألته فيها أى فى جوابها . ومعنى مطال إطالة [٤٠] التسويف . ولما كان الحق سبحانه له على العبد المكلف حقوق ، وهى : أداء الفرائض فى أوقاتها وشكر نعمة الله التى منحه إياها والإقرار بربوبيته وذكره فى كل زمان وأن لا يغفل عنه إذ ليس هو بغافل عن تدبير العبد ولا عن إرسال النعم عليه فى كل زمان فرد قال الشيخ رضى الله عنه للعبد الغافل عن أداء الواجبات وعن الذكر المستصحب : « واعلم أن مطالك مطال » . وأيضاً لما كان الحق سبحانه هو المحبوب الأعظم والنديم الأكرم والخير المحض الذى لا خير يشبهه قال لمن يحب غيره ويتأنس بغيره أو يطلب خيراً من غيره : « واعلم أن مطالك مطال » — إذ كان من واجب حق الله تعالى أن لا يحب غير الله تعالى ولا يتأنس إلا به ولا يتأنس بغيره ولا يطلب إلا إياه ولا يتوجه إلا له وأن لا يسعى إلا فى مرضاته ، إذ رضوانه هو النعيم الأكبر وأنسه هو الأنس الثابت الدائم وطاعته هى العمل الذى يُرفع ويثبت لما بعد الموت ويُدَّخر لوقت الحاجة . فكل عبد لا يكون حظ الله قد غلب عليه وطاعته قد استصحبت أحواله كلها وفكره قد استجاب فى جوارحه وفى قواه الجسمانية والروحانية فهو مماطل لله فى حقه وفيما وجب له عليه . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من

ساعة تمر على العبد لا يذكر فيها الله إلا كانت حسرة عليه يوم القيامة ولمن دخل الجنة » ـ الحديث ؛ فكيف من تمر عليه ساعات وأوقات ويطيل الغفلة والميل إلى الشهوات العرضية والأنس بالصور الذاهبة ! وأيضاً لما كان الحق سبحانه خيره ونعمته واصلة للعبد فى كل زمان فرد ،ولا يغفل عن عبده بإحسانه وإمداده طرفة عين ، وكل نعمة قائمة بالعبد وموجودة فيه أو واصلة إليه مثل إمداده بالأغذية والملابس التى لا انقطاع لها ومثل صحة البدن وإيجاد حلاوة النعم وما أشبه ذلك — نعم من الله تعالى وإحسان منه للعبد وكذلك العقل والعلم وسلامة الجوارح . وما فى العبد جوهر فرد ولا قوة من القوى الجسمانية والروحانية إلا وهى نعمة من الله وهبة منه ،والعقل يقضى بجواز الآفات عليها وطروء أضدادها مثل أن تبدل الصحة بالسقم والعقل بالحمق وحلاوة النعم بأضدادها ، فإذاً استصحاب الحال فى إمدادها وإيجادها على التمام والكمال ، فتكميل السمع والبصر والفؤاد وما أشبه ذلك نعم من الله تعالى وإحسان منه . فإذاً جملة الإنسان وكل ما قام به هو نعمة من الله تعالى ورحمة منه كما قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله »(١) . فإذاً من واجب حقه عقلا وما ثبت [٤١] شرعا أن لا تصرف الجملة الإنسانية بما هى عليه من القوى الجسمانية والروحانية إلا فى طاعة الله وفى عبادته وخدمته وفى ذكره وشكره وحمده والثناء عليه وأن لا يغفل عنه طرفة عين . فكل عبد لا يفعل ذلك ويصرف جارحة من جوارحه وقوة من قواه فى غير طاعة الله أو فى فترة من خدمة الله وشكره والسعى فى مرضاته ولا يرجع إلى الله بجملته ويصرف ما هو منه إلى خدمته — فهو مماطل أو ممسك بحق الله . وإذا طال ذلك فهو ممكور ، إذ الحق قد ثبت فيما تقدم أنه لا يغفل عن إيجاد النعم طرفة عين . فيجب على العاقل أن لا يغفل عنه طرفة عين . ومن غفل عنه فقد ترك الواجب . ومن لم يؤد الواجب عليه فهو مماطل . وإن أطال ذلك فهو قد طول مطاله وأدى ذلك إلى بعده عن الله ، واستحق العقوبة . ولا عقوبة أشد من البعد عن الله عز وجل — فافهم ذلك . وقد قال الله سبحانه : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »(٢). وإنما ذكر السمع والبصر والفؤاد لكونها أخص ما فى الإنسان ، ويفهم بالاستقراء أنه يسأل عن كل جارحة . وقد جاء ذلك فى الشرع . وأيضاً فقد صح أن الله سبحانه واهب وجود العبد ، إذ العبد الممكن لا وجود له إلا

---

(١) سورة « النحل » آية ٥٣ . (٢) سورة « الإسراء » آية ٣٦

بالواجب ، فهو مفهوم لوجوده ومتمم له فى كل زمان فرد . فالحق أقرب لوجود العبد منه إلى ذاته. فكل عبد لا يعرف وجوده لله — إذ الله هو حقيقة وجوده — فقد منع أن يعرف ماهيته إلى حقيقتها فهو مماطل ، إذ كان من واجب حق الله أن يعرف وجود الوجود الممكن إليه ، إذ هو منه وبه وعنه وله . وهو يستحقه من كل الجهات . فإذا ادعى الممكن وجوداً لذاته ، فقد ادَّعى ما ليس له ، ونسب الشيء إلى غير أهله ، وماطل الحق فى إعطاء حقه وأدى ذلك إلى نفى شيء عن شيء هو له وإثبات شيء لشيء ليس هو له . وهذا هو الكذب والخيانة . وفاعل ذلك يستحق العقوبة . وأى عقوبة أكبر من الانقطاع عن الله تعالى والجهل به وفقد حضرته التى فيها النعيم الدائم والمشاهدة الكبرى والبقاء الأبدى ! فافهم ذلك .

وأيضاً الحق سبحانه يستحق وجود الموجودات بالذات ، والموجودات الممكنة يرجع وجودها للواجب بالذات ، ورجوعها إليه صفة نفس ، واستحقاقه لها صفة نفس ، وصفات الأنفس لا تتبدل ولا يمكن أن تنقلب الحقائق . فإذاً الله هو وجود كل شيء موجود بالوجه الذى ذكرنا ولا يمكن غير ذلك ولا انفصال للموجودات عنه أصلا . فالمطال إنما هو وهم فى خبر العبد المحجوب والبعد كذلك والحق أخذ وجوده من كل الجهات ؛ فلا مطال إذاً من [٤٢] حيث الماهية والحقيقة والأنية الثابتة بالله كما ذكرنا . فإذن الآنيات والحقائق القائمة بالموجودات مُقِرَّة لله بالربوبية والمحبة له من حيث رجوعها إليه بالذات كما ذكرنا ، وذاكرة له من صفات أنفسها ، وراجعة إليه لا يمكن غير ذلك فيها . والمطال فى خبر الجاهل خاصةً لا فى حقيقته . فكأنه نبه الغافل والجاهل . فاستحقاق الحق له على أن يبصر وجوده بالله ويلحظ حقيقته بحقه فيزول من وهمه خبر الغيرية والإضافة فيجد ذاته عند الله ويجد الله عنده فيكون مشاهداً له ومقيما بحضرته ومستأنساً به وناظراً إليه أبداً ، فتحصل بذلك سعادته ورفعته وعزته وكماله الذى لا يزاد فيه ولا ينقص منه — فاعلم ذلك .

وقوله رضى الله عنه : « وبِحَالِكَ مُحَالٌ » يفسر ذلك ويسدده ، فإن المحال هو القوة والقدرة على ما بلغنى من بعض إخواننا بالمشرق ، وهو ممن يعرف اللغة وهو الذى يفهم من قوله تعالى :

« وهو شديد المحال »[١] وقول سيدنا رضى الله عنه فى « الرسالة الرضوانية » : الله له الحول والمحال والطول . ولما كان العبد حادثاً وممكن الوجود ولم تكن له قدرة مؤثرة ولا قوة قاهرة — إذ القوة والقدرة حقيقةً هى لله تعالى ، واستحق ذلك لكونه قديماً واجب الوجود — فإذاً كل فعل واقع من العبد ، أى فى العبد ، فوجوده لله حقيقة إذ هو القادر المؤثر فى مقدوره ، فلا تأثير لقدرة العبد ولا فعل له [٢] حقيقةً . فإذاً لا قدرة ولا قوة للعبد . ولذلك قال « محالك محال » معناه قدرتك وقوتك وفعلك محال من حيثك . فإذاً الفعل القائم بك والتصريف الذى تتصرف والعمل الذى تعمل محال أن يكون لك ، بل هو لله حقيقة وصادر منه وكذلك وجودك ؛ وهذا معنى قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون »[٣] . وأيضاً الله خلق العبد فى أول ابتدائه وهو معه بالإيجاد والتجديد فى كل وقت . وليس هو بمنزلة البَنّاء الذى يبنى الدار ويتركها زمانين وأكثر ، وإنما بمنزلة متكلم من الكلام كما ذكر سيدنا رضى الله عنه فى « الرسالة الفقيرية » وفى « البد » وغير ذلك . فإن المتكلم إذا قطع الكلام انقطع ، وإذا تكلم به وجد . فإذاً لا وجود للوجود الممكن إلا بالله ، والله هو حقيقة وجوده كما تقدم وكل عبد ادعى فعلا لذاته أو استقلالا بذاته أو نسب وجوده لغير الله فدعواه محال وباطل وزور . فإذا كان وجوده حقيقة لله ، والعبد لا يغفل عن وجوده ولا يستريب فيه — كذلك ينبغى أن لا يغفل عن الله ولا يستريب فيه ولا يطلبه ، إذ هو أظهر من أن يطلب . فكل من استراب فيه أو وجد غيره ، أو أنكر وجوده فهو بمنزلة من قال إن المحال واقع وإن الحقيقة مجاز . ولذلك قال [٤٣] تعالى على جهة التعجب : « أفى الله شك ؟ »[٤] . والبعد هو غلط فى وهم الجاهل لا فى حقيقته ، فالحقائق إنما هى بالذات لله وعنده ، والآنيات — من حيث هى — مقرة لله بالربوبية وذاكرة له وحاضرة عنده ، إذ لا يمكن الشىء أن ينكر وجوده كما تقدم . ووجود كل شىء لله . فالله هو وجود كل شىء حقيقةً . ولا يمكن أن تنكر وجود الله آنية من الآنيات ، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى : « وإن من شىء إلا يسبّح بحمده »[٥] — أراد بذلك إقرار الآنيات بوجودها لله الحق فاعلم ذلك .

---

(١) سورة « الرعد » آية : ١٣ .

(٢) هذا مذهب الأشاعرة فى الفعل .

(٣) سورة « الصافات » آية : ٩٦ .

(٤) سورة « إبراهيم » آية : ١١ .

(٥) سورة « الإسراء » آية : ٤٤ .

وقوله رضى الله عنه : « والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه » — الرحم هو النسب من الآباء والإخوة والأعمام وأولادهم والأخوال وبنات الكل المذكورين وكذلك تطلع بالتركيب إلى الأقرب فالأقرب بالنسب حتى إلى أقصاهم وكذلك فى الحيوان على أنحاء ما ذكر فى الكتاب والسنة ؛ وكذلك أهل ملتك ودينك ومذهبك وطريقتك ، وهذا النوع من الرحم ألزم عند السعداء. إذا النسب الأول اختلف معك فى الدين ، فهو نسب عرضى ويجب عليك قطعه وهجره كما قال فى أقرب النسب: « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ »[1] الآية . ومعنى المعروف الذى أمر أن يصاحب الابن فيه أباه فهو المبَرَّة الظاهرة الجارية فى عادة الناس . وقد تقدم أن حد المعروف هو ما جرت به العادة ، ولم تنه عنه شريعة ولا حكمة . ومخالفتهما واجبة فى طاعة الله . فالرحم إذاً هم الأهل المذكورون والجيران بشرط أن يكونوا داخلين معك فى الدين والمذهب الشرعى وكذلك المسلمون . فلو لم يكونوا أقارب فهم أولو أرحام بعضهم أولى[2] ببعض . فيجب على المؤمن أن يصل أقاربه بالزيارة ويعود مريضهم ويواسى فقيرهم ويسكّن ملهوفهم ويؤمّن خائفهم ويحارب عدوهم ، وبالجملة صلة الرحم إنما هى برفع الأذى وترك الأذى ووجود الراحة بقدر الطاقة . فأولو الأرحام منهم من يبعد ، ومنهم من يقرب ، مثال ذلك : الأب أقرب من العم ، والمسلم أقرب من الكافر ، والإنسان المطلق أقرب من الحيوان ، والحيوان أقرب من النبات ، وكذلك تطلع بالتركيب إلى أقصى رتبة منك وأبعدها ، وتنزل بالتحليل إليك إلى الوجود القائم بك . وقد جاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال[3] : « فى كل كبد حرّى أجر » — والحيوان ذو كبد حرّى رطبة . ففعل المعروف فى الحيوان والإحسان إليه وإيجاد الراحة له فيهما الثواب . والثواب هو الجزاء من الحق تعالى ؛ وهو من الأشياء المقرّبة له : فإذاً فعل المعروف فى الحيوان يقرّب إلى الله . ويلزم من ذلك أن يكون بالأحرى فى [٤٤] الحيوان أعنى الإنسان وبالأحرى فى المسلم وبالأحرى فى النسب والجار من المسلمين وكذلك فى نفسك . فإذاً الوصول بالمعروف والإحسان يقرب إلى الله ، وكل قريب من الله رحمة ،

(١) سورة « لقمان » آية : ١٥ (٢) إشارة إلى الآية ٥٥ من سورة الأنفال .

(٣) رواه أحمد فى « مسنده » وابن ماجة عن سراقة بن مالك ، ورواه الشيخان عن أبى هريرة — ومعناه أن فى سقى كل ذى كبد حرى أجراً .

فكل وصلة الرحم رحمة . وتقول كل من وصل رحمه بالإحسان والخير هو قريب من الله ، وكل قريب من الله مرحوم ، فكل واصل رحمه مرحوم . وهذا بالخبر الشرعي وما وعد الله في الأعمال الصالحة ، لأنه بما يجب على الله تعالى . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . ثم تقول : إذا كان المعروف عاما حتى يصل القريب وينتهي إلى البعيد فهو حسن ، وإن كان جزئياً فيبدأ بالأقرب كما قال صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

... ولما كان الحق سبحانه رحيما ورحمته تتعدى إلى الغير ورحمته صفته كان العبد الرحيم المحسن الذي يتعدى خيره إلى غيره مرحوما ، للشبه الذي بينه وبين الحق من صفة الرحمة والإحسان . ولذلك قال رضي الله عنه : « والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه » . وأيضاً المرحوم هو المقرَّب إلى الله وإلى جنته . والقرب والبعد إلى الله ليس بالمكان والزمان ، وإنما البعد منه بالجهل به ، أو بالمخالفة . والجهل به أصله عدم العلم وقلة الانقياد إلى العلماء . وأصل عدم العلم وقلة الانقياد حب الدنيا والسعي في كسبها ، وله لواحق كثيرة . والمخالفة أصلها طلب الشهوة العاجلة . فإذاً الجهل والمخالفة أصلهما حب الدنيا والإمساك بها ووصلة الرحم بالإحسان وإيجاد الراحة فيه وشهادة النفس وخروج الدنيا من اليد والنسبة الإلهية . فأما زهادة النفس بها فظاهرة ، فإن المحسن بماله وإعطاءه لغيره دل على زهادته في تلك الأعيان التي أعطاها . وكذلك يلزم في خطواته التي زار بها إلى أهله ، وزمانه الذي امتنع فيه من كسب الدنيا أو سعيه في مصالحه دل على زهده في ذلك الوقت . وهذا يلزم في فعل المعروف كله . وأما النسبة الإلهية والشبه فظاهر أيضاً ، فإن الحق يتعدى خيره ورحمته ويلطف بالمنكسر ويجيب المضطر من حيث يعطي المحتاج من أقاربه ويشبع الجيعان — فهذا شبه ظاهر ونسبة واقعة . وأيضاً هو زاهد من حيث أنه أعطى ما بيده إلى غيره . فهو زاهد في الدنيا . والدنيا أصل البعد من الله ورأس كل خطيئة كما جاء في الحديث . فالزاهد فيها مقرَّب إلى الله ، والمقرَّب إلى الله مرحوم لأنك تقول : الدنيا أصل البعد ، والتارك لأصل البعد آخذ لذات القرب ، والآخذ ذات القرب قريب . وكذلك تقول : المخالفة أصلها الشهوات ، والزاهد في الدنيا تارك الشهوات ، ونيل الشهوات هو المخالفة [٤٥] فترك الشهوات طاعة ، فالتارك للشهوات طائع لله ، والطائع لله قريب منه ، والقريب من الله مرحوم ، فالواصل رحمه مرحوم بالقياس الذي ذكرنا . فإنك تقول : الواصل رحمه تارك ماله وراحته من

حيث أعطاها ، والتارك ماله وراحته زاهد فى الدنيا بمعنى رافض لها ، والدنيا رأس كل خطيئة ، ورافض رأس الخطايا طائع لله ، والطائع لله مرحوم . وأيضاً المؤمن لا يفعل ذلك المعروف إلا من أجل الله وابتغاء مرضاته وطلبه لمرضاة الله . وفصل المعروف من أجله دل على أنه يحبه ، وحبه له دل على أنه قد علم جلاله ، وكمال صفاته ، ولذلك حبه على كل شيء ، وعلمه بجلال الله وكمال صفاته يضاد الجهل ، وقد قلنا إن العبد أصله الجهل ، فالقرب أصله العلم ، فالعالم بالله قريب منه ، فالواصل رحمه قريب من الله ، والقريب من الله مرحوم . لأنك تقول : وصلة الرحم من أجل الله وابتغاء مرضاته طاعة لله، وابتغاء طاعة الله ومرضاته لم تقع إلا لأجل العلم به ، فالعالم بالله قريب منه ، فالواصل رحمه قريب من الله ، والقريب من الله مرحوم ، فالواصل رحمه مهما دعا الله رحمه. وكذلك القول فى الشبه ، لأنك تقول : الواصل رحمه كريم ورحيم ورءوف ومحسن ، والله كريم ورحيم ورءوف ومحسن ، فالواصل رحمه يشبه ربه فى الكرم والرأفة والإحسان والرحمة . والشبيه بالشيء قريب منه ، فالواصل رحمه شبيه بالله ، فالواصل رحمه قريب من الله ، والقريب من الله مرحوم . وأيضاً تقول : العالم بأمره متماثل فى افتقاره واضطراره وحدوثه وانفعاله ، والمثل لا يعدم فيه ما هو موجود فى مثله ، والانفعال والاضطرار موجود فى كل واحد من المخلوقات ، والمنفعل من صفة نفسه لا يكون فاعلا بوجه ، والعالم منفعل من صفة نفسه ، فالعالم ليس فيه فاعل ولا يكون فاعلا بوجه، فالعالم كله واحد فى الافتقار والاضطرار ، والحق هو الغني الفاعل فيه على الإطلاق ، فإن الحادث لا يفعل فى الحادث والمضطر لا يفعل فى المضطر ولا يتعدى شيء من مخلوق إلى مخلوق ،والحق يتعدى خيره وفضله ورحمته إلى الموجودات كلها. فإذا رأينا المحسن الذى يتعدى خيره والرحيم الذى تتعدى رحمته، علمنا أن ذلك ليس هو من ذاته بما هى مفعولة ومضطرة — لكون المنفعل لا يكون فاعلا كما تقدم والفعل لا يفعل فى مثله. فإذا لم يكن من ذاته فصح أنه من الحق تعالى ، إذ هو الفاعل على الإطلاق والمحسن والرحيم على الإطلاق . وإنما جرى ذلك فى محل العبد على جهة المجاز ، وهو منه حقيقة . فإذاً كل محسن يظهر منه الخير فيتعدى فضله صفة الإحسان [٤٦] القائمة به هى لله ، وإن كانت جارية على محل العبد ، فهى فيه بالعرض وهى فى الله بالذات . فالعبد موضوع لها وكأنه كرسى لتصريف الله ، وقد سلبه عن ذاته من حيث سلب عنه صفات البشر التى هى المنع والشر والبخل ، ومنحه هو صفاته ووهبه إياها وجعلها ذاتا له وأقام فيه كرمه وإحسانه وخيره . فإذاً العبد المحسن الرحيم ذاته

الإحسان والرحمة ، والإحسان والرحمة صفة الحق ، والصفة لا تفارق الموصوف ، والموصوف هو الله والعبد المحسن الرحيم لا يفارق الحق ومن لا يفارق الحق هو معه ، ومن كان مع الحق هو مرحوم وكامل وسعيد ، فالواصل رحمه مرحوم وكامل وسعيد . لأنا نقول : الواصل رحمه تعدى خيره ورحمته ، والمتعدى خيره ليس هو العبد الحادث — لما تقدم أن المثل لا يفعل فى مثله — فإذاً هو الله حقيقة . وإذا ظهرت صفات الحق فى العبد فقد اصطفاه وشرفه وكله وجعله خليفته . وكل مكمل ومصطفى مرحوم . فالواصل رحمه مرحوم . وهذا يفهم من قول سيدنا رضى الله عنه فى « لوح الأصالة» قال : مهما سرى حكم من شيء إلى شيء فمنه لا من ذلك الشيء ؛ ويفهم من قوله تعالى : « وإن الله لمع المحسنين »[1] وقوله تعالى « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[2] . ولا يفهم من هذه المعية معية الزمان ، ولا معية المكان ، ولا معية المرتبة ، ولا معية الجنس،وإنما يفهم منها التخصيص والاعتناء والقرب ، إذ قد جعل صفته ذات العبد المخصوص وطهره من صفات الشيطان والنفس ونقص العبودية ، واستولى عليه هو وجعله مجموع أسمائه واستحقه من كل الجهات ، وجعل ذاته آنيته وكأنه هو . لأنا نقول : الإحسان صفة الحق ، وهى ذات العبد المحسن ، فذات العبد صفة الله . والصفة ليست بزائدة على الموصوف ، والموصوف هو الله ، فذات المحسن هو الله . ويفهم هذا من قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله »[3] ، وقوله « والله غالب على أمره »[4] فافهم ذلك .

وأيضاً الرحم منهم الأهل القريب للإنسان . والآباء لم يكونوا أهلا قريباً للإنسان إلا لكونهم سبب وجوده ، وهم فى السببية على جهة المجاز ، خاصة والرحم القريب حقيقة هو الله تعالى ، وهو السبب فى وجوده ووجود آبائه ووجود كل شيء ، وهو السبب الذاتى لماهية العبد الممكن ، وهو ألزم إليه من كل شيء وأقرب من كل قريب إذ لو قدرنا ارتفاعه ارتفع وجود العبد فذهب . وقد

---

(١) سورة « العنكبوت» آية : ٦٩
(٢) سورة «النحل» آية : ١٢٨
(٣) سورة « الفتح » آية : ١٠
(٤) سورة « يوسف » آية ٢١

يقدّر ارتفاع الآباء والأهل الأقارب وتبقى ماهيته على ما هى عليه ولا ينقص منها شيء [٤٧] . وهذا موجود فى العالم أبداً . فهم إذاً سبب عرضى وأهل بالعرض . وكذلك القول فى الجار وغير ذلك . فالرحم حقيقةً هو الله تعالى . وكذلك الجار حقيقةً هو هو ، إذ لو قدرنا مفارقة إيجاده من العبد لم يوجد ، وهو جار لأنه يلازمه من كل الجهات حتى إن كل قوة فى الإنسان وكل عضو روحانى أو جسمانى الله هو المقوم له والمتمم ، وهو الظاهر فى جميعه والموجود فى وجوده حتى إنه يستحقه كما تقدم ، وبه يتأنس ضمير العارف وله يلحظ ، وهو الذى يبصر ، ومعه يحضر ، وهو الحاضر فى حضوره ومعه وبعده ، وهو يلازمه ملازمة ذاتية . والأهل الذين يتأنس بهم الجاهل وكذلك الجيران هو مفارق لهم فى أكثر أزمنته ، ويذهب عنهم بالسفر والموت وغير ذلك ، وقد تخلق له فيهم العداوة والضدية وغير ذلك ويكونون أبعد الناس إليه . والحق تعالى يستحيل مفارقته إليه ، وكذلك بعده عنه محال ، وكذلك التضاد لأنه يصله بخيره وفضله وإحسانه ، ويؤنسه فى سفره وحضره ، وينصره فى اضطراره إذا لجأ إليه ، وهو معه أينما كان من المراتب والأحوال والعوالم كلها . فإذا وصله العبد بطاعته والتخلق بأسمائه وبمعرفته والأدب معه وبقطع كل ما سواه وزوال الغيرية من قلبه وجملته . « فدعاه » بمعنى استدعى صفاته إلى محله وأحضره عنده بالمراقبة والاستيلاء وصرف ماهيته إليه — رحمه وهو بحضرته ومشاهدته وإعطاء كماله وإفادة سعادته ، إذ السعادة عبارة عن رؤيته ورضوانه ؛ وهذا هو معنى قوله رضى الله عنه : « والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه » .

وقوله رضى الله عنه : « والعلم للعلو علامة » — العلو هو الرفعة ، والعالى هو المرتفع ، والعلامة هى الدلالة على الشيء ، كما تقول علامة الماء فى الصحراء هى وجود الطير ، وعلامته الركيزة الواقعة عليه والحجارة المركبة بعضها على بعض الذى جعلت ليستدل بها على الماء ؛ كما تقول علامة الإيمان مواظبة المسجد للصلوات ، وعلامة المؤمن إذا حدث لا يكذب وإذا اؤتمن لا يخون — الحديث . وبالجملة : العلامة هى التى بها يتعين الشيء المجهول أو المشكوك فيه أو المظنون ويظهر ذاته وحقيقته . ولما كان العلم سبب الرفعة والشرف والكمال قال فيه: «والعلم للعلو علامة» —

معناه حيث ظهر العلم كانت الرفعة والشرف. ولما كان العلم صفة كمال وأجل صفات الكمال وأخصها وأعمها تعلقاً قال: « والعلم للعلو علامة ». وأيضاً لما كان الإنسان حده هو الحيوان الناطق، وفصله من الحيوان هو النطق لا غير — فإن الحيوان يشاركه فى الحياة الطبيعية وفى الحواس الخمس [٤٨] وفى المشترك وفى القوى الروحانية مثل الخيال والوهم وغير ذلك، وينفصل عنه هو بالنطق خاصة. والنطق هو إشارة إلى المكونات بالتصوير والتصديق — هذا حده عند القدماء وهذا هو العلم. والنطق علم واقع على الخفيات بالروية والفكر. ولذلك كان علامة العلو إذ هو الذى ينفصل به عن جنس الحيوان ويرتفع قدره عليه ويشرف، وهو الذى أوجب تفضيل النوع على جنسه — فاعلم ذلك. وذلك أن العلة ارتفاع الشىء على أقرانه وتقدمه عليهم بالشرف أو بالمرتبة. لأنا نظرنا الإنسان يماثل الحيوان فى الحيوانية ويشاركه فيما ذكرنا من قبل، وينفصل عنه ويفضل عليه ويرتفع قدره على قدر الحيوان؛ ونظرنا ذلك الذى ارتفع به وجدناه غير الجسم إذ جسمه جسم حيوان ميت بالطبع وهما متماثلان فى ذلك، ولا وجدناه من جهة التركيب الخاص والهيئة إذ ذلك يرجع إلى كيفيته، والكيفية حال قائم بالجسم لا اعتبار له بالكمال. فصح أنه لم يفضل عليه إلا بالنطق، والنطق علم كما تقدم حده، فكأن علمه سبب علوه وعلامته. وكذلك نقول فى نوع الإنسانية: لأنا نجد نوع الإنسانية واحداً وهو يفضل بعضه بعضاً ويعظم بعضه، ويرتفع على بعض ويتقدم بعضه على بعض ويحكم المتقدم من الناس على غيره ممن يماثله فى الإنسانية. و < لو > نظرنا ذلك التقدم والحكم — وجدناه راجعاً إلى الخطة والمرتبة القاهرة المرتفعة على من دونها. و < لو > نظرنا تلك الخطة وجدناها من قبيل العمل والأوصاف الفاضلة والعلم شرط فى العمل والأوصاف المذكورة. فإذاً العلم أصل تلك الخطة والحكم والتقدم وشرط فيها. والشرط هو الذى يرتفع المشروط بارتفاعه، ولو ارتفع العلم ارتفعت تلك الخطة والتقدم. فإذاً العلم هو الذى يرتفع المشروط بارتفاعه، ولو ارتفع العلم ارتفعت تلك الخطة والتقدم. فإذاً العلم هو الذى كانت به الرفعة والشرف فى الإنسان على أمثاله. فالعلم هو سبب العلو وعلامته كما قال. فلو قدرنا الرفعة والمرتبة الحاكمة بالسيف والمال كما هى فى السلطان فنقول أصلها وحافظها ومدبرها إذ به يدبر أرباب دولته وبه يمشى سياسته نحو الصواب؛ فلولا ما يعلم الضد من الصديق لكان يقتل الصديق ويترك الضد ويؤدى إلى فساد خطته وملكه؛ وكذلك بالعلم يدبر الرعية ويرفع اختلافهم ويقمع عدوهم، وبالجملة الملك يدبر بالحكمة، والحكمة هى

العلم والعدل ووضع الشيء فى محله . فإذا كان كذلك ، فكل خطة ترفع الإنسان على أقرانه وتقدمه على أمثاله ، فالعلم صورة مقومة لها ومتممة . فهذه سعادة الإنسان فى الدنيا ، وتصرفه ورفعته لا وجود لها إلا بالعلم . وكذلك فصله من غير الناطق [٤٩] كما تقدم ، فالعلم للعلو علامة . وأما سعادته فى الدار الآخرة فلا يتوصل إليها إلا بالعمل ، والعلم شرط فى العمل الصالح . فإذاً لا سعادة إلا بالعلم . وأيضاً السعادة فى الآخرة والكمال والشرف لا يكون إلا بحسب القرب من الله تعالى وبقدر ما يقطع الحكيم من الوسائط التى بينه وبينه . والقرب منه لا يكون إلا بعلم ما يجب له ويجوز عليه ويستحيل فى حقه ، والوسائط لا يقطعها إلا بعد ما يعلمها ويعمل على الخلاص منها وجوازها . فإذاً العمل الذى يقطع به الوسائط العلمُ شرط فيه . والقرب من المقصود الأعظم إنما هو أيضاً بحسب العلم به ، فإذاً السعادة والرفعة فى الآخرة العلم صورتها المقومة والمتممة . وكذلك الصوفى فى سعادته ورفعته إنما هى بحسب معرفته بالله وحبه فيه والفناء فى تحقيق حقه والتخلق بأسمائه ، وذلك كله يرجع إلى العلم لأنه لم يحبه إلا وقد علم جلاله وكمال صفاته كما تقدم . ولم يَفْنَ فيه إلا وقد رجحه على نفسه من حيث رضى تلف نفسه فيه . ولولا علمه بجلاله وخساستها بالإضافة إلى باريها لم يفعل ذلك . وأيضا التخلق بأسمائه يحتاج إلى العلم بالاسم والمرتبة الموضوعة له ويحضر أجزاء ماهية المرتبة وتصوره وتصديقه وينصرف إليها ويدور عليها بعلمه وتخلقه ولا يشذ عليه من أجزاء الاسم شيء حتى يتجوهر به ويتصف بالمرتبة حتى تصير له ذاتا ، وحينئذ يشرع فى الانتقال إلى اسم ثان ، وكذلك يلزم فى كل اسم . فإذاً الصوفى لا كمال له ولا سعادة ولا شرف فى الدنيا والآخرة إلا بقدر علمه بالله وبأسمائه والتخلق بها . فإذاً العلم سبب رفعته وأصل فيهما . فإنا نقول : أعلم الصوفية بالله وبأسمائه أشدهم حبًا فيه وتعظيما له ، إذ المحبة على قدر صفات المحبوب تكون قوتها ، وأقواهم محبة فى الله أشدهم فناءً فيه وتخلقًا بأسمائه ، وأشدهم تجوهراً بأسمائه وفناء فى حقيقته أرفعهم وأسعدهم وأكملهم وأعلاهم درجة . فالعلم للعلو علامة ، وسبب الشرف والسلامة .

وكذلك نقول فى المحقق : فإن المحقق حقق أن الجوهر المستحق لوجوده ووجود الممكنات وجوده عنده أظهر من الوجود الطبيعى له وألزم من الضرورة ، واستقل واستغنى وانقطع شوقه وطلبه وشاهد الحق بالحق عنده ، فخرج من ذل الوسائط واعتز ووجد كماله عنده بذاته فى ذاته ، فاستحق

بذلك الرفعة والعلو الذى لا غاية تقدر له والكمال الذى لا إضافة فيه ، ولا يقال بالكمالات المذكورة عند الصوفية والحكماء ، بل هو الكمال العزيز الذى لا يدرك له كُنْهٌ ولا تحصره ماهية وهو العلى العظيم — فاعلم ذلك . فقد ظهر لك أن العلم للعلو علامة فى الدنيا والآخرة وفى كل صنف من أصناف [٥٠] الكمال وفى كل طريقة . وسيادة النبوة والملائكة وغير ذلك إنما هى بالعلم — فاعلم ذلك .

وقوله رضى الله عنه : « والسلم للعدو سلامة » : السلم هو الصلح لغة ، قال الله تعالى : « ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان »[١] . والعدو هو الضد المناقض للشيء بطبعه ووصفه . والسلامة هى الخلاص من الآفات ، لأنك تقول : سلم فلان من أعدائه بمعنى أنه تخلص من آفاتهم ، وتقول : سلم فلان من المرض بمعنى أنه تخلص منه وخلص من آفاته التى هى الموت بعد أن أصابه وباشره المرض . وقد يكون « سلم » بمعنى أنه لم يصبه المرض مع كونه محله من حيث هو جسم وقابل له . وتقول : سلم فلان من البحر بمعنى من آفات العدو بعد أن ركبه . وإذا نظرنا العدو من حيث المضادة والمباينة[٢] فى الكيف فهو يطلق على أنحاء . نقول : العداوة فى الطبائع الأربع ، إذ كيفية الصفراء مضادّة للبلغم . ونقول العداوة فى الأعراض ، إذ السواد ضد البياض وعدوه من حيث الضدية . وإذا نظرنا المضادة فى الأشياء كلها يطول علينا الكلام فيها ، ويخرجنا عن المقصود من شرح المسئلة فنقول : العداوة التى يريد هنا هى المشار إليها فى عرف الشريعة وهى الضدية الواقعة بين الأشخاص الموجودين فى النوع الواحد ؛ فإنك لا تقول السبع عدو فلان وتريد بذلك العداوة التى تورث مناقضة الشخص لشخص ، فإن عداوة السبع لزيد هى مثل عداوته لعمرو وهى عداوة النوع منه للنوع الإنسانى مطلقاً ؛ ولا هى عداوة المثل ، لأن الإنسان غير متفق معه فى الكيف ومفضل عليه بالعقل وقاهره بالصنائع العقلية والفهم الإنسانى من كل الجهات وغالبه بالذات . فإن اتفق أن يقتل أسد إنساناً وقتاً فإنما تلك غلبة بالعرض والإنسان غالبه بالذات ، والعداوة لا تكون حقيقة إلا بين

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨ .
(٢) ص : ا انية (!) — ولعل الصواب ما أثبتنا .

المثلين وفي المثلية . وإنما أراد العداوة من الإنسان ، مثل عداوة الدين وعداوة الحسد وما أشبه ذلك .
ولما كان العدو يطلب القهر والانتقام والظفر والغلبة ولا يمنعه إلا هلاك عدوه أو ما قرب من الهلاك
كان حتما على الإنسان العاقل زوال عداوته ، إذ العداوة توجب فوت الراحة وتؤدى إلى الهلك
وذلك لا يحض(١) عليه الشرع ولا العقل فلا بد من إزالتها إذاً شرعًا وعقلا . وإزالتها لا تكون
إلا بأحد الأمرين : إما بالمقابلة والانتصار ، وإما بالتخلق والاحتمال . وإزالتها بالمقابلة والانتصار له
آفات : أحدها ركوب الخطر فإن مقابلة العدو ، العاقل فيه بين أمرين : إما أن يظفر ، أو يظفر به ؛
فإن ظفر فقد وقع الأذى والهلاك ، وهذه آفة ظاهرة ؛ وإن ظفر به وانتقم منه أو أهلك فقد حرم
المنتقم أو المهلك مقام العفو والرحمة وأقيم في الانتصار للنفس [٥١] وترقية حظوظها ؛ وهذه آفة
أكبر من الأولى . وإن توقف الأمر بينهما فقد شغلا الزمان بغير الله ، وفرطا في التوجه وبعد
المنتصر عن مقام الرضا وانقطع عن التوحيد إذ هو في ملاحظة الغيرية ومكابدة الأضداد بآفة الانتصار .
والمقابلة ظاهرة في هذه الوجوه التي ذكرناها ، والموفى ليس بسالم فلا سلامة في الانتصار والمقابلة
إلى العدو عند السعداء وأهل الله تعالى ، ولا سلامة في إبقاء العداوة . فلم يبق من القسمة إلا إزالة
عداوته بالتخلق والاحتمال والإحسان . وذلك الإحسان يؤدى إلى انقلاب عداوته محبةً ، ومنافرته
ألفة — وهذا هو الصلح في قوله : « والسلم للعدو سلامة » ، فإنه قد سلم من أن يُهلِك أو يَهلِك ،
وسلم من إشغال الوقت وملاحظة الأغيار ، وسلم من نقص الانتصار وشؤم الحظ النفساني ؛ فقد
سلم دينه وطريقه وثبت كماله وتخلقه بالرحمانية المختصة بالسعداء والموجودة في الأولياء . فقد
سلم طريق سعادته ، وزالت العداوة والضدية من عدوه بالإحسان ، وأمن من مكره ، فقد سلم من
خوفه في الدنيا ، وقد ثبتت سلامته : سلامة الدنيا والآخرة ، ونقل عدوه من المهالك وطريقة الأشقياء .
فقد سلم المتخلق بالإحسان نفسه وعدوه من آفات الدنيا والآخرة بصلحه وإحسانه . وهذا تصريف
عظيم ، وفضل عميم ، وحكمة بالغة . وهى المراد من قوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة : ادفع
بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(٢) . وأيضًا الانتصار إذا قدرنا ظفر

---

(١) ص : يحظ — وهو غلط إملائى كثيرا ما تكرر في هذا المخطوط ، ولوضوحه لم نر داعيا للتنبيه عليه في كل موضع .
(٢) سورة « فصلت » آية : ٣٤ .

المنتصر بعدوه وهلكه قد تحدث له من أسباب المهالك أعداء كثيرة ويتسلسل الأمر وكذلك فى أنسابه هو ويؤدى إلى فساد عظيم وهلاك الفئتين وتضييع وقته وانقطاعه عن الله . وهذا حرمان عظيم وشقاوة لا سلامة فيها . ولو قدرنا العدو من غير دينه ويجب عليه زوال عداوته شرعا وقتاله — قلنا : إن جذبه بالإحسان والحكمة والسياسة أحمد عند الشرع وأولى وأحب لله لأنه أزال عداوته وجذبه للإسلام وكان رحيمًا كريمًا ، متابعًا لسنة النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان يجذب الناس للإحسان مثل جذبه للمؤلفة قلوبهم ، وكذلك بالاحتمال فإنه كان يغفر للمسىء له ويدعو له بالمغفرة . وهذا خير عظيم . فقد سلم المصطلح مع عدوه والمتخلق عليه من آفات الدنيا والآخرة وقرب من الله تعالى بالتخلق بأسمائه ومن النبي صلى الله عليه وسلم بتبعيته ، وهذه هى السلامة من كل الجهات ، والمراد بقوله : « والسلم للعدو سلامة » .

وقوله رضى الله عنه : « والصلح مع جملتك صلاح » — إما للتأكيد لأن السلم هو الصلح لغةً ، فتكريره إما للتأكيد وإما جاء تكريره لفائدة الإطلاق من القيد الأول لأنه قال فى الأول « والسلم للعدو » ، فحض على الصلح إلا أنه قيد بلفظ [٥٢] العدو وأطلقه فى الثانى بقوله «والصلح صلاح» وتركه مطلقًا ثم أكده من حيث حده بقوله صلاح . فإن قيل : اللفظ الأول محرر فى ذلك إذ الصلح لا يطلق إلا برفع العداوة ولا يقال إلا على العدو ، ولفظ العدو فى الصلح يفهم منه أى عدو كان ويراد به النوع لا الشخص أو أحد لا بعينه ، ودخل فى ذلك عموم الأعداء ، ومن ليس بعدو فلا يحتاج إلى الصلح معه ، فلا يفهم من العموم إلا عموم الأعداء وقد خلصه اللفظ الأول . قلنا : فيه إشعار الزيادة ، لأن الصلح فيه معقول الصحبة والألفة ورفع العداوة معًا . وقد يكون فى الناس من ليس بصاحب ولا مألوف وإن لم يكن عدوًا ، فيكون الصلح معه بمعنى الألفة والمودة ، وهذا فيه زيادة ظاهرة ، ويكون الإنسان المتخلق يألف عدوه وصديقه والمتوسط الموقوف بينهما ويحسن للجميع ويرد الكل إلى الصداقة والمودة ، وهذا محمود شرعًا وعملا وفضل بيّنٌ وصلاح جلىٌّ وهو المراد بقوله « والصلح صلاح » . والصلاح هو الفعل المحمود ، وهو الفعل المستحسن ، والصلاح هو الطاعة ، والصالح هو الطائع . وأيضًا قد يريد بقوله « العدو » و « الأعداء » أضدادًا موجودة فى محل الإنسان الواحد من حيث هو إنسان مجموع من روحانى وجسمانى ، والروحانى مفارق فى غاية البساطة ،

والجسمانى مركب ، والمركب ضد البسيط . وأيضًا الإنسان حده هو الحى الناطق الميت ، والحى ضد الميت بالضرورة ، والإنسان مجموعهما أو مطلوب بانقياد جميعه إلى أمر الله والدخول تحت أحكام الشرع ، فإن الجسمانى يطلب عالمه وخواصه اللائقة به ، مثل الشهوة من الأكل والشرب والنكاح واللباس الحسن وما أشبه ذلك . والروحانى يطلب العلم والمعارف والبحث عن حقائق الأشياء فيتلذذ بإدراك الموجودات وبتفسير الأشياء المجملة بإخراج الأشياء المشكلة من إشكالها إلى التجلى والظهور المحض وقبول الأمور الكليات من جهة ما هى كليات وما أشبه ذلك . والمتوسط يتلذذ بأشياء متوسطة مثل النغمات الحسنة والألحان وما أشبه ذلك . فلما كان الإنسان مجموع هذه الأنواع ومقولا على هذه الجملة ، والشرع طالب له بالانقياد إلى الله بجملته ، احتاج أن يطلب أنواعه بالمداودة وقواه الجسمانية والروحانية بالإذعان والخضوع وأضداده بالاتفاق والدخول تحت أمر الله ورسوله ، فيترك عقله اجتهاده وبحثه وعلومه العادية ويتصرف لقبول ما يلقى اليه الشرع فيخرج عن إدراكه ويأخذ إدراك الشريعة ، ويترك علمه ويأخذ علم الشارع ، ويترك الجسمانى وتصريف جوارحه فى المكاسب العرضية والبطش فى الأمور النفسانية [٥٣] العاجلة وينصرف إلى عبادة الله . ويصرف جوارحه فى طاعة الله من الركوع والسجود ، وإيجاد الراحة بالإعطاء باليمين والسعى إلى المساجد بالأقدام والجهاد وغير ذلك . وينصرف فى المتوسط الى ما يحمده الشرع ويرعاه الله تعالى : مثال ذلك : السمع الذى كان يوصل له الألحان والنغمات الحسنة ينصرف إلى سمع كتاب الله تعالى الذى هو كلامه وسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع المواعظ والأمور المذكرة بالله عز وجل ؛ والبصر الذى كان يبصر به المتلذذات ويتنزه فى سطاعة ألوانها وملاحة بهجتها ، يرجع ينظر اختلافها فى أنفسها وتبدلها وقلة ثبوتها فيستدل على موجدها وخالقها ، فترجع القوى الجسمانية والروحانية والمتوسطة منقادة لأمر الله والدخول تحت أحكامه والانصراف لطاعته وتتفق على ذلك اتفاقًا واحدًا ودخولها فى أحكام الله دخولا واحدًا . ويكون الصلح المذكور لاجتماع الأضداد والأغيار الموجودة فى الإنسان على قبول أمر الله وتتفق على ذلك اتفاقًا ، فيزول شغبها وتضادها وعداوتها إذ كان قبل ذلك كل نوع يميل إلى طور من اللذات والمطالب لأن طلب الجسم مضاد لطلب العقل ، والروحانى ضد الجسمانى فكأن الإنسان مشتبه الماهية ، فصار متفقا ووقع الصلح بين أضداده

وتألفت أجزاؤه وتوحدت ماهيته بدخولها تحت أمر الله ، وانصرافها لمطلوب واحد ، وأدى ذلك للجمع والاتفاق والاستقامة . وهـذا صلاح عظيم وصلح محمود . ويفسر هذا قوله رضي الله عنه في « الرسالة الرضوانية » : « وقل لجملتك : يا مركبة من الخير والشر ، والمفارق وغير المفارق ، والسعيد والشقي ، هاوديني ! وإن لم تفعلي ، تقابلك بطبيعة الخير وتندرع بالمفارق وتظاهر بك بأمر السعيد ، فإني ناجيته » . فهذا معنى قوله رضي الله عنه : « والسلم للعدو سلامة والصلح مع جملتك صلاح » .

وأيضاً إذا صار العقل داخلا تحت نظر أمر الشارع فلا يعقل إلا به ، والبصر لا يبصر إلا به ، والسمع لا يسمع إلا به ، والجسم لا يبطش ولا يتصرف إلا به . فقد ذهب كل نوع في ذاته وثبت بالشارع عليه السلام . والشارع عليه السلام هو لسان الحق وبصره لأنه بالله ينظر ، وبه ينطق ، وعنه ، وذاته لله بالجملة . فذات المنقاد للشرع ترجع لله بالضرورة ، لأنا نقول المتبع لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ولا يبطش إلا بالشرع ، فالشرع سمعه وبصره ويداه ورجلاه . والحق ذات الشارع ، فالحق هو سمع المتبع وبصره ويداه ورجلاه . وهذا يشهد له قوله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه : « لا يتقرب العبد إليّ بأفضل مما افترضته عليه ، ثم لا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه [٥٤] الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ... » الحديث .

فإذا كان الحق هو جملة الإنسان من حيث استحقاقه له ، والحق واحد ، فالإنسان واحد — فقد ارتفعت الأضداد والأغيار ، واتفق المختلفون ، وزالت العداوة بالضرورة . وأيضاً العبد ممكن الوجود ، والموجودات المفعولات كلها ممكنة الوجود ، وهي متساوية في ذلك . ولا يكون للممكن الوجود سمع وبصر وعقل من حيث هو ممكن ، ولا وجود له بالجملة إلا ما أعطاه الواجب ، وما أعطاه الواجب لا يفارقه ولا ينفصل عنه . فإذاً الواجب سمع العبد الممكن وبصره ويداه ورجلاه ووجوده بالجملة ، والعالم في إمكانه واحد : فالله هو سمع كل سميع من الممكنات ، وبصر كل بصير ، ووجود كل موجود منها . فلا تقلْ إذاً هو سمع الولي وبصره في وقت استحق الولاية ولم يكن قبل استحقاقها كذلك . ولا تقل هو في وجود الولي ماهية وحقيقة وفي غيره من الممكنات مجازاً فيكون وجود الله مع الممكنات في بعض حقيقة وفي بعض مجازاً ؛ تعالى الله أن يختلف وجوده

أو يتنوع ! بل هو المقوم لماهية الولى وغير الولى ، وهو ماهية كل ماهية من حيث استحقاقه للموجودات استحقاقاً واحداً . فإذا كان هو ماهية الماهيات فهو سمع الأسماع كلها وبصر الأبصار . وهو كذلك دائماً ، إذ لا يمكن أن يكون وجوده مع الممكن فى وقت مقوماً ، وفى وقت منفصلا ، ويكون الممكن مستقلا بذاته فى وقت ومفتقراً فى آخر ، بل هو مفتقر على الدوام والله هو المقوم لوجودها على الدوام والمتمم . فإذاً بطل كونه يكون سمع الرجل فى وقت دون وقت وكذلك بصره ، بل هو وجود كل موجود دائما . فإن قيل : ما الفرق بين الولى وغيره إذاً ؟ قلنا هذا قريب من الله ، وهذا بعيد منه . نقول : الولى عرف بذلك الاتصال وشاهد استحقاق الحق له ، وغيره جهل ذلك فكان بعد هذا من جهة الجهل لا من جهة الوجود ، وقرب هذا من جهة العلم والوجود معاً فهذا وجد ماهيته وسمعه وبصره معاً ، لله وبه وعنده وشهد الحق بالحق ، وهذا ادعى لذاته وجوداً وسمعًا وبصراً فادعى ما ليس له وكان بعده بحسب ذلك ، وكان قرب الولى بحسب ذلك ، وكان هذا منعماً وحاضراً وشاهداً وكاملا وسعيداً ، وهذا الآخر بالعكس . والحق بالقرب معهما على حالة واحدة ، وهذا بعيد من حيث غلطه وانتكس بذلك الغلط وشقى . فإن قيل : ما الفائدة فى قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به » ؟ — قلنا أزال الغلط فشاهد أن الحق هو سمعه وبصره ، وأنه لم يزل كذلك ولا يزال كذلك مع كل ممكن ، فكان التقديم والتأخير من حيث العبد وعنده — فاعلم ، لا بد من حيث الحق ؛ ومن حيث [٥٥] الغلط والجهل لا من حيث الوجود حقيقةً . فإذاً القرب ذاتى ، والبعد عرضى ، والغلط فى الضمير يحجب الإنسان عن حقيقته فيدعى وجود الله لنفسه ، فيكون فى الأمانة من حيث أخذه ما ليس له . فلا عداوة ولا مغايرة إلا فى خبر الغالط ، والحق هو حقيقة كل شىء ووجود كل شىء بالوجه الذى ذكرناه . وهو كذلك دائماً ، فلا عداوة إلا بالجهل ، فإذا ارتفع الجهل ظهر اتفاق الوجود ووحدته ، وهذا هو الصلح الذى يرد الأضداد والأغيار شيئاً واحداً ويزيل الشتات ويعلم بعد زواله أنه لم تكن قط عداوة ، ولا بغض ، فصار الصلح زوال الغلط ورفع الإضافة — فاعلم ذلك . وهذه المسئلة مطبقة على قوله : « والعلم للعلو علامة » ، ولذلك ساق بعدها : « والسلم للعدو سلامة » لأن العلم يرفع الغلط الذى أوجب العداوة ، فيظهر الاتفاق والاتحاد . والصلح حقيقة ذاتية فى كل ماهية بما هى ماهية ، فاعلم ذلك . . .

قوله رضى الله عنه : « والدعاء بالإخلاص سلاح » . الدعاء هو النداء تقول دعوت فلاناً بمعنى ناديته . وتقول الدعاء هو العبادة لقوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ؛ إن الذين يستكبرون عن عبادتى »[1] الآية . وتقول الدعاء إذا كان لله تعالى هو النداء بالمسئلة والتضرع والطلب لإحسانه ونعمه . والإخلاص هو تحرير الشيء من الإشابات كما تقول أخلصنى فلان وده ، بمعنى أن وده محرر من الإشابة . ونقول الإخلاص هو تحرير القصد من الإشابات والوسائط . والسلاح هو العدة التى يعتمد عليها فى نيل المآرب . ونقول السلاح آلة يستعان بها فى تحصيل المطالب . ونقول السلاح آلة أو عدة يستجلب بها الملائم ويدفع بها المنافر ويحفظ بها الحامل لها نفسه وجملته . ولما كان الله فاعل كل شيء وبيده ملكوت كل شيء فلا شيء يبقى إلا وهو فاعله ، ولا خير يرجى إلا وهو جاعله ؛ فهو الضار النافع . فلا شيء يدفع إلا وهو دافعه ، ولا شيء يجذب إلا وهو معطيه ومانحه ، ولا حافظ للنفس المحفوظة إلا هو . ولذلك جعله سلاحاً وشبهه بالسلاح . ولما كانت السلاح عند العامة فى الظاهر يعتمدون عليها فى دفع العداوة والوقاية من الشر ، وفى استجلاب المنافع والخيرات الملائمة ، ويحفظون بها ذواتهم من الضرر والبأس — ضرب لهم بذلك مثلا وقربه لأفهامهم بالعرف الجارى فى عاداتهم فى مواطن الخوف إلا السلام . فنبههم على الإخلاص لله والاعتماد عليه فى جميع ما يخاف أو يرجى إذ هو الدافع للشر حقيقةً ، والمانع للخير والحافظ لذات العبد من كل الجهات ، وهو الذى لا رادّ لأمره ولا معقِّب لحكمه ، فهو عدة المؤمن وسلاحه ، وإليه استناده وعليه اعتماده ، إذ لا غيره ينفع ولا سواه يدفع . فإن وجدنا السلاح فى الظاهر مثل [٥٦] السيف والرمح وما أشبه ذلك يدفع به العداوة ويحارب به وقد يظفر به ويقتل وقد يمنع من بلوغ غرضه ويدفع شره ويظهر تأثير الحديد والعدة فى دفع العدو وقتله به — فذلك يرجع إلى الله بالضرورة وهو له حقيقةً وللحديد مجازاً . فإن قيل : كيف هو مجازاً ، ونحن نشاهد صاحب السلاح يسلم بمحاربة عدوه ويفنى نفسه به وماله ، وقد يظفر بعدوه ويقتله ومن لا سلاح له يُظفَر به ويُنتقَم منه وهذا تأثير ظاهر ؟ قلنا : ذلك من جهة العادة[2] ومجعول فى الحديد والسلاح . وليس السلامة

---

(١) سورة « غافر » آية : ٦٠ .

(٢) الشارح هنا كما فى كل موضع يتصل بنظرية الاستطاعة أشعرى خالص ، ومن هنا قال بالعادة ، ولم يقل بالإرادة .

والظفر فى السلاح صفة نفس[1] لأنا نقول : لو لم يخلق القطع عند الضربة بالسيف لم يقطع السيف بما هو سيف ، ولو لم يخلق الموت عند وجود الجراح لم يمت العدو إذ قد وجدنا فى العادة مجروحين يعيشون ومضروباً باللطمة يموت وآخر يموت بغير ضرب . فصح أن الموت خلق لله لا بنفس الضرب . وكذلك نجد سيفاً واحداً يضرب به فى وقت فلا يقطع ، ويضرب به فى وقت آخر فيقطع . فلو كان القطع له صفة نفس لما تبدلت فى وقت دون وقت ؛ ولو كان عدم القطع صفة نفس له لم يقطع به أبداً . فصح أن القتل والقطع والوقاية خلق الله وفعل له . وكذلك نقول فى الضارب . فلا فعل لمخلوق ولا تأثير . وقد نجد الموضع المخوف يجوزه من لا عدة له فيسلم ، ويجوزه صاحب السلاح فيهلك . وقد نجد الجماعة الواحدة تقاتل العدو فيقتل أصحاب السلاح لأجل محاربتهم ، ويكون سلاحهم سبب هلاكهم ويسلم من لا سلاح له لكونه غير مخوف ويكون عدم سلاحه سبب سلامته . وقد انعكست المنفعة مضرة ، وضدها منفعة ؛ وهذا جار أبداً . فصح بالبرهان أن الله هو الذى يدفع الشر ويقى كل ماهية من البأس ويحفظ الذوات الممكنة كلها . فهو السلاح ، وإخلاص الاعتماد عليه هو النجاح . ولا خير إلا منه وبه ، ولا شر إلا له وعنه . فإليه يجب الاستناد والتضرع ،وله يصح الدعاء والتضرع ، وهو الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وغيره لا يجيب ولا يستجيب .

فإن قيل : قد نجد من يدعو ويسأل حاجة ولا تقضى ولم تظهر الإجابة ؟ ! قلنا : الله قد وعد بالإجابة ووعده حق ؛ ولكن لم يعين الزمان ولا عين الحاجة . وإنما وعد بالإجابة قطعاً . فإن لم تظهر إجابة الداعى فى الوقت فتظهر فى زمان آخر ويتأخر زمان الإجابة أو يتقدم . أو لم يكن الدعاء بإخلاص ويشوبه الشرك الخفى ، أو الضعف فى الإخلاص واللبس فى تحرير القصد ، أو يكون العبد يسأل فى حاجة يظن أنها منفعة له ونعمة ويعلم الله منها ضد ذلك فلو أجابه فى تلك الحالة أو الحاجة بعينها لكانت عليه نقمة وشراً فدفعها [٥٧] عنه وأجابه بدعائه ، إذ الدعاء لله يستدعى خيره ونعمته وإحسانه ؛ والعبد الحادث عاجز عن إدراك مصالحه وكشف عواقب الأمور ،

---

(١) أى صفة ذاتية ، فى طبيعة السلاح .

والقديم — سبحانه ! — الكريم العالم بالخيرات النافعة لما رأى عبده قد دعاه بالخير والإحسان وعجز عن معرفة ما يصلح به من أنواع الخير أجابه بالخير اللائق به والنعمة النافعة له وأرشده فيما عجز عنه إذ لو أجابه بعين مادعاه فيه وهو يعلم أن فيه مضرته لم يكن محسناً من حيث علم مسئلته يدعوه فى الخير والنعمة ويجيبه بالسيئة والنقمة . وإنما إحسانه أن يختار له ما هو خير له ونعمة ، ويرشد فيما عجز عنه إذ العبد الحادث عاجز من صفة نفسه . ولذلك قال سيدنا رضى الله عنه للشيخ أبى عبد الله الدلون رضى الله عنه : « ادعُ ولا تعين مطلوباً » . فإن قيل : ما الفائدة فى الدعاء إذا لم يعين مطلوبه ؟ قلنا : فائدته الإشعار بالاحتياج والالتجاء إلى الله والافتقار إليه حتى فى العجز عن معرفة المصالح وطلب الإرشاد لها منه . ويكون الدعاء هنا بمعنى الذكر والعبادة والدخول فى العبودية المفتقرة من كل الجهات . ولذلك قال ﷺ مخبراً عن الله أنه قال : « من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . وأيضا النعم الفعلية لا ثبوت لها ولا هى مطلوبة لذاتها عند السعداء إذ لو قدرنا عبداً منعما وهو غافل عن الله غائب عن مشاهدة المنعم فى نعمه لكانت النعمة عليه نقمة إذ هو غير ذاكر ولا حامد للمنعم ، وأدى ذلك إلى كفر النعم ، والكافر بالنعم شقى ومحروم ، وكذلك الغافل عن الله . فإذاً ذكر الله هو النعمة الكبرى فإنه يصرف الذاكر إلى الله الذى يراد لذاته ، وهو النعمة التى لا تقاس بالنعم والذى إذا ظفر به ظفر بكل نعمة ، ويستغنى الذاكر بمشاهدته فى مقام الإحسان وبحضوره عند كل نعمة ، كما قال ﷺ : « أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

فإذا كان الذكر أكبر النعم كما ذكرنا فالغفلة والذهول عن الله أكبر النقم . فإذا دعا العبد ربه فقد ألهم وأقيم فى الذكر ونبه عليه ، ورفعت عنه الغيبة والبعد عن الله ، وأقيم فى الذكر والحضور والعبادة . فقد أجابه من حيث رفع عنه ضر البعد ومنعه الغفلة ، وكفاه شر الشقاوة وأسبابها ، وأنعم عليه بالحضور والمشاهدة والذكر والعلم بافتقاره إلى بارئه ، وأحضره عنده مع الحاضرين السعداء . فقد أجاب الداعى قبل دعائه من حيث أعطاه الدعاء من حيث أسعده به ، وأنعم عليه بجنته ومشاهدته . فكل داع لله مجاب بالضرورة التى [٥٨] ذكرناها من دفع نقم الغفلة وإعطاء نعم الحضور والذكر والمشاهدة — فاعلم ذلك .

وأيضاً الإخلاص هو تحـرير القصد وتجريد الغرض لله تعالى كما تقدم رسمه . فإذا أخلص الإنسان قصده لله ، بمعنى أنه أراده لذاته وأحبه لجلاله وكماله ، فلا يطلب منه النعم الفعلية ، فإنها تشوب إخلاصه وتبطل كونه مخلصاً لأنه قد طلب منه أفعالا ، والأفعال غير الذات ، ووقوع غير ذات المحبوب فى قلب المحب إشابة واختلال فى محبته . فإنا نقول : لو أن رجلا ادعى محبة الملك لذاته وصفاته الذاتية له وشغف قلبه بجماله وكماله ثم طلب منه ألف دينار ، لـكان ذلك طعنا فيما ادعاه واختلالا فى محبته إذ قد دخل فى قلبه غير صفات الملك الذاتية وطلب منه اللواحق الخارجة عن ماهيته . فإذاً الدعاء بالإخلاص لله هو تعلق الهمة والقصد والجملة بذاته والهيام بجـلاله وزوال الإضافة والفناء عن جميع المطالب ومحو الغيرية من قلب المخلص حتى يفنى عن وجوده ويصير شاهده هو مشهوده وعابده هو معبوده فهناك يذهب الإخلاص ، ويلقى السلاح ، ويناديه الـكمال ، ويستجيب فى ماهيته ويظهر عليـه سراج ، وتذهب الأضداد والأغيار ، ولا يبقى خلاف يتحفظ منه ولا عدو يقاتل بالسلاح . وهذا هو معنى قول سيدنا رضى الله عنه : « والدعاء بالإخلاص سلاح » .

وقوله رضى الله عنه : « وإياك من الأمل المهـدوم والعمل المعدوم » — الأمل : هو تعلق الرجاء ببقاء الحال الحاصل من الخير المحصل وباستدعاء مثله وأحسن منه وانتظاره فى الزمان المستقبل . كما تقول : نؤمل الآن البقاء فى الدنيا وكسب الأموال فيها . أو تقول الأمل هو تعلق النفس بخير إما حاصلا تريد ثبوته وإما مفقوداً تريد تحصيله أو مجموع ذلك . أو نقول الأمل تعلق النفس بحفظ الملـكة أو بنيلها . والمهدوم هو الشيء المنحل بعد تركيبه والمفسود بعـد كونه . وبالجملة المبنى هو الجسم المركب ، والمهدوم هو الجسم المنحل بعد تركيبه . وقد نقول المهدوم هو الشيء الذى تفرق اتصاله وانفصلت جواهره بعضها من بعض — فاعلم ذلك . والمعدوم هو المنتفى كما ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « الرسالة الفقيرية » . وقد نقول : المعدوم ما ذهب بعد إثباته ، كما تقول فلان معدوم إذا مات وانقرض . وبالجملة المعدوم ما ليس بموجود كما رسمه سيدنا — رضى الله عنه — فى « الفقيرية » .

ولما كان الأمل هو تعلق النفس بخيرها ، والخير ينقسم إلى محمود ومذموم : فالمحمود منه هو الثابت الذى لا انقطاع له ، وهو الجليل المعتبر بصفات الكمال ؛ والمذموم هو الذاهب المنقطع ، وهو الخسيس المشار إليه [٥٩] بالنقص والرذالة قيد اللفظ بقوله « المهدوم » . ولما كان العمل يتعلق بمكاسب ذاتية وعرضية قيد بقوله « المعدوم » . وذلك الأمل ينقسم بحسب متعلقه ، وهو واحد فى التعلق فإن الأمل هو الإرادة والرجاء ، والإرادة والرجاء قد تتعلق بالدنيا ومكاسبها ، وتتعلق بالآخرة ، ولذلك خصص اللفظ العام وقيده لأنه لو قال : وإياك من الأمل — وسكت عند ذلك ، كان يلزم التحذير عن الأمل فى الله وفى الجنة . ولو أطلقه أيضاً ويأمر به مطلقاً ، كان يلزم التحريض عن الدنيا والأمر بها . وهو لا يجوز ، واحتاج أن قيد اللفظ المطلق فإن قوله « وإياك من الأمل» هو نهى مطلق، فلما قال المهدوم ، وقع النهى عن الدنيا وبقى الأمل متعلقاً بالله وبالدار الآخرة ثابتاً على أصله . وذلك أن الأمل المهدوم هو تعلق الإرادة بالأمور الذاهبة المختلة وهى الدنيا ولواحقها . ويسمى الأمل مهدوماً لأجل ما هو متعلقه مهدوم وذاهب. وهذا من قبيل الشىء الذى يسمى باسم متعلقه ، كما تقول همة خسيسة إذا كان متعلقها خسيساً . ولما كانت الدنيا سريعة الانتقال وقليلة الثبوت ولذاتها تكون فى وقت دون وقت ، وما من لذة تتصور فيها ولا خير يتنشىء[1] ويتركب ويوجد فى ساعة من الزمان إلا ويتحلل فى الثانى ويذهب ما ثبت منها وينعدم ما بقى فيها : مثل لذة الجماع إنما هى زمان فرد ويداخله الألم لأنه لذيذ وجيع ؛ وكذلك الأكل وخيره إنما هو فى زمان مناولته فقط وفى عقبه تذهب تلك اللذة ويبقى الخير يتلذذ بما يستقبل من مثله فى وقت آخر . وهذا خير وهمى ، فإنه يتلذذ بشىء غير موجود فى الحال وقد يحال بينه وبين ما أمله من ذلك ويأتيه ضده ويسلب عنه هو إما بالمرض أو بالقلة أو بالموت . وكذلك القول فى اللباس يفنى مركبه ويبلى جديده . وبالجملة ، نقمتها أكثر من نعمتها وقبضها أكثر من بسطها وتنقطع بالموت ويذهب وجودها بالجملة ؛ فهى معدومة بالضرورة والأمل المتعلق بها مهدوم ، والعاقل لا يتعلق بخير يعلم أنه يفقده وينفصل عنه بالضرورة . فنقول : الأمل المهدوم هو المتعلق بتدبير الجسم لأن الجسم مركب من أضداد ومن

---

(١) بمعنى : ينشأ ، يكون .

بسائط ، وكل مركب من أشياء كثيرة ينحل إليها ، والجسم مركب من أشياء فهو ينحل إليها ، والانحلال هو الهدم ، والمنحل هو المهدوم ، والجسم منحل فهو مهدوم . والأمل المتعلق بالمهدوم مهدوم . وبناء الجسم معلوم عادةً وطبيعة وشرعا : أما عادةً فظاهر لأنا وجدنا الأجسام تنحل وتذهب ، وأما طبيعة فهو ماذكرنا من انحلال المركب من البسائط التى تركب منها ، وأما شرعاً فقوله تعالى: «كل من عليها فان»[1] ؛ وقال فى النفوس المدبرة للأجسام: [٦٠] «كل نفس ذائقة الموت»[2] ، وفى النفوس المتوجهة لله الساعية فى مرضاته : «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء»[3] الآية . والحكماء الإلهيون يقولون إن النفس المدبرة للجسم هى النفس الحياتية وهى فانية بإجماع لفناء مركبها ، والنفس المستقيمة عندهم على التوجه وطلب الحكمة والبحث عن المعارف والمحبة للبارى تعالى وطالبة القرب منه هى النفس الناطقة ، وهى باقية أبداً بإجماع منهم . والذى اختلف فى بقائها رجع عن قوله وقال ببقائها . فإذاً التعلق والأمر المدبر للجسم هو النفس الحيوانية أو خبرها ، والأمل المتوجه لله ولمعرفته هو خبر النفس الناطقة ، ومتعلق النفس الحيوانية هو الجسم ولذاته ، ومتعلق النفس الناطقة ومحبوبها هو الحق . والجسم مهدوم ومضمحل ، فأمل النفس الحيوانية مهدوم ومنحل ، وأملها هو جوهرها ، فجوهرها مهدوم . وأمل النفس الناطقة هو الله ومعرفته ومحبته والنظر إليه ، ومعرفته ومحبته والنظر إليه هو جوهرها . والحق دائم لا يزول ، فالنظر إليه دائم لا يزول ، فالمتعلق بالله ثابت . والمتعلق بالجسم ذاهب ، والذاهب مهدوم ، والثابت لا يهدم أبداً . وهذا وإن كان يحتاج إلى مقدمات وإقامة برهان على أن جوهر النفس الناطقة هو النظر إلى الحق وأن المدبر للجسم هو النفس الحيوانية < فإنه > يحتاج إلى تطويل ، ولا حاجة بنا إليه فى هذا الكتاب ولكن هو مذكور فى كتب القوم ومقدماته عليه صادقة ؛ وقد ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « بد العارف » وفى « مسائل

---

(١) سورة (الرحمن) آية : ٢٦ .

(٢) سورة (آل عمران) آية : ١٨٥ .

(٣) سورة (آل عمران) آية : ١٦٩ .

صاحب صقلية »[١] فانظره هناك، أو اسألني عنه مشافهة أو اقنع فيه بالأيتين المتقدمتين في النفس التي لا تموت، وفي النفس التي تذوق الموت وركب عليهما معقول ما ذكرناه وتفهمه إن شاء الله. ويكفيك فيه علمك بأن الجسم فانٍ كما ذكرناه، ولذاته تفنى بفنائه وأن الحق باقٍ . واللذة بمعرفته ومحبته تبقى ببقاء متعلقها — فاعلم ذلك . ونقول : النعيم عرض والعرض إلى ضد ومثل وغير وخلاف ، ونعيم الدنيا تخلق أضداده وأغياره ، والشيء يذهب بضده ويزول بغيره ، وكل ذاهب مهدوم . فنعيم الدنيا مهدوم ، ونعيم الآخرة تخلق أمثلته ، والموجود في المثل هو الموجود في مثله فهو دائم أبداً ، وما هو دائم فليس بمهدوم . ونقول : العالم بأسره ممكن الوجود ، والممكن الوجود لا فعل له ولا تصريف له ، والواجب الوجود له الفعل والتصريف .

والأمل ينقسم إلى قسمين : أمل يتعلق بالعالم ، وأمل يتعلق بالله . فالأمل المتعلق بالعالم لا يحصل له مأمول إذ العالم لا يفعل ، فهو أمل مهدوم من حيث أن حقيقة [٦١] تركيب الأمل هو نيل مطلوبه ، فإذا لم ينل مطلوبا لا تركيب له ، فهو مهدوم . والأمل المتعلق بالله ينال مطلوبه ، لأن الله هو الفاعل المتصرف ، فالأمل المتعلق به غير مهدوم . ونقول : العالم الممكن لا وجود له من نفسه ، ووجوده بالله وعنه وعنده ، فهو ينحل إلى فاعله بالاستحقاق . وما هو منحل إلى شيء فهو مهدوم . والأمل خبر عن موجود يعتمد عليه ، والعالم مهدوم كما ذكرنا ، فالخبر المعتمد عليه مهدوم ، والحق موجود ثابت بنفسه لا يتبدل ، والخبر المعتمد عليه متعلقه لا يتبدل ، فالمتعلق لا يتبدل . وأيضاً الوجود هو واحد ، وهو الله ، وهو الوجود المطلق. والعالم لا وجود له إلا به وفيه كما تقدم ، فالعالم قضايا تماثل في الوجود المطلق ، وهي زائلة في أنفسها ثابتة به ، فهي أمثلة ومراتب فيه لا تغايره . فالخبر المتعلق بها أمل مهدوم لأن الوجود يزيلها ويأخذها استحقاقاً ، وكل زائل مهدوم ، والخبر المتعلق بالمهدوم مهدوم . والوجود المطلق هو الوجود حقيقةً والمراتب لا تخبر عن أنفسها ولا عنه ،

---

(١) هنا دليل قاطع على ان «مسائل صاحب صقلية » التي طبعت بعنوان : « الأجوبة عن الأسئلة الصقلية » (نشرها شرف الدين يلتقيا وهنري كوربان في بيروت سنة ١٩٤١) هي لابن سبعين ، ولا مجال بعد هذا لأي شك في صحة نسبتها إليه ، كما ذهب إلى هذا الشك ماسينيون . إذ الشارح تلميذ ابن سبعين ، حين ينسبها إلى ابن سبعين ينسبها عن يقين .

إذ لا وجود لها فى أنفسها ، ومن لا وجود له لا يأمل ولا يخبر . فإذاً لا خبر ولا أمل إلا فى خبر الوهم الذى يشعر بالإضافة ، والإضافة كلها كذب وخرافة ، فلا أمل ولا مأمول فى الوجود حقيقة . فقد ذهب الأمل وثبت الحق الذى لم يزل . فالأمل كله : الخسيس منه والرئيس — معدوم فى الحقيقة ، وذاهب لا وجود له ، ومن لا وجود له فهو معدوم بل معدوم لعينه . وهذا هو معنى قول سيدنا رضى الله عنه : « وإياك من الأمل المعدوم » . وهذه الألف واللام تأخذ فى التفسير الأول لتبيين الجنس ، وفى هذا الآخر للعبد ، وفى البداية والسلوك خرج عن الأمل مقيداً ، وفى هذا الموطن أخرج عنه مطلقاً بل لا تجده من نفس هذا المقام . وهذا هو معنى قول سيدنا رضى الله عنه : « أنعِم علىَّ بخير يقطع الأملَ » [1] — لكونه الجامع المانع . وهذه الكلمة مذكورة فى « وحى الاستخارة » <[2]> تثبته الإضافة والوهم ويذهبه التحقيق والفهم — فافهم ذلك . وكذلك القول فى العمل المعدوم . فإن العمل هو تصريف النفس بالآلات الجسمانية والروحانية للكسب والتحصيل ، والكسب هو تحصيل الخيرات المحبوبة للنفس ، كما تقول : كسبت مائة دينار وكسبت علم الأصول وما أشبه ذلك . ولما كانت الدنيا بالعمل والخدمة — مثل الصنائع والتجارات وما أشبه ذلك — والدنيا معدومة وذاهبة كما تقدم ، فالعمل لها وفيها معدوم . ولما كان العمل ينقسم إلى عمل يحصل على السعادة والكمال والرفعة ، وعمل تحصل به الدنيا ومراتبها ، والسعادة والكمال باقية وثابتة والدنيا ولواحقها ذاهبة ومعدومة ، أطلق القول فى الأول بقوله : « وإياك من العمل » وقيده بقوله : المعدوم ، لأن العمل لا فائدة له إلا تحصيل المطلوب المعمول عليه والعمل للدنيا والآخرة والدنيا معدومة ، فالعمل لتحصيلها معدوم ؛ والآخرة ثابتة وباقية فالعمل للآخرة موجود ثابت وباق أبداً . [٦٢] فنهاك عن المعدوم وبقى الموجود على أصله . فنقول : العمل هو الحركة فى تدبير الجسم ، والجسم معدوم بالطبع كما تقدم ؛ فالعمل فى تدبيره معدوم . ونقول : العمل ينقسم إلى : عمل يستجلب به شهوات النفس الحيوانية ، وعمل يحصل به كمال النفس الناطقة ؛ والنفس الحيوانية معدومة ؛ فالعمل لشهواتها معدوم . والنفس الناطقة باقية ، فالعمل لكمالها باق أبداً . وأيضاً : العمل ينقسم إلى صالح ، وغير صالح ؛ والعمل الصالح من أخلاق الله ، والغير صالح

(١) شطر بيت شعر . (٢) ياض فى الأصل .

من أخلاق الشيطان يؤدى إلى الخسر والشقاوة ، والعمل الغير صالح يؤدى إلى الخسر ، فهو معدوم من حيث أن لامنفعة فيه ، ومعدوم من حيث أنه يقطع عن الله . والله هو الوجود حقيقة ، والمقطوع عنه معدوم . وأخلاق الله صفاته . وصفاته لا تفارقه ، والعمل الصالح لا يفارقه ، لأنا نقول : العمل الصالح أخلاق الله وصفاته ، وأخلاق الله وصفاته لاتفارقه ، فالعمل الصالح لايفارقه ، فهو موجود أبداً . وأيضاً العمل يطلب به تحصيل الخير النافع ، والخير موجود ومطلوب يشار إليه . والموجود ينقسم إلى واجب الوجود ، وممكن الوجود . فالواجب الوجود هو الله ، وهو الذى قام بنفسه وقام به غيره. والممكن الوجود هو العالم ، وهو الذى لم يقم بنفسه ولم يقم به شيء . والعمل طلب : منه ما يتعلق بالممكن ، ومنه ما يتعلق بالواجب . والممكن إذا طلب منه الخير لا يعطيه ولا يقدر عليه ، إذ ليس هو قائم بنفسه . فالعمل الذى يطلب به الخير من الوجود الممكن معدوم إذ لا خير له ، والعمل الذى يتعلق بالواجب يحصل به الخير ، إذ الواجب الوجود هو المفيض للخيرات ومعطيها على الإطلاق . فالتوجه للعالم عمل معدوم ، والتوجه لله عمل موجود . وأيضاً الله مقوم كل موجود ممكن ومتممه ، فهو ماهية كل ماهية ممكنة ومستحقها ، فهو ماهية الطالب والمطلوب . والخير الموجود فى الماهية المطلوبة هو بعينه الموجود فى الماهية الطالبة ، إذ هو الوجود فى كل موجود ، والوجود لا يختلف بما هو موجود . فهو واحد فى كل ماهية . والخير المطلوب فى مظهر ما هو الموجود بذاته فى الطالب . فالخير إذاً حصل، والطلب وهم، والطلب هو العمل ، فالعمل وهم ومعدوم فى الحقيقة على الإطلاق ، لأنا نقول : العمل يطلب به الخير ، والخير هو الله ، وذاته هى الخير المحض ، والله هو وجود كل موجود بما هو موجود ، فهو حاصل فى كل ماهية والحاصل لا ينتفى ، والراغب يرضى والجاحد لا يسيء والطالب لا يلقى والباطل لا يبقى والراكب لا يشقى والأوج لا يرقى ؛ فخط وأقلع واهرب واجمع وواصل واقطع — يصح لك ذلك إن أرادك لذلك .

قوله رضى الله عنه : « ومن الأمور التى تفسر حكمة العادة وأصول السعادة » — العادة هى ارتباط موجود بموجود من غير قضية شرعية لا عقلية ، والحكمة العلم [٦٣] والعدل ووضع الشيء فى محله ، والحد الأول ذكره سيدنا رضى الله عنه فى « الرسالة الرضوانية » وحد الحكمة ذكره فى « الاصبعية »(١) وغيرها . والأصول جمع أصل والأصل ما ثبت حكمه بنفسه ، والفرع ما ثبت حكمه

(١) ص : الاصبوعية — وقد ورد اسمها قبل ذلك : (الإصبعية) وهو الصواب .

بغيره . وقد نقول : الأصل هو ما لا يكون محمولا على غيره كما أن الفرع هو المحمول على الأصل . وهى السعادة المذكورة ، فإنه ذكر الأصول ، وأضاف إليها السعادة . فالسعادة فرع محمول على أصول يأتى ذكرها إن شاء تعالى . والسعادة هى تحصيل المطلوب المعمول عليه أو هى اللذة الدائمة الثابتة ، أو هى كمال الإنسان .

وأما قوله « الأمور التى تفسد حكمة العادة » — فهى الكسل عن التوجه والغفلة والملل واتباع الهوى ونيل الشهوات الحيوانية والجهل . فهذه من الأمور التى تفسد حكمة العادة ، وهى مما ذكرها هو فى بعض « الوصايا » . وإضافة الحكمة للعادة أراد بها التى تخرق بها وتقطع إذا قدر على قطعها ، وإلا تضعف بالحكمة شيئا شيئا حتى تقطع لا أنها تقوى وتزيد ، لأن قوله : « حكمة العادة » يحتمل أن تقوى بها العادة أو تضعف وتقطع . فلما علمنا أن العادة من القواطع المهلكة والحجب صح عندنا أن السعادة لا تنال إلا بخرقها ، وعلمنا أن مراده الحكمة التى تخرق العادة وتمحلها . وهو قد ذمها فى كتب كثيرة بقوله « العادة مهلكة » وقوله « خوف ما بعد العادة حرمان» . فصح أن مراده ضعف العادة وقطعها وزوالها . والحكمة التى تفارقها وتخرقها هى الشريعة ، لأن العادة هى الاستناد إلى المألوف ، والوقوف عنده ، والميل للروابط ، والشريعة تفسد ذلك من صفة نفسها ، لأن أول وظيفة من الشريعة كلمة « لا إله إلا الله » ، وفى ضمنها أن لا فاعل إلا الله . والعادة [1] ارتباط موجود بموجود ، كارتباط الزرع بالمطر والرى بالماء . وكلمة لا فاعل إلا الله أفسدت ذلك ، فلا الخبز يشبع ولا الماء يروى ولا المطر ينبت الزرع ولا الأب عادة ذاتية فى وجود الولد ، ولا شىء يفعل شيئاً من الأشياء المتماثلة . فإذاً العالم كله قضايا مفردة ، متماثلة فى الحدوث والافتقار ، ولا ينفع بعضها بعضاً ولا يضر بعضها ولا ينفعه . فقد انخرقت العادة بأول وظيفة من وظائف الشرع ، لأن العادة توهم أن الأشياء بعضها من بعض ، ومفتقرة بعضها إلى بعض ، وعلل بعضها فى بعض . ولا فاعل إلا الله ، أزال ذلك كله ، وجذب الروابط ، وصرف الموجودات كلها إلى الله صرفاً واحداً وتضمن أن الحادث من كل الجهات لا يكون مستقلا بوقت ولا فى وقت من الأوقات ، فصح أن الحادث كله لا يفارق فاعله وأن الفاعل له هو صورته المقومة والمتممة ، فهو إذاً ماهية .

---

(١) هذا تعريف بمبدأ العلية عند الأشاعرة .

فصح من ذلك أن الله هو ماهية كل موجود وبدؤه . فإذا كان ذلك فلا وجود إذا لغيره معه ولا ماهية. فقد أعطت [٦٤] كلمة « لا إله إلا الله » أن لا موجود إلا الله فى النظرة الثالثة ، كما أعطت فى الأولى أن لا فاعل إلا الله . فإذاً العادة هى خبر الضمير عن القضايا وربط بعضها إلى بعض فى الذهن ، ولا ارتباط بينها فى أنفسها ولا اختلاف بينها فى الوجود . فالعادة خبر فى الضمير لا غير ويمنع الضمير عن ملاحظة الوحدة الوجودية ودفع الأغيار ، ولأن ملاحظة الوحدة هو الكمال والسعادة الأبدية ، والعادة تمنع ذلك فتمنع السعادة والكمال ، والشريعة تخرق العادة وتزيلها ، فالشريعة تفيد السعادة والكمال والرفعة والبقاء الدائم ومشاهدة الصمدية . فالشريعة هى الحكمة التى بها تزال العادة وتنال السعادة .

وكذلك القول فى الصلاة : فإن الصلاة تزيل النفس عن شهواتها ، وتخرجها عن اختياراتها ، وتمحو أخبارها وتصرفاتها وتصرف الذوات إلى مناجاة الله تعالى والحضور بين يديه ومشاهدته فى مقام الإحسان ، لأن العبد المؤمن قد استقر فى إيمانه أن الله هو فاعل كل شىء وخالقه والمحسن للأشياء على الإطلاق ، وأن الطائع له يحمله إلى جنته ورضوانه ، وأنه هو المولى الذى تجب طاعته وعبادته . فإذا قام إلى الصلاة علم أن الله قد ألهمه ونبهه ، وإذا صلى علم أن الله قد أقامه فيها وأعانه عليها ورحمه بها ، فعلم أن الصلاة نعمة من الله منحه إياها ، ونعمته لا تفارق يده ، وأنه معها بالإيجاد والخلق ، فشاهد الحق بالحق وارتفع عنه وهم الإضافة ووهم نفسه من حيث رأى المصلِّى له هو المصلِّى وأن شهوده هو الشاهد والشهادة معاً. وهذا هو معنى قول النبي ﷺ « أن تعبد الله كأنك تراه » — الحديث . فقد انخرقت العادة فى الصلاة ، بل ذهبت وزالت .

فالشريعة هى الحكمة التى تذهب العادة وتفيد السعادة ، لأنا نقول : الله هو الخير الذى يراد لذاته ، والسعادة هى نيل الخير وتحصيله ، والشريعة تحمل إلى الله كما تبين فى الكلام على الشهادة والصلاة ، فالشريعة تحمل إلى السعادة . ونقول : الله هو الموجود الحق ، وهو مطلوب السعداء . وبمعرفته ومشاهدته تنال السعادة ، والشقاوة فى البعد عنه والجهل به . والعادة هى تحجب عن الله ، والحجاب هو البعد والشقاوة . فالعادة أصل البعد والشقاوة . فخرقها وإزالتها ذات القرب والسعادة .

والشريعة تخرقها وتزيلها . فالشريعة أصل السعادة . لأنا نقول : البعد عن الله بوهم العادة ، والشريعة تزيل ذلك الوهم ، فالشريعة تزيل البعد . والبعد ضد القرب ، فزوال البعد نيل القرب ، فالشريعة تفيد القرب من الله . والقرب منه هو الكمال والنعيم الدائم ، والكمال والنعيم الدائم هو السعادة . فالشريعة تفيد السعادة ، وبها هو وهو بها . وهى شرط فى نيلها وما [٦٥] هو شرط فى وجود الشيء فهو أصله ، فالشريعة أصل السعادة .

والكلام فى باقى الدعائم ، وكونها تخرق العادة مثل الكلام على الكلمة . والصلاة وإن اختلفت أحوالها بالكيف فهى تتفق بالمعنى والانفعال من حيث تزيل العوائد وتحمل إلى الله . وذكرت لك البعض منها لكى يفيدك الأنموذج وتستدل بالنوع على جنسه وبالمثل على مثله . والكلام على الدعائم الخمس وتبيين معنى كل دعيمة قد ذكرته فى كتاب « الأنوار »[1] فانظره هناك . فقد تبين لك أن الحكمة التى تزيل العادة وتفيد السعادة هى الشريعة ، والأمور التى تفسدها هى الشهوات الحيوانية ونيلها وتعلق الأمل بنيلها وجنسها . وقد تقدم بيان ذلك فى الكلام على الأمل المهدوم والعمل المهدوم ، لأنه جعل الأمور التى تفسد حكمة العادة مذكورة ومعطوفة فى اللفظ على الأمل المهدوم والعمل المعدوم ، لأنه قال : « وإياك من الأمل المهدوم والعمل المعدوم ، ومن الأمور التى تفسد حكمة العادة وأصول السعادة » . والمعطوف يرجع حقيقة إلى الذى عطف عليه ؛ وهو هو بعينه . فصح أن الأمور التى تفسد حكمة العادة وأصول السعادة هى الأمل المهدوم . والعمل المعدوم قد تقدم تفسيره وفرغ منه — فاعلمه من هناك .

فنرجع فنقول : الأمل خبر يتعلق بالشهوات الحيوانية ويشخصها فى الضمير وأمله . وأشخاص الشهوات فى الخبر تحجب الضمير عن مشاهدة الوحدة القائمة به ، والحركة للنيل تزيل الإنسان عن السكينة التى كان بها مقيما فى حقيقته[2] . فالشهوات هى الحجاب وذات البعد ، والشريعة تزيلها وتمحلها ، فالشريعة تزيل الحجاب وترفع البعد . وزوال الحجاب هو عين الرؤية لله ، وزوال البعد هو عين القرب منه ، والقرب من الله ومشاهدته هى السعادة ، والحجاب عنه والبعد هما الشقاوة ، والشريعة

(١) هذا الكتاب للشارح لا لابن سبعين . (٢) فى الهامش . وفى الصلب : حركته .

تزيل الشقاوة . وتفيد السعادة . والمفيد للشيء هو أصل في وجوده ، فالشريعة هي أصل السعادة . وأحكامها ووظائفها هي أصول السعادة .

وبيان ذلك أن العبادات الشرعية مجموعة من نية وعمل . والنية في القلب ، والعمل في الجوارح . والنية تعلق القصد بالله وتصور ما يجب له . فقد انصرف الضمير إلى الله ونال منه أمل العاجل وأخير الشهوات . والعمل الشرعي يصرف الجوارح كلها إلى الله ، معناه : في عبادة الله . فقد تعطل من الجوارح كسب العاجل ، وذهبت الشهوات العاجلة والظاهر والباطن ، وانصرفت الجملة إلى الله واستغرقت الأزمنة فيه بالجملة . والشهوات هي عين البعد والحجاب كما تقدم ، فذهابها هو نيل القرب والسعادة والكمال. وأعمال الشريعة أصل ذلك ، فأحكام الشريعة هي أصول السعادة [٦٦] وحكمة العادة كما ذكرنا . فاعلم ذلك وتصفح الكلام المتقدم والمتأخر — ينفتح لك معنى ذلك وتجد ذاتك مقيمة في حضرة ذلك .

قوله رضي الله عنه : « ومن الود مع الملل فإنه قبيح في كل الملل » — ضمير معطوف على النهي المتقدم الذي نهي فيه عن الأمل المهدوم والعمل المعدوم وما بعده ، فكأنه قال : وإياك أيضاً من الود مع الملل — فهذا نهي ؛ وقوله : فإنه قبيح في كل المِلَل — خبر . فنبدأ ببيانه فنقول :

الود هو الميل إلى مُشار ما يُقصَد ترجيحه على غيره ، كما تقول نود فلانا بمعنى نميل إليه ونرجحه على غيره كأنه من أنواع المحبة ، لأن المحبة بعض حدودها ميل دائم وقلب هائم ، ومعنى ترجيح المحبوب وتعظيمه على كل ما سواه . والود ميل بقصد ترجيح كما ذكرنا ، لكنه ليس فيه الهيام والاستغراق الذي في المحبة . فهو مع المحبة بالجنس ويتأخر عنها بالنوع والفصل ، لأن المحبة أفضل منه وأقوى ترجيحاً وأشد استغراقاً ، فهو يطلق معها باشتراك وكأنه أقرب للإرادة ، أو هو الإرادة لأنك تقول وددت فلانا بمعنى أردته ، وتقول نود أن لو كنت في مكة ، معناه تريد أن لو كنت في مكة . فهو والإرادة واحد بالمعنى . والإرادة تخصص مرادها أيضاً وترجحه على غيره . وكذلك الود ، لكن الود أخص منها قليلا وأشرف ، لأن الود يشعر بالتأكيد في الميل إلى المودود والأنس به واللذة . والإرادة أفتر منه في ذلك ؛ فكأنه رتبة فوق الإرادة ودون المحبة .

والملل هو منافرة المألوف بعد الملاءمة ، أو هو الاستيحاش بالشيء بعد المؤانسة به ، كما تقول : مللت فلانا ومن صحبته بمعنى نافرته بعد محبته واستوحشت به بعد الأنس به . أو تقول : الملل هو رفض الشيء بعد قبوله ، كما تقول ملت السمك بمعنى رفضته بعد أكله ، ومللت المغانى بعد سماعها وما أشبه ذلك . وبالجملة ، الملل هو الانصراف عن الشيء ومنافرته بالكلية ودفعه والانفصال منه بعد مؤالفته والاتصال به وجذبه . ولما كان الحث فى هذا الغرض يجر إلى طلب السعادة والكمال ، والسعادة والكمال لا يتوصل إليهما إلا بشروط ومقدمات ، والشروط والمقدمات تحتاج إلى استعداد وأدوات يطول ذكرها لكن نذكر منها هنا ما يفيد الأنموذج فنقول : قد تقدم فى غير ما موضع من هذا الكتاب بيان أن السعادة هى المعرفة بالله والإقامة فى حضرته ومشاهدته ونيل رضوانه وتحصيل الكمال الإنسانى والنعيم الدائم وما أشبه ذلك . وهذا كله لا ينال إلا بالقصد الصحيح والتوجه والصدق واستصحاب الحال الذى لا ينفك إلا بنيل مقصوده . والمرشد المعلم الناصح [٦٧] الخبير بالطريق القاصد الموصل للمطلوب بالوجه الأقرب ، إذ الطرق كثيرة ولكن القاصد منها القريب المسافة الآمن من الآفات هو الذى يطلبه السعيد ، فلا بد من المرشد ضرورة إذ الطالب القاصد لمطلوبه المتوجه إليه لا بد له من دليل ، وهو المرشد الحامل على الطرق المذكورة . والدليل لا بد للماشى خلفه من تبعيته وتقليده وتسليم أموره كلها إليه وترك كل شيء من أجله والعزم والجد فى المشى وراءه والتبعية ، حتى يبلغ التابع إلى مقصوده ويقيمه فى حضرة مطلوبه ومعبوده . وهذا كله يحتاج إلى الود وعدم الملل لأنا نقول : اقتدوة المرشد لو[1] لم تختره <لأنك> تعتقد أنه أعرف الناس بالطريق وأنصحهم وتعظمه وترجحه على كل شيء لم تقتد[2] به وتقلده ولا تسلم نفسك وأحوالك إليه ، إذ لو رأيت بدلا منه لم تختره هو ولا انحصرت إليه . فإذاً ما اخترته إلا وقد عظمته ورجحته . وتعظيمه وترجيحه والانحطاط إليه هو المحبة ، لأن المحبة حدها وجود تعظيم فى القلب يمنع المحب النظر إلى غير محبوبه . فهذا الود والمحبة شرط فى الاقتداء ، والاقتداء يوجب تسليم الأمور وتمليك النفس المقتدى به . وهذه أيضاً المحبة والود ، لأن المحب من شأنه إيثار المحبوب على نفسه . والمحبة والاقتداء تحتاج الثبوت والملازمة ، والملل يوجب الانفصال

---

(١) ص : المرشد ليولم تختره .   (٢) ص : لما تقتدى .

والانصراف إذ حده هو منافرة المألوف بعد ملازمته والانفصال عنه بعد الاتصال به ، وهذا يفسد الاقتداء ويقطع السالك عن محبوبه ويحول بين القاصد ومقصوده ويؤدى إلى الشقاوة والهلاك . ولا شيء أقبح من الهلاك والشقاوة فى كل ملة . إذ المحب إذا مل محبوبه نافره وتعود لذة المحبة ألما وتذهب لذة المحبة ويقع ألم المنافرة . فلا شيء أقبح من الملل . وأيضاً المرشد دليل يحمل المسترشد إلى سعادته ومطلوبه ، فإن مل من اتباعه وملازمة ذاته والمشى على إثره انقطع فى الطريق وفاته مطلوبه وسعادته . وفوت السعادة هو البقاء فى الشقاوة ، ولا شيء أشنع من الشقاوة . ولذلك قال : « وإياك من الود مع الملل فإنه قبيح فى كل الملل » . والنهى إما عائد على الملل الذى يرفع الود ، لا على الود إذ الود محمود شرعاً وعقلا وهو حامل كل قاصد إلى مقصوده ، إذ القاصد لولا وده فى مقصوده ما تحرك إليه ، ولو لم يتحرك إليه لم يصل . الود أصل فى تحصيل كل مطلوب ، والملل قاطع لكل مطلوب ، وآفة كل قاصد وراغب ، فهو قبيح بالجملة وأصل كل آفة وعلة . فنقول : الود هو حركة الضمير إلى المحبوب المراد والانصراف إليه ، واستصحاب الود يثبت قدم التوجه وثبوت التوجه يوصل [٦٨] إلى المطلوب المحبوب ، والمحبوب هو الله وهو الخير[1] المحض ، والوصول إلى الخير المحض هو السعادة ، واللذة والملل يمنع ذلك كله ، فالملل أقبح ما يكون فى الملل لأن الملل زوال الود ، وزوال الود يعطل التوجه ، وتعطيل التوجه يوجب عدم الوصول إلى الله تعالى ، وعدم الوصول إلى الله هو الشقاوة ، فالملل يوجب الشقاوة ، والشقاوة مكروهة وقبيحة فى كل الملل ، فالملل قبيح فى كل الملل . وذلك أن الملل هى القوانين الموضوعة على ألسنة الرسل ، وهى الشرائع الحاملة إلى الله والسعادة ، وهى طرق يسلك عليها المتوجهون ، وأصل السلوك عليها هى المحبة لله ، والوسائل الحاملة إليه ، والملل يزيل المحبة ، والمحبة أصل السلوك ، فالملل يمنع بطبعه السلوك . وعدم السلوك يوجب الشقاوة ويمنع تبعية الرسل ويصد عن الله ويؤدى إلى سخط الله ، وهذا أقبح ما يكون فى كل الملل .

فنقول : المِلَل كلها تطلب الله وتحمل إليه ، والمَلَل يقطع عن الله ، فالمَلَل قبيح فى كل

---

(١) لاحظ هـذا التعبير وصلته بكتاب « الخير المحض » لبرقلس . وراجع كتابنا « الأفلاطونية المحدثة عند العرب » ، القاهرة سنة ١٩٥٥ .

المِلَل ، إذ الانقطاع عن الله يضاد ما جاءت به المِلل ، إذ الملل تحمل إلى الخيرالمحض ، والخير المحض حسن ، والملل يقطع عن الخير ، والانقطاع عن الخير إقامة فى الشر ، والشر قبيح فى كل الملل فالملل قبيح فى كل المِلل . فاعلم ذلك · وأيضاً الود هو الميل إلى مشارٍ ما وترجيحه على غيره والأنس به ومحبته ، والمَلَل هو منافرة ذلك المشار والانصراف عنه وتركه ومحبته هى الأولى : لم تكن إلا لأجل توهم الخير فيه ، أعني ذلك المشار إليه ، إذ المحبة لا تتعلق الا بالخير ؛ والملله والرجوع عنه لم يقع إلا لعدم تعيين الخير فى ذلك المشار ، إذ الخير لا ينصرف عنه من ذاته ، فدل على أن الخير لم يكن فى ذلك المحبوب إلا بالعرض ، إذ لو كان بالذات لم يتبدل . والخير العرضى لا يكون إلا فى الأجسام ، والأجسام هى التى يعود ودها مللا . فقوله : « وإياك من الود مع الملل » نهى عن محبة الأجسام والتعلق بها إذ هى متبدلة ومنقطعة . وأيضاً : الله هو الفاعل لكل موجود والمقوم لماهية الأشياء على ما هى عليه ووجوده فى كل ماهية بما هى ماهية ، وهو المحبوب الأعظم والخير المطلوب الذى لا يطلب معه خير ولا يوجد خير سوى خيره. فلا محبوب إذاً إلا وهو المحض والمحبوب الأعظم عنده قل هو ، فلا محبة ، إذ المحبوب هو المحب بعينه ، والواحد لا يحب ذاته وهو هو . فصح من هذا أن الود وَهْمٌ قسم الوجود ورجح بعضه على بعض ورفض الحق الحاصل واتهمه عنده ، وفرض الباطل وذل تحت ذله ، وصار عبده [٦٩] فلا ود إذاً ولا ملل . فخرج من هذا أن الود خبر يشعر بالإضافة ويميل إلى مظهر لا وجود له خارج الذهن ، ولذلك وقع الملل لكون متعلق الود ليس له وجود . فالود والمَلَل خبران متوهمان فى الضمير يستران التحقيق ويعللان التصديق . ولذلك نهى عنهما . والمِلَل نُكَتٌ تقرر وهم الحاصل وتدفع وهم الباطل — فاعلم ذلك .

قوله رضى الله عنه : « والسعيد هو المصلح أعماله ، المطرح لله تعالى ماله » — السعيد هو الظافر بالخيرالمحض ، والخيرالمحض هو الله ، فالسعيد هو الظافر بالله . والظفر بالله يكون بأمرين : أحدهما بالمعرفة به والآخر الشبه ، والمعرفة به هى رفع النكرة . وقد نقول : زوال الجهل والشبه هو التخلق بأسمائه ، وزوال التوجه يكون بالتوجه والبحث وملازمة المرشد والنظر فى العلوم النافعة الموصلة . وهذا يحتاج إلى الاشتغال والملازمة والتوجه فى الأزمان كلها ، ويؤدى هذا إلى ترك البطالة ورفض الكسب

المرضى والزهد فى الشهوات العاجلة بجملتها . فترك الدنيا مقدمة صادقة فى التوجه إلى معرفة الله . والتشبه بالله هو التخلق بأسمائه كما تقدم ، وهو الاتصاف بالرحمة والعفو والمغفرة والكرم والوهبة والجود والإحسان وما أشبه ذلك . والكريم هو الذى يعطى بالمسئلة ويعطى البعض ، والوهاب هو الذى يعطى من غير مسئلة ويعطى الأكثر ، والجواد هو الذى يعطى كل ما عنده بالمسئلة وبغير المسئلة ، والعفوُّ هو الذى يعفو عن الزلات صغائرها وكبائرها . وهذا يؤدى المتخلق بهذه الأسماء إلى ترك حقوقه بالجملة والإحسان المطلق . وهذه مقدمة صادقة أيضاً فى التخلق بالأسماء . والتارك لحقوقه قد اطرح لله ماله . والمقدمة الأولى التى قلنا إنها الزهد فى الشهوات ، والشهوات من خصوص النفس وملكتها فالزاهد فيها قد اطرح لله ماله . ومن ترك حقوقه وزهد فى شهواته فقد صلحت أعماله واطرح لله ماله . ونيل الشهوات هو سبب الشقاوة ، فالزهد فيها هو سبب السعادة . فالزاهد فى شهواته سعيد . فنقول : ترك الشهوات يؤدى إلى استقامة التوجه ، والتوجه هو الانصراف إلى الله بالصنائع العلمية والعملية . والعلم والعمل الذى يوصل إلى الله حكمة ، وعمل صالح ؛ والعمل الصالح يفيد السعادة ؛ فالمتوجه مصلح أعماله ، والمصلح أعماله سعيد . وأيضاً التوجه يحمل إلى معرفة الله ، ومعرفة الله هى السعادة ، وكل عمل يحمل إلى السعادة عمل صالح ، فالتوجه عمل صالح . فخرج من هذا أن المصلح أعماله هو المتوجه لله ، والمطرح لله ماله هو الذى اطرح الدنيا وزهد فى شهواتها كلها . وهو واحد من حيث أن من توجه لله [٧٠] فقد اشتغل عن الدنيا ولها عنها ، فنفس التوجه هو بعينه ترك الدنيا . والمصلح أعماله هو بذاته المطرح لله ماله . وهذا يشرحه قول سيدنا رضى الله عنه فى « الوصية » التى أولها : « اعلم علمك الله حكمته » حيث قال : « والإضراب عن الشيء الخسيس هو بعينه الإقبال على الأمر الرئيس » .

فقد تبين لك أن إصلاح الأعمال هو التوجه لله ، واطراح المال هو ترك الشهوات العاجلة . ونفس التوجه الصادق يُقتَضَى من صفة رفض الشهوات ، ورفض الشهوات بالتوجه لله يفيد معرفة الله ، ومعرفة الله هى السعادة . وهذا تفسير قوله : « والسعيد هو المصلح أعماله ، المطرح لله ماله » .

وأيضاً : الحق تعالى ليس بينه وبين الموجودات مرتبة زمانية ولا مكانية ، وأنه مع غيره بالإيجاد

والتجديد ، ووجوده مقوِّم لوجود العبد على ما هو عليه ، فهو أقرب إلى العبد من العبد إلى ذاته ، والبعد إنما هو الحجاب الموجود فى قلب العبد ، وحجاب القلب هو مجموع صور الشهوات العاجلة وسكونها فيه . فرفض الشهوات زوال الحجاب ، وزوال الحجاب يكشف حقيقة وجود الحق فى ماهية العبد ، ووجود الله عنده هو الكمال والسعادة والرفعة . فرفض الشهوات هو بعينه نيل الحقيقة . وهذا يفسره قول الرجل الذى قال لعيسى عليه السلام حين قال له اعبد ربك وهو راقد ؛ قال له عبدته بأكبر العبادة — قال له : وما هى ؟ قال تركت الدنيا لأهلها — قال له : إذاً فنم . ويفسره قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه »[1] الآية . فاقطع حظوظك وصل عهدك ، تجد شاهدك هو بعينه مشهودك ، فافهم ذلك . وكذلك القول فى التخلق بالأسماء فإن المتخلق بالأسماء تارك حقوقه كما بينا ، وترك الحقوق خروج عن حظوظ النفس ، والخروج عن حظوظ النفس هو الظفر بالحقيقة ، والظفر بالحقيقة هو السعادة الأبدية . وأيضاً الحجاب عن الله هو النفس ، والنفس هى الأخلاق المذمومة عند الصوفية ، والتخلق بالأسماء يزيل الأخلاق المذمومة ؛ فالتخلق بالأسماء يزيل الحجاب ، وزوال الحجاب يكشف الحقيقة ، فالتخلق بالأسماء يكشف الحقيقة . فقد تبين أن إصلاح الأعمال هو التجوهر بأسماء الله .

واطراح المال هو الخروج عن النفس ؛ وهذا هو المفهوم من قولهم اترك نفسك وتعال ، وهو الفناء الذى تشير إليه الصوفية . والبقاء بعد الفناء هو ثبوت الحقيقة بعد رفع المجاز ، وظهور الوحدة الأزلية بعد رفع الغيرية . وخرج من ذلك أن الله هو وجود كل شىء ، وهو الوجود وحده . والغيرية وهم أثمره الحجاب ، والحجاب خبر الضمير عن صور الشهوات وسكونها إليه ، ولا حقيقة له من [٧١] خارج الذهن — فاعلم ذلك .

قوله رضى الله عنه : « ولا تخالط إلا من قامت به الأوصاف المذكورة قبلُ إن استطعت ، وإلا الأمثلَ فالأمثلَ » — الخلطة هى المعاشرة والممازجة . والأوصاف المذكورة قبل هى ماذكره من أول العهد إلى هنا من الكمالات وأسبابها ، والتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية ، ومعرفة العلوم

---

(١) سورة « النازعات » آية : ٤٠

الضرورية والأعمال ، وفهم علوم الحكماء وتحصيل الحقيقة الجامعة ، والدخول تحت أحكام الشرع بالجملة وما أشبه ذلك مما قد فرغ من تفسيره . فهو يقول : لا تخالط من الرجال إلا من قامت به الكمالات كلها وعرف أسبابها وتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية ، وتصرف بما يجب واتصف بالحكمة التي تميد الصورة المتممة والمقوّمة ، ودخل تحت أحكام النبي عليه السلام من كل الجهات ، بمعنى ظهرت السنة المحمدية عليه علماً وحالا وذوقاً وفصلا ووجوداً ، ويكون وارثاً على الحقيقة وعرف العلوم الضرورية والأعمال الواجبة وعلوم الفلسفة كلها وحصل الحقيقة الجامعة لكل شيء ، وعلم التحقيق الذى لا ينال بالكسب والاجتهاد ، ولا يشذ عنه شيء ولا يفقد منه ما هو موجود في غيره. وبالجملة، كل شيء موجود ومعلوم يوجد عنده حاضراً بالقوة والفعل ، وهذا لا يكون في العالم إلا نبيه رضى الله عنه وهو الذى قامت به هذه الأوصاف ؛ فكأنه أحالك على نفسه وأحال العالم على ذاته ونبههم عليه. ولما كان مطلوب العالم هوالخير المحض والسعادة الثابتة، والخير المحض هو الله ولا يوجد في غيره وإن وجد فهو له ومنه ، أو هو في المظاهر مجازاً وفيه حقيقة ، وهو فيه وبه له من حيث إليه يرجع الأمر كله ، فالله هو الخير المطلوب على الإطلاق للعالم كله . فالوجود الممكن طالب للوجود الواجب بالذات ، وخيره ولذته ووجوده في الواجب . فالعالم كله طالب لله ، والله لا يظفر به ولا يوجد ولا يعلم ويعرف إلا بالنبي عليه السلام ، فصار النبي — صلى الله عليه وسلم — هو مطلوب العالم ومقدمتهم ودليلهم إلى السعادة والخير . والنبي — صلى الله عليه وسلم — لا تعرف ماهيته وحقيقته وكماله وجلالته إلا بالوارث ، والوارث هو المحقق ، وهو الكامل ، وهو الوسيلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والعارف به . والنبي — عليه السلام — هو الوسيلة إلى الله والعارف به ، والله هو مطلوب العالم . قال لك : لا تخالط إلا الوارث الذى هو شرط في الوصول إلى النبي عليه السلام ؛ والنبي عليه السلام شرط في الوصول إلى الله عز وجل ، والوصول إلى الله عز وجل هو مطلوب السعداء والعقلاء ، فالوارث هو مطلوب العقلاء والسعداء ، والوارث هو المحقق، [٧٢] فالمحقق هو المطلوب للسعداء والعقلاء بأسرهم. لأنا نقول: العقلاء يطلبون السعادة واللذة الأبدية ، والسعادة واللذة الأبدية لا توجد إلا في معرفة الله ، والوصول إلى الله لا يكون إلا بالنبي — صلى الله عليه وسلم — والنبي لا يعرف إلا بالوارث ، فالله لا يعرف إلا بالوارث، والسعادة لا تحصل إلا بمعرفة الله، فالسعادة لا تحصل إلا بالوارث . والعقلاء يطلبون السعادة ، فالعقلاء يطلبون الوارث ، ويحتاجون إليه ، والوارث هو

المحقق ، فالعقلاء يطلبون المحقق ويحتاجون إليه بالضرورة . وهذا هو معنى قوله رضى الله عنه : « الكل من أصحابنا » ، وقوله رضى الله عنه : « الوقت والجهاد سبعينية لا غير » لما رأى من إحاطته وإفراط اضطرار العالم إليه .

ثم نقول : الحق هو الخير المحض ، والعالم كله يطلبون الخير ، والنبي صلى الله عليه وسلم شرط ضرورى فى وصولهم إليه ، والوارث شرط فى الوصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فالوارث شرط فى وصول العالم إلى الخير ، والعالم يطلبون الخير ، فالعالم يطلب الوارث ، والوارث هو المحقق ، فالعالم يطلبون المحقق ويحتاجون إليه بالضرورة .

ثم نقول : الله يعطى خيره وإحسانه للوجود الممكن كله ، والنبي صلى الله عليه وسلم هو الواسطة الذى يوصل خير الله وإحسانه ، والوارث هو الواسطة الذى يأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ويفيض على العالم ، فالوارث هو الفياض على العالم بالجملة ؛ والعالم يقبل الخير ويناله ، وكل ماهية يصلها منه بقدر نصيبها ؛ فالعالم يقبل من الوارث فى كل زمان . وكل ماهية يصلها منه بقدر نصيبها وما جعل فيها من المقبول . فما من ماهية تقبل خيراً إلا والوارث هو معطيه لها بالذات ، والوارث هو المحقق ، والمحقق هو المدبر للعالم بالذات ، فمن كفر به فقد جحد نعمته ، ومن جحد النعمة شقى أو منكر لأصله . وهذا هو المفهوم من قوله رضى الله عنه : « أنا هو الوجود ، فى كل مكان أنا » ، وقوله لابن غيلان : « والله ما يجرى منكم إلا مجرى الدم » . وقوله فى « الفتح المشترك » : « والمقرب هو عين الخير وكل الكون ومالك كل لون » . وإخراج الأدلة من كلامه على هذه المرتبة ونصوصه التى نعلمها ونخرجها من كتبه يطول علينا ذكرها ولا يسعها هذا التقييد . وهذا فيه الكفاية فاقتنع به . — فلما رأى تلك الأوصاف يحتاج إلى معرفتها العاقل ولا تنال إلا من الرجل الجليل الحامل لها أحالك على الحامل لها ، ولا يحملها على كمالها إلا هو فأحال العالم على ذاته وهو الحق ، وهو مفهوم من قوله فى « التوجه » : لو أنصفت لسعد العصر وأهله ومهد وعر العلم وسهله . ويفهم من هذا الكلام أن [٧٣] من لا ينصفه يشقى . ولما علم أن العقول العادية لا تفهم منه القبول فى غير زمان ولا تعرف اتصاله بالذوات ولا تقدر على الاستفادة منه فى عالم الذوات المجردة ، ولا تدرى إلا المشافهة والتعليم باللسان ، وذلك لا يكون إلا بمباشرة مظهره الجسمانى ، ومظهره الجسمانى لا يمكن أن يعم أفق العالم ومساحته ، ولا يمكن العالم باتساع مقداره أن

يجتمع كله عند مظهره الجسمانى ، فخلص مظاهر كثيرة وبددها فى الكون وأحال عليها فقال : إن استطعت الاتصال إلىّ ومباشرة مظهرى فهو الأولى ، وإلا عليك بالأمثل فالأمثل ، يعنى القريب إلىّ بهذه الكمالات ، والعارف بها والذى عنده منها نسبة فهو منى ويقرب إلىّ . وكذلك تتنزل من القريب إلى القريب أيضاً إذا لم تجد المظهر القريب . فكلها مظاهره ، إلا أنه يظهر فيها بحسب أنصبتها . ومثال أولاده معه مثل ما ضرب لنا من مثاله مع النبي صلى الله عليه وسلم : فإنك تجد النبي صلى الله عليه وسلم هو الرتبة الأولى اللازمة للحق تعالى . والمحقق الوارث هو اللازم للنبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك الوارث المحقق هو لازمه والعارف به ، وكذلك وارث الوارث . وتنزل بالتحليل إلى أدنى الرتب ، وتطلع بالتركيب إلى أقصاها . وخذ العالم نظاما واحداً ، والرتب الجزئية أجزاء ماهية الرتب الكلية — تجد الرتب بعضها فى بعض ، و بعضها أعم ، وبعضها أخص ، وكلها ترجع إلى الله الذى هو النظام المطلق فى الكل والمحيط بالكل . والمحيط الثانى النبى صلى الله عليه وسلم . والثالث المحقق ، وكذلك وارثه محيط رابع ، وكذلك تنزل إلى أدنى الرتب وتعقل المحاط به فى جوف المحيط . وهذه المراتب قد بينتها لك وكشفت لك أمثلة النظام القديم وحقيقة الوجود واتصال النسب ، وبينت لك أن الشيخ لم يفارقك قط ولا فارقته ، وكذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الحق تعالى إن فهمت الذوات والرتب المذكورة مجردة عن الزمان والمكان . افهم أن المحاط به فى جوفه المحيط ، وانزل بالتحليل إلى المركز الأدنى واطلع بالتركيب فى الإحاطات والذوات إلى المحيط الأعلى ، وفضّل الرتب بعضها على بعض بحسب قربها منه ، وانسبها فى الإحاطة والاتصال ، ولا تفهم منه الاتصال الجسمانى واجتماع جوهر مع جوهر ، وإنما هو اتصال مفارق للمادة ونسب الرتب المعلومة التى ليست بأجسام ، وإنما هو روحانية مفارقة . وهذا هو المفهوم من قوله رضى الله عنه فى آخر « الفتح المشترك » : و « كلمة الحق منوطة بالأنبياء » . وأرواح أصحاب المحقق منوطة به ، والإخوة منوطة بهم بحسب نسبتهم ، ومن شروطها أن يضاف القوى للضعيف [٧٤] وأن يفرق المثل من المثل ، فافهم القوى والضعيف بما ذكرته لك من المحيط والمحاط به وقس بهذا الكلام ما ذكرته لك من النسب أعنى من اتصال النسب بعضها ببعض ، وعلوها بعضها على بعض . وهذا تفسير قوله رضى الله عنه : « ولا تخالط إلا من قامت به الأوصاف المذكورة قبل إن استطعت ، وإلا الأمثل فالأمثل » ، فافهمه والله يفهمك بمنه وكرمه .

قوله رضى الله عنه : « وحبيبك من يدبر أمر آخرتك ويعينك عليها ويذكرك بها ويهجرك ويصلك من أجلها » — الحبيب هو الذى تتعلق به الإرادة وتنصرف إليه همة المحب وتميل إلى محبته تأكيداً . أو نقول : الحبيب هو الذى غلبت صفاته على قلب المحب وانطبعت صورته فيه مجردةً ، ومنعه ذلك الانطباع من قبول صورةٍ غيرها ، ونقول : الحبيب هو الذى يملك حسنه وكماله قلب المحب وجملة عوالمه وأبقى منه صفاته ونعوته حتى يظهر الحبيب فى ذات محبه وجملته . ولذلك رسم المحبة عند الفقراء : اتحاد النعوت . والتدبير هو التصريف فى الشىء المدبر ، ونقلته من الأحوال التى هو فيها إلى أحوال أجل منها . ونقول : التدبير إخراج كمال الشىء المدبر من القوة إلى الفعل . أو نقول : التدبير زوال صفات النقص من المحل المدبر ، وإقامة الكمالات بدلها فيه . والآخرة هى الدار التى يسكنها الإنسان بعد الموت . ونقول : الآخرة هى الرتب التى يرتب فيها الإنسان بعد الموت . ونقول : الآخرة خروج النفس الإنسانية عن الأعراض المادية ودخولها فى الأعراض الروحانية . ونقول : الآخرة انفصال النقص من الأكوان المتبدلة واتصالها بالذوات الثابتة . ونقول: الآخرة بحسب مذهب الصوفية هى انفصال الإنسان من صفات النقص واتصاله بصفات الكمال . ونقول : الآخرة بحسب مذهبهم ترك الصوفى صفاته وأخلاقه ، والتجوهر بصفات الله وأسمائه . ونقول : الآخرة عندهم هى الفناء عن الهوية الحادثة والبقاء بالآنية القديمة . ونقول : الآخرة عندهم ذهاب الآنية المجازية وثبوت الهوية الحقيقية . ونقول: الآخرة عند بعضهم زوال <الحجاب> (١) وكشف الحقيقة . ونقول : الآخرة رجوع الوجود المقيد للوجود المطلق . ونقول : الآخرة استحقاق الوجود المقيد للوجود المطلق . ونقول : الآخرة استحقاق الوجود الواجب للوجود الممكن وأخذه ماهيته وإعطاؤه لها به لا بها . ونقول : الآخرة هى رد الأمانة وإسعاف [٧٥] السلام ، وإنصافه فى رد السلام ونيل السلامة . ونقول : الآخرة فصل معلل وعهد مدلل وكمال مرسل ، وتأخر تقدمه لم يزل ، ونظام جامع وغيور على حقه ، ومقيم على رتقه ، ومناد يجيب نفسه ، وعالم يعلم عزه — فافهم والزم والله يفهمك بمنه وكرمه .

---

(١) بياض فى الأصل .

والإعانة هي الإقدار على الشيء . والمعين هو المقدر عليه . والتذكير هو التنبيه على أمر سكت . والتذكير كشف ما كمن في النفس . والهجر قطع مواصلة المحب . والهجر هو ترك إسعاف الطالب . والوصل هو انعطاف المحبوب على محبه . والوصل جبر المنكسر ومواصلة المقطوع . ولما كان الإنسان حيواناً ناطقاً ، والإنسان مكلف ومطلوب ، وهو من حيث هو حيوان يدبر ويختار ويجذب الملائم ويدفع المنافر ، كان له كل ملائم حبيباً وكل منافر عدواً . ومن حيث هو عاقل وطالب للسعادة ومكلف بمعرفة باريه وبالعمل على الوصول إلى جنته وتحصيل رضوانه وهو ذو نفوس كثيرة وذو شهوة حيوانية ومطالب روحانية — فمن حيث شهواته الحيوانية يطلب الدنيا ويحب الملائمات المحسوسات ، ومن حيث نفسه الناطقة وعقله يطلب الآخرة ويميل إلى الخيرات الدائمة ، وهو قابل للتدبير وذو أدوات تكفيه في نيل ما يريده ويختاره من الأمور ، وعاجز عن إخراج ما في قوته إلى الفعل ، ومفتقر إلى العلم والمعين على تحصيل مطالبه . فلا بد له من المرشد الذي يهديه إلى نيل الخير ، ويعلمه كيف يحصله،وبماذا يحصله . فخير الدنيا لا بد له من معلم يعلمه الصنائع والأسباب التي تحصل بها الدنيا ويدربه ويعينه ويدبره حتى يشتغل بذاته في كسب دنياه وتحصيل شهواته العاجلة . وكذلك يحتاج في تحصيل الآخرة إلى المعلم والمرشد والمفيد الذي يدبره ويهذبه ويبين له الطريق الجادة المحصلة لرضوان الله وإلى جنته وإلى معرفته حتى يكمله في ذلك ويوصله إلى حيث يستقل بذاته في عبوديته . فالإنسان إذاً له مدبران : مدبر الدنيا ومدبر الآخرة . وهو يحب الخير ويميل إليه من صفة نفسه ، ويحب الوسائط التي توصله إلى الخير وتعلمه طريقه وتعينه على تحصيله . فهو يحب مدبر الدنيا ويحتاج إليه ، ويحب مدبر الآخرة ، وبحسب ما غلب عليه طلب إحداهما يغلب عليه حب وسيلة ذلك المطلب ، وإن كانتا متساويتين في خلده يستوى حب الوسيلتين بحسب ذلك. فله إذاً مدبران ، وكل مدبر له منهما هو والد له ، ومدبر له ، وله عليه حق ، وله في قلبه محبة، وفي نفسه مودة ، فصار والد الدنيا ومدبرها والد الجسماني منه ، ومدبر الآخرة والد الروحاني . ولما كانت الدنيا ذاهبة ومنقطعة وغير باقية كان [٧٦] خيرها بالعرض ، ولما كانت الآخرة دار البقاء والقرار والدوام الذي لا انقطاع له كان خيرها بالذات . وهذه دار يرحل منها في أيسر وقت ، ويذهب نعيمها . والآخرة يقام فيها ويثبت ولا يفقد نعيمها أو ضده .

قال الشيخ رضي الله عنه : « وحبيبك من يدبر أمر آخرتك » — معناه الذى تحتاج أن تتخذه حبيباً وتعتمد عليه وتتبعه هو المدبر للآخرة ، ومدبر الدنيا لا تعتمد عليه ولا تتبعه ولا تلازمه بالجملة ، وإن أحببته فتحبه بالعرض ، كما أن خير الدنيا الذى كان هو سببها بالعرض ، وإن كان يحضك على ترك الآخرة أو يوقع عندك الفترة منها ، فلا تحبه بالجملة ، إذ هو عدوك بالمعنى . فإن أحسنت له وتبره فيكون ذلك فى الظاهر مكافأة لتربيته الأولى ومراعاة لصحبته ، وفى الباطن لا تحبه ولا تأخذ عنه ، وتصاحبه بالمعروف الجارى بين أبناء الدنيا ، وتنفصل عنه باعتقادك ومذهبك وعلمك . كما قال تعالى : « فإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ »(١) فالله سبحانه قد أمرك بمخالفة الأب الجسمانى الذى لا يحض على الآخرة ، وأمرك باتباع الشيخ الذى يدبر الآخرة ويحض على الله وعلى معرفته ، فاعلم ذلك ولا يخدعك وهم الظاهر وتحمل الآيات على غير مقاصدها وتسمع ما جاء فى الوالدين من النصوص وتعتقد أنهما تحض على طاعتهما من كل الجهات وأن مخالفتهما لا تجوز بالجملة ، ويحملك ذلك إلى ترك السعادة والتفريط فى جانب الله فتهلك وتقول على الله مالا تعلم . وإنما أراد بذلك مبرتهما والإحسان لهما فى حق التربية والصحبة . فإذا عارضهما القصد الإلهى وطريق الآخرة والسعادة وأداء حق الله تعالى — تغلبه عليهما من كل الجهات ، ولا تنظر إليهما فيه . وافهم قوله تعالى « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . . » الآية(٢) وقوله فى حق إبراهيم عليه السلام « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه »(٣) ، وقوله تعالى لنوح عليه السلام : « إنه ليس من أهلك»(٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل أحد حقيقة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله » — الحديث وقوله : « سلمان من أهل البيت »(٥) . وهذه الأهلية ليس هى من النسب الحسى وإنما هى من القصد الإلهى والدين والأبوة الروحانية . فإن كان كذلك ، فصح أن المعلم المعين على الدار الآخرة والمدبر لها هو الذى ينبغى أن يحب ويلازم ويتخذ رأيه وفعله ويجعل قدوة ، وهو قول سيدنا رضى الله عنه فى بعض

---

(١) سورة « لقمان » آية ١٥ . (٢) سورة « التوبة » آية : ٢٤ .

(٣) سورة « التوبة» آية ١١٤ . (٤) سورة « هود » آية ٤٦ .

(٥) الصيغة المشهورة هى : « سلمان منا أهل البيت » — راجع كتابنا : « شخصيات قلقة فى الإسلام » ص ١٦ — ص ٢٠ . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

« الألواح » : « ما عظم الحكماء مشايخهم وفضلوهم على الآباء إلا لكونهم كانوا سبب الحياة الباقية ، والآباء سبب الفانية » . إلا إن كان الأب من كل الجهات ، وهو الذى أراد بقوله هنا : « وحبيبك من [٧٧] يدبر أمر آخرتك » — تقديره إن كنت عاقلا وسعيداً فلا تحب إلا من يدبر آخرتك لكونك تحتمل القبول لمحبة الدنيا ومحبة الآخرة ، وفى ماهيتك ذلك ، إذ أنت مجموع من الروحانى والجسمانى ، وكل قسم منك يطلب نوعه . فأمرك أن تضرب عن النوع العرضى وتهمل وسائطه ، وتخصص الذاتى وتحب وسائطه ووسائله . وقد نقل عن المسيح — صلى الله على نبينا وعليه — أنه قال : « لن يلج الجنة من لم يولد الولادتين : يعنى الروحانية والجسمانية » . ولا نظنّنّ أن الإشارة هنا بذكر الولادتين لما يخصص الدنيا والآخرة ، وإنما علم أن الولادة الأولى التى هى الجسمانية متقدمة بالطبع فى ماهية الإنسان ، والروحانية متأخرة عنها فى ذاته ، وأن النوع الإنسانى محمول على الولادة الجسمانية بالنظر إلى ترتيب العالم من حيث الجزئيات ، فإنه ما يكون عاقلا إلا بعد ما يكون حياً ، ولا يكون إنساناً إلا بعد كونه حيواناً ، وأن النفس الناطقة محمولة على النفس الحيوانية ، وأن الولادة الأولى قد صحت لها وفرغ منها ، وأن الجنة لا تنال إلا بإدراك الروحانى ، ولا توجد إلا فى عالمه ، وأن السعادة والكمال والدوام لا تكون إلا فى معرفة الله والقرب منه ، وأنه لا يعرف إلا بالجوهر الروحانى المفارق للمادة . فنبههم بعد وجود الولادة الأولى على الولادة الثانية وحضهم على الانفصال من الأولى ، وأعلمهم أن الجنة فى الولادة الثانية وأن الكمال هناك . فكان ذكره للولادتين تنبيهاً على الثانية التى بها سعادتهم ، وذكر الأولى لكونها موجودة عندهم ولا يعرفون إلا إياها وعرفهم أنهم إن وقفوا معها لا يدخلون الجنة التى هى فى الولادة الثانية ، ونبههم على صفاتهم الأولى ومَبدَئِهم الأول ، فاعلم ذلك ولا تتوهم أن لفظه يقتضى تخصيص الاثنين ، وإنما أراد به تخصيص الثانية الغائبة عنهم — فاعلم ذلك . وقد تؤخذ من الأسماء المشتركة وتطلق الولادة بتشكيك وتصرفها باستعارة الألفاظ إلى الولادة الواحدة الروحانية التى فيها سعادة الإنسان وكماله وفى أبوته من حيث الإفادة ، وتجعل الولادتين من أجزاء ماهية النسبة الواحدة والعالم الواحد المفارق ، وتجعل الولادة من حيث تولد الشىء عن الشىء من جهة السبب والمسبب ، لأن الإنسان فى التوجه إلى الكمال يحتاج إلى عمل جسمانى وبحث روحانى ، وهو سبب الاثنين ،

وهما متولدان عنه وصادران منه وإليه يكون الوصول بهما . فكانت معرفته بذاته ووصوله إليها نتيجة عن المقدمتين اللتين هما العلم والعمل : فمن حيث هو نتيجة سمى مولوداً ، [٧٨] إذ المولود نتيجة الأبوين فى الظاهر ، وهما سببان له ومقدمتان . فلما كان تجريد الإنسان وإدراك حقيقته نتيجة عن العلم والعمل ، كان العلم والعمل شبه الأبوين ، وكان هو شبه الابن الذى هو نتيجة عن المقدمتين. وفى معرفته لذاته وإدراكه لها كانت جنته وكماله ، فقال : « لن يدخل الجنة من لم يولد الولادتين » معناه من لم تظهر ماهيته وتحصل له حقيقته بالسببين : العلم والعمل ، إذ هما شرط فى خروج الإنسانية من القوة إلى الفعل ، وخروجها من القوة إلى الفعل هو الجنة ، وهو الكمال . وقد يكون أراد به إدراك حقيقة المبدع الأول والتجوهر به والاستيلاء على خاصيتى الإفادة والاستفادة ، وتكون الولادتان فى ماهيته الواحدة ماهيته ، فإن المولود هو الصادر عن الشىء ، ويكون والداً من حيث يفيد لغيره وتتولد عنه النفس الكلية وما بعدها ، فهو والد مولود معاً ، ويكون له شرفان : شرف النسبة والخلافة فى التصريف والفيض على غيره ، وشرف القرب من المبدع الأول وقبول الزيادة منه والنظر إليه — وهذه سعادة عظيمة ورفعة،فقال: « لن يلج الجنة من لم يولد الولادتين »: معناه من لم يصل إلى هذه المرتبة ، وهذا الجوهر هو المخصوص فهذا الشرف عظيم .

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذى أردناه فى التفسير ولكن هو منه وداخل معه بالمعنى ، فنرجع فنقول : الحبيب حقيقةً هو الذى يدبر سعادة الإنسان فى الآخرة ، ويتمم جوهره ، ويخرج ذاته الروحانية من القوة إلى الفعل ، ويستدرجه بالصنائع العلمية والعملية و الأحوال الكسبية والخلقية حتى يبلغه إلى غايته ، ويعطيه كماله وحقيقته التى لا يمكن أن يزاد فيها وينقص منها ؛ وهذا هو مطلوب السعداء . والذى يفعل لهم ذلك هو الذى يتخذونه محبوباً وقدوة ووالد إفادة ودليلا إلى الله ووسيلة إليه ؛ وهذا هو الشيخ . فالمشايخ هم الآباء حقيقةً ، وهم المحبوبون لذوى العقول الراجحة والنفوس السعيدة . وأكملهم فى ذلك وأولاهم بذلك الوارث المحقق الذى هو والد المشايخ والمريدين وقدوة المفيدين والمستفيدين ، وهو الذى قامت به الأوصاف المذكورة قبل ، وهو الذى ذكرنا فى تفسير المسئلة التى تقدمت قبل هذه التى فيها قوله : « ولا تخالط » — فهو المحبوب للكل

والكامل حقيقة . وأما قولى لك هو شيخ المفيدين والمستفيدين — فقد فسرته لك فى المسئلة المذكورة قبلُ حيث قلت إن كل آنية محاطة ترجع إلى آنية محيطة ، ويرجع كل محيط ومحاط بالتركيب إلى الإحاطة الكبرى التى هى الوارثة المذكورة قبلُ . فهو إحاطة الإحاطات ومفيد المفيدين والمستفيدين [٧٩] وشيخ المشايخ والمريدين ومحبوب المحبين والمحبين — مثال ذلك فى العقول أن تقول . . . (١) .

(١) إلى هنا ينتهى الكلام فى المخطوط وقد شغل آخره سطرا واحدا من الصفحة ٧٩ وباقى الصفحة أبيض ، مما يدل على أنه كان فى الأصل المنقول عنه نقص فوقف عند هذا الحد . وليس النقص إذن فى مخطوطتنا هذه ، بل فى الأصل الذى أخذت عنه .

كتاب الإحاطة

[٤٤٤] بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

كلامُ مشيرٍ بوجه ما يشبه كلام البشر ، وإشارة ناصح فى كل الوجوه يعقل قدر الأثر . قلت إن كان تحصيل الكمال الإنسانى والمقصد الأقصى والشىء الذى هو من قبيل الشىء الذى ينال بعد نيل الشىء الذى يشترط فيه سر المسجد الأقصى ويخطف بعد عجز النهى ، ويقطف من شجرة « وإن إلى ربك المنتهى »(١) لا من شجرة طوبى وسدرة المنتهى مما يمكن فى الإنسان من غير أن يبحث عنه بالعلوم العلمية والعملية ويقتصر على تصوره وتصديقه ، وعلى مايتم ويقتضى فيها ولا يمتحن نفسه وعادته بالحكمة التى تقبل المعنى النافع حسب مايعطيه ويقتضيه طبيعة البرهان ، ويصح له بها مايجب كما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب ، ولا يكون بالجملة باحثاً ولا متألهاً فهو — والله أعلم — فى الانصراف إلى ما يجده الإنسان من نفسه ومن القوة الشاعرة بالقوى التى فيه المتوهمة التى تنصرف إليها المعلومات والمدركات كلها ؛ وهى مثل الكليات التى إحاطتها بها ، وكالمركز بالنظر إلى جذبها إياها ، وكالصور المقومة بالنظر إلى وجودها معها ، وكالصورة المتممة بالنظر إلى اعتبارها . فالسعيد الظافر بها . وهذه القوى ترجع إلى قوة تسمى الكاملة الجامعة المانعة المحيطة بكل ما يتوهم أو يتحقق أو يتوسط فى أمره ، وهى المعنى المشار إليه والمعول — بحول الله تعالى — عليه . — وأول تلك القوى هى

[٤٤٥] القوة النزوعية الجاذبة الدافعة ، وإن شئت قلت : الإرادة وقوة التعلق التى تربط فى الوهم الصفة بزائد على المحل وتكون داخل الذهن وخارجه ، وإن شئت قلت : الإدراك والقوة المحدثة التى يتكلم بها الضمير وتتأتى بها المخاطبة فى الخلد ، وهى لسان الوارد والإلهام وبعض أنواع الوحى ، وهى الهاتف أو محله بوجه ما ، وإن شئت قلت : المفصلة والخبر ؛ فإن جميع ذلك يرجع إليها ،

---

(٢) سورة « النجم » آية : ٤٢

وقوة الملكة وهي المعرفة والمحركة والباردة والمسكنة ؛ وإن شئت قلت القدرة والحيلة محمولة فى جميعها أعنى القوة المذكورة ، غير أنها عارضة لها أو شبيهة بالعارض بالنظر إليها مجردة ومن وجه وجودها الرسمى فقط . وتلك القوة المتقدمة التى قلنا إنها جامعة مانعة محركه ، ولا تحرك ، وتحرك وتحرك بجهة وجهة ثم تحرك ولا تحرك ثم الجميع ، ثم تكون لا ساكنة ولا متحركة ، وهى التى تنزع وتدرك وتخبر وتقدر وتحد ، والذهن فيها وبها كأنه محيط بها بثبوت غير معين ، ولا يمكن أن يكون معها شيء : لا قبل ماهيتها ، ولا بعد ماهيتها ، ولا مع ماهيتها ، بل لا يمكن أن يفرض فيها القبل والبعد والمعية . وجميع هذه القوى هى التى يجدها الإنسان فى ذاته خاصة ، فدع عنك هذا البحث عن النفس الجزئية والكلية وعن العقل الكلى وعقل الكل والعقول الثوانى والذوات المختلف فيها بين المشائين وغيرهم وبين الشرائع والنواميس الوضعية وسائر المذاهب ، والروح الكلى على مذهب الصوفية ، والمراتب [٤٤٦] المتوجه إليها على رأى بعض أهل الحق ، وبالجملة الروحانى والجسمانى ، فجميع ذلك إليها ينصرف وهى له كالأنموذج أو (١) كالهيولى بوجه ما عند الضعفاء وهى الكل عند القوىّ المدرك . ثم إذا نظر إلى ضميره وصرف الأربعة المذكورة إلى القوة المتقدمة المحيطة بالكل ، وكذلك يفعل فى جميع أموره الواجبة واللازمة والعرضية ولا يترك شيئاً من المعلومات الأربعة : أعنى الواجب والممكن والعدم والمحال ، وجميع ما أدركه الحس أو تطرق إليه الوهم أو دل عليه الدليل أو علم بالبديهة ، ولا الوجود المطلق والمقيد والمقدر إذا أراد أن يقف على الحق ويعاين مرغوبه بعين كماله ويظفر بكماله وحقيقته إلا صرفه إليها فتأنس بصيدها بالشَّرك الذى رسمنا فى « التوجه » و « الفتح المشترك » و « الرسالة الرضوانية » . ومما ينتفع به تصور الحياة السارية فى الموجودات والسكون المستند إلى الوجود وإلى وحدته .

فإن تأنست ، وإلا تأمل الذات العرية عن المادة صحبة سكينة وأشخاص ، ثم الثبوت بها بشيء لا كالمستند إلى الشيء ولا كالمرتكز فيه ولا كالمربوط عليه ولا كالملتحم به ولا كالحالّ فيه حلول الماء فى الإناء ، ولكنه وجود يسيل ولا يقف ، ويستمر ولا يختلف ، ويشار إليه صحبة مجموعة الأول والآخر

---

(١) ص : أم .

والظاهر والباطن إشارة من شخص فيه فكان ثم كان ولا مكان ، ثم كوّن المكان ودبّر الزمان .

فإن تأنست ، وإلا أكثر من فرض الاتحاد بالقوة الوهمية مع علمك بأنه لا [٤٤٧] يصح في الواحد من كل الجهات لكنك تنتفع به وبه تخضع القوة المعللة إلى قوة الخبر في قوة التحقيق . وتلك القوة المعللة مع التحقيق كالقوة الخيالية مع العقل والبرهان في العلوم النظرية ، فإن العقل يقطع بالمعلوم ويحصره ، والخيالية تتحرك وتطلب ما وراء المنحصر ، واختبر ذلك بما وراء العالم وبالخلاء والملاء وما أشبه ذلك ولا تساعده من صفة نفسها . وفائدة الاتحاد ضبط النفس بغبطة ما وهمية ، عسى أن تقل حركتها وتنفد مباحث عادتها وتفرح بذاتها ، ويصح لك الشعور في الضمير بالوحدة المخطوفة بالقوة النازلة من القصد إلى فيض الهوية التي يلحقها الحق المفروض المسمى بالروح والواسطة والرب المألوف والصفة ، كما يلحق الحسنُ الصورة .

فإن تأنست ، وإلا فاجعل إهمال البرهان الصناعي والأقيسة الصناعية والنفسانية وجميع أنحاء المقدمات التي ما بين الناس والقضايا الحملية والشرطية — مقدمة ، والتوحيد الذي لا يصح معه توحيد بل يكفر به توحيد من لا يعلمه ، نعم ! وبواحد وموحده وتوحيده — مقدمةً أخرى ، ويكون الحد الأوسط هنا خير الأمور ، والأصغر الوقار ، والأكبر التفريد ، والنتيجة الغبطة ، والقياس الاستخارة ، والبرهان انتظار الفتح . فاصبر على هذا الاصطلاح بقدر ما يظهر لك بالوهم بسلب السلب وإيجاب الإيجاب ، بل بسلب [٤٤٨] الإيجاب وإيجاب السلب ، أو تترك الجميع محبة ثبوته ولا تهمل ما تجده من جهلك بنفسك ولا تخف من جنونك في هذا الوقت فإنه عالم أكمل ، وهو الذي يسمى أكبر في كل لحظة وعند ما تذكّر صورة هناك وبه تصل .

ومن صفة نفس هذا العالم الجهل بالأول والجهل بما يحتوي عليه .

فإن تأنست ، وإلا تصفح أحوال الملة وأحوال وضعها وأهلها وخذ نفسك بالتقليل فيها لا بالتصريف ، لأنك تريد أن تنال الإدراك المتوحد الذي لا ينال بزائد عليه وهو مدرِك ومدرَك معاً من كل الجهات .

فإن تأنست ، وإلا فافرض على وهمك تصور الفيض لكى ينقطع عنك الاستناد العلمى وتتصل بالصورة الحاضرة . فإذا وقفت هذا الموقف ولاحت لك نكتة الاتصال ، فاصرف الفيض إلى الوهم والصورة إلى أوله والحضّ إلى آخره والوقوف والاتصال إليك تجد [1] أنك ما غايرت ولا غُويِرْتَ ، ولا تثبت على هذا الحال . وانظر فإنك أكبر .

فإن تأنست ، وإلا فارحل إلى رجل يدبرك بخواص الأسماء القائمة به . فإن نلت ما تريد وإلا فارحل إلى غيره يدبرك بالتصريف ولا تقبل العبارة فى هذه المرتبة ولا الإشارة ولا اللطيفة ولا الدقيقة ولا الحقيقة إلا من جهة الشعور خاصة والنصيب الإلاهى . ولا تقل : نعلم الوجود ونحيط [٤٤٩] بالموجودات ، بل تقول : نجد الوجود ونتصرف فى الموجودات ونحتاج أن نصل إلى دار — يستجيب فيك الجميع ويكون المخالف عندك أكثر من المألوف وتتبع ذلك حتى يكون الأمر بالعكس ولا تقنع حتى تجد الذوات المجردة من تطورك والممكن من وهمك والمحال من خبرك والواجب عينك والرب المألوف حرفاً [2] من حروف دينك الذى فَرَضته لا الذى فُرِض عليك فقد كان ذلك ونسخ بالمضمار ، وعاد كلامُه عز وجل افتقارَك إلى تعيُّن ماهيتك حالا وخبرا ، ومشاهدته بسكون أخبارك هُوِيَّة وآنِّية ، وتوحيده وقوفك على رشدك الثابت المعصوم بوجه ما .

فإن تأنست ، وإلا فاعلم أن أمرك من فوق التصرف والعلم الثانى والثالث الذى لا حاجة للمقامات فيه ولا مدخل ويجد عند الخواص ، نعم وعن الأسماء الحسنى فإن المقامات لا تصح مع جميع الموجودات فى وحدة محضة ؛ ولذلك الخواص لا تفرض فى معنى فينعكس قبل فرضه ويتنوع من ضفة نفسه من حيث يثبت والمعلوم من كل الجهات لا اسم له يميزه عن غيره فإن ذلك ممنوع . فقل لا حاجة لى بالصورة ، ولا منفعة فى التوحيد ، ولا خير عندى فى الفيض ، ولا سعادة فى الحلول ، ولا فائدة فى الاتحاد ، ولا شوق إلى مقام ، ولا غبطة باسم يغاير أو يتردد فى أمره ولا يحتاج إلى

---

(١) ص : وتجد .

(٢) ص : حرف .

خاصة ولا إلى الخواص الذين أحوالهم منحطة وأحكامهم واقفة . فإن الحق قبل ذلك كله ، بعد ذلك كله ، عند ذلك كله ، عند آخر ذلك كله . — وسلم على ابن العريف [١] وعرفه لا بتعريفه وخطه على عريفه ونكرة معرفته وكفر معروفه وسرى معرونه وسد [٤٥٠] معارفه . ثم انظر إلى الإحاطة ، وتأمل ما فيها ، وحرر القول فيها . وعندك أن تحصيل الحاصل محال ، والعدم من كل الجهات لا يَظفَر ولا يُظفَر به ، وأن قولك الحق والوجود والشيء والأمر والذات وما أشبه ذلك من الأسماء المترادفة مع الاحاطة ؛ وقد يقال معها بتواطؤ ، بل هي الكل وإن صح أن يقال كل الكل والعموم والخصوص والفرد والزوج والعدد والمعدود ثم غير ذلك من حيث هي ذلك . وبالجملة افرض أن المطلوب في شيء واحد ليس إلا وهو واحد وأكبر من أن يقال له واحد بالجنس أم بالنوع أو بالشخص أو بالفرض أو بعدم الانقسام أو بعدم المثل أو بالواحد الذي لا نظير له بالقوة ولا بالفعل أو الواحد الذي ذكر فيما بعد الطبيعة ، بل الذي ذكرته الصوفية ، بل الذي وجدته في أذواقها ، فإن ذلك كله انجرار الوهم . وكذلك الصورة التي يقال فيها إنها هو وإن الجميع جزء ماهيتها . وكذلك الواحد الذي يظهر أنه كالعارض للماهية ، ويشبه الوجود . وأن الواجب هو هذا والغير كالماهية المتقدمة ، وقد يتوهم أنها الممكن وأن سوى هذا الوجود أو الموجود له وجه ذاته وهو الافتقار المحض ، ووجهٌ إلى هذا الوجود به هو موجود . ولا توحيد الجنة ولا توحيد أهلها ولا توحيد من قال : «جل جناب الحق أن يكون مَشرَعاً لكل وارد » ؛ ولا توحيد من قال : ما وَحَّد الواحدمن واحد . ولا توحيد من قال : لايرى إلا بنوره ولا يشهد إلا بحضوره. ولا من قال : كيف يرى من به يرى . وبالجملة ، الواحد [٤٥١] منحصر في أربعة أجناس : الواحد بالاتصال ، والواحد بأنه كل وتمام ، والواحد الأول البسيط في جنس جنس ، والواحد الكلي المقول بتقديم وتأخير على جميع ما عدد فيما بعدالطبيعة . فجميع ذلك لا خلاص فيه ولا خالص من حيث الكمال الذي فيه جميع الكمالات الثلاثة أعني الكمال الذي يقطع الوهم ويحقق الحق ويستجيب الجميع فيه لا على ما ذكر ويمكن ، ونكتته تتحرك وهو يتحرك معها ، وغبطته مقصودة كذلك ، ويشبه بالمغناطيس الذي يلزم فيه الدور لمن فهم وضرب هذه الكلمات ثم صرفها. وهذا العلم في الخلد قبل التصور والتصديق لا بعدهما . والجاهل الحكيم هو الذي يقول : الحياة شرط في العقل ، والعقل شرط في العلم ،

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله بن العريف الصنهاجي (٤٨١ / ١٠٨٨ — ٥٣٦ /١١٤٣) صاحب كتاب « محاسن المجالس» . (نشرة أسين بلاثيوس سنة ١٩٣١) . راجع عنه ابن خلكان ٦٧ ، « نفحات الأنس» لجامي٦١٥ ، شذرات الذهب» ١١٢/٤ ، « العبر» للذهبي ، الخ .

والعلم شرط فى العمل ، والعمل شرط فى الفضل ، والفضل شرط فى السعادة ، والسعادة شرط فى الخير ، والخير شرط فى الكمال ، والكمال شرط فى الوحدة ، والوحدة هى شرط فى المطلوب ، والمطلوب هو الذى يقال بترادف مع الأشياء وبتواطؤ قَبْلها ، و باشتراك بعدها ، وبترجيح معها له ، وباشتقاق فيها إليه و بارتحال عنها منه ، وباستعارة فيها له .

والفاضل العليم يجعل الشرط فى مكان المشروط ، والخليفة الحكيم يجعل الشرط المشروط من غير تقدم ولا تأخير . والحكيم العليم لا يجد ذلك لكونه ذلك .

خُذْ واحفظ الوقت واصرف ذلك إلى الوهم وإضافته ثم إلى المعنى الحاصل من غير تعليل ولا توقف ولا إهمال . فنرجع إلى الإحاطة المذكورة فنقول : إن الخارج عنها ممنوع ومعدوم لما قبرنا ، [٤٥٢] والداخل فيها قد أحاطت به هى حتى بقول داخل وخارج ، فإنها لا تحيط بأعداد ولا بذوات مميزة ولا هى كالمكان ولا يمكن فيها المكان ولا الزمان ولا العدد ولا الإضافة ، ولا الأخبار ، لأنها إذا كانت الكل كانت بمعنى واحد ليس إلا ، فهى إحاطة تدور على شبه السَّلْب فى الوهم الأول لأنها تجذب وتصرف وتحيل العدد إلى الواحد ، ثم تمنع زمان الإحالة وزمان الجمع وزمان التفرقة وكأنها لم يكن قط شيئاً مذكوراً إلا أنها الذاكر والذكر والمذكور ، وبالجملة هى واحدة فى الكل واحد واحد بحسب ما ذكر ، فكيف بحسب ما يراد أم كيفما يوجد ؟ وهذا لِمَنْ تصور الوجود والعدم وقال كذا وكذا وهذا وذاك وأنا وأنت وأنتم وما أشبه ذلك . ثم تدور حتى تهمل المخصَّص وتخصِّص المهمَل ، ثم تدور حتى يصمت المُسائِل (١) وتنوب هى عنه لأنها هو . والمراد بذلك ألا تخاطبه ولا يخاطبها ، والمراد بذلك قطع التتابع والانفصال ثم تدور عليه حتى تكون الحق ، ثم تدور عليه حتى يكون الحق والباطل فيها ، ثم تدور عليه حتى يُحقق الحق والباطل يبطل ؛ ثم ترجع له دائرة وهمية يفعل فيها ماشاء ويصرف من شاء عمن شاء ويصرف إليها ماشاء كما شاء ، ثم تدور عليه وتكون مُصَمَّتة صمدية لاجوف لها وتكون حضرة يكون فيها الحق ولا شىء معه . والأول كالعرش ، والثانى كالكرسى ، والثالث السموات ، الرابع العناصر ، الخامس المولدات ، [٤٥٣] السادس الحركات ، السابع الأكوان ، الثامن الحياة العادية فى الجميع ، التاسع الحى ، العاشر الصورة الجامعة ، الحادى عشر الكبير

---

(١) ص : المثايل .

بالقول الواحد بالوضع . وهذا كله هو فيها ، وهذا كله من فرض المتكلم ، ومن قبيل الشائع فى العرف الجارى وبالنظر إليها هى تدور عليه وتديره حتى عن قوله إيه . ومعنى تدور : تحيل الأشياء إليها ، ومعنى تحيل الأشياء إليها لكى ينقطع الوهم ، ومعنى ينقطع الوهم أن تكون هى عندك الأشياء بجملتها ، ومعنى أن تكون عندك الأشياء بجملتها أن تكون هى أنت ، ومعنى أن تكون هى أنت أن لا تكون أنت ولا هى . وهذا يكون من حيث الفرض والعدد والوهم لا من حيث الوجود . فإن الواحد من كل الجهات لا يصح فيه إلا ما قلنا . فنرجع ونمنع جميع ما يفرض فيها أو يهجس أو يعلم وما أشبه ذلك . لا يقال فيها لفظة لأنها غير منسوبة لشيء ولا موضوعة فى شيء ولا يقال فيها كالجزء من الخط ولا تجعل فى الوهم مفروضة ولا كالبذر للنبات ولا فى سطح شيء ولا فى وسط شيء ولا على شيء ولا من شيء ، ولا تمثل بالجوهر الفرد ، ولا فقدها قط الفرد ، ولا تكون مكيالا للتعدد ولا مفهوم الواحد الأول ، ولا هى حرة عن ذلك ولا كالدائرة فإنها لا تحيط بما يفرض عليها أو فيها لأن النقطة منها تشبه الخط والخط يشبه الدائرة ، بل كل ذلك خط ، وكل ذلك نقطة ، وكل ذلك دائرة ، والأبعاد الثلاثة فى الواحد منها كالواحد الثانى من كل واحد منها ، فلا أبعاد فيها على كل حال من حيث المثال المتوجه [٤٥٤] ومن أثبتها فقد جاز الأبعاد ، وبالجملة لا تمتد ولا حركة فيها لأنها لا تبدأ من شيء ولا تمر على شيء ولا تتصل بشيء ولا تفتقر إلى محرك ولا تكون محركة لأنها ذلك بكليته والشيء لا يتمدد فى ما هيته من حيث الماهية المستقلة لا من حيث أجزاء الماهية ، فإنها ماهية لا تفتقر إلى حد ولا يصطادها الحاد بالحد . فعينها أينها وأينها كونها ، وكونها كلها . المقولات نقطة منها ، والنقطة عندها كالخط والخط عندها كالدائرة فيها والدائرة فيها دائرة عليها لا وسط لها ولا قطب ، ولا يفهم الحكيم والقطب ؛ فهى بالله فى الوهم وهى الله فى الحقيقة .

إيه ! ومن الأوهام حتى قولك تدور وتكون وما أشبه ذلك . وبالجملة المراد بهذا التنبيه إنما هو كالصوت الذى يوقظ النائم لا كالكلام الذى يطلب فى مدلوله الفائدة ؛ فحى بن يقظان فيها، والجاهل من الناس بل الحيوان والنبات والمعدن كالشيء الواحد .

إيه ! ثم نرجع ونقول : المطلوب الخارج عنها باطل ، والداخل فيها مثله كذلك لما أصلناه قبل

أن يكون من قبيل تحصيل الحاصل ، وهو من المحال لأنها لم تغاير شيئاً ، ولا غايرها شيء ،ولا ماثلت شيئاً ولا خالفت ولا خولفت فهى كل شيء ، وذلك الشيء كل شيء . فصح للظافر بهذه الحالة أنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن . فإن كان ذلك خبره فقد أفيد المقصود وهماً ، وإن كان فى خبره وحاله معاً فقد أفيده تصريفاً ، وإن كان فى ماهيته لكونه [٤٥٥] كان فى غير ماهيته فهو وجود واجب . فمن أراد أن ينالها بالجملة ينصرف إلى الله العليم ، بل إليه هو أعنى القديم الحكيم ، وتحيله على التوجه والذكر لا على التعليم والفكر ، والله يسهل من جهة واحدة لا من جهة وحدته ، وبالجملة من كانت [الكنه][1] ذاته فى الخبر كان الكل وهما ، ومن كانت ذاته فى الحال كان حقاً وقتاً ما ، ومن كانت ذاته فى السكينة والتأييد والوجود الجائز كان الحق المنسوب بوجه أنقص . ومن كانت ذاته الحق المنسوب بوجه أنقص كان الحق المنسوب بوجه متوسط ؛ ومن كان الحق المنسوب بوجه متوسط كان الحقيقة بوجه أكمل . ومن كان الحقيقة بوجه أكمل وجد الله ، ومن وجد الله بوجه أكمل أو بما يجد ذلك كان الله ولا شيء معه ، ووجد الأشياء فى ماهيته غير منفكة ، ووجدها قد قبلت على ذوات وهمية ، ومسميات خبرية ، ومستدركات منصرفة . فسبحان الكبير بالقول الذى يقال فيه شيء وأشياء بالوهم الواحد بالمعنى ، والوتر بالفرد ، والفرد بالوضع . وهو واحد حتى فى وحدته ويحق لكائن أن يقرأ « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »[2] .

إيه ! من علم العبودية حقيقةً علم الله عز وجل وهماً . غلاف العالم الأول وأعوانه[3] الذى يقولون : « من عرف نفسه عرف ربه » . وهيهات ! المعروف الذى إذ نظر إلى وحدته صحيح أنها واحدة حتى فى العدد والمعدود ، إذا انقسم لم يعلم فلا تقديم ولا تأخير فيه إلا وهماً ، ولا شرط ولا مشروط ولا سبب ولا مسبب ولا علة ولا معلول [٤٥٦] ولا واجب لغيره ، ولا ممكن فى ذاته ولا محال فيها محال تابع لها . فاقبض وابسط وحلل وركب يصح لك . غير أنه إن قلت كل ذلك

---

(١) بالهامش : النكه . — والأصح حذفها .
(٢) سورة « يس » آية ٨٣ .
(٣) بالهامش : « وأعانه » .

لم تـكن قلت الحق وقيل لك كذبت . وإن قلت ذلك فى واحد والوهم منصرف قلت الوهم وقيل لك صدقت .

إيه ! فمن علم الأمر بكماله علم الروح ، والروح هنا شىء ما لمعنى ، لأنه فاعل أو منفعل . ومن كان ذلك كان نور الله المظلم ، ومن كان نور الله المظلم كان روحه القائم فى الأشياء وبه قامت . ومن كان روحه القائم فى الأشياء كما قيل كان نور الله الـكاشف . ومن كان نور الله الـكاشف كان روحه القائم بذاته . ومن كان روحه القائم بذاته كان هو الأشياء بوجه أنقص . ومن كانت الأشياء هو بوجه أنقص كان الإحاطة الصمدية . ومن كان الإحاطة الصمدية كان هو الأشياء بوجه أكمل . ومن كان ذلك بجملته كان الـكامل المذكور الذى ذكرناه فى قولنا « إن كان تحصيل الـكمال الإنسانى » إلى آخره ، وكان المكمل لما سواه فكان الحق المصطلح الذى يظفر به بالجملة الحاصلة المذكورة ، ويصح له بعد ذلك أن يظفر بالحق الذى يظفر به . واختبر ذلك بطريقة القياس وأسباب العادة ، لا بحقيقة القياس وعرف العادة قدر أنك لا تلتفت إليها وتشرع فى تقسيم المعلوم إذاً إلى الأوهام التى ذكرناها قبل وتقف عند الموجود ، وتحقق الوسائط والآلات والأمور والروابط بين الممكن والواجب والعلة والمعلول ، وقصد [٤٥٧] إلى القصد الأول والثانى والفصول المشتركة وعالم العقل الذى يذكره أفلاطن فى قوله إن العلة الأولى فى فصل النوع الأخير ، والعماء الذى تذكره الصوفية والأمثال المعقولة والـكليات والمبادئ والمراتب والتقديم والتأخير والقدم والجبروت والآنية والهوية ومن هويته آنيته ومن هويته غير آنيته ، ومن يعرض للشىء ومن حيث يكون ذلك الشىء موجوداً بالعرض المذكور ، ومن لا يكون وجوده عارضاً لماهيته ، ومن تـكون ماهيته لا كما ذكرنا بالجود هو حيز ما ذكر ، وتحقق الدهر والحركة والزمان وما صدر من العلم والنسب ، وما كان بالقصد والسبب ، وما كان فى الشىء الذى لا وجد لمشيئته . ثم تأخرت ولم تزل وتقدمت ولم تـكن ، ثم ألزمها الحدوث فى خبره والقدم فى علم مخبره ، والوجود شبه الواسطة أو كل ذلك ، وتحقق حق النقطة والمبدأ . وتقول : الموجودات التى حصرها هذا الوجود عشرة ، أو محمول وموضوع ، ثم تقسمه وتقول : الوجود ينقسم إلى موجود قديم بغاية ، وإلى قديم بغير غاية . فهذا الذى لا غاية له هو الله الواجب الوجود العلة التمامية . خواصه خمسة عشر . وهو يوصف ولا يرسم ولا يحل إلا بالفرض

الملائم أو بملاحظة القائم ، أو الخبر من قبل الهائم . وأسماؤه الأول تنقسم إلى أسماء ذاتية كالحق والواحد وأزل وما أشبه ذلك ، وأسماء صفته كالعليم والسميع والبصير وما أشبه ذلك ؛ ومن أسماء فعله الخالق والرازق وما أشبه ذلك ؛ [٤٥٨] وأسماء تنزيه كالقُدوس والجليل والعزيز وما أشبه ذلك ؛ وأسماء التعظيم كالقادر والقاهر والغنى وغير ذلك من الأسماء المشتقة ، تمتد بامتداد المعلومات والمضمرات ، وتصل إلى الحق من ألف ، فلا نهاية لها بوجه ما . والمشتركة والمرتجلة مائة وواحد عند بعض الناس ، والمنقولة تسعة وتسعون ، والاسم الأعلى مذكور فى سورة « النساء » ومكتوب فى « الأنعام » ومقروء فى « الأعراف » وموجود فى « سبح اسم ربك الأعلى » . ثم تصرف هذه الأسماء صفات ، ثم تنظر هل تكون زائدة عليه ، أو ليست بزائدة ، أو يكون فى كل واحد معنى كل واحد أو هو هى أو هى هو ، أو البعض منها هو والبعض منها هو والبعض ليس كذلك ؛ ومنها ما يقال فيها لا هو هى ولاهو غيرها ، ومنها ما يجعل غيراً محضاً أو يكون كالقوى الزائدة . ثم تنظر إلى ما لقدمه غاية ، وتقسمه إلى جوهر وعَرَض ، وإلى المجتمع منها وهو الجسم . ثم تنظر إلى الأكوان وتقسمها إلى الاجتماع والافتراق وتقول الجسم هو المؤلف ، والجوهر هو الجزء الذى لايتجزأ ، وهو الفرد إلا من مثله ، وهو الذى يأخذ قسطه المساحة ويمانع ويقبل[1] العَرَض من كل جنس وتقوم به الأحوال المعللة وغير المعللة ، وله جرم واخْتُلِف فيه : هل خلق ساكناً ، أو متحركاً ؛ والأظهر فيه السكون . وكذلك اختُلِف فى شكله فى تقسم العرض [٤٥٩] إلى غير وخلاف ومثل ، وتقسمه إلى مدركات الحواس ؛ وقد وصله بعض الناس إلى أربعين وإلى أكثر من ذلك . وقد يحصر ذلك ويقال : الله وأفعاله . وتحرَّر العبارة فيه ويقال : الوجود والمقيد والمقدر . ومنهم من قال : الوجود الأول الذى لا أول لوجوده ولا سبب له مقوم لما بعده . ومنهم من قال : كل شىء يحتاج أن يخرج من القوة إلى الفعل فهو القائم المقوِّم المتمِّم . وقد يقال : الجليل المعتبر الذى يتردد الذهن فى ثبوته ويعجز عن تصوره . لكنه يشير بمعناه إلى جلالة مطلقة ، ويشعر بها لها فى ماهيته هو . وهذا الشعور هو وجوده وبه كان . وقد يقال الله كما قيل ، ثم الهباء ، والذرة ، والقلم ، ثم اللواحق ، والأجناس ، ثم الأنواع والأشخاص ، وقد يقال الملائكة المطلقة ، والوجود المتسع ،

---

(١) ص : يقل .

والتسعة والتسعون وسيلة والمنوط بها وما وراء ذلك . ويحمل على أكثر من واحد ، وقد لا يحمل .
وإن شئت قلت : الجوهر ينقسم إلى الجسمانى والروحانى < والروحانى > هو الذى لا يكون متحركاً ولا ساكناً ، وهو ينقسم إلى عقول ونفوس سارية فى الأجسام الفلكية والطبيعية ، وإلى الصور المجردة ، وإلى الهيولى الأولى بحسب مذهب ما . وقد يقال العقل ، والنفس الكلية عند من أثبتها . والفلك ينقسم إلى تسعة أشخاص بحسب رأى الأكثر : فأول الأشخاص المذكورة الفلك الأطلس الحامل الذى يتحرك الحركة اليومية وحركته من [٤٦٠] المشرق إلى المغرب وكذلك رأس الجوزهر[١] خاصة ، ثم الفلك المكوكب وكواكبه ثابتة وفيه المنازل والبروج المنسوبة إليه بالصورة ، وإلى الأطلس بالمحاذاة والقسم والحصر ، والصور والكواكب المنيرة وغير المنيرة والثمانية والأربعون صورة منها شمالى ومنها جنوبى ، والقطبين الجنوبى والشمالى ، والمجرة والعَيُّوقات ، واليمانية . ثم الأشخاص الباقية المتحركة كل كوكب منهم له خمسة أفلاك : الممثل ، والفلك المائل ، والفلك الخارج المركز ، والحامل ، وفلك التدوير . وتقاطع الجوزهرات والنوبهرات وذوات الذوائب . والصحيح أنها تحت مقعر فلك القمر كما برهن عن ذلك أرسطو فى « الآثار العلوية » وأثبت أنها من بخار يصل إلى هنالك . وكيف بداية هذا السكون على كلام بلنياس[٢] فى تكوين السكون من مُحدَّب فَلَك الأطلس إلى مركز العالم وكيف دوام الحركة فى طول الأزمان حتى ظهر المزيد مما يطول شرحه فى كميته ، وكيفيتها . وأن الشمس تطلع على قوم دون قوم وتكون فى ساعة على قوم نهار وعلى آخر ليل ، والمركز ساكن بسرعة حركة المحيط ، وظهور المعدن والنبات والحيوان ، وينقسم المعدن إلى مايذوب ويحترق وإلى مايذوب ولا يحترق ، والنبات مما ينجم ويشجر ويقوم على ساق ، وينقسم الحيوان إلى ما يتكون ويلد ويبيض . فإذا اطّلعتَ على علم الهيئة وتخلصت لك هذه [٤٦١] القسمة وجميع ما حللت وقسمت لكى تتبين به طمأنينة التأنيس ،

---

(١) الجوزهر : هو النقطتان اللتان تتقاطع عليهما الدائرتان من الأفلاك اللتان تسميان العقدتين ، وهى كلمة فارسية بمعنى : صورة الجوز أو صورة الكرة .

(٢) يقصد بلنياس الطوانى صاحب كتاب « سر الطبيعة وصنعة الخليقة » راجع عنه كتابنا : « الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى » ص ١٨٥ — ١٩٠ . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

وترجع بعد خلاصك من القسمة المذكورة إلى قبل نفسك تجد فيها جميع ما ذكر بوجه ألطف وهي له شبه أنموذج ، فتعود إلى الإحاطة المذكورة التي خرجْتَ عنها وأضربت عن تصورها ثم تجد خبرك كأنه الكل ويحتمل الكل وتسمع أمثلة الجميع فيه وكأنه إحاطة أخرى . ثم تنظر إلى ذلك تجده يفتقر إلى معنى ما غير معين لكنه يعمه . وذلك المعنى هو الإحاطة المذكورة ، ثم ترجع فتنظر إلى القسم المشار إليه المدرك خارج الذهن ، وإلى القسم داخل الذهن فتجد روح العالم الكلى وجسمه المطلق يحكمك فى أمرك والوهم الذى فى هذا الموطن تجده كأنه محيط بالإحاطة المتقدمة وهو من حيث يحيط وهما يماثلك ؛ فإن الأعم والأخص والأصغر والأكبر لا يمنع الشبه ولا يصل المثلية عن طريقها ، وإن تغاير المثلان بوجه ما من جهة المكان والزمان فلا يتغاير الوجود الذى يقال عليهما بتواطؤ . ثم ترجع إلى الوجود الذى ظهر عنه هذا هو فيه أو منه . أما ما يمكن فيه أو ما وجب له فتجده أعمّ من الثلاثة ، فتكون إحاطة الإحاطات .

وقد يقال إحاطة حقيقية تحيط بكل إحاطة وهمية . وهذه الإحاطة مع المتقدمة قبلها كالقوى المتقدمة مع الإحاطة المتقدمة وهى التى انصرفنا إليها ، وهى هى فقط ليس إلا . ثم ترجع إلى خبرك فتجد الجميع فيه ، وهو مع هذا يتحرك إلى أكبر وأكبر مما يقال له أكبر ، وهو الكبير المتعالى الذى يخضع له الوهم المحيط المحاط به ويسجد له من حيث الاستحقاق جميع ما ذكر ، بل يعلم [٤٦٢] بوجه ما من جهة ثبوته فى المغايرة لا غير . وبهذا يشهد الحق المطلق بالكلمة الجامعة المانعة الذى تقدم القول فيها وتوسط وتأخر . وهذا هو الشرط الذى يدفع به كل شىء من طرفه إلى وسطه ، والوسط الذى يجمع الكل مضافاً إليه ويسلم له فى إضافته الوهم الأول والآخر والظاهر والباطن ويقول كل شىء ، بل كل إحاطة وهمية ، بل كل إحاطة ثابتة ، بل الجميع الذى لم يقف القول فيه هالك إلا وجهه الذى لم يمكن أن يثبت معه شىء ولا يهلك معه شىء ، لأنه لو ثبت معه شىء غيره لكان الوهم ثابتاً بنفسه والإحاطة مختلطة والتوحيد مُهْلَكاً والكنه مختلا والمحال واقعاً . ولو كان فى وقت ما ثم زال ، لزم أن يكون الحق موقتاً والتوحيد والكنه وما قبل هذا ممنوع لا خير فيه . — وقد تبين لك بهذا كله ألا ينبغى لك أن تخرج عنها ولا يمكنك ذلك لكونك ذلك . فأينما تولّ فإليها يَكُنْ وجهك حتى إلى جهة الإضراب ؛ وإن عين البعد من عين الاقتراب ، لأنها المتعلِّق والمتعلَّق معاً

فاجتمعت عليك وانجذبت إليك لأنك إذا صرفت وجهك عن الوهمية تقع فى الأخرى . فإن صرفته عن الأخرى التى هى الحقيقة لا تقع فى غيرها لأنها جامعة ، وحيثما تجد الضمير فينتقل من الإفكة الصغيرة إلى الإفكة الكبيرة حتى يقف الحال به ، فالتى تحصر الجميع حصر الدائرة النقطة وكالاعتراض الشديد السقطة اعلم أن ذلك فى [٤٦٣] الأوهام المنتشرة المنجرة وأنه قد حاد عن صراط الذين أنعم عليهم الذى لا شيء أرق من نسبته ولا أحدّ من سننه ، فسبحان الذى يتوجه به اليوم ويتضرع لديه وعليه ! والعارف يحط رحل خطئه بطويته على الإحاطة ويقرأ على كل خطة « وقولوا حِطّة »[١] . وكما لا يمكن أن يتخطى بالخطوة محيط خط السماء ولا يبعد المركز أن يتخطى بطبعه سطحاً ما ، كذلك الإحاطة لا يشذعنها شيء ولا يفوتها شيء ولا تحمل على شيء لأنها حصرت الأشيـاء ؛ ولا تحمل على شيء لأن الواحد فى نفسه لا ينقسم فى كل شيء ولا شيئاً شيئاً واحدة من جهتها من ذلك الشيء ؛ وذكر الأشيـاء وهم من الأوهام ذكر هناك للبيان واضطر إليه بين الثنوية بين مخاطِب ومخاطَب . فإذا فهم المقصود انقطعت العبارات والأوهام فى سجن الكافر الذى كفر بعبادته ولم يصل إلى مقامه ، كما أن الدنيا سجن المؤمن السالك . فمن عَلِم هذه السورة وحفظ بمحافظته هذه السورة وأكل من صورة البر ، بل طاف به صور البر وحكم موج البحر وفوج البر وينال على هذه النعمة الحمد للعليم بخفيات الصدور الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويثيب على كظم نفثات الصدور . ومن خواصه التشتت والاتفاق والإيمـان المحض ثم الاتفاق . تارة يقول : ذمّام الدنيا مذموم وهمّامها مهموم ، وأخرى يقول : « البصير الذى لا يرفل فى أثواب اللاهى[٢] ولا يغفل عن ثواب الله » ، وتارة تسمعه يقول : من صحا وصحح أسراره محا الله إسراره[٣] ، ثم الحق لا يعرف [٤٦٤] معروفاً ولا يفعل منكراً ولا معروفاً ، ويخزن سِرّاً باح به معروفاً ؛ ويجيب : هذا مَتح من البحر معروفاً . وتبصره فى وقت ما على شيء تضحك منه فيه السنة والفرض ، وفى أخرى

---

(١) سورة « البقرة » آية ٥٨ ، وسورة الأعراف آية ١٦١ .

(٢) ص : المى ! . — وهذه الجملة وردت فى عهد ابن سبعين لتلاميذه .

(٣) الإسرار : الظلمة .

يبكى عليه فيه من أجله إذا فقد السموات والأرض ، ولبصره قد يخلق بالعلل والكسل ، ويخلل بحمله الخلل والزلل ، وتصرف فى الضرورى بالملل ، وبأقبح ما يكره فى كل المِلل . — هذا مما يظهر له من جهلهم بدلا من قبيح يفعله حقيقة ، ولا من جهله بربه . ومع هذا يقول : صِلْ رَحِمَكَ نجد الله تعالى قد رحمك ؛ — يستقيم فى النكرة ولا يقام عليه الحد ، ويخلف فى المعرفة ولا يأخذه الرسم ، والحد يُمَات فى الشر ويُحَيَى فى الخير ويبعث ، ويستخلف فى الجميع فيبحث ، ويحضّ على سيره إذا سئل عن العارف فيقول : الله ولاشيء معه ، مَنْ إذا قضيت وفاء لك خانه الأمل وفاته ؛ رجل يجمع بين الضدين ، وينكر النجدين ومع هذا يحتاط على محاله احتياط البخيل على جواهر النقدين . تريد تتخلص من هذا كله ؟ قل رَبٌّ مالك ، وعبدٌ هالك ، ووهم حالك ، وحق سالك ، وأنتم ذلك . اختلط فى الإحاطة الزوج مع الفرد ، واتحد فيه النَّجْو مع الورْد ، واتفق فيه السفر مع الفرد . وبالجملة ، السبب هو يوم الأحد ، والموحِّد هو عين الأحد ، ويوم الفرض هو يوم العرض ، والذاهب من الزمان هو الحاضر ، والأول فى العيان هو الآخر ، والباطن فى الجَنان هو الظاهر ، والمؤمن فى الجنان هو [٤٦٥] الكافر ، والفقير هو الغنى . وهذه وحدات حكمية لا أحداث وهمية . والمؤمن الكافر هو الذى يقول : سبحان من جعل من كل فرد زوجين اثنين ، وجعل من زوج فردين ، وجعل من كل فرد زوجين اثنين ، ولم يكن قط فى الوجود ثانى اثنين ، بل يقول : سبحان الفرد الزوج الحضيض الأوج . ثم تخرج عن هذا التوحيد المثالى ، وتفرغ عن هذا التجريد الخيالى . وتنصرف إلى قانون العبودية المكتنفية وتقول : الكامل الكافر بوجه ما يضر نفسه بمضرتين ، ويلدغ من جُحْرٍ مرتين ، لكونه يريد أن ينفعها بذلك منفعتين لأن الخائف مِن لدغة الوهم الأول فى العالم الأول الذى يحجب بالوعيد العبيد الأشقياء ، ويضر بالوعد السعيد الصم الأتقياء ؛ حرم نفسه الإعادة ، ففاتته السعادة ، وظلمته فتنة العادة بخرق العادة . والسالم هو الذى يلدغ فيموت ، ويعدم فيفوت ، ويكون بعد ذلك حياً لا يموت . قِسْم الوهم أنفع للسالك ، وحجره أجمع للهالك ، وكل ذلك أكمل للمالك ؛ لأنه إذا قتل فقد ، وإذا حقق فقد ، وإذا أضرم أوقد ، لم تسكن النار أوقد . وبالجملة إذا نقص إدراكه كمل دِراكه . فالتوجه إلى هذا الجحر خير ، والإقامة فى الجحر شر . فإنما ما جاء نهي المعصوم عنه صلى الله عليه وسلم من جهة التكبر ، أو من جهة التعجب ،

وما أراد الكافر إلا على الفاقد الجاحد لكمال الآخرة والأولى ، أو كان منه نهيا للمتوسطين من باب الآخرة والأولى ، وكانت كلمة دبرت للضعفاء بحسب عرفهم وأمثالهم ومكالمتهم لأمثالهم .

إيه ! الكمال كنه [٤٦٦] الكائن ، والجمال رسم الكامن ، والجلال اسم المكين ، والجليل رب التلوين والتمكين[1] .

إيه ! هذه الكلمات كنز من كنوز الجنة ، بل هي ذات الرضوان والمِنة . غير أن ذلك لا يصح إلا بفهم الواضع ، وبقدر ما يفهم من كلام الوحيد الواضع .

إيه ! إثبات السعادة فى التوحيد المحض مَحْضُ الحرمان ، ونيلها فى الموحد بكونها كنه رضوان الرحمن !

إيه ! إياك أن تتوهم فى هذا الرجل ما لا يجمل به ولا يصح فى حقه ، فتكون من الخاسرين . والأصلح أن تكون من الحاسدين بالحسن الذى يستحسن بين السعداء ، الذى تركبت ماهيته من الغبطة وطلب التشبه بالأعلى وطلب الأخرى والأولى . « ولله المثل الأعلى »[2] . والذى ينبغى لك أن تعتقد فيه أنه متوسط بين الخليفة المستقل ، وبين الكيس المنتقل ، وهو يستدل من حيث يتمثل ، ويتمثل من حيث يستدل . وأنه جاز على المعلوم المحسوب ، وتوسط فى الوجود المنسوب ، وتوجه إلى الواهب المحبوب ، لا بالمكتوب ولا بالمكسوب . وبلغ سبب الأوهام المرشدة ، والأفهام المنشدة ، وهتك الحجاب ، وقهر الحُجّاب ، وفتح الأبواب ، وسلم الأسباب ، ورحل عن مكانها ، لكونه كان من كيانها ، وصح له بهذا أن يكون كنه الإمكانات لا كنه الكمالات ، وأسقط التركيب والتحليل ، وبذلك تسمى ، وسلم الكنه الكامل باحترامه للمسىء ؛ وهجر الحد والرسم ، ووجل الوصف والاسم ، وتعلق بالأعظم ، رغبة فى الاسم الأعظم ؛ وألزم طبيعته الطيبة

---

(١) التلوين : تنقل العبد فى أحواله ، والتمكين هو التمكين فى التلوين ، وقيل هو حال أهل الوصول .

(٢) سورة « النحل » آية ٦٠

المطمئنة الأدب ، وجد فى الطلب والسبب وفى نيل الأرب ؛ يغيب [٤٦٧] تارة ويتوحد ، ويحضر أخرى ويتعدد ، ثم يغيب عن كل ذلك ، ثم يعود كذلك . وجميع الأمور — التى سمعتنى نذكرها عنه التى هى من جنس ما يذم عادة وعقلا ، ويحتقر فاعلها فرضاً وفعلا — تتوهم فيه من جهة الإضافة لا من جهة الانفراد ، لأن القبيح لا يسكن فى اعتقاده ، ولا يتعلق بمراده ، وهو يتوجه على تطوراته ، ويستقيم فى تصرفاته . وما عصى الكريم ولا أطاع وهما ، ولا نسى الحكيم أصلا ، ولا جهل علما . فمتى أبصرت بحر البصيرة يتحرك ، أبشر فإن دُرّته تصعد من حضيض ظلماته إلى أنوار أوجه ، ومن مده وجزره إلى ساحله وموجه . واحذره أيضاً فإنه كما يدفع بجذب ، ومن حيث يُوجِد يَسْلُب . وتنشد ماهيته بلسان حال حالها . هذا الخبير الذى يستدعى حصر الذوات ، هو الحكيم الذى يستوفى كنه الهيئات .

إيه ! فإن كان من بعض من كان عن ، فهو الملك فى ملكه المكان ؛ وإن كان قد أو ثم من بَعد بعُد ، فإنه الملك المكين فى الكلمات .

إيه ! الخارج فى بقيته المشتغل بالأوهام بعد محاسبته وجميع ما رفع فى مخزن التلف ، وذمته مستعارة أو بالسلف — تسعة أوهام : المقول ، والعلم ، والقياس ، والحد ، والنفس ، والعادة ، والإضافة ، والزمان ، والمكان . فإن عجز عن دفعها قبل السفر ، ولا يدفعها للإحاطة ولا للصور ، ويمتنع أن يتوسل فى أمرها بالسور أو بالسفر ، ويُسَوِّف نفسه فى محرم ويموت فى صفر — يخاف عليه أن يعذب عذابه فى لظى أو فى سقر .

[٤٦٨] إيه ! الإحاطة شبه مغناطيس والموجودات كالحديد ، والنسبة الجامعة بينهما هوية الوجود ، والذى فرق بينهما هو وهم الموجود .

إيه ! العارف يعطف ويتعطف ، والمحقق يُستعطَف ولا يَستعطِف . إيه ! من صادر الأوهام سقط حظها عنده ، وكان عظيمها عبده ؛ ومن عكس انتكس . إيه يا هذا ! أنت به ، فإنك له وبه .

إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه ! إيه !

هذه تنبيهات روحانية ، وما بعدها مطلوبها داخل الذهن ، وكشفت به المناسبة الإلهية وحصلته الأحوال الإلهامية ، وفى تخالف ما فيها فى المشروع وتماثله فى الموضوع ، يشارم (١) الضمير بما عنده وبما يجد صحبتها من الحق الصريح من غير أن يشاركه فى ذلك عقل العادة . ولما كان هذا التنبيه يشبه الإحاطة ويأتم بها ، أردنا أن نلحق فيه ما هو من هذا القبيل وجعلتها تسمة تشبهها بشىء ما . وهذه التسمة المذكورة تكلم عند رسمها المتكلم المذكور بكلمات ، وزعم المغتبط بها يصلها ويسمعها منه ، سواء غاب أو حضر أوصمت أو مات ، فإن الحقائق لا تفقد ولا تفتقر إلى كتب ، ولا تفقد بفقد الكاتب ولا تظهر بظهوره ، ولا تنشر فى مسطور . والحقائق إذا وصلت إلى هذا الموضع ينطق عنها الوجود ويحفظ الواقعات . فاحفظ [٤٦٩] أنت ذلك وحافظ عليه .

إيه ! ما تقول الإحاطة المستلزمة فى شعر شاعر شعر بشعوره ولم يشعر بشاعره ، وشك فى نائمه وساهره ، وتحير فى أمره ، ووجد فى ظفره ما لم يجد فى خبره ، وتعلق بجائزة وطمع فى خيره ، ثم تشفع بشمائل تشبهه فاستوحش ، فشفعه بالشفيع فتشوش ، ثم عقله بالوتر فتأنس ، ثم عكس وما انتكس ، وكشف المشعور به والشعور والشاعر وما تحسس ، ولا تجسس ، وتوحدت منه النفس والنفيس وأنشد :

من كان يبصر شأنَ الله فى الصُّوَرِ   فإنه شاخص فى أنقص الصور

بل شأنه كونه ، بل كونه كُنْهُهُ   لأنه جملة من بعضها وَطَرِى

إيه ! فأَبْصَرَنى ، إيه ! فأبصرتُهُ   إيه ! فَلِمْ قلت لى : ألنَّفع فى الضرر

قالت له الإحاطة المذكورة : وصلت فالزم ، وَهِمْتَ فاعزم. قال لها : العزم فى الواقع غيرجائز ولا نافع، وقد كنت فكرت فى عزيمتى ، ولذلك ما أدبرت فى هزيمتى . قالت له الإحاطة المستلزمة: جميع ما جاء بواعظة الفكر ، وكل ما قيل صحبة القوافى والفِقَر متصرفٌ إلى محسوب على ، والوهم عينّه ووقته وأيّنه .

---

(١) كذا ! ولعل صوابه : تشارك .

قال لها : قد علمت ذلك فى الشعور الأول وفرغت منه . قالت له : من فرغت منه كنت عنه . قال لها : فما المعمول إذاً ؟ قالت له : قطع التوجه هو الوجه الذى به ترانى ، وذلك الوجه توجهه دار إلىّ . فما أفتح ضد هذه [٤٧٠] المقابلة ! وما أملَحَ جَذْبَ الوهم بالمقابلة ! ثم أنشدته ؛ وبها أرشدته ، وذكرت له بيت لبيد[1] ، وقرأت عليه : « وما ربك بظلام للعبيد »[2] . ففهم عنهـا وبذلك كان منها ؛ وظفر بأمنيته ، وزهد فى زور الوهم وكذب أمنية واتحد واحده بواحده ، وتوحدوا بفضل من حضيض العدد إلى ذروة الأحد . ثم نظر إلى ماهيته الثابتة فى معناه العدمية التى يشار إليها من هويته العرضية الوجودية التى هى آنية الممكن عند الفلاسفة ، ومبدعة عند الأصولية ، وشبه ذلك عند المعتزلة ، ومعيدة له عند بعض الصوفية ، ومقوِّمة عند بعضهم ، وهو ولا هى عند الأكثر ، وعند بعض المحققين نقطة مستقلة ثم قضية مفردة ، ثم ما ذكرناه قبل . فانكشف له أن الوهم أوهم لواجده حتى لحقه الوهم فى وحدته ، وقسمها قسمين فصار القسم الواحد للآخر كالجاحد ، ثم زاد الأمر وانقسم ثم صار أكثر من واحد حتى احتاج إلى شاهد وعسر وجوده فإنه موجده وهو بعينه معتده . فطلبه الشاهد من العلم فامتنع ، ثم طلبه من العمل فارتفع ، فانصرف إلى الشاهد وطلب منه الشاهد فوجد عنده الشهادة ؛ ومات على هذه الشهادة فخضع له وطاب وانطبع ، وحكم له الحق لجمع القسمين فى واحد وقال له : لم تكن قط أكثر من واحد . فعند ذلك قالت ماهيته لهويته : [٤٧١] أنت أنا . فسمعتها الآنية فقالت لهما : أنتما أنا . فاستجابت لها الإحاطة وقالت : أنا آنية الآنيات ، وهوية الهويات ، وماهية الماهيات . وكل ذلك قل أو كثر معنى واحد ، وذلك المعنى هو أنا ، ومن قال معىَ أنا أوقعته فى العنا ، إلا إن قالها من حيثى ويصرف الشاهد والمشهود إلى جميع الأوهام ويدور بالسلب من أجلى . على حينئذ يكون أنا قال لها : قد كان ذلك ؛ قالت له : فأنت أنا ، وأنا أنت ؛ وأنت وأنا معناه أنا . وهـذه كلمات نافعة إذا لم تنصرف إلى الافتقار ، ولا تتطور فى مرات الوهم والافتخار ؛ وتتصرف باللهو

(١) أى : ألا كل شىء ماخلا الله باطل * وكل نعيم لامحالة زائل

سورة « فصلت » آية ٤٦

واللعب وتكون مكانتها من الوهم والكذب ، ولا خير فى خطة غالطة ومكانة باطلة .

إيه ! جميع ما تسمعه من الرجال يذكرونه فى حق المؤمن الكافر والكافر المؤمن حاصله هو الذى يكفر بما لم يؤمن بما أنزل الله على عباده الذين اصطفى ، وبما يجدونه فيما أنزل على نبيه المصطفى ، ويكفر بمن يكفر بأحوال الرجال وبكونهم يطلقون الكفر بتقديم وتأخير ، وباشتراك الاسم ، وبجهة وجهة ، ويكفر بمن ينكر طول ظهورهم ، وتطورهم ومنازلهم ومنازلاتهم وطبقاتهم ، ويؤمن بغيبهم الذى يغيب فيه الغيب ، ويحقق فيبه البداءة الأصلية والعيب ، ويصدق بجميع المراتب وبكل ما يتعلق بالدور الراتب ، ويغتبط بامام أمام أسوة ذى الذهن الثابت . فسلام على عباده الذين [٤٧٢] اصطفى ، ومنهم محب هذا الجليل ، وارث محمد ، وحسبة آدم ، وقُرَّةُ عين الخليل ، ولمثله يقال عبد الجليل .

إيه فقط ! إيه الملة أعظم من أهلها ! إيه عز على إيه ليت شعرى إيه ! فَهم البعض وجهل الكل بوجه ما . إيه للحروف معني ! إيه وللأسماء أسماء ! إيه والعادة مهلكة ! إيه ومن انصرف إلى نفسه نُفِّس عنه . الدور عجيب ! إيه القرآن كنه الكامل . إيه ! الله فقط ، لاشك فى ذلك ! إيه ! أردت بإيه أن هذه المخاطبات نشأت بين مخاطب طابت أنفاسه وبين مخاطب طيبة أنفاسه ! إيه الوهم يضر وينفع الخاطر القوى . يقال التوجه شيخ البصير . ذ كر أن المطلوب فى الخلد محبة الشوق يهدى . ملازمة الدعوة عون الله . الوحدة حضرة الواحد وغبطة المتوحد . رسول الله لا ينفك عن القصد ، ولا يفك أسره خوف . ما بعد العادة حرمان ، والوقوف معها نكس ، والخروج عنها بأس شديد ، والاستعانة بها بؤس جديد ، وإحالتها مما يجب . جد المجيب استجلاب الغريب . ماهيته الهمة السنية . الأسوة بالواجب هو التَّحَرُّق الأكبر . الترفع الكثير ذات الشقاوة . الخوف والتكذيب والاصطلام عين البعد . إقامة الحق فى جميع الأمور حكمة محضة مبشرة . لقاء الرجال طبيعة الخير . استسلام السالك أصل المناسك . وقتك من أجزاء [٤٧٣] ماهيتك ، فلا تعامله إلا بالخير وأحوال الحياة والسعادة والصعود .

إيه ! الله فقط ، لا شك فى ذلك .

إيه ! قبح الله الوهم ! حرم الذهن والفهم وشغلهما عن تصحيحه وقلبه حتى حال بين المرء وقلبه . يعقد على المرء حتى يقسم نفسه إلى غير وخلاف ، ويجعل وحدته تجبر بعد الحصول الطبيعى إلى الائتلاف ، فمنع الواحد من وحدته وصرف المستقيم على حَيْدته . قاتله الله هو الضد الغاضب والحق الغاصب . ومن جملة ضرره تغاليطه لمن لم تُحَـذِّقه العلوم ، ولا أدَّبته المعارف ، ولا انقاد برعونته قط إلى عارف ، وألفى عنده أن الوحدة المطلقة والواحد من كل الجهات هو هو لا كما يجب ، ولا على ما يجب ، ولا بما يجده فى تصوره وتطوره بل بوهم غير محصل كسبه إهمال رتبة للرجال ، وأفاده شيئاً تستعيذ من فتنته فتنة الدجال، ثم يعود بعد ذلك به إلى العبد ، بل هو اللهو بل هو السهو ، بل هو الوهم ، بل هو البهم . وهو لا يهمله وفى ذاته لا يمهله ، وكذلك كل شخص ركب من الجهل والعادة ومن البلادة ، وبعد العبادة يسوى فى التخسيس ، ونفخ فيه روح سلب التخصيص . إيه ! قل أعوذ بالله من . ثم أعوذ بالله عن . ثم أعوذ بالله لن . إيه ! هذا الوهم هو الملك ، وهو البحر والفلك ؛ وهو الأرض والسماء ، وهو القصد والعمى ، وهو الذر والهبا . والماء والبرزخ طبيعة البسيط ، والممكن [٤٧٤] والممكنات طبيعة المركبات ، والإحاطة التى قلنا فيها كبيرة وصغيرة ، وآفلة وثابتة ، ورئيسة ومرءوسة ، ومحيطة ومحاط بها ، وعامة وخاصة — طبيعة مشتركة ؛ فلا وهم إلا الوهم ، ولا إله إلا الله ، بل ليس إلا الأيس فقط ؛ وهو هو الله الله الله الله الله الله ! هكذا ورد ، وهكذا وُجِد ؛ وهكذا رُسِم ، وهكذا قُسِم ، وهكذا كان ؛ وهكذا هو . إيه !

هذا تقييد قيل فيه الحق ، وظهر فيه الحق ؛ وأملاه عبد الحق . وبالضرورة أن الفرع محمول على الشجرة ، وبالاتفاق قامت شهرة الواضع من ضرب سبعة فى

عشرة[١] . والسلام على المنكر والمسلم ، والغالط والمتغالط ، والمهمل والمغتبط ، والغافل والمتغافل . فالسلام على إذاً ، ثم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وعلى الجامع لحقائق الأكوان بالقصد الثانى ، وعلى الوسيلة المرتكزة بالقصد الأول ، وعلى طالبها بالقصد الثالث ، ثم ذلك وما أشبه ذلك ، وعلى آله وسلم تسليما .

كمل كتاب « الإحاطة » للسيد الشيخ الوارث العارف المحقّق سيدى عبد الحق بن سبعين .

---

(١) ٧ × ١٠ = ٧٠ أى ابن سبعين وهى شهرته .

رسالة النصيحة أو النورية

[٨٢]

وله رضى الله عنه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً .

نصيحةٌ نَصَحها من يحضُ على الله ويستجلب حمده لمحل القابل لها ، وتستلزم الكمالات وتعطى أسبابها بسعادتين وحكمتين وخبرين باعتبارين وجهتين وقصدين ؛ يُحَصِّلها مَنْ هى عنايته تجذب الواجب لذاته المرحومة بالذات ؛ ويتردد فى مدلولها ويتخلق بها مَن يمكن منه أن يتعرض للخير بالعرَض ؛ وقصدها وجه مدلول شرحها . ووُضِعَتْ للعام والخاص ، فإنّها صالحة بالجميع . وهى موضوع الشريعة ومحمول الحقيقة . وماهيتها مركبة من الأنس بالله ، وسبب الأنس به ، واللذة الروحانية والعبادات القلبية والجسمانية . وبالجملة : جُمْلتها صالحة ، وتجارتها رابحة ، وسعايتها ناجحة . والله هو أولها وآخرها ، وظاهر قصدها وباطن مجدها . وقد حان وقتُ بَثِّها ، فنبدأ فنقول :

يأيها الباحث عن تحصيل كماله واستجلاب ما يجب كما يجب فى الوقت الذى يجب ممن يجب بمن يجب على ما ينبغى . عليك بذكر الله الذى عَلَّمك وأرادك وعَلَّمك وحَكَمك من كل الجهات وهو بُدُّك(١) اللازم ، ووجودك الثابت ، والمُنقَلَب . وهو الذى يُسْعِدك ، وسعادتك رضوانه(٢) ،

---

(١) البد : فى الأصل : الصنم ، وبالمعنى الصوفى عند ابن سبعين : المثال الأعلى . ولابن سبعين كتاب رئيسى هو « بد العارف » منه مخطوط فى استانبول وآخر فى برلين . وكتب عنه الأب لاتور فى مجلة « الأندلس » :

Esteban Lator : Ibn Sab'in de Murcia y su « Budd al-Arif » Al-And. 1944, vol. IX, Fasc. 2, p. 371—417.

(٢) الرضوان : الرضا . أى أن سعادتك فى رضا الله عنك .

ورضوانه يحملك إلى حضرته ، وحضرته تخزن(١) ذاتك من ذل السكون المهلك والممكن(٢) القابل المنقلب ، وتحككك فى الرحمة والوجود المطلق ، وتصرفك فى المقيد ، وتطلعك على المقدر ، وتبلغك إلى أقصى الإنسانية من جهة التخصيص وبحسب الأمور التى لا من جنس ما يكتسب ولا من جهة العادة والعلوم المألوفة الشريفة والأحوال المذكورة — فاعلم .

ومن جملة خيراته العزيزة ذكره لك عند ذكرك له فى حضرته مع أهله . ومن جملة فوائده الكريمة ما قال رسول الله ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبييون من قبلى : لا إله إلا الله » . ومن بعض فضائله كونه يَفْضُل الدعاء ويزيد خيرُ المتصف به على خير المتصف بالدعاء . ومن نوره ونعمته قول الله تعالى : « فاذكرونى أذكركم »(٣) — فجمع فى هذه الكلمة بين الأمر والجزاء والارتباط وشرف الحكمة والكرم المحض ، وأوجب على جلاله ما لا يجب عليه والقطع بالسعادة ، إذا حصل هذا الأمر بحسب ما ذكرناه ، لأنه إذا ذكره إنما يذكره مع السعداء فلاسبيل إلى شقاوته . وقد يتفسَّرُ هذا بقوله [٨٣] تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »(٤) — بوجه ما . ومن نوره وجلالة قدره قوله ﷺ : « من قال الحمد لله رب العالمين فله ثلاثون حسنة » . وجميع ما جاء فى أمّ القرآن إنما هو لكونها احتوت على كليات القرآن والأسماء المُظْهَرة والمُضْمَرة والمشتقة . ومن شرفه الأحاديث الواردة فى الذاكر وما يعطاه ، وما جاء فى ذكر اليوم والليلة والأحاديث المنقولة عنه عليه السلام فى الذكر وأوقاته ومواطنه ، والظاهر منه والباطن ، والخفىّ والجلىّ ، وعدده وما جاء فى أسمائه وفى ذكره بها وفى حفظها ، وما أعدَّ اللهُ فى ثوابها . وهو يسهل على الطباع مع كونه يَصْحَبُهُ الأُنسُ ، ويكاد يمتد مع الأنفاس . والذاكر الصادق هو له كحياته ووجوده بقدر ما يُقَدَّر له من العمر والأزمنة له فى الذكر . وأما إذا وقع التحقيق فى هذه المسئلة فإنه أكثر من الزمان المحسوب له ؛ فإنه بحسب نيته وخبره . فهو مع كل نفس يقول : « الله » ! « الله » ، ويعتقد فيه

---

(١) بمعنى : تصون ، تحفظ .

(٢) الممكن : فى مقابل « الواجب » . والممكن متغير متقلب ، إذ هو ما يجوز أن يكون بخلاف ما هو كائن ، أما الواجب فثابت ، لأنه لا يمكن أن يكون بخلاف ما هو كائن .

(٣) سورة « البقرة » آية ١٥٢ . (٤) سورة « الرحمن » آية ٦٠ .

ألفَ ألفٍ . فالله لا يضيع له ما يريده ، والكريم لا يُتّهم فى أخلاقه . وأيضاً هو يذكره بلسانه ، وهو الذكر الذى قلنا فيه يمتدُّ امتدادَه .

وأما ذكر قلبه فهو الذكر الذى لا يأخذه الحصر ، فإنه بالجوهر الذى لا يدخل تحت الزمان — فافهم . وأيضاً إذا ذكره العبد بذكره وبالشىء الذى يعلمه المحقق لا نظير له فى الأعمال والفضائل . وكل فضيلة يتعب فيها ويطول أمرها ويحتاج فى سلوكها إلى زمان ليس باليسير والكل دونه . ولو فرضناها فوقه فى الوصف الواحد لكان هو بسرعته وما جُعِل فيه من الثواب يعطيها من صنة نفس وجوده فى المكلَّف . مثال ذلك : إذا قدَّرنا الصلاة المفروضة صلاة العصر تفضل « لا إله إلا الله » الكلمة الواحدة أو الثلاث كلمات أو أكثر بكذا كذا حسنةً أو نجعلها تزيد عليها مائة حسنة — لكان الذكر أجلَّ ، فإنه يقول بطول يومه بل ببعضه مايصح به إدراك المائةوالماية ألف . فكيف والأمر قد جاء فى الذكر بأكثر من هذا ! فكيف والذكر هو الصورة المقوِّمة والمتمِّمة لجميع الوظائف الشرعية ! ولا تصح وظيفة شرعيةإلا به . ومن جملة بركاته : طهارة الوقت مما لا يصلح ، وإهمال السيئات ، وموافقة الملائكة ونور الله فى ذلك الوقت وفى ذلك المحل من ذلك القلب ، وحفظ اللسان وسائر الجوارح على جهة الموافقة والإلزام . ومن جملة فضائله التشبه[1] بالله فإن الله يَذْكُرُ ويصحّ منه ذلك ويطلق عليه ، ولا يصح منه الفكر[2] . ومن فضيلته أنه معقول فى القدم ، فإن الله تعالى كان يثنى على نفسه ويخبر عن جميع معلوماته . والفكر وسائر الأعمال حادثة إلا ما كان من هذا القبيل . ومن فضيلته أنه من أسماء كتاب الله عز وجل[3] . [٨٤] ومن فضيلته أنه المراد بالقرآن ، والقرآن كله هو الذكر الأعلى ، وهو أجلُّ معجزات النبي ﷺ فإنه صفة « ذات » الله عز وجل ، وماعداه من المعجزات صفة « فعل » الله ؛ وهو من المعجزات الباقية

---

(١) لأن التصوف ، كالحكمة فى تعريف أفلاطون لها فى الكتب العربية ، هو « التشبه بالله بقدر الطاقة البشرية » .

(٢) أى الفكر المنطقى بمعنى استخدام التصورات والتصديقات فى البراهين لإدراك المعقولات ، لأن علم الله بالأشياء مباشر عيانى غير منطقى .

(٣) إشارة إلى الآية : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (سورة الحجر آية ٩) .

وغيره من المعجزات الذاهبة بذهاب وقتها وهو معجزة كانت وبقيت . ومن فضائله أنه هو الذى يُطْلَب بعد الموت وفى المواضع الضيقة وفى وقت الخاتمة . ومن جملة جلالته أنه فى الحيوان العاقل وغير العاقل :

وفى كل شىء له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدُ[١]

« وإن من شىء إلا يسبح بحمده »[٢] . وأما من أثبت نطق الموجودات فأمره أعظم فى حق الذكر ، وأما من أنكر ذلك (فقد) أُلزم ذكر لسان الحال . ومن فضيلته ثبوته بعد الأعمال فى الجنة ، وإن كان غيره من المقامات يثبت مثل ثبوته . ومن فضيلته كَوْنه فى كل مقام بالقوة لأنه يمشى ويتصل حيث تتصل النية لأنها هى القصد ، ومفهومه الخبر الصادق والعزم الثابت والتصديق الخالص . ونحن قد ذكرنا أنه ينقسم إلى ظاهر وباطن ، والكلام هو المعنى القائم بالنفس وهو الدائر فى الخلد بحسب مذهب ما . وكل كلام هو لله أو من أجله أو يذكر به أو بوظائفه فهو ذكر . وأيضاً إذا قلنا مقام التوبة : أين الذكر فيه ؟ قلنا التائب يدعو ربه : فقد ذكره بلسانه وقت نوافله وخلوته ، وبقلبه حيث يخبر عن عزمه على الفرار من العودة وإخباره عن الندم . وجملة هذا كله هو حال التضرع . فإن قُلْتَ : هذا مقام الدعاء غير مقام الذكر فلا يدخل أحدهما على الثانى . قلتُ له[٣] : الدعاء هو الذكر إن لم يقرن مع الطلب ؛ فإذا حُرِّر القَصْدُ وجُرِّدالغرض كان الذكر الأكبر . وإذا وقع الاشتراك ضَعُفَ الذكر . ومقام التوكل ذكر الله وذكر القلب مما فرغ منه ، فهو يذكر صفته أعنى علمه ، ويذكر قدره وقضاءه أعنى إرادته ويذكر قدرته . ومقام الرِّضا يَذْكر فيه صاحبُ ذلك المقام حكمته وعدله وحبه فى كل حال كان عليه،وحينئذ يصح له مقامه . ومقام التوحيد يذكره فى وحدته وفى كونه واحد الوحدة ، بالتصفح والسَّبْر والتقسيم ، تجد ذلك كما وجدته أنا . ومن فضيلته أنه يذكر بالعهد الأول ويظفر بالصِّدِّيقية . ومن فضيلته أنه يتطور فى القوى النفسانية .

---

(١) بيت شعر لأبى العتاهية (راجع ديوانه ، وراجع « الأغانى » ج ٤ ص ٣٥ س ١٨ . طبع دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية، القاهرة سنة ١٩٥٠) .

(٢) سورة « الإسراء » آية : ٤٤ .

(٣) كذا ، والأصح : لك .

وهذا الذاكر المحمود هو الذى يقع على ما يجب ويتعلق كما يجب ، لا الذى يصدر من غير المعتقد أو يُتوهَّم به الممنوعُ العقلى أو الشرعى . وإنما الذكر المراد هنا المحمودُ من كل الجهات ، وإن كان الذاكر من العلماء أو من المتوسطين أو دون ذلك — الخير فيه إذا تم على سداده من جهة معقوله .
ومن فضائله عناية ربنا عز وجل بالمؤمنين بقوله : « يأيها الذين آمنوا [٨٥] اذكروا الله ذكراً كثيراً »(١) . ومن فضائله كون رسول الله ﷺ ذم آخر الزمان بعدم الذكر فيه ، بقوله : « لاتقوم الساعة على أحد يقول : الله ! الله ! » ومن فضائله قول رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتدقُّوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى ! قال : ذكر الله » — فهذا المختار قد اختاره لنا لأنه قال أرفع الأعمال . والعاقل يختار الذى يختاره له المرشد .
وشهادة النبى ﷺ صادقة ، وهو لا يخبر إلا عن الله . فالله قد أخبرنا بمثل ذلك . فأى دليل نطلب بعد نصيحة الله ورسوله ! وأى إرشاد أرشد من إرشاد الله ورسوله ! ثم فضله على الصَّدقة وعلى الجهاد وعلى الشهادة لأن الذى تضرب عنقه لا يعيش . وهذا إذا سلم من المُشَوِّش وحُرِز من الاعتراض لا شىء أظهر من فضله — فاعلم . ومن فضيلته قول رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . فقيل له : ما رياض الجنة ؟ قال : مجلس الذكر » . ومن فضيلته أنه لا يفوتك حتى فى المواضع الغير طاهرة . فإنك مُنِعتَ أن تذكر الله بلسانك فى موضع الحاجة ، وأُمرت أن لا تغفل عن الله طرفة عين — فبقى لك ذِكْرُ القلب أو ذكره بالاسم المضمر كما جاء وقد جاء بالاسم الصريح . ومن فضيلته أنه يدفع البلاء عن العبد إذا طاف به فتعود رحمة الذكر عليه تحفظه ، وقد جعله الله للمؤمن الذاكر غطاء كامناً وحرماً آمناً . ومن فضيلته أنه يَنقُلُ من الغيبة إلى الحضور ثم إلى المشاهدة . ومن فضيلته أنك إذا ذكرت الله حتى تنسى به كل شىء ألهمك الله به كل شىء وملَّككَ كلَّ شىء صالح . ومن فضيلته أنه قياسك مع ربك فى المقابلة والمصاحبة والاغتباط وبقدر ما تجد نفسك فى الذكر ومع المذكور هو لك كذلك وأنت معه على هذا القياس — وقد جاء : « أنا عند ظن عبدى بى » — الحديث . ومن فضيلة الذكر قول رسول الله

---

(١) سورة « الأحزاب » آية : ٤١ .

ﷺ حاكياً عن الله تعالى : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » — فالمصلى ما هو جليس الله إلا من حيث ذكره فقط . ومن فضيلته أنك تذكره بوضوء وغير وضوء ، وطاهراً وغير طاهر ، وعلى جملة تصرفاتك : إن كنت واقفاً أو قاعداً أو راقداً أو على جنبك — فافهم . ومن فضيلته أنه يتقدم على أوقات الصلوات أعنى الفعل وهو فى وقتها ، الذى هو الامارة والسبب المظهر للحكم . وهو الذى لا يقنع بغيره من الوظائف فى دعوى الإسلام من الكافر وإن صام وحج وجاهد ودفع زكاته حتى يُسمع يقول : « لا إله إلا الله » أو يبصر يصلى ، وما ذلك إلا لما يُعلم أنه يذكر الله فيها أو لكونها تتضمن الذكر ، فاعلم ذلك . ومن فضيلته كون الاسم الأعظم أجل المكاسب ، وهو ذكر الله المحمول على الماهية . ومن فضيلته كونه لا يتقيد بزمان بخلاف بعض العبادات ، وكل وظيفة[1] شرعية يخصها وقت ما [٨٦] كشهر رمضان مرةً فى السنة ، والحج مرةً فى العمر ، والزكاة فى السنة ، والجهاد فى وقت دون وقت وقد يجب ولا يجب ، والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة — والذكر مع الأنفاس ، ويثبت فى دار الجزاء ، وينفع قبل الموت ، وفى حال الموت ، وفى القبر ، وفيما يُعِدُّه ويُتْحف به الرجلُ الرجل والوالد الولد وبالعكس . ومن فضيلته ما جاء فى الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول : « أعطيتُ أمّتك يا محمد ما لم أُعْطِ أحداً من الأمم » . فقال : « وما ذلك يا جبريل ؟ » قال : قوله تعالى « فاذكرونى أذكركم »[2] — ولم يقل هذا لغير هذه الأمة . ومن فضيلته أن الملك يستأذن الذاكر فى قبض روحه . ومن فضيلته ما جاء عن موسى عليه السلام أنه سأل ربه : « أين تسكن ؟ » فأوحى الله إليه : « فى قلب عبدى المؤمن » — ومفهومه ثبوت الذكر وتحيُّر اللب فى الذى يجب ويجوز لله ويستحيل فى حقه وكونه لا يسعه أن يذكره بأكثر من الذى يجب له ولا مثل الذى هو عليه — فتحقق أنه دون ذلك . فنقول : المُطَفِّف[3] لا شىء يصح له ولا المقتصد ، والنصيب الصحيح فى المَقْصِد . ومن فضيلته أنه بقدر ما يكون من الذاكر يستخدم الملائكة فى غرس الأشجار . وقد جاء أن الله عز وجل قال : « يا ابن آدم ! ما أنصفتنى : أذكرك وتنسانى » . ومن فضيلته أن الحلاوة انحصرت فيه

---

(١) ص : وضيعة .   (٢) سورة « البقرة » آية : ١٥٢ .

(٣) المطفف : الذى يبخس الشىء حقه .

وفى قراءة القرآن وفى الصلاة كما جاء — وإذا نظرت إلى هذه الثلاثة تجدها مفهوم الذكر وهى هو . ومن فضيلته ما جاء فى الرقاء[1] وما يحفظ به من الدجال . ومن فضيلته أن النوع الواحد منه يشبه عبادة أهل الملكوت والعالم المفارق فإن تلك الذوات ذاكرة بالنوع المحمود ؛ وبذلك يفضل جميع الوظائف الشرعية ، فإن جميعها لا يطلق على تلك الذوات ، وإن أطلق على جهة التشبيه وذلك التشبه لا يتعلق إلا بالوضع والقصد لا أنه على المعنى من كل الجهات أو هو يقع على معقول الشبه المألوف . بل بالذى قلناه فقط . وقد نقل عن بعضهم أنه قال : « يقول الله عز وجل إذا كان الغالب على عبدى ذِكْرى عَشِقَنِى وعشقْته » . ومن فضيلته أنه عند بعض أهل الحق إذا أهمل من أعظم سيئات المقرّبين ، ولا شيء عندهم أعظم من إهمال ذكر الله .

ومن فضيلته أنه عنوان القلب ولسان الصدق ومعلول علة ذكر الله ، وفى بعض الكتب المنزلة : « واذكرنى حين تغضَب أذكرْك حين أغضب ، واذكرنى حين ترضى أذكرك حين أرضى ، وافرح بنصرتى لك فإنها خير من نصرتك لنفسك » . — وُجد بعض الرهبان[2] وهو يستغيث فقيل له : « بماذا ؟ » فقال : « ذكرته وصمتُّ بين الذكر بقدر ما يفوت فيه قدر ذلك ، وزمان الغفلة عن الله حرمان عظيم ، فإنى ببعض أحوالى محروم . وفى يومى هذا أعوذ بالله من هذا اليوم » . وقيل لراهب آخر : « أنت صائم ؟ » [٨٧] فقال : « أنا صائم بذكر الله ، فإذا ذكرت غير الله أفطرت » . ومن فضيلته أنه أنزل على موسى حكمةً فى يوم الثلاثاء وكلمةً يوم الخميس ، قال ذلك عنه صاحب[3] « دلالة الحائرين » . وقيل لبعض أحبار اليهود : « اعبدْ ربك ! » فقال : « قد فعلتُ ذلك فى وقتى هذا » . ثم قيل له فى ذلك ، فقال كذلك . فقيل له : « وأنّى لك هذا ! أنت تباهت » . فقال للقائل له : « أنا ذاكره ، وعادته معى تمكننى بالإدراك من كل شيء حال ذكره » . وقيل لبعض الحكماء : «ما تفعل لو أنك تُحمَل وتُجمَّلُ فى جزيرة منقطعة وتفقد المؤانس

---

(١) مصدر من رقى يرقى (بالكسر) رقياً (بضم الراء وفتحها وسكون الياء) ورقية : استعمل الرقية وهى أن يستعان على جلب منفعة أو رفع مضرة بكلام أو عمل .

(٢) لاحظ نقل ابن سبعين هنا عن أخبار الرهبان ، مما يدل على اطلاعه على شيء من أحوالهم .

(٣) أي موسى بن ميمون الإسرائيلي (١١٣٥ — ١٢٠٤ م) .

وجميع الطيبات ؟ » قال : « نتشبه بالعالم العلوى » . قيل له : « كيف تذكر ؟ » قال : « أذكر عينى وشيئى وظاهر ماهيتى ومعلومى الذى أبحث عنه الذى لا أول لوجوده ونجد الجميع ونتشبه فيه بأشراف الذوات » . قيل له : « وكيف يحصل لك ذلك ؟ » قال : « إذا أنا ذكرته استقامت نفسى على طريقة أهل الكمال وتذكرت واستجاب الأمر فيها ، وبذلك يحصل لها التعلق بعالمها فيعود الأمر من قوة الاستغراق إلى الحال الشبيهة بالنوم فتركد الجوارح ويقع الكشف ، ولا شيء أجلُ من هذا كله » .

ومن فضيلته تجديد اللذة فى كل لحظة . ومن فضيلته أن لذته روحانية وهو مذكره بأنموذج من جلال رجال الله . ومن فضيلته أنه يفعل فى البِدْعِى[(1)] ويوجد فى الكفار، وإن كان الكافر يطلق الذكر على غير وجهه ولغير الله — فالأمر إليه يرجع . ومن فضيلته أنه يوجد فى الإقرار ، لأن الحكمة تشهد أنه إذا غضب المبطل فى الحق أنصفه المضمار المفروض فى الوجود ، وإن لم يقم بالمبطل قام بماهية الوجود ويشهد له لسانها . ومن فضيلته أنه يتعلق بالكواكب وبجميع الصور والكواكب العلوية وبالمتحيّرة[(2)] وبالقوة فينتفع به الذاكر وإن كانت المنفعة غير معتبرة فشرف الذكر فيها ظاهر . ومن فضيلته أنه لا يصح من أحد إلا ووقته فيه محفوظ ، وإن قدرناه يموت فيموت فى الوقت المختار المحمود وهو يذكر الله والله يذكره .

ومن فضيلته ما جاء عن جعفر الصادق رضى الله عنه الذى حكاه جابر بن حيان[(3)] أنه كان يتكلم فى جميع العلوم عقيب الذكر . وسأل بعض الفلاسفة فى يوم حضوره للناس بمحضر الجميع منهم فقال له : ما دليلك على أن للعالم فاعلا مختاراً يختار حدوثه ؟ فقال : أرأيت لو أنا قدرنا لهذا

---

(١) أى المبتدع Hereje ، صاحب البدعة .

(٢) المتحيرة : الكواكب السيارة .

(٣) الصلة بين جابر بن حيان وجعفر الصادق مشهورة مذكورة — راجع « الفهرست » لابن النديم ، تحت اسم جابر بن حيان . وراجع :

Paul Kraus : Jabir Ibn Hayyan. Tome II, Le Caire, 1942.

وراجع أيضا كتابنا : « من تاريخ الإلحاد فى الإسلام » ص ١٩١ — ١٩٧ القاهرة سنة ١٩٤٥

المحدث الذى يختار ويدبرّ الأكوان وهو حكيم لا يفعل إلا الأولى ويتقن المصنوعات — أىّ شىء كان يظهر فى هذا الوجود ؟ وهذا منّى على صورة الفرض لا على أنه على صورة الدليل . قال له الفيلسوف : كان يفعل ما ينبغى ويتقن الأشياء ويضع كل شىء فى محله . قال له جعفر الصادق فقد كان ذلك وماقدّرته قد وقع. وجاء عنه — رضى الله عنه — أنه كان يوماً يذكر الله فجاءه بعض الناس فقال له : ما أقوى دليل على [٨٨] وجود الله الذى أنت ذاكره ؟ قال له : وجودى ، وذلك لأن وجودى حدث بعد أن لم يكن ، بأى[١] فاعل ؟ يمتنع أن يقال فاعل وجودى أنا ، لأنه لايخلو إما أن يقال أحدثت نفسى حالما كنت موجوداً أو حالما كنت معدوماً ؛ فإن أحدثتُ نفسى حالما كنت موجوداً فالموجود أىّ حاجة[٢] له إلى الوجود ؟ ! وإن أحدثتُ نفسى حالما كنت معدوماً فالمعدوم كيف يكون موجِداً للموجود ! فدلّ على أن الذى أنا ذاكره هو الذى نشير إليه بالاشتقاق وهو الصانع الفاعل لوجودى ووجود غيرى ، عز وجل ، ظاهر لا بتأويل المباشرة ، باطن لا بتأويل المباعدة ، يسمع بغير آلة ، ويبصر بغير حَدَقة ، لا تحده الصفات ولاتأخذه السّنات ، القديم وجوده ، والأبد أزَلُه الذى أيّنَ الأَيْنَ[٣] لا يقال له : أين كان .

ومن فضيلته ما جاء عن بعض الملوك مع بعض الرجال : كان يذكر ربه ويحضُّ الناس على ذكره . فقال له الملك : لمن أنت ذاكر ؟ فسكت عنه . فقال له : « كلّمنى ! » قال : « أنا أفكّر فى هذا البستان الذى كان خراباً ، ثم من بعد ذلك صار من أخصب المواضع ومن أرفعها وذلك من تلقاء نفسه » . قال له الملك : « أنت مجنون » . قال له : « بل أنت ذلك الذى ترتع فى بستان وجود الله وتسأل عنه » . فأعطاه الجواب ، وكان يذكر فلم يقطع غيره ، والله يمده بالغيب الكريم . وقد حُكِى عن على عليه السلام وهو يذكر أنه قيل له : « هل تذكر مَن تبصر أو تعلم ؟ » فقال : « لَمْ أعبد ربّاً لم أره » . فقيل له : « كيف رأيته ؟ » فقال : « ما رأيته بمشاهدة العيان ، ولكن رؤية القلب بحقائق العرفان » . فقيل له : « صفْ لنا هذا المذكور » . فقال : « إن ربى لطيف الرحمة ، كبير الكبرياء ، جليل الجلالة ؛ قبل كل شىء ليس له قبل ، وبعد كل شىء ليس له بعد ؛

(١) ص : بله (!) (٢) ص : حالة .
(٣) أي هو الذي خلق المكان ، فكيف يقال : أين هو

ظاهر لا بتأويل المباشرة ، باطن لا بتأويل المباعدة ، يسمع بغير آلة ويبصر بغير حدقة ، لا تحدُّه الصفاتُ ولا تأخذه السِّنات ، القديم وجوده والأبد أزله . الذى أيّنَ الأَيْنَ ، لا يقال له أين ؛ وكَيّف الكيف ، لا يقال له كيف » . هذا حكاه جابر بن حيان فى « الهداية » ، وابن الخطيب[١] فى « المطالب العالية » . وحُكِى مثل ذلك عن طبيب كان يعرف الله ، وكان إذا ركب الأدوية يذكر الله وينفعل للذكر . فقيل له : ما الذى حملك على الذكر إذا ركّبت الأدوية وتنفعل لذلك ؟ قال : «أستعين بذكر الطبيب على العلة ؛ وأيضاً أبصرت الإهليج المجفف يُطْلَق ، واللّعاب المسك يلين — فعرفت أن الأمر آخر . وأيضا ذكرته لأنى عرفته بحيوان صغير وضع السم فى أحد طرفيه والشفاء فى طرفه الآخر » — وعنى به النَّحل .

ومن فضيلة الذكر أن بعض الملوك — وقيل هو المُوَفَّق بالله — حجّ وكان قد حضر عنده جماعة من المنجمين . فأضمر لهم ذكر الله ، وقال لهم : أنتم تقولون إن الإنسان يضمر فى قلبه وتخبرونه بما أضمر ؟ قال له أحدهم : نعم يا أمير المؤمنين ؛ فقال : قد أضمرتُ فهل من يكشف ذلك ؟ فتكلم كل واحد [٨٩] منهم فلم يُصِبْ . فقام أعظمهم — وهو أبو معشر[٢] والله أعلم — فقال : أضمرتَ ذكر الله ؟ فقال له : صدقتَ ، أخبرنى كيف اطلعت على هذا . فقال : لأنك لما أضمرتَ أخذتُ ارتفاع الوقت فوجدت نقطة الرأس فى وسط السماء ، ونقطة الرأس شىء لا ترى ذاته ويُرى أثره وخيره ، ووسطُ السماء أرفع موضع فى الفلك فعلمت أنك أضمرت ذكر موجود لا تُرى ذاته بل يُرى أثر خيره ورحمته ، وذلك الموجود هو أرفع الموجودات ، وليس هذا الموجود إلا الله تعالى .

ومن فضيلته أنه ينفع فى سبع خواص من السيمياء ويفسد تسع خواص من السحر . ومن أراد استعمال قوى الكواكب بحسب صناعة أهل العلم الرياضى لا بد له من الذكر ، وذلك بعد الدستورية

---

(١) ابن الخطيب : هو الفخر الرازى صاحب التفسير (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) .

(٢) أى أبو معشر الفلكى المشهور ، صاحب كتاب « الألوف » الخ — راجع عنه القفطى : « أخبار الحكماء » (القاهرة ، ص ١٠٦ وما يليها) ، « والفهرست » لابن النديم (ص ٣٨٦) ، « وطبقات الأمم » لصاعد الأندلسى (ص ٨٩ ، طبعة القاهرة ، وص ١١٢ ترجمة بلاشير) .

أعنى أن يكون الكوكب فى بيته أو شرفه فى الوتد وينظر الكوكب إليه من بيته أو شرفه من الوتد كالزُهرة فى الميزان فى الطالع ، و زحل فى الجدى أو فى الميزان ، والمريخ فى الجدى . واعلم أن الكوكب إذا كان فى الحيز أو البرج أو الدستورية كان أظهر فعلا وأقوى تأثيراً ، ثم يعمد إلى اتخاذ الصورة والاسم والبخور والأفعال . مثال ذلك برج الثور : تستعمل صورة إذا كان فى الوجه الثانى ، ويريد الحكيم أن يخدم أمره ، يتخذ صورة ثور مضروب الوسط ويناديه : « لهرلرل » ، ويبخر بذنب الفأرة ويفعل الأمور المهلكة بإذن الله ؛ ويقول فى جميع خدمته : ياحمر لايل ، يادبرلايل ، يا جبرلايل . ومفهوم ذلك : يا مالك القوى السارية فى الأجسام الفلكية والطبيعية والذوات العارفة بك والتى فوقها ، يا نور النور .

فهذه من بعض فضائل الذكر عند من لا علم له بالمذكور . والله قد ربط عادته فى تعظيم ذكره عند المؤمن والكافر ويكون الأمر من حيث الحق فى غاية التمام والحسن ، ومن حيث الذاكر الذى يذكره على غير ما هو به فى غاية النقص ، فإنه تعظيم ذكره ، ولا يسأل عما يفعل ، وذلك لزيادة جلاله . وأكثر من ذلك ذكر الجماد له بلسان الاستحقاق .

وبلغنى عن الهنود أنهم إذا عزموا على وضع الهياكل لابد لهم من أسماء يذكرونها وحينئذ يضعونها ، وتلك الأسماء : « واه ِ بُدّ الأبد الأوحدان هرشان أورهشان » . ومفهومه : « يا مَنْ مِنْ أجله أحرق الطائع بَشَرَته و توجه لبعض مخلوقاته الشريفة ! أنعم علينا بنسمة منك تسرى لنا وتفصل فى أحوال أرواحنا ، يا أصل كل شيء ولا أصل له ، يا بُدّ مفهومه ، يامن يقوم به الأشياء وهو فى كل شيء بشيئيته » .

والسودان إذا أرادوا أن يتخذوا الصور العجيبة يكتبون أسماء الله على وجوههم ، وتلك الأسماء موروثة عندهم ، وهى جملة : « ياشى فاشى بر يرجع شعشاع » — مفهومه : « مَنْ ذَكَرَ الله فرّ منه كل عدوّ ، فأمَدُ الله يَقدِر ولا يُقدر عليه » .

والإفرنج لا يصح للبابة[1] منهم المكانة حتى يذكر ربه [٩٠] بلسانه ثم بلاهوته : يذكره

---

(١) أى البابا ، رأس الكنيسة الكاثوليكية = Pape .

بلسانه حتى يغيب ، وبلاهوته حتى يصيبه شيء شبيهُ الجنون ، يذكر الله بالأقنومية وهي صفة ذاته وما أشبه ذلك وهذا كثير جداً . وكان سقراط يقول في كل صباح : « أنا الدليل بالذات وأنت العزيز بالذات ، فلا تجعلني بعزتك من الشُهداء بالعَرَض . يا مَنْ هو صورة كل شيء وقياس هذا العالم ووجوده القريب ، احجبْني عن كل مايقطعني عن كمالي » وكان يكثر قول: « أنت أنت أنت » — فقيل له : ما هذا الكلام المهمل المبهم ؟ فقال : «هو يحدثني بما وجب له عندي وأنا أكلمه بما وجب له عليّ . فإن ذكرت نفسي نجدها قد استحقها فنقول : « أنت ليس إلا » ، وإن ذكرته هو نجده قد استجاب عندي وهو ماهيةُ ما أنا عليه والعالم بسببه فنقول أنت » . قيل له فقل : « هو » — قال: أُشير بغير محادثه على الخصوص . وكان أفلاطون يقول : « يانور العالم ! يا سبب الكل ! يامبدع المُثُل والتوابع ! كم ذا نتجرد ونعود إلى هذا الجسم ونرجع فيعالم العقل إليه ! قوّني بحيث أثبت عندك ولا نعود ، فإن صرفتني إلى هذا الهيكل فاشغلني بك وألهمني بالرجوع إلى حالتي التي انصرفت من حضرتها الشريفة . يا غاية العقل والعلم ، يالذة الهمة يا أمل الحكمة ! » وكان أرسطو يقول : « يا علة العِلل ، يا أزل الأزل ، يا سبب[1] أول ، يا واهب العقل ! قِني نارك . يا من تكرم علينا بالوجود ، لا تهمل نفوسنا في عالم الطبيعة وخصصنا في حضرة الجود » — وبلغني أن الهرامسة[2] كانوا يقسمون نهارهم وليلهم إلى زمان الذكر ، وزمان معرفة مدلوله بينهم ، وزمان اختيار ذكرهم وتحقيق حقيقة قبول المذكور عليهم بوارد طارق أو حال خارق أو إشارة في الكون أو ملك مخاطب أو زيادة رحمة أو خير مُكتسب .

ولكل نبي دعوةٌ ، ولتلك الدعوة ذكر خاص . وساعات الأنبياء لا يمكن فيها المناجاة ، لأن اللطائف إذا تواردت على المحل لا يسع العارف إلا الذكر . وبلغني أن آدم عليه السلام كان يقول : « اللهم أرِحْني بجنتك التي لا يتوقف فيها ذكرك ، ولا نفقد فيها ذاتك . يا مَن أسجد الملائكة لعبده وهو يعلم منه أنه يعصيه بعد ذلك . يا مَن كرّمه لا يتوقف على الجزاء

---

(١) كذا ، وصوابه يا سبباً أول .

(٢) راجع عن الهرامسة وصورة هرمس في الفكر العربي — كتابنا : « الإنسانية والوجودية في الفكر العربي » ص ١٦١ — ١٩٧ ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .

والمسئلة ، ولا يستند إلى مايقل ويكثر . يا واسع الخير ! يا رحمن ، ياحليم ، يا الله ! » . وكان إدريس عليه السلام يقول : « علمتُ أنك العليُّ الكبير الشان ، المنعمُ على كل ذات حادثة ، العالم بكل الكائنات ، الذى له الملك والحمد . فأنعِم عليَّ بما علمتنى ، وخلِّصنى من ملاحظة غيرك يا ذا الملك والسلطان » . وكان نوح عليه السلام يقول : « اللهم أنعم عليّ بالصبر حتى نفرح فى الدنيا والآخرة بدعوة الحق · يا حق ، يا مدبر الخلق ولو فى رجل واحد . يا ألله : يا ألله ، يارب ، يا رب ». وكان يقول فى السفينة بحسب ما نقل : « اللهم سلِّم وأنعم علينا بالعافية ، وادفع [٩١] عنا غضبك : لاطاقة لنا عليه ، وانظر بعين رضوانك إلينا يا رحيم يا رءوف ! » وكان يقول بعد سلامته : « يا وهّاب ، يا محسن[١] المذنبين ! ثبتنا على طاعتك ولا تهملنا وعافنا » . وقال عند موته : « سُبحان الحىّ الذى لا يموت » . وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يقول : « اللهم بحق كلمات الصحف آنسنى بك وبلغنى غاياتى فى جوارك ، وارحمنى بحضرة رضوانك ، واجعلنى فى الأرض أسْوةً صادقاً يجذب عبادَك إلى رحمتك ، وحدثنى فى سرى بما تكشف به عن ملكوت السمٰوات والأرض ، واجعل ذريتى صالحة » . — والذبيح[٢] عليه السلام كان فداؤه ذكر ربه فى قلبه بصفة الرضا . ويعقوب عليه السلام قسم ذكره لربه وحبه ليوسف ، فكان عذاب باطنه لأجل المساواة . وكذلك يوسف : طال أمره لكونه ذكر غير مذكور فغار الحق على ذكره له ، ولكونه وقعت فيه المشاركة . وهذا فى حق يوسف عليه السلام مما يحمد لأنه عاتبه على المُباح فدلَّ على أنه اصطفاه . والكلام عليهما يطول ذكره لا أنه من قبيل القصص المذكور الذى تعظمه العامة ، بل من قبيل التحقيق الذى تعظمه الخاصة — وكان موسى عليه السلام يقول : « نذكرك فى القلب مرة ثم نبصرك به فأنعم عليَّ بالنظر إلى وجهك ، كما أنعمت على المذنبين من عبادك » . وما ذاك إلا أنه غاب ذكره فى بصره فأبصر الحق بالحق ، وطلب ذلك من جميع الجهات . وكان هارون عليه السلام يقول : « اللهم أرِحْ عبادك ، ومَهِّدْ بلادك » . وكان عليه السلام يقول : « ذكر الله

---

(١) كذا ، وصوابه : يا محسناً .

(٢) أى إسحاق ، أو إسماعيل بحسب اختلاف الرأى فى ذلك بين المسلمين ، وإن كان الثابت من التوراة أنه إسحاق .

شريعة القلوب ونصيبها من نور الله . اللهم طَهِّر قلوبنا بذكرك حتى نذكرك بما تحبه كما تحبه » .
وفى التوراة : ذكرى رحمة للعباد لا يصلح معها عذابى . فأوحى الله إلى موسى عليه السلام :
« اذكُرْنى فإنَّ بذكرك لى كلمتك ، وبه ترانى وأنا مع الذاكرين » . فقال موسى : « ياربِّ
أنعمت فتمِّمْ لى ؛ ما ليس لك فإنه مثلك وليس لك مثلُ نفسك» . فأوحى الله إليه : « من استند إلىَّ
كَفَيْتُهُ ، ومَن ذكرنى فقد بلغ إلى حضرتى » . وكان داود عليه السلام يقول : « الحمد لله على
حمده وعلى ما بعده » فأوحى الله إليه : « يا داود ! احمدنى وزد فى حمدى ! » فقال : « يا رب !
وهل يستطيع أحد على حمدك ، فإنما حمدك نعمة من النعم » . فأوحى الله إليه : « علمت ذلك فقد
حمدتنى » . وفى الزبور : « يا داود ! أنا عند ظن عبدى فليظنَّ بى خيراً » . ومعناه : أنا بحسب
ما يخبر عنى ويذكرنى . وفى الزبور : « يا داود ! أنا بُدُّك اللازم فالزم بدك » . ومفهومه : أخبر
عن واجبه فيك وعن استحقاقه لك — وهذا هو ذكر القلب وذكر بعض أهل التحقيق أنه كان
إذا أراد أن يفعل الأمور العجيبة يتكلم بكلام غريب وبحروف مقطّعة فيفعل الأمور الغريبة
صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين . وسليمان — عليه السلام — فعل بالذكر والاسم
والخاتم ما [٩٢] سمعت ، ودعونه كلها ذكر . وبه علم منطق الطير والذكر المشترك والنطق العام
المقول على كل موجود بل على كل معدوم بوجه ما . وبلغنى أنه كان إذا عزم على الحركة ويريد
تصرف الذوات التى حصرها عالم السكون يتكلم بكلام خفى ويستدعى الجميع أسرع من الطيف .
وأفاد ذلك لبعض خدامه ، فكان يفعل ، حتى كاد أن يفعل فيه . وكان يذكر حتى يفعل فى
الموجودات ويظهر فيها العجائب . وكان فى خاتمه ، مكتوب : من علم الله ، علّمه الله عِلْم ما لم يعلم ،
وملّكه ناصية كل مليك وخلّص مُلْكه ، وجمع له بين مُلك الدنيا ونعيم الآخرة . ومن ذكره
بحسب علمه زاد له من ذلك وأيّده بروح منه . وذكر الله هو الروح الحافظ . ومات زكرياء عليه
السلام وهو يقول : « الحمد لله الذى جعلنى من عباده الصالحين » . وفى الإنجيل : « لا خَيْرَ فى عبد
لا يذكرنى . » — ولا يدخل الجنة من ذكر غير الله أكثر من الله ، فكيف ! وفى الحديث
الصحيح : « ما من ساعة تمر على العبد لا يذكر الله فيها إلا وكانت عليه حَسْرةً يوم القيامة
وإن دخل الجنة » . وذُبِح يحيى عليه السلام وهو يقول : « مولاى ! رحمتنى بالقرب منك فارحمنى

بجميل اللقاء » . — وذكر الله جُنّةٌ لاتصيب بها مصيبة لمن يخص بها . وفى الإنجيل : « يا عيسى ! اذكرنى كما يذكر الولدُ الوالدَ » وفيه : « نسمة المؤمن محل الذكر ، ومحل الذكر حضرتى » . وفيه : « الحكمة الصادقة ذكر الله مع أهله وفى وقت الغفلة بين الغافلين » . وكان لقمان يقول لابنه : « لا تطلب الحكمة فى بطون الأوراق ، ولا تسمعها من الألسنة ، ولكن انظر الصنعة واذكر الصانع يُرْشِدْك لكل شىء » . وأصحاب المسيح عبادتهم الذكر والسياحة والتجرد والصوم واستماع الهواتف والطوائف والبوارق ، وهى الآن سُنَّة الرهبان .

وإذا ذكر الله وقع الجلال فى الضمائر واهتزت الأرض بالكُنْهُ اللازم لها والملَكة الواجبة فى الأشياء الظاهرة بها . وقد جاء فى الحديث الصحيح أن المؤذِّن ما يمر أذانه على رَطْب أو يابس إلا شهد له بالإيمان يوم القيامة . وقد قيل فى قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » : إنه الذكر فى مواطن التعبد ، وقد قيل : هى العبادة . وكيفما كان الأمر ، الذكر لا يفوت أمره ، كان بسيطاً أو مركباً .

وأما نبيّنا عليه السلام فقد بدأتُ به وبكتاب الله تعالى ، وقد جاء فى ذلك من الأحاديث ما لا يحصى عددها . وكان الصديق رضى الله عنه يذكر فى نفسه ويقول : « أسمع من أناجى » . وعمر رضى الله عنه كان يذكر بالجهر ويُحاربُ عدوَّ الله الشيطان . وعثمان رضى الله عنه كان يقوم الليل كله بالقرآن ، وهو الذكر من جهة الاسم والمدلول والجميع . وعلىٌّ عليه السلام خطبته معروفة وذكره لا يمكن أحداً[1] أن يستريب فيه . والسلف [٩٣] الصالح كذلك كلهم ورجال الرسالة الذكر عندهم مقامٌ كريمٌ . وهو لا يترك فى السلوك ولا فى الوصول لأن كلَّ واحد من الواصلين يذكر ما هو بسبيله ولو بالقلب ولو بالمذكور ولو بإخباره عن قطعه ، ولو بالوقفة . وبالجملة لابد من الذكر ، وهو يتقدم ويتأخر ويقارن المقامات واللذات والأحوال والجميع . وأُويس[2]

---

(١) ص : أحد .

(٢) أى أويس القرنى ، راجع عنه : « الكواكب الدرية » للمناوى ج ١ ص ٧٩ (القاهرة سنة ١٩٣٨) ؛ أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ١٦٢ . الشعرانى : « الطبقات الكبرى » ج ١ ص ٢٤ .

رضى الله عنه كان مقامه الذكر المفرط والبكاء ، وكان فكره يتأخر عن ذكره ومات وهو مُقَدَّمٌ أُسْوَةً لأهل الطريق ، وذكره فكره معاً فافهم !

ومن فضيلته كونه فرضاً عليك : مفرداً ، ومركباً : تارة وحده وتارة بإضافته إلى عبادةأخرى . وهو أول ما تستفتح به الرسل لعباد الله وأما المحدث فينقل فيه الوجوب والندب . والفقيه يوجبه عند تذكر النعم وفى الصلوات المكتوبة ومن حيث المسلم ، ويحمّده إذا أفرط وإن استغرق فيه الوقت كما يجب . وهو عنوان السعادة عند الموت . وهو الأول فى الدين، والآخر من أول ما يطلب المكلف به ، وعند الموت . وهو ظاهر فى اللسان ، وباطن فى الجنان . فقد ظهرت فضيلته فى صناعة الحديث والقياس وفى الأحوال ، فإنها تكشف فضله وتحض عليه وتجرُّ إليه . وبالجملة ، فضله فى العقل والنقل والإجماع والقياس لا يخفى إلا على مجنون أو محروم أو مُباهت أو بطَّال أو جاهل — وأعوذ بالله من هذه الأوصاف . وكذلك وجوهالتصوف : أما الأول فيقول(١) : الذكر يحفظ نظام الأحوال وينشّط القصد ويحرّره ويُنَوّع اللذات الباطنة . والثانى يحمده فإنه يصرف الوهم إلى مرتبة التقدير ويقطعه بانقطاعه هو ولا ينقطع إلا فى المذكور ، والمذكور هو المقصود ، والمقصود لا وَهْمَ فيه . والثالث يحضُّ على متعلقاته بحسب محل ، ومن جهة وجهة . والذكر الجوهرى يحده فى تطوره فى جوهره المنتظر ، وكان ينتظر به جلالةً مجهولةً فى تحقيقه ، ويسوقها هو . ولولا التطويلُ كنت أذكر ماهيته بحسب الوجوه والمراتب التى فوقها ، وما بعد ذلك . ولكنى راعيت الكلام على مكانه وفوائده ومقاييسه واستعماله كيف يكون ، ومع من ، وفى أى وقت ، وبماذا ، وكيف ماذا ، وأين ، وما غايته ، وما نسبته ، وما حكمته فى الثناء عليه والحث على استعماله واتخاذه ، وإن كان الكلام المقدم فيه الكفاية . وأيضًا وصلته للوجه الثالث : فإنه فوقه بوجه أكمل يعسر تصوره على الجاهل فيعود بوجه أنقص عنده ، فاعلم ذلك . وأيضًا إذا وصل الكلام لنص التحقيق يتجرد الاصطلاح الغريب ويفرُّ الذكرُ من قلب الذاكر ويُطْبَعُ على قلبه ، ويفر الذاكر فرار الشيطان أمام الذكر فى العرف الأول ، لأن الكذب لا يجوز على الله ولا مع الله ، ولا شىء أكذب من

---

(١) ص : يقول .

لسان الإضافة ولا شَرَكَ أقبحُ من شركها . لكنه يقام له قوة إلهية فيعود فيفعل كفعل الذاكر . لكن لا يُعتبر فى ذلك الذكر إلا الله [٩٤] وبُدٌّ البدّ وهو هو الهو هو ، وإن كان الذكر يكون الكُنْه البسيط الساذج الذى يفرض تعظيمه بوهم المقال وحرص المُذَكِّر .

فنقطع ذلك ونعود إلى الأصل الأول،فنقول : إذا أردْت أن تذكر فعليك بطهارة محالّ الجسمانى والروحانى والأمل الواقع فيهما والمفهوم منهما والصادر عنهما وجميع اللواحق حتى التى ترجى أو تقدَّر أو يُخبَر عنها وتستعد للأنس فقط وتكيُّف الذات ولو بالخير الكاشف المقرر على نكتة السكينة ؛ هذا إذا أردت الأعلى ، وإلا فأى شىء كان منه الخير فيه بالذات . — ويستحب للمحل أن يكون فارغاً من الطعام إلا أن يكون الذاكرُ من العارفين ، وهو الذى ذكره إخباره عنه أعنى القريب فى الكلام فله أن يذكر كيف شاء ، وينظر الأشياء التى كان يذكر بها رسول الله ﷺ . وقد يجب للهمة أن تجمع أسماء ذات الذاكر المذكور وأسماء صفاته وأفعاله وتعظيمه وتقديسه والكلمة الصادقة بالاعتقادات السبعة ، وهى كلمة : « لا إله إلا الله » . فإذا وجدت النفسُ الأنسَ بالصِّيَغ ، اصبِرْ عليها حتى تجد الأنس بالمدلول . ثم اصبر عليها حتى تجد الأنس بما يجب له . ثم اصبر عليها حتى تجد الأنس بها فى النفس والحال ، لا فى الاعتقادات والخبر . فإن لم تجد إلا الصيغ حضَّ الذاكر على الخلوة واجعله يقرأ سورة « الواقعة » . ويستحب له أن يقطع الصوت الحسن الذى لا ينشط إلا به ، فإنه يحجبه عن مطلوبه ، ويسمع بأذنه وبالإيقاع فقط وأعوذ بالله من هذا ، وإن كان يسمع بالجميع فلابأس به أو يكون من العارفين وبحسب ما ذكرناه . فنرجع ، فنقول: إذا وَجَد ذلك — اتله — يقول ويعتقد أنه لا فاعل إلا الله . فإذا وجد الدلالة يبتدئ فى مظاهره بالدليل قبل المدلول وتقع المساواة — اتله — يقول ويعتقد أنه لا حى إلا الله . فإذا وجد الاجتماع يحكى معتقده والجمع يشهد على ماهية تعليله وتصويره ويحصره حصراً الدائرة لما تحويه وينفعل مع ذلك لهيبة ذاته وضعف مرض عادته قد أخذ فى الانحطاط — اتله — يقول ويعتقد أنه لا موجود إلا الله . فإذا أبصرَتْ الآنية هى الهوية ، والمعلوم هو العالم ، والميت هو الحى ، والظاهر هو الباطن — لا من جهة الدليل ولاهو من قبيل أنا هو وأنا الله وما أشبه ذلك — فوض أمره إلى . الله إلا إن كنت صاحب اسم فانسَه وبلّغه الأمانة الثانية ، والله هو المدبر فإن الذاكر حقيقةً هو المذكور .

ذكر آخر . واذكر باللسان واوهم بالجنان ، ثم اذكر بالجنان وحرك اللسان ، ثم اذكر بالقلب والرب ، ثم اذكر بحقيقة القلب حيث هو الرب ثم لابالرب، ثم اذكر بالرب ، ثم لابهذا ولابهذا ، فإن السبب عند الله ينقطع بالله والله لا يذكر نفسه وذلك الذكر غيره أعنى غير المذكور ولا يذكر عبده وهو هو ، ولا يسع فى الوجود الخلو عنه مع امتناع [٩٥] ذلك فيه وإن كان بوجه مابه . ولكن هنا دقيقة إذا قلت: الله ولاشيء معه ولك حالة ماغريبة الهيئة هى تلك، والذكر هو المامية الشعور بها وهى القضية التى لا تنتقل وتستقل ولا تكون بحيث يرد عليها العالم والكاشف والحاضر والغائب فأبشِرْ فإنك الاسم الصحيح والخليل الخاصُّ من حيث أوهامك وسلبها ذلك والمطلوب الجميع . وهنا يصل بعض الناس ممن يتوهم أنه وصل ويقطع بالوصول ويهجر الواصلين ،بمعنى أنه قدلايستقل ، واستغنى ، فيتلف وينقلب من دار مولاه حيث أراد الحلول فيها بعد طول المدة . وذلك أنه وصل إلى آنيّة[1] بسيطة لا يمكنه أن يسع من غيرها ويجد القلق فى ضميره من الأغيار[2] ثم ينصرف إلى معناه الساكن فيجد المُمد والماحى للأغيار ويحصر ذلك كله على الوهم وعلى ملك الخيال ويستند إلى مواجده ويطلق التوحيد المحض العام الذى يشوبه شيء ويصرف الأشياء إليه . وينظر الناس بعين الرحمه ، فليتَه ينظر نفسه بعين الإنصاف ساعة ويرجع البصر كرتين ويغوص فى جلال الذكر . فهو الذكر الأعلى الذى لا تنطبق الآنية إلا على مظاهره ولا يطلقها على جهة المطابقة إلا هو .

ذكر آخر : الذكر مشاهدةٌ إذا كان من الضمير الأعلى بمعنى أنه يستجيب فيه المذكور أى المدرك والمشعور به .

ذكر آخر : بل بحر تجرى سفينته تحت موجه ، وجواهره فوق أوجه . إن كان الذكر يحمل إلى الله فقد كفر الذاكر بإجماع أهل الذكر الخاص ، وإن كان يحجبه عنه فالأمر أضرُّ ، وإن كان لا يحمل ولا يمنع فهو الوهم الأول الذى لا يذكره العارف . وإن كان هو الفكر — بمعنى أنه لا يذكر إلا من يعلمه ويطلق القول عليه كالقول على القوة الوهمية والخيالية والمفكرة والذاكرة

---

(١) آنية = einai = وجود .　　(٢) جمع : غير .

وكيف يطابق جميعها بحسب المواضع وكونها واحدة بالموضوع وكثيرة بالانفعالات والتغييرات والاستعدادات — فالذاكر من الأشقياء . وإن كان الذكر ذكر العابدين ، فالذاكر من أعداء الله المحبين . وإن كان الذكر ذكر العلماء ، فالذاكر من الغافلين . وإن كان الذكر بالعرض المخلوق فالذاكر لم يتميز فَضْله من الحيوان غير الناطق . وإن كان الذكر بالجارحة ، فالذاكر من عباد الله البُلْه ، نَعَم ! وقلبه يجد حلاوته . وإن كان الذكر يُطْلَبُ به الثواب ، فالذاكر من الأشقياء عند الصوفية . وإن كان الذكر لكى يحضر به الذاكر ، فالذاكر محروم النصيب . وإن كان الذكر لغائب فالذاكر من أرذل الكفار . وإن كان الذكر يُصْلِح الوقت ، فالذاكر ممقوت . وإن كان الذكر يُهيج حلل الذاكر فالذاكر برىء عن الله · وإنما الذكر نُكْتَةٌ إن وجدت كانت وكان الكل ، وإن استُدعيت لم تكن ولم يصح البعض . ومن كان ذاكراً بالوجه الشرعى واستقام على ذلك ولا يطبقه على مقام يطلب به المرتبة المشار إليها مِن فصّ الهوية ويتأدب مع الرجال فى مواجيدهم ، سَلِمَ حاله · وهذه الاعتراضات [٩٦] هى بالنظر إلى الأعلى والأولى فقط فلا يتوهَّمْ غير هذا .

وببعض هذا ظفر بعض أصحابنا وتوهم أنه وصل وانتكس قصدُه وضَعُف سيره ولم يصحّ له إلا خطبة وهم مُهلكة فدَنته الغاية لكونها غالطة فى نيل الغاية . وشرح حاله هو أن الرجل نظر بَعضَ نظرٍ ولم يحصِّل ، فإنه لو حصَّل عرف ما بعد الأجسام وما بعد المفارقات ، مثل عالم الوحدة والمسائل العويصة ؛ ولا هو كان من حيث الصوفية من كل الجهات بل أخذ البعض الذى لا يتم من كل نوع ذلك وكأنه وجد الآنية مهملة الشعور والإدراك ، وسلم الجلال للجليل ، وافتقرت الأغيار لوجوده ، وهى بالنظر إلى ذواتها ماهية فقط لا أنها وجود ، ولا هى به بالوجه الذى لا يصح معه الكفر البين ، ولا يمكن معه وحْدة الوجود المحمود عند الصوفية ، وقامت معه المعية المتداخلة الخفية التى يتوهمها جميع مَن لم تحذقه علوم التحقيق التى هى أعز من الأمر المرتكن والمربوط والمستند والحال والملتحم . وهى عنده أجلُّ من أن تكون كمية المكان من حيث الفاعل ، لا المعية التى يأخذها قسطها من المساحة وكذلك معية الزمان جازها ومعية المرتبة ومعية أخرى وهى عنده معية التقويم والتتميم والإلزام والمصاحبة المدبرة . — فإن صح أن يقال فى الحق إنه الوجود بذاته عنده الذى عرض للماهية ، فهو ذلك أو شبيه به. — وتلك المعية تشبه الارتباط وينحلُّ الشىء إليها

بالاستحقاق وكأنها بوجه ما عنده مُقَدِّمةٌ وبآخر قياسٌ ، وبثالثٍ نتيجةٌ . وهو يتوهم أنه يجدها لا من جهة النظر فإنه حيث نظر انتقل من تأمله فيها ، وقد تكون عنده من قبيل الأحوال ، ويطلبها مع الغير بالوجه الذى لا يطلبها فى ضميره — وهو مع هذا يجب أن ينسب إليه أنه يَعلَم . ولما كانت عنده من قبيل الأمور التى يلحقها الذهن كما يلحق الحسّ الصورة غلط ضميره حتى حمله أن يسكن فى جموده ويشخص فى الصورة الخارجة . ويحمله ذلك الشخوص إلى المشعور به داخل الذهن ، فيتذكر الماهية والوجود العارض لها وينظر ذلك فى نوازل الهياكل المنتصبة والمظاهر المتصرفة . وفى هذا يظهر على المحل لذةٌ وبهجةٌ وسرورٌ فتصيبه سكينة وقوة يقطع بها وينكر كلَّ طريق يغايرها . وبعد هذا كله خَلَّصه الله من شَرَك شبهته المستطرفة عنده التى يتوهم أنها عناية الله به .

ذكر آخر ، بل بحر آخر ساحله فى وسط : لا يصح الذكر إلا للرجال الكُمّل إذا كان على ما يجب ، ولكل أحد فيه قوة ودولة بقدر طاقته . والنافع للشيخ أن يذكر ذكر التدبير لأصحابه ، وهو أن يختار لهم الأوقات الخالية إذا أراد بالذكر الحضور النفسانى ، أو فى وقت البطالة إذا أراد أن يجمع أصحابه على الله ، أو فى وقت الخوف إذا دبَّرهم بالسلوك المتصل . وعلى التلميذ [٩٧] أن يذكر الله سبحانه بذكر شيخه ويستغرق فى مشاهدته فيذكره عند ذلك به فيجد ما يجده الشيخ . والصوت الحسن مما يُصلَّج به . وعلى الشيخ أن يتكلم فى المواجيد إذا علمها من القوانين ، وينوِّع الكلمة إذا أبصر الضمير يقف ، وينتقل إلى النبي إذا استقام الذكر فى الله لكى تصلح ببركته الأعراض . وإذا ذكر التلميذ الله وتوسّل إلى الله فى فائدة الذكر التربية بشيخه وبما هو عليه من التوجه جعل اللهُ الشيخَ له مرآة قصيده ، ينظر فيها ما شاء . ثم يستقيم فى ذلك حتى يبصر المظهر الدالّ عليه قد انصرف ويجده من جهة توجهه إليه . وبذلك يحق له الوصولُ إلى حضرة الصدق ، ويدخل فى عباد الله المقرّبين ويفرح بنفسه .

ذكر آخر . صحبة إنابة وتتمة وسيرة جميلة وعلم النكتة ، وبحث عن الإحاطة والكلمة الجامعة المانعة ووجود ما خارج الذهن وداخله فى مدلول الذكر وكأنه يحكيه فى نفسه ، وتحصيل الدليل الصادر عن الماهية . ثم يقول عند اهتمامه بمقدار انبعاثه له : « لا إله إلا الله ، حم ، لا واجب

الوجود إلا واحد ، ألمٓ ، لا موجود آنيته هويته إلا الأزلى ، كهيعص » . ثم يقول : «الله الله الله» . ثم يذكره بفكره ، ويحرر القول ، ويحقق العزم ، وينصرف إلى ملاحظة الذهن لقضية الحال ولاستنادها إلى مواطن التطلع ويسكن وينبه الوهم العزيز الذى موضوعه الخلد الموجه المتوجه ويصير على انسلاخه ، ويتجرد عن القوى الروحانية . ثم يفعل ذلك مرة أخرى ويفرغ من قلبه خبر العالم الفلكى والطبيعى والروحانى والمثل المتوهمة فى الكليات المعتبرة فى الوجود المنتسب . فإذا عطس أنفُ استرواحه بريح المواهب الماحية للحد المقيمة فى المطلع ووجد ذكرَه فى ذاته المستطيرة ، كان نحو الصواب . ثم يفعل مرةً ثالثةً بمعرفة تحصل المواقف وبحسب حكم الواقف من ذلك ما ذلك حتى يستريح الوهم وتفرغ النفس ويتقدّس بمجاورة المحل المكمل المقدس والعقل بما فوقه بالنظر إليه إذا تحكم بالمطالب الأصلية . والتعليل لا حكم له ، ولا يحتاج ؛ وقصاراه قبول كمالات وأدب فى ذلك ، وحكم بأن ما هو بسبيله يفارق ما كان عليه ، لا أنه أهمل القواعد من كل الجهات بل من جهة وجهة . وإن عجز عن الحكم وترتيب المقدمات ، فما عجز عن قبول ما يجب ، وأن هذا المقبول هو من الغرابة والجلالة بحيث لا يدخل تحت الأمور المعروفة .

ذكر آخر : اذكر فى نفسك أنه قد ذكرك ، ثم اذكر ، ويكون ذكرك من مراقبة علمية ومقام الإيمان وذكر مشترك . ثم اذكره من مقام الإحسان ومراقبة قلبية وذكرك فى آخر المشترك ثم اذكره . وذكرك من حيث ذكره والذى كنت تعلم قد كان أن يكون مشهوراً وأنت تراه يتشخص فى مُدْرَك الهيبة المحركة للضمير الفاعلة فى النفس . وتقرر الملاحظة وكأنك تحدثه ، ثم تفرط فى ذلك حتى تجد ما يكاد أن يكف [٩٨] الذكر للأدب الذى يجده مُجالِسُ الملك إذ جالسه . وأيضاً مشاهدته فيها الكفاية . ثم تجلّدْ على الذكر حتى تبعد المشاهدة المنسوبة . وينعكس ذكره لأنه حالها وأنها غيب الذاكر ، حتى نسى أمره فلما أفاق وجد الذكر وسبب المشاهدة فيه أقوى من الأول . ثم اذكر بعد هذا الذكر حتى تجد مطلوبك أقرب من الأول والأمر أتم وأعظم وفوائده أجل وغيبته أقل . ثم اذكر حتى تغيب قليلا وتحضر كثيراً . ثم اذكر حتى تغيب فيه وتحضر عنده . ثم اذكر حتى تحضر ولا تغيب . ثم اذكر حتى يعود الذكر فى المحل دون قصد وإرادة ، والقصد والإرادة فى التنزيه ومشاهدة الجلالة وأنت تعلم وتسمع . وهنا هى نهاية الذكر .

وبعد هذه المواطن يحرم الذكر على الخاصة لأنه من الأفعال المسببة . فإذا وقع الميل ويُخاف على المطلوب المحصل أن يفوت صحبة السبب — قطع السبب ويبقى الطالب الذاكر مع الفائدة فقط . غير أن هذا الذاكر إذا كان فى هذه المرتبة وظافر بهذه المنزلة وكان أمره فى الوقت المطلوب على حالة من الأدب المأمور به ، وكما يجب — فذكره محفوظ . وإن كان على غير ذلك مع كونه فى فترة يظهر عليه عالل مجون التوحيد المخادع للضعفاء — فالذاكر مخدوع . وإن لم يظهر عليه فى هذا الزمان المطلوب به شرعاً المراد الشرعى على كماله وهو مع هذا فى غيبة من ذلك القبيل فنيه بين الأولياء خلاف وليس باليسير : منهم من يسلم له لأنه غير مكلف ، ومنهم من يمقته فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم عنه هذا . وإن كان الأمر مثل هذا والمحل تجرى عليه الأحكام والهمة والإدراك والنفس فى عالمها الكريم تركب كانت المكانة الموروثة على الخصوص .

ذكر آخر : من ذكره به ذكره عهده القديم ، ومن ذكره فقط وهو بسيط الخبر المتقدم جذبه إليه ؛ ومن ذكره وذاكره يتأنس به دله عليه .

ذكر المقامات والأحوال
فى مفهوم الذكر وأحكامها فى الذاكر

إذا ذكره التائب وأخذ نفسه بالذكر المستقيم لعظمة مايجد من النشاط ولما هو بسبيله من أنس الذكر يتذكر ثَمرَه الأول ؛ وببركة الذكر يقوى عزمه على الأفعال الجميلة والخروج من المذمومة ويسهل عليه رد المظالم . فإن لم يجد وإلا بالذكر تعظم الذمة فهو يعطيه إما الخلق مع الاستطاعة فيعطى ما أخذ ، ويكف عن الذى فعل ويحرض النفس على الخير . وإما يفسح له ثوابه المجتمع له السهل الكثير ، فيعطى ويبقى له . وهو رحمة سترها الله عن الأشرار وكشفها لهم بعد ذلك ، وكشفها للأخيار وسترها عنهم به عند ذلك إذا ظهر ذلك وكان من هو من ذلك ذلك أو بذلك فى ذلك .

ثم هذا التائب الذاكر ينقله ذكره إلى الأوبة ويكشف له عن أنواع التوبة السبعينية . وقد يمن الله عليه ويعصمه من التوبة فى التلوين أو يتحف بمفهوم التوبة من التوبة . وقد يكون المريد مراداً

بالذكر بعد توبته [٩٩] ويفتح له فى الوقت اليسير ما لغيره فى الطويل . والمراد على ضربين : مرادٌ بسبب وهو الذكر أو ما أشبهه من مقام صادق أوخبر طارق أو رجل ذائق ، وقد يكون ذلك كله . ومن ملك خاصية أو أنعم عليه باسم من أسمائه قد يدخل معهما بوجه ما . وأما ذكر المجاهد فى مقام المجاهدة فيقويه على مكابدة أمرها ويعود الجهد المؤلم من جملة ملذوذاته وتعود عادته مجاهدة ثم تعود مألوفة وعادة كالأولى بل ألذّ . وحينئذ ينبغى له أن ينتقل ويحق له ذلك ، لأن غاية المجاهدة تكميل النفس وإصلاح أخلاقها وثبوتهـا على الأحكام الشرعية ثم على الإلهٰية . ثم يعود الأمر فى غايته ﹤ إلى ﹥ اللذة والأنس ، ولا تجد النفس ما يسوؤها ، ويرتفع[١] معقول الجهد والمفهوم منها الذى جاء على المبالغة بذكر الأنس وغايتها أيضا المشاهدة . والذكر هو المحرِّك الأكبر فى ذلك ، فإنه إذا ورد الأمر الصعب على النفس فى حال الذكر يسهل . وأيضا فالذاكر يذكر الفاعل فيخاف أو يرجى فى الوقت أو يستحيي منه الذاكر — وجملة فضائل تصدر منه فى ذلك لا تحصى . وقد ينقله من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ويعينه على مجاهدة النفس لقواها . والجسم كذلك وجميع ما هو فيه بالقوة والفعل من هذا القبيل ومن هذا النوع . والعقبات التى ذكرها إبراهيم بن أدهم[٢] رضى الله عنه ، قد قيل إن السلوك عليها بالذكر صحبة التخلق ، والقصد الصادق والهمة الجايلة تقطع . وأخبر أبو العباس بن العريف رضى الله عنه أنه أبصر إبراهيم بن أدهم فى النوم فقال له : « لِمَ قطعت أنت المقامات الستة التى ذكرتها ؟ » فقال له : « أيّ المقامات تريد ؟ » قال : « العقبات » . قال له إبراهيم بن أدهم : « العقبات قطعتها باسم الله الأعظم والتجلد الخالص » .

---

(١) ص : ارتفع .

(٢) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر ، (أبو إسحاق) التميمى العجلى . زاهد شهير ، مولده فى بلخ ، وكانت وفاته أثناء غزوة بحرية فى تاريخ يترجح بين سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) وسنة ١٦٦ هـ (٧٨٣ م) . وقد صيغت حول حياته أسطورة شهيرة . راجع عنه : « دائرة المعارف الإسلامية » تحت المادة ، ثم « طبقات الصوفية » للسلمى (مخطوط المتحف البريطانى ورقة ٣ ا) ، « حلية الأولياء » لأبى نعيم جـ ٧ ص ٣٦٧ — ٣٩٥ ؛ « كشف المحجوب » للهجويرى ، ترجمة نيكلسون ص ١٠٣ ا وما يليها .

قال له : « ومن لا اسم له ؟ » قال : « بِذِكْرِ المسَّى » . قال أبو العباس : ففَعَلْتُ ذلك وانتفعت به ، وجميع ما أنا بسبيله من بركات وصية إبراهيم بن أدهم .

وذِكر صاحب الخلوة يُنتفع به فى خلوته فإنه ينادم ربه بذكره ، ويتلذذ بالأنس به . وأيضاً بإفراط الذكر فى الخلوة يجد المواجد العظيمة وينال المراد منها ، لأن الذاكر إذا ذكر على ما يجب ، دَبَّرَهُ المذكور ، فإنه من أجله وله انقطع . وهو سبحانه يعلم ذلك . وأيضاً يدوم فى خلوته فإنه ما دام يذكر يَذْهَلُ عن نفسه وعن أخبارها بالجملة وعن الأهل والوطن ، فيستقيم من غير أن يقر عليه وقته . والمراد بالخلوة الفرار إلى الله ، فلا شيء أولى من ذكره فيها ، بل هو الصورة المقوِّمة لحال الذاكر والمتمِّمة له ، لأنها عندهم من أمارات الوُصلة ، والذكر هو الرابط لها . ولما توجه لما يجمل به ، وجب أن يفر عن أبناء جنسه ويستوحش من غير الله ، وبذلك يظهر عليه ذكره فى جملة أحواله وتصرفاته بالمضمار . وبالذكر يتحقق أُنسه بالله ؛ فإذا ذكر الله وعظم الذكر تكبر الهمة ويصغر [١٠٠] كل شيء عنده ويبصر الأشياء ساجدة خاضعة لله العظيم ويصيبه حال الإخلاص الذى إذا قام به تفر أمامه الأمور الكاذبة لأنه الإفراد المطلق . ومن جملة ما يفر عنه الأخبار الكاذبة ، حتى إنَّه يقول لَمْ نَفِرَّ إلى الله وَإنَّا ندمٌ عباده ولا نفسى يُسَلِّمُ لها أنها تأخرت من شرهم إلى خيرها بل هم بالله ولله وأنا من الله ومع الله ، وكل واحد منهم له ذلك . ومتى ألهم لذلك يسلم من استصغار الخلق ومن شهود مزيته عن الخلق ويظفر بالتواضع . ومن رأى له مزية على أحد فهو متكبر . ويحركه الذكر لطلب ماهية الذكر فيحتاج إلى علم ما يمنع ذلك . ويُكْشَفُ به ما يجب للمذكور وما يجوز عليه ويستحيل فى حقه أو تظهر عليه أحوال فوق العلم النظرى فيعجز عنها فيُحْوِجه الأمر إلى رؤية الرجال . وهذا كله من فضائل الذكر . وأيضاً يمكن من خروجه عن الغير أن يعلم هل يصح له ذلك ، لأن الذكر لا يتم له من حيث هو ذكر إلا بما يحبه المذكور ويختاره ويرضاه فإن ذكر المتشرع ما هو كذكر غيره ، لأن ذكره لا يتعدى فيه النقل ، وله ذكر يزيد وينقص وتبدل صيغه . والأمور إذا انحصرت بحسب الأحكام الخمسة يحتاج أن يعتبر مدلولها . فإذا كان ذلك كله احتاج الذاكر إلى معرفة ما يجب عليه فى الشريعة ، وما يحسن به فى الخلوة ، وكيف يكون حكمها . وأيضاً الذكر يجره إلى أن يعتزل عن الأخلاق المذمومة لأن الذكر يطلبه بطهارة القلب

والمحل على الإطلاق ويعم سائر الأعمال الظاهرة والباطنة ويسكن فى ضدها ويتصف بها ، وحضرة الحق لا ينجرُّ إليها ولا يتميز فيها إلا الطاهر التقى والماجد النقى ، والعزلة الصادقة إنما هى فى فرار النفس عن القبيح المُهْلك لها لا البعد عن الأهل ، بل العارف النبيه هو الذى لا يكون تحت قسمة النوع وهو نَوْعٌ وحده ، ويكون من الناس وهو واحد من الناس . وهذا كله بعض فضائل الذكر .

وأيضاً الذكر فى الخلوة والعزلة يجعلك أن يكون أُنسك به لا بهما ، فإنه إن تأنست بهما فى الخلوة أو العزلة إذا خرجت عن ذلك فقدت الأنس بالله ، وفقدت لذة الحق لأنهما علة ومعلول وأعوذ بالله من ذلك . وأيضاً الخلوة الصحيحة التى من أجل الله ينبغى أن تكون كلها بالله ، ولله ، وإلى الله ، ولا يوجد فى المحل ذكر أحد غير الله . وأيضاً من ذكر بجسم وكان من حيثه أتعبته الحواس ، ومن كان كذلك مع نفسه أتعبته الأمانى والأوهام ، ومن اعتزل عن ذلك وخلا بحبيبه وذكره — أعانه على الجميع وملكه من الكل وبَلَّغه إلى غاية آماله ويستميل نفسه إلى قول : الله ! الله ! الله !

ذكر الذكر ونوره وتصرفه فى مقام التقوى

التقىُّ إذا [١٠١] ذَكَرَ عَظُمَ خوفه وكَثُر أدبه وحضر فى وهمه الوعد والوعيد ، فيذكره بخوف فوت الوعد وخوف ضر الوعيد وقيام همه به . وأيضاً التقوى تحض على مجانبة جميع ما يبعد عن الله ، والذكر يحرر هذه المجانبة ، لأنه إذا استغرق أزمنة التقوى متى هم به وسواس الوهم ذكَّره الذكر ففرَّ عزمه إلى الأدب وأقام على خيره الأول . وأيضاً الذكر بالله وبأفعاله وصفاته ، فيطلب التقى أن يعمل على تحصيل متعلقاتها ، فيذكره بالآخرة ، ويشوِّقه إليها . وأيضاً الذكر نور ، والتقى يمشى بالنور على بصيرة ، وهو الذى يعلم جهة المضارّ فيتقيها ويكون معه دائماً وحينئذ يكون مدركها تقياً . ومثال ذلك الرجل الذى يقول : هذا هو السبع — فإذا لقيه فى الطريق وهو مع هذا لا يفر عنه لم يُفده علمه به الفرار عنه ، وإذا جمع مع العلم به الفرار عنه سلم وظهرت السلامة بازدواج العلم والعمل . وإذا لم يفعل ما يجب فى ذلك كان مثل الذى لا يعلم به ، بل الأول أصح

إخباراً منه ولعله بكونه لا يُخبَر عنه يكون سبب سلامته منه ، فإن النفوس إذا لم تُخَوَّف لم تَخَف — فافهم . وكل خير يطرأ عليها منها فإنها إذا انفعلت فمل فيها وبالعكس ، وهذا على جهة الأكثر .

ذكر فضيلة الذكر في باب الورع

الورع إذا ذكر زاد ورعه وحُفظ حاله ، لأن الورع كناية عن ترك الشبهات ، أو ترك ما لا يعنيك ، أو ترك المشغل بالجملة ، أو إهمال ما لا تحمد عاقبته . وذلك لا يصح إلا بالتقليل والزهد المحض ، ولا يقوى إلا بالتقوى ، ولا يمشي نحو الصواب إلا بالعلم ، ولا يدوم إلا بالصبر ، ولا يحمد إلا بالرضى ، ولا يكمل إلا بالأنس بالله . فإذا ذكر الورِعُ الذاكر لله في كل حين قامت معه زواجر الأحكام الشرعية وعظمة الأمر ، فإنه يسمع ويرى من حيث الأمر والنهي والأمل في الله وما هو بسبيله من الاجتهاد على تحصيل البعض من نوره ونعيم داره وخزن أغراضه وسجن همته . فإذا كان هناك ، يسرح الجميع حيث يجب . فإذا همت النفس منه بمباح طلب الذكر منه سلامة الباطن من المحتملات وطهارته وطاعته . والمباح يجر إلى أمور ، وقد تصعُب بنظر ما ، فكيف ! وأيضاً يشغله بالله عن فعله مع كونه في غاية الزهد والمحافظة على الأحكام ، فيكون الأمر على أتم ما يمكن . وأيضاً الورع هو الذي يجعل الشرع في يمينه والعقل في شماله ، فما تعرَّض له وتوقف فيه من جهة ما في شماله ، عرضه على ما في يمينه : فإن قَبِله ، وإلا تركه وفر منه . وهو ينظر بمرآة الأحكام الخمسة[1] ، فإذا أراد أن يتصرف في شيء نظر إليه : هل هو من الأحكام الواجبة ، فيسرع إليه ويقضيه كما أُمر ليس إلا . فإن الورع في المأمور به إنما هو في تناوله على ما يجب وكما أمر وسرعة [١٠٢] القبول لا غير . وغير ذلك لا يصح ، لئلا يصدر من ذلك سوء الأدب . والزيادة على الشارع كفر وبهتان ومحال . وله أن يزيد وينقص في المباح والنوافل وما أشبه ذلك ، وإن كان ندباً جدَّ وأخذ نفسه بالكثير لا بالقليل . وإن كان دون ذلك يفعل فيه بحسب هذا التقدير — فافهم . وهذا يحرره له الذكر ويذكره به ويزيد له فيه وينشط وكأنه يسمع

---

(١) وهي : الحرام ، الحلال ، المندوب ، المباح ، المكروه .

الأمر عز وجل يقول له افعل كذا أو اترك كذا ، أو يقدر ذلك داخل ذهنه . وأيضاً قد يستحي مع الذكر أن يفعل القليل المحمود . فكيف الكثير من المذموم ! وبالجملة الذكر جُنَّة[1] وجَنّة ومِنَّة .

والورع إذا حرر القول فيه هو الذكر الخفيُّ ، لأنه حينما ذكرت له النفس ما يحبه ذكَّر له العلمُ والعقلُ والشرعُ ما يجب عليه ويُذَكِّره لما يحبه المذكور . ذكر المذكور المحبوب عنده من أنواع الذكر ، فإن المحبوب عنده من أنواع الذكر هو الذكر الذى يذكر الذاكر على مرضاة مذكوره المحبوب عنده ويُذَكِّره بصفاته وبما هو عليه فى معاملاته . وإذا كان الذكر بخلاف ذلك يقال له الصوت أو الخبر المهمل أو هو الذاكر الصامت ، لأن المراد من ذكر اللسان تصور القلب ، والمراد من ذكر القلب كشف السر وذكر الروح . والمراد بكل واحد مما ذُكر : الله .

فضيلة الذكر فى مقام الزهد

الزهد العرْفىُّ هو الترك المعتدل لما لا يجب ، أو لما يشغل ، أو يضر نوعه وإن لم يضر شخصه وهو الذى يحض على الورع من صفة نفسه ، ويسود الزاهد بسببه — وإذا انضاف إليه الخوف والعلم استقام الأمر . وهو ينظر إلى التوبة فى البداية فيقوى طلبه ، وينظر إلى السلوك ويتلذذ به ويأنس بتحقيقه فيه ، وينظر إلى الغاية ويتردد فى أمره لأنه قد يظهر له فى الغاية أنها لا تنال إلا بعلم ما وبسبب ما فيكون مُحيَّراً فى أمره لأنه ما بَيَّنَ أن يطلب الكمال فيطلبه الشرط ببعض ما خرج عنه أن يعود إليه كما يجب ، ويطلبه المقام بالثبوت ، والهمة إن علَتْ قد تطلب الأولى . فإن جهلت فتغتبط بالأول ، وتُحيل الثانى . هذا هو زهد البعض ، والزاهد غير مراد . وأردت بهذا الكلام التوسط .

---

(١) اى : وقاية .

وأيضاً الزهد هو فقد ما إليه يحتاج بإرادة . وأيضاً الزهد هو الفقر ، غير أن الفقر العُرْفى أجلُّ منه ، وهو المذكور فى « الفقيرية[1] » . والزهد العُرْفى أجلُّ من اللغوى . وأيضاً الزهد — إذا كان على هذا الحال والمحل — كبيرٌ بمعنى أنه هو بحسب خيره ، فتارة تراه فى الأمر المهول من الدنيا ، وأخرى تبصره فى الحقير منهـا ، وذمته عليه مملوءة بالحكم وبالأمور الشرعية المالكة للكليات المعتبرة فى الدنيا والآخرة . يحمد بالجملة ؛ وقد يحمد منه الزّهد المنسوب ، والزهد المحسوب . وهو إما فى النفس وهو زهدها فى [١٠٣] عالمها ومَنْصِبها وصِيتها ورياستها وينهزم فى هذا جميع أخلاقها ، وإما فى الأمور التى فوقها . وهى إذا ظفرت بكمالها فتزهد فى الأمور المنتظرة المعمول عليها عند الجميع — مثال ذلك : يزهد فى العلم بمعنى لا يغتبط به فى وقت ما ، لأنه يطلب المعرفة ، ويزهد فى المعرفة لأنه يشهد المعروف ، ويزهد فى التضرع إلى الله من النار لأن القرب من الفاعل أبطل عليه وهم الفعل ، ويزهد فى التأهب لنعيم الآخرة لأن اللذة القائمة بالجوهر استغنى بها عن كل لذة . ويزهد فى ذلك لأن القصد أطلق له . ويزهد فى ذلك لأن الهيبة هيبة فى المُكْنة . ويزهد فى ذلك ، لأن الحد حصره . ويزهد فى ذلك ، لأنه مدلول الرضى . ويزهد فى ذلك لأجل ذلك ، وفى ذلك أنه ذلك ، وكذلك بعد ذلك فى وقت وجـود ذلك . والزهد الذى فى الجسم هو يَعظُمُ بحسب وجوه المتروك — مثال ذلك الزاهد فى الإكسير الذى لا يقتنع به إلا برسم الغير المضطر وهو مع هذا الحسن يستجلب شهواته من الصور الطيبة ، وجاهٍ يجلب العسير ويكون خليفة ملك الأرض وله نفس تطلب اللذات الطيبة ويَجِدُ فى الطلب قوة استعداد وسلامة أعضاء وقوى وملكة خصال يعجز عنها تفرحه بالحمد والتعظيم ، وما أشبهه . ولا نسبة بينه وبين من هو دونه مع كونه لا تَبِعَةً تلحقه وجملته تقيه . فاعتبر ذلك وَقِسْ به وانسِجْ على منواله الواحد فى الوجود — والوجود قد يطلق فى المقامات بمعنى ما ، وبالوجه الذى يقال انتقل ورحل وأخذ الأمر وظهر الصعود إلى غير ذلك لا أنه يعود إلى العرف الأول فيهمله . وهـذا النوع من الزهد الإضافى . وأما الزهد الجليل فهو الذى يكون به الزاهد غريباً فى الآخرة ولا يتعرض إلى الأسباب المطلقة ويكون معها تاركاً على الإطلاق لغير الله على الإطلاق ، وهو بالجملة زهد لكى يكتسب كماله . فإن كان زاهداً

---

(١) أى فى الرسالة « الفقيرية » .

على الإطلاق حتى فى الذى يسرى له من الله كان مطلقاً ولا خير فيه ، إلا إن كان خيره الله ، أعنى أنه يقول المقصود العين التى لا يصح معها طلبها لها والأمر من جهتها وبحسب ما يقال ، فاترك ما يضرك ويقول : ومن حرر الوحدة ــ وهذا بمعنى سلب وجمع على مجموعه ، لجمع وعوض بزهده ويجبر بذلك .

فإذا كان الأمر على ما ذكرناه فعليك أن تعلم أن الذكر هو الأصل فى ذلك كله . وما حملنى على ذكر الزهد وتقسيم ما ظهر لى فيه بحسب هذا التقييد وكونى أخذت فيه بزيادة ما أردت بذلك التنبيه على خساسة الدنيا وكونها مُهلكة وهى العلة القريبة والفاعلة بالجملة وصرف الهمم الكريمة ــ فافهم !

ونعود إلى فضل الذكر فنقول : ما من نوع من هذه الأنواع إلا وقد يجمع لك فى كلمة واحدة وهى جميع : مَن ذَكَر الله ولم يُغنِه عن غيره ولا تأنسَ به ولا امتنع به على ما سواه فلا خير فيه [١٠٤] ويكاد أنه لا يمكن منه الخير ولا يصحُّ فيه وجوده ، وأعوذ بالله منه .

وأيضاً الزاهد من أجل الله هو الذى يزهد فى أفعاله ، ولا يزهد فى الله ولا فى صفاته . وذكر الله هو الذى يثبت على حاله ، وهو الذى يثبت المقامات . وإذا زهد الزاهد وهو يذكر ربه ترك ما يجب تركه ، وتمسك بما يجب من أجل الله ، والله هو الكفيل به لأنه عز وجل يقول : « أنا جليس من ذكرنى » . والحاكم العادل المرشد المعلم المدبر الغنىّ إذا تصرف عَبْدُه معه أعنى بمحضره ، وهو يذكره بمعنى أنه يشاوره ويطلب منه أن يختار له الأَوْلَى ، وهذا هو الذكر النافع الذى يعقل فيه هذا كله . وما يمكن مولاه المذكور أن يتركه يَترُك مالا يجب أن يُترك ، ويتمسك بمالا يجب أن يتمسك به ، بل يجرى فى أموره وأفعاله نحو الصواب . فذكر الله هو المعلم الأكبر وهو شيخ الشيوخ ، وهو يعلم الملك ، ويعقل فى حركة الفلك ، وبه يبعث النبىّ ، وبه يعلم ويعقل ويحكم ؛ وكذلك اتباعه إذا تم على سداده ، أعنى الذكر الحكيم . وبهذه المقامات ذكرت فضيلة الذكر معها ليظهر لك مجده فى كل طور ونوع من أنواع شروط الكمال . ولما ذكرتُه قبلُ أنه بماهيته فى كل المقامات من حيث هو جزء ماهيتها ــ احتجت إلى ذكره هنا من حيث هو متمِّمٌ ومقوِّم . وبالجملة هو الفاعل للخير والشرف والكمال من حيث تأثيره فى النفس الغافلة وبكونه

يذكر وبالوقوف مع ما جب مدلوله وما أشبه ذلك . وهو المادة من حيث أنه الموضوع الأول. وهو بهذا النوع يقال باشتراك بأنه : الكتاب والسنة ، والجميع يرجع إلى معناه الموجّه . وأنا عنيتُ به هـذا المعنى وتعلق اصطلاح به وخصصته بذلك . والمُشَاحّة في الاصطلاح من شِيَم أهل القصور . وهو الصورة ، فإنه المعنى المحمول والشكل الظاهر في الضمائر وفي التعبدات ، وهو المتمم لما تقدم .

واكتفيت ببعض هذه المقامات لأني ما قصدت إلا الأنموذج والتنبيه فقط على فضائله من جهة الدليل . وذهبت فيه إلى البراهين الإقناعية والخطابية في البعض ومن حيث البعض ، فإن من أهل الأحوال من هو هذا الكلام عنده من برهان وجوديّ ، ومن العلماء من يجعلها من قبيل الأمور الخطابية ، وفيه مخاطبة برهانية بل مخاطبات ، وفيه ما قوته قوة الجدل ومن مخاطبته ما هي شعرية بالقصد الأول ، ومنها ما يستند إلى النقل والعقل بحسب ما ينظر فيه أو يقبل وبحسب حُبّ الناس . وبالجملة خاطبت به من قام به هذا المقامُ أو تشوّقه أو تعرض إليه أو نبيه الأغراض أو مشاركاً في العلوم معتدلا . ومن أراد الاجتماع بي في مدلوله وبيانه والانفصال عن متشابهه وما يجب فيه — أهلًا وسهلًا به حيثما شاء من المواضع المعتبرة وغيرها . والله يعلم أني بيضته ولم يُعَدْ النظر فيه ولا أمكنني ذلك [١٠٥] ولا تصفحتُه ولا غيرت فيه ما جاءني من عند الله ، أعني الواقع من غير فكر ولا روية ، فإن الكل من عند الله على الإطلاق . كذلك أكثر تقييداتي المرسومة في هذا الشأن بخلاف غيرها من التقييدات . وجملة الأمر ، فرغت منه في يوم الثلاثاء من العشر الأول من شهر صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة ، والعمر آخر سن الشبيبة ، وقيدتها في نيف وساعة والسلام على المطفف في الرد والقبول ، والمقتصد والمقصر بحسب منازلهم ، ومن جهة ما يجب ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

تنبيه محبّة . وصية صالحة منوطة بهذا التقييد وخاصة به. حافظ يأيها الذاكر على أوقاته ، وابحث عن صيغة الذكر الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبالوقت الذي كان يستعمله فيه ، وبكيفية ذكره ، واحفظ جميع ما جاء في ذلك ، وحافظ عليه واذكره لكي تحضر ، ولأن يذكرك الله عز وجل ولأن تكون في حضرته. وغير هذا صوت مسموع في عالم الطبيعة لا يتعدى ولا يحمل الذاكر

إلى ما بعدها وأعوذ بالله منه . وخُذْ نفسك بمواطن الذكر المحبوب الشرعى ، مثل الذكر المذكور فى الصلاة ، والذكر الذى قبلها وبعدها ، وعند الصباح والمساء ، وعند النوم ، وعقب القيام ، ووقت الورْد ، وفى دخول المسجد ، وفى الخروج منه ، وعند النية فى الإحرام ، وبعد التكبير ، وفى رؤية الهلال ، والصور المهولة ، ووقت الأذان ، وإقامة الصلاة ، وبعدهما ، وعند سماع الدعاء يوم الجمعة ، وفى الأشهر الحرم ، وعند سَمْعك أصوات الحمير الوحشية ، والإنسية ، وفى المواطن الخالية ، وحيث الغافل والمجاز والجائز ، وعند سماع الصوفية وقبله وبعده وفيه إذا حضر المساعد — وإلاّ نفسُك أميل لعَزْمك وأثبتُ على عهدك وتصرفك من غيرها ؛ وكذلك عند الإحرام فى المواقيت ، وعند دخول مكة شرفها الله تعالى ، وقد فُعِل — وفى مرضك ، وعَقِبه ، وحال موتك . وإذا عزمت على الشروع فى شيء فقدِّم ذكرك الله تعالى ، ثم صلِّ صلاة الاستخارة . وعند ركوبك البحر ، والحيوان ، وفى قتال العدو ، وعند إطلالك عليه . والذكر الذى جاء بحسب الأيام والأشهر وأوقات الليل والنهار ، وما جاء فى الدخول على الملوك وغيرهم ، وعند الطعام ، وفى حال النكاح ، وفى الصلاة على الميت وفى حال تناوله حتى يصل إلى قبره ويفرغ من أمره ، وفى زيارة القبور ، وفى معاهد الحج ومناسكه ويوم الوقفة ، وما أدراك مايوم الوقفة ، ووداع بيت الله وما يلزم فى ذلك كله ، ودخول موضع الحاجة ، وإرسالك الجوارح على الصيد ، وكذلك السهم ، وفى الذبيحة ، ودخول البلاد ، والأبواب وعند الزرع ، وتعلم حجتك وجوابك للملك فى قبرك ، وفى الاستسقاء والاستصحاء واشتداد الأسعار ووقت الطاعون ، وتذكير الشجر ، وذكر العلماء والخلفاء والصحابة ، وصلاتك على النبي ﷺ ، وكيف السنة من غير السنة ، وفى الأسواق وعند رؤية المعيان[1] والمطر والقمر [١٠٦] والشمس فى الطلوع والغروب ، والبحر والسماء والبرارى والمطر ، وعند كل حكم وكون ذكر خاص . وعقب البلاء والنعمة ذكر منقول ، وكذلك النعمة والعافية ؛ مثال ذلك يقول عند الرزية والمحنة : « ما شاء الله كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! اللهم أنعم علينا بالصبر» ؛ وعند النعم : «الحمد لله !» وقد يكون الذكر فى ذلك واحداً إذا كان الإدراك واحداً والرجل متوحد والوحدة مقامه ومعلومه . وهذه كلها محصورة مذكورة فى الشريعة مسموعة عن النبي ﷺ ومنسوبة له ولأصحابه ولأتباعهم وتحتاج أن تبحث عنها وهى أكثر من هذه . وإنما ذكرت لك المُهِمّ ومِنْ جهة أن نشوقك ونعرضك وكيف تفرق بين الشرع وغيره .

(١) المعيان : الشديد الإصابة بالعين .

وأما الصوفية فلهم أذكار ، وكلها ترجع لأحكام الشريعة . فما منه مذكور وهو بحسب وظيفة ما شرعية ورُتّب عليه لا سبيل إلى الزيادة فيه والنقصان منه . وهذا الذى ذكرت لك : منه ما جاء من قبيل الأحكام الخمسة وذلك بحسب اعتباره من المذاهب والاجتهاد والتقديم والتأخير والإطلاق والارتباط ، ومنه ما هو بحسب حكمة ما ومعقول المعنى وغير ذلك مما لا يحمل بهذا التقييد ذِكْرُه ويطول الأمر فيه . — وقد فرغنا من المسموع المحصل ومن شروطه وأحواله ، وغرضنا أن نذكر لك ما سُمع من الرجال بحسب مواجدهم وبمسكرهم ؛ والذى يرجع منه إلى الأول ويجتمع معه بأقل تأويل وأقرب مفهوم ، والذى لا يرجع ولا يقرب بحسب الأكثر والذى يبعد أو يعسر صرفه للأول على بعض الناس بالجملة وما أشبهه . وما نقل عن الأنبياء عليهم السلام بغير اللسان العربى فهو مع ما نحن بسبيله من الحق بحقيقة المِثْل ، فإن الفُضَلاء بالجملة ما اختلف أحد منهم فى البحث على الكمال ولا على ذكر الله بما هو ذِكْرٌ ، وإنما الخلاف فى الطريقة الشرعية أو فى صفات الحق أو فى صفات الله أو بعض الاختيارات والمبادئ والغايات فقط .

فنقول : أجلُ ما جاء فى ذكر الله عن اليهود عشرُ كلمات مفهومُها لا يشذّ عن مفهوم آية الكرسى وآخر سورة الحشر على خلاف بينهم فيها . وفى الإنجيل تسبيح يوحنا وكلام المسيح الذى كان يتكلم به فى الليل ، وحاصل ما فهم منه مجموع فى هذه الكلمات التى نذكرها لك وهى مرموزة منى ، غير أن الذاكر ينتفع بها وهى : « عرس اش عر صح راهيا ايدجا ايهم اردع صعسر عرجم كطلم » . وقد ذكر أبو طالب المكى فى كتابه مثل هذا . والأصح عندى أن يُتوقّف فى المسموع من أهل الكتاب كما جاء فى الأثر ، إلا ما ينقله الرجال عن الرجال وعن الأحوال .

ومن أسرار الصوفية الذكر المحمود هو الذى يصدر عن الرجل فى حال الشهود وهو الفعّال عندهم وبه يقع الانتفاع وبه يفهم عن الله ونبيه وعنهم وهو لا ينضبط فإن [١٠٧] الله إذا تجلى يجعل قلب عبده كرسيَّه الموضوعَ لحكمه وعَرْشَه المدبِّر لعالمه فى عالم الطبيعة المدبَّر . وهذا الذكر لا ينضبط للعربى ، ولا للعجمى ، ولا هو بحسب لسان ، فإن الحضرة الإلهية واسعة وهى تمشى على حكم الممكن القابل الواسع الكلى . هذا ما كان منها فى المدرك المحصّل للذوات ؛ وما كان منها يرجع للحد الأعلى هو على جهة الوجوب ، ولا يمكن فى هذا أكثر من هذا — فاعلمْ . وأيضاً

الروح لا تحصره اللغات ولايخاطب بها ، وطبيعته قبول الكليات ؛ وإذا ترك هو وعالمه العلوى يعلم ويفعل من صفة نفسه ، فكيف تطلبه بأثره وتحب أن تجعل الظل يحكم على الشخص والآلة على الصانع ! وأيضاً الرجل هو فى الأرض أنموذج مجموعهم فلا يحصره شىء إلا الجلالة المنسوبة إلى الله فى مظهر مفروض أعنى جزءاً منه فى ذلك هو يعتبره ويحترمه وذلك يلزمه . وأيضاً الرجل هو رحمة على العموم ، وهو يدبر أهل الأرض وخطابه لا يتوقف . وأيضاً الملك إذا خاطب لا يستند إلا إلى المجاور المحفوظ والروحانى المؤمن ، والقرين قد يحدث بغير لغة الرجل الأولى . واعلم أن للملائكة أذكاراً مختلفة ، لملك المطر تسبيح ولملك الرعد كذلك وكذلك لملائكة السموات أذكار مختلفة ، ولملائكة الأرض ، وللمقيم الآن فى الجنة ولأهلها بعد ذلك . فلا تتوقف على ذكر ولا تنكر على الرجال ما تسمع فلعلهم كوشفوا وخوطبوا . ومن هو قلبه فارغ ينتظر ما يرد عليه من الأزل لا يحصر ولا يغير عليه . وقد جاء أن للحيوان البرى والبحرى أذكاراً . وقد جاء الذكر على العموم فى الجماد وغيره فى قوله تعالى : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده »[1] . فقل إذا وجدت البحر والوجود والحمد : « قهرم طمس هوالم صعنج ، ذلكم الله ربكم ، يا يا يا » . — ذلك من جهة المسئلة ، ذلك من جهة أن تختار ، ذلك من جهة شكرك . والذى تحتاج أن ترتب فى ذكر الله أن تبدأ : «بسم الله الرحمن الرحيم» وتصلى على ملائكته ورسله وأنبيائه وأتباعهم وأتباع أتباعهم ، وترضى عن أهل الملة وعن رجال الله كلهم ، وعن المؤمنين من الإنس والجن ، وتقرأ «الحمد لله» إلى آخرهاوأول كل سورة ووسطها وآخرها كلة ، أعنى آية فقط ، ثم تعود تكرر السور أعنى التى فيها الحروف المفردة ، وتقرأ سورة « الإخلاص » وآخر « الحشر » ثم تقول : « الله ! الله ! الله ! الله ! » وتقرأ : « آمن الرسول »[2] وتقول : « الله » سبعاً ، وتقرأ « شهد الله »[3] وتقول : الله ! الله ! مائة مرة ، وتقرأ « إن ربكم الله »[4] ثم تقول « الله » وتقرأ سبع آيات من أول « الرحمن » ثم تقول « الله » وتقرأ آية الكرسى ونوع صوتك وكيفما أردت انطق والذى تجد نفسك فيه أجمع.

---

(١) سورة الإسراء آية : ٤٤

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٥

(٣) سورة آل عمران آية : ١٨

(٤) سورة يونس آية : ٣

وأطيب وأجل الذكر ما أنت فيه كذلك . وعليك بالترجيع ، والترتيب فيه كذلك حتى يطيب لك إن كنت ممن يطلب الأنس وإن كنت فى ذاتك قد وجدته فى الجوهر . ومتى أردته يصلك فلك الخيار وجميع ما توجه الضمير إليه [١٠٨] اذكره به ولا تبال ، وأى شىء يخطر ببالك سَمّه به ، ومن اسمه الموجود كيف يخصص بأسماء منحصرة ! هيهات ! الله لا اسم له إلا الاسم المطلق أو المفروض . فإن قلت : نسميه بما سَمَّى به نفسه أو نبيه — يقال لك : مَن سَمَّى نفسه « الله » قال لك : « أنا كل شىء وجميع من تنادى أنا هو » . وإن صَعُب عليك هذا ، فعسى تسلّم أنه معك بالعلم والفعل . فإذا سلمت هذا تُسَلِّم أن الذى استجاب لك إنما هو الوجود . فإذا سلمت هذا سلمت ذلك فعجِّل بذلك ولا تكن كذلك فما يحق لك ذلك . يا هالك ، يا مالك ، انظر مِنْ حالك وقل بعد ذلك : يا حق ! يا أبد ! يا راحم ! يا أحد ! يا أكبر ! يا واجب الوجود ، الذى الوجود ووحدته واحد ! يا ماهية كل ماهية ! يا آنية كل آنية ! يا معسلى قد تعبت ، ارحمنى قد هلكت ، أغثنى قد عجزت ، خلصنى ولا حاجة لى بشىء لأنك كنت عينه ونخاف تمقتنى بمجرد الطلب ، لكنه من أجلك فاجمعنى بك ، واجمع علىّ إياك ، واجعلنى إلىّ عندك . عرفتك فلا شىء يقنعنى ، إذ لا شىء عندى إلا أنت . وكان بعضهم يقول : « يا ألله إلها ها يا الله الا يا يا يا ألله الا الا الا يا ألله الا أيا » . وبعضهم كان يقول : « قد قد قد هذا هذا هذا له له له له » . وبعضهم كان يقرأ القرآن فاذا ختمه يقول : ختمته بالجسم ونُحبُّ أن نختمه بالروح ، ثم يقول : نعم نعم نعم ! وهذا كله أردت أن نعرفك بتراجم الأمور وبعين المعلوم وبحقيقة الأمر فافهم . والسعادة كلها صمدية محمدية خالدية ، ومَعاد التحية والرحمة والبركة على الجميع .

قال ذلك عبد الله وهو عبد الحق[1] بن مراتب توبة رسول الله ﷺ فى اليوم ، لطف الله به ، والحمد لله وحده . قيدتها للمُحِقّ على الإطلاق ، ومن أجل الله بالقصد الأول ، وللولد الصالح النبيه النجيب المحب فى الله ولأهله : نورالدين بالقصد الثانى : بأنه يبحث عن سعادته ويسعى فى صلاح عادته وإصلاح عبادته ، وقد عَزَمَ على تحصيل معناه والظفر بما عناه ، وتمسك بحبل حب الله ،

---

(١) أى المؤلف نفسه ابن سبعين .

وجعل حب رجاله بيمناه ، نوّره الله بالعلم الذى يحمل إلى المعرفة وإلى مضاعفات اليقين الثلاثة وإلى العلم المحسوب بعدها بصيرته ، وأصلح سره وسيرته وسريرته ، وحمله على الطريقة وجمع له فى كتبه الملكوتى بين الشريعة والحقيقة(١) ، وكشف له عن حقائق الأمور حتى يبصر المعقـولات بعين قلبه كما أبصر المحسوسات بعين حسّه ، وأيده بروح منه وعرّفه طريقه وحبّب له صديقه وفريقه وأنعم عليه بالنور الذى إذا قام به أبصره بنفسه وأبصر به ما سواه ثم يبصر به فقط ثم ما هو على ما هو به بما هو هو حتى يصل إلى الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته ، ورزقه الله التجوهر بالمحمود المدبّر. وبالجملة عرفه الله الحق وحرّر له قصده وحفظ بمجده مجده وأدام بجدّه جدّه ، ورحم والده وجده [١٠٩] ويسر له حده ، وألهمه حمده ، وجدّد له فى ذلك جدّه ، وغبّطه بوجوده وتواجده وقوّى له وجده . ـ وسميتها «النورية» منسوبة إلى لقبه ، فإنها مرسومة برسمه ومشهورة باسمه . ورضى الله عن المعتبر عند المعتبر وأنعم عليه به ، وجعله أجل من الذى يقول وقوله الحق وقطعه العـالم الذى يفتقر فيه إلى البحث عن تحصيل السعادة وتستطرف فيه المقامات وخرق العادة محيى الدين بالله وعن جميع أصحابنا وسلام الله عليهم بجميع أنحاء المحامد المضافة له ورحمة الله وبركته . يا نور الدين ! اغتبط بهذا اللقب الذى لقبك الله به ، فإنه فى غاية الحسن واشكر الله ربك عليه واجعله مذكرك بالله . وإذا دعاك أحد به تذكر به إلى مدلوله العزيز واسمع منه وحصّل قوانين الذكر المذكورة ونادم بدّك المعروف بك باسمك المذكر باسمه ، ويكون الذاكر والمـذكور والذكر منك وإليك . واعلم أن النور محمود الحال ، وكل طائفة تعظم هذه الكلمة ، والله يقول : « الله نور السموات والأرض »(٢) ، والنبي ﷺ قال لأبى ذر وقد سأله : « هل رأيت ربك» ؟ قال : « نورٌ أنا أراه » . والنور كثير المفهوم وعزيز المعلوم وجليل القدر فى القلب . وهو الضياء لغةً ، وهو الذى إذا ظهر ظهر بنفسه وظهر به ما سواه محسوساً ومعقولا ، وهو الشاهد لنفسه ، المتفق من جميع جهاته ، الذى تدركه الحواسُّ الخمس ويتطرق إليه الوهم ويدل عليه الدليل ويُعلم ببديهة العقل . وهو

---

(١) الحقيقة : هى التصوف .

(٢) سورة النور : آية ٣٥ .

طبيعة الأرواح ، بل هو الوجود على الحقيقة ، وهو الكاشف الظاهر . ولذلك يجوز أن يقال فى القرآن « نور » فإنه يكشف وبه تبصر طرقُ السعادة . والنبي نورٌ ، والعقل نورٌ ، والعلم نورٌ ، والشيخ نور ، والطريق — وما أشبه ذلك . والناس يعظّمون هذه الصيغة ، ومن عظمتها دخلها التأويل الكثير الخارج منه المرئى خارج الذهن والداخل ، والخارج الفلكى قد عُبدت موضوعاته أعنى الكواكب ، والطبيعى أعنى النار كذلك ، وذلك على جهة مجاورة المثال ولكون الكشف الذى يتناسب والداخل النفس والقوى والعقول المستفادة والأحوال الشريفة . والمتكلم يقول فى قول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض » ، معناه : هو الهادى وصَدَق ، ويقول هو خالق النيرات وصَدَق ، ويقول هو مُنَوِّر وصَدَق . والفقيه يقول ذلك بحسب ما تقوله العرب . وقد قال بعضهم : العلم نور يضعه الله فى قلب عبده . وإذا عدل فى ذلك عما تقوله العرب أطلق على مدركات ، لأن العرب تطلقه على الضياء .

والصوفية تطلقه على الأحوال الكاشفة تارة ، وعلى الأرواح أخرى ، وعلى المواهب ثالثة ، وعلى المشاهد رابعة ، وعلى الاستغاثة خامسة ؛ وفيه قال أبو طالب المكى : « لا يُرى إلا بنوره ، ولا يشهد إلا بحضوره » ؛ وعلى ما يخص السر ، وعلى الظفر بالعلم اللدُنّى ، وعلى الوجود ، وعلى الجمال المطلق ، وعلى التوحيد الخالص . وإليه أشار الغزالى فى آخر « المشكاة »(١) وقسّمه [١١٠] إلى أقسام ، والأول منها تكلم عليه بحسب الصنائع . والمحقق يجعله الإحاطة وفَصَّ التطور ، والقضية الجازمة ، والتقديس البسيط ، والعين الجامعة المانعة ، والعموم الواحد ، والامتداد القصير ، والوجود الغائب الحاضر ، والمعنى الذى لا يخبر عنه ، وإن أخبر عنه وقع فى غيره أو فيه بالوهم من حيث أن له ذلك كله من غير قصد للمخبر .

والفيلسوف يطلقه على الذوات المفارقة بالجملة ، وعلى المفارقة بالنظر إلى ذواتها ، لأنها فارقت الأجسام لا من جهة الاستعمال كنفوس الأفلاك والنفوس الجزئية . ونور الأنوار عندهم هو الله .

---

(١) أى « مشكاة الأنوار » لأبى حامد الغزالى — راجعها فى « الجواهر الغوالى من رسائل الغزالى » طبعة محيي الدين الكردى ، القاهرة .

ومنهم[١] من يقسّم الأنوار إلى ثلاثة والرابع هو الطبيعى ، وهو عندهم على جهة ضرب المثال بالنظر إلى الأنوار . ومنهم من يطلقه على الهيولى وعلى الصورة المجرّدة والمُثُل المعَلّقة[٢] . ومنهم من يقول : عالم النور هو عالم آخر فوق ذلك كله ، وهو العالم الذى هو لله على الخصوص ، والله عندهم أجل من أن يطلق عليه اسم النور ؛ وإن أطلق عليه فإنما هو فى بعض المظاهر للتشريف .

والمجوس يُطلِقون النور على الله ، وعلى الخير المحض . — والبراهمة إذا ذكر عندهم اسم النور يسجدون فى ذلك الوقت عندما يذكر بينهم إذ يسمعونه ؛ ويتكلمون بكلمات مفهومها بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم : « أنت ! أنت ! أنت ! تعاليت يا ربّ الأرباب » . والنور عند اليهود حيثما جاء فى توراتهم المراد به عالم الملائكة وحضرة الحق وصفاته . وعند الإفرنج هو كناية عن اللاهوت ، وبالخصوص فى عيسى[٣] : هو النور الذى أهبطه إلى الأرض ، وهو واحد بالموضوع كثير بالقول والهيئة ، وبالعكس إذا تشخّصَ المظهر المعتبر . وبالجملة مذاهب الإفرنج خمسة ، النبيهة منها هى القريبة من الفلسفة ، وكلها تتكلم فى النور وتعظّمه ؛ وغير هذه الخمسة لا تصلح لشىء ولا يصلح الكلام فيها لحكيم ولا لمسلم . والقوم على فلسفة أفلاطون عاكفون وهم لا يعلمون . وأعوذ بالله من دين لا يُعلَم فيه قصد الله ولا تحرَّر فيه قوة نبيه ومراده .

فاعلَمِ النورَ يانور الدين ! فاعتقد أنه من خواص الدين واشكر مالك يوم الدين عزَّ وجل .

---

(١) الإشارة هنا إلى السهروردى المقتول ، خصوصا . راجع « هياكل النور » للسهروردى المقتول .

(٢) راجع عن المثل المعلقة نشرتنا : « المثل العقلية الأفلاطونية » نشرات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ص ٨٥ — ص ١١٥ ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .

(٣) الإشارة هنا إلى الآيات الأولى من الإصحاح الأول من « إنجيل » يوحنا . — ويظهر أن ابن سبعين كان على علم واسع بمذاهب النصارى .

نَفَثات صَدْر بعض الذاكرين . كان قد كظمها ، صِيَغُها فَصلُ المقال ، ومدلولها نوره شجر نور الخلد حيث الحل والحال تحض على الله وتصد عن اللاهى . قلتُ : ذِكْرُ الله حكمة لا يعقلها إلا ضمير الصديق . ذكر الله نوره ، ولكن لا يبصره إلا نور حدقة البصيرة . ذكر الله نسيم حضرته ولا يدركه إلا صديق . ذكر الله نعمته الأصلية ، وطريق جنَّته الآجلة ، وعين جنته العاجلة حال الذاكرين رائحة أنفاس الذكر ، ولا يشمها منهم إلا منيب أو مدرك . ذكر الله عبادة ملائكته وسبب قربهم. ذكر الله خيره المعتبر. ذكر الله عقل مستفاد. ذكر الله نتيجة مقام الاحسان . ذكر الله نتيجةُ مقدمتها [١١١] الإيمان ، وبرهان قياسها الإخلاص. ذكر الله روحٌ منفصل يحفظ الرُّوحَ المتصل فإذا اتصل كان الوصول. ذكرُ الله لذةٌ لا يكفيها أحدٌ. ذكر الله استرواح الأرواح لعالمها وسُلّمها المنتسب. ذكر الله باب الفكر النافع ، وذلك الفكر باب التطلع الكاشف ، وذلك التطلع باب التصفح الصادق ، وذلك التصفح باب الاتصال الثابت ، وذلك الاتصال باب الخلافة الكاملة ، وتلك الخلافة باب الحرية ، وتلك الحرية باب الشأن الثابت ، وذلك الشأن باب السكنه والباب الذى يلى هذا ورد الأمر بِسَدِّه ، وجاء النهى عن فتحه . وقد فتح بالإلزام فافهم . ثم افتتح حديث نفس نفيس — غَبطتُ مَن يذكر ثم يفكر فيجد ، أو يجد ثم يذكر فيفكر ، وعجبت ممن يذكر ولا يفكر فيجد ، بل ممن يفكر ولا يذكر فيجد ، بل ممن يجد ولا يذكر فيعتبر ، بل ممن يجد ولا يفكر فيذكر ، بل ممن يجد ثم يذكر ولا يفكر ثم لا يجد ، بل ممن يجد ثم يفكر ولا يذكر بل ممن يجد ولا يذكر ولا يفكر فيجد ، بل ممن يجد ثم لا يجد وبعد ذلك يجد ، بل ممن لا يجد ولا يجد أنه لم يجد ولا يمكن فيه أن يجد ، ولا يعقل الوجود فى غيره ، بل ممن هو ذلك بجملته ، ولا يصح فيه ذلك بالوجه الذى نذكر فيه التقديم والتأخير والتوسط قبل تنوع الشىء المشار إليه صحبة مجموعه الذى فرضه الوهم وتوهم فيه الأقل والأكثر ، والكلام فى الإنسان بحسب اصطلاح الواصلين بالوصول المُعْتَبر . فإن إنسان الحكماء وبعض الصوفية بُهْتان وآلة حرمان ، وبوجه ما بستانٌ ومظهر رحمٰن وحَجٌ وبرهان ، وبالجملة إنسان عامة خاصة الخاصة ينشد :

أنا الغريقُ فما خوفى من البلل ؟!

فإذا صعد إلى حقيقته بالتركيب ينشد بيت لبيد[١] إذا نزل بالتحليل . ثم يقرأ « سبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »[٢] ، ويشيّعها بقوله : « أفى الله شك»[٣] ويردف بقوله : « قل أمر ربى بالقسط »[٤] فى نهايته ووصوله الذى لا يصح بعده ما يفرض فيه بوجه ولا على حال ولسان حاله يقول : « وإن إلى ربك المنتهى »[٥] وإنسان خاصة الخاصة ينشيء أمره بين مظهر ومظهر ، ويتوسط فى حق وانجرار وَهْم ، وينتهى حيث يستقرّ كنهه بمعنى أنه هو ومحمود فى مهاد سكينة صحبة بساطة عرية عن شوائب التقديم والتأخير والعدة الذى يجمع بين العدة ووجود الوحدة المطلقة أعنى وحدة الوجود ويكفُّ عن كل ما يدخل تحت هذا القبيل من الأمور الإضافية مثل الزمان والمكان والقِدَم والحدوث والفاعل والمفعول ، ولا ينكر وجود ما فى وجوده إذا كانت الماهية هى نفس الوجود . وهذا الكلام عنده بحسب الناس وتكون النفس تطلب بشأنها ، والموضع لا يسع فيه أن يتكلم فيه بما هو به على ما هو عليه أصلا : وكل كلام فى التحقيق هو بخلاف الحق أو معنى يخبر [١١٢] عنه ولا يجتمع معه فى الدلالة ويجتمع معه فى الوجود . ومن أهل الحق مَن أنكر هذا وقال هذه بَقِيَّةٌ وهمية ، ومنهم مّن أنكر على هذا المنكر لا من حيث التعليل فقط بل من حيث ذلك والملاحظة والتعقيب . فنرجع إلى حاله فنقول : هو يستند ويجمع أخباره وكأنه نقطةٌ وامتدادٌ ودائرةٌ وقبضٌ وبسط . ثم ينظر فى هذا ويحيله ويعود إلى الوحدة النقيّة الخالصة التى تكاد أن تعرّى عن الوحدة لإفراط إفرادها ولكونها أنكرت النسب والأسماء . وهذا التوقيف عنده هى العبودية ، وهى التى تَقدَّم منها بساطةُ الوحدة فى وجودها بها وقيامها عليها فقط . هذا عند بعضهم ، وبعضهم يمنع ويهدد أخباره كلها وحيثما يجد الضمير سكنه بها ، وهى أيضاً تجذبه . وإثبات نصّ الحق وأصله قد نبهتُ عليه فى « يد العارف » وفى كتاب « البُهْت » وفى البحث « فى الشأن العزيز » ، ومن قبله هو قطع مستمر وكُنْهٌ لاحق ونَحْدٌ غالب ، ونور مرسل ، ثم ما هو أعنى هذا المشار إليه بشرط أن يترك ، فاعلم واجهل ، وبالفرض المقدر فكَيِّفْ . والحمد لله وحده .

كملت الرسالة النورية بعون الله ، فالحمد لله .

---

(١) الإشارة إلى بيت لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل .

(٢) سورة « ياسين » آية : ٨٣ .   (٣) سورة « إبراهيم » آية : ١٠ .

(٤) سورة « الأعراف » آية : ٢٩ .   (٥) سورة « النجم » آية : ٤٢ .

رسالة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً دائماً (١) .

[١٢٩] الله فقط . الله المستعان والمستعين ، والإعانة معنى فيه فى كونه معيناً ومستعيناً . الحمد لله فى الأزل والأبد ولىّ المجد ، ومن هو بهما عين الحامد والحمد . والصلاة على من به تمّ القصد وعنه بعد الأخذ تعين الرد ، وعلى جيران نشأته التى هى يتيمة العقد ، وهم الفرايد المختلفات فى النضد من معنى القرب والبعد ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالسارى بذاته فى أفعاله عن أسمائه بصفاته أحب فتسمى بالحىّ ، وأحاط فتسمى بالعالم ، واستدعت معانيها الظهور فتسمى بالمريد ، وقبلت ذالك فتسمى بالقادر . وهو عين الأول والآخر والظاهر والباطن . هو عين كل ظاهر فحقّ له أن يتسمى بالظاهر ، وهو معنى كل معنى فحقّ له أن يتسمى بالباطن ، وله القبلية المرتبية الوجودية بالفعل فحقّ له أن يتسمى بالأول ، وإليه يرجع الأمر كله بحقيقة الإيجاد وبحكم أن عدم النهاية هو له حقيقة فحقّ له أن يتسمى بالآخر ، وله الإحاطة وبعين ماهو به محيط هو به عالم ، فهو بكل شىء عليم . أسماؤه اعتبارية فلذلك لاتتنقل ، ولكون مسماها واحداً فبعضها من بعض يتبدل ، فاسمه المعين له من اللوح هو بالنسبة إلى ما تعين من القلم الآخر لكنه بعينه بالنسبة إلى ما تعين بعد اللوح هو الأول ، والتعين صفة المتعين والكون هو حقيقة المتكوِّن . فاعجب له من ثابت متلوِّن ومتبدِّل متصون ! الترتيب الطبيعى الذى جماعه التركيب العرشى هو حكمته فحق له أن يتسمى بالحكيم ، ومقادير ما ترتب متناسباً ومتنافراً هو المقدر لها فحق له أن يتسمى بالمقدر والمترتب والمتقدر . ليس عين معانيه وليست غيره ؛ فالحكم لها يثبت الحكم له بها ، وهى هو فالحكم كله ، لايريد إلا ماتقبله معانيه وهى هو ، فقبولها نفس إرادته إن كلياً فكلية وإن جزئياً فجزئية . حدوث العالم ثابت له فى الأزل وهو هو . فالحدوث واجب ، والحدث حق لازب لم يتجدد له التجدُّد ، فأين التجدد ؟ ما ثم من يضاف إليه غيره ، فأين

---

(١) هنا ورد العنوان التالى : « خطاب الله بلسان نوره » ونظن ذلك خطأ ، كما يظهر من آخر هذه الرسالة ، فهى رسالة الألواح ، أما « خطاب الله بلسان نوره » فهو الرسالة التالية بعد .

التعدد ؟ ينظر الضد لضده فيه بعين الملاءمة والتودد ، والناظر والمنظور عين فى شرع التوحيد . ينزل الأمر فيه منه عليه ، وينسب الشىء إلى غيره فتشهده فتجده منتسباً إليه . ما عبد غيره ، ولا تناول متناول إلا خيره .

الله فقط . وإلهكم إله واحد لا إله هو الرحمن الرحيم ، له الملك فى بعض ما ذكر ، وله الحمد بذلك ، وله ما لا يمكن وجوده فى الملك ويمكن فى الملكوت فى بعض ما يفهم من لازم البعض ، وله الطول فى الجميع ، وله ما وراء ذلك بما يفهم من وراء ذلك ، وله الحق الذى يدل عليه صحبة ذلك الدليل ، وله الكل فى موضع اعتبار ما وفى وقت فقط وله الأوّلُ والآخر ، والظاهر والباطن من كل ما كان منه وذلك على ثلاثة أنحاء . وانظر ذلك فى لازم العلم وفى لازم الفعل ، وفى وصف الوهم بين ذلك إلى الله مرجعكم [١٣٠] إذاً بعد المفهوم الأول الذى عليه الإجماع « الرحمن على العرش استوى »[(١)] ليت شعرى هل كان ذلك ولم يزل ؟ أو حدث بعد إذ جاء بحسب ما يجب فى حقه أو هو بحسب قراءة ما أو إلى الله علمه ، أو هو فى كنه كل أحد والأنموذج يخصص مهمل الذات إذا علم العبد الله هل يصحُّ له أن يقول أنا مع ذلك أم لا وإذا عَلَّم العبدُ العبدَ هل يصح له أن يقول الله ، أملا ؟ أم هل له أن يجمع بين ذلك ؟ ! ما أعجب الحب فى قلب من لا يوجهه إلى شىء حتى تقرأه طباع التحقيق ، وكذلك التوحيد وكذلك المعرفة ، وأكثر المقامات هكذا ! انظر إلى ذاتك فإن شعرت بالكمال اعرض عليها ما ينبغى أن تسكت عنه وما ينبغى أن يُعلم وما ينبغى أن يُفعل وكذا وكذا وكذا ، فإن وجدت فهى التى لا يزاد فيها وينقص منها فتحتاج إلى نيل ذلك وتصطاده فى كل مكان تجده بأى شرك يمكنها إن أحببت الكمال وإن كعت أو تأخرت فتعلم أنها ناقصة والنقص يجذب النقص ، كما أن الكمال يجذب الكمال ، والكمال ينقسم إلى كمال به تصح ماهيته وكأنه كمال ذلك الكمال ، وهو صلاح ذلك الاستعداد والفطرة الشريفة التى خُلقت ورأسها إلى فوق من حيث بُدئت فقط . وإن قال الوهم إليك عنى بذلك كله ويخدعه باطله الذى وصل لبعض ضعفاء الوقت وخدعه فى الله من حيث شرع فى الوصول

---

(١) سورة « طه » آية : ٥ .

إليه بواسطة التوحيد الذى تخترعه طباع الجاهل المعظم نفسه الذى لا يصح له الحال ولا يصححه من أحد لطف الله به به الحمد لله عليه أريد على ما حصل منه بأى نوع كان .

الله فقط؛ الكل له بالأصالة كلُ كمال ، وهو الكل بالمطابقة ، وبالتضمن عين الكمال وسر الجمال وغاية الجلال ، وبالالتزام ما أنا عليه . ولى بالإصالة كل نقص وانى الجزء بالمطابقة ، وبالتضمن غاية القبح ونهاية الذل والحقارة، وبالالتزام ماله. فلى بالإصالة ماليس له بها ، وبالتضمن كذلك ، وبالالتزام ثبت الاشتراك، الرجل من يحكى الوجود منهم الشوذى هو الكل بك معيناً ، وكل الكل بك معيناً ، وأنت الجزء به معيناً، وجزء الجزء به لامعيناً، وأنت به لاشيء وهو بلا أنت ثابت أبداً، فالكمال له بك معيناً وكمال الكمال له بك لا معيناً ، وبدونك لاوصف له سوى الثبوت ، وهو الوجود فى كل موجود وهو مع كل شيء ، ومتى سرى من ذلك الشيء حكم إلى غيره فمنه لا من ذلك الشيء فله فى ذلك الحكم إيجاده وللشيء فيه الشبه فيه فقط لأنه فى الماء ماء ، وفى النار نار ، وفى الحلو حلو ، وفى المر مر فمهما سرى حكم من شيء إلى شيء فله الإيجاد وللشيء فيه الشبه ، مثال ذلك : هو مع السراج نور بصورته فيسرج منه سُرج كثيرة تشبهه ، والإيجاد لمن هو مع كل شيء بصورة ذلك الشيء ، ولو كانت تلك السرج التى أوقدت من السراج من ماهيته هو لفنيت مادته بإيقاد جملته من [١٣١] السرج منه ، وكان يظهر فيه الضعف قليلا قليلا حتى يفنى . وإنما الإمداد من الأمر الذى هو مع كل شيء بصورة ذلك الشيء ، ولا صورة له هو . ولو قيدته صورة مالم يكن مع كل شيء ، إلاّ معها فقط — تعالى وتقدس فهو الوجود كله ، ولا وجود لشيء معه إلا لعلمه به . أنت علمه ، فأنت به ثابت من حيثية مغايرة علمه إياه وهى التعيين وبه هو موجود من حيثية أن علمه عين ذاته وهى ألا تعيين . وأنت المتعين من حيث أنت صورة فى العلم ، لا من حيث إطلاق العلم . فإن عرفته فى كل شيء عين كل شيء لا الصورة المتعينة لم تجهله فى صورة أصلا ، ولم تكن ممن يتجلى له فى غير الصورة التى يعرفها فيتعوذ منه حتى يتجلى له فى الصورة التى يعرفها فيتبعه . وهذا وإن كان من السعداء فهو بعيد من أهل العلم بالله جداً . وأى معرفة لمن يعرف المطلق مقيداً بصورة ما؟ فهذا إلى الجهل أقرب منه إلى العلم ، غير أن بركة الإيمان وسعادته شملته فيتنعم بسعادته فى الجنة من وراء غيب الإيمان ، وشفع له النبي الذى صدقه فرفعت له الحجب وقتاً ما فيتنعم بالمشاهدة بحسب حاله وعلى قدر نصيبه من رسوخه فى الإيمان وأخذه لنصيبه من مقام الإحسان فإذا هو كأنه

يراه إلى أن رآه . وأين هذا المقام من مقام من رآه مذ عرفه فى كل شىء عَيْنَ كل شىء سوى تُقيد الشىء وتعينه بأنه هذا ، فإنه لا تجوز إليه الإشارة لأنه لم تقيده صورة قط . فمن عرفه كما قلنا ورآه فى كل شىء لم ينسه قط ولم ينسحب عليه من عتاب الآية شىء ، وهو قوله « نسوا الله فنسيهم »(١) حاشاهم من ذلك بل ذكروه دائماً فذكرهم ورأوه فى كل شىء ومع كل شىء ، فشاهدهم كذلك وشهد لهم بالكمال .

فصـــل

الذات عَرِيَّةٌ عن المادة ، والعلم كالمشوب بها شىء لا كالمستند إلى شىء ولا كالمرتكز فيه ولا كالمربوط عليه ولا كالملتحم فيه ولا كالحالّ فيه كحلول الماء فى الإناء ، ولكنه وجود يسيل ولا يقف ، ويستمر ولا يختلف ويشار إليه صحبة مجموعه الأول والآخر والظاهر والباطن . فالذات مع العلم دائما وهى الباطنة وهو الظاهر بخلافك أنت الظاهر ، وعلمك باطن أبداً وما فى الوجود سواه معك وسواك به ، فأنت معين صورة علمه وغير معين علمه ، وهو علمك ، وحكمه فيك بخلاف حكمك فيه ، ترى وتبصر وتعلم وبك يُرى ويُبصَر ويُعلَم .

فصـــل

الأمر الغريب منقول من علم المحو فعلمه فى الإنسانية إنسان ، وفى ح ح ، وفى ن ن ، وفى ج ج ، وفى العالمية عـلم ، وفى العاقلية عقـل ، وفى ح ح وفى ذ ذ وكذلك فى كل مرتبة لا ظهور له إلاّ بالمراتب ولا وجود لها إلا به . فكل ما عُقل أو أحس فهو وجود ومرتبة ، والعقل مرتبة والحس مرتبة ، والمراتب زائلة ، والوجود ثابت ، والثابت حق ، والزائل وهم وباطل . أما كونه باطلاً فبيِّن لأن المراتب عوارض للوجود ، والعرض لا يبقى زمانين فى [١٣٢] التحقيق ، فهو باطل

---

(١) سورة « التوبة » آية ٦٧ .

أبداً . فإن أُرْدِف بعده عرضٌ مثلُه في الزمان الثاني وآخر في الثالث توهم أنه باق ، وإن أردف ضده قبل ثان . وأما كونه وهماً فَبَيِّنٌ أيضاً لسببين أحدهما أن العرض لا يُدْرَك تاما ، ولا يؤثر تاماً ، إلا بتواليه أزماناً بالأمثال، فذلك البقاء المتوهم يؤثر أزماناً في الإدراك ، والإدراك والتأثير لعرض مشروط بالبقاء ، والبقاء وهم . والسبب الثاني أن الحق أن ينسب كل ما أدرك من الأحكام حساً أو عقلاً إلى الثابت لا إلى الزائل لأن نسبته إلى الوجود الثابت حق ، و نسبته إلى المرتبة الزائلة وهم، فثبت أن الحق هو الوجود ، والوهم هي المراتب الزائلة والباطلة وكل شيء هالك ، وهي المراتب الوهمية إلا وجهه وهو المجد والوجود وهو الأمر الذي لا تخرج عنه حقيقة من الحقائق الموصوفة بالوجود . ولا وصف له ولا نعت ولا حَدّ ولا رسم بالنظر إلى ذاته سوى أنه وجود . ولم يوصف أيضاً بالوجود إلاّ بالنظر إلى الموجود . والموجود إما واجب الوجود وهو الكل والهوية ، وإمّا ممكن الوجود وهو الجزء والماهية . فالربوبية هي الهوية التي هي الكل ، والعبودية هي الماهية التي هي الجزء . فما من حقيقة منسوبة إلى الهوية بالأصالة إلاّ واسمها كل، ومامن حقيقة منسوبة إلى الماهية بالأصالة إلاّ واسمها جزء . ولا وجود لكل إلا في جزء ، ولا لجزء إلاّ في كل. فاتحدَ الكلُ بالجزء فارتبطا بالأصل وهو الوجود ، وافترقا وانفصلا بالفرع ، وهو نسبة ما به التعدد والتميز . فالعامة والجُهَّال غلب عليهم العارض وهو الكثرة والتعدد ، والخاصة العلماء غلب عليهم الأصل وهو وحدة الوجود . فمن كان مع الأصل لم ينتقل ولم يتحول وثبت على علمه وتحقيقه ، ومن كان مع الفرع تحول وانتقل وكثرت عليه الأمور ، فنسى وسَها وجهل . وإذا انقسمت الأشياء لم تعلم معاً ، وإذا توحدت علمت علمها وعلمها ذاتها .

فصـــــــل

اقتران متغير بمتغير : زمان ، وبثابت : دهر ، وثابت بثابت : أبد ، وثابت وحده : أزل .
ارفع الإدراك والعادة بالعلم أو بالتصريف لا حسن ولا قبيح :

محاسِنُه هيولى كلّ حُسْنٍ ومغناطيسُ أفئدة الرجال

الوجود قضية فيها كل شيء حاضر ، والحق مع كل شيء ، وفي علمه كل شيء في الأزل والأبد ، وعلمه عينه ، وهو لا تحكم عليه الأزمان ، والكل حاضر في القضية .

فصـــــــــل

العقل خَلْقٌ ضابطٌ للعلوم ، وميزان لها يقيدها ويضبطها ، ويميز صحيحها من سقيمها ، والانسان الخليفة خَلْقٌ ضابط لجميع الصور الحسية والخيالية ، وميزان لها يقيدها ويضبطها وهو الميزان الأكبر والخليفة الأظهر ، ميزان الموازين ، وخليفة الخلفاء . والعقل بعض ما فيه ، والعلم جزء مما يحتويه . إن شهد لها [١٣٣] صَحًّا ، وإن لم يقبل ما شهدا به لم يُقبلا . فعلى ما سواه يوزن بهما لا عليه ، وإليهما ينسب العجز والقصور فيما اختلاف فيه لا إليه ، لأنه أكبر منهما وأجمع لصنوف الشرف ، وهما جزء ماهية منه . والفصل هو للمخلوق على الصورة ، والمخصوص باليدين وبأحسن تقويم ، وبعلم الأسماء كلها ، وبعلم الأولين والآخرين ، وبقاب قوسين وبالقسم بحياته وسَعَة قلبه ما لم تسعه السماء والأرض ، وبأن من بايعه فقد بايع الله ، وبأنَّ الله رَمَى إذ رمى ، وبمحبة الله وخلقه ومنته وكلامه . والسلام على من تأدب مع السلام بالاستسلام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الله فقط : من انفصل من خطٍّ وَهْمٍ واتصل بنقطة حق حُمِدَ حاله ، ومن حقق حقه الكامن بحقه الجليّ ووهمه المنجر لم يموّه عليه وهم غيره الظاهر والباطن . من تقدس من كذا واتصل بأكثر من ذا وذا ووقف حاله فى كذا عظم حاله فى عالم عادته وصغر فى حضرة سعادته ، لأن جميع ما هو من هذا القبيل من جملة الأوهام المنحطة . فلا ينبغى لمن علم الحق أن يشككه ضده ولا يبذل فيه جهْدَه ويبذل فيه جده فى طلب جده ، لأنه تعالى جَدُّه . ومن استقل ولو فى قوله لا عبارة فى الذى عنده ولا إشارة ، أعنى لا عبارة لفظية ولا إشارة قلبية ، لأن العبارة تتكلم بعد محرك ما يتقدمها والإشارة تتوسط بين ذلك وتلك ، ولا خير فى الكل ، والحقيقة لا تُمَيَّزُ ولا تُمَيِّزُ ، ولا يتقدمها شىء ولا يتأخرها شىء ، ولا تتوسط فى شىء ، ولا تقال على كثيرين ، والله يتكلم ويخبر ويحقق الحق ولا يلفظ . ولذلك يحيط ، وإحاطته منحطة عنه محمولة فيه مشار إليها به وإليه بها جزء كل وكل جزء عموم وخصوص وخصوص وعموم ، كله أكثر من جزئه ، وجزؤه أكثر من كله ، وجزؤه أقل من كله ، وكله أكثر من جزئه ، وجزؤه أكثر من كله ، وجزوه أقل من كله ، وكله أكثر من جزئه ، بل لا كل ولا جزء له بالنظر إلى الحق صحبة ذاته وإمَّا بالنظر إلى الحق صحبة الوهم . فهو الأول

كما ذكر وهو الآخر فيما ذكر ، وهو الظاهر فى جميع ذلك ، وهو الباطن فى تقدير أمثلة ذلك المقدّرة . وبالجملة الإحاطة الأولى علمه ، والثانية التى تنسخ الأولى ذاته والوجود ، والثالثة ذاته فقط ثم الإحاطة التى لا تعقل فيها الإحاطة ، ويندغم فيها المحيط والمحاط به معاً ، فمن امتنع من العبارة كما قيل يكون إلهياً بشرط أن يكون جوهره كاملاً ، وإن لم يكن كاملا فهو مذموم الجملة . فاجتهد أن تكون قضيتك من قضايا الوقت الواحد من الجهة الواحدة بالكلمة الواحدة فى الوجود الواحد بالذات الواحدة وهى هى ، ولا تقل : لم كان كذا ، ولأىّ شىء كان كذا ، وانحصر كذا فى كذا ، وعجز هذا عن هذا ، ولم يكن ذلك على ما ينبغى كذلك وتَقَصَّى كذا وتعرَّضى كذا — فتهلك وتخرج من إحاطة المحقق المشار إليها والمعلول عندهم عليها ، لأن حرف العلة يجرُّ إلى لواحق مدلوله وذلك يعطى المبدأ المضاف المقسَّم والمنقسم [١٣٤] ولا حاجة للمحقق بمعنى ينسب أو ينتسب ، فإن ذلك دليل على وجود الحائل والمانع ومع هذا يخبر عن عدم الحصر ويوقف الضمائر على ملاحظة نكتة الوحدة . وإذا قدرنا الوحدة المطلقة البسيطة ، لم يصحّ لنا غيرها ولا الكلام عليها ولا مايقال أو يتوهم ولا ما يشار إليه أو يُتَفَهَّم بوجه ولا على حال . فقل : أعوذ بالله من علم اليقين ، لأنه بين علم وهمىّ وجهل مهلك . وقل : عصمنى الله من عين اليقين ، لأنه وهم متعلق بأمثلة . وقل: حجب الله عنى حق اليقين ، لأنه شرك الضمائر إذا استقل سكونها فى خطبة ذلك المعنى بذلك الشىء الذى يشبه الحركة الدولابية وتتموج فيه المقاصد ويعظم فيه حال الخبر والمخبر وتتوحش النفس وتنشقُّ الفطرة وتنصدع مرآة المقاصد .

الله فقط : الله فى كل شىء بكله ، وليس فى الكل والبعض ، وهو شىء فيه ما ليس بشىء وما هو شىء معاً . فَعَيْنُ ما ترى ذات لا تُرى ، وذات لا تُرى عين ما ترى . فجاء من ذلك أنه حصر من انحصر ، وبسط من انبسط وانحصر ، وانبسط .

إليه ! المحال من الأسماء الثابتة ، وقصد المتكلم يعلمه الله تعالى أجمع الأشياء إليه ولا حجر دنا بنبوته وتدلى برسالته فكان قاب قوسين أو أدنى . الأبد قضايا والقضايا أزل ، والأزل على مشار إليه ، والمشار على ذات ، والذات واحدة . الله فقط — لا شك فى ذلك .

الله فقط ! يأيها الصحيح المريض ! مَرَضُ عَيْنِ جسمك سَبَبُه صِحَّةُ عَيْنِ قلبك ، والله يشفى مرض عينك الواحد ، ويحفظ عليك الصحتين ، ولا يرفع سببه من حيث هو صفة طبيعة كالك ويرفعه من جهة حاله فى وقت ما ، ولا يرفع الانفعال السنىّ من أجل المدرك السَّنِى . وبالجملة ، حفظ الله ذاتك من كل الجهات حتى تجد الجلالة من جهة الملكة ولا يفوتها مع ذلك ماهيةُ العافية العامّة . والسلام عليك بحسب هذا ورحمة الله تعالى وبركاته ! وتمها ذلك ، وهو عين ذلك عند ذلك ،وعند نفسه ذلك ، وبما هو غير ذلك عند ذلك هو ذلك ، وبما هو عند نفسه ذلك هو غير ذلك الله ذلك .

الله فقط ! يا هذا والذى أخبرك به رضى الله عن الحق منك ، وحفظك من ضده فيك ، أنّ كلام الله جزء ماهية التطور ، وهو غاية المعتدل ؛ ومما ظهر لى فى الوجود أن الذوات كلها ذات ذلك الوجود من كل ما يلزم عنه . وأنت انظر إن وجدت للوجود صورة يشار إليها ، فالتزم البعض من موضوعك ، أو استند إلى بُدِّك المقوِّم لك . والوجود فى كل موجود هو الحق فيه . وقولك الجسم والجوهر والعرض هو الوهم ، وهو غير الجليل ، وما يخالف الحق. المبحوث عنه بالحق فى الخلد هو الأمر الذى يمتد على العوالم ، وتلك العوالم هى أمور الله ، ولذلك يقول الحق : « وإلى الله تُرْجَعُ الأمورُ »[1] . وإذا عزمت على الله ، أى على القرب منه ، خلِّص نفسك من البعيد عنه من صفة نفسه وأخلص فى الإضراب حتى لا يبقى فى [١٣٥] ضميرك من تخبر عنه ولا من تقدر أنه يخبر عنك . ثم اعزم بعد ذلك واعزم ، وخُذْ نفسك بالتجلد الجاحد لجميع ما يجمعك أو يفرقك، لأن ذلك كلّه يجرُّ إلى الأول من العبد والآخر من الأصل ، وذلك على خطر .

الله فقط ! ما حَرَّك اللهُ قلبَ من يحبه إلى مخبر ما وهو بعيد عنه لأن حقيقة محبوب الله إدراكه الأمور على ما يجب وفى الوقت القريب . وهو أيضاً لا يمكن أن يهمل الأخرى والأولى فى الله قط ، وهو يجد الحق على أكمل ما يمكن ، ويجعل الشىء فى محله . ومعنى محبوب الله من ثبت خيره فيه ، وتحقق ضميره كماله منه ، ووجد أنسه به وكان مجموعه على حظ وافر منه ، وكان الله معه بتقييد

---

(١) « سورة الأنفال » آية : ٤٤ .

أوامر سعوده وصعوده . وإذا بلغ غاية ما نجعل له بداية غاية أخرى . وإذا بلغ تلك كانت مقدمة نتيجة أعلى . ولا يقف قصده إلا فى حصر الواقع وامتداد النوازل واستجلاب الإعلام القاطع . وهذا هو الذى يقول فيه محقق للعبد التائب أنه ينصرف إلى خبر ما هو مظهر الفضائل ، وما يمكن أن يكون بعده إلا الصور الكامنة والذوات المستعارة التى كل ذات منها إلى حدّ ما نهايتها لأنها تتحد فى كنه تلك الآنية لا الآنية . وهذا يحمد بوجه ما . والذى يُعَوّل عليه أن الله لا إله إلا هو . وهذه الكلمة اجعلها دائرة وهمية تنفى الدوائر الداخلة والصفات أيضاً .

الله فقط ! شأن الله منبر لا يصعد عليه إلا خطيب الوجود بتدريج نور الله ماهية الأرواح الطاهرة . ولأجل ذلك يبصر ما وراء الوراء . طريق أهل الحق حكمة كتبه المنزّلة ، ولكنها لا تصح من كل حكيم وتصح من الغافل إذا ذكره حضور التخصيص وجذبته يد القبول . قول العارف « الله » يدل على أن ذلك بقسط نفسانى ، وإلى الله عاقبة الأمور . التحمل يقلل عَوْدَ الخصومة، ويحلل مركب المتابعة . التصرف بالإخلاص يقطع رقبة الضجر ، والقضاء بالأحكام الشرعية يعلم الاعتدال ، ويجرُ إلى العدل والزيادة . مَنْ جعل سنة رسول الله مرآته التى ينظر فيهما صور الأولى والأخرى استقام سلوكه . دين الله من حافظ على جملته بكل أنحاء المحافظة وجد الله حيث اختاره الله له ، ومكّنه من التراجم الخمسة ، أعني : الخلافة ، أو الإمامة ، أوالقطبية ، أو قوة التحقيق الذى لا ينسب إلا بمضاف الأصل الذى ما سمع وهم فرعه أو المعنى الذى جميع ما ذكرناه من بعض مظاهر سلوك الأبرار بالعلم والعمل والاستعداد المشترك وسلوك المغربين بالعالم والعامل والاستعداد المستند وسلوك أهل الأزَل بالذات المستقيمة فقط . كل كُنْه لا يمنع عن نفسه فهو منك ، وكل خبر لا يسكن الضمير معه وإن كان يعلم ويعمل به ويظفر بخواص العادة به هو من قبيل الأوهام التى لا تقال مصبة تكليف ولا دليل ، وهى الثابتة فى الآخرة . وهيهات ! أين الله من ذلك ! بمعنى لا سبيل إليه بذلك كله . من سمع كلامى وتعذّر عليه فَهْمُ الحق فهو إمّا ج وإمّا ح وإمّا م ، وإمّا طبيعته منه [١٣٦] فقط .

الله فقط ! لا حول ولا قوة إلا بالله ، بعد مدة وفى إثر شدة . وبأمر آخر كشف الحق ، وحقق العالم به أنه لا ينال إلا به ، وظهر له أن الوهم هو القاطع وهو الحاجز بين الحق المستقل وبين التابع

الموقت ، أعنى الذى يظن به ضمير المتحير الذى لا عين لضميره ، ولا هو فيه قوة التعيين ، وأنه مع ذلك كذلك بوجه يشبه الراجع على أجزاء ماهية ينسبها فيه له بما هو هو ، وإن كان هـذا لا يصح فى أعلى من هذه المرتبة فهو القول النافع فى هذه . وبعـد ذلك حدّث الذهنُ به النفسَ ، وحدثت النفس الإرادة ، وحَدَّثت الإرادةُ القصدَ المحرَّرَ ، وحَدَّث القصدُ المحرَّرُ العَزْمَ المخصص، وحدث العزم المخصص الجد المحرك ، وحرك الجميعَ الهمةُ الجليلة ، وحركت الهمة الجليلة السـيرة الجميلة ، وبالنظر إلى السبب الباعث الهمة هى المحركة للجميع ، ومن حيث ترتيب الوجود ونظم الأخبار فى سطح الضمير الذى هو اللوح الجزئى هى محركة — فافهم . وحركةُ السيرة والهمة معاً إرادةَ الله المتعلقة به على سبيل العناية إن كان ذلك كله نحو الصواب والمطلوب الصحيح والظفر بالمدلول الأول ، وإن كان بالضد فتـكرُ موا كب البحث المهلـكة قابلة ، وتعود كوا كب الـكشف المختار آفلة ، أو يتعلق ذلك كله بمطلوب وهمى ، ويقع الأنس به ، وتسكن النفس عنده . وأعوذ بالله من أحوال يكون الصراط المستقيم فيها قد وضع على حاشيتى جَهنّمَ الأوهام ، وجنة التعيين أمامه . وإنما الذى يبحث عنه أو يفرح به أو يكمل به الرجل هو الصراط المناسب البسيط الموضـوع على مَحَلّ الأنس والتيسير ، ويكون طرفه الأول على جنّة المأوىٰ ، ووسطه على البرزخ الجنسى ، وطرفه الآخر الذى هو بإزاء الوجود وفى مقابلة ذاته أعنى الوجود فى مكان النهاية الذى تصور فيها المألوف ويتجلى فيها معتبر الأمل للقسط المميز ، ويصح به الوصول إلى الله الذى لا إله إلا هو . فإن الله لا يظهر فى مرآة الإخلاص التى أفرد فيها الشأن العزيز وظهرت صورة الجلال المطلق الذى لا ينسب إلا من حيث يقوم أو يتمم على العموم خاصة ، والله تعالى يقول : « وأنّ إلى رَبِّك المنتهى »(١) ويقول : « كل شىء هالك إلا وجهه »(٢) ويقول : « أفى الله شك »(٣) يريد فى شىء ، حق فى الشك ، فإنه به تردد من أجله وفى لواحقه ثم يقر الضمير وله منافع جُملةً ، لأنه يحمل إلى أدب الأقل صحبة التبعيض والقوى يحين(٤) الضعيف . وأحسن ماقيل فى ذلك : يا ألله ، أنت أنت أنت أنت الأحد ! وأنت المعنى فى معناك ! وأنت ذلك بعينه ! متى وجدت نفسك تحدثك بالكمال وأدواته فيها فأخبرها بالأول فى ذلك ، وكيف إلى الله يُرجع الأمر كله والحمد لله وحده .

---

(١) سورة « النجم » آية : ٤٢ .

(٢) سورة « القصص » آية : ٨٨ .

(٣) سورة « إبراهيم » آية : ١٠ .

(٤) كذا ! فهل صوابها : يمين ؟

الله فقط ! يعتمد الوهم الحق الباحث عن سعادته المغتبط بصلاح عادته وإصلاح عبادته الذى يطمع فى الجلال المكتسب [١٣٧] ويزعم أن ذلك فى ماهيته يشبه علة النّسب ، وهو مع هذا لا يصبر عن شأنه فإنه من غير كونه على تجهيز ماهيته المخلوقة إلى فضاء الماهية وينتظر العارض الثالث من المرتبة الواسعة التى بها تكمل ماهية ذلك الجلال فإذا يَسّر الله فيها به ويصحّ له أن يدخل فى زمرة المقدمين بحمد الله على سر ابن باعور الثالث المحفوظ،وبعدها يدخل الخلوة ويتعرض لرحمة الميقات ويرغب فى كلام بُدّه المصاحب الأول والآخر وبه كذلك الظاهر والباطن فإذا يسر الله ببعض الخلقة < ...[1] ... > وبعث يصبر على متابعة الطلب لكشف الكيفية المشخصة لكل ماهية منسوبة . فإذا قال ذلك ، يثبت على ضميره فى إشارته على عين مراداته تلك العين الأولى . وعند ذلك يطلب الرؤية للفص من كل ذلك بكل شىء فى كل شىء عن كل شىء من كل شىء لكل شىء . وهذا الطلب لهذه الرؤية هو الذى يسعف فيه للطالب ، لأنه لَعَيْن فى عين . وإذا يسر الله فى الكوكبية والقمرية والشمسية ، فينبغى أن يُلح على أصله الذى لا يغفل على فرع نفسه حتى يحكى ذلك الأصل ، ويدوم أمره على صراط التوحيد الذى يطلب به التقويم والتتميم وتحصيل ذاته المعتبرة الآخرة عن المعتبر الذى لا يمكن معه النظر ولا التوجه ، لأنه إذا همّ العالم أو العارف أو المحقق بالإخبار عنه انعكس حُكْمُه على ذلك الخبر القريب وإلى الله سَنِيُّ الأحوال كلها ، فاطلبها منه .

وقد بذل الناصح مجهوده ، واستفرغَ وسعه ، وقرر مع الاستخارة على حديث المكانة ، وسلم فى ذلك رضوان الله وأرشد إلى مثله النصيب الذى يلزم فى الجزء الأول. فالله ذلك ، وهو علة كلّ وصف محمود حتى مفهوم الرحمة والرضوان . والسلام على محل الأصول العجيبة ورحمة الله تعالى وبركاته .

كملت «الألواح » .

---

(١) بياض فى المخطوط .

رسالة فى أنوار النبى

بسم الله الرحمن الرحيم

وله رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم .

الحمد لله الذى بنوره يُعلم ويُعبد، وبحضوره يعرف ويُشهد، الذى خلق النيّرات والنجوم المسخّرات، وأودع الأرواح سرّ عهده الأول الأوصل ، وذكرها صورة المفارق للمواد ، وجعل القلوب مظاهر ملكه الأكمل وزيّنها بالعلوم والعقل المستفاد ، وجعل طريقة خليله إبراهيم عليه السلام بما ظهر من الأنوار لعالم الإنسان ، وطريقة حبيبه محمد ﷺ بما بطن من الأسرار ، وخصه بمقام الإحسان فكان ذلك مريداً وكان هذا مراداً . ثم إنه مات وضحفت صحفه كما صحفت صحف موسى ، وهذا بالضد توفى صلى [٢١٨] الله عليه وسلم وعاشت شريعته والذى كان مبدّداً فى حياته ﷺ اجتمع بعد مماته ، ولا تركته العناية حتى جعلت من الرسل من يتبعه وهو عيسى عليه السلام . فلما أبصرت هذه العناية الكبرى ، وحققت أن كل درجة بالنظر إلى درجته هى النعمة الصغرى حتى عظم أمره فى الدنيا وأكبر أمره هو فى الأخرى . وإذا أبصرت من آياته ما أبصرت نبهتك ثم أتتك بعدها أخرى اجتمعت فى نفسى ونزعت بالجملة إلى حضرة جلالته حتى أنى غبت بذلك عن حسّى ، وأهملتُ معاشرةَ جنسى واشتد بالغلو فى صلاته أنسى . قلت عن غائب عينه ارساله وزاجر أكده إجلاله : يأيها الإنسان ! والمراد بهذا الجنس وله أقصد بالخطاب ، ولا أبالى على أى حال كان ، فإن الحقائق إذا تعينت ، ونور الله إذا كان مظهره الأفضل هو به على الوجه الأكمل والقدر الأوصل — قيل فيه بحسب الطاقة : فمن مُسلم ومِنْ ضده ومن عاش ومن مبصر ، ومن مُوَكف ومن مقصرٍ من ذلك ، ومن مقتصد ومن مطفف ومن مجتهد .

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذى قصدناه بالقصد الأول وبالقصد أيضاً كان فنرجع فنقول : يا هذا المسلم النور ! قد استولى وترا كم بالغرض وزاد حتى غلب الكمية والكليات بل الخطوط

المتوهمة ، حتى أنه يفوت ما يقال وما يتوهم وما يعلم ويقدر ولا تلحقه مبالغة الإعياء والنـاس فى تصوره على أنحاء وعلى مراتب · وبقدر نصيب كل وعادة الله تعالى فى عباده أن ما من عليم إلا وفوقه عليم ، وما من حكيم إلا وفوقه من هو منه أحكم ، وفوق الـكل أحْكَمُ الحاكمين العليم الحـكيم . ثم انقسم اعتقاد الجهال على أربعة أقسام . والذى يرجع إلى حاصل مايعتقدون ويقولون فيه أعنى فى نور النبوّة والمقام المُحَمّدِى على أنحاء . فنترك الـكلام على المخالف لنا إلى موضع آخر، و نتـكلم على مراتب أمته ﷺ وخصوصاً على المدنى الحاصل المعلوم منهم من حيث النار هذه ومن طالع ظهورها .

فنقول : هم أربع درجات ، وبينهما[1] طبقات دون كذا وعند كذا منها بالنسبة إلى كل واحد . فالذى فى الدرجة الأولى هو الذى يقول أنا أعتذر واستخرج فى ذلك العجائب وأصرف الأمور إلى مراتبها الأولى . والثانى الذى يتلوه فى الدرجة الثانية هو القائل : ما هذه إلا مصيبة أو شبهة يثقب فيها مع المخالف لنا فى المسئلة لـكنه إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون . والثالث الذى بينهما هو القائل : هذا ينبغى أن يُكتم ولا يتـكلم به فإنه يخاف مما يعود على العوامّ به . والرابع هو الذى يقول : هذه مصيبة أصيب بها عين الإسلام ويا لها من كائنة [٢١٩] ما أصعبها وكأنهـا ثانية لنفخة الصعق أو هى أختها ، هذه مبطلة ، هذه قاصمة الظهر ، هذه غير هينة . والذى يجد الأسف ولا يعلل هو يمتد فى الأولى إلى الثانية . والذى يضحك ولا يعلم ما أمره فى ذلك بالجملة وكأنه غير معتبر عنده إلا من حيث أنه يقول إذا سمع القول فقط وما يشعر النفس بأمر يوهم أو يحرك ، وهـذا يمتد مع الثانية إلى الثالثة ، والذى يقول هذه من الشروط وإذا كان الله يفعل هذا بحبيبه فما يفعل بغيره يفعل ذلك من قبل الموعظة .

والجميع ومن ذكر يضحك منهم العلمُ وتبكى عليهم المعرفة ويهملهم التمـكين ويحملهم التحقيق فاعلم أنت وأهل الدرجات أن نور السموات والأرض رسول الله ﷺ مظهره ومشـكاة مصباحه ووحيه زيتونه زيتها ثم هو نفسه نور الله ، وكذا وحيه ومعجزاته وآياته ومجموعة ما قال فى ذلك وبعد نور النبوّة واتصافه بها وقوله اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً فى جسمى ونوراً فى شعرى وتتبع جوارحه كلها كذلك — ثم قال ﷺ : واجعلنى نوراً ، ثم كان ﷺ يذكر الله فى كل زمان

(١) كذا بالتثنية !

فرد ، والقرآن من أسمائه النور وكان يتلوه وعليه أُنزِلَ بالملك تارة وتارة من حيث روعه الداخل ، ثم طلب الرفيق الأعلى عند موته ومحل الأنوار وروحه هناك يتنعم . فهذه أنوار ، معها أنوار ، وأنوار بعد أنوار . وقبل أنوار ، ثم أنوار لا نهاية لها ، ثم نور الله الذى لا يُحَد ولا يكيَّف ، لا يفوته فى روحه وعقله وحسه وخياله وجميع مواده الباطنة والظاهرة ، ثم أنوار آيات تلحق بذاته ينبغى أن يقال لا نهاية لأنواره . ثم إذا نظر إلى مضافها وإلى مشارها بالجملة وإلى جملة ما هو عليه لا ينبغى للعاقل إلاّ أن يقول : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »[1] . وبعد هذا كله لو سمعت من المحققين من أمته : ما هى الأنوار ، وإلى كم تنقسم ، وما المراد بها ، وما عالمها وكونها ؟ هى عندهم عوالم الاتصال الثلاث ، والكمال الثانى ، و بعد هذا كلامهم فيها ، وفى التجليات هو المطالب الأقصى للمباحث والمتأله بالأمر الخاص العزيز ولهم ما هو أعلى . فكيف لسيدهم الذى هو السبب لذلك كله وهو الصورة المفيدة لذلك ومما يصلون إليه حتى أنهم يضحكون من الأنوار العقلية التى يشعر بها اصطلاح الحكماء ! وكذلك يعلمون مراتب المثل المعلّقة بعد الطبيعة بالجملة وأنوار التولد والاستدلال ، وغير ذلك بالكلية ، والأنوار الحادثة فى النفوس الجزئية وكذلك يسخرون بالأنوار المضافة بعد علم المالوجى[2] علم الوحدة وعلم أحكام التوحد هناك . ولهم فى الأنوار جملة مقاصد ما هى من قبيل ما يذكر عندهم . فإن أضعف أنوارهم عواشق الأفضل ممن تقدم [٢٢٠] فاعلم أنى قلت ذلك لكى تتنبه . وأما أنوار المقامات والأسماء عندهم ثم الأنوار الباطنة والخلافة الآلية ونور الإحاطة ونور التقدير المثالى ونور التعرض الذى يصحب لصاحبه السكينة ، ثم نور الله الذى إذا فرض دائرة وضعية كان الحق المحض ذات المقدر الواقف . فاعلم يا هذا مَنْ يكون الضعيف من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يجد أن هذا عين المحبوب الأعز عنده ، ثم يطلب له بيان حال مجده إن كان يريد أن يبين ذلك ببرهان ، فهو صاحبه بالجملة . وإن كان يريد أن يبين البَيِّنَ فهو يتحرك فى سلسلة جنونه وينوع السخف ويقسم أشخاص فنونه . وإن كان على جهة أن يقال هذا يقول وهذا ينطق بكذا ويروم أن يحمد — فقد قصم ظهره قوله : « وما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد »[3] فمن أمر من أجله

---

(١) سورة « المائدة » آية : ٥٤ . (٢) كذا ، وصوابه : الثالوجى ، أى الإلهيات .

(٣) سورة « ق » آية ١٨ .

رجال الله أن لا يرفعوا أصواتهم ، فكيف يسمح به أن يُتَّهَمَ أن يُدَبِّرَ بغير مجده الإلهي ؟ ! أعوذ بالله من الحرمان . التوبةَ ياغيرَ خبير! التوبةَ ياغبيَّ الذات ! التوبةَ يا غافل! التوبةَ يا غالط ! التوبة يا جاهل ! التوبة يا ضعيفَ المجموع ! وسلامٌ على من اتبع الهدى .

القول على أنواع أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم

إعلم أن أنواره ﷺ تختلف باختلاف متعلقاتها ومضافاتها ، ومن حيث الأقل والأكثر ، والأشد والأضعف — هذا بالنظر إلى نوع النوع لا أنها تنقص أو تضعف من حيث أنها أنوار إلاّ بأمرٍ يلحقها فى نفس الأمر . فمن ذلك نور عزته ، ثم نور الغاية الإنسانية ، ثم نور الإدراك ، ثم نور النبوة ، ثم نور النشأة ، ثم نور السابقة ، ثم نور التشريف ، ثم نور التدلل ، ثم نور التركيب ثم نور المولد ، ثم نور الخلقة ، ثم نور التربية ، ثم نور الانتقال ، ثم نور النهاية ، ثم نور التضمن ، ثم نور العادة ، ثم نور التسخير ، ثم نور الاتباع ، ثم نور اللواحق ، ثم نور الجاه ، ثم نور الخطابة ، ثم نور المقايَسة ، ثم نورالتفضيل ، ثم نورالإحاطة، ثم نور الحصر، ثم نور الكشف، ثم نورالتزكية، ثم نور المكانة الكبرى ، ثم نور الانفراد ، ثم نورالذكر والعلامة، ثم نور العلانية ، ثم نور الخصوصية فى أول حاله ، ثم نور الخير المحض ، ثم نوراللواء ، ثم نور العبودية .

فأما النور الأول — وهو نور العزة — فهو نورالشهادة التى تقال مع شهادة الله : هذا كشف عن عزته عند الله . ومنها أيضاً فى جملة أحكام أمته صلى الله عليه وسلم فيهما يتبع : كالتشهد فى الصلاة والأذان .

وأما الثانى — وهو نور الغاية الإنسانية — فهو شأنه الذى كان ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء خير البشر جاز عليهم فى السموٰات ثم تركهم وقطع عوالم الملأ . فهذه نورانية كشف بها أنه وصل الغاية وبلغها ثم وصل إلى محل الكروبيين ثم إلى أكثر ، ثم إلى آخر [٢٢١] العمارة الروحانية والجسمانية .

وأما النور الثالث — وهو نور الإدراك — فإنه أدرك الله وأبصَرَهُ على أىّ نوع كان وعلى

أى مذهب إن كانت العلمية أو الأخرى . ثم كان يبصر من خلفه صلى الله عليه وسلم كما كان يبصر من أمامه . وأيضاً أدرك الجنة قبل موته . وأيضاً كوشف عن الذى فى قبره يُعَذَّب . وأيضاً كُشف له عن الجنة فى عرض الحائط . وأيضاً أبصر الملك على صورته التى خلق فيها ثم على أنحاء بعد ذلك . هذا نور كشف له عن أعز المدركات كلها .

وأما النور الرابع — وهو نور النبوءة — فهو ما ظهر له من الآيات وما تَحَدَّى به من المعجزات ، ثم ما أدرك من النوع الأكمل · هذا كشف له به عن مقام النبوءة وأظهر الله به قَدْرَه ومكانه .

وأما النور الخامس وهو نور النشأة فهو الذى كشف له مكانته ، وعناية الله به ، وحفظه ، وما فعلت الملائكة به ، وتطهيره ، وشقّ بطنه ، واتصافه بما يجب وكونه كان يتيما محفوظاً حتى إن أمّه الأولى حدثت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يسبح فى بطنها — وعند ولادته تَغيُّر وبعدها . وأمه أعنى أم تربيته كذلك كانت تقول إذا أكلت الطعام المختلف فيه لا يشرب لبنها . وجملة الأمر كان مجموع قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما النور السادس — وهو نور السابقة — فكونه فى الأول أريد بذلك فإنه قد أخبر أنه سيِّدُ وَلَدِ آدم ، وكان، وكل ذلك عن الله ، وخبر الله لا يتغير وكذلك علمه لا يتبدل . وأيضاً كونه قال : « كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين »[1] . فكشف له هذا الطين أنه كان مشتهراً ما بين الأنبياء فى الأزل قبل الكون وأظهر أنه نبيّ ، وهو ممكن الوجود وقبل كونه . وهذه أيضاً سابقة ثانية . وكذلك اسمه فى اللوح إذا أرادت الملائكة ترحم عباد الله وتدعو الله فيهم لكى يُدْفع أو يُرْفَع عنهم العذابُ النازل — قصدوه وتوسّلوا له به. ذكر ذلك ابن شوع ورفعه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وأما النور السابع — وهو نور التشريف — فهو النور الذى كشف له عن الخصوصية الملكوتية، ورسم اسمه مع اسمه فى اللوح ، وكتب بالنور .

---

(١) راجع عن هذا الحديث وشبهه بحث جولدتسيهر فى كتابنا « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية» ص ٢٢٥ — ص ٢٣٠ . القاهرة ط٢ سنة ١٩٤٦ .

وأما النور الثامن — وهو نور التدلّ — كشف له عن مقام القرب وهو قوله تعالى ثم دنا فتدلى لأمر .

وأما النور التاسع — وهو نور التركيب — فهو الذى انكشف له به عن الغاية العظمى فى التوحيد . فإنه كان إذا فكّر فى الموجودات ثم فى النظام القديم ثم فى سِرّ القدر ثم فى الأمور العالية كان يُغان [1] على قلبه إذا ركب هذه المعلومات العزيزة .

وأما النور العاشر — وهو نور المولد — فإنه كشف له عن سعادة مولده بالبرهان الفلكى الإلهى السماوى . فإنه كان له نصبةٌ عجيبة لم يبصر قط فى أيام العالم مثلها ، ثم ظهر [٢٢٢] يوم مولده فى الآفاق مائة معجزة : منها خمود نار فارس ، وانشقاق إيوان كسرى ، وزلزلة أبداد [2] الهنود .

وأما النور الحادى عشر — وهو نور الخلقة — فكان صلى الله عليه وسلم يظهر بين عينيه النورُ الذى لا يخفى على أحد حتى إن من العرب من كان يغنيه فى إيمانه عن طلب المعجزة والآية منه . ومع ذلك أيضاً النور فى تبسمه وفى جبينه كما حدثت عائشة رضى الله عنها وفى موضوعه كله ولما كلامه وأفعاله وحركاته كل أكوانه ، وما ظهر من خلقه ، وما بطن من مجموعه أنوار هذا فى أصل وضعه . وكيف ، وهو أيضاً قد قال اللّهمّ اجعلنى نوراً بعد ماعدد أجزاء بدنه صلى الله عليه وسلم . وهذا كشف له أنه النور ، بل نور النور الروحانى والجثمانى .

وأما النور الثانى عشر — وهو نور التربية — فما كشف له عن العناية الحافظة له والعصمة الإلهية التى لا يشترط فيها العقل وأسباب التكليف والعلامات مثل السحابة التى كانت تُظلّه ، وما ظهر فى بنيان البيت ومصارعته لأبى جهل — هذه كلها أنوار كاشفة لأمور خارقة للعادة .

وأما النور الثالث عشر — وهو نور الانتقال — فهو النور الذى كان يُبْصَر فى عين أبيه وأمه ، وما سمع فى ذلك بعد ما حملت به أمه وكونه صلى الله عليه وسلم ورث ذلك منهم بعد ولادته صلى الله عليه وسلم وانتقاله من الظهر الطاهر إلى الظهر الطاهر . وحكى أبو الفضل عياض أنه كان كل

---

(١) كذا ! (٢) جمع بد = صنم

من تقدم من آبائه صلى الله عليه وسلم إذا أوقع فى الرحم ما أودع الله تعالى فى ظهره من نُطْفة المصطفى صلى الله عليه وسلم يجد الفراغ والكسل وتختل عليه أحواله كلها حتى جاهه فى الناس ، هذا بالنظر إلى مكانه الأول — وهذا النور كشف له عن نورانية نُطْفته صلى الله عليه وسلم .

وأما النور الرابع عشر — وهو نور النهاية — فهو نور الله تعالى الذى ختم به النبوّة وانتهى الأمر عنده وصور التكميل بالجملة . وهذا أظهر له صلى الله عليه وسلم أنه خير الرسل . فإنه نَسَخ ما ظهر أنه صاحب نهاية الأمور الذى يرجع إليه والكامل الذى لا يمكن أن يزاد فيه ولا ينقص منه .

وأما النور الخامس عشر — وهو نور التضمن — فهو الذى كشف له به أن الذى كان عليه أسهل وأكمل من الذى سلكه أبوه إبراهيم عليه السلام . فإن هذا كان فى أمره كالمختار المحبوب ، وأبوه كالطالب المجتهد . وقصة انتقال إبراهيم عليه السلام تعلمك بالحال .

وأما النور السادس عشر — وهو نور التسخير — فهو كشف له ﷺ أنه الغاية فى السموات والأرض ، وأن القمر انشق له ، والكواكب سخِّرت لحفظ نظام ملته . وتلك أيضاً معجزة ظهرت فى مدة ملته صلى الله عليه وسلم وهى باقية وغفل عنها كثير [٢٢٣] من الناس وهى الشُّهُب التى ترسل على الشياطين . وما ذلك إلاّ بركة كتابه ولأجل موضوعه . وكذلك الملائكة من تسخيره وخدمته ، فإنها تكتب فضائل أمته صلى الله عليه وسلم وقاتلت معه صلى الله عليه وسلم وإلى الآن أولياء أمته فى منادمتهم ومخاطبتهم مشافهة وكذلك الصور الروحانية كلها . وهذا نور كشف له أنه المدَلَّل فى السموات والأرض وفى كل العوالم .

وأما النور السابع عشر — وهو نور العادة — فإنه أظهر فى أيام الدنيا وأيام العالم وأيام الدين من العدل وصلاح الأحوال وسياسة المنزل والتدبير المحمود فأظهر له أنه الحكيم الاعظم .

وأما النور الثامن عشر — وهو نور الأتباع — فما ظهر لهم من النصر بالسنان فإنهم استفتحوا بلاد الكفر منْ بعده صلى الله عليه وسلم وما فتح الله به وما ظهر على رجال أمته من الكرامات وعلى العلماء من العلوم على أنحائها . وبالجملة ظهر أن الأمر فيه مع الأنبياء والرسُل هو الأمر فيهم مع العلماء والملل والدول وقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس »[١] فهى ذلك — الآية .

وأما النور التاسع عشر — وهو نور اللواحق — فما بعده من الآيات التى أخبر بها وما أيضاً فى العالم من العجايب فهى له حتى فضائل أمته فإنها هى فضائله . فإن قلت : لا تحصر كراماتهم وعلومهم . فقد قلت لانهاية لمعجزاته صلى الله عليه وسلم هو، فإنه الأصل فى ذلك . والذى يفيد الكرامة بتبعيته هو الكامل . حتى أن هذا النوع باتباعه يترجح على المعجزة الحاضرة معه ، فإن تلك بإزاء تكذيبه ولضرورة المعاند ، وهذه من عند الله على جهة الإكرام ثم هى أيضاً مركبة بزيادة أمر محمود . وهذا أظهر له صلى الله عليه وسلم : أصل كل فضل وسعادة وعناية .

وأما النور العشرون — وهو[٢] نور الجاه — فهو كشف له أنه واحد[٣] الله فى التخصيص ، والشفاعة تدل على ذلك وأشباهها .

وأما النور الحادى والعشرون — وهو[٤] نور الخطابة — فكونه كُيِّفَ له أنه الذى أوتى جوامع الكلم .

وأما النور الثانى والعشرون — وهو[٥] النور الذى سميته نور المقايسة — فهو كشف له أنه إذا جمع فى الذهن جميع الأنبياء والرسل فى تقديره لفضلهم ودليله أنه أعلم الخلق بالله والدرجة التى هناك لا تقاس بما بعدها . وإن تعددت فإن المجموع لا يقوم منه ما يساوى ، فإن الذوات لا تتحد — فاعلم . وأيضاً إذا قلنا إنه أفضل من إبراهيم فالمرتبة أو الدرجة التى يفضله بها أى شىء يقاس بها لا بد لها

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٢ .

(٢ و ٤ و ٥) ص : فهو . ..... (٣) كذا !

من تنظير تنظر معها ، ثم سلمنا أنه أرفع الأنبياء منزلة فى الجنة والكل دونه ، فلا ينفع ما عظم واجتمع فإنه مع ماهم فيه ينظر إليهم من تحت . فاعلم ذلك ولا تقس الأمر فيه بالمحسوس فتقول هو صاحب ألف درهم فى التمثيل وهم من مجموع [٢٢٤] الكل منهم وإن كان لكل واحد منهم مائة جملة . قيل لك ما الأمر الذى نحن فيه هذا يشابهه ، فإنك هناك تقيس الأمر بقدره وهى درجة عند الله — فاعلم .

وأما النور الثالث والعشرون — وهو نور التفضيل — فهو يكشف له صلى الله عليه وسلم عن قدره بالنظر إلى الرسل عليهم السلام ومقر له بأنه سيد ولد آدم عليه السلام وقول الله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً »[1] فنحن فى الأمم مثله هو فى الأنبياء والرسل عليهم السلام .

وأما النور الرابع والعشرون — وهو نور الإحاطة — فهو يكشف له أنه عين المعنى المجموع الذى إليه تصل العناية العلمية والعملية ، وكل محمود محترم يشار إليه فهو الذى أحاط بها ، وجميع ما تفرق فى الأنبياء اجتمع به وله ولأمته وفى ملته صلى الله عليه وسلم .

وأما النور الخامس والعشرون — وهو نور الحصر — فهو النور الذى يكشف له عن الخواص عن المراتب وعن المنامات حتى عن أقصر ما يكن . فإذا قدرنا أنه نالها لا يجد أحد بعده ما يطلب مثل ما تقول يتيمة الدهر عند الملك لا يملكها أحد معه — كذلك القول فيه ، فله الوسيلة والدرجة الرفيعة . فهذا هو الحصر ، فإنه الذى ملك الأوفى من الكل .

وأما النور السادس والعشرون — وهو[2] نور العلامة والدلالة — فهو الذى كشف له صلى الله عليه وسلم صورة منتظرة ومعتبرة فإن الكتب نطقت به ؛ وكذلك الصنائع العلمية كلها حتى الكهانة . ومن علاماته أيضاً ﷺ ما ظهر عليه ﷺ حتى خاتم النبوءة الذى بين كتفيه ﷺ ، وما كان قط لأحد ؛ ثم علامات صدقه المتأخرة . وهذا يكشف له أنه كذلك وحده .

---

(١) « البقرة » ٢ ، ١٤٣ . (٢) ص : فهو .

ومما ينبغى أن يقال لأهل الكتاب هذا نبينا ﷺ قد أخبرنا عن أمور وقد ظهرت بعده، حتى أن من بعض أتباعه لو تحدى بها لم يعلم حدود رسوله وجد الصواب فى قطع الخصم وأنتم ما الذى أخبركم به ، هذه أنواره !

وأما النور السابع والعشرون — وهو نورالخصوصية— فهو الذى يكشف له أنه لا مقام أمامه ولأمر ما بعده والسعادة الإلهية ، فإنه نال ما مُنِعَه الغيرُ فى السعادة .

وأما النور الثامن والعشرون — وهو نور الخير المحض — فهو الذى يكشف له عن كمال ما ظهر منه وما بطن له : فإنه فى نومه معصوم الخيال ، وفى ذلك العلوم ، وفى قيامه ويقظته لاينطق عن الهوى ، وفى عقله فلم تغلب قط شهوته عقله : فأنْ عَلِم الكتاب والفضائل على ما ينبغى ، وعَلِم إذا أفرط فى ذلك حتى قال الله تعالى «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة»(١) — قيل من السُّنّة .

وأما النور التاسع والعشرون — فهو نور اللواء — وهو النور الذى يكشف له أنه ينشر مجده فى القيامة .

وأما النور الثلاثون — وهو [٢٢٥] نور الانفراد — فهو الذى يكشف أنه ﷺ خير متبوع ، قال تعالى : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس »(٢) فمتبوعها خير متبوع .

وأما النور الواحدوالثلاثون — وهو نور العبودية — فهو يكشف له عن الإضافة الخاصة التى هى نفس المنعم فقط . قال تعالى : « سُبْحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى »(٣) .

وأما النور الثانى والثلاثون — وهو نور التزكية — فهو يكشف له كونه صلى الله عليه وسلم حجة الله على العالمين .

وأما النور الثالث والثلاثون — وهو نور المكانة الكبرى — فهو الذى يكشف له عن

---

(١) سورة « الأحزاب » آية ٣٤ . (٢) سورة آل « عمران » آية ١١٠ .
(٣) سورة « الاسراء » آية ١ .

جلاله ﷺ فى التكميل وفى التحديد وفى التتميم وعوالم غيرهذه ومعنى غيرهنا كله . وأيضاً كون بعض أمته يتجلى له الله خاصة وللناس عامة . وهذه مرتبة أعلى مما ذكر . وبهذا يكشف له ﷺ عن أمر ما عند العقول منه ما تفرض مقدمة ولاتضع قضية ولاتنقل مخاطبة صناعية . وهنا يجب الإمساك عليه . فاعلم ذلك كله وكيف كشف له حتى ان أموراً قل وجودها فى الملائكة فكيف فى غيرهم ! وهذا كشف لنا أنه فى عوالم غير هذه وبقى فى ذلك « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [1] .

فاعلم ولا تقل يا من هو من أهله إلا أنه هو النور المحض وله مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كملت والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة « الأنبياء » : آية ١٠٧ .

رسالة خطاب الله بلسان نوره

بسم الله الرحمن الرحيم

وله رضى الله عنه . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً .

الله فقط ! خطاب الله بلسان نوره ، الرابط ، المدبر ، السامع ، المنظور ، الممتد ، المنحصر ، الواقف ، الراجع ، الظاهر بهذا كله فى الضمائر والهمم . الكثير بحسبها وبحسب إدراكها وأنصبتها وحظوظها ، الواحد الثابت لذاته من ذاته من حيث قسمة الوجود .

وقصدنا ذكر الغايات ووقوعها فى النفوس من غير متابعة أوهام العادة وتعليل علومها ، وتحرير القول الذى يعصم من اعتراض أهلها ومن تخليطهم . قال[1] الله تعالى « أصبح من عبادى مؤمن بجلالى وكافر به» ، فالمؤمن من قال الله ولا شىء معه إلاّ الذوات المتعلقات الموضوعة الراجعة إلى استحقاقه الذى يلزم فى أولها وآخرها وظاهرها وباطنها الناطقة المخاطبة بما يجب لجلاله لمن علم عنه به له من غير بحث يغاب يوم البعث بل بحث عرىّ عن شوائب الوسائط القاتلة لشخص الكمال ينذر نفسه بعلوم عالمها المفارق الكريم وينصفها بذلك وتنصفه هى بالتشبه والرجوع إلى [١٣٨] معناها العزيز ، إن صح أن يقال على جهة المجاز لمن أخبر عن ماهيته وعن أجزاء كلها المنبعث فيها لها رجع إلى معناه . وهذا المؤمن هو الذى يضع الحق ويقوله ويجده صحبة ذلك . وهذا الإيمان هو الذى يكفر به الزانى إذا أوقع المعصيةمع قيامه به ويزيد وينقص ، لاعلى الوجه الذى يريده المحدِّث، ولا يُعترض عليه باعتراض المتكلم ، ولا هو التصديق المفهوم عند بعضهم بل هو الشطر الأكبر من السرّ الأرفع . وبالعَرَض وقعت الموافقة فى الاسم ، وبالذات هى المخالفة فى الحد والرسم . وهذا القول الذى قيل فيه هو خطاب الله هو من قبيل قول المعصوم الواحد فى كماله الشرط فى نيل سائر الكمالات حيث قال: قال الله : «أصبح من عبادى» ـــ الحديث ؛ فإن النطق الذى ينبعث على التعبير

---

(١) حديث قدسي .

والصيغ منوطة به ، وهو لا يتقدمها ولا يتأخرها . وجملة ذلك فى النفس على جهة الخبر هو الذى منع أن يتعرض إليه فى الاشتراط ، وهو الذى إذا انضاف إليه الوجد الماحى للمادة الخبرية فى المحل المستند لا إلى معين يقال له كذا وكذا وأكثر من كذا . وإذا ترك على حاله البسيط وبحسب القول نسب بحسب ما سمعت وعلمت ووجدت .

وقد خرج بنا الكلام عن الأسلوب الأول ، ولم نخرج من المقصود النافع — فنرجع إلى ضد هذا المؤمن فنقول : والكافر هو الذى يقول ضد ذلك ، ولا يجد من نفسه أن يكون كذلك — فاعلم . واعلم أن جوهر النفس بما هو هو يعشق الجلال ويجده ويجد الانبعاث إليه ، غير أنه عدم التعيين قطع به ؛ نعم ، ويعلم النسبة الكريمة على العموم ويجهل الحكم ، ولذلك يعظم الخسيس الخساسة فى بعض المواضع وهو فى ذلك على الأصل لا على ما يجب أو يحمد . ومع هذا يُحمد بلسان النسبة فى كونه يحب التعظيم ، ويعلم المعظَّم والمعظِّم ويذم لكونه ما هو ذلك ولا عمل على ذلك ، فهو يعلم من وجه ويجهل من وجوه ، وذلك لأجل عِلَل عديدة : منها الأجسام ولواحقها ، وقواها المتوسطة الطبيعية والمشتركة بينها وبين العقل الهيولانى والنفس الحيوانية صراط ، لا يقطعه إلا السعداء ، والنباتية والمنجرّة المتطورة التى أخبر عنها القرآن العظيم ، وبالجملة القوى الجسمانية والطبيعية والروحانية والعادة المهلكة والمذاهب المُبْعِدة والكسل والملل والخسوف وفساد التوجه وعدم المرشد وقلة المساعد . جميع ذلك كله من أجزاء ماهية القواطع لها . فالسعيدة هى التى استجابت إليه ورسوله فى وقت الدعوة ، لأنها وردت بالأدلة الأصلية الواقعة فى فص النفس المناسبة لها الصادرة من عالمها الصحيح النصيب السالم من كل الجهات الآخذ عن الله من غير شىء مُشغل غريب ، ولذلك يحمد الأمر الغريب هنا ويذم فى ذلك العالم ، لأن الخير عندهم هو الذى فطرك عليه ولم يعقد قط منهم ولا منه ، أعنى العالم المفارق [١٣٩] وسائر الذوات المفارقة . فإذا بلغت النفس السعيدة دعوة الله فى الأرض أجابتها بماهيتها من جهة الوجود لا أنها سمعت ففهمت فحكمت فقبلت ، وهى دعوة الله الصحيحة التى لا يصحُّ من صاحبها الفكرُ بوجه من الوجوه فإنهما ماهية ، وتغيرها من جهة وجودها أو كونها ذاتاً لمضافها لا يمكن ارتفاعها قط فى الوقت الذى يشار إلى مجموع ذلك ويعلم بقيد الوجود أعنى الإنسان بما هو إنسان . وقد يتغير المحلُّ من جهة الأمور الطارئة عليه .

وتغير الصفات وتبدلها لا يناسب تغير الذات ولا يقال عليه هـذا القول ، فإن الموضوع إذا ثبت جاز تبدُّلُ الأعراض عليه . وإذا كان الأمر بالعكس عُدِمَ الجميع . وكذلك النسيان لا يصح من هذا المتَّضى ، فإنه لا ينسى ذاته ، وجميع ما أشبه ذلك هو كذلك . وأى شىء أكبر من هـذه الدعوة العزيزة ! فمن جاء إلى الله بهذه الماهية جاءه الكمال بالضرورة مصحوبة ذلك ، فإنه إذا كان الإيمان شبه طبيعة المؤمن ، والإيمان هو الشرط والمقدمة الصادقة وقد كان المطلوب كما ذكرنا — لأن الجوهر المفارق من صفة نفسه تحت ربِّه الأعلى ، وما منعه من ذلك فى الكافر إلَّا الحاىل القاطع المهلك — فدعوة النبى جاءت تطلب الضرورة من الكامل ، لا لأن نذكره فقط بل لأن تعلمه ما بعدها وتستريح به نفوس المجدين ، وجاءت تذكر الجاهل المشتغل بغير إنسـانيته ويكون عليه حُجّة بعد ذلك ، والله يعان [1] على ظلم عالم الطبيعة فكان على ظلم النفس لذاتها لأنها حرمتها عالمها الذى معرفة الله فيه طبيعة أهله . ومَنْ نظر هذا النظر فى النفوس يعتقد بحسبه رحمة الله فى الآخرة بعد حين للعام والخاص ، فإنها وإن كانت شريرة فقد تجردت هناك ، وكانت مع هذا التجرد تفعل بحسبه ومفهومه ليس إلا الحب والعلم وطلب الأولى . وإلاّ فلا يقال تجرد . فإن القائل « النفس تجردت » إن أراد أن جوهرها خدم الجسم وهو متصل بها فلا عِلم له ، نعم ولا عقل مستفاد . وإن أراد بالتجرد الخلاص من المشغل وترك استعماله ، وذلك المشغل خارج عن النفس بالحد والرسم ، يلتزم ذلك كما قلناه . وقد ذهب إليه بعض المرجئة والرحمانية وبعض أهل التصوف ، ويوافق بعض الفلاسفة فى ذلك . ولولا خوف التطويل كنت نُعَرِّفك ذلك كما يجب . إلا أنه يقال للمتكلم بهذا والقائل به وهو من المتشرعين بالوجه الذى يعتبر بعض اعتبار الأشياء راجعة لإرادة الفاعل المخصِّص الذى جعل ذلك فيها بحسب دارٍ ومِنْ أجل دعوةٍ وشَرْعٍ خاص ، ومنع أن يكون فى غير هذا الأسلوب وفى غير هذا الأمر المذكور وفى غير هـذه الدعوة وللدار سعادة ترفع أو رحمة تُرْجى أو عمل صالح يصلح لطاعته ويعضد ذلك بالإجماع بل بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل بنص القرآن فاجتهد ولا تركب الخطر وتزَوَّدْ بزاد التقوى [١٤٠] وتوجه إليه بالذى دلك عليه ، وأَهمِلْ جميع المطامع بالجملة .

ويقال له هو أيضاً إن ثبت حب الله فقربه هناك بالقوة فى وقت الفصل وبالفعل بعده ، فإنه

---

(١) فوقها : « كذا » .

نعم الشفيع والكريم لا يتعب حبيبه على الإطلاق . وقد شاءت الحكمة أن يقابل الظاهر بالمثل ، ويقابل الإحسان بالإحسان وإن سلم للمتشرع أن الإرادة صالحة لأن يدخل المحب النار وضده الجنة يقال له أراد الله فى السُّنة الإلهية المتقدمة التى منها السنة المتأخرة وتبدل بها الشرائع أن حبه لا يقوم بشق فاجهد على حبه ، فوعِزّته ما تشق به ، لأن الحكمة إن درجت مع الكرم والحلم والتنبيه الذى جاء وسريرة الانفطار وحكم المضمار بالأنس وبالعافية بعده وبالرضوان معهما ؛ إلا أنه هنا دقيقة إذا أراد ذلك حجبها ومنعها الشعور حتى هناك ، فكان الأمر كما تقدم . وبعد هذا كله أحرم الناس من فاته من الله ساعة فى الدنيا فقط فى وقت فقط . فكيف والأكثر فى الدنيا والبعض فى الآخرة هذا إذا صح هذا البعض أو يسلم القول فيه ، فكيف المفقود من كل الجهات ! وإن سلمنا الرحمة فما سلمناها فى الماضى منها الخارج بالجملة عن جلال الأنس . واعلم أن الحرمان عبارة عن فقد الأنس بالله ، وسلب الاتصاف بمدلول الرضا ، وبُعْد المحل عن الاستعمال الذى لا يمكن فيه ظهور نعمة الله على الرجل .

وقد حاد بنا متابعة المعانى عن طريق المقصود ، وبتلك الحيدة سلك العقل على جادة المقصود الثانى ونبه على نهاية الأولى . وجاء من تلك الحيدة الأولى والاستعانة الثانية صراط الخواص ؛ ولولا ذلك لكان صراط الأبرار وأعوذ بالله منه فى هذه المقام — فنعود إلى ما كنا بسبيله من جنس ما نحن عليه فنقول : الإيمان إيمان الماهية ، والنطق الصالح هو نطق الوجود ، والدعوة التامة دعوة الباطن الظاهرة على الظاهر بالحقيقة الباطنة عن الوهم بالمجان ، فاطلب الأمور الذاتية بالنظير ، وحرر القول فى الكل بالعين ، وعَوِّل على الوجه الغير بالشعور الخلاف بالعلم المثل بالحال البعيد عن ذلك بالإلزام القريب منه بالدليل الجميع بالمجموع ، بل الفرد بالفرد ، بل البد المفروض الذى لا ينسب وكل الأشياء له ومنه أو هو أو كذلك بتشكيك أو قريب من ذلك بنوع من أنواع الصفح ، أوهذه أو هذا أو هو أو ما فى الصدور ، أو الذى إذا نظرت فى المكتوب أجابك وكان جوابك . وحاصل ذلك كونه ماهية أوهم الوهم فيها الاشتراك ، وبسطها حيث قبضها ، وغيبها حيث أظهرها . فكان من ذلك نكتة صقيلة ، وضد ذلك فكان ويكون والكائن ، ومفهوم ذلك المظاهر والمراتب والأسماء والمسميات والقوانين ، وحاصل ذلك لواحق الذات وكلامنا وهم على وهم .

شرح : حقيقة الماهية صورة علمية ، ظهرت الذات بحسبها ، فظُنّ أنها ذات أخرى ؛ [١٤١] وإنما هي مظهر للذات ومرتبة فقط ، والذات بها وبأمثالها ذات فقط لا زائد ؛ وهي بدون الذات لاشيء أصلا . فأين الاشتراك ! ومعنى بسطها حيث قبضها إنما ذلك لما ظننت أنّ لها في البين وجود ما تماثل به الذات في الوجود وتشاركه فيه فتقول أنا عينٌ موجودة انبسطت بذلك وادعت الظهور ، فكان ذلك عين قبضها لأن الحقيقة أن الظاهر الموجود إنما هو الذات بحسب مظهر مظهر من صُوَر علمه ، فهو الظاهر والصورة له ، والعكس وهم لا أصل له . فمن عرف الحقيقة كان له في البين شيء ما وهو ظهور الذات بحسبه . فتلك الحسبية مبسوطة بهذه المعرفة . ومَنْ جَهِل الحقيقة ورأى أنه هو الظاهر الموجود فقد قبض من هو الظاهر الموجود حقيقة ، وبسط نفسه التي لا شيء لها من نفسها إلا بما هي أمر ما فيه . فإذا قبضت من هي أمر ما فيه منه فقد انقبضت هي ، وإذا انبسط من ظهر بحسبها ولا شيء لها هي في ذلك سوى تلك الحسبية فقد انبسطت هي من تلك الحيثية . وكذلك الغيبة والظهور : إذا غابت الذات بظهور الصورة وهماً فقد غابت الصورة بتبعية غيبة الذات . وإذا ظهرت الذات بتلك الصورة حقيقةً فقد ظهرت الصورة بالتبعية . فهذا معنى غيبها حيث أظهرها ، وقبضها حيث بسطها — والله أعلم . هو مع كل شيء ولا شيء معه ؛ هو عين كل شيء وعين ما ليس بشيء وأجمع الأشياء إليه ولا تجدها معه ا ، ه ا ع ه ذلك فقط لا شك في ذلك عزّ على إهانته في بعض الأوهام المتخالة المنحطة المنجرة نعمة الله المشار عند الخاصة إليها والمعوّل عند جميعهم عليها لاتصحّ محبة الأوهام المتخالة الصادرة عن المألوف الأكبر . فكيف بالاستناد إلى خساسة أخس المظاهر ! فاعتبر يأيها المعتبر ! عند المعتبر لا يحمد الحال حتى يصح الخبر ! والسلام عليك الأول وعليك الآخر ، وعلى الذى عليّ ورحمة ذلك بذلك وبركاته به ومنه وعن نصيبه جملة صحيح حالها وحدة ، وواحد صحيح حاله جملة ، ووحدة صحيح حالها جملة ، وواحد ووحدة لا تخبر عن فعله تفعل ولا تعلم غير ذاته تعلم ولا تعتبر غير معتبر تُعتبر ورحمة الله هي الله وإن كانت المألوفة قل أعوذ بالله منها . والسلام مُعادٌ على ذاتكم المجتمعة من ذلك ، ورحمة الله وبركاته ! .

وله رضى الله عنه : القرآن وصية جاد بها الوجود على العموم .

الله فقط ! قٓ والقرآن المجيد ه / ح / ع / يا من سخر الله له خاطرى قد استخرت الله العظيم

على فك رموز كلمات الضمائر ، وإفشاء أسرار مهمات السرائر والبشائر . وادفع ذلك المجموع المخبر لمجموعك الظاهر الصادق الموقر وشأنك وما أنت به وعلوم التحقيق منك ومنها ، والله يسهل عليك ، ويدفع الأسرار المضنون بها عليك ، ويحمل ذهنك على صراط الوفا ، ويسقيك من سلسبيل الصفا ، والخاطر الكريم فى ذلك أحكم شاهد بصدقه [١٤٢] وأفضل عالم بوجوب حقه . وكل طبيعة زكية من كريم رفده وعظيم مجده . وإذا علمك الله ، وأرشدك إلى دورة مناره صحبة إشراق نوره وكيفية ناره ، وعصمك من بعد الشقة وعظيم الأمر والمشقة ، وظهر لك الأمر الذى لا تستطيع على إيراده لأنه لا يتكيف له حد ولا يوصف له عد . فأبشر بالقوانين التى نالها أهل الله قبل الفترات الكونية . فافهم من هم وما نبهت عليه . وإذا حاسبت فهمك ووجدته لم يخنك فى متحمل مواهبك تلك وحفظها وما كع عن قليلها وكثيرها ، ثم تجد مع ذلك الروح الكلى خلفه يتملق به ووجهه يقابل مرآة أمله فى الله ، وأمله ذلك ينصره الرضوان والتخصيص فاغتبط به واجعله طبيب مرض الشبه ، وأرسله إلى حضرة التقديس حيث تنال مرتبة الشبه ، وتركيب كمالك به ، قد جاز عقبة القبور وجميع ما يحتاج إليه الكامل غير محجوب ولا مستور . وبعد هذا المعين يرتقب الوقت المحمود الصفات التى تجتمع من أجزائه الدهر الكثير الالتفات ، ويكون ابتهاجك به ابتهاج العليل بالشفاء عقيب الإشفاء ، ومن الاستعداد المستحسن الظفر بالقديم الذى تطلع بمنادمته أهلة الزيادة والبدور ، ويعين على إخراج ما تكنه الضمائر والصدور وتتحفظ به الأوامر صحبة تلك الأمور . وهو الذى إذا غبت عنه قلبت بذكر قلبه ، وتعرضت بخيالك عينه ، وأسمعت بهاتف مودتك سمعه . وهو الذى يسفح على أثر الأحبة دمعه . فإذا أحسن الله بك إليك أحسن أنت فى حفظ ما أنعم الله به عليك ، وقل الحمد لله على نعمة الموافقة وحكمة المصادقة ، ثم قل : أعاذ الله المساعد من كل عرض ومرض ، وأنهض حضراته بما سن وفرض ، وعامله بالجد الصاعد ، والسعد المساعد ، والنصيب الزائد ، والسلامة من القول الحائد ، عن الفائد .

ومما تحتاج إليه أيضا وظيفة الصوم فى أكثر ليلك وفى أكثر ذلك اليوم ، فإنه يجفف رطوبة الأسباب القاطعة عن وجه المطلوب ، ويلين يبوسة الأحوال المانعة من الشأن الموهوب ، وتقل

حركة القوى الهيولانية وتستقيم الروحانية ، فتركد الحواسُّ الخمس ، وينام الجسم وتستيقظ النفس ، وتعمل ما يجب على ما يجب فى الوقت الذى يجب ، وتعلم الإخلاص حكمة ووجوده نعمة متعدية وهو رأس الفضائل الإلهية وهو أسُّها ومقوِّمها وإفراده وتجريد الضمير به إلى جهة الله خاصة صورة متممة ، وبه يفارق المحقق العالم المجموع الكثير الكليات الطبيعية والعقلية والمنطقية فى واحد ، ويجد المجد المنتظم فى شاهده . وإذا استعمله السالك على جادة المخلصين تتحدث الجلالة بمناقبه التى اشتهرت اشتهار الصباح ، ومكارمه التى عمت كل سقع عموم المطر هبت به هبوب الرياح ، وذلك لما يجعل الله فيه من الفضائل البسيطة الخالصة العريّة [١٤٣] من شوائب الاحتمال المقدر فى مجموعها الذى لا يصح به صدق التحدى ، ولا يمكن فيه فعل التعدّى ، ويكون واحداً لأن مفهوم ما هو بسبيله ماهية الوحدة والتوحيد . والله لا يتكفل إلا لمن هو معه ، وهو أيضاً به ومعه ، الله يحرر لنا هويته عندنا فإنها حرة بالنظر إلى ذاته والحمد لله وحده .

الله فقط ! بعض أهل الله « لا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون »(١) ، والخلفاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وعباد أسراره لا يطلق هذا عليهم لأنه إليهم ، وأهل الحق منهم الخوف وفيهم ، وكذلك الحزن . ومن أقامه الله فى مقام المظاهر ولم يفطن لذلك هو فى مقام الرضى ، ومن أقامه فى ذلك وهو يجد ذلك هو المظهر الذى ينحط الكون من سمائه إلى أرض عالم الكون . ولأجل ذلك يقول بعضهم : « ما يفعل الله شيئا حتى يعرفني به » ، لأنه المظهر الكريم المعتبر المشار إليه .

الله فقط ! يا من التفت ويلتفت : لا تلتفت إلى جهة وهم هذيان بعض الصوفية ولقولهم توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال فإنه بعيد فى بعيد فى بعيد ، وهم فى وهم فى وهم . غير أن ذلك الوهم وهم لا عاقبة محمودة له ، وأوله فيه وآخره به ، وظاهره عليه وباطنه إليه .

---

(١) سورة « البقرة » آيات : ٣٨ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، « آل عمران » آية ١٧٠ ، سورة « المائدة » آية ٦٩ ، سورة « الأعراف » آية ٣٥ ، سورة « يونس » آية ٦٣ .

ولا تلتفت إلى قول بعض الفلاسفة فى قولهم : « عالم العقـل » و « عالم النفس » و « عالم الطبيعة » و « الأول » و « العلة » و « الواجب بذاته » وجميع ذلك من مفروضات الأوهام ، وذلك أنهم يظهر لهم من الحقيقة جملة مدركات وهمية بالمدرك العظيم الذى يظهر لهم ، وهو أجلُّ من غيره . وهو مع هذا لا يستطيع على وصفه عظيمهم ، هو عندهم العلة والسبب الأول وذلك المشار إليه بالجلالة المطلقة . ولذلك يعتمدون على وصفه بالسلب وغير ذلك من المـدركات الذى هو بضد ذلك ، هو عندهم بحسب مرتبته فى إدراكهم فافهَمْ . فالأعلى هو عندهم فى رتبة العليا والمتوسط فى المتوسطة والـكل ذلك .

ولا تلتفت إلى الفقهاء فإنهم لا مرتبة لهم يمكن بها الاعتراض عليهم ، ولا هم من قبيل اعتراضه هو أعنى المحقق — فاعلم ذلك . لأنهم زعموا أن الأعمال هى المرتبة الشريفة لا من حيث الخلاص النفسانى وما بعد العمل وفائدة التجرد والتخلق وأسرارها الباطنية ، بل من حيث الحـكاية وتلك الحـكاية مكذوبة على المعلِّم أو محرَّفة أو منقولة على غير وجهها فافهم . ومع هذا هى عندهم فى الخبر لا فى الأثر ، وفى المدرسة لا فى حقيقة المدرس ، وفى الـكتاب لا فى الـكاتب ، وفى الـكاغد لا فى الضمير . ومع هذا هم بها يؤذون عالم التنبيه وأشخاص النباهة .

ولا تلتفت إلى المتـكلمين ، فإن حاصل أمرهم أنهم يعتقدون فى الله أنه خيال الإنسان ، وذلك الخيال فرضه وهمهم قديما والشريعة عندهم مفهومة لعقلهم المعقول .

الله فقط ! يا من بالمرصاد ، إنَّ رَبَّك الوهمى لبالمرصاد . وكذلك قال إن الأول فى الوهم [١٤٤] الآخر بمعنى الباطل فى الحقيقة الظاهر بمعنى الـكون للعيان الباطن بمعنى العـدم فى الجنان شاء وبه شئت لا بذات متميزة ولـكن بمظهر فيه منصرف إليه وهو لم يزل كان ، وبه كنت لا بتقـديم ولا بتأخير ولا بعلة ولا بمعلول ، بل بحقيقة جامعة موضوعة لما يفرضه الوهم ظهر وبه ظهرت ، لا بفعل ولا بغيره ، ولـكن بهوية أو بقضية أو بذلك المختلف لا من حيث هو هو ولـكن بما أنا هو . وقد يتوهم الجاهل أنها سطورٌ تمتد وتقف ، وتنقطع وتدور وتفرض ، أعنى تلك القضية ، أعنى ذلك المقضى ، أعنى ذلك القاضى ، أعنى ذلك بما هو ذلك بحسب ما يجب له ذلك . فصح

مِنْ هذا أنه هو شاء فقط ، وأنه هو كان فقط ، وأنه هو الظاهر فقط . ولما لم يختلف فى ذاته ولا فى لواحقه وانصرف إليه ودار عليه امتدّ فيه وانقطع به وليس فى شىء من ذلك نعم ولم يكن ، وحقه شىء من ذلك ، ولا يمكن فيه ذلك ، وإن كان يجوز عليه ذلك لأنه كله ذلك ذلك ذلك . فهو الظاهر والظُّهور والمَظْهرُ والمُظْهِرُ والمُظْهَر ، وهو الكون والكائن والمكون ، وهو الإرادة والمريد والمراد ، وهو إذاً هو وكأنك تشير إلى خط لا أول له ولا آخر له ، بإشارة لا أول لها ولا آخر لها . وذلك الخط ينقسم إلى نُقَطٍ بحسب ما فرض . والهُو هُو يطلق على كل نقطة بمعنى الخط ، وعلى الخط بمعنى النقطة والنقطة ثم تعقد ولا تشير أن الخط يتشبط فى الوهم ، ثم يكن أملس ثم ترفعه بعد ذلك الوهم وقبل ذلك الأعقاد صحبة تلك الإشارة وتترك المحل البسيط صحبة الأعقاد البسيطة والوهم المركب .

إليه . لما فرغ الوهم من هذه الأحوال قالت الإحاطة : من حيث الضمير المستقل جميع ما يظهر للحواس وتتعلق به القوى الطبيعية والنفسانية وكل أنحاء العلوم والصنائع أعنى علوم أهل السماء أو علمهم وعلوم أهل الأرض أو وهمهم من الله هو ، بوجه ماله وهو الذى يظهر لبعض أهلها أعنى الإحاطة المتقدمة أنه العبد أو القضية المزدحمة المتطورة الكثيرة بالنسب والقضايا المقدرة والمعنى الجامع الذى يحاط بتقدير سعته من حيث التسليم ، مثل ما تقول : تحيط بالعدد أى معقوله ، ويعلم أنه يمر إلى غير نهاية وقبوله التركيب والاستمرار ماهيته عندى هو هَ . وأيضاً فما علم وحرز القول فيه وألفته الطبائع جعلوه العبد ، وما كان غير ذلك ولم يفارقه فى الوجود أعنى الذات الواحدة هو هَ . ومع ذلك تقول : تلك الإحاطة هو الجزء لنفسه وهو الكل لها ولكله . ثم تقول : جزء نفسه ، ثم تقول : هو المنزه عن ذلك ، ثم تقول هو هذا المشار إليه الثابت المُصْمَت الكون ، لا المصمت الخط والماهية ، بل هو هَ هَ فعد هَ حيث يصدق لا إله إلا الله ، وحيث يقال على كثيرين بالمعنى الواحد فى الشىء الواحد وكما ذكرناه فى الخط المتقدم . ثم تقول : هو الصورة المطلقة وقولها قول واحد ، وببعضها تظهر صحبة العلم بكلها وتجتمع [١٤٥] أجزاء ماهيتها من جهات كثيرة مثل لو اعتقدنا أن الصفات القديمة المحمولة على الذات أو المشار إلى الذات صحبتها كثيرة بالقول واحدة بالموضوع ، أو كثيرة

بالموضوع واحدة بالقول، لقرب الأمر من الأمر الأول. فاعلم أن هَ عند ناسيَّد هاو عبدها، و بعضها و كلها.

إيه ! من هَ الأول الوهمى ومن هَ الآخر الوهمى ومن هَ الظاهر الوهمى ومن هَ الباطن الوهمى وتزعم أن الجزء الذى يطلق عليه هَ خير من عالم الأفعال عند الصُّمّ . وبئس ما قالت وبئس ما اعتقدوا ، ونعم ما اعتقدت وبئس ما قالوا ، ثم تستقيم وتسكن فى فصل قصدها فقط ، وجملة الأمر الأوهام بحسب علمهــا هَ بوجه أنقص والأوهام التى هَ فيها . والضمير قد خطب بعض حق ما هى نصيب حق بوجه أكمل و هَ الذى لا اه إلاه ، والذى لا يمكن أن يكون ، وإلا ، و هَ وبعده و و بحذف ، وفافهم تطور هذه الإحاطة المنحطة ، واعزل ضميرك عن هذه الخطة ، وقل له يقرأ «وقولوا حطة»[1] واحذف غير الإحاطة، ولا تحط بها ولا تجعلها تحيط بغيرها . واعلم أن هذه الكلمة أو هذه الحكمة قيلت وأريدت ووضعت لأن يستقر صدق التوحيد ويصح برهان الوحدة وتستقل فطرة مواهب الفطرة القابلة لحقها الكامل الظاهر المتوجه بالنصيب الإلهى ، واحصر نفسك فى جهة الاستحقاق ، و جُرَّها بعد ذلك إلى الأصل الذى لا تقوم عليه الفروع ولا يثبت فى موضوع ، وإنما هو مثل الشىء الذى يفرض فيه للشىء ، ويقسم بالفرض والتقدير ، لا أنه قسم ولا أنه اجتمع من كذا وكذا وكان كذا بعد ما كان كذا وقل الإحاطة من هَ ممتدة وبه واقفة ، وإليه معوجة ، وعنه دائرة ، وبه قائمة ، واجعل تلك الإحاطة المتقدمة كالخير الذى يراد لغيره وحقق منهــا فى أول أمرها مالا يعتقد فى آخرها ، واعلم أنها حيلة لكى تكون ، وهى هى شبكة وحدة الاتصال ولذلك يفرض فيها الوصول والانفصال. والأدب مع الله أن يقال الله لا قبل شىء ، ولا بعد شىء ، ولا مع شىء . ومنه أن تقول الكل عنه وقد عزمت على الكف بعد عجز الجنان واللسان ، والكف من حيث المستمع لا من حيث الملق .

والحمد لله على نعمة الله القائمة الكائنة الظاهرة الباطنة .

. إيله فقط لـ من . قال ذات الله هى ح السارية فى الموجودات لم يقل الحق المحصّل على ما يجب، ولا هو أيضا ظهر كذبه حقيقة وتحقيقا وأيضا المقدرات تمنع من إطلاق هذا كله . وأنت قد صح

---

(١) « البقرة » آية ٥٨ ، « الأعراف » آية ١٦١ .

عندك أنها واحدة بمعنى لا يفهم بتسليمه الفصل الذى به يقال المقــدر والواقع والمقيد والمطلق ، وما أشبه ذلك — فيلزم من مذهبك هذا مذهب هـذا القائل . ومن منع العلة والفاعل ولا ينـكر قبل تحصيل الـكمال وجود الملازمة ، بمعنى الافتقار وصدور الأشياء بمعنى الاختراع بالوجه الذى يجمل ويصح — يلتزم ذلك القول الأول وينفصل عن اعتراض الثانى ، فافهم . غير أنه يقال له : ما تقول فى المحل الذى تحل فيه الحياة أو تظهر فيه [١٤٦] أو يظهر أثرها أو بمعنى ما به قبل ذلك كله هل هو غيرها ، وهذا لا يصح ولا يسع فى مكان حصر التحقيق ؟ فإن هو أجاب وقال : الوهم تشخّصُ ، وذلك التشخص من الأوهام المنحطة أو المنجرّة ، فقد يُسلَّم له القولُ ويصبر عليه قليلاً حتى يثبت كنهه ويـكلمه الله ويبصر الحق القائم بالحق ، ولأجل ذلك يحذف المفروضات كلها أو تفرض من أجله .

الله فقط ! مَنْ أخلص لله وإخلاصه ذاته وذاته جميع الأمور كلها وتلك الأمور عَيْنُ نفسه هو السلام ومن علم الحق بعد ذلك وذلك الحق عين باطله ، كان المؤمن ، وذلك المؤمن هو ذلك ، إلا أنه مثل نفسه التى كان عليها التوجه واصطادها القصد المعتبر .

الله فقط ! اغتبط بحالك يأيها الماجد المختبر ، فإنك بالجملة انفصلت عن المألوف واتصلت بالمعتبر . ومن هلك الوهم فيه حيى الحق فى قلبه وعينه ويده وفيه . وإذا وَجَّه اللهُ عدوَّه إلى حبيبه وقبل رسالته المدبرة وصبر على مخالفتها المألوفة جاءه الله بعد ذلك بنفسه فى نفسه ولم يُخْرِجه إلى باطل بعد ذلك . ومن طلب مشروط سعادته ولم يقرر على عيبه ثم أبصر بعد ذلك صحبة شرطه لا يهمل صورة قصده ولا يهمل طلب جده . وهذه سيرة القوم . ومثلك مالا ينبغى فى حقه أن يتحلى طعم شىء لم يَذُقْه وقد كان ذاك فاغتبط بصحة الحال ، الأنس الخالص عندهم الصادر عن الله لا يكمل إلا بالله وبما جاء عنه ، وأن تـكون النفس الرئيسة معه على أىّ حال كان .

عدوُّ الله إذا عاداك نعمة الله عليك لأنلت نسبة الشبه المستقيم ، وبذلك يظفر بحبيبه . روح الله يظهر فى بعض المظاهر المتعبة للطبيعة وللجزء الطبيعى منك فلا تنـكر ، وقد كان ذلك فاعلم ودليله سرعة القبول وكون المقصد القاتل فى مظهر المقتول . خرب الله نظام كبد الـكنود

بحكمة المعقول وسنة المقبول . عجب القسط من دعوة الجزاف ، وضحك البرهان من حجة البهتان .
وعجبت من استقامة سير السُّنى بعرض مركوبِ السَّنِى . هذا يهوى فى الهاوية بصاحبه ويعثر فى كل
زمان براكبه ، وهذا يستقيم ويصل ويتصل ثم لا ينفصل . الله أكبر على أرذل عباده !

الله فقط ! إذا حضرَ اللهُ عبدَه فى وقته وضيّق عليه فى عادته ، وذلك العبد مع هذا مع عز وجل على أىّ حال كان ، وهو فى ذلك الوقت ذلك الوقت وفى تلك العادة غبطة وسرور وتقبت وشكر واستخارة وحكمة وجميع ما يجمل بهذا كله — وصل مقام الموحدين بالتوحيد المشترك ومقام التسليم بالتسليم الخالص ، ومقام الصبر بالصبر الجوهرى المقول بالتحمل . وإذا كان الله مع الفقير بالتدبير عَذَّبه تارةً ونعَّمَه أخرى . وإذا كان الفقير مع الله عَذَّبه بمعنى نعَّمه ، وبالعكس . وإذا كان الله والفقير مع الله من حيث الأمر وَفَّقه الله توفيق العارفين . وإذا كان الفقير ذلك المطلوب وأصلهُ ثابتُ الفرع وفَرْعهُ ضعيفُ الأصل شاركه . وإذا كان [١٤٧] بالعكس زاده . وإذا كان ذلك بجملته وتطوره مزدوج المتابعة والتركيب انعكست مظاهره الوسطى عليه وملك طرفيها .

والسلام على الجزء المعلوم منك ، والكل محسوب عليك ، والنقطة الجامعة ، والخط المنسوب ، والدائرة الخامسة ، ورحمة الله تعالى وبركاته الله الله الله الله الله الله الله !

الله فقط ! أنسُ العارف فى سلامة قصده ، ثم فى تحصيل مقصوده ، ثم فى أمثلته حتى تنفد ، أعنى الأول لا فى المطلوب الخاص ، ثم فى أمثلته الواقفة فى القبول الممتدة فى أجناس المواهب أو معها ، والحمد لله . شأن العارف لا يصحّ وأحواله أولية أبداً وكمال المحقق فى ذات الله ، وله فى ذلك ثلاثة مطالب وسر واحد وسريرة مكشوفة .

الله فقط ! « الٓمٓ أحَسِبَ الناس »(١) الآية . هيهات ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ! « هذا بلاغٌ للناس ولينذروا به »(٢) . روح الله لا يتوقف على أحد ، ولا هو هو فى الناس بمعنى واحد ،

---

(١) سورة « العنكبوت » آية : ١ – ٢ وتمامها : « الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

(٢) سورة « إبراهيم » آية ٥٢ .

وإن كان بمعنى ما هو واحد « هدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب[1] » نعم والذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . الله قَصْدُ الحكيم ، وهو مقصود الصوفى وهو ـ ـ ـ [2] د المحقق . كثير البحث لا يصل إلى علم السكينة وإن كان على طريق الصعود لا على طريق السعادة ، وضعيفه لا يفلح وهو لا يتوجه أو يخالط المتوجه أو تكون همته نحو الصواب ، وكثير التوجه لا يصل إلى علم الوحدة وإن كان على طريق السعادة لا على طريق الصعود . والنبيه خير البشر فلا تغفل عن سرك فبه تتصل وهو عرىٌ عن شوائب العلل العلمية والعملية ، وهو من قبيل علوم الذوات المجردة ، وضمير السعيد يخاطبه ، ونكتةُ توجُّهِهِ نجده ، وملاحظة صدقه فيه أعنى فى الشىء الذى هو قوة محضة ، والنفس تمنع من الاغتباط به ، والقصد يوقفها ، والقلب يُضربُ عن اعتراض زواجر العادة وينتظر ذلك . والله هو المستعان .

الله فقط ! صاحبنا صديقنا حبيبنا ذلك الرجل ! حفظ الله عليك آخر ما أنت بسبيله . ما أكثر ملاءة الأمل والطباع وإن كان فى وقت ما أمل ما فى نفس ما ونفس ما منها بحسب الرأى الصحيح لا خير فيه وهو لذة وسرور ، وبالجملة فى الجميع فإن معناه لا يتبدل رسمه بحسب الموضوعات ، وإنما تبديله وما يحمد منه أو يُذمّ يرجع للكاشف وللبصير الموفق . وما من طائفة من الطوائف إلا وهى تبحث عن خبر ما وتتشوق إليه . وهذا لها من حيث هى صاحبة مذهب وعين المطلوب الحق .

وقصد الطالب الرشيد لا يصحُّ من حيث الأمل ولا من جهة الخبر المطلق ، وإنما أمر ذلك بيد الله ومن الله ، فهو أول الطلب وبه تصح العاقبة المحمودة ، وهو يكشفها . فإذا كان الأمر هكذا فعليك به فى كشف كل عاقبة وفى كل حال وفى كل شىء يمكن أن يكون جزء علته فى الجد أو هو الجد بعينه فإنّ الجميع له من كل الجهات حتى فى العلوم المحصل عندك وقت وجودك وفى زمان الإدراك . ومن نظر هذا النظر الغريب من حيث التأمل [١٤٨] فى واجب واجب وفيما يصح منه عنه عز وجل سَلَّم الأمور إليه ، وعلم أن الله هو الغاية المبحوث عن كل غاية من أجلها ، ورضوانه هو البداية الصادقة لأنه الحقُّ المدبِّر ، وهو السلوك لأنه الصراط المستقيم ، وهو الوصول لأنه ماهية

---

(١) سورة البقرة : آيات ٢ ـ ٣ .

(٢) بياض فى الأصل ، ولعلها : سنيد .

الخير المحض ، وهو ذلك الذي بعد ذلك كله لأنه الواحد المحصل بالكنه الدائر . شطت مراتب المعارج لمن جاءها بالتقديم والتأخير ، وعلى من نالها بالمقدم والمؤخر ؛ وقربت على الذى يصلها بالواصل لا بالوصول ، لأنه به صحبة حقه يصل وإن بحث عنه على ترتيب الأفعال الثوانى انحط صحبة الصواب إلى أرض المحاربة الوهمية ، وكان تارة بوهمه وحقه ، وأخرى بوهمه خاصة . رأيتك يأيها الحبر تحب التوجه إلى جهة ركن كالك الممكن بوجه الإنابة لا بوجه الجلالة ، وفهمت منك أن الذات التى تقول أنا بها أو أنا عنها وجميع ما يقال بعد ذلك بحسب ذلك ليست هى إلا وهمك ، وهو الراجع إلى أشدّ وأضعف خاصة . وصحة هذا القول أن الفعل المألوف الذى لا ينفكّ عن فله إذا استصحب الحال فيه ودام أمره وموّه على النفوس حتى يكون الحكم له ، كان الشكل له من كل ذلك الشخص . وأيضاً الذات العزيزة التى يقول العزيز بها على زعمه أنا تلك أو أنا بتلك ، ثم يطبق ذلك على مجموع وهمه المعلل لا يدخل فى ميدان السباق بمركوب التخبط ، فتكون كبوته محسوبة عليه .

الله فقط ! كهف المعرفة كنه الحقيقة . كهف كال المحقق نار الحق . هو الروح الباصر من عين المحقق ، والمتشبه به . إذا أبصر يكون مدركه الأوهام . وإذا تكلم يكون كلامه مفتاح باب حتفه . مَنْ حقّق الحقّ وعلم مطلوبه كما يجب وكان على بصيرةٍ وبيّنةٍ من شأنه وَجَد الله عنده ، وارتفع سراب الإضافة القائم فى صدره المحتوى على الأخبار المألوفة عنه ، ولم يشغله شأن مميزه ، واستجاب العزم المنبعث الخالص فى روعه الأصم المصمت الشاخص المنتظر بجمل الأحوال الإلهية ولما يجب وكما يعين ويفرح به ، وهو كل ذلك بوجه أخلص له التصرف ، وله الملك ، وله الحمد ، وله الكلمة العليا ، وله تخصيص الأخرى والأولى ، وله إهمال نكال الآخرة والأولى ، وله الله الذى هو به هو ما هو ، وإن ضعف ذلك منه لأجل أنه هو ، وإن كل لا يمكن أن يكون إلا به وعنه يا هذا من بعض ما فى سورة « الفتح » ، إنه خطاب الله لأهل منزلة المجاورة ، وهو لجميع من آمن به ولم يطلل إيمانه فيه ، وكان على صراط مستقيم لا على صراط الاستقامة . ولما كان لكل متوجه مشار ما إليه ذلك التوجه ، فله من ذلك الفتح بقدر قوة ذلك التوجه ، والقرب من ذلك المتوجه إليه ؛ والفتح من كل الجهات حتى فى الشىء الذى لا جهة فيه أكمل من الفتح المقيد المنحصر فى حيز ما ومكان ما ؛

وفتح الكامل منه ما هو فيه ، ومنه ما يتصل بغيره ، ومنه متصل ومنفصل . وهذا الفتح الذى فيه الخير على الخيرات الأربعة: أعنى الأمن من الذنوب، وتتميم النعم، والهداية [١٤٩] المحضة ، والنصر الثابت القوى الظاهر الكبير المعتبر لا يصح أن يخرج من مفهومه أوج الكمال وفعله وعادته ودرجته . فافهم يا هذا والذى أخبرك به ، رضى الله عن الحق منك ، وحفظك من ضده فيك ، أن كلام الله جزء ماهيته التطور ، وهو غاية المعتدل . ومما ظهر لى فى الوجود أن الذوات كلها ذات ذلك الوجود لا من جهة ما يلزم عنه وأنت انظر إن وجدت للوجود صورة يشار إليها ، فالتزم البعض من موضوعك ، واستند إلى بُدِّك المقوِّم لك . والوجود فى كل موجود هو الحق فيه .

وقولك الجسم والجوهر والعرض هو الوهم ، وهو غير الجليل ، وما يخالف الحق المبحوث عنه. فالحق فى الخلد هو الأمر الذى يمتد على العوالم ، وتلك العوالم هى أمور الله . ولذلك يقول الحق « وإلى الله تُرْجَع الأمور »(١) وإذا عزمت فتوكل على الله ، أى على القرب منه ، خَلِّصْ نفسك من البعيد عنه من صفة نفسه ، وأخلص فى الإضراب حتى لا يبقى فى ضميرك من تخبر عنه ولا من تقدر أنه يخبر عنك ، ثم اعزمْ بعد ذلك واعزم وخذ نفسك بالتجلد الجاحد لجميع ما يجمعك أو يفرِّقك لأن ذلك كله يجر إلى الأول من العبد والآخر من الأصل ، وذلك على خطر .

الله فقط ! كتابٌ من ذلك الواحد إلى ذلك وذلك . أما بعد ، فإن الواحد الحقيقى لا يعود غيره ولا يجد مثله ولا يمكن خلافه ، فإن انتهاء هذه (— والهوية فى بعض الإحاطة ، فيمكن منكما بعض الاتصال ، وإن انتهى هذا — فقد يمكن من واحد أمركما الجميع لأن الأكثر يغلب الأقل . والسلام على الواحد الثابت خاصة ، لأنى أقسمت أنى لا أطلق السلام على الباطل ، وبحثت فلم أجد الحق إلا هو أعني ذلك ، والسلام على معناه ، والسلام على السلام يصحُّ حقيقة وإن ذُمَّ شريعةً . والمواضع معروفة ، والحق بغية النبيه فقط . ومن قال الحمد لله قال أصغر الكلمات بالنظر إلى جلال الله ، وقيل له على لسان الإنصاف كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من جانبه .

---

(١) سورة « البقرة » آية : ٢١٠ .

الله فقط ! جمال وجه تقوى الله أشغل ناظر الرشيد عن سواد . لأنه معتدل الروح والصورة . وفصاحة « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[1] عمرت أذن المستقيم . فلم تعملها عجمة الهوى . والوقوف مع قوله « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة »[2] الآية منع بال المعتدل أن يتوجه إلى حب الصيت والظهور والانتصار إلا إن كان من أجل الله ، فهو منه عز وجل لاعنه . لطف الله به . ولذلك يقول الغافل المتلون لظالمه مثل قوله . ويتعرض له بمثل تعرضه . والحاضر إن كذب عليه قال إن كان ذلك حقًّا أحسن الله للقائل ، وإن كان باطلا غفر الله له . ومن صح عنــده أن مُدَبِّر العالم لا تفوته الجزئيات ولا المقدرات ، وأن العوالم بحسب القضايا المفردة لم يَخْشَ إلاّ الله ؛ فإن حركة زاجر شريعته استقام سيره صُحْبَته ، ويكون معه على أيّ حال كان .

إلى الله أنت فلا سـبيل أن تقول أنا وأنت وأنت أنت أعـنى الذى أنت به له ، بل الذى هو أنت . وعند تحرر ذلك قل بذلك وبما يلزم من ذلك له جميع ذلك ، أو هو كل ذلك ، لكنه لكذاب يدخل تحت جنس الشرف ولا لمثله فافهم .

مَنْ خدع رسول الله ﷺ أظهر الله [١٥٠] عليه غير الذى يحبه وأنساه ذكره وشغله بغير رسالة ذكر السفير ﷺ وبذلك يستحق المكر إياك والتأويل فى مضمون الصغيرة فإنه يحمل إلى يقين الكبيرة . من ارتكب القبيح واستوى على ظهر الغرر الحامل إلى منزلة المكر ، حيث يساوم الوهم ظالم الشهوة شهد عليه النور الإلهى بالجهل والحرمان وكان عدوّ الله الأخس . مَنْ تعرّض إلى عداوة الله خرج عن مخالطة أهله واستوى عليه بُهْتان ظُلمه لنفسه ، وكان ظالمه المدبر منه ، وأعوذ بالله من ذلك !

الله فقط ! يا مَظْهَر هداية الله ، كيف تفهم ؟ قل « إن الهدى هُدى الله » وبأى وجه يتصرف فيه ، وما هو ، وكيف يحفظ ، وحال نيله ما هو بالجملة وما مفهومه فى الله وفى الناس ، وهل يرجع للذات والصفات والأفعال ، أو للذات خاصّة ، ورجوعه للذات : هل هو بمعنى النيل ، وكأنه يقول

---

(١) سورة « النحل » آية : ١٢٨ . (٢) سورة « فصلت » آية : ٣٤ .

لا نعمة إلا الله لأن الهداية الفعلية المصرفة قد صح أنها من الله ، فأي فائدة في الإخبار عنها ؟ وأيضاً الله لا يدخل تحت عموم ما ولا يقال فيه إنه مع غيره بالمعنى الأكثر ، ولا مشاركة بين القديم والحادث حتى يقع الترجيح بينهما في ذلك المعنى المشترك . وأيضاً الذي أحاط بكلّ شيء من حيث وجوده على الإطلاق لا نسبة بينه وبين ذلك . فما بقي إلاّ أن المطلوب الذي جاء بصيغة الطلب هو المطلوب العزيز ، وهو لا يظفر به بالعلم فقط فإن[1] الحال عند أهل الحق مثل العلم عند أرباب الأحوال ، فافهم .

* الخارج عن الدائرة يلحق في مرسوم الوجود ، والمتوسط يتعب ، والمتصل بالمحيط نوع منه آخر . لا تلتفت وهم الامتداد فإن نهاية الافتقار في الجميع ،وبخة ، ولا تتعرض إلى حصر الكلّيات ، فإن الأول منك يأخذ ذلك منك ، واجعل ذاتك بين ذلك وبالنظر إلى النقطتين . أنت ذلك ، وفي ذلك والسلام على الأول منك والآخر ، والظاهر مثلك والباطن ، مع ذلك ، ورحمة الله تعالى وبركاته !

الله فقط ! تسمح همة المقتصد في استجلاب التعب لموضوعها الطبيعي لمصلحة مدنية ، ولا تسمح للنفس في شيء من أمرها ، لأن ذلك يجرّ إلى فساد الأصل . هداية الله أبوابها ثلاثة : أحدها موافقة الأمر ، وثانيها نتيجة ذلك ، وثالثها ثبوت توفيقه . خَلَل السالك يظهر في جملة مواطن : منها كونه يشهد لنفسه بالصحة مع وجود السقم ، وموافقته لنفسه وكثرة موافقته لأهل الله ، والحسد مهلك للمتصف به ، وللآخر في عالم الطبيعة بمشاركة همته . قوة الحسد لا يمكن به نيل فضيلة إلهية بإجماع أهل الحق ، وبما يعطيه الدليل ، وبما يلزم على الإطلاق . ما أقبح مَنْ قال : أنا من أهله ، وسيرة الشيطان وأهله ظاهرة عليه ! ما أجهل من أخذ نفسه بالحلول حتى يظهره غراب المضمار ببحث الاضطرار ! نِعْمَ الرجل من كان الله معه وهو مع نبيه في فعله وقوله واعتقاده وحاله ومنزلته ، وأخذ بيد شرعه عنه وبايعه بروحه، ودفع له أمله كله ، وكان به في كل مطالبه ، ووكله على كُنْه مقاصده ، واستدل على الشرف بشرفه ، والتزم طاعة قانونه كله .

---

(١) فوقها : كذا !

[١٥١] ليت شعرى كيف يجتمع الله والعدم ! مَنْ ذا الذى يقول « الله » وفيه وهم نفسه ، ثم يصيبه الضجر بعد ذلك ، ولم يسمع العرب وحكمة قولها صحبة مثلها القديم « يداك أوْ كَتَا وفوك نفخ »(١) . قوله « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » (٢) اشغل الأرواح الطاهرة عن تدبير عالم الأبعاد المختلفة . إن كنت تريد أن تقول الله ويقول المضمار منه منك لبيك — امتثل أوامر الحق وخُذْ نفسك بالتخلق به . ما أغفل مَنْ يفتقر إلى < أن :- يسمع حكمة البراهمة حيث يقولون : مَنْ صدق فى يقظته يصدق منه جميع مايبصره فى النوم — لأن الحق هو الغالب عليه وكان هو أحق بذلك ويبثه إلى أهل الطاغوت . متابعة القال والقيل تصدُّ عن الفَهْم . والحال المرشدة للعقل والقوى النفسانية والطبيعية إن فى الروح لعبرةً ، وفى العقل أخرى ، وفى الخبر جملة . والله الذى لا معبود ولا موجود ولا معلوم غيره وإن شكّ ضميرك فى المعدوم والحال وتلك المذكورة فيه ذلك وأنا أريد السبب والفاعل فافهَمْ . لا يصح من الله إلا ما هو من الله ، وحاصل ذلك : كُنْ معه فى مدلول رضوانه يكُنْ معك فى جميع مقاصدك الكريمة ، وهو المحيط ومنه الخبر . نعم ، نعم ، نعم ، لبيك ، لبيك ، لبيك ، صدقت ، صدقت ، صدقت ، « إن فى ذلك لذكرى » (٣) . الآية .

الله فقط ! إذا آمن الضمير بجلال الله عز وجل وكفر بأخباره المنبعثة من قوّته الباحثة فيه ، وأخذ من حديث خلده الأسفل وأهل حديثه العلوى ينبغى أن يتدارك لضرورة ما هناك يحدث عليه بقوله « أفغير دين الله يَبْغون ، وله أسْلَمَ مَنْ فى السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً وإليه يُرْجَعُون » (٤) وتحشر له أخباره الراجعة كلها ، ويقرأ عليها بها فيها عنها من أجلها ، « وأوفوا الكيل إذا كِلْتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خَيْرٌ وأحْسَنُ تأويلا . ولا تقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (٥) . فإذا بلغ مقام الإسلام بهجته والإيمان بنيته والإحسان بطبيعته واذكر له ولا تعرفه أنه من عند الله لأن الحقّ لا يقرر على ما هو منه ، والخبر الحق فى الضمير الذى هو مرآة وجوده المصاحب هو ذلك الحق المكتسب ، وذلك الذكر

(١) راجع « أمثال الميدانى » .
(٢) سورة « تبارك » آية : ١ .
(٣) سورة « ق » آية : ٣٧ .
(٤) سورة « آل عمران » آية : ٨٣ .
(٥) سورة « الإسراء » آيات : ٣٥ – ٣٦ .

هو « ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم » إلى « يفترون »[1] إن ربّكم الله رب العالمين بأهله . يا قومنا ، يا من تعيّن على الحر إسعافهم ، وبالمضمار إنصافهم ، إذا كانت النكتة لا تقف ولا تتحرك كان المجموع بها ، ويظهر المحيط هو المحاط به ، والإحاطة معاً ، وتنصرف القوى بالدور الراجع والمعنى الجامع الذى تنفش به ريح الغلط ، وتجف به رطوبة التمويه القائم على كل نفس بما عبثت وانتكست ويستقيم الواحد ولا تسع فيه الوحدة ، فكيف مَنْ يقدر ، وما هى القدرة ، ومن يدرك ، وما هو الإدراك ، ومن يخبر ، وما هو ذلك الخبر ، ومن يريد ، وما هى تلك الإرادة . وإذا صمت لسان التحقيق واستجاب الله له عند دعوة القسط ، وسكت الضمير ، وكان الله ما [١٥٢] به هو ذلك المدرك المسكوت عنه والمبحوث به فيه وإليه عليه من القائل ومن المدرك ومن المتكلم ومَنْ ومَن قُلْتُ : ذلك لأن الإشارة تجر إلى مقابلة الأنفاس بحسب الشعور والمرتبة المعقولة مسئلة جوابها وجود عينها . وإذا أُخبر فعند ذلك بماذا يخبر ، ولم يكن له فى وقت العلم أو المعلوم يثبت هل ذلك من صفة نفس ذلك الحال، أو العجز هناك، أو كلمة «وما أنا بظلام للعبيد» . هى الحافظة الحائلة ، وذاتها هى الحد الحاجز وما لا يمكن للعبد أن يصله بنفس ماهو عبد الله . هذا إذا جعلناه على مفهوم هذا . فافهم إذا كان الله ولا شىء معه ، فمن الذى يقول الوهم أو يجده . والشرط فى جوابى أن يكون من النفس إلى اللسان ، ولا يلفظ به إلا بعد ما يوجد أو يعرف أو يُعلم أو يُسلم . وإذا أراد الله أو قدر على من يقدر ولمن يريد ولمن يسمع هل كل ذلك يشبه ما يمكن من ذلك خاصّة ، أو هو إلى الله علمه . وقد يسع الجواب بتركه عنده . والسلام على أهل الله ، ومن يجب به . كلام الله دواء الضمائر وفهمه عين الشفاء ، والموافقة أعنى موافقة الدواء الداء فالمتكلم إذا خاطبه حال القريب السليم الذى كان سبب مرضه التحكم فى حكمة الحكيم وبها شفاؤه ، فإنها تضر بالوظائف وتنفع بالانبعاث وإذا أراد الرجل الكبير يمرض ويصح فى وقت واحد يقول ويجدر إذا أن يصح فقط يرفع البعد المجاور همت فى وقت ما يحصر العلل المتخالة الممتدة فى الهيا كل الوهمية التى هى أكثر امتداداً من الكمّ المنطقى . فلما عزمت تذكرت مايجب للذات التى لها الأزل ، وبها الأبد وجميع المضافات ، فاستقمت

---

(١) سورة « الأعراف » آيات : ٥٢ - ٥٣ .

على الكف وقبضت كل ما كان منى أراد ذلك ، حتى اللسان والجنان والكف ؛ واستغفرتُ واستخرتُ الله على تعظيم شأنه . يالله ! خَلِّص القصد ، فإن القاصد قصدك فقط ، والمقصود أن تكون مقصوده بماهية ما . والسلام على من افتقر إليها وكان به ، لا منه !

الله فقط ! دقيق التحقيق صعب التحصيل ، وجليله كثير الأوهام . بئس العلم علم التعليل ، فإنه يستجلب بالتعب ويحدث التعب ويتعلق بالمتعب . وأوله اجتمع من قلت وقالوا ووسطه من أما وأن وما أشبه ذلك ، وآخره من هو وأنا واحتمال الضد أسبابه قريبة منه جداً . ونعم العلم علم من كلم الحق وتكلم به ووجده عنه وظهر له به أن العالمَ والعلم والمعلوم حينئذ[1] بالوجه الذى يصح به ذلك . عجبت ممن ينفق ماله فى أيس اللذات وأصغرها ، ولا يشترى به الأحرار ، أعنى بفعاله ويربح الدنيا والآخرة . الحر هو الذى يقول ما يجمل بنا أن تكون لنا الأسرار ، وأولياؤنا محرومون منها ومن مواهبنا ، ويحتال على ذلك حتى يؤدّى أمانته . ما عظم الحكماء أشياخهم وفضّلوهم على آبائهم إلا لأنهم كانوا سبب الحياة الباقية والآباء سبب الفانية ، إلا إن كان الأب من كل الجهات . شكر المنعم أكثر من النعم الشخصية لأنه يبقى [١٥٣ب] وتلك تفنى . الإنصاف والعدل والتخلق بالحق على أى حال كان ميزان الله فى الأرض . لا تعجب من جميع ما يحدث فى عالم الكون من الأمور العجيبة والأحوال الغريبة ما دام مطلوبك لم يتحصل مع كونه هو عندك وأنت له به طالب وهو المطلوب . كل العجائب فى نفس الإنسان حتى استحسان النقص والإضراب عن الكمال والغفلة عن الله ، وفيها أيضاً الله الذى هو به للذى هو العلىّ الأعلى ، فذلك لا إله إلا هو ، وهو هو . أرفع الرجال من حقق بعد قرب ، كما أن أحسن الناس فى عادة الصم من تواضع بعد رفعة ، وترك حقّه بعد قدرة ، وأنصف من نفسه إثر قوة . من تشكى بالدنيا فقد بَعُدَ عن رضوان الله لكونه فى غير مقام الرّضا والأمور الإضافية منك ومنها ، إلاّ إن كان بالنوع الذى يبعد عن الله فذلك يحمد والله المطلع . لمن آمن بالله طابت الدنيا وصحت الآخرة ، ولمن علم الله حق معرفته وبقدر ما يصح له ملك الدارين ولم يغتبط بنصيبه منهما ، ولمن وجد الحق واستقام منه القصد فيه وأبصر ذلك كله ، إما فى ذاته أو بذاته ، وإما بقرب فى بعضها لم يَرْضَ إلا بالله ، كما أنه فى الدنيا لم يَخْشَ إلا الله . ما افتقر ضمير فيه قصد ، ولا قلب فيه خِلّ . الناقص القصد يقول له لسان الآخرة : يا بطّال

---

(١) ص : ح .

فى صيف دار الأولى ضَيَّعْت كَبن اللبن . عقول الحكماء العلماء بالله تحت ظل توفيقها ، كما أن عقول العلماء بالعادة تحت أسنّة أقلامها ، فإن القلم أحد اللسانين ، والخط عقال العقل ، والقلم أحسن الآلات فى استخراج أخبار الضمائر بعد اللسان الفصيح ، غير أن القلم يثبت مدلوله بعد كلام النفس به ، واللسان يذهب بحسب ذلك الزمان . إلاّ إن وقع فى قلب المحق ، فهو أثبت من القلم والقرطاس ، لأن ذلك يعطى جملة أنواع : منها ما يثبت بالنوع ويزول بالشخص ، ومنها ما هو أعظم . والقلب أجل موضوعاً من القرطاس ، فإنه قرطاس القلم الإلهى . وقد قيل عن جعفر بن يحيى أنه قال : «لم أر باكياً أحسن تبسّما من القلم» ، وقال المأمون : «لله درّ القلم ! كيف يحوك وَشْيَ المملكة» ، وقال ثمامة ابن أشرس : «ما أثّرته الأقلام لم تطمع فى دَرْسِه الليالى والأيام» . هذا فى قلم القوم الصمّ ، فأى شيء هو قدر قلم أهل الحق المصطلح عليه ! فإنه خليفة السبب الأول فى الأكوان ، وخليفة الصفات ، وهو الفعل المطلق ، وهو أيضاً الوجود الممكن ، وهو أيضاً قضية التطور ، وهو أيضاً الروح المألوف ، وهو الحركة ، وهو الحياة فى اصطلاح قوم . وتحت هذا الاصطلاح علوم يعلمها الله وأهله فقط . إذا جاءك الله صحبة فعله فاستقم كما أمرت ، وإذا جاءك صحبة صفته تدلل بمضمار مؤقت . فإذا جاءك فى موكب أخبار التوجه حيث يظهر الله عادة الروح فى الروع ، فكُنْ من حيث من جاءك ، وذلك صحبة ذكره يمثل ذلك الوجود أو الوجد ، ومن استعدّ إلى ذلك بحال الاقتصار والإنابة ، ويشعر نفسه بما تعلم أنه ذلك الذى هى بسبيله ، يحمد [١٥٤] الله على كل حال . وبعضَ الرجال عَوّد نفسه فى ذلك الوقوف مع الاختبار بالحروف لكى يجد القلب أو الضمير عنوان ما هو بسبيله قد جاءه بالله وأمره عند الله بعد ، وحكمته بيد التطلع الأعلى وهمته ذاته ، لا أنها انضافت أو كانت به أو له أو من أجله . وبالجملة المقصود من هذا المقام أن يكون جميع ما يعرف واحداً ، فإن قلت يعلم فهو علم ، وإن قلت يقدر فهو قدرة ، وهكذا — فافهم . ومن حيث هذا سلام الله على عين الأمل منك ، ورحمة الله تعالى وبركاته !

الله فقط . الله ا ه /// ، ح || فقط لا توحد وأنت موحد ، ولا تعلم وأنت عالم فقط ، ولا تحب ولك قلب ، ولا تفرح ولك مقام ، ولا تحزن وأنت بالله ، ولا تحب البحث وأنت عاقل ، ولا تتكلم وأنت حاضر ، ولا تحاجج وأنت قائل ، ولا تبجح بالخدمة وأنت للغير أو من أجله ،

ولا تمنع وأنت مالك، ولا تعبد وأنت راغب ، ولا تستعمل الصوم وأنت ممسك ، ولا تتخلق باسم وأنت تنادى أو تنصرف ، ولا تقف هناك وأنت تبتغى ، أو تنتسب ، أو تحتسب ، أو تجد المجد ، أو تجد الوجد ، أو تحمد الحظ ، أو تصادرلا ء الا والا ه الا ح الا س لا ن لا لك ا لا م الا ط والله ع ل لك ى ل .

الله فقط ! بسم الله ذلك إذا أردت أن تتلذذ ويقوى أنسك ويقع على عين أنموذج الذوات الفاضلة — فأرسل بالك المرسل صحبة الفكر المقابل، والميل المتذلل فى الصدر المحب ، والقوة المنيفة فى زمان الترك والمكان الفقير ، والغذاء المقيم فقط ، والوحدة الخالصة ، وتكون سيرة الرسل ، وشأن الملائكة بين يدى مطالوبك وعين استخارة همتك تصرف ذلك ، ثم انقل القصد وجميع ما ذكر إلى الذات الواحدة والأمر المتوحد ، ولازم الأحوال التى لا من جنس ما يكتسب ، والتى هى فوق ما بعد الطبيعة ، واستروح تقدير الحضرة الصائمة وكأن ذات الجلالة مظهر الجليل وأنت متطفل وكأن المجموع إلى أمر ما أنت بسبيله ينصرف ، والله شبه الدائرة بحوله وقوته معك . ومتى تذكرت عالم هلا كلك اخشع وفر إلى الله فى ذلك كله ، ثم التزم ذلك الفرار ولازم حالك واخطف ذلك الوصف بيد الوجد . ومن مثل هذا يظفر ، وبمثله أيضاً . وإذا لاح لك صدق دعوة وإجابة دعوة وكشف معنى وتجريد حال وإظهار فضل — افرح بمبايعة الله ، فإن الله لا يبايع إلا بيد كشف الجلالة وهى الحضرة القائمة فى طباع الأحرار . وبالجملة كف نفسك الميل إلى خرق العادة وانظر الأحوال العزيزة ، واختر حالك من جهة نصيبه فى ذلك حتى يصلك الفتح صحبة التتميم والهداية والنصر وإسقاط المانع فى أنحاء الزمان ، وهى المغفرة التى تطابق مع سنة الله لأنها سنة تطلب بها الأرواح فى السموات والأرض ، ورسلها أحكام الله المتعلقة به خاصة .

واعلم أن السفر كلها هى الرسالة الأولى [١٥٥] وهى النور المستولى ولا يسعها إلا الله أو الشىء المحيط بالجملة . فاعلم ذلك واعلم ما دفعته لك . وبعد هذا الاوج لا تهمل نفسك ، ولا تهمل شأنك فيها، وابحث عن كل ماهية تذكر الك فيها ، وخذها بالله على العموم، واتخذ عادة ثانية ، وطبيعة خامسة وزمانا رابعاً ومكاناً ذهنياً ومكانة عقلية، وذكراً صورياً وسورة صورية ووصفاً قاهراً، وفهماً بالله عنه

كثيراً وكلاماً مع الناس قليلا ؛ وفي هذه المرتبة يتعلق الأمر بالكمال . وجميع ما يقال في عادة الصم يتكلف فيه تكليف ما لا يطاق يطالب هنا به — فافهم .

الله فقط : ينبغي لمن عزم على معنى ما يشخّصه أن يبدأ فيه بما بدأ به الله إن كان ذلك الشيء أو ذلك المعنى مما يبرز أو يقدر أو يوجه عليه ذلك كله . فإن تعذر عليه ذلك بالوجه الذي ذكرناه ، فيبدأ بحسب حكمة الحال ، أو من حيث يسلم فيها على الإطلاق . فإن تعذر بالجملة فتعلم أن ذلك الأمر المدبر خارج المجد وبعيدٌ من نوعه فيتجنب بالجملة من قام بقلبه البحث عن سعادة الإنسان ، وعن حقيقة العلم والعالم والمعلوم ، وعن الشريعة ولواحقها ، والحقيقة وطريقها ، وعن الله بالكلية ، وعما يحدث عند ذكره والتوجه إليه ، وعن الولاية ، وعن كل ذات رئيسة ، وعن الرئاسة فيما ذا تصح وممن تصح ، وكيف تصح لمن بحث عنها ، وما نهايتها في الناس ، ومَنْ رئيس الناس ، وبما كان له ذلك ، وهل يتوقف الكمال المعتبر عليه أو في الناس الإمكان على ذلك ، وما الضمير وما خبره ، وهل ينقطع الوصف أو يختلف . وإذا ذكر المقام أو الاسم ، أو شيء هو إلى الله أو في الله ، أو ما كان من هذا القبيل المقصود الوقوف على حقيقته ، فهو الرجل الطالب خاصة عند الخواص ، والواصل عندهم هو الذي ظفر بمدلول هذا المفروض كله كيفما اتفق له ذلك وبقدر قوته في ذلك وهمته . ودرجات الرجال على أنحاء والوصول يختلف في الناس كلّهم ، وبهذا الميزان يحكم على المراتب خاصة . ومن قام به الوجدُ المحضُ ، والميلُ المستولى ، ولا يحدثه الضمير بذلك ، وهذا وهو وأنا وأنت ولا يعين له من المطالب المذكورة ما يضع عليه خبر همته ، وغايته الاستناد إلى ما هو بسبيله صحبة الحال واللذة فقط فهو المُوَلّه . فإن كان في إكرام من الله وأفعال الله بين يديه على جهة الملكة وتطوره في أمر منهم ، وذلك الأمر محفوظ القدر شريعة ، فهو المولَه المعتبر . وإن كان في البعض فهو بحسب ذلك . وإن جاءه ذلك كله لا على الأول ، ولا من نوع الآخر ، وجميع ما تفرق في الكل ظهر عليه ، فهو المراد الأعلى ، بشرط أن يظفر به بغير تكلف ولأطول مدة . وإن كان بخلاف ذلك ، أو ضعيف في ذلك ، أو هو بوجه على جهة الأكثر ، وبآخر نحو الكسب أمره في ذلك على

حاشيتى النقيض ، والزمان فيه ما يبعد وما يقرب ، وقد يشترك الأمر فى ذلك [١٥٦] ، وقد يكون على جهة الأكثر ، فهو بحسب ما يظهر فى هذا الإلزام .

الله فقط ! حضر عبد الله والله فى الله ، فما كان من الله صح له ذلك لأجل استحقاقه للجميع ، وإن كان المضاف من قبيل الأوهام، فهو معلوله الراجع ، ومدركه الدافع ، أو حقه الرافع ، ولذلك يجده كل من وجده بفقده ، ويكون تحققه لذلك الحق صحبة تلك الحقيقة من مقام أهل الوجه الرابع والكمال بعدُ لم يحصل على جهة الملكة . وما كان من العبد لم يصح له أن يكون فى تلك الحضرة صحبة ذلك الحضور ثانى اثنين . غبطة أهل الله بعلوم التحقيق لا يصح إلا بنوع منه ، والتخصيص هو المشار إليه فى الجميع .

الله فقط ! وصلى الله على الشرط فى نيل الشرف والكمال الجامع لحقائق الأكوان بكنهه الأكبرى محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الله الله الله الله الله الله الله الله الله ، كل ذلك ذلك ، لا كل شىء ذلك ، لأن ذكر الأشياء لا شىء عند الاعتبار الحر — فافهم !

الله فقط ! من اعتمد على خير طبعه ، وطبعه فى التطور الأوسط قد فاته تقرير الأول الذى هو قريب من الفطرة الأولى وعجز عن المتمم الأعلى ، فعليه بالخلوة المحمودة التى فيها نور الله إمّا صُحْبَة الذكر ، وإمّا صحبة الفكر ، وإما صحبة التوجه إذا لم يجد الرجال فى الوقت ، أو فى المكان أو فيه أعنى فى طبعه وقوته لكونه لا يحمل أحوالهم . وإن تعذرت الخلوة عليه فعليه بالدعاء والإنابة المشوقة التى فيها الحركة الدائرة على موضوعها . وإن تعذر الأمر عليه ، يستعد للرحلة عن نفسه بالجملة أو بالجهد الذى لا يصح معه ردّة طبيعية . هذا إذا جد وعزم على السعادة .

وإن كان حاله يقتضى حب الكمال ويعجز عن لقاء المكمل وعن أدوات ذلك بحسب ما ذكرناه ، فينبغى له أن يتوب توبة التقدير ، ويرغب فى النشأة اللطيفة ، ويستمين بالكتاب الذى ألفاظه السكون الراجع. وحروف تلك الألفاظ الملك الواحد ، ومفهومها الفقر والاضطرار الذى يشهد على الإطلاق ، والرجوع إلى الله بالكلية . فإن تعذر الأمر فى ذلك كله يترك خبره فى الأمل منشوب

القصد ، وشأنه كله بعد فى التقدير . والله يحفظ ما ظهر وما بطن منه ، بمنه وكرمه.. والحمد لله . الله الله الله . إذا لاح نور الله ح لا ع ا ، لا يشك الرشيد فى ذلك كله ، وإذا ظفر بالجملة لا ج د / فقد عظم أمره بالله . صحح وحرر ، وجرب وكرر ، وعجل ، وحلل وركب ، ونوّع وكبّر .

الله فقط ! «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[1] «يأيها الذين آمنوا لا تكونوا » إلى «وجيها»[2]. « يأيها الذين آمنوا » إلى « جهولا »[3] مع التقرير والسعة المرجوة . «قالوا أئنك لأنت يوسف»[4] ومع نهاية ذلك الأمر والتنبيه والتحدث المحفوظ والاحتياج . « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا »[5] ومع التذكر لأمر تخصيص الحظ النفسانى [١٥٧] وفقد المحرك المعتبر « قالوا : تالله إنك لفى ضلالك القديم »[6] إن الذين آمنوا ، ثم أعوذ بالله من أحوالهم ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، مع وجود الظفر فى الطبيعة فكيف لأن الظهور المحمود هو الذى جزء علة فى كمال مصاحب « إن يَشأْ يُذهِبكم أيها الناس » إلى « قديراً »[7] فكر الضمير فى تجديد ما لم يجب فقال لسان حاله ابود من ونظر فى مقاصد الصدّيق ، فقال أنا الصديق . وتفقه فى مكابدة من لا تنفع فيه وصية الغريب الناصح ، فقال له ومُلّ ثيابك رحمة به ، والحر هو الذى يتحمل فى إقدامه ، ويتحمل فى إعدامه . وإذا صح عنده أن الذى لا يعلمه قد تألم منه ، وناله جور العادة ، وصقله بالمتابعة وجه الدهر الجائر من أجله فيريحه ولو بالانفصال من موضوعه داخل ذهنه رغبةً فى إدخال السرور عليه ، حفظكم الله! ما كان من الشخص المؤخر فقد تأخر وتقدم تأخره قبل تسميته بالمؤخر ،

---

(١) حديث نبوى .

(٢) تمامها من سورة الأحزاب آية ٦٩ : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » .

(٣) تمامها من سورة « الأحزاب » آية ٧٠ — ٧٢ : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما * إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » .

(٤) سورة « يوسف » آية : ٩٠ . (٥) سورة « يوسف » آية : ٩١ .

(٦) سورة « يوسف » آية : ٩٥ . (٧) سورة « النساء » آية : ١٣٣ .

والرجل قليل الحركة ويكاد لا يقدم رجلًا إلى جهتنا ولا يؤخر أخرى . وأما أحمد فكان الذى صرف عنه وبه محمود العاقبة ، وعند الاجتماع يقع الاعلام مشافهة بأمره . ومع هذا انفصل وانصل الإضراب عنه واستصحاب الحال فى ذلك ، والناس ما هم ثمسك ، ولا لسانهم لسانه . والله الذى لا إله إلا هو ما كنت فى أمر كرهته أنت منّى إلا بالله وبأمره إلا فى الأقل . وذلك الأقل إذا نظر فيه لا ينكره إلّا أهلُ الغِرّة بالله . إلى متى عتابُ منْ شَبّت حالُه ؟ وما الذى حملك ياهذا الحبيب الذى يجب إكرامه على استجلاب الأوجال من أجل من لا يتناسب أمره ، وأمره فى ذلك إلى الله ؟ عذرتك والله وما عذلتك ، وكلامك عندى معتبر الجملة . وإن كان يسرك سفرى فأنا آخذ بناصية مركوبه بيد الغبطة ، لولا ما تقوى رعونة بعض الناس لم نجعل بعد قراءة مكتوبك فى خلدى غير الحركة التى يقال معها : لا أوحش الله ، وسلام عليك ، وأستودعك الله ، وما أشبه ذلك . واعلم أنّ الله يحسن لبعض عباده ، ويدبِّره بحكمة البسط والقبض ، ويحفظ حياته الروحانية بالنفس النفيس كما يُدبِّر الحياة الطبيعية فيه بحركة تنفس الرئة والنبض . وبالجملة إن استطعت أن تهنر أخبارك فنعمة وافية والحمد لله . وإن غلب الحال وطال سَبَبُ المتابعة عرفني ننظر فى علاج ذلك وقد نظرت . وإنْ كان خفياً فسيظهره الله بوجه ما فى وقت ما مع شخص ما لا يعرفه أحد منكم ولا يظهر عليه أثر التوقع فى المهمات . وإذا أبصرته ذكرك بقصدك فكان سبباً لقرينة الحال فى الحال . والذى منع الغير أن يجد ذلك فى الأكثر هو بُعْد الشبه . واعلم أن متابعة الجزئيات وتصفح أحوال الغافل عن التقية المفروضة تورث فوتَ الراحة ، وتستجلب ما لا يحمد على الإطلاق ، ووالله لقد ، ووالله لولا ، ووالله ما ، ووالله إذا ، ووالله إن رضى الله عنكم أنا ، والله شاكركم وذاكر [١٥٨] معاملتكم الجميلة بما يجب . وإن كنت مع هذا لا أنفكُّ عن التقصير وغرضى إظهار ذلك بالفعل ، وهذا ما يتعين لى فى هذا الموضع ، أعنى البلد بل الإقليم . ومفهوم هذا صحّ عندى أن الراحة تقع عندكم بالخروج من أرضكم وهماً ، وبالإقامة معكم حقيقة ، ولو علم قدرها ولواحق الهيكل تغلب على مرسوم الهيكل العقل يغتبط والنفس تتفقه ، والشهوة تحكم ، والجسم يفعل ما عول قط المحقق على غير حقه ، فإنه به وله فقط . ولا بُدّ للعارف من بُدّه . حديد التوحيد لا يجذبه من حجارة الألفاظ إلا مغناطيس قوله تعالى : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن » .

الله فقط ! ما حرّكَ اللهُ قلبَ من يحبه إلى مخبر ما وهو بعيد منه ، لأن حقيقة محبوب الله إدراكه الأمور على ما يجب وفى الوقت القريب . وهو أيضاً لا يمكنه أن يهمل الأخرى والأولى فى الله قط ، وهو يحق الحق على أكمل ما يمكن ، ويجعل الشيء فى محله . ومعنى محبوب الله من ثبت خيره فيه وتحقق . صِدْقُ الإرادة سَبَبُ هدى الله القريب أو علامته ، وهدى الله هَديته للأرواح ، وتلك الهدية روح الروح المعتبر . من زَعَمَ أنه ينال حظه من الله بغير حظه منه فقد ظلم نفسه بجهله بالمطلوب . إن نطق العارف بما هو عليه . وعبارته تفيد بالقوة وبالمفهوم وبمدلول الصيغ ، فهو معلوم لفظه ، وإن زاد بقدر ما يقع الفرق بين المدرَك داخل الذهن وخارجه .

وأما المحقق فمعلومٌ أمره إلى الله وحده ، ولعبده الواحد . ولا يمكن غير هذا عقلاً . إذا وصل الصدّيق إلى الشيء الذى يصدق به على الكشف والتحقيق والحصر ، فتصديقه لم يدخل تحت جنس الصديق المتوسط . وإن كان ضد الذى فرض فتصديقه تصديق المتوسط ، وإن كان على بيّنة من قوة تصديقه إلا على الوجه الذى يطمئن به القلب من مشاهدة الأفعال ، ولا على الأدلة المذكورة المشهورة ، بل بأمر هو ذلك الحق ، ولا عين تبصره ، ولا عقل يحصره ، ولا علم يكشفه ، ولا قوة تقدره ، ولا إدراك يخصصه فهو المطلوب الأعلى وهو الذى يفهم القوة من القوىّ ويبحث عن السعادة بالتوطئة الإلهية ، ويكون قلبه من قبيل الشيء المطبوع . وهنا بحثٌ لا يصح مفهوم صناعته بوجه ولا على حال . وشأن الله هو الأولُ والآخر على الإطلاق ، وهو الظاهر والباطن فى الأكثر ، وهو الكل بما هو ذلك . ولا حول ولا قوة إلا بالله فى جملة ما هو عليه . إلى الله يصل العارف ، وبه يعلم العالم ، ومنه ينفق المحقق ، وإليه يستدل الباحث ، وعليه يسلك المستقل ، وعنه يخبر المولّه ، وله ينكر الكافر ، وبه يكفر ، وهو الظاهر فى كفره لأنه بالوجود الصادر عنه . لا إله إلا الله فقط .

الله فقط ! النقطة سر الحروف ، وسبب الخطوط وباطنها ، وله نسبتها ، وهو النسب الصحيح الذى يبلغ إلى السرّ ويدل على الوتر ، وشاهده الموجود فى الغيب يشير إلى الوحدة به ، وبرهانه فى الشاهد [١٥٩] يدل على آية الجمع فى مواقف السمع ، يقول من لم يوتر فليس منا . النقطة وجود

مفرد تدلُّ على آنية أنا وآنية أنت وهوية هو .. وهذه أسماء موجودة بعد وجودها ، ورسوم بادية عنها حدود تفتقر لها وتسترها بالتصريف وتظهر بالتشريف . النقطة تشير إلى وحدة المحقق عند سلب الإرادة ونيل المراد ، وحذف مسافة المواجد ، والأشراف وقطع التقسيم والاشتقاق .

الله فقط ! الله هو الذى وَجبَ له الوجودُ والوحدانية والكمال ، ووجوده ينبنى على نَفْى التشبيه ، والتشبيه ينبنى على إثبات التمييز والتغيير والتأليف ، والوحدانية تنبنى على نفى الشريك ، والشريك ينبنى على الاتصال والانفصال والحلول والانتقال ، والكمال ينبنى على نفى النقائص ، والنقائص منها ما يمنع الأفعال ، ومنها ما يمنع الكمال ، ومنها ما يمنع الإدراك .

الله فقط ! مَنْ طلب عناية الله بالله وجدها . ومن طلبها منه ب ع وصلها بمجموعه المدبَّر . ومن اجتمع حتى يجدها بجوهره وجدها بالله ودبرته حقيقتين . ومن استند ولم يفصل وأصله صحيح التوجه ، وآنيته سالمة امتنعت فى حقه ، لأنها كانت تكون عبثاً . والله عز وجل هو الذى إذا صحب الصفة من جهة فى اصطلاح بعض الناس لا تصحّ إلا وهى حكمة ، ولا تصحُ تلك الحكمة إلا وهى ذات ما ، وتلك الذات لا تصحُ إلا به ، وهذا الرابط لا يكون إلا من ذاته ، ولا يكون ذاته بل هو المعلوم المحصل المتوجه . فاعلم ذلك !

الله فقط ! المحقق لا يُقَسِّم الوحدة ولا يَنْسُبها لغير الله ، ولا يصرفها لسوى الواحد الذى ينوب هذا الجمع المحقق هو الذى لا يلحق بالتحقيق ، ولا ينسب إلى الجمع والتفريق . الوحدة لا توجد دون الذات ولا تنصرف لمعلومين فتستتر بين ذاتين ، وتجعل من مرتبة الإحاطة بوجود المقامين ، فإن الذات والوحدة مقامان ، ووحدة التوحيد لا يطلق عليها ذلك .

الله فقط ! العلم يصرف ويثبت وحدة التنزيه إلى الموجود . الوحدة وحدته ، والموجود هو والوجود له ، وبه الوحدة لا توجد دونه ، ولا تنسب لغيره . الوحدة لا تشير إلى مقام معلوم دونه ، ولا تدل على سواه ، ولا تثبت مع وجود الأوهام ، ولا توجد دون المقام . الوحدة به والكثرة له والأسماء تنصرف إلى الواجب ، وتجمع بمعلوم الجمع الواحد فى الشاهد والغائب .

الكثرة المنسوبة إلى الوحدة تشير إلى جمع الأسماء والمسميات لديه وتصرف الإحاطة إليه . وقوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » جمع الوجود بأسره وأتقنه لنفسه وهو الموجود والوجود والسر والجهر والشاهد والغائب والمشهود . قوله : « وما رميت إذ رميت » الآية دلت على ظهور المقام الجامع بعلوم المقامات المصروفة إلى الوحدة المنسوبة له ، وهو الموجود والعالم والعلم والحامد والمحمود .

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإثبات والتنزيه والجمع والتوحيد وسكونه إليه بقوله [١٦٠] «لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ». الجمع لا يحجبه الأوقات والمواقيت والمواقيت ، ولا تستره المرسومات ، ولا تستقل دونه المعلومات . الجمع الواحد لا يغيب عن الظاهر فيعدم فيه ، ولا ينتقل في الباطن فيفقد منه . الجمع لا يختفي له الوارث ، ولا ينزل له إلا في الجمع . وجود يجود بعلوم الوصل ويجمع الفرع بالأصل ، وهو عهد التمام الذي يصرف النظر إلى وحدة المشهود في الشاهد ، وينسب الوحدة إلى الواحد .

المحقق لا ينصرف إلى الماضي والمستقبل فتطلبه المواقيف بلواحق الحجب المرسومة ولا يتشوف إلى الوقوف في مواقف الحدود المعلومة . المحقق لا ينتقل إلى معلوم دون معلومه ، ولا يبصر في جمعه وتفريده غير مقامه ، وما دون هذا التحقيق فهو وهم لا يجوز مع برهان التوحيد ، وتلبيس لا يخرج عن منابه .

الإحاطة : هي التي تنصرف بالتنزيه إلى الله ولا يستدل عليها بدلالة مختلفة الحدود ، وهي حضرة الجمع الواحد المتفقة من جميع جهاتها بإيقاع التحقيق بعلوم الحق حق لحق ، والوهم مصروف عنه ، والأول هو الآخر . تجد الوحدة التي لا تضاف إلى غيره ولا تعرف إلا له ولا تنصرف إلى الأبد دون الأزل ، ولا إلى الأزل دون الأبد . المحقق بالحق لا ينحجب عن الحق ، ولا يحكم إلا به ، وله ، وهو الذي يصرف الحق إلى آنية الحق ، وينسب وحدة الذات إلى التنزيه من كل الجهات . ولهذا المقام أشار المحقق بقوله : « كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » .

الله فقط ! هو الأول من حيث هو الآخر ، وهو الظاهر من حيث هو الباطن ، وهو بكل مدلول منها هو ذلك . ظهر التنزيه وبطل التشبيه ، لأن الجسم ما بين نهايتين وعدمين ، لأنه هو الذى كان فى النظام القديم يشمل كلية الممكن العام . فخرج من العدم والجواز إلى الوجود المشخص والثبوت . ويمكن منه وفيه أن يرجع على ما كان عليه ، فهو الذى لا يلزم من فرض وجوده وعدمه مُحالٌ . وهو واقف من صفة نفسه على حاشيتى النقيض . والسلام على من اتبع الهدى !

الله فقط ! قَدِّر أن الوجود كله صورة واحدة محيطة بظاهره وباطنه ، وأن باطن تلك الصورة محيط بظاهرها ، وظاهرها مواز لباطنها ، وأن تلك الصورة المحيطة بالكل مشتملةٌ على كل صورة ، ومحتوية عليها لا تشذُّ عنها صورة واحدة من صور الموجود ، لا ظاهرها ولا باطنها . وقدِّر أن الوجود كله مشحون صوراً بعضها فى جوف بعض ، ومجاورة بعضاً ومباينة عن بعض ، ومنها ما يكون بعضه فى جوف بعض صورة أو صور ، وبعضه محتوياً على صورة أو صور ، وكذلك المجاورة والتباعد . وقدِّرَ أن فى مركز ظاهر الوجود نقطة صورتها صورة المحيط ، ونسبتها إلى كل نقطة من الوجود نسبة واحدة ، فهى مقابلتها كل نقطة بذاتها ومحاذاتها لها متشكلة بشكلها ، وتلك النقطة أيضاً متشكلة بشكلها هى لكن من حيث الوجه الذى [١٦١] يليها منها فقط لا من كل وجه لهذه النقطة ، فإن هذه النقطة مقابلة بذاتها لكل نقطة وليس كذلك سائر النقط ، لأن كل واحدة منها لا تقابل بذاتها سوى هذه النقطة التى فى عين الوسط . وإن حاذت غيرها فبوساطة هذه النقطة التى لها محاذاة جميع النقط بذاتها . وقدِّر أن الصورة المحيطة بجميع الصور لها اسم من حيث هى صورة فى متصور قائم بذاته وهى غير قائمة ، وللمتصور من حيث هو موصوف بها اسم ، ولما ارتبطا ارتباطاً لا يصح انفكاكه أبداً دخلت العُمْرَةُ فى الحج إلى يوم القيامة . لم يصح الإخبار عن مطلق الصورة إلا ومطلق المتصور صحبتها ، ولا عن محيط المتصور إلا والصورة صحبته . فالمتصور بالصورة يسمى بظاهر الصورة ظاهراً وباطناً ، ويحكم عليه بكل حكم قبلته الصورة من إطلاق وحصر وغيبة وحضور وأحدية وكثرة وجمع وتفرقة وسذاجة ولون وحركة وسكون إلى ما لا ينضبط كثرةً من الأسماء والصفات . فالصورة من حيث هى جميع التعددات والتنقلات والتحولات والتناصل ، والمتصور من حيث هو لا من

جهتها ألا وصف ولا نعت ولا اسم ولا رسم ولا حدّ . وإن كان له شيء من ذلك كله ولكن فبأول مرتبة صورية إطلاقية ، فله الإطلاق والأحدية والجمع والسذاجة والسكون والثبوت وشبه ذلك . وللصورة لا من حيث هي لكن من حيث يفسد قيامها به نقائض هذه ، ولا حديث عنها ولا عنه إلا بقيد ارتباط بعضها ببعض ولو فى أول مرتبة من مراتب الارتباط نقائض تلك ، وهى الحضرة والكثرة والتفرقة والألوان والحركات والانتقالات لكن لا يقع الحديث أبداً إلاّ عنهما معاً وإن كان الكثرة والتعداد وأخواتها . فتأمل كل كلام منطوق به : فأىّ القسمين غلب عليه فاحكم به ، فان كان الكثرة والتعداد وأخواتها فاعلم أن المخاطب به هو الصورة والخلق ولمتصورها وصفها ، وإن غلبت الوحدة وأخواتها فالمخاطب بذلك المتصور والحق . فإذا رأيت التعدد والتنقل والحركة والولادة فذلك للصورة والخلق ، وإذا رأيت الوحدة والثبوت ولم يلد ولم يولد فذلك للحق القائم على كل نفس بما كَسَبَتْ . فكل شيء هالك للصورة والخلق إلا وجهه ، لأن الأعراض وهى الصور لا تبقى زمانين أصلا ، بل تتبدل فى كل نفس إما بمثل أو ضد أو خلاف ، لأنها لذاتها فانية . وإنما المسمى بقاء يغاير توارد الأمثال فى كل نفس ، فيظن أن الثانى عين الأول وليس كذلك ولا ينبغى ذلك ، لأن القائم به كل يوم هو فى شان . يريد تعالى كل نفس فيرد المثل بعد المثل ، ولا يشعر بذلك المحجوب ، فيظن أن ذلك الأول باق . وهيهات ! لا بقاء إلا لله وحده ، والفناء لكل ما سواه بالذات فى كل نفس ، والصورة الجزئية تبقى بتوالى الأمثال ، وليست أمثالا تماما فإن مثل الشيء على التمام نفسه فقط . فلو لم يكن بين الأول والثانى من التغاير إلا أن زمانيهما متغايران لكفى ، فكيف وثمّ تغايرٌ يظهر أثره على [١٦٢] التراخى : كالانتقال من طفولة إلى شبوبة إلى كهولة إلى شيخ ، من بلح إلى رطب إلى تمر . وأما مطلق الصورة فبقاؤها بعد الخلوّ عن صورة ما سواء كانت أمثالا لها أو متضادات أو متغايرات . المقصود عمران مطلق الصورة الوجودية صوراً . فالوجود واحد هو القائم بجميع الصور ، عين الخالى عنها على التعاقب ، والصورة هى الهالكة دواماً المتعاقبة دواماً كائنةٌ بائنة ، شاهدة غائبة ، قديمة حديثة ، موجودة معدومة وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الله فقط ! أشهدت الماهية المنسوبة القائمة بالماهية الأصلية القائمة على كل نفس بما كسبت منها أنها لها من صفة وجودها حال وجودها وإيجادها ، وأنها مقيدة بها ، وذلك صورة لهـا . وتلك لا يلزمها منها إلا ما يلزم من المقوم والمتمم والمخصص فقط . وزعمت أن الماهية المطلقة الوجود واحدة من كل الجهات ، والمقيدة واحدة من جهـة معقولها الكلى ، وتقال على كثيرين بالنظر إلى مشار مشار ومعلوم معلوم . ثم قالت النسبة القائمة المحاطة من المطلقة للمقيدة إن كانت وجودية فهى هى ، وإن كانت غير ذلك فلم تظهر المقيدة من حيث ظهرت ، بل الظاهرة المطلقة وظهورها لها . وهذا فيه بحث وليس بالقليل . وإن كانت وهمية قريبة من الوجود وبعيدة من العدم فيكون من قبيل الشيء الذى تنصرف لوازمه إلى ذاته وتعود إلى ماهيتها بالعَرَض وتبعد عنه بالوهم فى المعلوم المفارق وفى المدرك بالطول والعمق والعرض . وإن كانت واحدة من حيث الماهية ، أعنى أنها لا يمكن فيها بمـا هى ماهية إلا أن تكون فى الوجود وحدها فهى الوجود خاصة ، لأنه لو كان للوجود ماهية غيرها لكان يلزم أن يقال للوجود ماهية وماهية بما هو موجود ، أو ماهية لا كالماهية ، أو ماهية الماهية ، وهذا فيه ما فيه . أو تقال بإزاء العدم ، أو بالمعنى الذى لا يقال فيه إنه لا من قبيل المعدوم ولا من قبيل الموجود ، أو تقال بإزاء الموجود بالوجه الذى لا يقال فيه عَرَض له الشيء أو عرض فى الشيء وما أشبه ذلك ، أو يتوهم أنها ثابتة فى المكان المقدَّر الذى منه فى الذهن معنى ما يعرض له الوجود ، فيعود بذلك العارض موجوداً إما يشار إليه ويُعوَّل عليه ، ويتطرق إليه الوهم ، ويدل عليه الدليل ، أو يقال إنها أعم من الوجود أو الوجود أعم منها . وهذا كله لا يصح ، إذ الحق لا يكون إلا المعلوم الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته ، وهى به ماهية . ففيه وبه أدركت ، وهو أظهر لاحق لسبتها . وهذا كله عسير التحصيل من جهة العبارة ، ويحوم عليه ضمير العبد بحركة الإشارة المستلزمة لقوة صدقه بوجه ما لطيف .

وهذا كلام لا يسعى فيه الكلام ، ويسعى فيه الرمز والإبهام . وهو إن كنت أنت بما تجد فقط فأنت خبرك فقط ، لأنك أنت أنت بذلك ، فأنت خبرك بحسب هذا القياس [١٦٣] وحكمة هذا القياس . وإن كنت خبرك فأنت أنت لكنك غير خبرك ، فافهم وافعل بمفهومه وبمثله لكنك خبرك فكذلك ، لكنك ذلك كله ، وذلك التبدل ، لكنك البعد الداعى ، والقرب الساعى ، والقصد الراعى ، والوهم الناعى ، والعلم الداعى ، وهو الخبير وهو البصير ، وهو القليل

وهو الكثير ، وهو أن لا وما يجب بعدها وهو أن لا وما يلزم عندها ، وهو أن والتالى ، وعن العالى ، وهو الشمائل المنحطة ، وهو الخط والخطة ، وهو الشكل والخط والنقطة . وهذا كله توحيد التفصيل لا توحيد التحصيل .

وسمعت الماهية القيومية إشهادها بلسان صاحب حالها لا بلسان حالها ثم بهما أو بما أو هما أو بما أبهما فأشهدتها وشهدتها بأنها الشاهد والمشهود منها ، ثم تفقدت الأمر فى الجميع ووجدت الشهود عندها وما شهد وأنجر بها عليها عندها ، والشهادة الوهمية جعلت ما قبلها وما بعدها ، والحقيقة شهدت برفع القبل والبعد والقرب والبعْد ، فشهدت بضد تلك الشهادة أن لا شهادة ، ورزقت الشهادة برفع الشهادة ، وماتت بمعنى استحقت على هذه الشهادة ، وقالت لا يصح وهم الشاهد مع الغائب الشاهد ، ولا يثبت أكثر من واحد صح برفع الواحد ، ثم جمعت أوهامها وفصلت إيهامها وإبهامها ، وتذكرت ما رتبت فى هذا العقْد والحُجّة ، وما بحثت فيه ، ثم فكرت فى الذى حصلته بإزاء ذاك وهو من وراء ذلك لا من قبيل ذلك ، ثم وجدت الحق وأشهدت بالحق الحق وقالت : الوجود هو الحق ، وهو يقول الحق وحده ، وما سوى الحق باطل . ولا يقول هذا القول ويكون هذا الحق إلا واحداً ، ولا تكون وحدة هذا الواحد من قبيل الوحدات المذكورة فى الصنائع ولا الموجودة فى الضمائر والطبائع ، بل هى وحدة بعد مفهوم الوحدة ، وهى تقوم القليل والكثير فى معناه بما هى ماهية فى ذلك ، لأنها ذلك . هذا بالقضاء الوهمى عليها ، وبالمتوسط الشاكر . فهى وحدة مستدعية للذوات ، وتلك الذوات ذات ، وتلك الذات تلك ، ثم وجدت ما تقول وما تعلم وما تفعل من صفة نفسها وضد ذلك كذلك ، وصفة النفس نفسها ثم وجدت تمزيق صحيفة الصواب والخطأ ، وعاينت فى العلم عين الخطأ ، وعلمت كيف اختلفت بذلك الخطأ .

وقالت تمزيق الحجة هو السلوك على المحجة ، وجاء علم بغير علم ، ومعلوم قبل عالم . وكان الوجود الجامع المانع قد عزم أن يشهد عليها ، وكان الكتاب المذكور قد عزم على أن يستقل ويرفع إليه ويحكم بمقتضاه عليه . فلما سمع منها هذا منع الحكم والشهادة ، وأنكر الأصل والزيادة ، وعلل الضرر والسعادة . والحق لا يمكنه إلا الحق ، فقال الحق لأنه الحق . فالوحدة تقبض ، والكثرة تبسط ، والحق بعد خلف وراء ذلك كله .

إيه ! هذه الماهية قد هلكت أو كادت ، وتوحدت أو كانت ، وقد ظهرت ولم تزل . وهذا

الحق جد بما يجب له ، وهو كما يجب له ، [١٦٤] وعلى ما يجب له . وكلامنا هذا عقب الاستحقاق لا بعد الاستغراق ، وفيه تسامح وتجاوز ، وتقديم وتأخير ، ومُفَصَّل ومجمل ، ومخصص ومهمل ؛ وفيه أيضاً أسباب الأحوال الصالحة والمتاجر الرابحة والأخبار الراجحة والتدابير الناجحة ، وبالجملة هي مغناطيس النبيه ، ونتيجة دعوته ، وقطيفة الطالب ، وطبيعة غبطته . من تعلم ما ذكر حسبنا ذكر في هذه الحجة القائمة على أهل المحجة والمحجة يكتب شهادته ولا يكتبها ويستدعي سعادته ويحكمها ، ويزيل ما يريد منها ، ويستثني ما شاء ، ويستعذر عما شاء ، فله ذلك وانصرف بحاصله عنها ، ويضمن مفهوم نصيبه منها . وبهذه الشهادة يظهر المصيب والمخطيء ، ويتميز المعطىَ من المعطِي . شهد ذلك تلك ذلكم أنا ومفهومه إن كان لا إلا أنا فلا إلا هو ، وإن كان لا إلا هو فلا إلا أنا ، وإن كان لا أنا إلا بما أنا فهو المستقل فقط ، وهو هو ، وهو الواحد . وإن كان أنا بمعنى أنه هو أنا في وقت ما وفي حال ما وباصطلاح ما فأنا المستغني ، ولكنه بوجه ما ، وبهذا الرأي فهو أنا بوجه ما ، وبهذا الرأي فهو أنا بوجه أكمل ، وأنا هو بوجه أنقص . وإن كان الأمر في أنا وهو هو سبب نيل معلوم ما يمكن به أن ينفصل الحق ويقطع سبب التلوين ويوصل حبل اليقين فأنا القابل ، وهو العارض ، وأنا العارض ، وهو القابل ، وهو الأول ، وأنا الأول ، وهو الآخر ، وأنا الآخر ، وهو الظاهر وأنا الظاهر ، وهو الباطن ، وأنا الباطن ، وهو باطن الباطن ، وهكذا . وأنا المرتبة المفردة ، والمضافات المعددة ، والأكوان المبددة ، وهو الواحد في كل واحد من ذلك بما هو ذلك . فأنا عن ، وبعد ، وهو هو . فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن بوجه أكمل . وجملة الأمر إما متابعة تكشف العين بالعين ، أو دائرة تدور على نقطة البين ، أو صدق سكينة أو قسط مقاومة أو حفظ مشاهمة . وإن كانت البدئية تقوم بجهة وجهة ، فالتقديسات بعدُ . وإن كانت البدية من جهة فقط بجهة فقط فالغرة هناك . وإن تلاشت في الوحدة المذكورة بالواحد المذكور فالكمال مرسل . يا هذا ! اضطرني الحال في هذا الموضع إلى النطق بكلمة هو قائلها : أنا العليم بخفيات الصدور ، أنا الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويثيب على كظم نفثات المصدور . والذي حملني على ذلك متابعة الفكر في حال المنظور فيه ، وفي الوهم الذي هُمُ الناس فيه . فسبحان العسير اليسير ! فعليك بالقسط والصعود ، والنكت والسعود ، ثم المضمار والعجائب ، ثم الأخبار والغرائب . ومع هذا أنا وحقه عبده بعبودية ، بل بعبودة تمتثل أواصر قسط ماهيتها بالأمر الذي يجمع على أمور وفي نفس الجمع على أوامر تهمل

للعارض وتضحك ممن يجد الوجود العارض ، وشعورها به يغنيها فيه بالذى يغنيها عنه ، وبذلك يغنيها عن التعريف ، وبعضها من التحريف والتوقيف وذلك فى ثانية القصد من دقيقة الوجد [١٩٥] من درجة السعد فى ساعة المجد فى أول يوم الحمد من جمعة الفرد ، فى شهر الصدق ، سنة الرزق ، فى قرن المقارنة فى تاريخ الموازنة ، بل فى ثانية سلب الزمان ودقيقة حذف المكان ، من درجة عين العيان ، فى ساعة لا يسع فيها إلا واحد ذلك مع ذلك برفع ضد ذلك ، فى يوم كان مقداره الأزل ، وقدره الحضور مع من لم يزل ، مما لا يعدون ، ولا لمثله يستعدون بل يصدّون ويستبعدون ، من جمعة إبطال العدد ، فى شهر رفع الأبد ، سنة إهمال الأمد ، فى قرن قرة عين الخلد ، فى تاريخ تبعية مظهر هذا المدد ، المخاطب بقوله « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حِلٌ بهذا البلد »[1] فى ثانية دقيقة درجة ساعة يوم الجمعة شهر سنة قرن تاريخ هجرة سيد الواصلين ورئيسهم وأسوتهم وشفيع مرءوسهم . فمن عنده شهادة يؤديها له لبه ، « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه [2] » ، ولا يكتب بمقتضى ما يسمع ، بل بما يتصور ويجد ويشعر ويشهد بالخبر والاسم لا بالضمير والرسم ، وقد أرشد إليها ويرجى له إذا أداها أن يموت عليها .

قال ذلك وكتبه واعتقده وحضَّ عليه وأرشد إليه عبدُ الحق ، تصحيفه بالصدق الذى يشهر بابن سبعين — فتبين . وسماه والده «محمداً» بالاسم العادى ، وسمى هو نفسه بـ « الآخر الأول» لأجل نصيبه من الآخر الأول .

إيه ! الله فقط لا شك فى ذلك .

والحمد لله وحده

---

(١) سورة البلد آيات ١ — ٢ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٣ .

ملاحظات على بدّ العارف

كتبها ابن سبعين >

[تابع ٢٠٩]   بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً .

كل مكتوب مكنون فى كتاب «بدّ العارف» يعجز عن فكّه العليم بفك المعمّى — أفكّه لك يا من حرّك لـكتب « بدّ العارف » حتى يقع الاسم على المسمّى ، ويشهد شاهد الأشياء ومنزّل السّور ومشبع الأحشاء ومنشئ الصّور -- فذلك إذا أنت استقمت على طريقة السّلف واتجرت فى أسواق المعارف بمالك لا بالسّلف ، وخلصت نفسك من شرك العاجل ، وقويت نفسك فى طلب الآجل ، وأسعفت باعث بشير المخبر البشير فى مطالبه ، وشفعت وارث شفيع المحشر فى مآربه ، وذُقْتَ بلسان حالك الثانى من طيبات ملك هويتك ، وجُلْتَ بإنسان بالك الباقى من مغيبات كُنْه آنيتك ، وتصرفت فى السكون بالقدرة المقيدة ، وتحركت بالعون والهمة المؤيدة ، ودخلت على باب الجنة المعجلة ، ورحلت لبواب الجنة المؤجلة ، ويغبطك خبرك المنبعث بفرعه وأصله ، ويخصك شرفك المكترث بنوعه رفصله ، وتسمع فى سرك بأذن علمك . المرء مُجْزَى بعمله إنْ خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً . وتحقق شروط الكمال وتشهدها قبل الشهادة الخاصة شهادة المشيع الكاشف ، وتخلص نفسك المنسوبة لك خلاص المخلص المكاشف ، ويضمحل شخص شهوتك ويتلف ، وينمو حِرْصُ همتك ويخلف ، ويفاض عليك البشر حتى تكاد تشير بمدلوله حركات بشاشتك ، وينشدك البشير أنا البشير رسول حشاشتك . وشأنك لا تغشاه شُبْهَةٌ ولا تعشاه ، وحاشاه حاشاه حاشاه . ولعلك تقول : يا هذا ! إنّا وإن لم نحصل الشروط كلها نقدر على بعضها ، وأنت قد ارتهنت وزعمت أنّك تفيد شروح ما زعمت وأشهدت الأوّل الحق بدّ الكمل وبدّ العارف والمعروف

والمعرفة بذلك على نفسك بذلك ، والزعيم كما تعلم [٢١٠] غارم ، وأنت أمين الله على نفسك إن كان تعلم أنى عدمتها الآن كلها أو بعضها . فإن كان عدمتها كلها فيتحل ارتباط شرطى مع مشروطه على الإطلاق ، وإن كان عدمت منها بعضها فقط فأنصفنى والزم نفسك ما يلزمها ، وقابل البعض بالبعض ، ونزّل المِثلَ على المثل وأعطِ بقدر الذمّة ، فإن حَبْلَ الإنصاف عند الحكماء لا يُبان ، وبالجملة كما تدين تدان .

فإن قلت ذلك كما بلغني أنك قلته نرسلك فى الحين بالجواب ، ونجيبك بالسلب لا بالإيجاب ، ونَـكُبُّ كواكب الإسعاف فى فك الكتاب . وإن أنصفت وسلمت ، يصلك الشرح قبل أن تبحث عن شأنه ، ويرد عليك مقصودك فى الحين قبل أوانه ، مثل أوّله الذى كان مكنوناً فى مكانه . والشروط التى ارتهنت فيها أول الكتاب كان القصد بها أن تكون محصلة على أكمل ما يكون . وهذه وإن كانت حجة جَدَلية فهى بحسب معاملة أهل زماننا حكمة صالحة ، وتجارة رابحة . وَوَحَقِّ شديد البطش الشامخ العرش ما يمنعنى من بَثِّ الأسرار إلاّ تقلب نفوس الأشرار ، وسوء تصور أحلام الأخيار الأحرار والأبرار . ولو أنصفنى المشار إليه ــ بتدبير الرعية ويجمعني مع خُصَمائى فى مدلول كلامى متى ما أشكل عليهم ، ويحض على الكلام الصناعى بمحضر من يجب ، ويحكم بالحق على المخاطِب والمخاطَبِ ــ لأسمعت الطلبة من المعانى العجيبة والعلوم الغريبة والحقائق المكنونة وغير المكنونة ، والفوائد المخزونة المصونة ما يعجز عن تفهم مفهومه لبُّ الحكيم النحرير ويحنُّ إلى مدلوله قلبُ الخسيس الشرير . ولولا العهد الذى تتخذه همم النفوس السّنية وتمشى به على الطريقة السنيّة كنت نظهر خاتم التصريف الأول الذى إذا جعله الكاتب فى يد عزمه ، ويخبر فيه بوهمه وحزمه ، ويقول ثالثة ثم يضمر ثانية ، ويقول واحدة ثم يضمر ثالثة ، ويقول رابعة ثم يضمر خامسة حتى يسقط له فى خَلَده الشّرحُ ، ويهجس له فى سِرّه الفتح ، ويقرأ سورته تلك على نفسه ، ويُبصر مع ذلك صورة تمثيله النزوعية مُحبَّبة أنسه ، ويكتب عند ذلك ما شاء من نظم ونثر ، ويأتى بالأمور العجيبة فى كل ما ينتحله ، ويشهد له جميع الحكماء أنه يمين البراعة ولسان البلاغة ، ويسلم له فى أدبه الأدباء ، ويغبطه فى خطابته الخطباء ، ويصح عند الكل منهم أن أصول ألفاظه غُذِّيت بلبن البَيان وأنها من غير شك ولا ريبٍ أسُّ فصاحة قُسٍّ وسَحْبان . وإذا نظر الناظر

فى طرسه يبصر فيه وبه ما شاء ، فإنه مرآة الحكم والأدب ، ومشكاة الأمل [٢١١] والأرب . ويحق أن يقال له : يأيها الخطيب ! كلامك إنشاده يدهش الشايب والناشى ، وقولك يفوق القول كله إلا المفصل بالبرهان والسماع الفاشى وينشد :

نُعماك أعظمُ لا ما تُبرِزُ الفِكَرُ أما القوافى فقد سابتك والعِقَرِ

وبالجملة ! خواتم أهل الحق لا يقف لها إلا المجال العقلى أوالشرعى أو العهد المذكور قبل ، وينتج نتيجة الأسماء العامة ، فإن لكل اسم مرتبة خاتم ، ولكل خاتم كلمة ، ولكل كلمة مشار ما ، ولكل مشار ما سرٌ ، ولكل سرٌ قصدٌ ، ولكل قصد أمل ، ولكل أمل وقفة ، ولكل وقفة إذن ، ولكل إذن استدعاء ، ولكل استدعاء تكليف ، ولكل تكليف تعليم ، ولكل تعليم شك ، ولكل شك تنبيه ، ولكل تنبيه بيان ، ولكل بيان تبيين ، ولكل تبيين قرار ، ولكل قرار تقرير ، ولكل تقرير تقدير ، ولكل تقدير مشاهدة ، ولكل مشاهدة تصريف ، ولكل تصريف حد ، ولكل حد تعجيز ، ولكل تعجيز فتح ، ولكل فتح خطاب مدلول ، ولكل خطاب مدلول حكم ، ولكل حكم سَفرة ، ولكل سفرة شأن ، ولكل شأن وحدة ، ولكل وحدة وسيلة ، ولكل وسيلة دعوة ، ولكل دعوة توجه ، ولكل توجه صنائع ، ولكل الصنائع صورة ، ولكل صورة سورة ، ولكل سورة قيامة صغرى ، ولكل قيامة صغرى انفصال ، ولكل انفصال تبدل ، ولكل تبدل تجديد ، ولكل تجديد اجتماع ، ولكل اجتماع قيامة مخلصة غير القيامة المعروفة ، ولكل قيامة مُخلصة شروط من التى تقدمت ، ولكل شرط من الذى تقدم سَفرة ثانية ، ولكل سفرة ثانية ثالثة ، ولكل ثالثة رابعة ، ولكل رابعة خامسة ، ولكل خامسة سادسة ، ولكل سادسة سابعة ، ولكل سابعة جنة ، ولكل جنة ماهية ممتدة مع عرضها وسنة منحطة عن فرضها ، ولكل ممتدة بحسب الطول والعرض والعمق جهنم نازلة آخر اللواحق وأول الظلل ووسط الذل ، ولكل ذلك خطوط مشبهة ونقط مركبة وأشياء بعد هذه سبعة لا نذكرها لشدة ظهورها ولكونها ممنوعة ومخوفة . والجميع ما بعض الصنايع المذكورة قَبْلُ حضرةٌ وسريرة ودرجة رفيعة وأشياء ثلاثة مخزونة ، ووسيلتها ومفتاحها فى المنوطات ، وبوابها فى عالم الصديق ، والإذن فى الاسم الأعظم ، والتنفيذ بيد المسمى الأكبر عز وجل ، والشفيع موجود فى كل رتبة تقدمت أو تأخرت لمن تبصره

صلى الله عليه وسلم . فسبحان الذى يُدَبِّر الأشياء ويديرها بالتقديم والتأخير والجبر الذاتى والاستطاعة العرضية ، وبيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجعون . ومع هذا مَنْ ذا الذى يفهم تدبيره إلّا إذا ألهمه الملهم ؟ ! فانظر لنفسك يا غافِلاً عن شأنه ، وتدبر بُدَّك ببدّك فى بُدِّك الذى [٢١٢] بيدك واحفظه ، فانه تاسع كتاب وقع فى العالم ، وإن كان لم نغتبط بتأليفه ولا أودعته من الأسرار إلا القليل ولا تتخلق بأخلاق الذى يذم مؤلفه ويتبع سواه ، وهو مع ذلك كله يقول إنه يهواه .

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذى قصدناه ، فنرجع فنقول : ليس لك من الأمر شيء ، وليس لك على ما تطالبنى به ، وليس علىَّ هداك ولكن الله يهدى من يشاء ، وليس لنا من الأمر إلّا مرتبة العبودية خاصةً ، ولكن نتكلم معك بقدر الاستطاعة ، ونسأل الله البراءة من الشناعة ، وخير الأعمال ما قُصِد به وجهُ الله تعالى خاصةً فإن الإخلاص أصل النجاة ، وعمدة الرفعة والجاه . قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : إنى لا أقبل عَمَلاً أشرِكَ معى فيه غيرى ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشريك. فخذ نفسك بتحصيل ما نرسمه لك ، وأظهره على عوالمك كلها وتكون من السعداء وتظفر بالرشاد المحض إن شاء الله تعالى . ومتى ما يقدح فى قلبك بارقُ خيرٍ فقرّه وخَلِّصْهُ من شوائب الرياء ، وعجل بتحصيله ولا تتشبه بالذى تخلف عما نواه ، وسَوَّفه وهمه بوقت لعله لا يراه ، وبادر إلى كسبه فعسى يثبت الإخلاص فى أثنائه ، ويحصل الثواب عليه إلى حين ابتدائه ، واصمَدْ بتركيب التحقيق ، واعلم أن ما من عليم إلا وفوقه عليم ، وما من حكيم إلاّ وفوقه حكيم ، وفوق الكل الحكيم العليم ، والعلماء يتفاوتون فى السعادة والصعود : فمِنْ مُوَفٍّ ومِنْ مُقَصِّر ، ومن عاشٍ ومن مبصر. وها أنا أفيدك أنموذجاً تنتفع به بحول الله تعالى . فإذا استوفيت شروطك كلها يتبين لك جميعُ مافى الكتاب المذكور من الألفاظ الوحشية واللغات الفارسية والحبشية ، ونفسر لك مجمله ونخصص مهمله ، ونظهر الغائب المحجوب بنصّه ، ونجمع الخاتم المنسوب مع فصه .

فصــــل

يا هذا ! كتاب « بُد العارف » جمعتُه من مذاهب المراتب الخمس المذكورة فيه ، وتكلمت عليها من نفسى. وأنت تعلم أنى لم أمتحنه ولا بَيّضته ، فإنك كنت تضبط الأصل عندك ، وتدفع

المواقف خاصة . وفى كريم علمك أن الكلام المتقدم يستعان به فى التأليف على الكلام المتأخر . وأمليته لك من صدرى كما جرت عادتى كلها ، وكان العمر سنّ الشبيبة ، والآن هو آخرها أو قريب من آخره . وكان الخاطر مختلف الأخبار فاقبل العذر فى ذلك أنتَ ومن يبصره. وقد عرّفتُكَ مشافهةً أن المحقّق يضبط أشكال حُروفه بنوع آخر بحكم ما فى وقت ما لغرض ما لا يعرفها إلاّ هو أو من يخصه بخلاف ما هم الناس عليه ، ونبهتك على ذلك . وصناعة هذا الكتاب صَعْبَةٌ ، فإن الكلام يدور فيه ويتداخل والمقرب يكلم كلّ مرتبة من نوعها ، ثم من قوته فيها ، ثم يتكلم بحاله وشأنه ، وكلامه الخاص به لم يكمل ولا يحل أن أكمله لعدم إنصافكم [٢١٣] وقلة قبولكم حتى تصلح النسب ويدنو السببُ .

فصـــل

ياهذا ! كلُّ ما تقدم فيه — أعنى فى « بُد العارف » — هو المتأخر ، وكل ما تأخر هو المتقدم ، وكل ما يختلف فيه يتفق إذا كرر ، وكل ما يتفق يختلف إذا صُرِف .

فصـــل

يا هذا ! جميع كتابى « بد العارف » من السفر مائة مسئلة ، ومن المنوطات ثلاثة ، ومن فوقها مسئلة ، ومن الحبل مسئلة من كل مرتبة . ولم نثبت فيه من الصنائع المذكورة شيئاً غير المسائل المحاولة . فما وجدْتَ فيه من كلام موجَّه محتَمل المدلول يشترك مع الصمّ فى الصنائع ويخالفهم فى المحصول — اعلم أنه من التعليم . وما وجدت فيه من كلام يخصُّ المتكلم من ذاته ويحضُّ على رجوعه على جوهره ولا يثبت ويفيد لغيره — فهو التنبيه . وما وجدت فيه من حق ظاهر فى قوة الصنائع ، وباطن فى الحروف وفيك قوته قبل خبره — هو للتقرير . وما وجدت فيه من كلام يجرِّد القوى ويفيد التعريف فهو للسيمياء . وما وجدت فيه من الأحكام فهو للفراسة . وما وجدت فيه من البيان الساقط فهو للأصل . وما وجدت فيه من الإحاطة والحصر والامتداد فهو للمهمل . وما وجدت فيه من الكشف والتعريف والتحكم فهو للحكام والنقط المضافة للسُفر الفارسية وغير المضافة للعربية والحروف التى تحتها للمنوطات ، واطلبها فى كل مسئلة منه ، فإنهما مقوِّمة لها ؛

وما فوق المنوطات في نفس المنوطات تجده فإنها مقدمة نتيجتها . وما فوق ذلك لم نذكره ولا يحل لى أن نبثه إلا بأمر الله . وهذه سُنَّةٌ قديمة . والمحقق فى الأمور التى فوق المنوطات يخبر فى أمور كلها إلاّ المحبوب عنده ، فإنه يسأل فيه . وما أقل وجود محبوب المحقق على أتم ما يمكن ويجمل وكثيرٌ ما يحف ويقول إنه يحب ، وهو يريد بذلك الحب المضاف الذى يشرحه العرف الفاشى .

فصـــل

يا هذا ! الحروفُ التى فى « بُدّ العارف » وتركيبها والكلام بها المراد بها أنت ولواحقك والعالم : فأنْ تجعل ضميرك كالجنس ، وشأنك كالنوع ، وأمَلك كالشخص ، وأن تأخذ من الفقيه المحافظة ومدلول صنعته فيها ، ومن الأشعرىّ السياسة بك فى مذهبه ، لا به ، والمصانعةَ والاحتياطَ على صنائعك ، ومن الفيلسوف الصناعة الرئيسية والحكمة التى تفيد معرفة الأشياء حسب ما تعطيه وتقتضيه طبيعةُ البرهان ، ومن الصوفىّ مكارمَ الأخلاق والتجرُّد المحض عنك حتى تجدك وتظفر بك ، ومن المقرِّب ماهية كمالك الأول والثانى — فإن الفقيه يقول الحق ولا يعلم مدلوله ، والأشعرىُ يتعرض لحقائق الأمور ويقول الباطل فى مذهبه ومذهب غيره وإن علم بعض المدلول من أجله فإنه لا يعلم الأمر بكماله ، والفيلسوف يقول الحق ويعلمه بالإنسان فى الإنسان خاصة ويجهل غير ذلك . والكمال المحض إنما هو فى الذى جهل ، [٢١٤] والصوفىُّ يقول ما يغلب عليه ويعلم ما يجذبه إخلاصه إليه فإن نَطَق نَطَقَ بحق ، وإن عَلِم علم محض الحق ، وأكثر علومه منْ غير الإنسان ، والذى للإنسان فيها هو الموضوع الذى توجد به وَحْدة الإنسان الذى يقبل المذاهب كذلك ، والمقرِّب عَيْنُ الخبر وأُسُّ الأثر وكلُّ الكون ومالِكُ كل كون .

فصـــل

يا هذا ! الحروفُ المفْرَدة غير المتحابة التى فى « بُدّ العارف » فيها وبما قبلها وبما بعدها وإضافة الجميع للحروف المركبة المذكورة معرفة الله على التمام . ومن الحروف المتحابة ووسائلها التى فى نفس الكتاب مع المسائل المفروضة هناك رؤية الله فى الجلال المحمول على الأحوال ، وبالمتحابة المخدومة التى تقاس بالصور ، وبمدلولها رؤية الله فى الكون كله ، وبالمتحابة المذكورة الشاملة عُقَيْبَ الأدلّة والمراجعة رؤية الله فى النوم ، وببعض مسائل المنوطات ،

وبالمسئلةالتي فوقهارؤية الله المجردةالصحيحة التي يشير إليها العليم وفيهاقيل : «ولكن للعيان لطيف » ، «معنى له سأل المعاينة الكليم» . فانظر إن كان يقدر تلميذ المحقق على خدمته أو على مجاراته أبداً . ولا تفهم من هذه الرؤية مايفهمه الفقهاء والأشعرية فتغلط فتكون من الخاسرين . وإنما هي مراتب معقولة يلحقها الذهن كما يلحق الحس الصورة المحسوسة . وإن أخذت الحروف والأعداد ومساتها المتقدمة والمتأخرة وتركيب الحروف والكلام بها والحد الأول والمطالب وما قيل في العلم ، ثم تصرف الأعداد وتضيف إليها عدد الحروف الكلى المقدر في أشخاصها وعددها الجزئي الظاهر في صورها تعلم النبي والصديق وتبصر الملك على صورة دحية(١) وتعلم نفسك وتجد الأدب مع الله تعالى ورسوله ﷺ فافهم . وكل شيء تجده يطلق على أكثر من واحد ويحتمل أمرين فصاعداً اجعله في دنياك ، وبضده في آخرتك ، وفي نفس الكتاب مع الميل اليسير لأوله السيميا ، وفي أوله ثم في حدوده وحاده الكيمياء ، ومن الحروف التي تتفق مع ضروب الأشكال الثلاثة وتدوّن في السور والكلام فيه كما يدور الحد الأوسط في الأشكال المذكورة إذا أخذت وصرفت بالقوة التي علمتك في « بدّ العارف » وترسل إلى الكون كله تسوقه قبل أن يرتد طرف العين . فإن ظفرت بها فلا سبيل أن تفعله واحذر كل الحذر ، وعاهد ربك قبل نيل ذلك أو بعده على الخروج عنه ، واجمع همتك في معرفته ومحبته . والحروف التي في أول سورة البقرة الوسط منها الذي يشبه الحد الأوسط في الشكل الأول اجمعه مع الثلاث سور المرسلة وادع به في المراتب العاجلة . والأول منها اجمعه مع السور الجامعة التي في أكثرها القصص وادعُ به في القضايا النازلة بك من الآخر منها ادع به في الجملة كذلك بعد توجّهك في [٢١٥] الكائنات المرموزة ، وأصلها في حد الإنسان ثابت .

وهذه السيمياء تنقسم إلى خمسة أقسام : الكاذبة منها التي يذكرها مسلمة المجريطي صاحب « رسائل إخوان الصفا » (٢) والمشكوك منها الذي يزعم ابن مسرة أنه وصله ، والصحيح منها الذي

---

(١) أي دحية الكلبي الذي كان جبريل يظهر للنبي على صورته .

(٢) نشرها جبيل صليبا ضمن «مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق » عن مخطوطة الظاهرية تصوف ١٥٩ وغيرها .

إذا وصف للفقيه سماه كرامة . وإذا ذكر للحكيم سماه تصريفاً . وإذا ذُكر للمقرّب المحقق سماه فتنة . ومن فهم قوانين هذا الكتاب وتصفح الحدود المذكورة فيه ، وعلِم مقاصد المؤلف أدرك الفائت وبلغ الدرجات الرفيعة .

فصــــــل

حلمةٌ ونعمة وصناعة . يا هذا ! بالله عليك تَدَبَّر هــذه الكلمات ، واجعلها مقاليد الثوانى المذكورة فى « بُدّ العارف » وقِسْ بمقتضاها على كل حكاية ذكرت هناك . وأولها : من نظر إلى الحيوان الذى يتحرك حركة الحكيم انتفع به وبما فوقه وبما تحته وبالذى بين يديه . ومَنْ تفكر فى الماء الذى ينزل على المولدات ويستقر فيها وعليها ويصعد على محيطها ويرسب تحتها ويكون بصيراً بالأمور الطبيعية ومُحَصّلا للعلم الطبيعى يتحقق عنــده أن الماء حيث الماء ، والأرض حيث الأرض ، والهواء حيث الهواء ، والنار حيث النار ، وأحكام النقض والتركيب هو المعنى المفهوم والمتمّم للمطلوب والمقوّم له . ولا حاجة للحكيم بغير حى فعالج الحيوان أن يصح ، ويصح الشان كله . ومن رفع رأسه إلى الفلك وتنزه فى شــكله علم أن الشــكل المستدير أجل الأشكال ، وهو مبدأ الكائنات الطبيعيات .

= وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى ، أصله من مدريد ودرس فى الشرق ، واشتغل فى عهد الحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ/٩٦١ — ٩٧٦ م) بالرياضيات والفلك والكيمياء والسحر ، وله من الكتب : (١) « رتبة الحكيم » (المخطوطات : باريس ٣/٢٦١٢ ، راغب باستانبول ٩٦٣/٥ ، نورى عثمانية باستانبول ٣٦٢٣ ، دار الكتب المصرية، الفهرست القديم جـ ٣٨١/٥ ، مكتبة الاسكندرية، كيمياء ٦ ، رامفور ٦٨٦/١ (٧٦) .

(٢) « غاية الحكيم » نشره هـ . رتر فى ليبتسج سنة ١٩٣٣ .

(٣) « الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة » وهى « رسائل إخوان الصفا » المذكورة هنا . وتوفى سنة ٣٩٨ هـ .

راجع عنه : ابن القفطى (نشرة لبرت) ص ٣٢٦ ، ابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٣٩ .

ومن اختبر فعل النار صحّ عنده أنها تحيل بعض الأجسام إلى طبيعتها ، وتفرق الاتصال ، وتنقض المركبات في عالم الكون بتقييد وتقية واصطلاح . ومن حقق البرودة علم أنها جمود أجزاء الهيولى ، والحرارة بضدها لأنها غليان أجزاء الهيولى ، واليبوسة تماسكها ، والرطوبة سيلانها . ومن أعادَ وألحّ وكرّر تبدّلت له الأعراض ، ومن جمع وفرّق بنسبة ، ووزن أموره بجميع أنواع الكم وأصناف الاعتدال نال المرغوب ، ومن ظهر تدبيره دبّره هو في معاشه . والمروءة من الدين . والفضلات المكروهة قد ينتفع بها وتكون من أنواع الخير الذي يُراد لغيره ولا يُراد لنفسه . ومن وصل إلى الحق الصرف قلّت وسائله وقربت مدته . ومن أضاف المناسب البعيد إلى الرئيس الظاهر استعان ببعض رئيسه على كل مرءوسه وعلى كل ما يناسبه وزاد له خيرُه . ومن حفظ حكمته حكم الخير والشر ، ومن أهملها فاته الخير و ضرّه الشر . والأعمال بخواتيمها . والحافظ هو الله وحده . ومن صعب عليه نيل الحقيقة يجمع في مركبه الربع من المبدأ ، والنصف من الثاني ، والربع من الثالث ، ثم يسمى الجميع ويقول الآخر من الأول والأول من الطبيعة ، وما بينهما منهما . وبالجملة : الأوّل يتفق مع الثاني والثالث في الجنس ، ويختلف معهما بالنوع . والمطلوب [٢١٦] الأبيض يتخلص بثلاثة ، والأصفر بأربعة ، والنار بالأصفر ، والأبيض لا نار فيه . وإذا رأيت ما يصبغ بكيفية ويتصل بالمنفعل له بواسطة ذهبية ويتماسك بكاسه فشدَّ عليه يدَ جِدك وجِدك . والخير كله في الحياة فإنها شرطٌ في صفات الكمال . فإذا ارتفعت ارتفع ما ذكرت . وبعد هذا كله هذه الكمالات بالإضافة إلى الحكمة المتممة للسعادة والمقوّمة لما بعدها من الواجب المحمود ومن الجائز ، وهي عند بعض الناس السعداء من أحد خرافات العجائز .

فصــــــــل

نصيحة ! يا هذا ! كلُّ رسالة نوجهها إليك تصفَّحْها في كل يوم ، فإن الخير فيها بالذات وهو يزيد في كل زمان ، فزِدْ فيها واجعلها في جبينك المضاف إلى همة همتك وعينك التي تبصر بهـا مدرك حكمتك ، والحقائق يجذب بعضها البعض وكل شيء منها مغناطيس صاحبه .

فصـــــــــــل

يا هذا ! إذا كتبت احذر أن تشغل نفسك بالكسب الصناعي فإنه يضيّع الوقت ، ويضيّق على النفس في مآربها ، ويعمر مساحة القرطاس بالعرض الذاهب ، ويصعب نيل المقصود به . والسخيف العقل من الناس الذي لا شيء أسخف منه من يحفظ صيت رئاسته ، ويضيع شأن سياسته ، ويكلّف نفسه جمع الباطل بالوهم ويخدم غيره وهو تحت الباطل في الباطل في الفهم . فكُفّ الكفّ عن صيد الفقر ، ولا تفك الفك عن قيد الفكر . وأكثر في كتبك من الحروف المتحابّة ، وبدّلها في كلماتك وبددها ، ولا تصرفها في أمر لا يصلح بسعادتك ، وأعظم منها التالي ، وأجلّ منه بعضه ، وأعظم من الكل الذي يقوم من الجميع وأمر الكل وأصله ومعناه القائم على كل شيء وبه .

فصـــــــــــل

إذا رفعت المسألة الواحدة في كتابك بعد ذكر النفس والروح والفتح فافهم ولا تطلب . إذا حفظت المسألة الثانية في كتابك قبل ذكر الأمانة فاعلم ، وإليه تصعد ، وبه تسعد ، وعنه تحمد . إذا علت المسألة الثالثة في كتابك مع ذكر الخير فالزم .

فصـــــــــــل

يا هذا ! ما الذي حمل العديم الحادث أن يتعرض للوجوه ؟ صح

فصـــــــــــل

يا هذا ! ما الذي يحمل العاد أن يذكر قاتله وهو العدو ؟ صدقت ، فالزم .

فصـــــــــــل

دقيقة : يا هذا ! لأي شيء يعجز العاجز أن يحقق عجزه ، ويقرر عند ذلك ويقرب ؟

فصـــــــــــل

لطيفة : يا هذا ! متى صحّ الغير حتى يعوّل عليه !

فصـــــــــل

التوحيد ماهية السلب ، والأدب ذات السبب ، والإيجاب بينهما ، ولا خير فى الرابع .

فصـــــــــل

يا هذا ! غُضَّ بصرَ إدراكك عن غير الله ، ثم قُلْ لنفسك : يا خسيسةَ المنزلة ! متى ثبت سواه حتى تستريبي فيه ، وتغضى بصرك عنه ؟ هو الله ، وإن كان الفعل غيره . فلا هو إلا هو ، ولا يمكن غير ذلك . واختبرذلك من جهة الارتباط ، ونَزِّه ، ثم قل لشيمتك : لا تذكرى الفعل ، ولا تخبرى عن غير [٢١٧] الفاعل ، ولا تخاطبي إلا الحق ، ولا تتكلمى إلا بحقيقة ، ولا تنقادى إلا لمحقق ، ولا تسمعى إلا بحقك ، ولا تَرَىْ الإلٰه ثَمَّ لا ثَمَّ الحقُّ ثَمَّ ذلك .

فصـــــــــل

يا هذا ! الذوات المجردة ممتدة الكمال من جهة ما هو عنها ، وغير ممتدة من حيث يرد عليها . ولذلك تقبل الزيادة على الدوام . والثابت على حالة واحدة ، وهو الذى لا يقبل الزيادة والنقصان ، ولا يحتاج إلى غيره ، ولا يمكن فيه ذلك ولا يُقَدَّر فيه ما يهمل ، كماله هو الأول الحق عز وجل .

فصـــــــــل

شرف[1] : يا هذا ! الحكمةُ بابُ الحضرة الإلٰهية ، والشريعة باب الحكمة ، والأدب باب الشريعة ، والهِمّةُ باب الأدب ، والشوق باب الهمة ، والمنة باب الشوق ، والله باب الكل وبواب الجميع ، وهو الداخل بالنظر إلى لواحق قدرته ، وهو الباب بالنظر إلى إرادته ، وهو الحضرة بالنظر إلى صفاته ، وهو المطلوب بالنظر إلى ذاته ، وهو الكل بالنظر إلى مايقوم به .

فصـــــــــل

لمح : يا هذا ! قد عقدت اتصال نسبتك الأولى ومضار نسبتك المتقدمة مع ه ومع د ج ا ح ،

---

(١) في الهامش : شوف .

إنّ لُطفَ الله بك وكلمةَ الحق منوطة بك ، والنفس وأرواح أتباع الأنبياء عليهم السلام منوطة بالأنبياء ، وأرواح أصحاب المحقق منوطة به ، والأخوة منوطة بهم بحسب نسبهم ، والسنة فى أن يضاف القوى للضعيف وأن يفرق المثل من المثل، وأن يكون على الوتر ، وذلك من خواص التحقيق ، وهى من العهد القديم الأول .

فصـــــــل

حجز [1] : يا هذا ! عَرِّفه بالأُخُوّة المذكورة وبَشِّره بها وبَشِّر نفسك بوقوعها واربطها معه فإنى ربطتها لكاع اه فإن أهملتما شأنها تفوتكما خاصة عجيبة ، وهى من خواص الخواص .

فصـــــــل

« بُدّ العارف » كتمانه بُدّ سعادتك ، وإفشاؤه فسادها ، وأنت تعلم ما بين المد والفاسد ، وشأنك وما يظهر لك صح صحيح .

فصـــــــل

لا : يا هذا ! عَرِّفنى بمطالبك كلها .

فصـــــــل

يا هذا ! السلام عليك وعلى من ذُكر وعلى الجميع ورحمة الله وبركاته . الله فقط .

---

(١) كذا .

رسالة

[٢٠٦] بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الواحد ، الواجب الوجود ، الموجود وحده ، الذى لا أول لوجوده وجلاله ، وصلى الله على الواحد فى وسائله وكماله . كتاب من الغريب من الرقيب ، إلى الحبيب إلى النجيب ؛ من الذى وصل إلى بدء بحده ، إلى الذى فصل فى حده بحده ؛ من العازم على تخصيص مُجْمَلْ السفر ، إلى الحازم على تحصيل معمل السفر ؛ من المُطرح لله ماله ، إلى المصلح بالله أعماله ؛ من المرشد الإنسان إلى أنس أنسه ، إلى منشد الإحسان على حُسْن نفسه ؛ من الواقف فى العالم الأول مع السُكْر والصحو ، إلى الخائف الآخر الأول من المكر والمحو ؛ من الذى لا يسأم من سوء الدهر المساعد ، إلى الذى يعلم أن بالقوة والفعل فى قرينة قوة السعد والساعد ؛ من القائل لو أنصفت لسعد العصر وأهله ، ومَهَّد وعر العلم وسَهْله ، إلى المحقق حق المحقق ؛ من حكيم السفر فى عصره ، إلى أسير السفر فى مِصره ؛ من الذى لا يهابه وصفُ صيته ورياسته ، إلى الذى لا يمنعه منصبه عن سيره وسياسته .

أما بعد : فإن نعمة المنعم الذى أوجب شكره علينا وأرسل زائده إلينا ودَلَّنا به عليه ، وجذبنا بفضله إليه ، تتعلق بجوهر العبد السعيد فى النظام القديم . وهى فى طبيعة الممكن بين الكلمة والقصد ، وواقف مع القول والحد وتحكم عليه فى شأنه كله ، وهى قائمة بمحل الخير ، مرسلة من الصِّغَر إلى الكبر ، ومبثوثة فى غيره الذى خَصَّصه ، ومنوطة بقصده الذى خلصه ، ثم تنتشر عليه فى مولده ، ثم تقوم به عند حلول نفسه ، وتمتد على جسمه وصفاته ، ثم تظهر فى تربيته ، ثم فى حفظه ، ثم فى أخلاقه ، ثم فى أدبه ، ثم فى همته ، ثم فى دينه ، ثم فى خدينه ، ثم فى كسبه ، ثم فى سعادته العاجلة والآجلة ، ثم فى نموها ، ثم فى صعوده إلى حضرة جوهره السعيد الأول ، ثم فى تخلصه من الهُوِيات المنوطات بالآنيات ، ثم فى تطوره ، ثم فى قطع مراتبه الثلاث ، ثم فى سكون معارجه ، ثم

فى سكينة رضوانه بغير أصل ، ثم فى دوامها ، ثم فى نيلها ، ثم فى جوهره ، وبالجملة هى التى تبدأ من الأوَّل الذى قبله أول واحد ، وتحكم فيه وتتعلق به ويظهر تأثيرها فيه ؛ [٢٠٧] وتصدر من الأول الواحد الذى لا واحدَ قبله ولا سَبَبَ له ولا نظير له ، ولا ترد عليه نعمة من غيره ، ثم تنزل إلى الآخر ، ثم تعود إلى الأول وتعم الخطّ كله ، وتطلع بالتركيب منها عليها بها إليها ، وتنزل بالتحليل كذلك . فمن حقق ماهيتها وطلبها بالواحد الأول الذى لا أول له تجوهر بالجوهر المذكور ، وحكم ما بعده ، وتصرف فيه بالنعمة المذكورة . ومن طلب ماهية ماهيتها وجدها بين جوهره وتعلقه ، ومَنْ طلبها مِنْ ماهية ماهية ماهيتها وجد المنعم ، وظفر بالفيض السّيال وكان هو النعمة بعينها .

وحينئذ يبعث خبره فى خَلَده ، ويرسل قَصْدَه فى ذاته إلى بلده ، ويطلب قواه بامتثال أمر واوه الأول وكافه الثانى وميمه اللازم ، ويأمر أهل عالم خلقه بمكارم الأخلاق ، ويحض كل عالم أمره على احترام أمره ، ويأمر المتقدم ممن ذكر أن يسجد للمتأخر ، ويطلب الكل بقول لا أول إلا أول الأول وهو المطلوب ، ولا آخر إلا آخر الآخر وهو هو ، ولا ظاهر إلا ظاهر الظاهر وهو الكل ، ولا باطن إلاّ باطن الباطن وهو الأصل . فلا وجود لشىء إلاَّ منه وبه وعنه . هو ماهية كل شىء ، وَيَدُ كل شىء ، وبه كل شىء ، وهو الثابت قبل كل شىء . ثم يصل القول الأول بكلمة الحق الجامعة المانعة التى مدلولها لا إله إلاّ الله ، وحكمها « كلُّ شىء هالك إلاّ وَجْهَهُ »[1] وحقيقتها « ما خلا الله باطل »[2] ففكر أيها المخاطب فى النعمة المذكورة ، ثم فكر فى فضل المنعم المذكور فى جوهرك ، ثم فى فكرك ، ثم فى ذكرك ، ثم أصلح شأنك بالكلمات المذكورة قَبْلُ . فإذا استقام صلاحها وإصلاحها وأُيِّدْتَ بالنعمة وَشُرِّفْتَ بالفضل وخُصِصت بالجوهر الذى يطلق مع النعمة بترادف كما تقدم — وجبت خلافَتُك ، وتفرح بنفسك ، وتستجلب من مفهوم سُورَتِك صورة أُنسك . فإذا كنت كذلك ، وإلاّ فعليك بالدعاء الذى طلبته ، وسنته أن تجمع من كلمات التنزيه وأسماء الذات والصفات والأفعال وتكتب بالحروف المتحابّة ، وتصنع منها سورة حادثة صناعية ، وتقرأ قبلها سورة « الفتح » من كلام القديم[3] ، وتتوجه بعد طهارة المحل من العلائق ، وتلجأ إلى التخلى والتحلى

(١) سورة « القصص » آية : ٨٨ .
(٢) جزء من شطر بيت لبيد المشهور ، وابن سبعين دائم الاستشهاد به .
(٣) القديم = الله .

والتجلى عند خبر الاضطرار ، وتقدر فى الذهن باب المنّة ، والهمة خلفه واقفة بحسن الظن ، وتستأذن بإفراط الأدب ، وتنادى المنعم بالكلمات التى دونت ودرست وصرفت فى العصر التى درست ، وبها بعث البشير النذير ، وبها يشير المشير . فإن كنت تعلمها وإلّا اقرأ كتاب الله ، وحيث تخشع اقرعْ باب المنة ، وأين تخضع افزع إلى إمام السُّنّة ، وخذ من القرآن الثانى[1] ع ح بعد الأول بما تستفتح الأول ، وقدّم على قولك عند شروعك فى الاستخارة : « اللهم لكَ الحمد أ أنت نور [٢٠٨] السموٰات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموٰات والأرض ، ومن فيهن . أنت الحق ، ووعدك الحقّ ، والجنة حق ، والنار حقّ . اللّهمّ لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبْتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمت . فاغفر لى ماقدّمتُ وما أخرت ، وما أسررْتُ وما أعلنت . أنت إلٰهى لا إله إلا أنت . تباركت وتعاليت ، اللهم ، وأتوب إليك » . ثم تقول : « لا إله إلا الله ، ثم لا فاعل إلا الله ، ثم لا موجود إلا الله ، ثم الله الله » — الكل سبعين مرة . ثم اذكر بجوهرك فى جوهرك وغَلِّب الذكر الجوهرى على العَرَضى ، وأضربْ عن الوهم والحسّ والخيال والعادة ، واخرج عن لواحقك ومحمولك وموضوعك ، ولا تخبر عن ولدك ولا عن بلدك ولا عن أهلك ، والجأ إلى رَوْزَنَةٍ[2] خالية بعيدة عن القبْر حتى تنفتح روزنة باطنك بباطن الأمر ، واطلب واحدك بوحدتك ، واخرج عن وِتْرك الخاصّ بك كما خرجت عن شَفْعك التابع لك حتى يبقى الواحد الذى لا يُنسب ولا يكتسب ، خالق كل وِتْر منسوب وكل شَفْعٍ واقع . ولا تقبل فيهما صورة تروم أن تدخل فيها قبل واجبها ، ولا تشغل المحلّ بغير الله .

ثم قل : « اللّهمّ يا من كوّن الكَوْن بكنهه ، وقدّر أكوانى كلها ، وصرف حركاتى وسكناتى . تعلم أن هويتى بعد آنيتى ، وتعلم أنك تعلم أنى نعلم أنك بُدُّهما . لا أرفع صوتى نحوك لبعدك منى ، ولا أخفى إعلان الصوت لقُربك من جميع جهاتى ، بل ذلك من ذاتياتى وأحوالى لا من ذاتياتك وأحوالك . أنت المفارق الموادّ ، ومُبدِعُ الذوات المفارقة . لا تجاورك جهة من الجهات فأشير إليها ببصرى ، ولا ينال وصْفَك القياسُ فنطمع فى نظمه ببصيرتى ، فإن البرهان له عِلَلٌ ومبادئ وأنت لا علة لك ولا مبدأ . وبالجملة ياألله ، يا بُدّ ، يا حق ، القَبل والبَعد والقُرب والبعد والجهة والتوجه والإشارة والمشير والمسافة الذهنية والحسية منى وإلىّ ، وأنت المنزّه عن ذلك

(١) فى الهامش : « خ الذى تقرأ » . (٢) الروزنة : الكوة غير النافذة .

ولا مسافة بيني وبينك لأنك هوية هويتي وآنية آنيتي بل آنيتك ولا آنيتي ، وهويتك ولا هويتي بل أنت أنت وقولى تجرُمٌ . ولولا أنك قلت اسأل لم نَسْأَلْ ، وخاطبتك بلسان شريعتك والقصد في ذكرك لأني مسئلتك . فإن أنعمت عليَّ بك يا مقصودي ، يا معبودي ، يا محرِّكي ، يا مُسكِّني ، يأنا بإفراط الاستحقاق والغيبة والسكر وحال المحو ، يا من هو بضد ذلك فأنت في حل من جنتك المقدمة والمؤخرة، العاجلة والآجلة، الروحانيةوالجسمانية، المقيمة والزائلة . يا مَنْ يُملكني هذا الملك ، ويثقفني هذا الثقاف ، ويحيط بي هذه الإحاطة : خلِّصني من كل قاطع يقطعني عنك ، واحملني إلى حضرة تقرِّبني إليك ، وآمِنْ قُواى الروحانية من ظُلمات الجهل ، واهدني إلى أوضح السبل إليك ، وأدِّلها عليك بمضاه[1] السكون واحد « الم » إن أذنت الأذن حق ، « كهيعص » وقد فعلته مفهومة السلب صرف « حم » « عسق » وما ذلك على الله بعزيز . الحمد لله رب العالمين [٢٠٩] « يس» بوسائله كل شيء منك إليك . فاحفظ هذا كله ، وحافِظْ على أحكامه ، ثم حافظ على صلوات النهار ، ثم حافظ على صلوات الليل في ثلثه بثلاثة أحزاب من ثلث المفصل في ثلاثة عشر ركعة . وتقرأ في وِترها بصورة الوتر والمُعَوِّذتين سبعين مرة . وقد قيدتُ لك ذلك كله ، ولم نطلق لك إجابته إلاَّ في سعادتك خاصة وحرصك عليها وشوقك لها ،واهتمامك بها . فلا تطمع في شيء من العاجل ، لا أنت ولا غيرك .

والسلام على من تأدب مع السلام بالاستسلام ، ورحمة الله وبركاته !

---

(١) كذا غير واضحة .

رسالة

[١٦٥] بسم الله الرحمن الرحيم

وله رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيرا .

مَنْ كَفَّ عن المهلكات بالكلية ، حتى عن حديث النفس بها ، وكاد أن يقال فى حقه : « لا يصحُّ صدورُها منه ولا يمكن فى حقه ذلك » وحفظ بالجملة ولا يظهر عليه ما يذم على الإطلاق وأمِنَ كماله من قواطع شهوة البطن والفَرْج ومتعلقات الحواسّ الخمس الجسمانية والأربعة الروحانية ، وكان على بَيِّنة من شأنه فى المنقَلَب ، وعُصِم من الاحتياج إلى الكمالات الخمس ثم الست لأنه نحو الصواب ، وتلك لا تُحتاج إلا فى محتملاتها ، والدواء لا تفتقر إليه الصحة ، وإن كان يستعمله الصحيح فهو لأجل المرض المقدَّر فى المحل بالقوة ولكن يحفظ صحته ، فهو دواء بوجه وغذاء بوجه ، وألم ما لأجل راحة ما لأن الدوائية التى ترفع ألم المرض الحاضر لم توجد فى ذلك الدواء ، والغذائية التى تخلف بدل ما تحلل من العضو لم توجد فى ذلك الغذاء ، والألم الذى ينسب للمرض لم يوجد فى حال ذلك الألم ، والراحة التى هى استراحة من مؤلم لم توجد فى تلك الراحة ولكنه دواء لأنه فى وقت ما يشبه الدواء ويكون حكمه حكم الدواء وقدلا يكون ذلك مع وجود استصحاب الحال فى الصحة . وأيضاً [١٦٦] يشبه الدواء لأنه يرفع السبب الممرض ، كما أن الدّواء الصحيح يرفع المرض الخاص المهلك. فقد اتفق مع الدواء فى رفع معقول ما لا يحتاج . وهو غير طبيعى للمحل . وهذا فيه بحث وتشكيك وغذاء بالنظر إلى بعض كميته فى الأعضاء واستحالته ، وهو معقول المعنى فى سائرها ، وغير مشعور به فى الحس . وألم لأنه محسوس الأثر غير أنه بإرادة إنسان ، وراحة يُظن بها لأنها نيلت بإضافة ضر حاضر .

فافهم هذا وتفهم لأى نيل ذلك كله وحاصله من جهة ما نحن بسبيله المخصوص الخاص الدعاء فى حقه شبه الغيث وكذلك الرحمة ، غير أنها تطلق عليها من جهة الامتنان البسيط الذى لا يقال

بإزاء ما يضطر إليه . والنعمة تقال عليها وبها صحّ له ذلك وأما العفو والمغفرة وما أشبه ذلك فقد رحم بمدلولها وعُصم من آثارها وفعلها فيه . وأعوذ بالله من الحاجة إلى ذلك والرضوان عودته وهذا الرجل الذى بدأ‌نا به هوهذا ، أو هو مع هذا يزهد ويعلم فيماذا ، و يصمد إلى ماذا ، ويعلم ويعلم كيف يعلم ، ويجد ويجد أن يكون محبوبه بوجه ما ، ويتلذذ بصرف لذته إلى محركه القريب ، ويبحث عن الرؤية وتعقل فيه وعن الآنية وتصح فى وقت ما منه . وهو مع هذا صوفىّ ومن أهل البطاقة الأولى التى سمعت ولا أذنى أبصرت أهلها فتلك غير بطاقة وأربابها يبتغون تحصيلها — أى تحصيل مفهومها — وهم بعد فى الظلة . وماهيتها تقتضى أن الولاية معقولة المعنى ، وأن الولىّ إذا أدركها فقد أدرك الحق المشار إليه والمعوّل عليه ولا تعقل فيها لولىّ على ولىّ مزية بوجه من جهة النظر إليها وتمكن بالنظر إلى الأحوال وإلى المواهب الواردة من المنعم . وبينهم فيها خلاف كثير فى تلك الأحوال : هل هى لذّاتٌ ، أو سكينة ؟ أو معنى آخر لا يلحقه وهم أحد ؟ فكيف عبارته عن ذلك الوهم ؟ وكان سَهل[1] الأول — رضى الله عنه — فى هذه المرتبة ، ذلك لأنه بحث فى حاله الأول عن المطلوب هل هو مما يرجع إلى مجموعه أم لا ، فأرشده شيخه بعبّادان إلى الأدب وإلى أن يفارقه بالجملة . ثم انعطف إلى نفسه وأخذ نفسه بالمجاهدة والخلوة ، ثم أدرك وحدة الوجود فى العلم ، وأدركها متطورة الكُنْه . وكلامه فى « موطأ الحكمة » يدل على ذلك وكذلك فى « معيار التصوف » وكذلك رسائله ، وكذلك مسائله الثلاث . والرجل بدأ بملاحظة المعيّة ، فحصل له مقام الإحسان ، ثم سلك بالمحبة فحصل له ذلك المُقام بعينه بوجه أكمل ، ثم إلى الوحدة المحرّرة بالدليل لا الموجودة بالأحوال ولا ينكر ماهية النصيب إلا من فاته النصيب . ومن يقول الحمد لله على كماله فى عبده يمكن أن يدخل فى زمرة الكمل ، بل الكامل هو الذى يقول [١٦٧] الحمد لله على ت و على م وعلى ك . وسَهل

---

(١) سهل : يقصد به سهل بن عبد الله التسترى : كان تلميذا لذى النون المصرى . عاش فى البصرة وتوفى فى سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦ م أو فى رواية أخرى سنة ٢٨٣ هـ .راجع عنه : ابن خلكان برقم ٢٩٥ ، عبد الرحمن جامى : « نفحات الأنس » ، نشرة Lees ص ٧٣ ، « الأنساب » للسمعانى ص ١٠٦ب ، « الرسالة القشيرية » ص ١٥ ، « مرآة الجنان » لليافعى ج ٢ ص ٢٠٠ ؛ ماسينيون : مجموع نصوص غير منشورة ص ٣٩ — ٤٢ ، ماسينيون : « عذاب الحلاج » ص ٢٦٤ وما يليها .

كان يأخذ نفسه بالهوية ، وكان يعمل بحرف الهاء وبعض المتأخرين أخذ بمذهبه فى ذلك . وجميع من نظر إلى شيء من ذلك هوا وماله الهوية والهوهو والهوا والهاء والما والسوى — كل ذلك عن الله ، ومن أجزاء ذات اللاهى . الرجال ثلاثة : رجل هو الحق المحض وخبره يتوقف قطعه وهذا لا يصح ، ورجل هو الباطل المحض وخبره لا يقف فى شيء ولا يقف له شيء ، ورجل منهما ولا خبر فى الرابع بحسب الوجه الرابع إن الله على كذا وكذا وبكذا وبكذا قدير ، وإن الله بكل كذا وكذا وبكذا عليم .

الله فقط : هذه أسطار يحصل من مفهومها العلم بجلال الله المتلو ، ويسترح منها حال الصدر المملو ، ومذهب المحقق الحق المكلو ، ويتبين فيها الصحيح من القول المعتو المهمل المقلو . وغرض كاتبها أن يكتب فى أول السطر قبل بسم الله الرحمن الرحيم . وإذا حفظت بمحوها الحافظ المحافظ هذا عهد الله عليه ، والله المطلوب .

قال الحكيم الخبير ، إنه من عند الله القدير ، وإنه بسم الله العظيم الكبير . وصلى الله على رسوله رئيس الرسل نهاية السؤل وبغية السائل والمسئول ياهو ، يأنا ، يا ذلك ، يا هذا ! بالجميع وجدت الله أكبر ، وقلتُ : لا إله إلا الله الحى القيوم ، وعلمتُ « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(1) ورسمت « قُل أمر ربى بالقسط »(2) وذُقت « هو الأول والآخر والظاهر والباطن »(3) وطاب لى « رضى الله عنهم ورضوا عنه »(4) واستطبت « إنا لله وإنا إليه راجعون »(5) وعزمت على « ألا له الخلقُ والأمر »(6) وصرفت « كل يوم هو فى شان »(7) وعجزنى « وأنه تعالى جَدُّ رَبِّنا »(8) رضيت بالله ربًّا وبالاسلام دينا ومحمد نبيًّا ، واستعنت بقوله « يحبهم ويحبونه »(9) واعتمدت على « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »(10) . فلما يسر الله وكان ما كان أبصرت مالم أبصر ، وسمعتُ ما لم أسمع ، وعلمت مالم أعلم ، وكنت على بينة من أمرى بوجه أجمل وبحكم أكمل ، ووجدت الله أجل مما كان فى المقامات والأسماء والمواقف التى تتخيل بينهما وكذلك الدرجات . وجعلتُ وسيلتى قطع أسباب الوصول والصلة ، وسلكت على سلب السلوك ، وبلغت إلى عدم النهاية وكأنى انحططت إلى البداية ، وقرأت كتاب الكُنْه الأول كله قراءة أخرى وتطورت فى الأصول الإلهية وذقت كل الوجود والموجودات وشخصت الأوهام ، وعجزت عن المقدرات ، وحققت الفرق ، وطمعت فى التداخل المشابك وقلت : لا خير فى أمر لا يقوم بى وإن كان المعجوز عنه . فلما يسّر اللهُ وكان

(1) فاطر ٢٨ (2) الأعراف ٢٩ (3) الحديد ٣ (4) المائدة ١١٩ (5) البقرة ١٥٦
(6) الأعراف ٥٤ (7) الرحمن ٢٩ (8) الجن ٣ (9) المائدة ٥٤ (10) الرحمن ٦٠

ما كان وسعت الإحاطة وعطلت أحكامها صحبة ذلك ، وقرأت السورة ، وصورت بالوهم تلك الصورة ، وجاء الله من الضمير وأشرف نوره من الخبر فيه ، وأضاء من تفصيله المزدوج ، واستوى على قضيته من السكينة الكامنة فيه . فلما كان ما كان وجدت سُنته التى لا تتبدل ولا تتحول تتخذ مع سمّة سفيره التى تتبدل وتتحول فيه ولم تقل هو الله هذا المشار إليه ولا أنا ولا الكل ولا [١٦٨] كل الكل ، وعجبت من وحدة الوجود وضحكت منها ، ودخلت بعد ما خرجت عنها . فلما كان ما كان وكان ذلك الخبر هو القضية المحرَّرة الواقفة التى تخرج كلٌ وهم وتنفصل عن كل حكم حتى عن قطع الجميع وعن ثبوته أيضاً — ظهر لى الشأنُ الذى انبعث عنه المكانُ العام وجميع الكليات وما يجتمع عندها وفيها من العوالم المنسوبة والمشار إليها والإحاطات الخبرية والوجودية والتى لا يقال عليها ذلك كله ، والمألوفات ، والمعتبر الكبير المتوهم . وامتد الصراطُ إلى الله الواسع العليم الصمد الحق المبين الأحد العلىّ الكبير رب الأرباب وهمت بالقضاء على تعيين كل مدرك من تلك ومن كل ذلك . فلما كان ما كان توقفتُ لأنى وجدت الذات التى قيل فيها لها الأسماء الحسنى والصفات العلى وأسماء الذات والأفعال والتنزيه والتعظيم ، وأن تلك الصفات ، أعنى صفات الذات ، زائدة عليها ، ومنها ما يتعلق ببعض المعلومات دون بعض ، ومنها ما هى غير ، ومنها ما هى غير بجهة وبجهة أخرى أهى هى وهذا بحسب رأى ما ، وقيل فيها بحسب مذهب آخر هى عالمة وهى كذا وكذا من صفة نفسها لأنّ الصفات زائدة عليها ، وقيل فيها أيضاً هى أجل من أن تنسب إلى معنى يدخل فى عموم الإلزام مع الشاهد ، لكنها فى كل اسم منها معنى كل اسم وهى مع هذا لم تزل تبصر معلومها فى الأزل وهو موجود فى علمها وجميع الذوات متميزة فى الأزل عندها وما يمكن أن يزيد فى علمها ، ولا فى وصف من أوصافها ، ولا فى ذاتها بالجملة مالم تجد ولا تجد ما لم يكن عندها قط ، والموجودات لها نظرٌ إليها بما هى موجودة ونظرٌ إلى ذواتها هى بها عدم أو فى حكم العدم ؛ ومع هذا لا يقول الجواهر والأعراض أشياء فى العدم ولا أنها وجدت بعد ما لم تكن غير أنها كانت لا تبصر فإن من شرط المبصر أن يكون وجوداً يشار إليه والمعدوم لا يرى ، والذى أوجده كان يعلمه كما كان يريده فى الأزل ، فلما أوجده أبصره . وهذا المذهب ينقسم إلى سبعة أقسام ؛ وهو الثانى . والأول ينقسم إلى ثلاثة . والخلاف

بين أهله غير بعيد المعنى . والثالث هو الذى نحن فى أمره على جهة الشرح له ينقسم إلى جملة أقسام ، كلها تعود إلى الأول فى بعض الوصف لتلك وتختلف فى الحكم عليها مع الذى يصور عنها . وأجلُّها القسم الذى تُذكر فيه المظاهر المشخَّصة ويُعتقد فيه أن الوجود عَرَض للماهية وكان ذلك العروض بعلم أو بإرادة أو بمعنى ما يقرب مفهومه من مفهوم الشيء الذى تدفعه القوة خارج الذهن على جهة الإفراط المُشاكِل لا على ما قاله بعضُ الفلاسفة وهم أهل الإيوان (١) وبعض المشّائين . وأشبه المذاهب من مذاهب الفلاسفة بهذا المذهب مذهب ديوجانيس [١٦٩] وفيثاغورس فى بعض الأمر وأفلاطون كذلك . والمذهب الأول يشبه فى بعض أصوله لمذهب ابن دقليس ، والثالث من مجموع الثلاثة ، وهو أنموذج مذهب المَشّائين غير أنه يخالفه فى أكثره بالوجه الذى يقال له مذهب المتشرع فقط .

وقيل فيها أيضاً هى الذات التى لا تُحَدّ ولا تُرْسم بل توصف ، وإنْ وُصِفتْ فيكون وصْفُها سلبياً لمعنى ما اعتقدوه . ولا بأس به . ولولا خوف التطويل كنت أبسط القول فيه وأذكر علة الخلاف وأين يجتمع مع المذاهب المذكورة قبلُ ، وأين يختلف . وهى تلك الذات منزهة عن الشوائب وعن الأحوال الطبيعية وذاتها يفوتها مفهوم الصفات فإنها أجل . وبينهم فى هذا وفى مفهومه خلاف كثير ، وأمرها كبير المفهوم . ومما نزّهوها حتى يظن بهم المتشرع المذكور أنهم يميلون إلى التلاشى وإلى التنبيه على معنى ما لا يفهم بالجملة وكأنه يشبه التعطيل بقول آخر . وفى علم ما بعد الطبيعة يظهر حالُ القوم فى وصفها . والمسائل العويصة التى ذكروها إنما ذكروها لأجل حكمهم عليها وفى علم الثاولوجيا يظهر أيضاً ماهم بسبيله من أمرها وجميع العلوم فمن أجلها بحثوا فيها وعنها . والمقصود العجيب فاتهم ، لأنهم بحثوا عنها بقدر طاقة الإنسان فقط وهى لا تعلم إلاّ بها . وتلك المعرفة لا طريق لها إلاّ العلم والوحى معه والتألّه والفهم عن الأمور ، لا من جنس ما يكتسب . والمتمدن منهم الكثير التمدن ، ويكون قد حصَّل الأمور الضرورية من صنائعهم وأخذ نفسه بالرياضة والعلم الرياضى المتوسط بين ذوات الأجسام وما ليست بأجسام ، ويميل إلى العلم الإلهى

---

(١) لعله يقصد أهل الرواق = الرواقية ، وفى النص : الديوان .

بنفسه ويتشبه بما يجب من العالم العلوى ويأخذ نفسه بتصوُّر النفوس السارية فى الأجسام الفلكية والطبيعية ، وبالعقول الثوانى وبالمتوسطات وبما هناك وما يمكن من المثل المُعَلَّقة ، والكليات المعقولة ، ويقول بالعلم من أنا وأين كنت فى البسائط وكيف كنت فيها ، وهذه النفس الناطقة أين كانت قبل أن تحلّ فى هذا الجسد وكيف حلّت وبماذا ولأى شيء لم تظهر على ما يجب إلا فى وقت ما ، وكيف ارتباطها مع هذا الهيكل وكيف تنفصل وإلى أين ، وما سعادتها وما هو محلُّها بعد الموت وبماذا تتشبه ، وكيف يصلح هذا الشبه وبماذا يستمان عليه ، وما هى السعادة وما سببها بالجملة . وهذه الفلسفة ما هى ، وهذه الشرائع الإلهية ماهى ، وأين يجتمع الجميع ، وكيف يظهر فضل الشرائع الجليلة على الفلسفة المعتبرة . وهذا هو أحسن القوم وأقربهم إلى الحق وإلى أهله . وبالجملة مذاهبهم تسعة ، أعنى الفلاسفة . وأجلها فى العلوم النظرية مذهب المشائين ، والأقدمون منهم فى الإلهيات أنبَهُ ، غير أنهم يغلطون ، وهم أقرب إلى الأنبياء وإلى الإيمان بهم من غيرهم ، وأرسطو ذكر أمرهم فى نيقوماخيا[1] . وهذا الرجل كان [١٧٠] جليل القوم فى المهن[2] ، لأنه فى القُوى والأحوال الإلهية مثل غيره . ومَلَكَ بعض الأسرار الطبيعية والإلهية وكتمها . وأفلاطون فى التجرد والتوجه وفهم الأحوال الإلهية أثبَتُ ، وإن كان أرسطو أجلّ منه على الإطلاق فإنه توجّه وكان حاله فى سِرّه . وأما علم وعقل فلا ينسب إلى غير هذا . ونور الله لا سبيل إليه إلا بتوفيقه وجميع الأسباب وسائط وهمية . وبينهم فى أمر هذه الذات وفى صدور الأشياء عنها والنظر فى الواجب الوجود والممكن الوجود ، وفى الذى ماهيته يفرض لها الوجود ، والذى ماهيته وآنيته معاً ، وفى كون هذا عند بعضهم لا يصحّ وعند الأكثر يمكن ؛ وفى العلل والمعلولات والارتباطات وفى الصُّوَر فيها يخصُّ الكلّ .

وبالجملة نظرتُ فى مذاهبهم المختارة ، وفى تلك الذات عندهم ، وفى الذى يجب لها ، وفى الأمور الظاهرة بها فوجدت الأمر يرجع إلى خمس مسائل ذكرتها فى « بُدّ العارف » وأخرجتها من مائة مسألة ، لم نجد لأحد قط فيها ما يشفى غليل المسترشد . والكلام على حياتها وعلمها وقدرتها يطول ، وتقدر على الوقوف عليه فى كتبهم .

---

(١) يقصد : « الأخلاق إلى نيقوماخوس » . (٢) فوقها : كذا .

فنرجع فنقول : وقيل فيها أيضاً إنها كمّية كُرَة العالم ، وأيضاً الحياة السارية الموجودة فى أجزاء العالم . وزاد بعضهم أنها هى المنتصبة فى المعنى الهيولانى ، وكأنه يقول : هى الصورة المقوِّمة بوجه ، والصورة المتممة بوجه . وزاد آخر وقال : بل هى الممتدّة ببعض ذاتها ، والكثيرة بزمانها ودهرها ، وما لا يأخذه الحصر بالنظر إلى الكليات فيها ومنها وعنها . وزاد آخر وقال : مفهوم التطور مع كونها هى ذلك المتقدم كله . وقال آخر : المطلوب الأعلى منها هو أنه العالم هذا وجملة عوالم لها وهو بواسطة ما ، وتلك الواسطة لها على جهة اللزوم . وهذا الذى غلط فيه الفيلسوف بجعلها علته القريبة وهو معلولها وحصر المجموع فى هذا العالم . وآخر قال : تحل ولا تتحيز ، مثل ما يقول اجتماع النوع والعنصر . وآخرُ يقول فيها : تتحد ، وذلك من مضافها المنفعل والظاهر عنها على جهة التشخيص . ولا يريد الاتحاد الذى يريده الباطنية وبعض النصارى وهو الذى ردَّ عليهم المتكلمون ومنهم ابن الخطيب[1] .

وطائفة تقول فيها: إنها تفيض ، وذلك الفيض يكون على معنى منها هو الأخفى وهو الأكمل له ، لا أنها تريد الفيض الذى يريده المتكلم ويقبّحه على القائلين به مما هو المقصود عندهم .

وطائفة تقول فيها : هى الدور الذى لا ينسب بالنظر إليه إلى شىء ولكنه إذا تطور فيها يخصه ، وذلك التطور صفة نفس لما يكون السكون كله من انجرار شبها .

وطائفة تقول فيها : هى الذات التى لا يحدُّها الذهن ولا تعطيها الصنائع ولا التجرد ولا شىء يتوهم فيه أنه سبب الإدراك ، وإنما هى تتجلى على جهة التخصيص فيصطادها الضمير ، وبعد هذا

---

(١) أى الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢٠٩ ، وله فى علم الكلام : (١) المباحث الأربعون فى أصول الدين . (٢) أسرار التنزيل وأنوار التأويل .
(٣) المطالب العالية . (٤) اللوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات .
(٥) نهاية العقول فى دراية الأصول. (٦) أساس التقديس .
(٧) المسائل الخمسون فى أصول الكلام . راجع عنه : ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٢٣ — ص ٣٠ ؛ ابن القفطى ص ١٩٠ — ١٩٢ ؛ خوندمير : حبيب السير ج ٣، ١ ص ٦٠ وما يليها .

أعنى فى عَقِبه يَجِد صِدْقَ الوحى [١٧١] ويقول هذه هى الصّدّيقية . ثم ينظر فى إثر هـذه الحال فيجد ما لم يجد . ومما يجد أنّ العالم بجملته هى هى أعنى الذات الذات ، لا أنه ذلك الذى وُجد ولا أنه غير ما لم يجد . وكأنه يقول : هذا كله ينحلُّ بالاستحقاق إليها لا أنه على جهة الفعل فقط ، بل الفعل والشىء الذى يشبهه أنه تحرك فى مكانه وحرك بعضه الغائب لبعضه الظاهر .

وطائفة تقول فيها : هى الساكنة فى الفضاء الذهنى الذى وراء العالم ، وهو مادة الجواهر الروحانية والجسمانية والمتوسطات كلها وهى تجد الأشخاص فى معقول الهباء المنبثّ فى علمها ، لا أنها تقول بالهيولىٰ الأولىٰ ولا بالهباء الذى يريده سهل بن عبد الله ، ولا بالماء الذى تذكره الصوفية صحبة الماء ، وتقول هى غير ذلك . وواسطتها تفعل لا على الوجه الذى يذكره بعض أهل البطاقة فى ذلك . وعرشها هو الامتداد العالى ، وتريد بهذا القول المعلوم الذى يقوم به العالم لا الذى يتعقل — فافهَمْ . ولا تتوقع الجنون فى مَحالّك إذا صدقت به ، فإنه مادة العقل وهو يميز السُّنَن العالية وما يريد به العرش الذى فوق الثمانية ، ولا يعنى العرش الجامع الذى يحصر العوالم الأفقية ولا يريد الوجود على مذهب بعض الصوفية ولاحال العلم أيضاً . وقيل فيها أيضاً — أعنى فى تلك الذات — أنها كلها فى ظاهرها الذى عَلّل وضَنَّه بما يلزم منه الأزل والأبد وما يلزم عن ذلك كله وهى حقيقة وحَدٌّ للعقول والأوهام . نعم والعلم الوارد بجميع أنحاء ذلك العلم وطرفه وكأنها ظهرت فقيل لبعض ذلك الظاهر هذا العالم المشار إليه ، والذهن هو كلامها والوجود كلماتها .

وكذلك حالها فى كل مكان ظهرت فيه ينسب إليها فلكونها لها أعنى فى ذلك الامتداد المفروض وسميت فاعلة ولو ظهرت لكان المجموع هو الظاهر المبدّد ، وكأنها مثل الشىء الذى إذا انقسم يشار إليه بإشارة واحدة ، وإذا لم يكن ذلك قسّمه الوهم ونسبه إلى الأقل والأكثر ، وأعوذ بالله من الحرمان .

وطائفة أخرى تقول فيها : هى الحروف المحصّلة فى الذهن ، وتشير أن تلك هى معقول الأمثلة المفروضة ، غير أنها هى أجل .

وأخرى تقول منها ما هو هذا وهي صفاتها المتوسطة ، ومنها ما هو أخفى وهو ذاته ، وهي عموم

الأحوال وهو المشكوك فيه وهو الشك الذى لا ينحل عن الضمائر إلا بتخيل تلك الذات فإنه صفة نفسها ولا يعلمها إلا من وجد ماهيتها .

وطائفة تقول فيها هى بالمضمار والتدبير مع مضافها مثل الشىء المرتكز والشىء المربوط والمستند والملتحم وذلك يلزم لأنها بالنظر إلى صور الموجودات تشبه المحرِّك الذى يُحرِّك ولا يُحرَّك ، ويحرُك ويُحَرِّك ، ويُحرِّك ولا يُحرَّك . وبالنظر إلى صور الوجود يشبه الروح المدبر والغنى الجامع المانع . وبالنظر إلى جملة مصادرها تشبه المعلوم العام .

وطائفة تمنع إطلاق [١٧٢] الموجودات لأنها فى الوجود الواحد بذلك المعنى الواحد ومن جهة المعلوم لا من جهة الوجود هى هذه الأوهام المخيّلة فنعت ماقيل قبل لأنها لا تنضاف إليها ولا تدور عليها إلا إن قال المبطل منها وفيها ذلك كله ، فهى كالشخص الذى فيه الأعضاء المتشابهة الأجزاء ، والآلية .

وطائفة تقول هو جميع مدلول الأخبار ، والأخبار : منها محصلة المفهوم ، ومنها مغيبة العين . وما زال الأمر بتلك النفس حتى انقدح لها فى فص روعها بإزاء النور الاعتدال المحض الواحد الذى لا يطلق عليه باشتراك الاسم ولا يطلق بإضافة أصلاً وانكشف له صراط الله الذى يعود الضمير منه على كُنْهه ، فافهم . وكلما مطلوبه المعتبر وعلمه به فيه لا على الوجه الذى يفهمه الصوفىّ فيدخل تحت وارد أو هاتف يسمعه داخل ذهنه ، ولا يشبه البواده ولا المعجوم ولا النفس المعظم عندهم ، ولا الاطلاع ، ولا ماينسب إلى العلم الذى كان ذلك كله قبل . والاعتقاد يشير إلى هذا الوجود ، وما يلزم منه ، وإلى هذا العالم ، وما يصح فيه ، وإلى المعلوم المعظم عندهم ، وهيهات ! ما أرذل الاغتباط ببعض قضايا الحق ! وما أصدق قوله عليه السلام : « الناسُ نيام » وأطلق القول على العموم فإن الأنبياء بحسب مراتبهم نيام عن كذا وعن كذا ليسوا بنيام فى آخرتهم التى تمشى على مفهومه ويمشى القول فيها بحسب ذلك ولا على الوجه الذى يشير إليه المتكلم من خلق الإدراك ولا على سبيل الوحى ، لأن الماهية إذا كانت من الاتصال فى بعض ما هى به بما هى ماهية لا يصحُّ فى حقها الاتحاد بالوجه الذى يقال هى أبلغ ولا بالوجه الذى يمتنع . فما تعرضنا له لشدة ظهوره لأنّا أردنا الإعياء والبحث على الحقّ الحرّ النقىّ الذى لا يقال بإضافة . وعسى تستروح الضمائرُ رائحة الكمال المصاحب لذات ذوات الكمال لا على المسئلة

والجواب فيه . والقول به لا يحتاج إلى الوحى ، لأن البشرية قد ارتفعت فانقطعت ، بمعنى أن الحجاب الذى يتعرض فى وجه النكتة قد ارتفع وبقى القصد على مقابلة الغبطة الحاصلة والمضمار فى القبيل صفة نفس ذلك المكان . ولما كان القائل لا يصبر على سلب آنية طالب غايته لأنها فى ذات آنية الآنيات ، ولم يمكن أن ينظر بالوجه التابع الذى هو مخزون فى أم الذوات الفاعل فى أم الكتاب الذى يخاطب الكون بالوحى ومن وراء حجاب وبالرسل أعني بالقضايا ، أو بالذوات المرسلة لأنه قال « أو يرسل رسولا » (١) فترى من يكلم على الوجه الذى منع منه لأنه كان يلزم التسلسل . وأيضاً ذلك الرسول أو الرسل هم فى تلك المرتبة النظرة بذلك الوجه . واعلم أن هذا الوجه منه تعين الإحاطة وإن كان القول عليها وعليه يقرب مفهومه ، وبه يبصر الحق وبه يكلم من حيث يسمع ، وبه [١٧٣] تتشكل المظاهر ويصح الكونُ الكلى وتترتب العوالم وتتبين الصورة ويظهر تمويه المألوفات وتفتضح الذوات العزيزة كلها ، وهو الذى يلزم فى كل مُتَوَجِّه وحيثما يولى وجهه الصديق تجده حتى فى عوالمه المبهمة الكامنة التى لا يكشفها الأحد إلا للمتوحّد الذى جاوز الحد وطلع على المطلع بعد ما اطلع عليه . ولا ينبغى لمن يسمع هذا كله أن يسمعه بأذنه أعنى بالأذن المعقولة فقط ، بل يسمعها بالله بعد الاتصاف بنوافله أعنى بسُنّة نفسه المبعوثة فى الخلد المنبعثة عنه . وما زال أمره يشتد وشأنه يعظمُ حتى تولاه الله بعد ذلك الوجه الوجيه بالذى تجلى لأبى بكر خاصةً ، أعنى أجلى تلك المرتبة . ولما تعيّن ذلك كلّه صحّ عنده أن لها من الأحكام ما ينبغى أن يشتغل بها ويمتثل فالتزَمها وأخذَ نفسه بها وزاد أمره ولم يقتنع حتى علم الربوبية القائمة الواحدة وبقى عليه نورها . ثم اشتد حاله عند ذلك لضيقه عنها ولما وجد منها وانقطع فيها قصده وبقى عبده الأولى ربه الآخر ، ثم اشتكل الأمر عليه من جهة الوجود به لا من جميع الشُّبه وما كان به قبل حتى رحم الله بَيِّنَتَه التالية فيه وصحح أسراره الجامعة والتزم عبوديته القائمة عليه وأخذَ نفسه بالأدب مع الذى لا تسعه القضايا ولا تصطاد هوية مظاهره العلوى الحكيم وآمن بعز الله العظيم وهوّن أخباره فيه وغلبت وحدته واحده تحقق عند ذلك أن التقديم والتأخير يلزم فى شأن الله لمن يريد أن يحصله

---

(١) سورة « الشورى » : آية ٥١ .

وطال تأمله فبعث الله العلم إليه بالمراتب المعتبرة عنده ، وعلمه ما هم الناس بسبيله ومَدّ له حَبْل نجاته منه وأطعمه من موائد الذوات الجليلة وأظهر له التطوُّرَ الأعلى . ولا يظن أن حاله يشبه المعراج ، فإن أمره جاء بعد الوحدة الصقيلة البسيطة الحُرّة وتلك لا يسع فيهما إلا الامتداد ولا يطلق عليها التقديم والتأخير فإنها ماحيةُ وَهْمَ الإضافة ، ولا المقامات لأنها لا تتوجه بها إليها مع عدم الامتياز فيها . وإن كان ذلك فمن جهة المظاهر ، ولا الأسماء لأنها فى عقب مدلول يتحد بمفهوم المسمى ويجمع عين الولاية . وإن قيل هى القليل والكثير فبالوجه الذى تقدم ذكره ، ولا حى بن يقظان فإنه اطّلع على أوهام الطبيعة ونظر فى نفسه العالم واستدلّ عليه بحاصله منه واستعان بحصر الأنموذج وتفهّمه وتصفّح كلّيات العالم واطلع على مراتب الإلزام بالصنائع النفسانية ، وهذا لا يجمل بمن يعلم ما فوق الأفلاك فكيف بمن كانها ثم انتقل من ذل ذلك الظل وإلى الله فلك مُعَمّاه . وما عسى أن يقال فى رجل أقل ما يطمع فيه تحصيل الوجود ويقول هو بعض مطالبى وما بعده هو الأصل فأما على وجه أكمل من المألوف يتحرر عندى ، وأما الأمر أعز . هل هذا إلا إفكٌ أقبحُ من ذلك القديم الذى نبه عنه ربُّنا القديم [١٧٤] فاسمع بأُذُن قلبك واصحَ الآن بمجموع معناك إلى ما أدفعه إلى شأنك من الله هذه الأخبار كلها ، وهذه الطوائف هى منى وأنا القائل لها وأنا كنت ولما كانت ، لأن عندى غير الذى كنت أنا قبل بها ، أهملتهما حتى فى النسب وفى الضمير . وأيضاً جميع الأخبار المحصلة المحركة للضمائر هى واحدة فى الناس فمن نسبها إلى أكثر صدق ، ومن صرفها إلى نفسه صدق : مثل الحديث الصادر عن باديء الرأى ، والأخبار الضرورية . والرجلُ الأوّلُ هو ذلك الأخير ، غير أنه كان على مفهوم الدائرة الوهمية . وتنوع مرتين : مرة فى صعوده بالتركيب ، وأخرى فى نزوله بالتحليل ، فلذلك أخبر عن الكشف ، وأخبر عن الأمر الواحد ثم ذكر الجميع على جهة الحكاية لا أنه اغتبط . وأمره يرجع بالجملة إلى الله . وهو الآن قد كمل وتركيبه فى التحرير لا فى التحصيل ومما قال : هل ما أنا بسبيله الجليل الذى لا يعلل أمره ، ولا يقدم عليه بالشاهد الذى تصح منه المشاكلة الوضعية وغاية النفس الكاملة تُسَلّم وتُسْلِمُ وتستسلم ، وتكون أكثر من ذلك فى مفهوم ذلك أو تقول هى فى المجموع المذكور كالروح وما هو به الإنسان ما هو على الجملة أو لعلة ذلك بالجملة . وهو فى الناس يقال على كثيرين وحيثما

عقل الخير يقال هذا عليه . وهو فى الوجود بالوحدة المعتبرة عندى ، وهى المحصلة بالنشأة التى هو خلقها بالتسوية والنفخ فى الأولى — فافهم . أوهى مرتبة أعنى تلك الذات وما أدراك : ومفهومها ومعقولها ينقسم على الضمائر . وإذا تشخّص الوهمُ معلومها كان العبد منها وإذا انصرف القصد كان الربُّ فيها كما تقول : الخضرُ مرتبة ما ، والصديقية أخرى ، ولما كان للمرتبة المذكورة أو المراتب شخصٌ ماهو مظهرها الوهمى وهى معه مثل الجواهر الأولىٰ مع الثوانى . فبينما هو فى هذا كله ، وإذا باسم الذى دُعى به أجاب بمعنى أنه هو ذلك الحق الذى لا يحتمل الزيادة والنقصان ولا يطلق عليه اسم الكمال فى ذاته ولا فى الذى قاله لأنه انعكس على كل راجع ومطالع وثابت ؛ وأجاب أى قال له صدقت ، أى أنا ذلك بمعنى أنه ناداه بالذى يجيب له وهو العلم الذى قام به وقام به بعد ذلك كلُّ شيء متأخر وحيث يقول الأصمُّ أو غيره من الكمّل أنه إذا دعى به أجاب فى المسئلة يقول هو قد ناديت الوجود وصورته والأول من ذلك وأجابنى عندى . فأنا أفعل بحسب ذلك ، وأعلم كذا وكذا وأكثر من كذا وكذا والاسم المذكور هو علم الله ، وهو العلم الذى يعلم الله . فافهم يأيها المخاطب وانسب هذا القول للمتكلم .

نعم وتلك المذاهب كلها إلا أنه أمره الذى هو الآن به لا يمكنه الكتب به ولا هو أيضاً غيرُ . غَيْرَ أنّ هذا اللوح باب شأنه الثالث ولا يتبدّد عليك الكلام وتختلف الفائدة بالجملة ويبعد [١٧٥] الضمير فى الضمير ، فإن الكلام كله يشدُّ بعضُه بعضاً وهو يتعلق بمفهومه وبعلم المتأمل . فتأمل واغتبط ولازم ، وحَصّل واصرف صورة قولى إلى الآية الأولى وبعد ذلك تبحث عن سائرها . ياهذا ! الرجل المعقول حَفِظَ اللهُ وجودَه فيك بوجوده منك لما هممت بوضع هذه الألواح وعزمت على كتبها وقضيت بها أجابنى قَصدى الثانى وتحرّكتْ يدى واجتمع على ذلك معناى كله إلاَّ الأولىٰ والأخرىٰ منى والنظر فيه عصيت أمره من جهة الاغتباط بك لا من جهة ما وَجَبَ لك وتعين بالمضار . والذى حملنى على بحثى مالم نتردد فيه هو يدبر بفضله عاقبته ويحفظه . واعلم أن الله عزّ وجَلّ ما أظهر ذاته فى مَظْهَرٍ ما إلا وقد رضى ذلك المظهر . وهذا الوقت وقت ظهور الهلايل الكلية التى بها تحصل الجملة ويثبت رَسْمُ اللوح وتدور أفلاك الحس والمعنى وتنهل القضايا ويتتبع الاسم المسمى الواحد فى الدلالة والمدلول الرسم المنسوب الذى هو إلى

الله على ما يجب والله لا يظهره إلا على مظاهر العزم والجاه والتصريف . ومما نعرفك به أن المحقق الجليل هو النبي صاحب سُنّة الله التي لا تتبدل وجميع المذاهب التي فرعها خبري هي من جميع تطوراتي . فلا تلتفت منها إلاّ الذي يقوم من جميعها ويصحّ معه أدبُ الدنيا والدين ويكون بحيث لا تنكره شريعة ولا عادة صالحة ويستحسنه العقل ويقول به أهلُ الله وإن بَعُدُوا عن معناه عند النهاية يعلم . والسلام عليك وشرح الحال في قوله « ذلكم حُكمُ الله يَحكُمُ بينكم والله عليمٌ حكيم » (١) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

---

(١) سورة : « الممتحنة » آية ١٠ .

رسالة الألواح المباركة

بسم الله الرحمن الرحيم

وله رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً .

صدقَ اللهُ ، والحقُّ يقول الحقَّ ، وقوله هو معناه . وحاصِلُ ذلك ما من موجود موجداً[1] في مستند إلا ويقول هذا القول أو يقال عليه . وهو ذلك المعنى أو مِنْ ذلك المعنى من غير تبعيض ولا إشارة ، فإن الحق واحد ، وما عداه وهْمٌ ، والأوهام هي المستندة والمستند إليها بوجه ما ونحن تلك الأوهام ، بل نحن نحن ، بل هو هو ، بل لا يقال نحن ولا هو من حيث الإشارة والميل ولكنها تشعر بالشيء الذي يجد ذلك الشيء من كل الجهات ، ويصرف هو والهو هو إلى أنا ويجد الآنية والهوية معاً . فمن علم هذا تجاوز واستعار الوهم ، واستند إلى ظل حقيقة وهمية ، وجعلها موضوعة لذلك الوهم ، وسَمّى ذلك ذاته وأوْجَدَ مَنْ لم يكن وأعْدَمَ من لم يزل . وهكذا فعل مَنْ لم يكن ذلك الشيء . وبعد ذلك يحقق الحقُّ الحقَّ فيكون من لم يزل من لم يزل ، ويكون من لم يكن من لم يكن وهذه الروابط التي بين ذلك وذلك ، وهذه هي العهود والأحوال وهو غاية أهل [١٧٦] هذا الزمان .

إيه ! فنرجع لشرح بعض ما تقدم فنقول: ما من مُدْرِك مُدْرَكٍ معاً إلا ويقول هذا القول أو يقال عليه أو هو منه لا أنه عنه ، بل هو هو لا أنه له . وحاصل ذلك كونه ماهية أوهم الوهمُ فيها الإشتراكَ وبسطها حيث قبضها وغَيَّبها حيث أظهرها وكان من ذلك نكتة صقيلة وضد ذلك وكان ويكون والكائن ، ومفهوم ذلك المظاهر والمراتب والأسماء والمسميات والقوانين ، وحاصل ذلك لواحق الذات وكلامنا وَهْمٌ على وهم — فافهم . ومفهوم اللواحق عين المطلع ، والمطلع عين

---

(١) كذا وصوابه : موجِد .

الاستحقاق ، والاستحقاق عين المجد ، والمجد هو الذى يُعطى ويُمنع ، ويُخفض ، ويرفع ، ويجذب ، ويدفع ، ويقبض ويبسط ، ويصرف ويحد ، ويرسل ويصد ، ويحلل ويركب ، ويمد ويقرب ، ويبنى ويهد ، ويوحد ويعد ، ثم يمنع الجميع ويحض على الجميع ويمنع منه التأليف ويحصل على المؤلف إلى الجملة المعلومة أو المشار إليها ، ويحض على التفصيل كما يجب ويحض على مفردات تجذب وكان هذا الجذب صفة نفس لكل واحد منهما ، ويحض على قطع الجذب الوهمى لا أنه كان قط وجودياً بل كان مفروضاً من الوهم على القوى وعلى العقل والضمير حتى يظهر لك أن الحق هو الذى يقول الحق ويجده حقيقة . فحينئذ لا يتأتى إلا الواحدُ من كل الجهات .

إيه ! والجملة التى قامت فى هذه الأفراد الوهمية تنحل بمعنى تعدم ، وتعدم بمعنى لم تكن ، ولكنها فرضت على مثال وجودى وهمى لكى يكع الوهم ويقوى الحق المغصوب الذى غطاه هو وبعد هذا يقول الحق فى الفترة التى بين الكون المنسوب والفساد المحسوب . وهذا كلام مدلوله قائم على كل نفس بما كسبت ، وموجود فى كل نفس نفيسة بمعنى أكل ولكل روح رئيسة محملة لما قيل أو لبعضه بوجه أرفع وأعلى وقائم بجميع أنحاء الكمالات فى ذات الحمل والغوث والخليفة والرسول والملك والفصل والمرتبة والوسيلة والدرجة والكليات وما وراء الوراء وأعيان المقادير وقضايا الاستدعاء وذوات الاسترعاء من ذلك الشان ولذلك الشىء وفى ذلك الشىء وذلك الشىء . وكل شىء له شىء فليس بشىء ، وكل شىء لا شىء له فهو شىء لمعنى وهمى . وكل شىء تصرف الأشياء إليه وله الأشياء تارة وليس له أخرى فمن قبيل ما تقدم ، بل أنقص . فحقق الماهية ، واعلم أن الذات والشىء والحق والوجود والأمر والقِدَم والحدوث والمكان والزمان والإضافة والعدد ينسب الأعلى هو على كل حال أعلى ، ولو علم الأسماء ما سمى المسمى بشىء يشبه فك المُسَمّى ، وكل ما سمعت ما خرج عنك ، وكله كان منك وما أنت المقصود ، وله أيضاً ذلك . فسبحان الذى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (١) ، ولا هو شىء مسمى بمعنى الشىء الذى قيل فإن ذلك شىء شاءه هو . ومشيئته عند المحقق معنى يقوم ويتمم وهى جاذبة ودافعة . [١٧٧] فأعوذ بالله من المشيئة على مذهب الأشعرى ، وبئس ما قال فيها الفيلسوف ، ويا أسفا على المعتزلى ، ولطف الله بالصوفى وتمم له ما بدا به وطوى المحقق . وقد خرج بنا الكلام إلى أنقص مما كنا فيه وبالقصد كان والمراد به التغطية

(١) الشورى : ١١ .

وحكمة الوقت تحض على ذلك . فنقول : الماهية التى قامت فى العارض الأول إلى حد الحصر ثم أحياها النصيب الإلهى الذى لم يصدر من كمية ، ولا تغير بكيفية ، ولا تناسبَ بإضافة ولا تجوهر بشكل ، ولا تشكل فى مادة ، ولا استند إلى وضع ، ولا تمكن فى مكان ، ولا انجر عليه الزمان ، ولا انفعل ولا خلاف ولا لغير ، بل فعل ذلك أو فعل من فعل من ذلك أو فَعَل مِنْ فعل من فعل ذلك أو فعل من فعل عن ذلك ، أو كان بوجه ما ذلك . فهكذا فكِّر فى الماهية التى ذكرناها واجعلها ماهية بنصيبها الوجودى ثم اجعل الكل ماهيةً وجودية ، ولا تلتفت إلى ماهية المشّائين ، ولا إلى من تقدمهم وتأخرهم ، ولا إلى من يخوض فى مثل الذى يخوضون فيه . فإن الماهية تقال عندهم على أنحاء سبعة ، ثم على خمسة ، ثم على ثلاثة ، ويتكلمون عليها بالنظر إلى الأحوال والخواص ، وقليلا ما يوجد فى هذا الوقت من يتكلم عليها ككلام من تقدم ممن يحض العاقل على إهماله . وإن كانوا قد اختلفوا فالكل قائلون بالعوالم الثلاثة ، وبالرابع على رأى من لا يؤبه به ، وبالجملة تلك عَدَمية شبيهة بالعدم ، أو يقال عليها العدم بتقديم وتأخير ، وبترجيح وبتشكيك ، وقد يلزم فيها الدور أو قد يلزم منها ، وتكون لا موجودةً ولا معدومة . وقد يقال فيها شيء بوجه ما ، وقد يجوز فيها القول ، أو يقال هى المعنى الذى يمكن أن يعلم ويخبر عنه . فالكلام فيها تَقْدِرُ أن تقف عليه فى مواضعه فى كتب مَنْ ذُكِرِ ممن لا تُحَضُّ بالإنصاف عليه ولا ترشد بالنصيحة إليه . والأخذ عليهم وما يمكن أن يقال فيه يطول شرحه .

إيه ! فنرجع فنقول إذا حكيت تلك الماهية أو كنتها يمكن لك أن تتأهب إلى الغريزة ولما فقد أكثر الناس هذه الماهية تخبطوا ، واختلفوا وطلبوا مشروطهم بغير شرط . وحاصل أمرهم هو أن أملهم منسوب فى مشار ما إليه رئيس رئيسهم متعلق بوهم ما خسيس ، فتوجهوا بقصدهم إلى غير مقصودهم ، وصرفوا حمدهم فى غير محمودهم . وحقيقة هذا النقص من الطريق لا من السالك ، ومن المهلك لا من الهالك . فكلٌّ يطلب الأولى ، ويتوجه بإرادته إلى العلىّ الأعلى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إيه ! فإذا جعلتها وجودية فحينئذ يمكن أن تغتبط بذاتك وبما بعدها . والكامل الذى يقول ما بعد الماهية الوجودية ، لا الذى يقول ما بعد الطبيعة ولا ما قبل الطبيعة ، فإن ذلك من جملة

مراتبه الوهمية بل المهملة الوهمية . فعليك بالوجود العرىّ عن الروحانى ، وكما وصلت إلى ما ليس بجسم ولا فى جسم العرى عن المعاد . عسى تصل إلى العرى عن هذا العرى بوجه وبحسب ما أصّلناه فإنه لا [١٧٨] يمكن للمعلوم أن يخرج عن المُفارق أو غير المفارق . وهيهات ! هذه نكت يقال فيها هذا لكى تصح الوَحْدة المطلقة من كل الجهات فلو تَشخَّصَ الوجودُ فى موجود ما لكانت طبيعته مختلة وهذا لا خير فيه ، فافهم واستند وتَمَلَّقْ وتأهب لملكة ملكوت السموات والأرض الكلية . وكلامى على ما هو أعلى من عالم الطبيعة ومما بعدها وراء المثل المعلقة ولا يخرج عن ذلك بجهة ما . وهذه هى الحضرة الواسعة بالنظر إلى الكليات التى يستعد لفهمها بالكليات لا الجسمانيات من الجوهر الكلى والطبيعى ، فإنها متحيزة ، ولا المفارقة ، أعنى النفوس والعقول والصور الهيولانية فإن تلك متميزة وحَيّزُها الحصر والترتيب والتقديم والتأخير ويأخذها العود فى ذات المقابلة فقط ، وكذلك المُثل فإنهما منسوبة والمتأخر منها دل على حَيّز المتقدم ومطلوبنا أشرف وكذلك الأجناس المذكورة التى تذكرها الصوفية فإنها متحيزة بإضافة الرئيس الأول إلى الرئيس الثانى وتشبه المُثل المعلقة ، والمثل المعلقة أسنى منها وأدخل فى النظر . والتفكر فيها هو أطيب لذى الحال من المثل ، وأقرب إلى الشريعة . فاعمل على الشىء الذى لا يقال على أكثر من واحد ولا يعقد من المُقرّ والجاحد ، فإن الرئيس والمرءوس والروحانى والجسمانى لا وجود لها إلا فى الإضافة وبالوهم الذى يتعارض بينهما ويكون كالفاصل ، ويقال به هذا أعلى وهذا يصدق فى جملة عوالم إلاّ فى عالمنا نحن فإنّ طالبنا ومطلوبنا من ذلك كله وهو إكسير الكمال المراد عندنا لا المذكورِ عندَ مَنْ ذُكر فإنّ ذلك كله حصل بعد الفتح ، وهذا يطلب به هذا الفتح ، وهكذا ينتهى البحث والفتح به إلى أمر يسكت عنده بنفس ما يتكلم به — فنقول : الكمال هو إكسير الفتح الدائم ، وهذا الدائم إكسير الخلافة فى عالم الإنسان ، وموضوعه الخلافة فى ذات الشان ، والجميع إكسير الاستحسان ، والاستحسان إكسير الأنس ، والأنس إكسير إدراك الملائم ، والملائم إما ما وردَ بعد أمل ، أو ما جاء بعد استراحة من مؤلم — وهذه هى اللذة عند الضعفاء . وأردت هنا بذكر الإكسير ما يشبه الرمز والارتباط ، وأهملت ذكر المقدمة والسبب والشرط والعلة والمدخل والمقدم الذى يستجلب المتأخر ويلزم عنه أو منه أو به أو فيه ، لأن هذا المعنى الذى

نحن بسبيله لا يسوغ فيه ذلك فإنه بعد الصنائع وبعد مقاصدها وتنبه بها الضمائر من وراء وراء ، وهو عين العين ، بل هو هو ، بل هو الواحد . وأردت بهذا الإكسير الشيء الذي يضمن غيره في وقت ويولده في آخر ويفعله كذلك ، أو يكون سبب السبب وقد ينعكس على الأول ، وقد لا يوجبه ويكون هو هو وقد يكون له تحت الملكة والاختيار لا تحت الارتباط والالتزام .

فنرجع إلى اللذة : فنقول قد تقال مع الأنس بترادف ، وقد لا ، وقد تقال معه [١٧٩] بتقديم وتأخير ، وقد لا ، وقد تقال معه بتشكيك ، وقد لا . والمستحسن والموافق والملائم والملذوذ — كلُّ ذلك من أجزاء ماهية اللذة ، وهي تمتد على جملة مراتب لا في حـدّها ، وتطلق على أنحاء من جهة الأقل والأكثر والأقوى والأضعف والأكمل والأنقص ، وتعتبر من جهة مضافها الرئيس والخسيس . فإن كان جليلا قيل فيها جليلة ، وإن كان خسيساً قيل فيها خسيسة ؛ وهي بالنظر إلى ماهيتها الكلية العَرِيّة عن اللواحق المنطقية والطبيعية ممن لا يتبدل إمّا العمرَ كله وإما في أكثر الزمان إلى الشيء الذي لا هو .

وكذلك الإنسان لن يصاحبه بحسب ما ذكر في حياته وبعد حياته وأجلّ ما تحتويه اللذة بالهمة وبها تعلم ، وهي تدور على الحب ويدور عليها ، وتجذبها الإرادة بوجه ما خفيٍّ وجلي ، وقرارها في عين الرضى وهي قربها ، وهي نقطة من أجلها هي دائرة المباحث والمطالب ، فإن لكل متوجه خبراً ما يتشوق إليه ، أو لذة ما يطلبها ومن مضافها يحقر أو يعظم . ولولا الفكر في لذة الأفضل لم ينتقل عن لذة الخسيس ، ولا طلب عليها زيادة ؛ « وكل حزب بما لديهم فرحون »[1] . ومن قر عيناً بعيشه نفعه أي تلذذ به واستحسنه . معقولها واحد وأحوالها مع مضافها كثير ، وكأن الجنة هي مثل الدنيا في معقول موضوعها ومحمولها وهي غيرها بالنظر إلى أحوالها وإلى أحكامها كذلك اللذة في أمرها . ومنها طبيعية ونفسانية وعقلية ومتوسطة ومركبة من ذلك . والإلهية موجهة إلى الفاعل والمنفعل وإلى الطالب والمطلوب . ومنها ما هي مركوزة في جوهر السعيد وهي تصدر منه عنه ويجدها إذا انصرف إلى نفسه لا سيما إذا ترك حواسه ورفض العالم المحسوس وتشبه باللطيف منه وكان كالمفارق عنده وتوجه بالمفارق

(١) سورة « المؤمنون » آية : ٥٣ .

إلى المفارق واستسكن إلى سكينة الملاحظة وخطف سوابق الغيب الواقعة عليه من مقرها الأول وقطع الحجب التي من أجلها قيل ما بالقوة وما بالفعل . والشقي لا يفرح بنفسه إذا خلا بها ويعدد أنسه بوحدته ولذلك يفتقر إلى الملاهي ويهمل المعاني التي تحرك منها الحس والمحسوس وتغيب العقل والعاقل والمعقول بضد ما يجده الفضلاء عند سماعهم الألحان المطربة وليس له الهياكل المنتصبة وأكثر أنسه بما هو خارج الذهن أو مدرك بحسه أو بقوة طبيعية أو ببعض القوى المشتركة بينه وبين الحيوان غير العاقل . ومن الناس من قال بعدها السكون والطمأنينة والفقر الوجودي الذي لا يعبر عنه واستناد الماهيتين وسقوط الواحدة عند الثانية وظهورها بها ظهور ماهيته في ماهيته ثم واحد ولا اثنان ثم اثنان وواحد ثم واحد في كل واحد من ذلك ثم واحد ولا شيء من ذلك . وقد قيل إن البحث فيها من قبيل الشاهد على الغائب ، وهو مما لا خير فيه ، وإنما الحق أن يترك ذلك المعنى بما هناك مجالساً يدركها ، وقد قيل إنها جوهر المقر الإنساني وذات منتظرة أو قوة خاصة . وقد قيل صورة ممتدة لأجلها طلب المعلوم ونظر في العلم وفيما قبله كالقصد إليه وما [١٨٠] أشبه ذلك . ولولا خوف التطويل كنت نبين القول فيها ، وفيما يجب عندها ، وكيف هي وهل هي حال العلم هناك أو ثمرته ، أو هي هو ، وهل تقوى أو تضعف من جهة العلم ، أو من جهة المعلوم ، أو هل هي بالعلم دون العمل ، أو بالعمل دون العلم ، أو بهما ، أو بخاصة ما تابعة لهما ، أو لكل واحد منهما ، أو بتخصيص لا في شيء من ذلك كله أو بأمر آخر ينضاف لهما ، أو بالجميع أو بتركهما من جهة العلة أو بوجودهما من حيث السبب أو هي حالية تخلق حال الاتصال للواصل ، أو هل هناك ماهية أو جزء ماهية أو مقوّمة له ، أو متممة ، وهل يمكن الكمال دونها أوّلاً . وإن كانت في كل كامل ، فهل هي هناك ذاتية أو عرضية ، فإن كانت ذاتية فهل هي من صفة نفس ذلك المقام أو غير ذلك ، وكذلك إن كانت عرضية . والكلام عليها من حيث هي نتيجة أو مقدمة لأمر ما أو علامة القبول والمحمود منها وغير المحمود ، وأما الذي يخص الخواص منها فيطول شرحه . وأيضاً هذه اللذة يجدها كل عاقل من نفسه كما يجد الألم ويميز بينها وبينه . ويظهر أنها غنية التعريف بهذا البحث لأنها مشعور بها في نفس المدرك . وينبغي أن ينظر فيها من جهة ضدها وكونها معه في مقولة الكيف والملكة وما أشبه ذلك والقول عليها كالقول على العلم والجهل تحت الافتقار والغنى والفقر تحت الملكة لأنها مع ضدها كالسواد والبياض

تحت اللون . وانظر ذلك فى المتقابلات وفى معنى الجنس وأنواعه وفيما يعم ، وهو كالجنس وفيما يعم وهو كالنوع وفيما يعم وهو كالكل وفيما يعم وهو كالموضوع الأول وفى المبدأ وفى الشيء الذى يرجع إليه ، وما المعنى الجامع الذى يخص الجسمانية والروحانية بفصول ويجمعها بخواص فى معنى عام تقال عليها وتحمل فيها حملا واحداً . لأنك لا تقول هى الملائم للمزاج فينقضه عليك التذاذك باللذة المعنوية مثل التذاذك بالصيت والرئاسة وطلب الجاه وإن كان الجنس ينفعل للفرح فهو المعنى الموضوع لحركة اللذة ومنفعل عنها واللذة الروحانية محلها روحانى وكذلك الجسمانية والمحمول الروحانى موضوعه روحانى وقد ينفعل الجسمانى عن الروحانى فإن العالم انقسم إلى ما يحرك ولا يحرك ويتحرك ويحرك بجهة وجهة ويحرك ولا يحرك. فاللذة روحانية وجسمانية . وبمثل هذا الاعتراض يلزم فى اللذة المعنوية . وإن قلت هى إدراك الملائم ينقضه عليك المملول الأول وإن قلت الألم هو تفرق الاتصال واللذة بالانفعال أو المال المدرك عند الاتصال المنفعل والاستراحة من المؤلم يلزمك الشك الذى ذكره أسطانيس الحكيم وألزمه وذكره أبو بكر الرازى وابن الخطيب فى الملخص . فحصلها بجوهرك ولا تأخذ مكانَ ما هو بالذات ما هو بالعرض وتحفظ من الاغتباط بلذات الأشقياء فإنها خسيسة وأخس ما فيها الفرح بها ، والوقوف عندها وبذلك [١٨١] تمتنع النفس عن طلب غيرها ولا تلتفت لكلام الناس فيها فإنه من قبيل الخطابة وهو بالجملة إقناعى . والحق أحق أن يتبع وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

كملت « الألواح المباركة » لسيدنا الشيخ الوارث المحقق عبد الحق بن سبعين نفعنا الله به وأعاد علينا من بركاته وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً دائماً.

رسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

وله رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم كثيراً .

الله ! الله ! الله ! رسمه الفقيرُ إلى عفو الله ، عبدُ الحق بنُ إبراهيم بن نصر بن محمد ابن ٥ /(1) .

يا هذا ! لايُعبد ولا أيضاً يحمد فى عُرف العِرفان والحالُ هذه إلا مَنْ له ملكوت المُلك والملك . ثم هو واهب الفَضل وبيده أحكام الكواكب والأفلاك وكلُّ الأكَر ومركوب الفُلك . هو الذى لا يُشهد غيره إذا لَحَظ الوجودَ وشاهده . نعم ولا يُعرَف أيضاً إذ به ينطق ذاكره وجاحده فمن تقدم يقول « هو » فقط أو الذى لابد منه من جميع جهات الدّور . ومن تأخر يبصر أفعاله ويوجب حمده بلسان العموم ونَعت الأعياء والمبالغة على الفور . ولقائل أن يقول يدرك الذى بيده كلمة الممكن العام وكل وجود مُشَخَّص وبه فى الدقيقة والدرجة والساعة واليوم والجمعة والشهر والعام . ثم له أن يقول : مَنْ هو الحقُّ حيث هو كذلك تكون له الوحدة المحضة المطلقة الواقفة . بل هو لازم الإحاطة وحقيقة القصد والخطفة الآتية والسالفة . شَهِد المسلم وأثبت القولُ توحيدَ من عانده الوهم الأول . وعرف المؤمن الواجب ، فقال قد قيل إنه مُشار الأمرين والآخر والأول والمحسن . شاهد فلم يُنوِّع ، ولا أيضاً استدلّ . والواصل أطلق القول بالسلب وأفرد اللازم واستقل . وصرف المحقق القسط والنصيب إلى المعالجة العقلية . وراجع البصيرة وأقام علمُه القوانين المقبولة النقلية ، ثم ألزم الكل الطلب وعَلِم الحِكم الآلية لا بالكليات الكلية ، ثم فهم المسائل

---

(1) اختصر ابن سبعين اسمه بجملة علامة رقم ٧٠ ولذلك سمى ابن الدائرة (الدائرة = ٥) ، راجع المقرى جـ ١ ص ٥٩١ س٢ ، وColin فى المجلة الاسيوية عدد ٢٢٢ ص ٢٠٤ .

وكان على بَيِّنَة من الحَصْر والوقوف . وَصعِد الدرجة الرفيعة ووصف الملك أُنه مالك صف الصفوف. وأشعر القلوب بالتقلّب من المطالب وإن كانت عالية ، وزعم أن فضل الله الذى يؤتيه من يشاء غيره عز وجل خطابة خالية . وآمن بالأحد الصَّمَد الذى لا يقال بتقديم وتأخير فى عناصير العلوم . ووافق بوجه ما مَنْ قال إن العلم والعالم عين[1] المعلوم . ثم علم أن المطلوب الأعظم فى الدور بعد النهاية ، وأنه قضية الوقت المفردة فى عقب [١٨٢] نظرة السعادة .

تبارك رب الفطرة السليمة الزكية الذى لا يمكن الشركة فى مقالته مدرك قوة فى المنطق السنية . لسان الشاكر الأول قال :

« سُبْحان مَنْ بجميل الصنع قد بدآ »[2] ثم يقول : «سبحان مَنْ صنف الخلق الذى بدآ »[3]
ولسان المتكلّم يقول :

سُبْحان من أوضح البرهان فاتضحا سبحان قاهر من قد لجّ أو جنحا
سبحان مَنْ ساقنا للرشد ثم هدى سبحان من لم يَدَعْنا مُهملين سُدى

ولسان التصوف من جهة الوجه الأول يقول :

سبحان من باختصاص شَرَّف المَلَكَ .·. سبحان من علمه مُحْصٍ لما مَلَكَ . والثانى يقول : سبحان مانح فَضْل السبق مَنْ سبقا .·. سبحان مانع من عن بابه أبِقا . والثالث يقول : سُبْحان من وطّد العلياء والشَّرَفا ، سبحان من فَضَّل الأصحاب والخلفا . والرابع يقول : سُبْحان رَبٍّ به حقًّا له وصلا ، سبحان مستوجب التسبيح متصلاً . والخامس يقول : سُبْحان مُتْقِن ما أبدى من الصُّوَر .·. سبحان مبتدع الهيئات والفِطَر . والسادس يقول : سبحان ذى العز والملك الذى شمخا .·. سبحان مُصْرِخ مضطر به صرخا . والسابع يقول : سبحان المطلوب بما هو له وبه عند ذلك ! سبحان المدرك ولا غيره يقدر ، لأن الحق فيه كذلك

---

(١) هذا مذهب أرسطو ، راجع « ما بعد الطبيعة » م١٢ ف٩ وعنه أخذه ابن سينا وسائر الفلاسفة المسلمين .

(٢) شطر بيت من بحر البسيط . (٣) من : مفعول لاسم الفاعل « مانح » .

والثامن يقول : سبحان من وحده الدور قبل الإعياء والمبالغة ! سبحان من يتحقق بالذات القائمة لا بالحكمة المبالغة ! والتاسع يقول : سبحان المُسِرُّ عَنْ رعاية الأصلح وتخصيص العموم ! سبحان العزيز فى ضمير المحقق لا بالمفهوم ! ولسان التعليم يقول: سبحان من غلب نظائر التقديس ! سبحان من حكم على لازم المقيس . ولسان التنبيه يقول : لا يقال ذلك لأنه عن دور الأول ، ولا هو أيضاً ذلك لأنه بالإضافة غير الآخر الأول . ولسان التقرير يقول : سبحان مشار النكتة والقضية المدرك بالسكينة بعد النية . وبالجملة سبحان الله لأن أوصاف السناء له . والله أكبر ! ليس الوهم نائله . والحمد لله حمد العارفين له . والله أكبر تكبيرا بواجبه ولا إله إلا الله لُذْ بجانبه . ثم الحمد لله إقراراً بنعمته . والله أكبر إذعاناً لعزّته . ولا إله سواه فى بريته . سبحانه صَدَعَت فينا حُجّتُه . شواهد الأمر مرآه ومسمعه . والحمد لله أعطى الخلق ثم هدى. والله أكبر لم يترك أحداً سدى . ولا إله سواه . ضَلَّ مَنْ جحده . سبحانه أرسل الرُّسلَ الكرام هُدَىً ورحمةً . فصفا للشرع مَشْرَعُه . أحمده على كماله المطلق ، وأشكره على نعمه ، وأستغفره بلسان التوسل ، وأضرع إليه فى السلامة مِنْ نِقمه . وأشهد أنه الواحد مشار الأسماء الخمسة المُحصّلة وأنه هو الحق ثم الرب وله البيّنات المفصّلة . وأشهد أن المختتم بدعوته أفضل ذوات العالم السبعة . وأنه بعد عوالم العلم يماثل التقريرات التسعة ، بل هو المختار غير أن الذى يقال مع الحاصل الأطلس فى الرتبة الثالثة لا يقال هو به وله وهو [١٨٣] الكامل ، غير أن الذى تحصل فى السفر بعد ما هو بعد الطبيعة جعله الله آخره وأوله . وهو المتوحد فى الأسماء القائمة ؛ والذى يرجع الدور إليه ، ولازم السكينة الدائمة صلى الله عليه هو الذى أبصر آيات ربه وطرفه غير كليل ، وهو الذى جاء بمعجز القرآن والتنزيل ، ثم هو الذى قادنا إلى الحق بالتيسير والتسهيل ، والذى نفوسنا بمحبته تتقلب فى كل مُعرَّس ومقيل . وسلام الله على لواحق أكوانه إذ لم يزل فى أحكام الزمان بالمعجزات مُؤيداً ، وشريعته مع الأحيان تعرفنا طُرُق المحامد والهدى ، ورضى الله عن الذوات المعتبرة من بعده ، وكل النفوس الزكية المودعة سِرّ الأنموذج بما هى فضيلة من عنده ، وأيد الولد النَّدْس النادر الأندرى المنتجب المنتخب النجى المهاجر الناسك الوافد الورع الطاهر التقى النقى الحافظ الثبت المدرك المحمود ، ثم المحب المخلص فى ولائه شهاب الدين أبا جعفر أحمد بن عبد الحق

بالقصد الثانى ، جعل الله سعايته صادقة ومقبولة عنده ، وحفظ عليه قلبه ودينه وعهده ، وسلم من الطرد القاطع علمه وعَقْدَه ، وأنجح من كل الجهات سعيه وقصده ، وأطلع فى مطالع البرّ قدره ومجده ، ورزقه فضيلة يبلغ بها فى المراتب العالية وُسْعَه وجهده . وقد أذنت له أن يحدِّث عنى بكل معلوم تحصله فضيلةُ الرواية والدراية ، وتظهره مهنة القراءة ورحمة العناية . ثم يقوم على أحكام الوراثة فى مقام الهداية للمسترشدين قيام الوارث الواصل ثم الفاضل الفاصل ، ويفتح الزاوية ويأمر بفتحها ويكتب الإجازة ويبسط السجادة ويأخذ العهد ويجعل ذلك عن لواحقه ثم عنه ويبلغ الغاية فى النيابة وله ومنه . لا زالت عناية الله به حتى تحمله إلى دار الأقطاب وتحصله فى محيط المحققين ودائرة الانتصاب والاقتضاب . ومهد له درجات المعرفة وأوثق به حَبْلَ الألْفة وعرّفه فى كل ما يعثر منه صُنْعاً جميلا ولطفا خفيا جليلا ، ويَسّر عليه فى سبيله ما هو « أشدُّ وَطْئاً وأقْوَمُ قِيلا » (١) ولا برحت الأنوار الإلهية تكشف له عن الخفيات ، والعناية العالية الآلية تدبِّره حتى تحصل له الغايات بحصول الأولويات والمواهب الملكوتية تقيده تقييد الخصوصية الصمدية ، والبركات الكافية تحمله إلى الحماية الأحدية ، وأنعم عليه بالفطرة التى تكون النفس مطمئنة صورتها المتممة والمقومة ثم يزيده من فضله حتى تكون الحكم اللدُنِّية طبيعته المُسلَّمة والمعلمة . تدبير يعتمد : أسعده الله وأيده على الله فى كل الأمور ويسلّط الفقه على كل أكوانه الكلية والجزئية ، ويكون مع الحق على أى حال كان بتدبير العلم الجامع ويجعل القرآن إمامه والسُّنة طريقه إليه ثم إلى كل المعاملات [١٨٤] ويعمل على المعارف ولا يرجع عن نوع من أنواعها ، ولا يقنع من رب البرية ولا يطلب غيره وكما أفرده بالربوبية ثم فى الأفعال ثم فى الوجود يتوحدُ أيضاً فيه ويكون الواحد الواحد بالقصد المتوحد فى طلب الواحد ويجمع كل الأغراض والأحكام والحركات والسكنات كلها إليه ولأجله ، ويصعد على دَرَج التحقيق حتى يعجز قَدَمُ المبالغة ، وينظر فى غيب الغيب حتى يَكلُّ نَظَر بصيرة الغاية ويرسل رُسلَ فهمه وفكره إلى فضل الله كيف كان حتى يقف طير الأغياء والنهاية ، ويشد يَدَ العناية على الروع المحض ويكون على قدر ونحو الصواب بحيث يسلم فيه الفقيه ويستحسنه العقل

---

(١) سورة « المزمل » آية ٦ .

ويوافق صحيح النقل . ولا يتهاون بقضيته المفردة فى الأنفاس الدائرة عليه فى الزمان الفرد ، فإن قضية البحث عن الشأن العزيز وقتية . ويمسك لسانه على المطفف والمقتصد والمقلد والمجتهد ، إلا فى أمور ثلاثة : أولها الغضب فى الله ، وثانيها الكلام فيه ولأجله ، وثالثها التنبيه على المصالح التى تحفظ نظام الطريق وترتب قيود الألفة ، والنصيحة لإخوانه من عموم المسلمين . ويقيس كل كون يكون عنه وبه وله بالشرع المطهر بالعقل النورانى وبمراد العلوم . ثم يقلب الشرع على الفضيلتين لأنه من طور أرفع وأنفع وأجمع . ولا يمل ولا يكسل ، ولا يبالغ فى المجاهدة ، ولا يتأخر عن طلب رعاية الأصلح فى نفسه وحبه و يدبر الطبع بالموافق ثم بالمخالف إن خاف عليه فى قضية الأصلح من الأمور ولا يلازم من لم تخدمه علوم الدين ولا أيضاً يهجره . ويجعل نصيبه من الناس مجالس الذكر والأمور المشتركة ، ومع إخوانه عموم مصالحه . وكذلك القول على من يقصده لأجل الله ويكون فى أمور المنكر على بينة من العاقبة ولا يبطش بالغالط على نفسه ويجعل أدبه بغيره إلا إن كان ممكن يتحكم له ، أو يحكمه على نفسه فإنه يكون معه على القوانين الشرعية والعادية والعرفية المطلوبة فى تدبير السعداء ، ويدخل على أبواب المجاهدة بإذن الإمام القائم على النفس . ثم لا يجهد نفسه ولا يعرف بما هو عليه ، لأن المطلوب ها هو بالمرصاد وهو المطلع على عمق الضمائر وعلى ما يقوم بها ، وهى فى النظام القديم قبل الممكن المشخص . ويجعل لنفسه ولأتباعه سُنّة الرفق والجذب بالملائم مالم تخل بالشرع والطريق واللوازم المطلقة . ولا يباشر شيئا من عموم المتعلقات إلا بميزان الأحكام الحسبة وعرضها عليها من كل الجهات .

ويكون له فى أوقات يومه وليلته قراءتان : الرشد والإرشاد ، على أنحائها . فمنها الصلوات المكتوبة ولواحقها وما يكون قبلها على ما ينبغى كما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى . ثم يجعل بإزائها من أنواع العلوم ما يصلح بالحاضر ، ثم ما يحمل بالخواص ، ثم الذى يجب [١٨٥] فى دين الله ويكون من قبيل وضع الشىء فى محله بحيث يوافق الجمهور والمسترشد والنفس الزكية ومع ذلك فضيلة الذكر وبعده الخير المتعدى ، وقبله حفظ صلاح العادة بأسباب تحمد ولا يعتب فيها لسان عرف الطريق ، ويقى على استعمالها لسانُ الشرع ، ثم القوانين الداخلة فى دائرة التنبيه والسلوك والمواعظ وأنواع الترغيب والترهيب للإتباع . والنظر فى مصالحه ، والنظر إلى الغايات فى البدايات والصبر

عليهم . وينقل طب الأبدان من حيث عموم التدبير إلى الأديان . ولا يرجع عن قاصد ولا يمسك عنه يده . والمرأة فى ذلك كالرجل : فالصغير كالكبير منهما ، والحر والعبد سواء ، والقبض لا يحمل والبسط يهمل . لازمْ الأدَب ، وإذا كان كل شيء فى موضعه جاء نصر الله والفتح من كل الجهات . والمباح الذى يتخلل أجزاء النهار . والمكروه يفرغ منه إلى المندوب ، والمُحَرَّم إلى الواجب والأوراد العملية تقسم على الجوارح وتقيد الحواس بوظائف المعاملات وتخزن النفس الأمّارة فى دهليز المجاهدةوميدان التوبة والمحاسبة والمراقبة وطلب الترقى . والملك يحترم ولا يشارك فى رعيته. وأى حاكم إمام لا يعاند ولا يسلم لمن يزعم أنه يكون قدرة إلا ببينة علمية وأخرى عملية . والشابّ يلزم الوقار ويجمل بينه كل بَرّ تقىّ . والشيخ يوقر ويصبر على جهله إن كان كذلك ، ويسمع من الثانى إن كان يحب ذلك بوجه ما بحيث لا يخجل ثم يلحق بما يجب فى ذلك . والمتوسط يقابل بما يظهر عليه ثم يخبر إن كان كالغالط والمتغالط . والمرأة تدبر مثل الرجل لأن الإسلام يطلق عليها بمثل ذلك غير أنها تُحجبُ وتحفظ وتُدرج معها فى الوصية ولا تذاكر فى غوامض العلم ، إلا إن كان ذلك منها طبيعة أو تقوم بها شبهة . والإجازة المنوطة بالعهود المذكورة لأجل التوبة لا يتوقف عنها ، لأن ذلك يجب شرعاً والتى تكون لأجل التقدم المطلق والفتاوى يتوقف عنها إلا المحقّ القائم على أنواع الفضل المطلوب فى ذلك كله بما يجب فى النوع نفسه وطلب السبب نعمة لأجل أخرى . والتوكل على الله فضيلة أخرى وكذلك التسليم والتفويض والرضى . غيرَ أنَّ النظر فى ذلك للبصيرة وقرينة الحال وقوة الفراسة من كل الأتباع ويدفع لكل ذى حقٍّ حقَّه من السلوك . ولا بد من خادم تقوم به ثلاث خصال : الصبر ، والفهم ، والمعرفة . ومن عرفت منه الخلق (١) المشار إليها يغتبط به وضده يدبر حتى يصدر منه لازم الأمرين . ويجعل للطلبة ما يخصهم من الحل والقول والمعاملة والتدبير . ولا يقطع الزنبيل من الزوايا بالجملة ، فإنه يسوق خمس فوائد : إطعام المضطر ، وكسر النفس ، وإقامة نوع من أنواع التطوع أعنى البذل ، وحفظ جماعة التوجه ، والاستعانة على العبادة من حيث هى كذلك . ومن تسبب وصدر عنه مثل ذلك فهو الراجح . ومن كان على بينة من مقام التصريف فهو الخليفة .

. ويعلم التلميذ أنواع المجد وأسبابها ويفرح بتجريده حتى [١٨٦] يكون مشروح الصدر طيب

(١) فوقها فى الأصل كلمة « كذا » .

النفس شديد الاغتباط والسماع يكون فى وقت الحاجة إليه ولا يجعل ذلك من نوع من قصد تدبيره بالورع إلا فى وقت حضور قدوته . وإن حضر فلا يغير على الفقر إلا إن دَلّ الدليل ويقوم المحرك لذلك من جهته . ولا يقبل المجاز الذى يتهاون بأحكامه أعنى الذى يكثر من القيام ، والكلام فى غير الأصلح فى عقب فراغه من الحركة إلا إن كان على قَدَم التقدُّم بين الفقراء ، ويعرف ذلك بينهم ، لأن السماع يطلب به خمس فضائل : أولها ردُّ الغاية من الأحوال ، والثانى حفظ ما يحث الملكة ، والثالث استجلاب ما لم يفهم بالمدرك الفقير ، ورابعها حديث النفس بالأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ، وخامسها إحداث راحة للفقراء أعنى القادم منهم والذى يخرج عن زاوية التدبير بالمجاهدة ومن ظهرت له اللوائح والمطالبة فيه وفى عقبه للشيخ إلا إن اضطر إلى ذلك . ويفعل الشيخ مع أتباعه بحيث يكون الكلام مع من يحترم ولا يراجع ، لأن القلوب فى السماع منشرحة شطر ما يخلق فيها وما يحدث عنها من النظام القديم . والمخافقة بين الفقراء تفيد إذا كانت نحو الصواب ، والمتكلم بها يكون ممن تحكمه جماعة الفقراء على قوانين أمورهم ، ثم لا يريد إهمال ما هم عليه وحفظ صيته والتقدم على الكافة والمطالبة بالجملة لا يكثر منها إلا بالتدبير . والذى ينصف من نفسه هو الحاذق الفاضل . ومن أقام الحق على أى حال كان فقدتقدم وقدّمه طبعه .

ومما ينبغى أن يعلم أن هذه الفضائل قد درست ولا يلتفت إلى الطاعنين على رجالها فإنهم أفضل الذوات ، لأن الزهد لسان حال الكبير منهم والصغير ، ودعوة أهل الحق واحدةٌ وكلُّ المسافرين من غير نسبتنا لا تقام عليهم أحكام الطريق بالجملة فإن المطلوب منهم لا يرجع إلى نظام المحفوظ ولا هو من النوع بالقول المطلق ، فإن القوانين التى لهم قد حدّثت أصنافها ووضعت لهم مبادئُ الأمور الشرعية والفضل لله أن أظهر لهم فضيلةً شرعية تلحق بأجهل الضعفاء من المقلدين ثم لا يقبل منهم الاسمُ الدالُّ ، فكيف القولُ الخاص ولازم السلوك ! وكلامنا مع كل من خالف ما أنتم عليه ، والله على ما نقول وكيل . فلا نسبة يختارها الله إلا العرفانية المحفوظة النظام بالوراثة النبوية والقواعد السبعية . والقول على دعوتكم هذه كالقول على الشرع الذى ختمت الأمور

بدعوته . وقد قيل هذا عن المتقدم . والقول على غير بيِّنة من مضمار الإطلاق به ، فإن تاب التائب بمطلق الفقه ولازم أحكام الدين فهو الحق ولا يلزم أن يكون من الأصحاب . وإن زعم أنه رفاعى ، أو كذا ، أو كذا ، فلا نُسلِّمْ له ، فإن النسبة لتى لا تقال على الخصوصية والأمور الربّانية المحصّلة من العلم والعمل والفضل الظاهر لا يعول على الأول فيها وإن كان نفس الماهية ، فكيف اللواحق بالجملة ! ومن يتوب [١٨٧] ثم يشترط بنفسه ولا ملكة له علمية ، فقد حصل فى ذمته ما يطفف على وسعها . وإن كان على شىء مما ذكر فأين مقامه من التحقيق ! وإنما قلنا هذا لأنَّ الطريق فيه جملة قواطع وغايات مشتركة مع الفِرَق . والشُبْهة فيه بادية الوجود، والنكتة المطلوبة بين فَرْث ودم . ومن غَفَل عن هذه اللوازم ثم هذه الضوابط فقد يأخذه الفيلسوف فى حيله ، وإن أهمله يأخذه الباطنى ، وإن سلم منهما يأخذه المتنوع وغيره ، لأن النفس الناطقة تتلاعب وكذلك لواحق المقاصد العقلية تتعلق بالضمائر وتصرُّفها وتقلُّبها وتنقيها بالجملة . وطريقُ الحق لا يخفى إلا على شقىّ فِطْنَتُه قاصرة وفطرته غير سليمة . وأعوذ بالله من لواحق المقت .

والأصحاب ينظر إلى أحوالهم : فمن عَرَفَ منه التعلُّق بأحكام الفقراء المسافرين يجعل عليه أحكام السفر ويلتزم أن يكون على نية . وإن حَصَل منها على المباح من الأحكام فقد جاء على خط نفسه فقط ، وإن كان فى مندوب هو المحمود ، وأما الواجب فقد ظهر بنفسه ؛ وغيرهما فهو لازم غضب الله . ولا بد أن يقرر عليه وظيفة ما فى سفره حتى لا يكون من قبيل المباح المكروه . وأهون الأمور وأيسرها هو التسبب فى ذلك ، والحِيَلُ الفقهية فاعلة فى ذلك . ونُكت الفقراء تهمل بين الخواص وعلى الإطلاق أعنى التى تحمل لازم الأعراض المذمومة . وإنما أردنا به الحركات النوعية حتى تعود كلُّ الأكوان لأجل الله ، وتتعلم النفس خصال التقوى . فإذا هم أحَدُهم بحركة يؤمر بالنسكر ، وأن تكون الطهارة تلازمه فى سفره ، والوظائف الشرعية يجعل عليه منها ما يجمل بطريقته . وكتاب الله لا يدخل به إلى أرض العدو ويسافر به الفقير إلى أرض الإيمان وكتب العلوم ، لأن من يجهل العلم وأحكامه ورجاله فقد جحد شرع الله وكلَّ الفضائل العقلية والعادية ، وظهرت عليه طوالعُ الحرمان فى مطالع البعد عن الله تعالى .

وأيضاً ينبغى للفقير الكامل أن تكون العوالم كلها عليه صادقة : فمرة يتوجه ، وأخرى يعلم ،

وثالثة من حيث هو فقط . ومن كان حائل الذات لا عن ذل فى الذات يدبر بالأذكار والمعارف العقلية وتحبّب له الخلوات ويصبر عليه ويغبط بخلقه ولين عريكته وزهده ويدرج على المراقى على قدر الطاقة . وضده إن كان ذلك منه على عزة لا تصحبه الرعونة ، والشرف والنفس منه زكية غير شريرة ، فتشد عليه يدُ العناية فإنه ينفع فى الخيرات المتعدية ومزيته بيّنة لأن الموافقة النبوية فيه وعليه المقر والأسوة يشبه به من كان كذلك فى لواحقه . وأيضاً لا بُدّ من تدبير المبتدئ وهو تقرير القواعد الدينية العلمية والعملية ثم تمهيد الطريق وتفقد أحواله ويقابل بما يظهر عليه ويعرف منه ، ولا يلتزم السوابع وإنما يكون الصوم على قدر الطاقة والخلوة كذلك . والامتناع عن الكلام ، والتزام أفعال البر على قدر الموزون ، والتشبه بالذوات الفاضلة والأخذ مع الطبيعة ، والخروج عن [١٨٨] العوائد القاطعة : فرقةٌ يلازم الصوم ويفاصل المريد ، وأخرى يمنع من ذلك . وحيث ظهر الرجحان يعتمد على استعماله كالحالة فى الأدوية المقابلة للأدواء . والأدعية المأثورة التى حصلتها أبواب الصحيحين تستعمل لأمور : منها البركة والنفع المحض وكلمات يتحقق فيها رضوان الله . ومن تقرب إلى المطلوب بما يرضاه نفعه ووفّقه وقرّبه واصطفاه ويدرج قوت الفقير على قدر ما يلحق منه . فمن عرف منه ذلك أخذ معه إلى غاية . ومن كان دون ذلك رتب له العرف المنوط بعادته ، ثم ينقل عنه للأمور التى تسرق الطبيعة بحيث لا تشعر به كالحبوب التى تجعل فى الميزان الأول والعود الأخضر ، ثم ينقص القدر اليسير ولا يبلغ الأمر بذلك إلى تشنيع الحال ، ولا أقل من ثلاث الأول والرابع أيضاً قد تحمله طبع المجاهدة والأول هو المختار . وأنت أعزّك الله تعالى وأعانك تجعل لنفسك من الصوم الأيام المذكورة فى الصحف الشرعية . فمنها شهر رمضان وست بعده وستون قبله ، وعشر ذى الحجة بجملته ، والمحرّم بكماله ، والأيام البيض ، والأوّل من كل شهر وتقوم من الليل ثلاثة فقط ، وتقسم القرآن على الأدوار بحيث تختمه فى الشهر مرةً لأن الذكر والمطالعة تطلب حقها من عرض الهمة وجوهر النفس وتعب العقل النورانى . والكلام لا يكون إلا فى المخاطبة المقيدة أو يكون فى حيز الجواب إلاّ مع التلميذ فيكثر منه فى منافعه وفى الذى يخصه . والهدية تقُبَل والطريق إليها لا تستعمل ورجالها تحمد أفعالهم ولا يرغب فيه ويقاوم بمثلها . والسبب يفزع إليه . ويد الورع تتولاه عضدها ، والعلم المطلق شخصها . ويلازم الصدق حتى فى القبض والبسط

والأهل ولواحق القرابة يجعل لهم من النفس حظ الرفق والغبطة .

ولا تصادمْ الطباع ، ولا تعاند الأفهام والدعوى إلا على قدر ، بعد ما يقبل الطريق علماً ، أعنى المنوطة بالنّحَل والملل . ويكثر من مطالعة العلوم الشرعية ويقتصر على علوم القرآن والحديث ثم المسموع عن الرجال ، فإذا حضر التحقيق والمحقق فليس إلاّ ذلك بوجه أفضل . وكل علوم الملة كفاية عنه وحاملة إليه وباحثة عنه وراغبة فيه ودائرة حوله . وما سمع من ملة متقدمة ، ولا نقل عنها مثل الذى ظهر فى هذه الملة من أنواع الفضائل ، لأن علوم شريعتهم أحكمت الطرق إليها ، وأسبابها البعيدة والقريبة وكل علوم الدول ثم كل النِّحَل والمِلَل إليهم دفعته الأيام والعناية الإلهية فكانوا على بَيِّنة من المتقدم . والذى أظهرته الكلمة المحمدية ثالثة أفئدتهم ، فكانوا بمجموع ذلك أفضل البرية عن خير البرية لرب البرية ، إلا علوم القرآن وعلوم الحديث فإنه لم يتعرض أَحَدٌ من علماء الملة إلى الفرض المطلوب بها ولا حَصَّل عليه ولا وقف على لازم الأسلوب ولا على شىء منه بالجملة . [١٨٩] وقد يمكن ذلك بفضل الله ، فإن فضل الله المودع فى خزائن عنايته بالملة الحنيفية يظهر ذلك كله بقدر أفضل . وأى علم تقدم فقد علم فيها إلا ما كان من النبوءة الأولى قبل الطوفان ، إلاّ علوم السِّفْر وعلوم المطالب المقدسة فهو فيها بالقوة . ولا بد فى أيام العالم من ظهور نبذها المبذولة فيها . وأقرب الأشياء فى الظهور علوم السِّرَّيْن : الطبيعى والإلهى ثم علم ما هو بعد الطبيعة . ولا يمر بك من الزمان إلا القليل وقد عرفت ذلك غير أنه يطلق على الخواص فقط لأن السُّنَّة الأمينة عينته كذلك ، أعنى العناية الربانية تحفظ الأسرار بالجملة . ولا بد من الرجل المطلوب بالفطرة الثانية . فإذا عزمت على لقاء الرجال فاذكر الله ربهم فى نفسك ، ثم لا تسأل عن غيره . فأول شىء تراه رجاله ، ثم ملائكته ، ثم جواهر الفضائل بالقصد الثانى . واطلب مدركات النوم فى اليقظة ، والعلم دون النظر والقدرة بغير عضوها . وأول الوقت يقوم به إلى الله فما يكون فقط . ولكل وقت صلواتٌ وفى عقبهما ماعينه الشارع ﷺ فقط ، إلا أنه يبالغ فى التكرار والترتيب إلا إن جاء ما يردّ عن ذلك ما هو ألزم . فإذا صَلَّيت الصبح وعشده[1] تدبيرك عندك تقرأ أوائل

---

(١) قوتها فى النص : « كذا » .

السور التى فيها الحروف المقطعة من أول البقرة إلى نٓ والقلم ثلاث آيات وتقف فى الوقف التام من كل ذلك . ثم ترجع إلى السور الثلاث سُبحان والسجدة والرحمٰن ، ثم تقول عقب القراءة : اللّهُمّ تقبَّلْ مِنَّا ، وانظر إلينا . واختَرْ لنا ، ووَفِّقنا للخير وهَيِّئنا لقبوله ، وأيِّدْنا برُوح منك . ثم تقول : سبحان مَنْ أوسع المختار منه رِضىً .

سُبحان من بكمال الفضل فيه قَضَى .

سبحان مؤتيه عزًّا ليس مُفتَرِضا .

سبحان مُدْنيه قاباً منه حين مَضَى .

إليه يسرى بسر فى الفؤاد سَرَى .

ثلاثين مرة . ثم تقول : الحمد لله شافى الصدر من ألمه .

والله أكبر نور الله فى كَلِمِهِ .

ولا إله سواه بان فى نِعَمِهِ .

سبحانه خصنا شكراً على نعمه .

بسيد مصطفى فينا يُشَفِّعه .

مائة مرة . ثم تقول : سلام على من أسند الله وجهه إليه ، فمن إسناده الدين أسندا .

سلام على من أم بالرسل ممسياً   فأضحى إماماً للنبيين سيدا

سلام على من كان فاتح فضلهم   ولكن بفضل الختم قد كان مفردا

خمسين مرة . ثم تقول : لا إله إلا الله حمداً دائماً أبدا .

لا إله إلا الله خير من عُبدا .

لا إله إلا الله سوف يحشرنا .

لا إله إلا الله ليوم الفصل يحضرنا .

لا إله إلا الله حمد الله مطرد .

لا إله إلا الله واحد أحدْ .

سبعين مرة ثم تقول : اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ! اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ! اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ! اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك [١٩٠] على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد . وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم صل على محمد وعلى آل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم صل علينا معه ، اللهم بارك على محمد وعلى آل بيته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك علينا معه . هدية الله وصلوات المؤمنين على محمد النبي الأمي . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . هذا الحديث خرجه عبدالوهاب بن مجاهد وتفرد به، يكثر منها على قدرطاقته .

ثم يكون الدعاء عقب ذلك كله . ثم تفتح كتب التفسير ثم علوم الحديث ، ثم الرقائق ، ثم فروع الفقه ، وأصوله ، وعلم الكلام وأصول الدين ، وعلم اللسان ، وغير ذلك من العلوم بعد الخروج عن هذه الوظائف . ويؤمر التلميذ عند توبته بالواجبات ويشرح له ماتيسر منها . ثم يحفظ عقيدته ، فإن كان فى عادته نحو الصواب تُرك مع الفقه ولازم البراءة الأصلية . ومما ينفع فى الترقى ـ إذا لم تنهض قوة السالك ـ تقوى الله تعالى ، بل ذلك ينفع فى الجملة . وهنا من خواص فضائل السّنن خاصية متى فعلها التلميذ نوّر الله بصيرته ، ويكون فى مقام المراد وينهض فى أسرع وقت ، وحاصلها الصلاة على نبيّ الم...(١) محمد المختار. فقد جاء الأمر بالإكثار منها عن أنس قال : قال النبي ﷺ: أكثروا من الصلاة عليّ فإنه من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه عشراً . ثم يجعل المريد دعاءه الصلاة على النبي ﷺ كما جاء . ثم يكون ذلك منه كل يوم وليلة ، فقد جاء هذا . ثم عند دخول المسجد كما جاء ، ثم عند سماع القرآن ، ثم عند سماع المؤذن كما جاء ، ثم عند إقامة الصلاة كما جاء ، ثم فى الصلاة كما

(١) مطموسة لا تقرأ ، ولعلها : الله .

جاء ، ثم عند الخروج كما جاء ، ثم إذا قام من الليل كما جاء ، ثم يوم الجمعة كما جاء ، والأمر بالإكثار منها فى ذلك كما جاء ، ثم فى الخطبة كما جاء ، ثم فى الصلاة على الميت كما جاء ، ثم فى قيام رمضان كما جاء ، ثم عند الفراغ من التلبية كما جاء ، ثم عند استلام الحجر كما جاء ، ثم إذا صعد الصفا والمروة كما جاء ، ثم عند الوقوف على قبره كما جاء ، وكلما جلس مجلساً كما جاء ، ثم إذا خرج إلى السوق كما جاء ، ثم إذا سافر وقدم أسفاره كما جاء ، وقبل الدعاء كما جاء ، ثم فى أول الدعاء ووسطه وآخره كما جاء ، وأيضاً قد قيل إن الدعاء فى حجب كما تكون الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المختار ، ثم عند الحاجة فإنها من أفضل الوسائل كما جاء ، ثم يشدد على من أهمل ذلك على ما جاء ، ومن غفل عن ذلك فهو الذى يستحق اسم البخل كما جاء . ثم يذكر متى كان الحديث من الفقراء والطلبة ، فإنه مع الإهمال من الجفاء كما جاء . ومن تركها فى الصلاة فقد غلط كما جاء . ويشدد على [١٩١] من غفل عن ذلك . وقد جاء أن الذى ترك الصلاة عليه ترك طريق الآخرة وأخطأ طريق الجنة ، ومن يصلِّ عليه يذكره الملكُ جبريل . ومن يغفل عنه يكنْ معه بالضد كما جاء ، وكذلك القول على الملائكة . ومما يحذره الغافل العقوبة فى إهمال الصلاة عليه عند ذكره فإنه قد دعا عليه كما جاء .

وأى مجلس جلس فيه المؤمن ثم لا يصلى عليه فيه فإنه يحمله يوم القيامة كما جاء . وفضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أبداً لا يخفى ولا يحصى . فكيف لا يكون ذلك وربُّ البرية يصلى على من يصلى عليه ! فقد جاء فى الحديث الصحيح مما خرّجه مسلم وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من صلى علىَّ مرةً صلى الله عليه عشراً . ثم يتفقد المؤذن فى أذانه فيقول مثل الذى قال وفى عقب ذلك يكثر من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . ثم يسأل له الوسيلة من الله كما جاء . ومتى عقد الفقير على سجادته وعقب صلاته يصلى على النبى ﷺ، فإن الملائكة تصلى عليه وصلاتهم الاستغفار له كما جاء . ثم يتحقق الفقيه ثم الفقير المصلى أن الصلاة عليه — عليه السلام — تبلغه كما جاء . ثم يتحقق أن المصلى عليه هو السابق عنده يوم القيامة كما جاء . وقد جاء وجوب شفاعته لمن يصلى عليه ، وقد جاء أنه شهيد بذلك . (١) ... > السلامة من أهوال يوم القيامة بالصلاة عليه وجاء السعادة المطلقة له يوم القيامة وجاء جواز الصراط ونيل رضوان الله والنماء من الخير وكونها عبادة وزكاة وترفع بها

---

(١) مطموسة فى الأصل .

الدرجات وتكتب بها الحسنات وتحط بها السيئات ومن جعلها كده وهمه كفي همه وغفر ذنبه . كل هذه وردت فيها الأخبار المروية المعتبرة والصلاة عليه يوم الجمعة ويوم الخميس وعند لقاء الرجل صاحبه وتكتب في الكتاب فإن الصلاة عليه في الكتاب يستوجب الكاتب بها دعاء الملائكة كما جاء . وقد جاء في ذلك وجوب الجنة . وروى عن غير واحد أنه يبشر في الحياة الدنيا . ومن تعمد ترك الصلاة فقد تعرض إلى الابتلاء . ذكر بعض المحدثين عن بعض أصحابه أنه كان يكتب الحديث ولا يصلي على النبي ﷺ شحاً منه على الورق قال ، فما مات حتى وقعت الأكلة في يده اليمنى! والأمر بالسلام أيضاً قد جاء . ولأنه يخصصه فيسلم عليه كما جاء فيقال : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . ويسلم عليه عند دخول المسجد كما جاء في الصلاة ، فإنه جاء أيضاً وفي الصلاة وفيها وعقبها السلام عليه . وإذا خرج من المسجد المصلي يسلم عليه ، وعند الوفود إلى قبره يسلم عليه ويعلم أن الله يسلم عليه . وقد جاء أن لله ملائكة سياحين يبلغون السلام عليه . وقد جاء أنه يرد السلام على المسلم عليه . وقد جاء أنه أفضل من عتق الرقاب . وكل هذه الكلمات تتضمنها الأحاديث فلا تهمل . والدعاء لا يكون إلا بالأسماء التي حصرها [١٩٢] القرآن بما قبلها وما بعدها من الكلام والدعاء الذي حصله الحديث والذي يجمعه المحقق من المقاصد العرفانية والذي يجمع من الحروف المتحابة وهي المعطفة الموضوعة في أوائل السور : فإنك إذا دعوت الله بها تعتقد إطلاق القول بكلياتها فإنها كذلك ، وكل القرآن على تكرارها تدور أفلاك أقطابه . فاعلم ذلك ولا تشعر النفس بها إلا أنها كلية عند الدعاء والحمد لله على هذه نقرر على الأولاد ويلزمون حفظها بحسب المواضع . وإذا أخذ الولد العزيز هداه الله العهد على التائب يذكره الله ، ثم بما يقرب إليه ، ثم بما يخص التوبة من الأحكام الدينية ثم يعرض عليه المنجيات والمهلكات ، ثم يرقيه على بينة من الشروط المذكورة المفروضة عليه ، ثم يعالجه بدواء الخوف والرجاء وعرف الطريق ، فيحمله على كاهل الرفق والبيان عن الأصلح من عموم أفعاله وأقواله وأحواله ، ويكثر عليه من حكايات الرجال ويسمعه في فضل الله ، ويجعل طريقه نعمة عادلة تترجح على كل نعمة ويحذر من الرجوع إلى خلف ، ويمنعه من كل القواطع ولا يجعله بإزاء من تقوم به شبهة أو تظهر عليه بطالة ، ويمنع السفر في أول الأمر بالجملة : وإذا قامت به النفس النزوعية فلا يتعب نفسه معه ، وإنما هو الوعظ والتقريع لا المبالغة في أتعاب الطبع هذا إذا عرف منه المجون والتفريط ، بل يعرض عنه ولا يلتفت إليه ويهمل . فإن جاء فهو

ذاك ، وإن أنصرف فنفسه إلى خطه من ربه . وابحث عن أحوال أتباعك بحيث لا يعلم لئلا يدخل عليهم ضد ماهم بسبيله . وأى مبتدع يعلم به يبينه عنه ولا يرحم بالخلق وكذلك المسارق بالجملة إلا إن غفل عن المقاومة ، فيكون الجذب بالملائم أفضل فى ذلك ، والله يخلص وينفع وييسر ويختار ويحفظ النظام من كل الجهات . والحمد لله وصلواته على خير خلقه والسلام على كل الأتباع واللواحق وعموم المسلمين ورحمة الله تعالى وبركاته !

تنبيه : هذا الولد النجيب الطاهر الحاذق شهاب الدين أحمد بن عبد الحق أيده الله بروح منه ، وأمدَّه بمعونته وقوة ، عنه رضاه أهمُّ من غضبه وأسباب كرمه مستغرق مقتضيه، حُلِيَ لسانه نَعَم ، وثَمر بنانه نِعَم ، وما فارقه من بشره ما على < [1] > من الرونق جائل ، ولا حال بينه وبين إسداء المعروف واقتحام الهول المخوف حائل ، ولا استماله جوهر ثابت ولا عرض زائل . وهذه الإجازة المنوطة بخصاله لا يأتى الزمان بعديلها ولا يسمح ببديلها ، إن الزمان لبخيل منها بالمثل ، وضيق عن شبه ذلك النصل . جعَل اللهُ أحواله بالجملة صالحة ، ومتاجر تعويله على الله بالكلية رابحة ، وأوصله إلى مقسام الذى أقام الأدب مع الله ورضاله أوَدَا ، وقتل النفس فلم يَخش عقلا ولا قَوَدَا . والحمد لله على الآية السابقة وقسمته السائغة ومواهبه المتظاهرة الراهنة وأنعمهِ الظاهرة والباطنة . وصلى الله على نبيِّه الكريم ذى البراهين [١٩٣] الساطعة والحجج القاطعة ، المختتم بدعوته ، المختار المؤرخ بهجرته ، وعلى آله وأصحابه الأعلام وعترته .

---

(١) بياض فى الأصل .

< رســــالة >

بسم الله الرحمن الرحيم . وله رضى الله عنه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً.

اعلمْ هداك الله وأسعدك أن طاعة الله مادة الفضائل كلها ، بل هى الصورة المقوّمة بأنواع الخير المحض . ولا أفضل من رضوان الله وأدوات السعادة ، والكمال الثانى كناية عنها . ثم هذه الطاعة تطلق على الموضوع والمحمول منك . ومن أهم الأمور فيها المحافظة على مفرداتها الكلية . والذى ينبغي بل يجب أن تجعل كلامنا هذا مرآة عين سيرتك ، وعنوان كتاب سريرتك . ثم ترتب أحوالك ترتيب الزمان وأقسامه ، لا ترتيب الفصول وأحكامه ، وتلازم بعد ما تمتثل مدلول هذه الفصول .

فصل : أول الأمر تقوى الله والمحافظة على عصر الشبيبة بحيث يكون شبابك لا يذهب بلذته ولا يرتهنك بتبعته . ومن أهم الأمور عليك أيضا وأوصاها وأسدّها وأقواها وأنسبها فى الذى أنت بسبيله إهمال من تتوهم فيه النقائص و يتهم بها ، وكل من تدفعه يدُ الفكر ، وتعارضه كلمة الورَع ، وتنقل منه خلق النخوة ، ويزجره لسان التقوى — فلا حاجة لك به والحال هذه .

فصل : طهارة الشاب مادة الولاية المحروسة . ثم هى كلمة صيت التقوى وصفة موصوف السعادة وعين الرّضى فى وجه الأمل .

فصل : الاشتغال بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ و بالعلوم ولواحقها هو فضل الله الذى يؤتيه من يشاء ، وحكمته المسموعة من النبيين والمحسوبة فى السنين .

فصل : لا تسمع كلمة كل ناصح وإن كان يأمر بالتقوى حتى تسأل عن سيرته و يشهد له لسان التجربة والاختبار ، فإنه قد يسمع الحق من لسان المبطل من حيث الحق ومعه على أى حال كان .

فصـل : جميع من يحدثك بمثالب الناس فهو فى الزمان الثانى يحدث عنك فلاتجالس المغضوب عليهم ولا الضالين .

فصـل : عباد الله الذين اصطفى يحصل النفع بهم فى الدارين ولا تنـال النفس منهم والجسم إلا الملائم .

فصـل : الاعتدال يطلق على أنحاء ، والذى يخص النفس الزّكيـة من ذلك ما ضمنته سُنّة المصطفى ونطقت به أحوالُ أهل التقوى .

فصـل : الحكمة هى فعل ما ينبغى كما ينبغى ، ثم هى نور الله الذى يطلع على الأفئدة ، ثم هى موافقة الأسرة فى الذى رغب وأمر به ، بل هى فضيلة العلم ولاحق العمل .

فصـل : الحذَر الحذَر من مجالسة صاحب الوجهين ، وممن يختلس إذا لم يفترس . و إياك ومحادثته وتنفيذ أوامر وسوسته .

فصـل : لاتتخلق بأخلاق المفْرِط ولا المفرّط ، فإن مجاوزة الحد خسران ، وتضييع ما لا بد منه [١٩٤] حرمان .

فصـل : لاتتشبه بالذين من شأنهم أن يفرطوا فيما يضعونه و يتجاوزون الحد بمن يمدحونه فى النوع الذى يصفونه . فليس بمحمود من خلائق الكرماء ، ولا بمستحسن من أفعال السعداء ، لأن مَنْ أسرَفَ فى الجود كان مُبَذِّراً ، كما أن من أسرف فى الحفظ كان مُقتِّراً ، ومن أسرف فى الشجاعة كان مُتهوِّراً ، كما أن مَنْ أسرف فى الحذر عُدّ جباناً ، ومن تجاوز حد الحلم كان مستبداً[1] كما أن من تعدّى فى الانتصار عـدّ حزماً [2] ، ومن أفرط فى قلة الكلام كان مستجهلا ، كما أن من أفرط فى الإكثار منه كان مُهَذْرِما . والتأدب بتأديب الله جل ثناؤه وأدب رسول الله ﷺ هو الطريق الذى مَن سلكه اهتدى والمقصد الذى من قصده أمن من بوائق الردى . قال جل

---

(١) ص : مستبدلا . (٢) فوقها فى النص « كذا » .

ثناؤه يمدح قوماً : « والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتُرُوا ، وكان بين ذلك قَوَاماً »(١) .

حكى الحارث بن أبي أسامة عن العباس بن الفضل عن أبي عبد الله التميمي قال : أخبرني الحسن ابن عبد الله قال : حدثني من سمع النابغة الجعدي يقول : أتيت النبي ﷺ فأنشدته :

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لم تكن له　　بوادِرُ تحمي صَفْوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خَيْرَ في جهل إذا لم يكن له　　حليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأَمْر أصدرا

فقال له النبي ﷺ لا يفضُضْ اللهُ فاك !

فصـل : البحر إذا ركبته فاعلم أنك على حاشيتي النقيض . فلا تهمل الواجبات في أوقاتها . ثم التزم الصمت . فإذا حللت بساحل الطور لا تتطور ، واعرض وجه إعراضك ومدلول رأيك على من يُحبّك ، ولا تخالط إلا الأمثل فالأمثل ، والخلوة أفضل ، والخمول أوصـل . فمن يرشدك إلى إصلاح عادتك شُدَّ على لازم أمره يد الغبطة والعناية ، ولازم دارك .

فصـل : متى قام بك خاطر العزم على السفر فانظر في الراجح والمرجوح من الجهات الأربع واقصد إليه ثم لا تدخل الطريق إلا بناموس أهل الطريق ولا جُناح عليك في ترجيح أحد المَقْصِدين إذا كنت في ذلك كله نحو الصواب . وإذا تعذر أمر السفر إلى بقعة المناسك حينئذ تفعل كلَّ الذي ذكر في هذا الفصل .

فصـل : جميع من يحضك من الفقراء على الخير الممكن ثم يخرجك إلى مقر هو به فانظر في لازم أمره وفي غايته : فإن كان مجهول الرشد اترك الخير لأجل شر متوقع .

فصـل : المحب الناصح قد لا يكون من العقلاء مع وجود الصفتين فاحكم بما يشهد له الوجود صحبة التصفح .

فصـل : ع ولواحقهم لا بد أن يمنوا عليك بإحسانهم أو بالسلامة منهم وطبيعة الشهم التحير

---

(١) سورة « الفرقان » آية : ٦٧ .

لا يخضع ولا يجيب داعى الذل . فإن نشبت فيك أظفار صلة الرحم ، والحال هذه ، فانسلخ عن جلدك ، وطبيعة الهمة تكشف لحم المروة .

فصل : إن دبرتك خصالك وأقامك صيتك وإلاّ فأنت الميت الذى كبر عليه بالقصد الثانى .

فصل : لا تخالط غير إخوان الصفا فهم الذين [١٩٥] لا يفرغ سمعك منهم كلمة الامتنان ، ولا يعلوك بهم يد النذل ، ولا يتحرك عنك قدم الضجر ، ولا تهجرك طبيعة المغايرة . وجملة الأمر : لا تضر بعضرتين ولا تلدغ من جُحْر مرتين .

فصل : الحاذق الراغب فى خصال الخواص يعمل على المراتب العالية ، ويصعد على درجة أقرانه ، ويجعل وكده ، إما فى العمر كله وإما فى أكثر الزمان ، طلب نيل المجد من كل الجهات ، وينظر فى مرآة الحكم ويحكى الوارث ويسمع من صادق النظم والنثر ، ويحرر ما يبرزه الفكر ، وما تنكت به القوافى والفِقَر ، مثال ذلك إذا سمع الشاعر يقول :

إنَّ البخيل مَلومٌ حيث كان م ولكنَّ الجوادَ على عِلاّته هَرِمُ (١)
هو الجوادُ الذى يعطيك نائلَه عَفْواً ، ويُظلَم أحياناً فيَنظَلم

يجوز على ذلك إلى درجة مدلول قول الآخر :

وما بلغَتْ كفُّ امرئٍ متناوِلٍ من المجد إلاّ حيث ما نِلْتَ أطْوَلُ
وما بلغ المُهْدون نحوك مِدْحة ولو أطنبوا إلا الذى فيك أفضلُ

ثم اعمل على سيرة من سُوِّد فى حداثته ، وقُدِّم بفهمه وبلاغته كما قال ابن الأعرابى :

غريبُ السجايا ما تزال عقولنا مولهَّةً فى خَلّة من خلاله
عناه الحجا فى عُنفوان شبابه فأقبل كَهْلاً قبل حين اكتهاله

ثم خذ نفسك بسيرة الحسيب النسيب فتكون كالذى يُذكر بالتفضل فى الأحساب والتمدح بشرف الأنساب فينزل عليك مدلول بيتى شاعر همدان :

(١) البيتان لزهير بن أبى سلمى ، راجع ديوان ص ١٥٢ ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ . وقد ورد فيه : فيظلم ، بدلاً من : فينظلم .

رأيت ثناء الناس فى الغَيْب طَيِّباً   عليك وقالوا ماجِدٌ وابنُ ماجدِ
فإن يَكُ عتَّابٌ مضى بسبيله   فما مات من أبقى له مثل خالد (١)

ثم تعمل على سيرة من عَظُم بجسارته ومُدِح بتجلده ، حتى تكون نعوتك مدلول بيتى البحترى :

فتى لم يُغيِّبْ الجودَ رقْبة عاذل   ولم يطفىء الهيجاء خَوفُ الجرائر
ولم يُرَ يوماً قادراً غيرَ صافح   ولا صافحاً عن زَلَّةٍ غير قادر

ثم اعمل على سيرة من يعمل المعروف فى محله ويشكر عليه لأهله حتى تكون مدلول بيتى البحترى :

أ أجحَدُك النَّعماء وهى جليلة   وما أنا للسرِّ الخفىِّ بجاحد ؟!
متى ما أسيرُ فى البلاد كأنني   أجد سائقى يهدى إليك وقائدى

ثم اعمل على سيرة من يريد صيت مكارم الأخلاق ، ويدفع ما يتوقع حتى يبلغ المدح فيك إلى الاغياء ، ويشرح ما أنت عليه شاعر عبدالملك بن مروان :

والله ما أدرى إذا ما فاتنا   طَلَبٌ إليك مَنْ الذى نتطلب
ولقد طلبنا فى البلاد فلم نجد   أحداً سواك إلى المكارم يُنسَب
فاصبرْ لعادتنا التى عَوَّدْتنا   أوْلا فأرْشِدْنا إلى مَنْ نذهب [١٩٦]

ثم اعمل على سيرة مَن لا يُذْكَر بالفِرار من لقاء الخصوم ، والجزع من موافقة الأعداء فتسلم من مدلول بيتى البحترى :

وقد شاعت الإسلامَ خمسون حَجَّةً   فلا الخوفُ ناهيه ولا الحلمُ زاجره
ولمـا التقى الجمعان لم يجتمع له   يداه ولم يثبت على البيض ناظره

ثم اعمل على سيرة من لا يُذمُّ بسوء خلقته ، ويُمقت بفساد سريرتهِ تسلَمْ من مدلول بيتى محمد بن حازم الباهلى :

---

(١) الشعر لأعشى همدان ، راجع « الأغانى » (دار الكتب) جـ ٦ ص ٥٧ ، مع خلاف فى بعض الألفاظ . وخالد هو خالد بن عتاب بن ورقاء .

يطول بقربك اليومُ القصير ويرحل إن مررت بنا السرورُ
لقاؤك المُبَكِّرُ فَألُ سوءٍ ووجهك أربعاء لا تدور

ثم اعمل على سيرة من يمدح بفعله فينسب ذلك إلى أهله ، تسلم من مدلول أبيات شاعر الدار :

إذا ما بدا عَمْرٌو بَدَتْ منه خِلْقَةٌ تدل على مكنونه حين يُقبل
بياضُ خراسانٍ ولُكْنَةُ فارسٍ وزُرْقَةُ رومىّ وشعرٌ مُفَلْفَل
لقد ألفت أعضاء عمرو عصابةٌ يدل عليها آخرَ القوم أوَّلُ

ثم اعمل على سيرة من فخر بنفسه وامتدح ذاته بنسبته ، فتكون مدلول بيتى لقيط ابن زُرارة :

وإنى من القوم الذين عرفتهم إذا مات منا سَيِّدٌ قام صاحبُه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

ثم اعمل على استجلاب القلوب والذكر الجميل ، ونعت التوكل ، فتظفر ببيتى المهاجر :

لقد علم السارى طروقاً برَحْله وباغى النّدا ما اللؤم لى بقرين
ومختبطٍ يسعى إلىَّ برَجْله فلمْ أفْدِ منه ضَرْبَنى بيمين

وإياك وإظهار العجز من الفقر ، واعمل على سيرة الذى قنع وافتخر بالصبر ، فإن الأول يفضحه قول الشاعر وهو ابن الأعرابى :

إلى الله أشكو بالمدينة حاجةً وبالشام أخرى ، كيف يلتقيان !
سأُعمِلُ نَصَّ العيس حتى يكفّنى غِنى المالِ يوماً أو غنى الحِدثانِ

وبالوصف الثانى يظفر بمدلول بيتى العامرى فيحصلُ التنبيه :

ما اعتاض باذلُ وجهه بسؤالِ عِوَضاً ، ولو نال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته رَجَح السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالِ

ثم اصبر على المكاره التى لا تخلُّ بإنسانيتك ، وعليك بالإغضاء عن خصمك إلا إن كان جزء عِلّةٍ يفرُّ الأصلح ، فإنك إن فعلت ذلك كنت مدلول بيتى زهير[١] :

وذى خَطَلٍ فى القول يَحْسَبُ أنه ... مصيبٌ لما يُلْهَم به فهو قائله

عَبَأْتُ له حِلْماً وأكرمت غيره ... وأعرضتُ عنهُ وهو بادٍ مقاتِلُهْ

[١٩٧] وإذا لازمك المبطل الذى لا ينفع فيه إلاّ المقاومة ، ويزجره لسان الشرع والطريق إن أهملته ، فافعل بحسب ذلك فتكون كالذى يفتخر بالشجاعة والانتصار ، فتصل على مدلول أبيات المجاشعىّ[٢] :

إذا ظَلَمَتْ حكّامُنا وولاتُنا ... خَصَمْناهُمْ بالمرهفات الصوارم

سيوفٌ كأن الموت حالَفَ حدَّها ... مُشَطَّبَةٌ تفرى شئون الجماجم

إذا ما انتضيناها ليوم كريهة ... ضربنا بها ما استحكمت فى القوائم

وهذه تعتبر بنعوت المستنصرين على قدر مراتبهم . فما يفعله السيف يفعله اللسان أو القلم أو الجاه ، كذلك جميع أنواع الاستعدادات فى أخرى .

فصل : أنت قد استقبلت أكوان السفر ، ولا بُدَّ لك من مركوبين أحدهما يخصُّ البحر والآخر يخصُّ البر ، ثم تجلد على مركوبك وعلى موضوعه كيف كنت وكان .

فصل : لا تموّه عليك مَوْجَ البحر ، ولا حركاته الطبيعية فإن الراكب والمركوب بيد الله ، ومن كان بالله كانت الأشياء له وإن كان كما يحكيه أحمد ابن أبى طاهر :

ومُخضرَّةِ الجنبين صادقةِ السُّرىٰ ... يراقب منها الرَّكْبُ من لا تراقبه

كأن نفوس القوم تجرى بجريها ... إذا غالبت مِنْ موجها ما يغالبه

تَصُدُّ حَبَاب الماء عن جَنَباتها ... إذا البحر جاشت بالسَّفين غواربُهْ

والسفر الخاص بالبر لا يزجرك عن غرض أنت ترومه وإن عرض فيه ما تدفعه يد العادة ، وتغمض عنده عين السكون والدعة والسعة والمنفعة كما قال ذو الرمة وهو يصف بعض لواحقه :

---

(١) راجع ديوان ص ١٣٩ ، وفيه ورد : يلهم ، بدلا من : يلهم .
(٢) المجاشعي هو الفرزدق ، راجع ديوانه .

به مُبتَنى للعنكبوت كأنّه على شرف الأرجاء حايم يستّر
ينازعنى حِرْصاً على الماء رأسها ومن دون ما تهوى قليبٌ مُعَفّر
وَرَدْتُ وما أدرى أما بعدمَوْرِدى من الليل أو ماقد مضى منه أكثرا
فطافت به مَغْلاةٌ أرض تخالها إذا التفتت مجنونةً حين تنظر
محاولة للوِرْد لولا زمامها وجَذْبى لها كادت مراراً تكسّرُ

فصل : لا تعاند القادر ، ولا تتابع الغادر ، ولا تصحب الوارد والصادر ، واعمل عمل حازم يحذر ما يتوقع ويعلم فى البدايات لواحق الغايات .

فصل : تعلق بالذات ، وتخلق بأسماء الصفات ، ولا تفعل مع صفات الأفعال ، وإذا كان ذلك منك كذلك كانت نفسك علّامة فعّالة بالفعل .

فصل : متى صح خبرك ولم يعقبه قاطع التوقع ومسكته يد الصدق وحفظته فى الضمير همة الإخلاص ونظرت إلى مدلوله عين التوحيد ، وفعل بمقتضاه سلطان المعرفة لم يتوقف عليك ما فى الجهات السّت ، وحصلت على أنموذج سليمان صلوات الله على نبينا وعليه . والكرامات بينات المعجزات ، بل هما اثنان بالقول وواحد بالمعنى ، والفصول تميز الذوات .

[١٩٨] فصل : كل الذى يتحرك إلى الوسط إذا نظرت إليه عين أسطان التحقيق ، وعلومه مودعة فى لوح صدر المحقق . فاذا تأمل وحدة الوجود وجعل مُشَارها هو الذى هو به وله واستخلف وجاءه نصر الله والفتح ، والأولياء منهم صغار وكبار ، والزمان والمكان والعدد والإضافة وتقسيم الوجود من قبيل الأوهام فاعلم ذلك .

فصل : تصفح سورة « قٓ » بعد سورة « النور » وآخر « الأنعام » واقرأ : « قُلْ أَمَرَ رَبّى بالقسط »(١) ، ثم قل « ألَا له الخَلْقُ والأمر »(٢) تجوز على التصوف ، وافهم الحروف المقطعة

---

(١) سورة « الأعراف » آية : ٢٩ . (٢) سورة « الأعراف » آية : ٥٤ .

فى أوائل السور ، ثم انظر إلى أواسطها وما يقوم منه إذا ركّب بالقصد الثانى وتكشف كيف اقتطعت منه السين وعرف الاسم الأعظم وخواص العلم الإلهى ، والعلم الطبيعى . فاذا حَصَّلْتَ ذلك وحَقَّقْتَهَ قرعت باب التحقيق . وهذا الكلام عندك أمانة تحمله إلى غيرك ، وتقدر أن تقف عليه من عند نفسك فى وقت آخر .

فصل : قد تحقق كل متحقق أن تقوى الله تقوم مقام العلوم النظرية ثم يفتح باب فضله الذى يؤتيه من يشاء ثم يفيد الحكمة المذكورة فى الكتاب ، ثم يأتى بأمور لم تعرف فى عادة المكاسب ولا هو مما يبرزه الفكر ولا يورث ولا يظفر به فى نظم القوافى بعد الرجال ولا فى نثر الدفتر .

فصل : الله عند ظنك به ، فكنْ معه على أية حال كان . ثم اعلم أنه يرحم الغافل والمتغافل ويجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يأمر بالفحشاء . وموافقة أمره عنوان رضوانه .

فصل : كل المقامات تنصرف إلى التوحيد ، والتوحيد بالمعرفة ، ويجمع بالمحبة ، ويفرق بالفقد . والفاقد إذا أدرك السكينة بالفطرة الثانية وتجوهر بما هو فى غيب الغيب أدرك الخلافة .

فصل : المواقف والتنزلات والتوجه ومدلول الألفاظ الدائرة بين الصوفية وكل المقامات وما وراء التخلق بالأسماء والحق الذى وراء ذلك كله ، جميعُ ذلك يتأخر عن لازم الوسائل حتى ما لا عين رأته ولا أذن سمعته أيضاً .

فصل : توسل بأفضل الوسائل ، وأوْصَل المسائل ، وأصْدَق الرسائل بقصد ظاهر ، ثم اذكر بربك الله واعلم عند ذكرك إياه كما يجب له ثم فكِّر فى هويتك ، والتزم دور الإعدام ، وانظر إلى القضية المفردة ثم أطلق الذكر والفكر معاً ، ثم كن الذاكر من حيث أنك المفكر تقوم بك اللذة المعقولة والفضيلة الإلهية .

فصل : لا تظلم نفسك بالغفلة ، ولا تخدعها بمدح المادح ولا تفرحها بلواحق الحواس ولا بشهوة البطن والفرْج ولا يَشْغَلَكَ وِتر التوحيد عن شفع العمل ، واستحضر التوبة فانها تطلق على أنحاء : فتوبة الذنوب لا تقبل حتى يشهد لها لسان الفقه ، ويثنى عليها شاهد الورع ، ويحكم لها حاكم التقوى ؛ والتى بعدها تنتقل من الآخرة إلى الأولى ويُرحل بها من المرجوح إلى الراجح .

فصـل : لحية الشاب سياج جسمه ، وعقله حرز نفسه ، وخدينه أو معلمه يكتب فى لوحه القابل ما شاء فلا [١٩٩] تحكم على نفسك إلا المشار إليه بالفضيلتين أعني العلم والعمل .

فصـل : إذا أدركت ما أدركه الرجال لا تغفل عن تدبير غيرك ، ثم احفظ ما أنت عليه واطلب الزيادة : فالقناعة من الله عين الحرمان .

فصـل : مقاصد العالم من حيث العالم الأول تنصرف إلى ثلاثة مقاصد : نيل الأحوال ، والظفر بالتصريف ، وإدراك شيء لم تشهده العادة ، وعند ذلك يحصل فى اليقظة ما يراه غيره فى النوم ويعلم بغير نظر وتؤثر همته فى الأشياء داخل الذهن وخارج الذهن ؛ والتحقيق أكمل من أن يقاس بغيره أعنى هذا .

فصـل : من اعتز على المبطل وذلّ للمحقق جاهد فى سبيل الله بوجه أفضل .

فصـل : من عارضك أو تعرض إليك وتعلم أنه غير صادق ولا تقىّ لا تحافظ فى مرافقته على الشيء الذى ينحل إلى الأبعاد الثلاثة ، فإنه غير المشار إليه منك والذى أنت به هو الجوهر المفارق . وكلامنا هذا مع من تهمل حقك بباطله ، والشرع الشريف يشهد ببهتانه .

فصـل : كل شيوخ المغرب نسبتهم علمية يشملها أول وجه من التصوف ، وما نحن بسبيله لا يقدر بذلك كله والله على ما نقول وكيل ، ولا يدخل تحت أفعل مع المشـار إليه بل هو حجة الله على الكافّة وينبغى بل يجب أن يقال لمن حاد عنه أحسن الله عزاءك فى طريقك ، وأحكامه لا فى إسلامك وأحكامه . والحمد لله وصلواته على المختتم بدعوته المؤرخ بهجرته ، وعلى آله وأصحابه الأعلام وعترته ، والسلام على الأنبياء الأزكياء الأصفياء الأُوَل ولواحقهم ، وعليك وعلى عموم المسلمين ، ورحمة الله تعالى وبركاته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

< رســــالة >

< وله رضى الله عنه >

بسم الله الرحمن الرحيم . وله رضى الله عنه . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما . اعلم ، علّمك الله حكمته ، أنّ العلم هو الكمال الأول ، وهو الشرط فى الكمال الثانى ، ورحمة الله هى الأصل فى الجميع ، والسعيد هو الباحث عن مصالحه بجملتها ، وهو العامل بما يجب فى ذلك كله . والعلوم منها صناعية داخلة فى ماهية العلم الأول ، ومنها ما دون ذلك ، ومنها واحد بواحد ، ومنها ماينعكس ويرجع على مضافه ، ومنها مايؤخذ من صدور الرجال ، ومنها ذاتية بعد شرط ، ومنها ذاتية قبل شرط، ومنها ذاتية مع شرط ، ومنها عَرَضِيّة كذلك . والأعمال هى الصورة المتممة للتجوهر الأول ، والعلوم الصناعية صورة مقوِّمة له . وبعد هذه العلوم علوم لم تُعلَم قط ، وأعمال لاتنفع إلا بإضافتها لحقيقة العالم ، ثم علم ينفع وعمل يضر ، وبالعكس . والناس على أنحاء فى أحوالهم : فمنهم من لابحث له ولاعمل ، ومنهم بالعكس، ومنهم من هو نصيبه ضعيف فى الأمرين جميعاً ، ومنهم بالعكس، ومنهم من يضعف عمله ويقوى علمه فى وقت دون وقت ، ومنهم من يضعف علمه ويقوى عمله فى وقت ، ومنهم من يضعف [٢٠٠] عمله ويقوى علمه لأمر ما ، ومنهم من يقوى عمله ويقوى علمه بحسب ما ذُكر ، ومنهم من يُحَصِّل الواحد ويتشوق للثانى ، ومنهم من لا يتشوق ، ومنهم من يتعرض، ويمكن منه أن يصل ويحصل ، ومنهم نقيضُ ذلك كله . وبالجملة ، حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة ، والكسل والجهل والغفلة والملل واتباع الهوى ونيل الشهوات الحيوانية هو الحرمان بعينه ، وهى الشقاوة الأبدية إذا دام أمرها حتى إلى زمان نقض التركيب وصرف الأشياء إلى مواضعها وأعوذ بالله من ذلك ، وأستعيذ بالله الرحيم الكريم من النقض وسلطان الشيطان الرجيم . وخُذْ نفسك بالسيرة الجميلة ، وسنة السريرة الجليلة ، وأحكام أحكام التجوهر ، وصلاح الأحوال بالحكم الإلهية وبالتصديق التام والتصور والتأهب لقبول فيض نوره بحقيقة الاتصال قبل تفرق الانصال وحلول الإنفصال ، فإن

سهام الحمام لا سِعة وأحلام الله واسعة ، وبعض ما أحصاه علمه ، وسِعَه حلمُهُ . والمسلم المذكور قبل على كل حال سالم ، وإن قال لا أعلم ما الله عالم ، ومع هذا المدار عليك وسلام الله عليك . فإن كنت تحب السعادة وسيرة النبي والسَّلَف ، وترغب فى إصلاح العادة بأسْوة السَّنى والشرف وبعد العبادة بماهيتك لا بالسلف ، وتحصل المجد العلمى ، وتذوق الوجد العملى ، وتدخل فى زمرة المنتخب وخير من إليه ينتسب ، وتظفر بنسبة الخير المكتسب ، وبالأمور التى لا من جنس ما يكتسب — فامتثل أوامر الأمر الأوّل الذى لا أول له ، الواحد الأزلىّ ، ثم أوامر الآخر الآخر الذى ظهر بالكلام الذى يشذُّ عن عُرْف الكلام المُقرَّب والهزْلى ، ثم الخبر الوارث ، ثم القصد الباحث ، ثم الشوق الباعث ، ثم السبب ، ثم النسب ، ثم الأدب ، ثم التصديق ، ثم التحقيق ، ثم حفظ ذلك كله بما حفظ به الذكر ، ثم به كذلك ، و بما ضاق به ذرع الفكر . وبعد هذا كله الإلاحةُ عينُ الخير ، والصبرُ على المكروه سببُ النفع وسر الأثر ، والإضراب عن الشيء الخسيس هو بذاته القبول على الأمر الرئيس ، والشريعة أعتقد أنها حكمية الموضوع إلهية المحمول ، رحمانية الأصل إنسانية الفصل ، ظاهرة فى الباب باطنة عند الكتاب ، جنس المواهب أنس الطالب وأسُّ المطالب ، إهمالها نقمة وتخصيصها حكمة . وإياك والشهوات العاجلة فانها قاطعة بالكمالات الآجلة . واعلم أن الدنيا مفارِقك والآخرة مقارِك . فمُتْ على إيمانك وكن بين خوفك وأمانك . ولا تَمِتْ ، واذكر البعث . كذب الزنديق الهاذى < ...[1] > الله من قبورنا هاذى . ومن أكلته النسور سيجمعه النشور . ومن الحق الصريح قيام الكل من الضريح . وسؤالك الملكان فى ذلك المكان . وجميع الناس من الخلق والجنة ، وفريق فى النار وفريق فى الجنة . لو غفلنا لم نَعِش بعد حملنا النعش . ولم نعال بعد نفض النعال ، ولم نوال فى بذل النوال . والحياة غرور ، والسرور شرور . هام< ...[2] > [٢٠١] مهموم وذمام الدنيا مذموم . وإذا كانت الحياة الطبيعية شرطا فى العقل الهيولانى ، والعقل الهيولانى شرطاً فى العلم الصناعى ، والعلم الصناعى شرطا فى الفضائل الأول والسعادة المشتركة — فكيف بالحياة الإلهية ومشروطها المستفاد الذى يحصل به العلم الموهوب والعمل المنسوب وملاحظة المحب للمحبوب !

---

(١) بياض فى الأصل ، ولعلها : وأخرجنا .

(٢) بياض .

وأنت آنسك الله بنفسك وغبطك بمعرفتها ، وعرفك كُنْه هويتهـا وآنيتها ، فإن الأردياء لا يفرحون بجواهر أرواحهم ، ولا يتلذذون بالخلوة ، فإنهم مخدوعون بعوارض الهيولىٰ ولذلك هو أُنسُهم باللهو واللعب . فإذا خلوا بأنفسهم يتألمون لأجل جهلهم بها وعاداتهم الفاسدة . فإذا عرفت نفسك وقع لك الأُنس اللازمُ الذى لا يفارق جوهرك ، وأُنسُها لاحق بالأُنس بالله وملائكته وأنبيائه ورسله وأتباعهم . وإذا وجدت فى نفسك شُبْهَةً من طريق الأدلّة العقلية الجأ فيها لقوتك وتصوُّرك وللصنائع إن كنت تحكيها . فإن لم تستطع إزالتها ، فاستعِنْ بالرجال . فإن صَعُب عليك الأمرُ فعليك بالتوجه لله صحبة ما ذكر .

هذا إذا أخذت نفسك بذلك . فإن لم تكن عقلية وتكون سمعية ، فعليك بأصول الأدلة الخمسة وماذكر قبلُ معها . وإن كانت مجموعة من العقلية والسمعية ، وأخبار النفس فعليك برجال الله الآخذين عنه بالإدراك النبوى والأنموذج القلبي ؛ وبالجملة : الحكم صورة متممة لجميع المطلوبات المقوِّمة لها ، فعليك بها .

ثم يأيها المسترشد ، صِل رحمك تجد الله قد رحمك . والحرُّ من تجمل فى إقدامه وتجمل فى إعدامه ولا يلتفت إلى ما جمعته كفَّاه ، ويرتضى من الرزق بما كفاه . وهو بسيرته من القوم الذين يصلون ويصلّون ، ويقول أصغرهم فى الصغائر واحزناه ! ويعمل لما بعد الموت ويخاف من النقض وقت الفوت ، ويجعل الثقلة ما بين أجفانه ، فكيف يكون بعد الأسبوع فى أكفانه ! وأنت ذاك الرجل . فافعل ماأمرت به، تجد الحسن المشار إليه عند العامة قُبْحاً والليل المعوَّلَ عليه عند الحاجة صبحاً . واطلع بالتركيب إلى الذات ، ثم قل : « إلى ربّك المُنتهى » (١) ، ثم انصرف إلى التحليل إلى أفعالها ، ثم ارجع وقل هذه « سِدرَةُ المنتهى » (٢) ، وهنا عجزت الصنائع والنُّهى ، وادفع عن ضميرك الوهم والهوى ، وتحرك بقلبك كما يتموج فوق رأسك الهوا ، تكشف التقلب بقلبك ، وتسعف التطفل بحبك ، ويتصف المتكفل بربك ، وترك التوسل بحبك . والذى أريده منك أن تطالع كلامى وتعتقد أن الخير فيه بالذات ، لا بالعَرَضِ ، وتتيقن أن الأمر المضنون

---

(١) سورة « النجم » آية ٤٢ .

(٢) وردت فى سورة « النجم » آية ١٤ .

به ينال منه أسرع من السهم إلى الغرض ، وذلك بأحسن مدخل وأكمل غرض ، بل هو أعجل من ورود الطيف وألزم للهمة من الكم والكيف ، وأكثر إحاطة من التمكن فى الطرف ، وأعجلُ حركة من الذهن والطرف ، وخذ نفسك النفيسة الثالثة بالخلوة ، والرابعة الساكنة بالسكينة مالوه[1] والخامسة بالحكم الراجع المنعكس وأمر الأمر القيوم المستقيم من المنتكس [٢٠٢] والصوفىُّ الحكيم هو الذى ينتفع بجلاله ، ويطمع من ربه بجلاله بعز وعز . وجميع الحكماء رفضوا مدلول الدنيا بأمر أحلامهم ، ونسبوا زخارفها لأحوال لواحق أحلامهم . وبالجملة اعتبارك استعبارك ، وعينك عونك ، و وملك صونك ، وضحا الحواجر وصل الحُور الهواجر ، وحاجتك حجتك إن أمنت محجتك ، وأملك القاطع فى وجه المجاهدة شرُّ الرئيس ، والكسل الدافع لعين المشاهدة شأن الخسيس ، وصلاح الأمر النازل غبطةُ المستنزل ، وإصلاح الوعد النازل حكمة المستقل ، وشهود النوازل أعوان المعتدل ، وشهود الوسائل أفراح الممتثل .

فافهم ما رسمتُ لك ، وتحفّظ من أن يسد فى وجهك باب الرئاسة وتسلب سر السراوة والسياسة . وإياك ومخالفةَ الوعد فتُدْعَى لغةً وشرعاً وَغْداً . ولا سبيل إلى مخالفة الجليل وحب الحليلة ، فتحرم خير المثيب وفضل الوسيلة . واعلم أن الخير بجملته فى مكارم الأخلاق واتباع الحبيب . أعانك الله على ذلك بمنه وكرمه .

والسلام على إنسانك الغريب وإحسانك القريب ورحمة الله وبركاته !

---

(١) فوقها فى المخطوط : كذا !

< وصية ابن سبعين لأصحابه >

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن كلامه رضي الله عنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً :

هذه الوصية كتبها لأصحابه

سلام عليكم حفظكم الله . حافظوا على الصلوات وجاهدوا النفوس فى اتباع الشهوات . وكونوا عباد الله أوّابين توّابين ، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق ، واعملوا على نيل الدرجات السَّنِيّة ، ولا تغفلوا عن الأحكام السنّية ، وخلصوا مُخَصَّص الأحوال الإلهية ومهملها ، وذوقوا مفصَّل اللذات الروحانية ومجملها ، ولازموا المودّة فى الله بينكم ، وافعلوا الخير وأصلحوا ذاتَ بَيْنكم ، وعليكم بالاستقامة على الطريقة ، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة ، ولا تفرقوا بينهما فإنهما من الأسماء المترادفة ، واكفروا بالحقيقة التى فى زمانكم هذا ، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله ، فإنها حقيقة كما سُمّى اللديغ سليماً وأهلها يهملون حد الحلال والحرام ، ويستخفّون بأشهر الحج والصوم والأشهر الحُرُم « قاتلهم الله أنى يُؤْفكون »(١) . قد غَلَبَتْ عليهم أحكامُ الجهل ، وأكثروا من جمع الأعراض للولد والأهل ، وحرموا مزية الرحمة والعون ، وأسعفوا بسيرة أبى جهل وفرعون . واعلموا أن القريب إلىّ منكم من لا يخالف سنة أهل السنة ، ويوافق طاعة مَنْ له العزّة والمنّة ، ويؤمن بالحشر والنار والجنة ، ويفضل الرؤية على كل نعمة ، ويعلم أن الرضوان بعدها أصل كل رحمة ، ويطلب الذات بعد الأدب مع الصفات والأفعال ، ويغبط نفسه بالمشاهدة فى القوم والروح فى كامل الأحوال . وكل مخالف بان منه التخلف والفساد وإن كان من إخوانكم فاهجروه فى الله [٢٠٣] ولا تلتفتوا إليه ولا تسلّموا له فى شىء ، ولا تسلّموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بحضور الكل منكم ، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم ، ويخرج عن صفاته المذمومة ، ويترك

---

(١) سورة « التوبة » آية ٣٠ .

لنظام دعوته المحرومة . وأنا أشهد الله أنى قد خرجت عن كل مخالف سخيف العقل واللسان ، ولا نسبة بينى وبينه فى الدنيا ولا فى الآخرة . فمن زَلَّ قَدَمُه يستغفرُ الله ولا يخدَعه قِدَمه . واغتبطوا بما أنتم عليه ، فما فى العصر من يصل إليه ؛ والقوى الذنب منكم لا تقبلوا له توبة إلا بحلق الرأس ، ولبس الصوف ، والوقوف من المغرب إلى العشاء الآخرة ، والصمت . ومن يسمع منكم من يتكلم القبيح فى التحقيق وأهله فازجروه واهجرود وو بخوه وذُمُّوه ، وتغافلوا عنه ولا تقبلوا بعد ذلك منه . واعلموا أنه لا حاجة لى فى السموٰات ولا فى الأرض ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا فى الأمل المقدر ولا فى الكون المكوّن ولا فى النظام القديم ، ولا فى التعلق الصرف ، ولا فى الشأن المشار إليه ، ولا فى الجسوم المقيدة ، ولا فى الذوات المجرّدة ، ولا فى الأعراض المبددة ، ولا فى الكمالات الممتدة ، ولا فى الحروف المعتدّة إلا فى ذات الله ، وفى ذات من صحبنى من أجله . والسلام على من صلحت نسبته ، واستقامت سُنّته ، ورحمة الله تعالى وبركاته !

ومن كلامه رضى الله عنه : مَنْ استقام فى بدايته وحصّلها على وجهها وظفر بشروطها فى علمه وقوله وفعله وحاله ، وفعل فيها ماينبغى كما ينبغى على ماينبغى فى الوقت الذى ينبغى ووافق الشرع والمعروف والعادة الجميلة والعقل المُسدّد وصبر على تكاليف كل محترم عنده، وحفظ على شروطه كلها وتأدب مع أمره ، وستر إشارتها بعبارتها ، ومال بجملته إلى الشريعة ، وبأمله إلى الحقيقة ، وحدث نفسه بما ذكر فى زمان العمل ، وبالأمل فى حال السؤال ، وسكن بصيغة الأمر والنهى ، وتحرك من أسفل البطالة بحضرة الجد وعالم الحد ، وقطع عقاب المُهلِكات بالعوالم الثلاثة ، وصعد على منازل الأبرار ، ورتّب المنجية بالمقام الأعظم ، وخرب نظام عادته ، وكان من عباد الله الصالحين وحقق المقصود فى القُرْب من ربه ، فإن الخير بيده فى طاعة رسوله وشيخه ومن يُدَبّره ويُجهّزه ويزوّده لله وينبهه على مصالحه ويحاسبه ويعرّفه بحسناته وسيئاته خليق أن يقال له مريد ، بل ولىّ ، بل سعيد ، بل مدرك ، بل وارث ، بل خليفة بمعنى ما . وكذلك هذا الأمر فى السلوك لكن بذكر الله تعالى .

ومن كلامه رضى الله عنه : مَنْ طَلَب ظفر ، ومن ظفر ربح ، ومن ربح تأنس ، ومن تأنس نشط ، ومن نشط زاد طلبه ، ومن زاد طلبه أخرج مالم يقصده ولا يخطر له على قلب ، وهو كماله

الأخير . ومن حصل له كماله الأخير كان من السعداء ، ومن كان من السعداء اشتدطلبه ، [٢٤٠أ] وزاد شوقه ، وعاين الذوات المجردة ، وكشف له عالم الأمر ، وطالع انتظام القديم . ومن طالع النظام القديم وقف طلبُه من حيث عادته وصفاته ، وتحرك من حيث خرق عادته وصفاته بجوهره . ومن خرج للفعل من كل الجهات شاهد الذات القديمة بتخرب نظام الحادثة حتى من خبر خبرها ومن إشارتها ومشيرها ووحّد وركب التوحيد بالسلب الموجد ، وجميع مايعلم سوى الواحد عز وجل ، وقال : لا إله إلا الله بالقضية المستقبلة وهو بالماضية وطلبه بالحاضرة .

ومن كلامه رضى الله عنه : والذى تحتاج إليه أن تعلمه أن الأولى[1] أن يطلق العلم الإلهى على معرفة الوَحْدة ، وأن المقصود منه هو التوحيد ، وأن المُوَحِّد هو صاحب النتيجة الماحية لكل معلوم فيه غير الوحدة المحضة ، ولكل علم يدل على واحد منسوب ومشير إلى مشار أول . والذى يبلغ هذه الدرجة أدرك المقصود . والقدماء تكلموا فى الغاية الأولى ، ولم يفهموا الثانية وخبطوا خبط عشواء . فنقول : إذا كان مراد المحقق والمحبّ الوصولَ إلى ما حققه أو أحبه وبقى بينه وبين محبوبه فَصْلٌ مشترك ، فلا وصول . والحب إذا حققته هو الاتحاد بالمحبوب وهذه رتبة الصوفية . وزعمت أن المقصود من العلم الإلهى هو الفناء ، والعجز عن درك الإدراك إدراك عندهم ، وأن الوجود المطلق هو الحق الذى إذا علمه المُقَيّد[2] تلاشى ، وذهب . وقسّموا الوجود إلى مطلق ومقيد ومقدّر ، وأن الالتذاذ لا يكون إلا بعد الاتصال . ولهم فى ذلك كلام طويل . وهم أقرب إلى الحق من القدماء . وإن كانت مقدمات القدماء علمية ، فمقدمات الصوفية خُلقية . فالمقصود عند الصوفية الأصفياء رضى الله عنهم هو الوجد والفناء ، والسعيد عندهم بحسب ما يثبت له ذلك ويجده . والعلم الإلهى عندهم الفكر والذكر الأكبر والتعرض لنفحات الرحمة الرحمانية وركود الحواس والعمل بما يرد على القلب ، وتصريف القوى الروحانية ، وتخلية القلب من غير الله تعالى ، وتحليته بذكره جل وعلا ، والجد فى العمل . فهذا مذهب الصوفية فى العلم الإلهى ما هو .

---

(١) فى الأصل : لاولا (؟) .

(٢) أى الوجود المقيد ، أى الإنسان .

ومن كلامه رضى الله عنه : العقل عند الأشعرى غير الروح ، وعند الحكيم قولك عقل وقوة مجردة ونفس ناطقة أو روح أسماء مترادفة . والروح عند علماء الصوفية غيرُ ما ذكر : تارة يطلقونها على الحق الذى قامت به السموات والأرض ، وقيل هى صفة من صفات الذات ، وتارة يطلقون عليها الكلمة ، وتارة القضية الجزئية ضابطة النظام فيها كان كل موجود ليست بفيض ، وكانت متحدة تعم الأشياء ، وليست باتحاد ، وإن كانت ألزم للشىء من ذاته . وليست بحالة ، وإن كانت جزء ماهية من الشىء المضاف إليها وإليها يشيرون حيث قولهم : إن فى كل شىء سراً من سره : جمد فى الجمادات وظهر فى النبات وتحرك فى الحيوان ، وأعلن فى الإنسان .

تم بحمد الله .

﴿ الرسالة الرضوانية ﴾

[٢٤٤]　　　　بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً والحمد لله رب العالمين .

يا مرحوم ! الرحمةُ تتعلق ببعض المعلومات ، والقول عليها مثل القول على الإرادة والقدرة وغير ذلك مما يخص بعض المعلومات لا كلها ، وتمتد إلى غير نهاية وتعمُّ الكونَ كله . والفكر فيها مادة الطيبات وتصوُّرها يحرِّك اللذات وهى مُتَنَزَّه العارفين بالله . وصيغتها أعم من العفو ، فإنها تقال على المذنب وغير المذنب وتردد دون علة وبضد ذلك . وإذا نظر فيها وفى ماهيتها وفى أثرها وفى لواحقها الخاصة بواحد بدل الآخر صرفت إلى إرادة القديم وقيل فيها صفة من صفات ذاته وإذا نظر فيها مفردة وتعتبر فى مضافها المنفعل خاصة وتحمل على معنى الانعام وتمسك عن التأمل فى محركها الأول تجعل من لواحق القدرة والارادة وقيل فيها صفة فعل . والرحمن والرحيم اسمان مأخوذان منها ومعناهما واحد عند أهل الكلام والعفو أعم من الغفران فإن العفو يقع على كبائر الذنوب وعلى صغائرها ويطلق بتشكيك مع التنبيه ، ومع ما يقع فى الخبر والعزم داخل الذهن وإن لم يخرج للفعل . والغفران لايتعلق إلا بالذنوب ولا يقال إلا عليها خاصة . وقد تطلق الرحمة والعفو والغفران بترادف، إلاأن كل عفو وغفران رحمة وليست كلُّ رحمةٍ عفواً وغُفْراناً . والرحمة أعمُّ من الرِّضوان ؛ وكل من رُضى عنه رُحم ، وليس كل من رُحم رضى عنه . والله تعالى رحيم عفوٌ غفور ، ذوالانتقام شديد العقاب ، ذو الطَّوْل يعفو وينتقم ، ويرضى ويغضب ، له الصفات العُلىٰ والأسماء الحُسْنىٰ . فالخلق متردِّدون بين أحكام صفاته وجوداً وَعَدَماً ، رضًى وغضباً ، عطاء ومنعاً ، عذاباً ونعيما ، غنى وفقراً ، صحّة وسُقْماً ، جاهاً وخمولا ، خفاء وظهوراً ، وهو الكريم الذى يعطى بالمسئلة ، وهو

الوهاب الذى يعطى بغير مسئلة . ولا خير فى الوعيدية ولا خير فى المُرْجئة : فإن الوعيدية تقول إن الله لا يغفر ذنباً ، والمرجئة تقول إن الله تعالى لا يؤاخِذُ بذنب . فأبطلت الأولى رسم التوحيد ، وأبطلت الثانية وجه التكليف ، وعطلتا حكم صفتين عليتين واسمين حَسَنين للبارى سبحانه وكأنهما لم تقرآ قوله تعالى « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التَّوْب شديد العقاب ذى الطَّوْلِ لا إله إلا هو إليه المصير »[1] .

ومن نظر إلى الرحمة وتعلق باسم الرحمن وفكر فى الرحمانية طاب عَيْشُهُ وحَسُن أُنسه وأنيسه وسَبَح فى بحر الرجاء وغرق فى مدلوله ويمكن منه أن يصيبه ولم[2] حتى يقول أو يقول له حُسْنُ [٢٤٥] ظَنّه : كلٌ موجودٍ سوى الله الحق تعالى تقال عليه الرحمة وتقوم به وتنعل فيه وتلحقه . فتقول : ولا بد للنار أن يعدم عامرها وينتقل إلى أحسن حال ويستدرج بالرحمة الخاصة إلى الرحمة العامة . وربما استعان فى ذلك ببعض الأحاديث المشهورة ، وقرأ عُقَيْب الاستدلال ، وتفكر فى قوله تعالى « إن الله يغفر الذنوب جميعاً »[3] ، وفى قوله تعالى « قل كلٌ يعمل على شاكلته » ، وأطلق القول على المؤمن والكافر وجعل الرحمة عليهما ، وقال الخير هو الغالب على خلق الكريم الحليم ، ويقول : كل ما يفعله من خير وشر إذا اعتبر من حيث الحكمة والفطنة والجبروت حُمِد واستُحسن وعُظِم ونُسب إلى الخير بموصوفه والشر بفعله ، وجعل الخير فى المحل والقصد الأول والشر باللواحق والمضاف المنفعل والقصد الثانى . وقد يكون الخير عند بعض الذوات الروحانية بالقصد الثانى ، والشر بالقصد الأول كما بيناه فى « بَدْء العارف » .

ومن نظر إلى العفو وتصفحه ، وأطال الفكرة فى مضافه ومدلوله ، وتأوّل معقوله وحقق المراد فى الشريعة ، وحَصّل مقصود الأحكام الشرعية ، ومال مع الإجماع وتدبر صيغة اسمه العفوّ وقرأ « إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمَنْ يشاء »[4] — وصحيح أن النسخ لا يقع فى الأخبار — أطلق العفو والإحسان بتقييد ، وخلّص نفسه من الأشعرية ومن بعض الفقهاء ،

---

(١) سورة « غافر » آيات : ١ - ٣ .
(٢) كذا !
(٣) سورة « الزمر » آية : ٥٣ .
(٤) سورة « النساء » آية : ١١٦ .

ومن بعض الصوفية ، وسلم الأمر للحكيم ، وغلب على ظنه عفوه ورحمته وغفرانه ، واعتقد السعادة فى أهل القبلة واقعة ولم يفصل .

ومن نظر إلى المغفرة وفكر فى اسمه الغفور قسّم الناس إلى مؤمن وكافر ، وقال : الكافر فى النار بإجماع الأمة ، والمؤمن[1] فى الجنة بإجماع الأمة . وقسم غير الطائع إلى فاعل كبيرة وإلى فاعل صغيرة ، وقال : فاعل الصغيرة فى الجنة بإجماع . وقسم فاعل الكبيرة إلى تائب وغير تائب ، وقسم التائب إلى تائب قبل موته بمدة طويلة وتوبة صادقة وتامة الشروط وهو عالم صالح ، وإلى تائب قبل موته قبل أن يغرغر ، ومدته ضيقة لا يسع فيها إلا توبته خاصة ؛ وإلى تائب قبل موته دون الأول وفوق الثانى . ثم فكر فى آيات الزجر وفى الأحاديث التى توافقها وفى اختلاف العلماء وفى خلاف ابن عباس مع على بن أبى طالب رضى الله عنهما فى آية القتل وفى ترادف الوعيد فيها وتكراره . ثم اجتهد ، ثم معلوم الرحمة الأولى بمعلوم المغفرة الأخيرة المذكورتين قبل وما بينهما ، وتدبّرَ فى شرف الإيمان وتصفّح الآيات التى تتعارض والأحاديث التى تختلف فى متعلقاتها وامتحن بشأن التائب والتوبة والتواب بعقله وبالقياس وبالاجماع وبالكتاب والسّنة ، ثم فكّر ونظرَ وخصّصَ مهمل الرجاء برحمة الشفاعة ومجال اليأس بحرمة الاسلام ، وامتحن الأحكام الشرعية بالسبر والتقسيم ، وفكر فى الأشياء المعينة بالصبر والتسليم ، وقال: الأول فى الجنة باجماع ، ويَغلِبُ الظنُّ أنه لايدخل النار والآخر من أهل الجنة باجماع ويلحق الشك فى [٢٤٦] أمره هل يدخل النار أم لا ، والثانى الذى بين الأول والآخر فى قوة الظن أنه من أهل الجنة ويتعرض الشك فى أمره هل يدخل النار أم لا ، والشك تردُّدٌ ما بين أمرين لا مزية لأحدهما على الثانى ، والظن تردُّد ما بين أمرين لأحدهما مزية على الآخر . وقوة الظن قريبة من اليقين . والمُصرّ قسمه إلى مُصرّ يقول بتحريم الذنوب ، وإلى مُصرّ يقول بتحليلها . والمصر الذى يقول بتحليلها فى النار بإجماع . والمُصرّ الذى يقول بتحريمها ينقسم إلى مصر خالط عملا صالحاً وآخر سيئاً وكانت صغائره أكثر من كبائره وفى نفسه أسف ، وإلى مُصرّ فى خبره أثر الاقلاع . وفى حاله ذم التسويف ، وفى فعله القبيح بعض توقيف ، وإلى

---

(١) فوقها : « كذا » — ولعله استغرب أن يكون كل « مؤمن » في الجنة .

مُصِرٌّ على كبائره والشهوة غالبة عليه ومحركة له وعزمه ثابت على فعل القبيح وقوته النزوعية تحركه لكل كبيرة غير أنه مريض الشخص وقليل المال وضعيف الجاه ولا يستطيع على خروج فعله المذموم من القوة إلى الفعل . وإلى مُصِرٌّ مثل الأول فى كل أموره غير أنه كثير المال والجاه وصحة الأعضاء وقوى الجاه . وإلى مُصِرٌّ مثل من تقدم غير أنه من الملوك وكبائره فى اليوم الواحد أكثر من كبائر الغير ألف مرة وإلى أكبر وإلى أصغر وإلى من هى كبيرة بالإضافة إلى الثانى كالجنس للنوع والنوع للشخص وقال بعد تقسيمه الأول فى عذابه فى النار بإجماع من حيث النصوص الشرعية ، ويغلب الظن أنه مِنْ أهل المكان المتوسط بين الجنة والنار بعد مدة والثانى يلحق الشك القطع عليه بالخلود ويغلب الظن فى عذابه أنه مخفَّف عنه ، والثالث يحمل عليه بحسب ما ذكر ويقاس على أمره بالقياس المذكور وينظر فيه بنظر الآخر والأول . وكذلك ما بعد من العصاة مثل من ذكرنا .

ومن نظر إلى الرضوان الذى يطلق مع الرحمة بترادف وإن كان أعمّ منها ويطلق مع المغفرة والعفو بتشكيك وهو الجنس العالى للجميع وهو المقول على كثيرين إذا اعتبر الإحسان وأنواعه وهو مع ما سواه من أنواع الفصل كالثناء مع الشكر فإن الثناء أعمُّ والشكر أخص ، والثناء يتعلق بالأسماء الأربعة : اسم الذات واسم الصفات واسم التنزيه واسم الفعل . والشكر لا يتعلق إلا بالأفعال خاصةً . والرضوان هو المطلوب بعد رؤية الحق سبحانه وهو الذى يفيد السعادة ويحفظها وينمّيها . والرضوان هو ماهية النعيم ، وهو المحرك لكل أمنٍ وعافية ، وهو المتقدم على ما ذكر . ثم نظر إلى الكريم الأعظم وحقّق نظره فى فصل الوهاب وصحح ما يجب له ويجوز عليه ويستحيل فى حقه . ثم نظر إلى الحبيب المقرب المقبول الشفيع المشفع ، ثم نظر إلى حبه فى أمته ورحمته لهم وهمته فيهم وغيرته عليهم واعتنائه بهم وحسن ظنه بربه وشأنه عنده . ثم نظر إلى شرف الإيمان وفضيلة كلمة الإخلاص وعظم شأنها . ثم نظر إلى قولها عند الخاتمة . ثم نظر إلى حب المُصِرّ العاصى فى الله تعالى ورسوله ﷺ وإلى توكله على شفاعة المختار صلى الله [٢٤٧] عليه وسلم . ثم نظر إلى خلاف العلماء . ثم نظر إلى آيات الرجاء . ثم نظر إلى عزة التوحيد . ثم أعاد نظره فى الكريم والكرم المطلق . أطلق الأول بعد تقرير ذلك كله فى خلده أن المؤمن بالله فى الجنة على كل حال

وقال : تَصحّ أن الرحمة هى الفاعلة ولها يرجع ولا يعتبر العمل معها وبها يدخل الكلُّ الجنة ، فان الله لا يجب عليه شيء . وإذا قلنا هذا دخل بعمله ، وهذا أُعطى على عمله الصالح الدرجات السنية ، وهذا جوزى بعمله ، وهذا من الأبرار ، وهذا من المُقرّبين — إنما قصدنا بهذا القول كله القَصدا لشرعى .

وأما القصد العقلى : رحمة الله هى الفاعلة ، وهى العامة ، وهى مهيأة للخير ، وهى جاءت بالخير ، وهى عصمت من الشر ، وهى حفِظَتْ ، وهى هَدَت ، وهى أرشدت ، وهى هو ولا شيء مثلها . ثم غلب عموم الرضوان وإحسان المنعم وجاه الشفيع وشرف التوحيد وعجز الموحد والعذاب الذى ناله وأقام الحق فى أول خط الرجاء ، والنبي عليه السلام فى آخره والمذنب فى وسطه وتأمل اضطراره ورحمة الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ووسيلة المشفع الشفيع فيه . ويتمكن من هذا كله على أتم ما يمكن وأَنِس نفسه واشتد فرحه ، وأفرط فيه غرض حمد المنة . وربما سكر فقال وحق رضى الله وإحسانه وجاه الشفيع وشرف التوحيد وقدر الموحد ما أحكام أمة أحمد فى القيامة إلا على ضروب : فمِنْ رجل يدخل الجنة ولا يدخل النار ويشفع فى عدد كثير ، وآخر دونه ، وآخر فوقه ، وآخر يدخلها بعد السؤال ، وآخر يدخلها برحمة الله تعالى وإن كان مثل من ذكر من المُصرّين ، وآخر يدخلها بالشفاعة قبل النار ، وآخر يدخلها بالشفاعة بعد النار ، والمؤمن لا يشقى ، والإنسان المؤمن قد يكون من الأشقياء بالقوة ومن السعداء بالفعل . وبالعكس ياهذا . وقد كشفَ القناعَ فى ذلك حديثُ الشفاعة فى كيفية المذنبين ومراتب إخراجهم من النار عموماً ، وورد فى الحديث الصحيح خصوصاً واللفظ لمسلم ، قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ رجلاً ممن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، قال : فدُلّ على راهب فأتاه ، فقال له إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال: لا ! فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على رجل عالم، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ! ومن يحول بينه وبين التوبة ! انطلِقْ إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلَقَ حتى نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاءنا تائباً مقبلا ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم مَلَكٌ فى صورة آدمى فجعلوه حكما فقال : قيسوا ما بين الأرض فإلى أيهما كان أدنى فهو له . فقاسوه

فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة ، وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشيء قليل فجعل من أهلها . وقال [٢٤٨] صلى الله عليه وسلم : مَن كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله حرّمه الله تعالى على النار . وما تعارض في ذلك من النصوص للحكم فيه تردد القلوب بين الخوف للعاصي والرجاء للرحمة وينفذ حكم الله تعالى على العباد والعاقبة للمتقين . وقد حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السائل إذا جاءه وذكر له « ومَن يَقتُلْ مؤمناً متعمداً »(١) الآية إلى آخرها نظر : فإن كان لم يقتل قال لا توبة للقاتل ، وإن كان قتل قال له توبة . فكان يغلظ على من لم يقتل ليكف وكان يخفف على من يقتل لئلا ييأس . وقال بعض من نسب نفسه إلى علم التحقيق: قوله «ومن يقتل مؤمناً متعمداً » وقوله « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» — خبر ولا يصح النسخ في الأخبار كيفما ترددت ، وإنما معناه جزاؤه إن جازاه ، أو يكون معناه من قتله مستحلاً ، أو يكون المراد به رجلا بعينه .

فافهم يأيها المرحوم وتلذذ بالرضوان الذي تقدم ذكره وآنسَ نفسك بالإيمان ، واقرأ كلمة بسم الله الرحمن الرحيم ، وتعلق بالبعض منها وتخلق بالبعض ، واعلم أنَّ معناها عظيم الشأن ، ولأجل شرفها وبما جمعت من الأنس والخير للمكلف قدمت قبل تلاوة كلام القديم والحادث ، وهي كلها من الحروف المتحابّة إلاّ الأوّل منها وهو منها بالنظر إلى أصله . وقد تكلم الناسُ في أمره وتقدر أن تقف على ما قيل فيه من هناك . ولولا خوف التطويل والخروج عن الاشتراط الذي عُوِّل عليه في الاختصار كنتُ نكتب في ذلك ما هو أبسط وأكمل من هذا كله . والذي يجمل بهذا ويحسن أن يكون منوطاً به ويذكر عقبه ذكرُ التوبة والكلام عليها ، فإنها نعمة عامة ، وموضوع العاقبة ومحولها في العبد الفاجر المذنب . فنبدأ بعد قولي وبالله التوفيق ، فنقول :

التوبة تطلق على أنحاء ، وهي وظيفة شرعية ، والكل مطلوبٌ بها ولا يحملها أحدٌ عن أحد ، وهي الندم على المعصية لأجل ما يجب له الندم . والعرب تقول : تاب وأناب وآب بمعنى رجع . وإذا

(١) سورة النساء آية ٩٣ .

أضيفت التوبة إلى المكلّف أريد بها رجوعه عن فعله القبيح إلى الندم عليه . وإذا أضيفت التوبة إلى أفعال الله تعالى ، فالمراد بها رجوع نعمهِ وآلائهِ وأياديه إلى عباده التائبين . والذى يريد الشرع منها ثبوت مفهومها اللغوى ومتعلّق حكمها الشرعى . والتوبة الشرعية هى اللغوية بجهة ، وهى غيرها بأخرى . فلا كلُّ مَنْ رَجَع يسمى تائباً شرعاً ، ولا كلُّ مَنْ نَدِم خرج عن فعله القبيح ودخل فى الحسن يحمل عليه على الإطلاق أنه رجع .

والمقصود المطلوب الذى يحرر التوبة الشرعية ويحقق فيها مفهوم اللغة هو رجوع التائب بأمرٍ يحركه إلى رجوعه ويخوّفه ويُرَجّيه بوعدٍ ووعيدٍ ويترك ما كان عليه من أجل ما أمر به ولأجل ما هو تارك له ، ويرجع إلى ما هو معين عليه وينتقل من الذى نهى عنه . ولذلك لا يقال فى الذى يترك شُرْب الخمر من أجل الناس أو أجل جسمه والاحتياط على عقله : تائبٌ [٢٤٩] شرعاً ، وإن كان مؤمناً أو كافراً — فاعلم .

فإذاً التوبة واحدة بالقول ، كثيرة بالموضوع . والأسماء تؤخذ من اللغة والقياس والشرع والعُرْف ، واسم التوبة الشرعية مجموع الأربعة وصيغتها يشترك فيها مدلولها ومفهومها ، وجملة أمرها يحمل عليها بالذات إذا فصلت وبالعرض إذا صرفت وهى بالجملة راجعة إليها . وانظر إلى المؤمن إذا تاب عن قبيح ورَجع منه إلى ضدهِّ . ثم انظر إلى الكافر الذى يكفُّ عن قبيح ما ويخرج عنه ويرجع إلى ضده نحو التوبة فى هذا صحيحة من الجهتين ، وفى هذا من جهة واحدة وهو الرجوع المعروف فى أصل اللغة خاصّة . فقد صح العرف ولما لم تقبل التوبة من المؤمن إلا بعد الأمر والنهى والوقوف على خبر الشارع ﷺ صح وجود القياس فإن العُرْف يخبر عنه ولم يحمل عليه ووقف على شرط واحد ، وهو القصد الشرعى ويخبر عن الكافر ولم يحمل عليه ، ووقف على شرط متقدم وهو الذى لا تصح الطاعات إلاّ به وهو الإيمان وهو شرط الحق ، وهو الذى لا تكمل الطاعات إلاّ به وهو الفرض ومراعاته . وإن كان هذا قد دخل تحت الطلب ، وهذا كذلك ، وهذا قد قام به الشرط الأول ، وهو الذى لا يدخل تحت مقدور العبد ولا يمكن أن يكلَّف إلاّ بوجوده ، وهو الذى إذا ارتفع ارتفع حكم التكليف عنه وهو العقل وهذا الثانى مثله ، فهذا مذهب العرف ، وهذا بعيد عنه بما ذكر من معلوم الأمر والنهي ومن حملها على معلوم الشروط المذكورة

ومن ارتباط بعض لواحق الأول مع الثانى فى مدلول التكاليف ومن حيث الرجوع عن الزّلاّت واكتساب الخيرات المعنوية الشرعية الداخلة تحت جنس الأحكام الخمسة الفقهية التى فصلها الانقياد الخاص للأمر المُشار إليه بأمرما ماهيته التحليل والتحريم ومَيَّزها من غيرها وعرف المأمور المنكر الذى اشترك مع غيره وخصَّص مهمل شأنه وقدس مجمل تقييده — صح فيها أعنى فى التوبة اسم الشرع واللغة معاً فافهم وتصفّحْ كلامى فإنه يصعب من جهة، ويسهل من جهة أخرى. وكذلك كل كلام صناعىّ مفيد يجذب البرهان ويرفع الإقناع الذى لا يقين فيه .

وجملة الأمر: التوبة الشرعية لا تصح إلا بتقييد، ومقيَّد، ومقيِّد، ومشارٍ ما إليه يتعلق به مفهوم الخوف والرجاء، ومحرِّك لها، وإقرار بوجودها وثبوتها، وإيمان بوقتها اللازم وبوقتها الواسع وبوقتها الضيق، وبابها الذى يغلق فى وقتٍ مجهول الكيفية والحال، وأنها تحت مقدور العبد وتحت كسبه، وأن قدرته تؤثر فيها وإن تعلقت بها فإن العبد التائب يعجز عن مصالحه من حيث الهداية والعاقبة والخاتمة ويقدر بالكسب الشرعى بالقدرة الحادثة التى هى وَصفٌ للعبد خاصةً، وحركته بها كسبه، وهى لا تتقدم زمان حركته ولا تتأخر عنها وتقارنها. والقدرة تتعدد بتعدد المقدورات ولا قدرة واحدة تتعلق بكل مقدوراته ولا يلحقها التعدد وتؤثر فى كل مقدور وتخترعه بوجودٍ فى حادث، وإنما وجودها فى القديم. ومذهب المؤمن السُّنّى بين المعتزلى والجَبْرى [٢٥٠] فيهما. وهذه مسألة قطعت قلوب المتكلمين. ولولا خوف التطويل كنت نتكلم على حقيقتها، ونشفى بها صدور الطلبة. وفى الجواب على « مسائل الإشبيلية » نخلِّصها بحول الله تعالى فانظرها فيهما وتدبَّرها. وقوله تعالى: « إياك نعبد وإياك نستعين »[1] كذّب الجبرى والمعتزلى فافهم وتب التوبة المذكورة وارجع الرجوع المذكور. ومن لم يلتزم شروطها فهو راجع وتائب بمعنى منتقل خاصة ويدخل تحت جنس الرجوع المطلق، الذى يقال على العاقل، وعلى غير العاقل، والتوفيق بيد الله تعالى، وهو الذى خلق القدرة على الطاعة، والخذلان بيد الله، وهو الذى خلق القدرة على المعصية .

فصـل: جميعُ ما ذكرته فى التوبة من مراعاة الأمر والنهى هو الذى يلزم فى كل الأحكام

(١) سورة « الفاتحة » آية : ٥ .

الشرعية . وما ذكرت من الأسماء وتفصيلها يلزم فى أكثرها . ألا ترى أن الصوم الشرعىّ لا يصح معناه بالإمساك المطلق إلا بمفهوم اللغة فيه حتى يضاف إلى ذلك الأمرُ به وبوقته وبحدّه وبتفضيله وبكيفية أحواله كلها ، وعلى أى شىء يمسك ، وهل هو لمعنًى ما أوّلا ، وما المعنى الذى هو له هذا الإمساك ومحرّكه أىّ شىء هو ، وبمن يقوم ، وبمن لا يقوم ، وفى أى وقت يتعلق الخطاب بالممسك المكلف ، ومن أمر به ، وما يجب للآمرعزّ وجلّ ، وأين نسبته من المأمور ، وما يلزم عنه عصيانه ، وكم أصناف الأمر به ، وكم مِنْ أمر يأمر به ، وغير ذلك من الأمور الذاتية للصوم والصائم فى الشريعة المذكورة .

ومن غفل عن هذه الشروط كلها ، ويحمل الصوم على مفهومه عند العرب الذى هو الإمساك ولا يعتبره بالعرف والقياس والشرع ، حاد عن طريق الصوم الشرعى ، وسلك على طريق الصوم العامى الذى يقال على الإمساك المشترك الذى يعمُّ العاقلَ وغير العاقل ، والخير وغير الخير ، والطائع وغير الطائع . والعرب كانت تطلقه ولا تقيّده . فإذا ما أطلقته بالأمر على الشىء المشار إليه قيّدته فى زمان الأمر ، كقولك : أَمسِكْ الدابة وصُمْ عن الكلام . قال الله تعالى « فقولى إنى نَذَرْت للرَّحمٰن صوماً »[1] أى صمتا . قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غير صائمة تحت العَجاج وأخرى تَعْلُكُ اللُّجما[2]

وقال امرؤ القيس :

فدَعْ ذا وَسلِّ الهَمَّ عنك بجَسْرَةٍ ذمولٍ إذا صام النهار وهَجَّرا[3]

<u>فصل</u> : قال رسول الله ﷺ الندم توبة ، أى معظم التوبة الندم ، كما قال الحج عرفة أى معظم

(١) سورة مريم آية ٢٦ .
(٢) الصائمة من الخيل : القائمة على غير اعتلاف .
(٣) صام النهار : قام واعتدل ، وفى « القاموس المحيط » : صام النهار : قام قائم الظهيرة . وذمل البعير فهو ذمول : سار سيراً ليناً . راجع ديوان امرىء القيس بعنوان « كتاب نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء فى قصائد امرىء القيس أشعر الشعراء » ، نشر البارون دي سلان ، باريس سنة ١٨٣٦ ص ٢٦ البيت ٢١ .

الحج عرفة . وإن عزمت أيها المذنب على التوبة فاندم واعزم على فعل الخير المعروف وافعل به فى الحين وما عليك للغير بادر به وأنصف المظلوم من التباعات المعنويات والحسيات وغيرها فإن لم تقدر فلأحد لواحقه مثل الوارث القريب له ، وكذلك اهبط بالتحليل فى أهله ، واطلب نفسك بالإنصاف ؛ فإن لم تجد فمن الأحوال السنية والمعاملة الجميلة الخلقية العلمية والعملية وتشركه فيها ؛ فإن لم تجد فقاسمه فى خيراتك كلها وجد فى العمل الصالح حتى تكون واسع الذمة [٢٥١] بحيث تعطى وتبقى غنياً بالكسب والمال ؛ فإن لم تستطع فارفع أمرك للغنى القديم فهو يُنْصِفك وينصف عنك للفقير العديم وما بينك وبين ربك استغفره فيه ،وتُبْ له واخرج عنه ، وفوّض أمرك فيه لكرمه ، واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب صيحة تنبيه رحمة . ويقال لك : يأيها الانسان ما غَرّك بربك الكريم ؟ فقل له حلم الحليم وعجز الجريم .

فصل : يتوب الكافر من كفره والمؤمن من معصيته والسالك السعيد من غفلته . والمؤمن لا يكفر بذنب فإن تاب فإنما يتوب من فعله المذموم ، وما فى تصوره وتصديقه من معرفة الله تعالى لا يرتفع بالفعل المذموم فإنه خارج عن صفة نفسه . ولكل ذات معنى خاص بها ومضاف يلزمها ويتعلق بها وهو منوط بها . والمعلوم الصحيح الذى يتعلق به العلم على ما هو به وتحصل صورته فى نفس العالم ومعرفته صادقة قد حَقّقها القياسُ وأثبتها البرهان لا تتغيرأبداً . والعالم به لا ينتقل عنه ولا يخبر أن فى غيره ما يعوّل عليه ولا يبقى له فى محصوله ما يحتاج فيه إلى تلفُت وامتحان كالأمور المظنونة .

فصل : التوبةُ فريضةٌ تلزم كلّ مسلم ، والغافل عنها يتوب من أجلها فإنها دائرة وهمية وتكون كالخط المقوّس مع الغفلة وعند التذكر دائرة والتخصيص يجمع نهايات خطوطها ويقوّمها وهى تمشى مع الهمّة والأدَب والحكمة والسيرة الجميلة وهى موضوع العناية ، والعملُ الصالح محمولها والعلم صورتُها المقوِّمة والهداية صورتها المتممة . وهى على أنحاء وأنواعها كثيرة ، وفيها القوىُّ القاطع والضعيف اللّين ، وفيها ما يعظم شأنه وفيها دون ذلك ، وفيها ما يُقتنع فيه بالخبر ، وفيها ما لا يصلح إلا بالفعل ، وفيها ما هو بالاستعداد ، وفيها ما هو بالموت ، وفيها ما هو بالقوة ، وفيها ما هو بالفعل ، وفيها ما هو بالخلوة ، وفيها ما هو بالعزلة ، وفيها ما هو بالمال ، وفيها ما هو

بالفقر . واعتبر هذه الـكلمات المقولة على أنواعها المحمولة على صفات أحوالها وأسبابها بتوبة الحاج ، وبتوبة الصـادق ، والذى يرد التباعات ، وبتوبة الصالح الذى يخطر له القبيح فى خلده ويستغفر الله تعالى منه ، وبتوبة تارك الصلاة واسترجاعه ، وبتوبة الإنسان قبل مفارقته عقله وجثمانه ، وبتوبة القاتل ، وبتوبة الذى يمنع عن مقصـوده السيىء ، وبتوبة الذى لا حاجة له فى النساء وهو يعلم أن شاغلة لمن تشغله عن مراده وكذلك القرين السوء ، وبتوبة الذى عليه عذر يمنعه من أداء الفرض وجميع ما يمنعه من التوبة الصرفة واستجلاب الأحوال السنية ، وبتوبة من يطلب العلم ، وبتوبة من أهلـكه المال والـكسب والحرص عليه ، وبتوبة من استفزه الجاه وحب الرئاسة . وغير ذلك من أجزائها ، فإنها مقولةٌ على كثيرين ، وإن اختلفت موضوعاتها فهى تتفق معها فى الحد ويشملها جنسها وكثير ما فى الأمور الشرعية من الأمور التى سمانهـا توبة ونعوتها تدل على شىء آخر مثل الكـفارات وما أشبه ذلك وهى على الإطلاق نعمة مطلقة ، [٢٥٢] ونائلها هو المنعم المطلق ، وهى بائنة فى الزمان اليسير باحرنه[١] الحرمان فى الزمان الطويل ، وهى تحت ما قبلها فلا قطع الله بنا حولها ، وهى صابون الذنوب والحمد لله على نعمه .

فصـل : لعلك تقرأ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار « أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً » فيصعب عليك مدلولها ويتنغص عيشك عند تلاوتها . فإذا كان ذلك فآنِسْ نفسك بحديث رسول الله ﷺ حين سئل : ما حد التائبين ؟ فقال : من تاب قبل موته بسنة قَبِل الله توبته . ثم قال : ألا وإن ذلك لـكثير . من تاب قبل موته بنصف سنة قبل الله توبته . ثم قال: ألا وإن ذلك لـكثير . مَنْ تاب قبل موته بشهر قَبِل الله توبته . ثم قال : ألا وإن ذلك الشهر لـكثير . من تاب قبل موته بجمعة قَبِل الله توبته . ثم قال : ألا وإن ذلك لـكثير . من تاب قبل موته بيوم قَبل الله توبته . ثم قال : ألا وإن ذلك لـكثير . من تاب قبل أن يغرغر تاب الله عليه ، ثم تلا قوله تعالى : « ثم يتوبون من قريب »[٢] وكل ما قبل الموت قريب . والمراد أن يكونَ فى صحته وعقله الهيولانى على حاله لم يتغير

---

(١) فوقها فى المخطوط : « كذا ! » .
(٢) سورة « النساء » آية : ١٧ .

وموضوعها كما كان والاتصال لم يفترق ، وأن تكون الصورة الروحانية التي تظهر عند التجرد لم يختلط نظام تصورها في الذهن ، فإنها تكون هناك على ضروب : فمنها ما هو صادق وهو ذاتي الذات ، ومنها ما هو كاذب وهو عَرَضيٌّ الذات ، وسعادة الإنسان في هـذا الموطن على حاشيتي النقيض واقفة تشاهد عاقبتها وتشاهد شقاوتها أو سعادتها حتى يخرج للوجود ما شاء الله منهـا . فإذا شعرت النفس بتركها بتدبير البدن وبالانسلاخ عنه ورجوع الأشياء إلى مواضعها يحدث الاضطراب والتبدل في عالمها الصغير وتقوم قيامتها الصغرى قبل القيامة الكبرى ، فاعلم ذلك ، واترك الأقوال القاصرة عن المراد ، الفاسدة في العمل والاعتقاد ، وحسِّن الظنّ بربك العظيم ، واجعلْ الخوف والاحترام الشرعي والأدب مع الله ورسوله وملائكته في يمينك وعقلك ، وخبر نفسك ومرادها في شمالك ، والقبض والبسط بينهما ، والرجاء حولها والإذن على الجميع وما وجدت في غير الذى في يمينك من زيادة اعرِضه على الذى في يمينك ، فإن قبلها اقبله وإن دفعها ادفعه والله هو المعين على ذلك .

فصل : الله نَصَبَ الأدلّة على المعرفة وفرع التكاليف للتعبدات ، وأوعد تعالى بذلك على ألسنة الرُسُل فآخرهم محمد ﷺ فبشّر به وأمر ونهى ، وأنذر ووعد وأوعد ، وألزم والتزم . وسبق في علم الله وحكمه أن الخلق يتباعدون عن القول ويتعامون عن الدليل ، ففسّح لهم في المهل ، وأرخى لهم الطوال ، وأعلمهم بإقالة العثرة لمن كبا ، وبقبول التوبة لمن خالف وأبى ، وجعل مدة قبول الإجابة وصحة التوبة مدة الدنيا ، وهو عمر الإنسان فيها ، فقال تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي رُبك أو يأتي بعضُ آيات رَبّك ، يَومَ يأتي بعضُ [٢٥٣] آيات ربك لا ينفع نَفساً إيمانُها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » (١) . فأخبر الله تعالى أن الإيمـان لا ينفع ولا كَسْبُ الخير معه ينفع إذا ظهر بعضُ آيات الله المؤذنة بانقراض الدنيا .

فصل : صح عند صحيح النظر أن التوبة قبل الدهر ومعه وتحته ، وفوق الزمان ومعه وتحته .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

والثابت كذلك والمحرك القريب لهما قبل الدهر، والمحرك البعيد قبل القريب لها ، والمتقدم عليه بالفصل والسبب ، والطبع والذى فطر الأمور بالجميع وأبدع التوبة والدهر ، والزمان المحرك القريب والبعيد والتقديم والتأخير والفوق والتحت والقبل والبعد ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الله الذى لا أول لوجوده ، ولا يمكن أن يكون بينه و بين مفعوله واسطة لا روحانية ولا جسمانية إلا فعله . وهى مع هذا عَرَضية لا تفعل ، ولا هى ضرورية لفعل القديم فى مفعوله. وقد قام البرهان عند المسلم أن العوائد ارتباط موجود بموجود من غير قضية شرعية ولا عقلية . فافهمنى يأيها المكلف وتعلق بالقديم و بما فى النظام القديم ، ونادم بذلك الذى لا يفارقك من صفة نفسه ولا تفارقه من صفة نفسك ، فإن الفاعل يلازم مفعوله والمفعول يلازم فاعله . ولكنه إن شاء يعدمك لأعدمك وتكن كما كنت . وأنت فى تعلقه لا ذات الك إلا أنك موجود فى علمه وإن شاء يتركك على حالك بخلاف قول الفيلسوف. ولذلك ذكرت هذا التنبيه فتنبّه له . وإياك والغفلة عن الله فإن الله هو المحبوب الأعظم والنديم الحقُّ الأكرم والقريب وكل أنواع القرب التى يثبت التنزيه معها والبعيد بمخالفته وبالجهل خاصة وهو الحاضر فى حضورك قبل كونك وهو معلومك وعالمك وعلمك قبل كونك ومعه فافهم . واجعل العبودية لازمة لك ، والغيرية كذلك ارفعهما ، ويكون زمان وجودهما فى وقت الأمور الشرعية وزمان إعدامهما فى الحقيقة هذا إن فعل هذا معك فافهم ، وقُلْ : يا هذا تحضُّ على دخول الماء ثم تأمر الداخل فيه أن لا يَبُلَّ ثوبه وشَخْصَه ؟ إن هذا عجيبٌ : السلب والإيجاب معاً ! يا هذا ! أنا الغريقُ فما خوفى من البلل ! ولكنى نعبد الله ونمتثل أوامره وكل شيء بقضاء وقدر . والعارف من عرف الله على قدر. ياهذا ! الوجود المطلق هو الله والمقيد أنا وأنت ، والمقدر جميع ما يقع فى المستقبل . والمطلق إذا ذكر نفسه ذكر كل شيء ، والمقيد إذا ذكر نفسه ذكر لا شيء عادلا ذاكراً ولا مذكوراً . والمقدر مثل المقيد بآخر أمره فالمقدر لا شيء وأنت وأنا لا شيء . فإذاً أنا تائب عن الغفلة التى حملتنى على قولى ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله بعده . ثم على قولى ما هو أقرب من هذا وهو : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله معه . ثم على قولى وهو قولى : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله . وإنّا الآن نقول هو هو هو ، ثم نقول هو ونصمت ، ثم نشير ، ثم نقطعها ، ثم لا ثَمَّ إلّا الحق المحض ، ثم لا إله إلا الله ، ثم نتوب من استصحاب هذا فى المواطن المذكورة قبلُ أعنى الشريعة حيث يجب التكليف [٢٥٤] فإن الأحوال السّنية إذا كانت متصلة الاستصحاب منهلّة السّحاب

يُخاف على اتصالها أن ينقطع وعلى سَحابها أن يخف . وهذا قولٌ صناعيٌ ، وللعاقل أن يقول فيه للمتكلم به : يا هذا ! إن كنت من القوم الذين سلكوا هذا المسلك فقد يُعتبر قولُك بَعدَ ما يرشح بقوله عز وجل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ » [1] وتقطع حجتك بحفظ الكريم لأوليائه . وإن كنت لم تشاهد فاصمت ولا تتخط رقاب الصِّدّيقين ولا تتحلَّ طعم شيء لم تذق . فإن الأحوال السنيَّة التي قلت إنها يُخاف عليها أن تنقطع أحكامُها سنية ، وهي راجعة وواقفة مع شرطها الذي قامت به وظهرت بشأنه وأثمرت بلواحقه في أوانه .

فصل : السعيدُ هو الذي يجعل التوبة ممتدة مع نفسه ونفسه ويأخذ نفسه بمنادمتها ، فإنها عجيبة محافظة لمقاماتها الشريفة ومقوِّمة لشأنه كله وهي في المبتدئ بنوع ، وفي السالك بآخر ، وفي الواصل كذلك ، وماهيتها تدور وتتداخل وتتنوع وتتلون في الوهم ، وهي ثابتة الحدِّ في العقل ، وفعلها في البداية إخراجُ الشرير من الشر المحض إلى الخير المشترك وفي السالك تنقله من الخير المضاف إلى مضاف آخر أرفع منه ، وفي الفاضل ثبوت الخير المحض والإكثار من فوائده الواردة وحفظها ودفعه من الخير الذي لا إضافة فيه . والتوبة هي التي تميز الخير المحتمل الذي يقال على الكل أعني على الشرِّير والفاضل ، وتفصله من ضده الذي لا يطلق إلا على ماهية واحدة . فإن الخَيْر هو المحبوب عند جميع الناس وله يطلب الكل وعليه يعمل كل صاحب مذهب محمود أو مذموم . ولا بد لكل خير حادث من خير ما يتشوق إليه ، وهو الذي يحرِّكه في أموره كلها . والمستحسن منه هو الخير الذي فيه أو به أو منه الكمالُ والسعادةُ والرفعة ، وهو الذي نبه عليه المرشد وحضَّ عليه العليمُ الخبير سبحانه . وأنواعه ثلاثة : ما يراد لنفسه ولغيره ، وما يراد لنفسه لا لغيره ، وما يراد لغيره لا لنفسه .

فصل : قد يخطر ببال التائب قبولها أو ضده ، وهذا الخاطر يجذب لذاتها له أو يدفعها عنه ،

---

(١) سورة الرحمن آية ٦٠ .

وهو يقوى نشاطه أو يضعفه وكثيراً ما قطع قارعُ هذا الخاطر قلب السالك الواقف . وهذا الخاطر هو الذى يخرب نظام البسط ويقيم مركب القبض ، ولولا ما يستعان بالرجاء عليه لم تستقم معه طيبات الأحوال عند الضعفاء ومحركه فى الباطن الخوف والإنسان به على قارعة الممكن سالك . ومراقب فى ميدان الشك بما يسمع من السلف الصالح ، فإنهم كانوا إذا تابوا رغبوا إلى الله فى قبولها . فلو كانت معلومة القبول والتائب على يقين من قبول توبته ما سأل الله فى قبولها واحد منهم بقصد إلا حول قصده فإن الحاصل لا يبتغى . فإن خطر ببالك أيها المسترشد مثل هذا الخاطر المتباين ادْفَعْهُ عن نفسك بالعلامات الشرعية المحمودة المكرّمة ، وبقوله تعالى : « لهم البُشرى فى الحياة الدنيا »[1] [٢٥٥] وبقوله « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »[2] وبرؤية الحق فى النوم ، ورؤيته فى الحال وبرؤيته فى السكون ، وبحسن الظن بالكريم الذى إذا قرَّبَ عبداً لا يبعده من حيث الأكثر . وإياك والقطع[3] على العزيز فإنه منزه عنه ، وإذا جوزنا للولىّ أنه يحدث ويكاشف ويشاهد أزواج الأنبياء فى الدنيا قبل الآخرة ويتعلم منهم العلوم العظيمة لم يصعب علينا تَعرُّفه قبول توبته وسعادته فى الدنيا قبل الآخرة وكما ضمن النبي ﷺ لأصحابه فى الحياة يضمن لأتباعه وأحبابه وإخوانه كما أخبر فى الحياة الأبدية المحمودة ويحدثهم ويفيدهم الأمور العظيمة السنية . وبالذى يخبر الولى على الغيب قبل وقوع حكم المخبر عنه يخبر عن غيب حاله الذى يخصه حتى لا يعبد الله إلا على الواجب الذى تسكن النفس معه وترتفع به الوحشة عنه . والذى ينكر هذا الأخير فيه ومقدماته عند كل سنى صادقة لا اعتراض فيها . وتفصيلها وجمعها فى نظم قياس ينكره البعض ويقبله البعض ، فإن العارف بما يلزم عن الصنائع العلمية والعملية قليل الوجود فعليك بالحق ولا تلتفت للخلق واجعل صورة البرهان بين عينيك واتبعها . وقد تكلم فى هذا الأشعريةُ والفقهاء ، والصحيح عندهم أن الأمر فى قبول التوبة محتمل ، والإيمان باحتماله عندهم سُنَّة . وإعلام الأولياء بقبول توبتهم ممكن

---

(١) سورة يونس آية ٦٤ .
(٢) سورة الرحمن آية ٦٠ :
(٣) فوقها فى المخطوط : كذا .

عند أكثرهم فى العقل ولا يجوز شرعا . والنجيب الطالب لا يلتفت للفقيه إلا فى معرفة الأحكام خاصة ، ولا يعول على الأشعرى إلا فى قليل الأمور ، وقد ذكرتها فى « بدّ العارف » وفى رسالة « الفتح المشترك » فانظرها حيث ذكرت .

فصل : للإنسان المسلم أن يقف مع ظاهر الآيات فى قبولها ولا يفصل ويقول التوبة التى أخبر عنها الشارع ﷺ إذا ظهرت على التائب تامّة الشروط كما أخبر وثبت حدها صح اشتراطه شرعا وخبر الصادق حق والتائب أمين الله على نفسه وبقدر ما يجده من التصديق فى عزمه وقدمه وامتثاله يصدق عليه قول الشارع . ويتعلق شرط قبولها بشروط صحتها فى سره وإعلانه . ثم يخبر مع ذلك أن الحكيم سبحانه يفعل ما يشاء : فإن شاء عذّبَ وإن شاء رَحِم ثم يُغلب رحمته كما تقدم وهو الأولى .

فصل : لا يحكم العقل على الأمور المغيَّبة ولا يتصرف إلا فى المعانى الكلية المفردة ، وبعدها يركب ويصنع صناعته . فمن حرم الإدراك المذكور قبل ، وفاته المقام الذى يخلص مجمل القبول ومهمله يتأدب ويدرج عن غُشٍ لا يصله ولا يسمع فيه ما هو بسبيله ويقول إذا لم يخبر فى خلده بوارد صحيح يحكم به كما يحكم العقل الهيولانى فلا قطع ولا يقين إلاّ بالعلامات الشرعية خاصة ، وما سواها الكف عنه والأدب معه أجلُ مايتخذ المكلَّف العاجز القاصر . وإنّا نوقن أن الذى لا يدخل تحت مقدور العبد الكلام فيه : إما بدعة ، وإما جنون فيعمل ويتوكل .

فصل : التوبة والقبول والممكن والواجب جميع ذلك [٢٥٦] قد كان قبل الكون وقد أسعف بها التائب وقد وقع وقبلت توبته فى الأزل أو بضد ذلك . والكلام فى المعلوم ضرب من ضروب الجهل . فافعل الخير وفوِّضْ الأمر لله تعالى .

فصل : للسعادة علاماتٌ وللشقاوة علاماتٌ . والمعقول والمحسوس والمقبول والمشهور والقياس وغير ذلك قد فُرِغ منه عند العلماء العقلاء فاحكم بالعلامات فى موطنها ولا تَزِدْ ولا تنقص فيها ، وبالمعقول فى مكانه ، وبالمحسوس على مدركه ، وبالمقبول على مدلوله ، وبالمشهور على مخبره . ولا تخرب

نظام شيء من هذه القواعد الشرعيّة والعادية والعقلية فتكون من أهل البدع ، أو ممن تسقط مكالمته ، أو ممن خالف الإجماع . والله تعالى يعين على معرفته .

فصل : التوبة من الأنبياء موجبة ومعقولة على كثيرين . فمنها ما نعلم نحن متعلقه ، ومنها مالا نعلمه ، ومنها ما نعلم جنسه ونجهل نوعه . ومنها ما نجهل نوعه ونعلم شخصه .

فصل : استغفار النبي ﷺ في اليوم سبعين مرة يفهم منه جملةُ معان ، وتتوجه فيه جملة وجوه . وقد يصرف عن ظاهره ، وقد لا يصرف ، ويحمل على مفهوم ما اشتق منه في الأصل اللغوى ويقاس به وهو المغفر الذى يستتر به في الحرب وقد لا يحمل . وبالجملة الأمر فيه كثير الاحتمال . وها أنا أذكر لك فيه ما يصلح به وتقبض العنان ونحتاط على فهمك وفهم طلبة عصرك وبعض شهود مصرك — فنقول : يمكن في أمره أنه قد أراد ماهية العبادة وحمل أمره على الطاعة الجارية على كل مكلّف وحقق علامات الحق فيه وما يجب فيه من إمكان النقص المقدر في الحادث وما عصم منه وعرف قدره من قدر القديم . ويمكن أنه أراد به الأمور الأكثرية المحمولة على التعظيم ، والإلمامة أكثر فضيلة من السبعين ، وهذا العدد المذكور غير لازم للاستغفار وخارج عن سنته وفرائضه . ويمكن أنه أراد به الاستعانة على الأحوال مع التسوية إما على ما ذكرناه من معقوله في أصل اللغة وإما من كونه يرغب به ويكون القول ظاهره الذكر وباطنه الدعاء ؛ وهذا أحسن ما يتخلق به العبد مع مولاه ويشغله ذكره عن مسئلته كما جاء في الحديث الصحيح . ويمكن أنه أراد به حاله الخاص به وزمان توجهه في مآربه . ويكون هذا متفق المعنى مع قوله « ينزل ربُّنا إلى سماء الدنيا في ثُلُث الليل الآخر » الحديث ، والإشارة به إلى عالم شهادته الذى استعمله في ذلك الوقت عند قيامه لورده بعد ما كان في عوالمه السنيّة الروحانية . وشبه النزول من حيث النسبة لاستعماله الحواس المحيطة الحافظة بعد ما كان في عوالمه السنية الروحانية ، وشبه النزول من حيث النسبة لاستعماله الحواس المحيطة الحافظة بعد ما كان في حضرة الذوات المجردة الرفيعة الرافعة .

و هذا معروف في اللغة ، ومثله يفهم نزول القرآن . والرب هنا ورد على مفهوم اللواحق غير

الذاتية والاعتبارية بتواطؤ مع قول بعض الصوفية الذى قال للرجل الذى سمعه يقول : رأيت الله — فقال له : « لو رأيت أبا يزيد[1] لكان خيراً من أن ترى الله» . ومعقوله لو كيف الله لك من يعلمك أكثر مما أنت عليه وينقلب [٢٥٧] من الرؤية القمرية إلى الرؤية الشمسية إلى النورانية إلى الوجودية إلى المملكة التى ما هو أكبر من ذلك مما يصعب ذكره ويحرم على العارف الكلام به مع غير أهله — لكان حالك أكمل وشأنك أجل وأشار له إلى لواحقه المقدرة وحذف الوسائط وجاء الكلام وحشىّ الظاهر إنسي الباطن . فاعلم هذا كله واحمل الاستغفار على هذا والنزول على ما ذكرته لك . وإياك أن تتوهم بذلك فى الله تعالى كما توهمت الحشوية فتتوسم المحال وتقول الباطل ولا تفهم منه نزول الأمر كما حكمت به الأشعرية فتغلط بأن الموضع الذى نزل الأمر فيه كان معموراً بأمره . ولا يمكن أن يقدر السكون المطلق بغير أمر الله ولا يوجد فى تقديره العدم المطلق والإلقاء المحض ، فإنه يلازمه ويدور عليه ولا ينافيه . وبمثله تفهم نزول القرآن : فإنه لم ينحط من عُلوٍ إلى سُفل ، فإن الانتقال يتخصص بالأجسام والأجرام ، ومن اعتقد قِدَم كلام الله تعالى وقيامه بنفسه لم يفهم من الإنزال الذى يذكر فى كلامه غير الإدراك الذى يوجد فى سِرّ الملَك والنبي . وإذا قال القائل نزل أمر الملَك لم يرد به انتقال أصواته ولا انتقال كلامه القائم بنفسه . ويمكن أنه أراد به ورود الصور المجردة على جوهر روحه الطاهر المقدس ، ولكن عقب توجهه فى ساعته التى لا يسعه فيها إلا ربه تعالى ، فإن الوارد القريب الأول يقع فيطلب بحديث البعض المتفق بالاعتبار المختلف بالحدّ إلى الكل المتفق من كل الجهات فيتحرك لذلك المركب الطبيعى فيحدث من ذلك حركةٌ مشتركة وراحة محواة وعذاب مضاف ويكون فى التقدير من أنواع الموت المجاز كالغشى وغيره يستغفر الله هنا .

وعلى كل حال إن وجهناه على الاعانة على ما ذكر فحسن ، وإن وجهناه على المصر والقول دخل تحت الأدب فأحسن ، وإن وجهناه على التستر كما تقدم والجمع بين ما يجب لله وللعبد والأمة ولما يصلح لها فأحسن وأحسن . واعلم أن الواردات منها ما يكون كالشىء المتصل برباط ، ومنها

---

(١) هو أبو يزيد البسطامي ، راجع كتابنا «شطحات الصوفية» ج١ ، ص٢١ . القاهرة ١٩٤٩ .

ما يكون بالاتصال الأبلغ مثل المرتكز فى الشىء ، ومنه ما يكون أبلغ وأعظم . فالاتصال من الجميع كالشىء الملتحم فى الشىء الذى هو به كالجزء منه ، كتركيب الشجر فى الشجر . فالوارد الأول هو وارد العلم فقط ، وهو الذى ذم به ابن طفيل فى رسالته «حى بن يقظان» — لابن الصايغ[1] . والثانى يقبل إذا ظهر فى الذات والثالث يشرب من عين اليقين حق اليقين فافهم . وهذا وجه لا نرضى به للنبي ﷺ ولا نختاره له ، وإن كان ذكرته فهو فيك ولك لا له ﷺ . ويمكن أنه أراد به الاستغفار لأمته على عدد ضروبهم : فيستغفر للعصاة بمعنى ، وللطائعين بمعنى ، وللمحققين بمعنى آخر عند تفكره فيهم ، فإن الباقيات كثيرة لا سيما فى غير المعصوم ثم أضاف نفسه فى استغفاره أدباً مع ربه وعباده وحالا وعلى أكمل ما يمكن فإنه أُعطِي قانون الاطلاق الذى يقيد الخير بالذات كما أُعطِي جوامع الكلم ولم يتكلم قط إلا بها . [٢٥٨] وقوله هو القول الوجيز الجامع المانع ﷺ . فتصفّحْ وتتبّع وفكّرْ فى مدلوله تَصِلْ . وقد يمكن أنه أراد به الانتقال من رتبة دنيا إلى رتبة قصوى ، وكان يستغفر الله من السكون إلى الحالة الأولى من التحايلات وينتقل إلى الثانية التى ترد بعدها .

ويمكن أنه أراد الانفصال من متعلق معلوم حال مستجلب وارد والاتصال بمعلوم حال آخر مثله وجعل الاستغفار بينهما تشترك فيه ماهية الشكر مع ماهية الخوف مع ماهية الأدب مع ماهية المشاهدة مع ماهية الاستدلال ، فإن نعمة الاتصال تصحب الشكر اللغوى الثابت وجميع ما ذكر والمشهود فيها يجب له كل ذلك والنبي ﷺ أحق الناس بالكمالات الواجبات الحافظة الجامعة المانعة التى تفيد الحقيقة ويُحتَرَم فيها ومعها رَسْمُ الشريعة . ويمكن أنه أراد ﷺ به ما يفهمه أهلُ الوجه الأوّل من التصوف الثلاثى الذى ذكرته فى الصلاة الوسطى من النسبة بين الأبرار والمقرّبين الذى يقال بوجه ما على المتقدم وبوجه آخر على المتأخر ويعتبر فى حق المتأخر أنه يتأخر بالفعل عن الأول ، ويعتبر فى حق المتقدم وبوجه آخر على المتأخر ، ويعتبر فى حق المتقدم ويتقدم بالفضل على المتأخر ويحمل على مدلول مقام الأول بغير آلة تحمل على مدلول مقام الثانى حتّى يسمى سيئة الأول بنظر الاضافة وبنظر الأولى والأخرى حسنة الآخر وسيئة الآخر بالاضافة إلى الأول سيئة الأول ، فإن السيئة مهملة الخير ومخربة نظامه ، والحسنة مهملة الشر ومخربة نظامه ، والسيئة هى الشر لا يتعين

(١) بمثابة مفعول به للفعل : ذم .

وإن كان لفظها ورد بحسنة ، والحسنة هى الخير بالمعنى وإن كان لفظها ورد بسيئة . فكانت فى الأول سيئة لأنها أهملت من خير وخربت نظامه واتفقت مع السيئة التى تقال بإطلاق فى معنى الإهمال ، وخالفتها فى ماهية عاقبتها وانفصلت منها بمتعلق الخطاب فإنه يرد على الأول بالزجر والنهى والعقاب على فعلها ، وهو فى الثانية التى يقال لها بتقييد غير متعلق بشىء من ذلك ، بل هى للندب أقرب . وكانت فى الآخر حسنة لأنها خصصت ونبئت وجمعت نظام أسباب الخير الخاص بها وبقيت على أصلها المحمود وحدها له وجهان وماهيتها مركبة منها . والوجه الأول الذى تنظر به إلى فوقها يعلل إطلاق حد الحسنة الاضافية ويترك إطلاق الأول المأمور به فى الشرع والمعروف فى اللغة والوجه الخاص بها الذى ينظر به إلى ماهيتها يخلص له إطلاقُ حَدّ الحَسنة التى تقال فى أول الأمر وتحمل عليه . فهى بهذا النظر حسنةٌ بجهةٍ وسيئةٌ بجهة أخرى ، غير أنها سيئة لا يعاقب عليها وحسنة تنفع ، وكذلك حسنة الأول التى تعتبر بالإضافة إلى حاله وانعكست بالمضمار والإضافة سيئة لا يعاقب عليها وحسنة ثابتة . وإنما قيل حسنة وسيئة بشرط وجود الهمة وثبوت الجد وفرغ العزم واتخاذ الحزم وحصول [٢٥٩] الاستعداد وظهور الشرف فافهم . والأمر فيها وارد من الهمة السنية والسيرة الجميلة . والمكلّف الذى يؤمر به ويفرض عليه مثل هذا الفرض هو صاحب الهمة المذكورة والسيرة المذكورة ، والأبرار سعداء والمقرّبون سُعداء ، والتفاضل الذى بينهما هو الذى يوجب هذا الحكم ويعطى هذا الاصطلاح ويرتب هذا الترتيب . فكل مقرّب برٌّ ، ولا كل برٍّ مقرّب . وكل حسنة منسوبة معتبرة سيئة بجهة وحسنة بأخرى ، وكل حسنة غير منسوبة وغير معتبرة بغير الذى هى عليه حسنة مطلقة لا خلاف فيها . والقول على السيئة فى مثل هذا مِثْلُ القول على الحَسنة . فافهم وخَلِّص الحسنة المعروفة الفقهية المشار إليها فى التكاليف العام من السيئة الموجهة والحسنة الموجهة لئلا يختلط عليك نظام الخير والشر والأمر والنهى . واعتقد أن الحسنات الفقهيات متفقات بالنوع مختلفة بالعدد وهى تعظم عليهم وتصغر بالنظر إلى عددها وفضل متعلقاتها مثل أجر العالم ، والعالم غير العامل .

والحَسنات والسيئات عند الصوفية متفقة فى الجنس مختلفة بالنوع فالتزم الاصطلاح واتخذ مفهومه ، وخاطب به بحسب أهله أمثلته ، ولا تخلط فى شأنه وفرّق بين ماهو كثير بالقول

وواحد بالموضوع ، وبالعكس . وحَصِّل مفهوم الألفاظ وأصنافها ، وخلِّص نفسك من مبهم الألفاظ الدائر بين الطلبة ، وكذلك المطالب لا تغفل فيها . وقد خرج الكلام إلى غير الذى أردناه فنرجع فنقول :

لعله صلى الله عليه وسلم حمل استغفاره فى صعوده على المراتب السنية المختلفة بالإضافة إلى طالبها المتماثلة بالنظر إلى فضلها ، فإنها محمودةٌ شرعاً وعقلاً وعادةً على الوجه الذى حمل إبراهيم توجهه فى المراتب الثلاثة التى فرضها على نظمه وانتقاله على الوجه الصناعى وجعلها هو ﷺ فى باطنه كما جعلها الخليل فى ظاهره وكان إذا همّ أن يقطع على حكم مرتبة ماورد الثانى عليه وحكم فيه قبل أن يحكم عليه ، فإمّا كان استغفاره عن الأول لما أخبر عنه وإمّا لما شَعَر به وأعطاه من محله الظاهر أن يدخل فيه وإما من تهيئه له ؛ وإما من عظيم فيضه عليه ، وإما من نقلته وحضوره وبقاء محركه وتحركه وحركته ، وإما كان ذلك كله فى حق المرتبة الواحدة والوارد الواحد الذى أوله إعلامٌ له ووسطه تفكُّرٌ فيه وآخره خروج عنه وجملة الأمر الخبر لا نهاية له ، وحركته لا تسكن ، وفلك تدويره يتحرك بكوكب تنبيهه فى القلوب بحركة فلك التخصيص . وكثير الخير عند الفاضل الحاضر مع الله المجتهد قليل ، وقليل الخير عند الشرير الغافل المهمل كثير . والقناعة من الغنى الأزلى حرمان . ويمكن أنه أراد ﷺ بتوبته واستغفاره وبالغان المذكور التبدل والفيض السيال الذى يحفظ هجومه المكلف ، ويقيمه بعد حين ، ويصرف عليه إدراكه حتى يقع الكسب الباطن مثل الظاهر ويقوم بالمحل إدراكا والخير غير معدوم ، وأطلق الاستغفار والتوبة بمعنى الغيبة وأنها عن نفسه [٢٦٠] وجعلها من الأسماء المترادفة . ويمكن أنه أراد ﷺ صعوده على منبر أصناف التجلّيات المقدسة . ويمكن أنه أراد ﷺ ما لا يعلم الغير وإن علمه إنما يعلم به معقول التعظيم والبركة خاصة . ويمكن أنه أراد ﷺ بذلك الإعلام بقَدر الأمور الشرعية وعظمتها والإخبار عن حاله فى زمن المواهب الإلهية وجمع فى ذلك بين المقدمة الشرعية المتقدمة وبين النتيجة المتأخرة المعروفة فى عرف الصوفية الحقيقية وأظهر شرفها [1] لكسب مع ملازمته وعرة الأمور التى لا من جنس

---

(١) فوقها فى المخطوط : « كذا » .

ما يكتسب مع ملازمته . فقال : « إنى ليغان[1] على قلبي حتى أستغفر الله فى اليوم » — الحديث ، وهو يشير إلى تركيبه وطلوعه بالمعارف وإلى غلبة الأحوال المنوطة بها التى تخرج السالك الصاعد عن حده الأول المركب وتجعله فى الحد الآخر البسيط حتى يلتف له ميزانه الذى صعد به ، ثم يعود إليه فيحده ويقيمه مثل أوله . فشبه التفاف الأمر عليه بالغان ، والغان فى اللغة هو النبات الملتف الطويل ، والاستغفار والتوبة إخباره بموازينه وإحضار مكافه فى شأنه ورجوعه إليه . والعدد الذى حصره فى سبعين إمّا للتعظيم ، وإما أنها مراتب محصورة ، وإما مقامه اقتضى هذا ، وإما كان فى وقت ما وانتقل عنه إلى أكبر إن جعلنا عدد الاستغفار أشرف وإن جعلنا أن الأقل من الغيبة والفنا أفضل حتى يثبت فى أموره وتَرِدُ عليه كما ترد المعروفة عنده ويكون شخصه الطبيعى يتحرك مع الغير ومحموله الروحانى يركب أحواله — قلنا فيها : نَقَصَتْ حتى بقيت فى ماهية ذاتها . فإن كان هذا للبَشَر ضرورة فى مثل هذا الموطن حملناه عليه . وإن كان فى العالم الأول وهو صوفى خاصة أطلقناه عليه بتقييد فاعلم ذلك .

ويمكن أنه أراد ﷺ السلب والايجاب ودورانهما فى الخَلَد على نقطة الاقتصاد والافراط والتقصير فانظر وإياك أن تحمل ذنوب الأنبياء على عرفك واعتقد أنها على حكمها فى مثلهم وبقياس ما تقدم واجعلها نعمة ، فإنها وردت لأمور نافعة ولأحكام وقعت بعدها ينتفع بها الانسان الذى يستعين به المذنب . واحذر أن تقرأ قوله تعالى : « عَفَا اللهُ عنك لم أذنت لهم »[2] الآية فتتوهم أنها جاءت على محظور يتدخل فى سخط الله وأنت لا تعلم . واعلم أن الكلام فى هذه الآية يُحتاج إليه فإنها من أمّهات العقائد والمشكلات ، إلاّ على آحاد من الناس . وقد صحّ أن رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء ما يرتكبون محظوراً ولا يقع منهم وأن ما نسب إليهم من ذلك باطل وما ورد فى القرآن صحيح لا محظور فى شىء منه ، وإنما هى تأويلات واجتهادات وقع فيها تقصير ينجبر فيها العفو لما تقدم فيه من الصفح وحفظ المرتبة والخلافة التى وضعها لهم ونصبها من أجلهم ونصبهم لها .

---

(١) غين وأغين على قلبه : شعر بضيق شديد . غان يغين غيناً .

(٢) سورة « التوبة » آية ٤٣ .

وللعلماء فى ذلك منازع مخلّصة وملخّصة وللسائل أن يقول : مفهوم هذه الآية المذكور فعله بغير أمر أعنى الإذن [٢٦١] الذى نبه عليهم كما فعل بالأسرى فى يوم بدر فعاتبه الله على ذلك . ويمكن فيه أنه أخبره أن يمسك القضاء فى الأمور المحتملة حتى يخصها ، بخلاف ما نحن عليه . وهذا تعظيم له وإخبار بعزيته وشرف مرتبته وكأنه قال له : الأمور التى تحتمل أمرين فصاعداً ويجتهد الغير فيها ويعذر فى اجتهاده كُفَّ أنت القضاء فيه بالاجتهاد المذكور فإنك تعلم بالوجه الصحيح الذى لا احتمال فيه ، واطلب أمورك كلها بكلّيات الوحى وبه احكم وعليه عوِّل فاطلب — فكان ذلك خيراً عظيما وتقريراً على مكانته صلى الله عليه وسلم . ويمكن فى هذه الآية أن الله عز وجَلّ قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « عفا الله عنك لم أذنت لهم » حتى تعلم الصادق والذى يمشى نحو الصواب والكاذب الذى لا خير فيه . ويمكن أنه أمره بإخراج الجميع فأخرج البَعْضَ . ويمكن أنه أراد تعلم العفو قبل العتاب إظهاراً لكراماته ومراعاة لِطيب نفسه . والمختار صلى الله عليه وسلم لم يركب قط محظوراً وإنما — والله أعلم — تركَ الله فعاتبه الله وقدم لكرامته العفو على الخطاب الذى جاء فى صورة العتاب . ومَنْ جوَّز الخطأ على الأنبياء قال : قابله بالعفو قبل أن أوقفه على ذنبه للفوز بمحبته ، فإن حَسَنات الأعداء مردودةٌ ، وسيئات الأحباب مغفورة . وقد يمكن أنه أراد بذلك عزَّ وجل التقرير على جهة التعليم ، واستفتح الخطاب بالعفو جمله أول الكلام كما تقول : « السلام عليك ورحمة الله » أو « رضى الله عنك » فى بعض المخاطبات أوّلَ كلامك .

وقد اختلف المفسرون ليغفر(١) لك الله ما تقدم من ذَنبك وما تأخَّر ، فقال الأكثرون ما تقدم قبل الرسالة وما تأخر بعدها ، وقال آخرون ما تقدم من ذنب أبيك آدم وما تأخر من ذنب أُمّتك لأن بك تبت على آدم وأنت الشفيع لأمتك فيمتن بذلك عليه .

وقال آخرون : ما تقدم من ذنبك ، أى من ذنب أبيك إبراهيم وما تأخر من ذنوب النبيّين من أجلك تبت عليهم .

وقال آخرون : ما تقدم من ذنبك يوْم بدر ، وما تأخر من ذنبك يوم هوازن ، وذلك أنه قال يوم بدر : « اللّهُمَّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض أبداً » . فكان هذا الذنب المتقدم ،

(١) فوقها فى الأصل : « كذا » .

وأما المتأخر فقال يوم هوازن وقد انهزم أصحابه لعمّه العباس ولابن عمه أبي سفيان بن الحارث : « ناولاني كفًّا من حصى الوادي » . فناولاه . فاستقبل به وجوه المشركين وقال : « شاهت الوجوه حم لا يُنصرون » وكانوا أربعين ألفاً . فما بقي منهم رجل إلا امتلأت عيناه رملاً وحصى فانهزم القوم عن آخرهم . فلما رجع أصحابه إليه قال لهم : لو لم أرمهم لم ينهزموا . فنزلت هذه الآية : « مارميت إذ رميت ولكن الله رمى »(١) . فإن قال قائل : كيف أثبت الرمي ، ثم نفاه عنه ؟ فالجواب عن ذلك أن الرمي يحتوي على أربعة أشياء : على القبض والإرسال والتبليغ والإصابة . فكان القبض والإرسال من رسول الله ﷺ والتبليغ والإصابة من الله عزّ وجلّ . فاحذر أيها المرحوم أن تهمل قدرَ النبوءة وتتهم أحوالهم وتقدر فيهم غير الذي يجب لهم فتهلك في الدنيا والآخرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [٢٦٢] واحذر أن تعتقد في العصاة من أُمّته أنه إذا مات يعاقب على كل حال ، وافهم الكلام الأول فيه وفوّض أمره إلى الله . فان عاقبه بذلك فبعدله ، وإن تجاوز عنه فذلك من فضله ورحمته .

وإن قلت في سرّك إن العفو غيرُ جائز وواجب على الله أن يعذب كل مصرّ بطول الأبد فتفسق وتلحق بالمعتزلة . واحذر كل الحذر أن تنكر تشفيع الشفعاء وحطّ أوزار المجرمين شفاعتهم فتكون من المعتزلة ومن الوعيدية . ولا تنكر الصفح والعفو أبداً من الله تعالى . والشفاعة جائزة بالعقل وصحيحة في الشرع ، والإجماع من أهل السنة على صدقها ، والنصوص تشهد أنها في أهل الكبائر والصغائر ، ويدخل تحتها كلُّ مذنب من الملّة حتى القائل بتكذيبها . قال ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . وقال في الشفاعة : « لا تحسبوها للمتقين إنما هي للخاطئين المتلوثين » ولم يذكر أهل الصغائر لكونها معفواً عنها . وقال صلى الله عليه وسلم : خُيِّرتُ في الشفاعة وبين أن يدخل شطر أُمّتي الجنة ، فاخترت الشفاعة فإنها أشفى .

واحذرْ أن تعتقد أن التائب من ذنب ما وهو يفعل غيره أنه غير تائب من الذنوب المذكورة حتى يقلع عن الجميع فتكون من المعتزلة وأنت لا تعلم . وإياك أن تتوهم أن ذلك أكملُ ويحملك على

---

(١) سورة « الأنفال » آية ١٧ .

ذلك نوعك السخيف ، وتتخيل أن ذلك من الاحتياط فتهلك . ومذهب أكثر المعتزلة أن الكبيرة الواحدة تحطّ ثواب جميع الطاعات وإن كثرت . ومنهم من قال الكبائر لا تهمل ثواب الحسنات إلا إذا زادت كميتها عليها ؛ والحسنات كذلك بعكس هذا إذا زادت دارت السيئات وأظنه مذهب الجُبّائى[1] وابنه . واحذر أن يختلط عليك نظام الكبائر مع الصغائر ويصعب عليك الفصل بينهما وتقول : كل ما يعصى الله به كبيرة ، وتطلق ذلك من غير أن تعتبره فتشقى وإنما المرضىُّ عند أهل السنة فى ذلك أن يبين بين المذنب الكبير والصغير ثم يطلق — من حيث مخالفته الأمر ومحاربة الله — أن الجملة كبائر بالنظر إلى الأدب ومتعلق كل ذنب مفهوم عند التحصيل ، ومن الحدود الشرعية والعقاب تظهر فصولها . ومن الناس من عَدّدها وفَصّلها أعنى الكبائر من الصغائر ، ومنهم من أضرب عن ذلك وجعلها مماثلة أدبا مع الله تعالى . واحذر أن تعتقد فى المذنب الذى يذنب الذنب الواحد ولم يَرْشُدْ للتوبة أن عمله لا خير فيه ، وإن مات فهو فى النار ويستوجب الخلود فتكون من الخوارج . وإن سميت المؤمن باقتراب الزلات كافراً فأنت منهم . وقد قال بعض الخوارج ما هو الكفر المعروف بإنكار الربوبية وجحودها ، وإنما هو المأخوذ من كفران النعم . والأزارقة منهم تقول : العاصى كافر بالله كفر شرك ، وأكثر المعتزلة قسمت الذنوب إلى كبائر وصغائر . واحذر أن تعتقد فى الثواب والعقاب غير الذى يعتقده أهل الحق [٢٦٣] ، [٢٦٤[2]] [٢٦٥] صحيحاً ، على غاية الصحة وقوة الإدراك وطريقتها أيضاً ، وإن كانا صحيحين

(١) الجبائى : أبو على محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان ، ولد سنة ٢٣٥ هـ (وفى أنساب السمعانى : ٢٤٠ هـ) فى بلدة جبا (كورة من أعمال خوزستان) ، وتوفى فى شعبان سنة ٣٠٣ هـ . راجع عنه : ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٧٧ — ص ٢٧٨ ، « الأنساب » للسمعانى ص ١٢١ ، « معجم البلدان » ياقوت جـ ٢ ص ١٢ ، « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى جـ ٣ ص ١٨٩ ، « المنية والأمل » لابن المرتضى ص ٣٥ — ص ٣٨ . من كبار المعتزلة ، وكان أستاذا لأبى الحسن الأشعرى ثم انفصل هذا عنه .

وابنه أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان . ولد فى سنة ٢٧٧ هـ وتوفى فى رجب سنة ٣٠١ . وتتلمذ على أبيه . وهو القائل بالأحوال من بين المعتزلة . راجع عنه : « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى جـ ١١ ص ٥٥ ، الفهرست لابن النديم ص ٢٤٧ (طبع مصر) .

(٢) الأزارقة فرقة من الخوارج منسوبة إلى مؤسسها نافع بن الأزرق وقد خرج من البصرة إلى الأهواز فى أيام عبد الله بن الزبير . راجع ترجمتنا لكتاب فلهوزن : « أحزاب المعارضة السياسية فى صدر الاسلام : الشيعة والخوارج » .

(٣) هاتان الصفحتان بيضاوان فى الأصل .

على غاية الصحة قد يؤديان إلى الخطأ إذا لم تزل عنهما العوارض التي لها فإن هذا القياس القائل أن كل قابل بذاته أنه حجر فهو قابل أنه جوهر ، وكل قابل أنه جوهر فهو صادق ؛ فينتج من ذلك أن كل قابل له أنه حجر فهو صادق ؛ فقد أدى ذلك إلى كذب ظاهر . على أن نَظْمَ القياس صحيحٌ ، ومقدمتاه صادقتان ، لأنّ التأمّــل من جميع الجهات في مدة القياس وهي المقدمات وإحضار الذهن في معانيها ولزومها مفردة ومركبة .

والحس والتخيل يكفي فيهما أمران وهما ينتجهما حصول المحسوس أوّل التخيل بحيث يمكن إحساسه وتخيله فيهما على ما هو به وعليه . وفي هذه المقدمة المذكورة الوقوف على اليقين في أنواع العلم بالمنعم الأول لأنه أكثر فيضاً من المنعم الغريب وأنه هو بوجه ما ، والعلم بأن كل آنية متقدمة على هوية ما بعدها وهي في المبادي الأول ؛ فهي إما أعلى من الدهر وقَبْله ومعه ، وإما بعده وفوق الزمان . والعلم بأن كل نفس شريفة أجزاء ماهيتها ثلاثة : أوّلها يُعْرَف بالنفساني ، وثانيها العقلي ، وثالثها إلهي وهذا في فعلها المختلط المضاف المحمول فيها بوجه ما ، والعلم بأن الأشياء المخترعة المُبْدَعة بالـكون المنسوب اللازم بالبدّ الذاهب بالماهية المنفعلة أولها الآنية التي ليس وراءها مبدع آخر لأنها فوق الحس وفوق النفس وفوق العقل . ولا يمكن أن يوجد بعد الأول الحق أوسع متعلقات ولا أكثر معلومات منها ، والعلم بأن ذات الرحمن الرحيم الكريم العظيم الله الذي لا إله إلا هو أعلى من الصفة وأعزُّ والألسُن عاجزةٌ عن صفته المقدّسة فإنها أعظم من أن < (1) > أكثر من الذي يجب لها وتتنزه عن أن يَعْلَم قَدْرَ كُنْهِها أحدٌ ، وتجلُّ أن تحدَّ بحد الذي هي عليه . فإذاً المتقصد في الثناء عليها والمطفّف والمقصّر والجميع على خطر [2] لأنها فوق كل آنية وفوق كل علّة ، وإنما وصفت بالذات التي تنير بذاتها وتنير معلولها ، وهي لا تستنير به ولا بنور آخر لأنها هي النور المحض الذي ليس فوقه نورٌ . ولهذا قيل في ذات الأول الحق إنها الذات التي تفوق كل ذات ، وهي التي يفوتها إطلاقُ الصفة على ما يعلم الأشعري وغيره من الضعفاء . وإنما كان ذلك لأنه ليس فوقها ذات تعرف بها ، وكل شيء إنما يعرف بوصف من تلقاء علته ؛ فإذا كان الشيء علة فقط وليس بمعلول لم يُعْلَمْ بعلة أولى ولا يوصف كما يصفه المتكلمون لأنه أعلى من صفة تبلغه المنطق ، وأن تلك الصفة إنما تكون بالمنطق ، والمنطق بالعقل ، والعقل بالفكر ، والفكر بالوهم ، والوهم بالحسّ . والأول الحقُّ فوق الأشياء كلها ، والعلم بأن العقل

(1) بياض بالأصل .
(2) كذا ! فهل صوابها : خطأ ؟

جوهرٌ لا يتجزأ ، والعلم بأن كل عقل يعلم ما فوقه وما تحته — إلاّ أنه يعلم ما تحته لأنه علة له ، ويعلم ما فوقه لأنه يستفيد منه الوجود والفضائل — والعلم بأن كلّ عقل لا يثبت ولا يمكن فيه الخير إلا بالله ، والعلم بأن قوة [٢٦٦] العقل وجوهره وماهية كماله أشدُّ وحدانيةً من الذى بعده ، والعلم بأن كل عقل لا شيء فيه خارج عن النظام القديم وأنه مملوء صُوَراً ، وأن من العقول ما يتصل بمكان شرفه أن يحيط بالبعض الذى هو أقلُّ كليةً ، ومنها ما يحيط بأكثر كلية ، والعلم بأن العقل فيه صورةُ كل شيء وأنَّ ما يليه تصوُّرهُ له على التفصيل ، وما يبعد عنه بعلمه بالتضمن وهو يعقل الأشياء دائمة لا انقطاع لها ولا يتبدّل عن متعلقها الخاص به ، وأنه من حيث العقل لا تدخل تحت الزمان والمكان ، والعلم بأن الأشياء المتقدمة المضافة بالحال الأول وبالعرض اللازم بعضها فى بعض بالقصد والعرض وبالنوع الذى يجمل أن يكون به أحدهما فى الآخر . ومفهوم هذا اعتبارك الآنية التى تجد فيها الحياة والعقل ، وفى الحياة الآنية والعقل ، وفى العقل الآنية والحياة ، إلاّ أن الآنية والحياة فى العقل عقلان ، والآنية والعقل فى الحياة حياتان ، والعقل والحياة فى الآنية آنيتان ؛ والعلم بأن كل عقل يعقل ذاته ، وذلك أنه عاقل ومعقول معاً ، وكل نفس فإن الأشياء الحسّية فيها لأنها مَثَلٌ لها والأشياء العقلية فيها لأنها علمٌ لها ، وإنما صارت كذلك لأنها متوسطة بين الأشياء العقلية التى لا تتحرك وبين الأشياء الحسية التى تتحرك ؛ والعلم بأن كل عالم يعلم ذاته فهو راجع على ذاته رجوعاً عاماً تاماً ، والعلم بأن كل القوة التى لا نهاية لها متعلقة بما لا نهاية له إلا الأولى التى هى قوة القوى لأنها مفيدة ثابتة قائمة فى الأشياء القوية بل هى قوة للأشياء المقوّمة ذات الذوات منسوبة إلى ذات الذوات ، والعلم بأن كل قوة متوحدة وتر الذات الجوهرية هى أكثر بلا نهاية من غير شك فى ذلك من القوة المتكثرة وذلك لقُرْبها من الواحد الحق ، والعلم بأن الأشياء كلّها راجعةٌ إلى هُويات وهى منها وإليها هى راجعة الهوية القديمة ، والعلم بأن الأشياء الحية المخترعة متحركةٌ بذاتها من أجل قربها من الحىّ الذى لا أوّلَ لحياته من غيره ، والعلم بأن الأشياء العقلية كلها ذوات علم من أجل العقل الأول المُبْدع الذى ظهر عليه التخصيصُ الأول ، والعلم بأن من الجواهر الروحانية ما هو سعيد معظّم لأنه يقبل من الفضائل الأُوَل التى تنبجس من الذات القديمة قبولاً كثيراً ، ومنها ما هو روحانى فقط لأنه لا ينال من الكمالات الأُوَل إلاّ بتوسُّط الذوات الأُوَل ، ومن النفوس

ماهى نفس عقلية لأنها متعلقة بالعقل ، ومنها ما هى نفس فقط ، ومن الأجرام الطبيعية مالها نفس تحركها وتقوم عليها ومنها ما هى أجرام طبيعية فقط ولا نفس لها ، والعلم بأن الله يُدَبِّر الأشياء المخترعة المُبْدَعة كلّها من غير أن يختلط بها ، وذلك أن التدبير لا يضعف وحدانية الغريزة القابلة على كل شىء ولا يوهنها ، ولا تمنعه ماهية المباينة للاشياء من أن يُدَبِّر الأشياء ، والعلم بأن الأول [٢٦٧] الحقّ لا يحتاج إلى غيره وأنه قائم بنفسه وهو العظيم الأعلى وتحقق ذلك بالوحدانية التى هى نفس ماهيته ، لا أنها محمولة عليه مبثوثة فيه ، ولا كما هى فى الجواهر الروحانية المذكورة بل هى وحدانية مَحْضَة لأنها مبسوطة[1] فى غاية البساطة والتنزيه ، والعلم بأن الذات الأزلية فوق ما يتوهم الحكيم بصنائعه وفوق كل اسم تسمى به ، لأنها لا يليق بها تعليل الصنائع ولا يفرض التمام والنقصان عليها ، لأن الناقص غير تام ولا يستطيع على تكميل شىء ولا أن يفعل فعلاً تاما ، والتامُ وإن كان مكتفِى الوجود بنفسه فإنه غير قدير على إيجاد الأشياء المذكورة قبل ، والعلم بأن الروح الكلىّ الذى يُطلَق بأسماء مختلفة ويتنوع منه الاسم عند الحكماء وأهل الحق من الشرائع ويعرف موجده ويدبّر بعض الأشياء وبالذى يدبره هو إلٰهى وهو لله خاصة وبالذى يعلمها هو عقل ، فان خاصة العقل العلم بل ماهيته العلم وكماله وتمامه أن يكون مُدبراً عالماً ، والعلم بأن واجب الوجود موجود مع الأشياء ، ومقوّم لوجودها على حالةٍ واحدةٍ ، وليست الأشياء المنفعلة المخترعة موجودةً فيه على حالة واحدة ، كل شىء من الجواهر الروحانية يأخذ منها بقدر قوته وبالذى جُعل فيه من القبول ، ومنها مايقبله قبولا واحداً ، ومنها بضدّ ذلك ، ومنها مايقبله قبولا دَهْرياً ، ومنها ما يقبله قبولا زمانياً ، ومنها ما يقبله قبولا روحانياً ، ومنها ما يقبله قبولا جِرمانياً ؛ والعلم بأن الأول الحق فى غاية من التنزيه ، وأن وحدته تامة ، وأنه منزّه عن الذى قاله الرواقيون فإنهم يعتقدون أنه ناشِبٌ فى الأشياء وأنه لَبِس كرة العالم وهو بالبرهان ألزم وأوكد فى الأشياء مما قالوه فلا أدركوا حقيقة التنزيه ولا قَدَروا الله حقّ قدره ؛ والعلم بأن الجواهر العقلية غير متكونة من متقدم عليها يكون مثلها ، وكل جوهر قائم بذاته فهو غير متكون من شىء آخر ، وإنما أوله وسببه

---

(١) مبسوطة = بسيطة .

وأصله وبدؤه كلمة الحق التى تتعلق بالمعدوم وتوجده وتتعلق بالموجود وتعدمه ، وتتعلق بالحادث وتتركه على حاله ، وبالجملة هى القائمة على كل شىء ، ومبدعة كل شىء ، ومبقية كل شىء ، والعلم بأن كل جوهر قائم بنفسه قد خصصه الحق وأبرزه لمطالعة جلاله وأظهر عليه كل شرف محمود فإنه غير واقع تحت الفساد ، والعلم بأن كل جوهر متغير دائر غير ثابت على حالة واحدة فهو إما تحت الأشياء المتركبة وإما محمول على موضوع آخر غير ذاته ، وذلك أن الجوهر إما أن يكون منتقضاً إلى الأشياء التى منها تكون فيكون مركباً منها ، وإما أن يكون محتاجاً فى ثباته وقوامه إلى حامل ، فإذا فارق حامله فسد ودثر ، فإن لم يكن الجوهر مركباً ولا محمولاً كان مبسوطاً وكان دائماً لا يدثر ولا ينتقض البتة ، والعلم بأن كل جوهر قائم بنفسه مبسوط لا يتجزأ ، والعلم بأن كل جوهر قائم بنفسه أعنى ذاته فإنه مبتدع دون زمان ، وهو فى جوهريته أعلى من الجواهر [٢٦٨] الزمانية ، والعلم بأن كل جوهر اخترع فى زمان إما أن يكون دائماً فى الزمان ، والزمان غير فاضل عنه ، لأنه ابتدع والزمان سواء ، وإما أن يكون منفصلا عن الزمان والزمان يفضل عليه لأنه فى بعض أوقات الزمان . والعلم بأن الذى جوهره وفعله فى حيز الدهر بينه وبين الذى جوهره وفعله فى حيز الزمان موجود متوسط ، وهو الذى جوهره فى حيز الدهر وفعله فى حيز الزمان ، والعلم بأن كل جوهر واقع فى بعض حالاته تحت الدهر وواقع فى بعض حالاته تحت الزمان ، فذلك الجوهر هو هوية وكون معاً .

فهذه هى المقدمة التى جعلتها لك شبه المدخل إلى كلامى أعزك الله قد فرغ منها وقد تمت أجزاؤها وبينت مقاصدها بحسب التحقيق وذلك من ذكر رسائلى وتقييداتى وبحسب الصم السعداء(١) والصم الذين توسطوا بين السعداء والأشقياء عند ذكر التحرز والحض على الحكمة وعند وصف أنواع الخير المطلوب الذى قبل هذا التقييد . فافهم واعلم أن الصم السعداء هم الذين حصلوا علوم الشريعة الظاهرة والباطنة ، وتخلقوا بها واستجابوا لله ورسوله بغير هوية الانسان .

---

(١) تعبير غريب رائع !

وأنواعهم تسعة على عدة رتب الجبل فإنهم فهموا أمثلته ، ولم يكشفوها ، وهم الذين يخاطبهم التعليم ويتكلم معهم بالشكّ المضاف إلى إرشاد التنبيه .

والصمّ الذين توسّطوا بين السعداء من الصمّ والأشقياء : منهم الفلاسفة ، وأنواعهم أربعة : النوع الأول هو الذى تحته كلُّ مَنْ يُحْمَدُ قبل الشريعة وبعدها ، والثانى هو الذى تحته من يُذمُّ قبلها ويحمد بعدها ، والثالث هو الذى تحته من يُحْمَد قبلها ويُذَمُّ بعدها ، والرابع هو الذى تحته ضد الأول . وقد فسرت مقصود هذا الإطلاق وَبَيَّنْتُهُ وتكلمت على كل نوع بما فيه فى كتاب أبى صالح تقىّ الدين بن صالح المالِقى — وفقه اللهُ للخير — فانظره حيثُ ذُكِر ، واجعله فى ظهر هذه « الرسالة الرضوانية » ، وارسم عليه حاشية ، وكذلك من يرسمها بعدك . والتعليم لا يتكلم إلا معهم خاصة ، والغير لا يلتفت إليهم ، ومكالمتهم ساقطة عنده ، فإذا خلصهم ونوبهم إليه تكلم مع من فوقه ، ثم انطبع وفوّض الأمرَ إلى الذى فوقه ، وكذلك الأمر فى الرتب التسع فإنها غير مستقلة بذواتها والسفر مستقلة ، وكل سَفْرة تزعم أنها مكتفية ومن وسائلها تجذب ، ولولا هى لثبتت على حالها فإذا فهمت ما فوقها رجعت بالقهقرى على ذاتها بها لمستقرأ على ذاتها وجردت النظر فى صناعتها وينفتح لها ما لم تعلم قبل ، وكذلك تفعل سَبْع مرات ثم تدخل ولا ترجع إلى شأنها الأوّل ولا تستطيع . فإذا وصلت إلى سِدْرتها اتَّحَدَتْ وركَّبَتْ الصنائع المذكورة وكملت بشىء آخر وفعلت بمقتضاه ، وجددت الفعل بالإذن المستمر عليها حتى تصل إلى سدرة سدرتها الأولى ، وتشاهد وتُمكّن من مطالبها كلها ، وتقرر على المتقدم والمتأخر ، ويمتد تقريرها حتى إلى سدرة سِدْرَةِ سدرتها ، وتُمات وتُحْيىٰ حياة طيبة وتقام إلى الفتح والنصر [٢٦٩] والرضوان ، وتشاهد به ما لم تشاهد بالوحدة المرحلة . وإن كانت قد شاهدت الحق وكلمته فهى الآن بحيث لا يمكن أن تعمه عن نفسها وكمالها وعلوّ درجاتها . فإذا بلغت القسمين سفرة أقيم لها سفرة لكل سفرة تعلل صنائعها وتحرر وسائلها وتصلح شأنها وتسمى إنسانها . فاذا تخلصت حمل عليها مطالعة المنوطات . وعند ذلك يقع الحق على كله ، وتتخلص الخلاص المحمود الذى لا شَيْنَ به ويمكّن من أصناف المطالعات ، ويظفر بنعيم الملك ، ويصرف المائة رحمة إذاً بترجيح ، ويستقيم على طريقة الرضوان المرتقب .

وما فوق المنوطات لا يتكلم عليه إلا بالإذن ، والسفرة المذكورة هى نفسك ، فإنها هى التى تتحرك هذه الحركات بصنائع التخصيص النازلة من السماء النزول اللائق بها ، وهى المدبِّرةُ لها وبها ، وحيثما يصل علمها ذاتها . فإطلاق لفظ السفر والنفس يكون عندى بمعنى واحد وكأنها مترادفة معها ، وكل سفرة لها وسيلة ، وهى داخلة تحت سِدْرتها ، والسدرة الأولى تسمى سِدْرة مشكاة المصباح المقدس ، والثانية تسمى سدرة نور الغيث ، والثالثة تسمى سِدْرَة نور نونى إننى أنا الله ، وكل سدرة تحتها سدر سفرة والسبع مرات تحت السِّدْرة الأولى تتوجه فيها وتتخذ معها وتجمع وسائلها ، ويكون من مجموعها ذاتُها وجميع ما تحت الثانية كذلك ، إلا أنها غير متحدة بالذات ، والثالثة كذلك إلاّ أنها لا تتحرك فى الأولى والثانية ، ولا يخبر عنها . والثلاث سفر بعد التسعين سفرة كل واحدة منها أعنى من الثلاث وسيلة كلّ سدرة وسفرتها حتى تجتمع من الثلاث سفر ومن التسعين سفرة وسيلة مخاطبة المنوطات ؛ فافهم وقدِّر تطورها . واعلم أن المختار العربى السيِّد فوق هذا كله ، ودرجته أعلى من درجات الأنبياء ، فإنه فوق المنوطات وعالم الصديق ، وهو آخر الاسم والرفيق صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء .

وإياك وإهمال الظاهر ، فوالله الذى لا إله إلا هو ماتخرج إلا عن طريق السُّعَداء والعقلاء والحكماء . وكما لقدم إنسانيتك تستقر كذلك لقدم شخصك مستقر ، ولعالم الهيولى موضوع تخصيصه ، ولعالم الذوات المجردة موضع تخصيصها . نفس بنفسك وحسك ، وأعط لكل عالم حقَّه — تجد الجسم له عالمٌ فى مكانه وزمانه ، والنفس لها عالمها وترتيبها وشأنها وأحوالها . فمن كذب ظاهر الأمر وحمله تأويله السخيف واستمر على إنكاره نَزَل إلى محل رعونته وأخلد بجملته إلى الأرض الثالث المثالث . ودفع بأمر الله وسرقه القول عن الهويات المستقيمات والآنيات المتصلات بأيدى الصُّوَر الخيالية ووبخ بالزَّجْر التابع لماهيته أينما كانت من المراتب العقلية والحسّية وخفض ، وحيث ظن أنه بلغ وصعد منازل التوجه فيه أبلس ورفض . والموضع الذى توهم أنه أوْجُ الكمال هو الحضيض له وأنزل ، وفى الذى زعم أن يدفع خبره ويطلب المشاهدة فيه هو العذاب الأليم [٢٧٠] بل هو أجزل ، وبقدر حاله وتصديقه لشأنه الخسيس ، يكون بعده وصرف وجهه عن مقابلة إنسانه الرئيس . وأعوذ بالله من الحرمان الذى يحيدعنه ، ويفيد الإنسان غير الذى هو منه . والله يعصمنا من الضلال

المانع عن الخيرات ، ويقيمنا على خط صراطه الكونىّ ، ويصل حبل سعادتنا ويديم لنا خبر محادثته الذهنية ، وينفذ أمره بقتل عادتنا .

وأنت أكرمك الله تصفح الكلام ، المتقدم والمتأخر ، والمقدمة وأجزاءها وجميع ما فيها من الرموز ، وصّحح أنها جعلت هناك لمنافع السالك فإنها تجرّد هيولاه وتُصَرِّف أدوات إنسانه كلها ، وتهذب ذهنه وتعلم روحه كيف يقتنص معارفه من عالمه . فافهم ، ولا تسوف همتك بمطالعة هذه الرسالة واشتغل بها وبكل رسالة كتبتها لك ولغيرك ، واجمعها فى سِفر ، وأثبتْ كلّ معنىً مع الذى يناسبه ، وعجل بخدمة نفسك ، ولا تهمل مصالح أملك وجسمك . وقل لجملتك : يا مركبة من الخير والشر والمفارق وغير المفارق والسعيد والشقىّ هاوديني ، وإن لم تفعلى نقابلك بطبيعة الخير ، ونتدرع بالمفارق ونظفر بك بأمر السعيد فإني مجتهد . ثم قل لها : « ياهذى ! هل العمر إلا كلمح ، أو إعطاء مكد لا سمح ؟ وآصالك لَهْو وعَلَل ، وأسمارك سَهْو وعِلَل . هل سِر ورَد أو صدر ، إلا وساء كدر . وموعده ؟ ماصح لك موعده . مطالك مطال . ومحالك محال . الله له الحول والمحال والطول . ومع هذا الدعاء سلاح . والصلح مع جملتك المذكورة صلاح »[1] . وطاعتك إمامك الذى هو راعى الأمم . وهمامك المعروف عندك أنه يرشد الهمم . لا يغفل عنها وبقدر ما تسمع منه وتجدك تراعى مدلول أغراضه ، تصل إلى مقصودك وتنال معرفة بُدّك ومعبودك . وقد حان وقت الكلام الذى يُعَوِّل على مدلوله النجيبُ الذى يجعل تلف نفسه ودراهمه فى طلبه دَرْء همه ، وبعد والده وجده وعمه ، ويعتقد أن الهنوات القاطعة عنده أدوىٰ ، والهمم الجاذبة له دَوا . ويستعين على مصالحه سَحَراً وبُكْرة ، وينادم فى شأنه متعلقات أغراضه وذكره ، ويبصر خط أمل الهجل فى خلده وقد هدم ، وصديقه الذى كان يصبر عليه قد عدم ، ويكثر فى كلماته من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ويقول : الأرواح الطاهرة رواحل النبيه ، والأعمار الطبيعية مراحل الوجيه ؛ ويعمل على مشاهدة ما يعلم فإن السعادة فى العلم مهملة مجملة ، وفى الذوق والعلم مخصصة مفصلة . والعلم المجرد يعطى السعادة كما تعطيها العلاماتُ الشرعية التى يُعْرَف معناها على الإطلاق ،

---

(١) هذه الفقرات من عهد ابن سبعين لتلاميذه ، فراجعها فى هذا الكتاب .

وتنكر فى التفصيل والتقييد ؛ فإن الخاتمة والعاقبة مجهولة فيها ، والحقيقة بضد ذلك ، والذوق يمشى على طريق الحقيقة ، والعلم يمشى على طريق الشريعة ؛ والسالك السعيد المعروف بالسعادة هو الذى يسلك على طريق الشريعة والحقيقة ويجمع بينهما فى [٢٧١] كسبه . فإن الحكم الشرعى يقال على أول الأمر إذا كُلِّف به ، وعلى آخر الأمر إذا عُرف به وهو الحقيقة فى نتيجة المكلف ، وهو الشريعة فى مقدماتها ، والشر والخير والكمال والسعد والنعمة والرضوان وما أشبه ذلك من الأسماء المترادفة . فأصِخْ الآن بَسْمع قلبك ، واستمع ما نرسمه لك ، وانظره بعين لُبِّك المذكور الذى هو واجب بالإضافة إلى أصله وفصله وكثير موضوعه وأدواته وتقلبه وتطوره .

يا مرحوم ! الرضوان يفيد الذوات الكاملة وإن أفادك الأغراض اعمل فافهم . والرحمة تفيد المتوسطات ، والعفو يفيد الأسباب ، والمغفرة تنبه بعد ما تقرر ، والتقرير عذاب ، والتوبة هى السكون وهى القيامة الخاصة ، وهى الحَشْرُ العَرَضىّ ، وهى المقدمة على نتيجة النشأة المعروضة ، وهى الحد ، وهى الفصل ، وهى السلامُ المطلوبُ ، وهى رأس التدلك ، وهى مفتاح الرسم القديم فى مذهب أئمة التعليم . وفيها سبع خواص : الأولى تفيدك فى زمان العزم التحدث إذا خلوت ، وترسل لك فهم الصور ، وكل شىء تجده فى الأحكام يحيلك عليها فانظر قبله وبعده واعمل على مفهومه تظفر بصلاح حالك .

والثانية : تفيدك الكشف ، فإن برجوعك إلى الله رجعت بروحك لا بجسمك ، فإن صدقت أبصر الروح عالمه فى الحين فافهَمْ وقِسْ بالرمز المتقدم وتوسط آخر المقدمة المذكورة ، وافتح به هذا الباب فيصلح حالك .

والثالثة : تفيدك لذة المناجاة الكامنة فى ماهية جوهرك فانّ شأنك يلحق أول كلام الله لك فى شأنك ، فارجع بالقهقرى على الكلام الذى قبلها وافتح بها بابها يصلُح حالُك بحول الله .

والرابعة : تفيدك بالإذن الدخولَ على حضرة صورتك التى هى بالقوة تصديقك وبالفعل فى منقلبك ؛ فاقرأ من الرسالة نحو ثلثها وافتح به بابها ويصلح حالك بحول الله تعالى .

والخامسة : تفيدك الدخول فى الحضرة المذكورة وتحضر فيها مع الحاضر ، وهو يحضرك فى

حضرة النظام القديم ، فطالع الرسالة المذكورة . وإذا وجدت كون التوبة قد انقرض خذ مافيه وافتح به بابها يصلح حالك بحول الله تعالى .

والسادسة : تفيد الحضور المضاف مع القديم وتُرشِدُك إلى الكَهْف وتحضك على نوم أهل الكهف المعروف بالسكينة ، فانظره فى الرسالة والتزم قراءتها واجتهد فيها وافتح بما تجد بابها ويصلح حالك بحول الله تعالى .

والسابعة : تفيدك المنقلب إلى هناك الذى بتكرار حكمه تصل وتخلص مرام شوقك فانها تقطع التعلق ، وتقيمك على الحق ، وتعاين الحق بالحق ويجيبك بمكان مائدتك العاجلة ، ويلهمك لتصرفها ببعض حروف السُّوَر وتقررك على الحضور معه من غير إضافة ، وتبصر ببصر استخارة ذاتك فى هذا الموضع كل مخبر عنه دونه عز وجل ، وتعين أمرك له وتكلمه ثالثةً ، فان شأنك فى هذه المنزلة ينقسم على ثلاثة : القصد ، والنيل ، والسكون . فانظر فى نفسك هذا الكلام وبه تفتحه . وقد نصحتك فافتح به باب هذه الخاصية السابقة ويصلح حالك بحول الله تعالى . وهذا التعليم قد انقرض [٢٧٢] حكمه .

يا مرحوم ! الرضوان من الله لا شك فيه وفيك بما تسأله ويجيبك ، وهو ذاتى الإجابة فى سُنَّة الله عز وجل لا أنه يلزمه . وفيك خمسة أجناس لم يذكرها الفيلسوف قط ولا عرفها الصوفىُّ ، ولا سمعها التعليم . وفيك من الرضوان علامته وهى بَعْدَ واحدك وقبل ثالثك ، وفيك زمان وقوعه عليك وهوايه الممكن ومنك الراجع وعنك اللازم ، وجملتك وهى مادتها ، والرحمة أمرها من الجِنَّة والناس ، وذاته العرضية من الجِنَّة والملائكة الجوهرية دورانها على الأسماء الشاملة ، ونيلها بالاستفهام وأنت على تعب وإفراط وعند التكرار وبعد المحبوب كله ، والعفو نافع القدرة الواحدة ، ويلازم أصل التعلق وقد ضرب به فى أول السنة المأمور بها المقرر عند الجميع ، بعد تحصيل بعض الأسماء . فان أردت نيله فاذكره عَقِبَ الأسماء وأنت تفهم مقتضاه وتنزل الأسماء عليه وترغبه فى كنه التنزيل ثلثه ، وتقر فى صلاتك التى تكون فى برها بالمقصد فيه إلى حروف الاستجابة المشهورة والمغفرة ملكية الأثر وإنسية الأكثر ، وحقيقة الأقل ، وربانية التعلق ، وكون السكون

المحور ، وحال الاسم الموصول ، وماهية الصور القاصرة ، وآنية النفوس المستجلبة ، ونتيجة مقدمه الاستدعاء ، وأمل المشاهد الذى يطلب مشاهدته كما هو الرضوان ا — ل الذى يعطاها قبل أن يطلبها ، أعنى المشاهدة والتوبة المخلصة المنسوبة لعباد الله المخلصين : قلبها الرضوان ، وعَينُها الرحمة ، ولسانها العفو ، وقواها المغفرة ، وارتباطها التوحيد ، وثبوتها المشاهدة ، والثابت ينقلب فى صد[1] أمله فى حضرة الإحسان ، وعينها تبصر مقصودها ، فإنها تنظر بالنعيم نظرة النعيم ، ولسانها ينطق بوصف الإنسان ، ومفهوم صيغته يخبر بخبر النفس ، وملازمة التوبة لها مخصصة ألاّ تيقن[2] إلاّ بالله ولواب[2] ذاته فى بُدّ ذاته لا بذاته تقدمه على سواه . وهو يطلب أمرهدايته ، وطَلَب الحق بالحق ، ويقيم رسم التحقيق بأن التوبة مرتبطة بالكرم ، والاضطرار والتوجه صفة نفس الخلق ، والاضطرار صفة نفس العبد ، والتوجه للكريم يتعلق بالكرم على ما يجب . فالتوبة بهذا النظر راجحة ، ومتاجرها رابحة ، وأيضاً التوبة قائلة وبعد القول وفى الجملة وعن الكلمة وشارحة ، إذا طابت بالأدوات المقومة ، وماهية إذا حكمت بالأسباب الثلاثة ، وخاصية أملها إذا برز عليها التائب ، وصحة عهوده القديمة . وبالجملة هى صورة من الصُور الروحانية التى مثلها عرض القبول وجوهر التكليف ، وأصلها رجوع الشريف إلى قدره الذى هو منه بالتقدير الذى أهبط عنه . وهذا التنبيه قد تم وقد كَمُل حكمه .

يا مرحوم ! الرضوان والرحمة والعفو والمغفرة من الأسماء المترادفة إذا نظرناه بنظر ما فى المقدمة التى قبلها ، وإذا قلنا فيه بالتوحيد أطلقناه بالترادف مع الواحد الحق [٢٧٣] فهو الرضوانُ ، وهو الحق ، وهو هو . وإذا نظرناه بالشرع ، والتوحيد ، والحكمة ، وثبوت الكلمة ، والفصل الذى فيه معنى النظام ، ومكان الممكن الذى لا انقطاع لماهيته ، قلنا فيه هو وما يشبهه ، مثل الذى يتعدد بمضافه ، وهو واحد لا يتعدد . وهو أيضاً فى الذى هو مثله هو فيه . وإن جعلناه بمعنى الاسم إذا صرفناه قلنا فيه فى كل اسم معنى كل اسم . وإن نظرنا ماهية اللواحق

---

(١) كذا فى الأصل ! ولعل صوابها : حيز .

(٢) غير واضحة فى المخطوط .

ونختبرها بالصنائع قلنا : الرضوان من صفة القديم متعلقٌ بالخير ، ويحمل مفهومه عليه فى حق الغير ، والغير يمنع نفسه — وهذا خلف. وإن نظرناه من جهة العُرْف واللغة والشرع والصنائع الضعيفة بالعقل الضعيف والقياس الخلف والفهم السخيف — قلنا : هو وسائر الأسماء الأربعة على مفهوم ما يلزم الكل فى شأنهم ، والأسماء الأربعة أسماء الذات والصفات والأفعال والتنزيه والقول بأن الصفات زائدة على الذات . وإن نظرناه بالحق المنسوب قلنا : هو الفصل والكلمة ، وهو العقل ، وهو القصد الأول ، وهو القلم ، وهو الروح ، وهو القدرة . وإن نظرناه بالحق الصرف قلنا : الرضوان هو المحمول الأول ، وهو الاسم السابع ، وهو الوصف الغالب ، وهو محرِّك السعادة ، وهو ذات حكمة العبادة ، وهو الذى يجليه الوحى قبل الكل ، ويحفظه الرسل قبل الرسل ، ويناله كل مخلوق وإن لم يفهم فيه إلاّ بَعْدَ عُسْرٍ ، وهو المتلوّ بعد الأسماء الثلاثة التى فيها صور الدوائر فافهم . والرحمة بعده ، وبحسب ما قيل . والعفو بعد الرحمة ، وبحسب ما قيل . والمغفرة بعد الجميع ، وبحسب ما قيل . والتوبة : هى الشأن الذى فيه القَبْض والبسط ، وفيه يزعم الأصم الأول من الأنواع الأربعة المتقدمة أنه يتوجه للكل ، ويدبر الإفادة ، ويقيل بالاستفادة ، وفيه يزعم الأصم المذكور قبل الذى أنواعهم تسعة فى الحضرة التى بيَّنْتُها وجعلتها على بابها ونَوَّعتها فى البُدّ والمقرّب ، وقومت بها الآنية الصاعدة ، وتمت بها المقويات الساكنة ، وفيه يقول التعليم إنه فرض الشك الذى يحفظ الأمر أول الصعود ، وفيه يقول التنبيه إنه سلامة على أهله قبل الجمع ، وهو الذى أبرز فى نازلته آدم الحظوظ الماحية وحركة ولده الذى نبهه عذاب البين حفظ الظل ، والذل الذى يتحرك بالقوى الطبيعية وينحط إليها ويمشى منها عنها فيهـا ، وشرع فى نظمها إخوة يوسف ، وركبها داود ، وختم بها على السلامة سليمان ، وجددها بعد ذلك ثم أكثر ثم أكثر ثم أكثر ووافق والده والرُسل منْ قبله فى الشرب .

وفى هذا الشأن يضع عيسى الجزية آخر الزمان — فافهم . وفيه اختبر آدمُ وأجاب بجهة وغفل بجهة ، فكان من الجهة المتقدمة علوه ، ومن المتأخرة ما سمعت : فإن آدم والدك فى الأمور العرضية والجوهرية وفيه تقدم كل شىء يظهر عليك فإن ماهيتك منه . والشرائع تخالف الصمّ الأُوَل والفلاسفة فى ذلك . وشريعتنا تقول إن آدم يتقدم على محمد ﷺ بالزمان والمكان والسبب والطبع بأمر الله الذى [٢٧٤] جعل هذه العادة ، والنبي عليه السلام يتقدم عَلَيْه بالفضل . ومن

حديث الإسراء تفهم تقدُّمه على كلّ مَنْ جاز عليه . وأضاف الجواز في قوله في هـذه القضية من غير أن يعتبر بالفضل وقال يقول آدم لمحمد : يا وَلَد صورتي ، ويا والد معناى . والتوبة في أبيه آدم داخلة ولا يخرج عنها من ولده أحدٌ ، وإن خرج عنها بالقول الأول الذى تفرض فيه العصمة ، ويقال من اسمه بما يسلم من معقول رجوعه الأبوة الذى يركب به نظامه كماله ولا يسلم من المواهب التى يرد عليها ويدفعها بالاستعانة وأن يسلم فيها ، يسلم من التوحيد المخالف فافهم! والتوبة مفهوم(١) الرسم كبيرة الاسم أثيرة في القلوب ، ونقطها عالية وخطوطها ثلاثة وزمانها واحد . فإن حررت خبرها وكنت طاهراً ، واستقبلت القبلة وأنت على غفلة تخاف والله عليك من الصوَر المجردة النازلة عليك في جنانك وفي قوة خيالك ووهمك كنزول المطر . وهنا وهنا نمسك الكلام عليها ، فإن النصف بقى منها بالنظر إلى التقرير ، وهذا التقرير قد تم بتتمه .

حكمة : الرضوان واسع ، والرحمة مثله بعد العهد ، والعفو كذلك ، والمغفرة كذلك ، والتوبة كذلك . والرضوان في الأسماء يفعل فيها ، ولا يمكننى أكثر من هذا ؛ وكذلك ما بعده وهذه السيِّميا قد تم حكمها .

حكمة : الرضوان رضى ، والرحمة مثله بعد العهد ، والعفو والمغفرة كذلك . والرضوان في الأرواح متصل الفعل ، ولا يمكننى أكثر من هذا ، وكذلك ما بعده ، وهذا مذهب البراهمة قد تم .

حكمة : والرضوان خَم بعد العهد العفو ، والمغفرة كذلك ، ولا يمكننى أكثر من هذا . وهذا مذهب الفصل قد تم حكمه .

حكمة : والرضوان طُسم ، والرحمة كذلك ، والعفو والمغفرة كذلك ، والرضوان في الجنة والنار ، وفي الأمر الأول ، وفي المأمور ، وفي التصريف الثاني بالخير الأول ، وهذا مذهب المُهمَل قد تم حكمه .

---

(١) في النص : مفهوم ـــ وفوقها : كذا !

حكمة : والرضوان هو ثلاثة : شهادة ، والحكم بها ، وهذه الأعداد نفتحها لك ، فاضرب بها في مثلها بحالك ونَزِّل الأمر في ذلك أظهر من الوجود الطبيعي لك ، وهذا بعد القصد ، وكذلك ما بعده . ولا يمكنني أكثر من هذا ، وهذا مذهب المُكَمِّل قد تم حكمه .

حكمة : والرضوان ما تسمعه ، وبعد ذلك ما تسميه وتجده ، وهو بعد هذا على كل مضاف ، فمن قطع المضاف كان هو الذي يرضى ، ومن أخبره رضى عنه ، والذي يصل حتى يرضى عن نفسه بما جعل فيه من ماهية رضوان ربه المستخلف بماهية رضوان حاله المكتسب بأمر ربه الواقف بينهما هو والرضوان عليه ، وهو مفعول فعل لئلّا تغلط غلط الأشقياء عند التركيب ، وإنّما هذا مفهوم قوله تعالى « رضى الله عنهم ورَضُوا عنه »[1] فافهم . والرضوان وما بعده في المرسوم الخامس بعد السلائل ، وما له في الخواتم عمل ، وله في الأعلام الأول . والمتعلق القديم كل شيء وما بعده كذلك ولا يمكنني أكثر من هذا [٢٧٥] وهذا مذهب المقرّب قد تم حكمه .

حكمة : والرضوان وما بعده وما هو مثله في السفر الأول بين الوسائل والكهوف ، وقراره الذي يعمل عليه في خطوط الحج وفي مساجد الذكر ، وهو يفهم بعد فهم الطيور ، وفي غيرها من السفر لا يَحِلُّ الكلامُ فيه إلا لعالم بها فإن في المسائل ما لا يمكن تطليمها على الحبل ، ومنها ما يمكن . فما أجهل من يحملها على وجه واحد ! وما أقل إسعاف من يطلبها من محقق ! والمنوطات وما فوقها لا سبيل أن يفتح فيها باب لسائل في هذا العصر إلاّ من خصصه الله تعالى . فافهم ما رُسم لك ، واعلم قدره واحمد الله عليه ، واعلم أن بيدك من الخير ما لا يأخذه والله تقدير ولا يتعلق به تعيين ولا يمكن في مثله نَقْصٌ أبداً ، ولا في الذي تتصوره . وخَلِّص مسائل هذه الرسالة بالأحكام المفروضة فيها ، فإن المسألة في الصُّمّ تتحرك ، وفي التعليم تسكن وتمتحن وتحقق أغراضها ، وفي التنبيه يتبين أمرها في الخبر الصحيح ، وفي التقرير يبصر أمرها كله صح ويتحقق الحق ، والسبب يصرف في الدارين، وفي البراهمة يعاد ويحفظ ، وفي الفصل يميز آخره وينقل ، وفي المهمل يحمل على جنسه وفي المكمّم

---

(١) سورة « المائدة » آية : ١١٩ .

ينتهى أمره ويجدد شأنه فى السفر فى هذا الشأن كله ؛ وفى المنوطات أوله ، وفى الصديق سببه ، وفى الاسم فاعله . ثم نرجع فنقول : وفى الصم تتحرك المسئلة وتطلع بالتركيب وتجعلها دائرة منسوبة ، ورُبَّ دليل فى قليل ، ورُبَّ إعثار فى إكثار ، وقد تخلصت والحمد لله ؛ وهى موجبة لك ومرسومة برسمك فإنها جواب عنوان كتابك المكتوب فيه إن الله « يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات »[1] ، وفى مقولة « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »[2] الآية وتصلك صحبة حاملها إن شاء الله تعالى فتصفحها واخدُمْها بذهنك وهمتك وعزمك وحرصك وأدبك وشوقك وصبرك والله يعينك عليها وعلى أولها وآخرها ووسطها ، وبفضلك اقبل عذرى فيها فإننى كنت فى كتبها مُشتَّتَ الخاطر بالداخل إلىّ والخارج عنّى والدائر علىّ بمكر العدو القريب منى ، وكان قلبى يمر على القرطاس فى غير قصد ولا عين وذهنى برود الأشخاص بغير وهم على عين . وبالجملة : الإنسانية منقسمةٌ : منها ما يبصر الذئاب الوحشية والإلسية ، ومنها ما يتوقع الأكوان المهلكة المعنوية والحسية . وبالجملة : حركة الخاطر الباطنة لا سكون لها فى الخبر ، وحركة الظاهر فى الخارج تقطع أحيازها قبل الطرق ، والأمر كله لله . ووالله ما عندى من غير الله خبر . وكل مخوف ذكرته هو الله ، وأفعاله خاصة ونفسى مطمئنة ، وجملتى آمنة . فآنِسْ جملتك ولا تخف ، وتيقن أن كل ما ذكرته لك قبل من أنواع التوقع هو من أجل الشريعة والحكمة · فاعلم هذا كله وتخلّق به إن شاء الله تعالى . واعلم أن القسم عند المحققين ينقسم على سبعة أقسام ، وكل قسم يكفر إذا وقع الحنْثُ به وينتقل منه إلى [٢٧٦] الأصلح والأكمل . قال رسول الله ﷺ : « ما حلَفْتُ على شىء ورأيتُ خيراً منه إلا كفّرْتُ عن يمينى وأتيت الذى هو خير » ـ إلاّ القَسَم بسر التحقيق وبالهويات الصاعدة والآنيات الممتدة وبالإسم الأعظم عقبها . والكفّارات منها ما يكون مثل المعروفة التى يعرفها الكل ، ومنها ما هو بغيره . فاذا سمعتنى نحلف بما نذكره لك — فلا تحنثنى ، وإياك والوهم والغلط الذى يحول بين المحبّ ومحبوبه والوالد وولده والمرء وزوجته ؛ وغير القَسَم المحرَّم الذى عرفتك به واطلب فى الانتقال عنه واسمح فى ضد متعلقه ، ونسمعك فيه بكل أنواع الكفّارات المعروفة وغير المعروفة .

---

(١) سورة الشورى : آية ٢٥ — وراجع سورة التوبة آية ١٠٤ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٣٤ .

وقد نصحتك ، وهذه مقدمة قدمتها عندك لأمور تحتاج إليها بعدها ، فافهم ! وكل من نهجره ولا نقسم عليه بالقسم المذكور وتكون مقاطعته وهجرته بالعرض ، والعرض ما يصلح بالمهاجر والمهجور ، فإن أدب التحقيق على أنحاء وهو الذى يجيب بالعفو عنه دعوة السائل ، ويفرج من شأن واصله بقول القائل ونقرأ الآية « خُذِ العَفْوَ وأْمُر بالعُرْف وأعرِض عن الجاهلين »[1] ، ونذكر عقبها الحديث المشهور الذى تقدم فيمن أحب وورد فى وصاياه وتأخر وظهر وحكم فى مكارم أخلاق محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء وهو: « صِلْ من قطعك وأعطِ مَنْ حرَمك واعفُ عمَّن ظلمك » . وعلى الإجماع الذى هو الاتفاق بين علماء العالم وحكمائه على أن مكارم الأخلاق صورة متممة ومقومة للحكيم والحكمة . وأنشد قول الشاعر :

وإنى وإن أوعَدْته أو وَعَدْته ... لمُخْلِفُ إيعادى ومُنجِزُ مَوْعِدى

ونصف المثل الجارى: العاقل مطية الأحمق — وناس نفسى به. ومن نهجره ونقسم فى مقاطعته بالقسم المذكور فلا سبيل لأحد عندى فى نيل شفاعته فيه ، فانه أعسر وجوداً من المحال المتعب بماهيته ولا يمكن أن يسعف فيها الشفيع حتى يُضطر القديمُ للصاحبة والنديم ، وتنفذ ماهية العديم وتلى الآية « فلا تذهب نَفْسُك عليهم حَسَرات »[2] الآية ونشفع مفهوم شأنها بالحديث : « اللهم حوالينا ولا علينا » وكما صرفته عنا فلا ترده إلينا ، ونخلص مقصود الجميع بانعقاد الاجماع على أن مقابلة الفاسد من وجوه النظر وينشد عزمى :

وإن كُنْتِ قد سَاءتْك مِنّى خليقةٌ ... فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسلِ[3]

ونذكر المثل المشهور : « العدو العاقل أحسن من الصديق الجاهل » ، ولشرح مفهومه بقول الحكماء : « من لا تنفعه نَفْسه ادفعه بالعزم والحزم لئلا تهلك هريته وآنيته » ، وتفسير صورة هذا كله بقولهم : لا تضرِبْ فى حديد باردٍ . وبالجملة حمل الأدب مع أهله أمان ، وكما تدين تدان ، وكفى به قدراً ، والمؤمن من لا يضر نفسه بمضرتين ، ولا يلدغ من جحر مرتين . ويطلب مصالحه ويمتثل

---

(١) سورة « الأعراف » آية ١٩٩ . (٢) سورة « فاطر » آية ٨ .
(٣) البيت لامرىء القيس من معلقته المشهورة .

قول الصادق ﷺ : « ابدَأْ بنفسك ثم بمن تعول » وتنطق معاملته بلسان حالها وتترجم ، وتقول : « إن للخير أهلا ، وللشر أهلا » ، وينشد : [٢٧٧]

ولى فَرَسٌ بالشرّ للشرّ مُلجم ولى فَرَسٌ بالخير للخير مُسرَج
فمن رام تقويمى فإنى مُقوَّمٌ ومن رام تعويجى فإنى مُعوَّج

وإذا نزل عليه غيرُ الذى يوافقه ويناسب سريته ويكون غير متفق معه يختار معه خير الشرين ويغلب خير الخيرين على ضُرّ الضُرّين ، ويقول : كل محب لا يخرج من خلد محبه لا يهجر ، وكل من لا يهجر لا يغير ، فكل محبوب لا يبرح منْ خَلَد محبه ، وبالعكس لا يغير .

وأنت أعزك الله كن مع الله ومع أهله على أىّ حال كانوا ، وقسم احترام الأول المشار ، وانسَ نفسك بما قلته فى الضرب الأول من الشكل الأول .

والسلام عليك أيها اللازم إسعافه وإنصافه، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبمثله على الفقير القاضى، ورحمة الله تعالى ، وعلى الولد الصالح بطبعه أبى الحسن ، وعلى أخيه ، وعلى الجميع ، ورحمة الله تعالى وبركاته . ومطالك فيها متعلق بالناسخ فإنه كتبها فى أربعة أيام ، وهاوَدَتْ فى ذلك راحتهُ ، وبيَّضتُها أنا فى يومين ولو كان الكاغد عندى على كماله لم يكن إلا فى اليوم الواحد .

وهذه الرسالة سميتها « الرضوانية » .

والله الموفّق لنظرها بعين التحقيق والفهم لمعانيها بمنّه وكرمه .

رسالة *

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، إن تجذبنى عنايتُك ، فما أبْعَدَنى عن باب حضرتك ومشاهدتك ! ما أيسر الأمر منك وما أقربه ، وما أبعده من جهتى وما أصعبه ! العمل لا يوصل إليك ، والشيء لا يدل عليك . الشيء محصور فى مشيئته والمستدل محصور فى قالب صورته : مَنْ لم تنظر إليه بعين المحبة ، ما أعظم حجابه وأظلم قلبه ! ما تنزلت الرحمةُ على عبد إلاّ قام به روح الحيا ، ولا أشرق نور المشاهدة فى قلب الأعمى عن السوّى . مادام القلب مستغرق مشاهدتك فلا ورد له ولا وارد . مَنْ التفت عن الله واشتغل بما سواه خَسِر خُسرانًا مبينًا ، وباء بِسُخْطٍ من الله ، ونار الحجاب مأواه — لا ينكشف سر التوحيد لعبد هو مع نفسه ، ولا يشهد الحقّ حقًا ما دام باقيًا مع حسه . مَنْ لم يكن له فى سابق العلم حظ منك وتكرمه ، فما أبعده من السعادة الأبدية وما أحرمه ! مَنْ لم تكن أنت مواجهه ووجهته ، ما أعظم عناءه وأطول حيرته ! مَنْ لم يكشف له عن سر فأبطن فيه ، لم يهتد إلى الحق فى شيء ، ودام فى الحيرة والتيه مطموسَ البصيرة فاقد النور مريض القلب لا شيء يشفيه . من لم تتعرف له بسرّ المعارف ما أجهله ! [٢٧٨] من لم تَمُدّه بالأنوار ، ما أعماه عنك وأغفله ! مَنْ لم تفتح له عَيْنَ بصيرته فما أعماه عن إشراق شمس حقيقته ! مَنْ لم يَنَلْ منك فى السابقة حظه ونصيبه ، فما أشد بالحجاب إبعاده وتعذيبه ! ما تجليت لقلب إلا امتلأ بالأنوار ، ولا تعرفت له إلا انجلت له الحقائق وانكشفت له الأسرار ! إذا أتى العبد الممدد فلا يقدر على صرفه عنه أحد . مُنْ لم تمدّه بالعناية فالشيطان بالخذلان يمده . مَنْ لم تؤيده وتنصره ، فالشيطان عن طرقات الخير يقطعه ويضره . من أحبّ نَفْسه دام تعسه وشقاؤه . مَنْ أحبّ الله طابت حياته ودام بقاؤه . مَنْ نظر إلى الأكوان بعين الاعتبار ظهرت له الحقائق

---

* هذه الرسالة بخط مغربى مخالف للخط الذى كتبت به رسائل ابن سبعين السابقة . وتبدأ من نصف الصفحة ٢٧٧ بعد « الرضوانية » مباشرة .

وانكشف له الأسرار . من لم يطلُبْ مطلوبه من وجوده ، لم يظفر به لتيهه عن المقصود وشروده. معرفة الله متعلقةٌ بمعرفة النفس ، فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربّه والقرب من الله مناوىء للقرب من الخلق ، فمن لم يباين الخلق لم يشهد من الله قربه . من وقع فى وجوده على الكنز ، وحلّ من نسخة شكله أشكال الرمز ، فقد نال الغنى وظفر بالسعادة والعز . الدليل والمستدل صدق عليهما وَصفُ الحدوث والعدم ، والمدلول عليه قائم به وصفًا الوحدانية والقِدَم ، فالدليل بوصف حدوثه منقطع ، والمستدلّ بغير شكله كلما تقدم رَجَعَ ، فلا نسبة ولا علاقة ، إذ الوجود الحقيقى يمحو الوجود المجازى إطلاقه . اهرب من المحاسن إليه ، وإياك أن تفتن بها فكثير فتن بها وحُجِب ؛ ولا تغتر بما لديك وما حصل لك من القرب ، فكم من قريب بَعُد وسُلِب . لا تركن إلاّ إليه ولا تعتمد إلاّ عليه ولا يقرّ لك قرارٌ إلا بين يديه . اجْعَلْ الحقّ أمامك فى كل شىء ترشد فيه إلى الصواب ، واقصده فى كل ما تقصد يفتح لك الأبواب . لا تقصد غير الله فتضل ، ولا تطلب من غيره فتحرم ، وتتعب ، وتكلّ . ما نطق بالحكمة جاهلٌ ، ولا جهل الحكمة عاقل . ما نطق بالحقيقة إلا عارف ، ولا جهل الحقيقة إلا محجوب مع الحسّ واقف . ما تجلى الحق لغير قلبٍ طاهر ، ولا برز السرّ لغير قلب بالله عامر . من دام فى الأعمال دامت له السعادة ، ومن اعترف بالشكر استوجب الزيادة . مَنْ خَرَجَ عن العادة بلغ من المطلوب مراده . مَنْ نظر الناس بعين زمانهم استفاد علمه ، فالزمان سِرّ مظهره أعطى فيهم حكمه . الزمان يشبه أهله . إن الحكمة بالمظهر تعطى كلاً فعله ، فأفعالهم تجرى على حكم الاسم القائم فى زمانهم المتجلى بصور أعمالهم ، فلا زمان يشبه زماناً لاختلاف مظاهر الأسماء وإن كانت الأسماء بالجود قائمة ، لأن الأسماء محيطةٌ محاطةٌ مهيمنة بعضها على بعض فى دوائرها ، محكومة حاكمة .

لا تهتمّ بغير مالك [٢٧٩] لا تغتر بغير مالك فيه نفع وزيادة ، ولا تنحط بهمتك إلى حضيض السخط عن الترقى إلى مرتبة العز والسيادة . لا تكن ممن اتخذ الهمة هواه ، وعبد شيطانه واستحكم عليه وتولاه ، فأصبح لا مولى له ؛ قد طُبع بطابع الشقاء على قلبه فأعماه . لا تشغل القلب بالأسف على ما فات ، وقُمْ على قدم الاجتهاد والاستعداد لما هو آت ، فالله تعالى يقول :

« إنَّ الحَسَنات يُذْهِبْن السيئات »(١) . لاتستبطىء فى دعائك من الله الإجابة ، فهو الذى أمرك بالدعاء والطلب منه ليعطيك ومن كرمه فتح للطالبين بابه . الزم الباب ولا تيأس فالرءوف رحيم ، وامدُدْ إليه يد افتقارك بالذل والمسكنة فهو الغنىُّ الكريم . لا تهرب بالذنب منه واهرب بالذنب إليه ؛ فإلى أين تذهب وإليه يرجع الأمر كله ! لا تَعلَّقْ بغيره ، ولا تركن إلى سواه ، « فكلُّ شىء هالِكٌ إلاّ وَجْهَه »(٢) الخلق كلّهم فقراء إليه طالبون منه ، فكيف تطلب أنت منهم ، والكل موتى لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فكيف لا ترحل إليه عنهم؟ ! لوأشهدك سَعَة رحمته وتلاشى ذنوب الخلق فى سَعَة هذه الرحمة وأحضرك حضرات اسمه الودود الرءوف الرحيم لرأيت حقائق هذه الأسماء تقرّب المبعود وتعطى المحروم وتؤمّن الخائف ، قائمة حاكمة بهذه الأحكام بالحكمة . إذا رأيت الخلق مُعرِضين عنك مقبلين عليك بالمَذَمَّة فهو لأحد أمرين : إما بلاء ومحنة ، أو نعمة من الله عليك ورحمة ؛ فالبلاء والمحنة مَيْلُك إليهم وعَرْضُ أعمالك عليهم وشُغْلُك بهم عن الله وغيبتك عنه برؤية من سواه ، والنعمة والرحمة شهودك الحق بما أسدى إليك من النعم بواسطة الخلق ؛ فأنت مع المنعم لا معهم برؤيتك له وغيبتك عنهم .

لا تؤيسك كثرةُ الذنوب ، فكم من مذنب فى(٣) سابق العلم مُقرَّب محبوب ، وكم من مطيع فى سابق العلم بعيد عن الله محجوب ! لا تُطِعْ النفسَ فيما تأمر به ، فإنها لا تأمر بخير ، ومخالفتها واجبة فلو أطاعت أطيعت وأمرها فاسد ولم تقم بحق الله فلما أضاعت أضيعت . لا ضلال لمن أنت دليله ، ولا ضياع لمن أنت كفيله ، ولا وقفة لمن أنت داعيه ، ولا فترة لمن أنت راعيه ، ولا وحشة لمن أنت أنيسه ، ولا غفلة لقلب أنت حريسه . ما فاجأ القلب نورُ شهود إلا محا عنهُ كلّ ظلمة ، ولا نازله حقيقة عرفان إلا نطق بالحكمة . إنّ قلباً لاح فى مرآته حقيقة الوجود لسليمٌ . إنّ عبداً سلك بالمتابعة مَنْهَج الحقّ لعلى صراط مستقيم . الكون كله نور عند من أبصر ، والحقيقة بارزة إلى من استبصر ، والحق ظاهر وهو من الظهور أظهر ، والنور [٢٨٠] ساطع أذهل العقول والعيون

---

(١) سورة « هود » آية ١١٤ .

(٢) سورة « القصص » آية ٨٨ .

(٣) كذا فى الأصل !

بهر . الكون كله ظلمة ، لولا أنك الحق المبين ، والدار كلها بلاء ومحنة ، لولا أنك الحافظ المعين . الإنسان مخلوق فى أحسن تقويم ، مردود إلى أسفل سافلين ، يعلم المجهول ويجهل المعلوم ، له التكوين والتمكين ، إن رقى فإلى الغاية ، وإن هبط فإلى النهاية . وهو المبدأ به فى المدّ والتعيين ، الوجود منه أُخِذ ، والكل عنه وارد والقلب واجد وفاقد ، خراب بالشك ، عامر باليقين . كنزك معك وأنت لا تدرى ، وأسباب السير ميسرة وأنت لا تسرى . وجودك حجابك ، ورؤيتك إياك سرابك ، وقوفك مع الأشكال حَجَبَك وتُهتَ حتى لا تدرى مطلبك ، فلو منك إليك سريت ، لشاهدت ورأيت ! فكم محجوب بعينه عن رؤية عينه ! فمن تخلص من الشبهات وعمى عن المرئيات ، انتقل إلى المعانى الصحيحة ، وتكلم باللغة الفصيحة ، وانجمع له ما به تفرق ، ورأى الحق على ماهو به وتحقق ، فالمطلوب أنت لو كشف لك عنك ، والسر فيك لو بَرزَ لك منك . الحجاب أنت لو أزلته ، والنور ظاهر فيك لو شهدته . ما برز عنك إلاّ بما بطن فيك ، ولا بطن فيك إلا بما ظهر عنك .

نورك سابق لظلمتك ، وتوحيدك مركوز فى أصل فطرتك ، مقيد أنت بتركيب صورتك ، مطلق ببسط روحانيتك . الجمال يحييك ويثبتك ، والجلال يفنّيك ويمحقك . إن رقيت إلى المعالى فهى لك وأنت لها وأجلت روحك الحضرة فهو محلها ومنزلها . الأرواح إذا ألقيت فى بحر النور وغمست ، والتحقت بعالمها العلوى وتقدست ، وأجابت داعى الحضرة وحضرت ، وقام بها السر الإلهى فشهدت ما كانت به عنه حجبت ، واتصلت بما عنه انفصلت ، وعادت كما كانت وما برحت ، وحصلت على مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، وسرى سِرُّ الحياة فى العوالم — فيالله سرّ فأنت به وروح بها حييت ! هنالك الولاية لله الحق ! انبسطت العوالم وانتشرت ، وبرزت العلوم الإلهية للعالم واتسعت ، وكشِف للقلوب عن الغيوب وظهرت ، وأفيض عليها من نور الأرواح فاستنارت القلوب وأشرقت ، وزال عنها كَدَرُ الأغيار وصفَت ، وانفصل عنها شوبها وتخلصت ، وترك قيدشكل أشكالها وأطلقت ، وألقت السمع وشهدت ماعنه أخبرت ، وطلع منها فجر ليلها وحيعلت(١)

(١) قالت : « حى على الفلاح ! »

وتجلى للبصائر شهودها فأبصرت ، وأمدت البصائر الأبصار بنور شهودها فرأت الحق ظاهراً فى كل مرئى رأت . فنيت الحوادث ومحقت ، بقيت الباقيات [٢٨١] والحقائق تحققت ، والتحق الأزل بالأبد ، المُلْك لله الواحد الأحد .

إلهى ! هذا ذُلى فى الدنيا بشؤم معصيتى ، وسَتْرك مسدول علىّ ، فكيف به فى الآخرة عند هَتْك الأستار؟! وهذا سرّى بادٍ بسوء الحال علىّ ، فكيف به عند كشف الأسرار ! وها باب التوبة مفتوح وأنت تنادى : هل من تائب وأنا مقيم باق مع الإصرار ، معلول مكسور ما وجدت للعلة دواء ولا للكسر جباراً ، ناكِس الرأس خجلان بين الصالحين والأخيار . لا أذنى تسمع ، ولا عينى تخشع ، ولا قلبى يحضر ، ولا فكرى يرق ، ولا عقلى يعقل ولا أفهم ، ولا لى اعتبار . قد غلبتنى ذنوبى ، وفتحت وجهى عيوبى ، ماشٍ فى الظُلَم وأهلُ النور يمشون فى الأنوار ، عاجز عن دفع ضر أو جلب نفع ، منقاد لما شئت منى بسلاسل الأقدار . ما الحيلة فى المقدور وإذا نزل أصمَّ السَّمْعَ وَأذْهَبَ العقل ، وأعمى الأبصار . ليعلم أن السعادة السابقة لا شىء يرفعها ، والشقاوة اللاحقة لاشىء يدفعها ، لأن الأمر نافذٌ صائب ، وعلى كلا الفريقين حاكم غالب . لاتنازع الأقدار فتهلك ، ولا تُلقِ نفسك فى ضِيق هذا المسلك ، فإنه لامنازعة لمن هو غالب قاهر ، ولا مدافعة لمن هو قوىٌ قادر . لم يبق إلاّ التسليمُ عند تحقيق الغلبة وظهور العجز حيث لم يبلغ الطالب مطلبه .

إلهى ! لولا حُسن ظنى فيك لَقطَعَت المعصيةُ رجائى منك ، ولولا ثقتى بحسن كرمك لأخذ الشيطان زمامى عنك . عفوك وسيع فلا تُعلمُ له نهاية ، وعزّك منيع فلا يوقف له على غاية . إن أخذت فأنت ذو عز وسلطان ، وإن غفرت فأنت ذو كرم وإحسان . ولقد غلبت جانب الرحمة فلم تقطع رجاءنا منك بما أخبرتنا به عنك ، وفتحت لنا من كرمك باباً وسيطاً : « قُل يٰعِبادى ، الذين أسرفوا على أنفسِهِم ، لا تَقنَطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً »[1] كيف نخشى أو نخاف ومن رحمتك أوجدتنا ، وكل موجود يرجع إلى أصله؟! ونحن خلاصة فعلك. والفاعل حكيم لا يضيع خلاصة فعله.

إلهى ! إنا لا نريد المعصية وإن غلبت ، ولا نرضى بها وإن وقعت ، ونرضى بفضلك ولا نرجو سواك ، وعزمنا لا نعصيك وأنت تعلم ذلك منا . فثبِّتنا على ماعليه عَزْمُنا ، وامحُ عنا ماعنه عجزنا .

---

(١) سورة « الزمر » ، آية ٥٣

< رسالة فى عرفه >

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم كثيراً قال[1] أكبر مالك المقولاتُ والأوّلُ من الأمور التى حصرها هذا الوجودُ والآخر والظاهر فى ذلك كله والباطن العَرِى عن الشوائب العلىّ القوىّ الولىّ ، حاكم الإحاطة المنحطة المختلطة ، وعين تلك الكاملة الجامعة المانعة ، صورة الصور ، وسُورة السُّوَر ، خليفة الحقيقة ، وحقيقة الطريقة ، المبصر قبل النصيب ، المناسب من صفة نفسه للمخطى وللمصيب ، وعين ما يبصر ويعلم من العالم ، وفوق ما يحققه علم العالم عبد الله الوهاب ، وأمين الله البواب ، الآخذ من الجلالة اسم الجليل ، ومن الدلالة قصد الخليل ، الذى أراد بذلك التشبه بذلك ، فكان من ذلك ما أراده ذلك لأجل ذلك وصحبة ذلك ، ثم كان كذلك بعد ذلك ، وبعد ماهو ذلك وإن كان جميع ذلك هو ذلك فلا يصح مع ذلك غير ذلك . فسبحان الذى جعل ذلك ليس كذلك ، وهو مع ذلك أظهر ذلك ، ورتب ذلك ، بأمر ذلك ، من المتكلم فى الوجود ، وفى الأمر المعتبر من الظاهر فى الجميع ، وفى الشيخ المختبر ، ومن الواحد حتى يمتنع فى حقه ذلك لأجل الحكم ، لا لأنه عن أو من أو به أو له أو ما أشبه ذلك قال له المألوف الأكبر انتسب واكتسب . وإياك أن تظن أن الأمر فى المعتبر وفى المألوفات هو من جنس ما تعلم من الماهيات التى كانت تقال فى عالم المألوف خليفة الله الحق الثابت عز وجل ، حتى أنها كانت تتطور فى بعض السفر فى ماهية ذلك المألوف المصروف إلى ذلك المعتبر وفى أنواع جليلة بحسب ذلك الموضع . فاعلم أن ذلك يصح لها

---

(١) هذه الرسالة بنفس القلم الذى كتب الرسائل الأولى لابن سبعين .

لأنها تقال عليه فأنها تنصرف إلى شمائله ، فهى ماهيته المتوسطة الحاكمة وهو يقال عليها ، وهذا الذى نحن بسبيله هو البحر الذى يغرق فيه حاصل البحر أعنى مفهوم البحر ، والموضع الذى لا يقال فيه البحر — وبالجملة أحوال الناس قبل حقيقة هذا الأمر لا تنسب إلا بوجود الشعور ولكونها فى عالم وفى وجود وفى مألوف فقط . ومن كان يطلب الوجود ووجده انقطع طلبه ضرورة ، فكيف يصح منه الطلب ! ولا تتوهم أن الأمر الذى نحن بسبيله لا وجود فيه بل هو شبه الماهية فى اصطلاح صم السفرة الأولى والأحوال المذكورة عندهم لهذا الوجود أو لهذا الطور السينين الأخبار قال لهما مظهر المظاهر ومألوف المألوفات ووسيلة الوسائل : عليكم بحفظ مراتبكم فقط ، فوالله ماعلم أحد من المعتبر إلا الحاصل الجامع المستند إذا سد وجه التقديس فى وجهه فهو الخبر . وقد نفد الأمر بالكلام فى عالم المألوف الكريم فى يوم عَرَفة فى اليوم بنفسه وفى مفهومه الشرعى وتركيب الكلام فيه حتى يصل إلى غاية ما وبقدر طاقة المتكلم [٢٨٣] فإما يسلم له ويحمد أو ضد ذلك قال له أكبر الأول والأكبر الثانى ماهذا الكلام بعد الأخذ فى الذوات المجردة وفى الأعلى بعدها وفى المألوف وفى العزة الواقفة تنحط المخاطبة إلى حضيض الأمور الوهمية فى عالم المألوف الأكبر الذى يحرر القضايا ويحصرها . نعم وإن كان التحقيق يركب من أخسّ الأشياء أخصها قال لهما المقصود الكف عن الكبير مادام القول يبعد القائل ، وغرضى الأخذ فى سبب المجد الإلهى ، وهو عندى يجذب القائمة برفق ، وإن كان الكلام فى هذا اليوم هو فى عالم الأوهام فهو من أحكام المعتبر الذى نفذ الأمر على المألوف لكى ينفذها هو . وكل شيء صدر عن الرضوان المعتبر يصل إليه ، فإن الأشياء قريبة منه بنوع واحد ، والعوالم بجملتها لاتحجب السعيد فإنه مع قضيته فقط وتلك القضية فيها دخل الجميع — فافهم . ومع هذا ينبغى أن يتكلم فيه أكبر الأول مع أهل الوجه الأول ثم مع الثانى حتى يصل إلى التاسع ثم يتكلم مع التعليم ويتصل كلامه بالمكلم ومع الأول من السفرة ويتكلم الأكبر الثانى مع حامل المهد فى الصدر الواسع ويخلفه فى الحين ويوصل الكلام فيه إلى الأقسام وبعد كما تتكلم أنا صحبة هداية المعتبر بلسان الثالثة من غير أن يجر الكلام للتوسل قال له أكبر نعم ونعم ماقلت وطاعتك ماهية السعادة . ثم انصرف وشرع يخبر العارف عن عرفة فقال له ذلك العارف إن كنت تحب أن تعرفنى فبغيرى عرفني . قال له : فى أىّ شيء تسأل عنها ؟ قال فى مفهومها من حيث الأحكام الشرعية . قال له : الأحكام الشرعية منها

ماهى معقولة المعنى ، ومنها دون ذلك ، ومنها ماهو معقول المعنى وغير معقول المعنى من جهة ، ومنها ماوضع على ضرب المثال ، ومنها سَبَبِيٌّ ويثبت بعد ذلك حكمه ، ومنها كذلك ولكنه لا يثبت ، ومنها ماهى على جهة الشبه ، ومنها ماهى من جهة المحكوم عليه فقط ، ومنها ماهى متعلقه بالواضع ، ومنها ماهى موقتة ، ومنها ماهى فى الدارين بوجه ما وبنوع ما ، ومنها ماهى صفة طلب ، ومنها ماهى عبارة موجهة ، ومنها ما هى بحسب شخص واحد فقط ، ومنها ماهى بحسب وقت واحد فقط ، ومنها ما هى برسم الارتباط لكى يكون المطلوب الكريم عندها ، ومنها ماهو على العموم ، ومنها ماهو على الخصوص ، ومنها المطلق والمقيد والمقدر والمفهوم والظاهر والمؤوَّل والمجمَل والمفصل والمخصَّص وما أشبه ذلك ، ومنها مايحض على المعقول ويفيده ، ومنها خلاف ذلك ، ومنها مجموعة من علم وعمل ، ومنها مايخص القلب فقط ، ومنها مايخص الجوارح ، ومنها ما يجتمع من ذلك ، ومنها مايضر بالقصد الثانى وينفع بالأول ، ومنها ما ينقطع [٢٨٤] فى دار الغرور ، ومنها ما لايصح بكماله إلا فى الآخرة ، ومنها مافيه مائة مسئلة مع جعفر الصادق وخمسة قبله وسبعة بعده لا يجوز الكلام فيها مع أحد إلا مع من يحمله المحقق ، أو يسأل فيه ، أو يدبّره أو يكون معه من حيث ذاته ، أو يحرر له مقاصده ، ومنها ما يتقدم ويتأخر من جهة واحدة .

والذى يجب أن نتكلم معك فيه من هذه الأحكام كلها فى الوجه القريب من عالمك فنقول إن كنت تريد الكلام على حكمها المألوف وصفته وشرطه ــ فنقول : أما الوقوف بعرفة فإنهم أجمعوا على أنه ركن من أركان الحج ، وأن من فاته فعليه حج قابل ــ والهدى فى قول أكثرهم . وأما صفته فحاصله وصول الإمام إلى عرفة يوم عرفة قبل الزوال ، فإذا زالت الشمس خطب الناس ، ثم جمع بين الظهر والعصر فى أول وقت الظهر ، ثم وقف حتى تغيب الشمس . وإنما اتفقوا على هذا لأن هذه الصفة هى مُجْمَعٌ عليها من فعله ﷺ لاخلاف بينهم أن إقامة الحج للسلطان الأعظم وأنه يصلى وراءه ، براً كان أو فاجراً أو مبتدعاً . وأن السنة أن يأتى المسجد بعرفة يوم عرفة مع الناس ، فإذا زالت الشمس خطب الناس كما قلنا وجمع بين الظهر والعصر . واختلفوا فى وقت أذان المؤذن بعرفة للظهر والعصر . فقال مالك : يخطب الإمام حتى يمضى صدر من خطبته أو معظمها ثم يؤذن المؤذن وهو يخطب . وقال الشافعى : يؤذن إذا أخذ الإمام فى الخطبة الثانية . وقال

أبو حنيفة : إذا صعد الإمام المنبر أمر المؤذن بالأذان فأذن كالحال فى الجمعة . فإذا فرغ المؤذن قام الإمام يخطب ثم نزل فيقيم المؤذن الصلاة. وبه قال أبو ثور تشبيهاً بالجمعة . وقد حكى ابن نافع عن مالك أنه قال لا أذان بعرفة بعد جلوس الإمام للخطبة . وفى حديث جابر أن النبي ﷺ لما زاغت الشمس أمر بالقُصوى فرحلت له وأتى بطن الوادى فخطب الناس ثم أذن بلال ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم راح إلى الموقف . واختلفوا هل يجمع بين هاتين الصلاتين بأذانين وإقامتين أو بأذان واحد وإقامتين . قال مالك : يجمع بينهما بأذانين وإقامتين ، وقال الشافعي وأبو حنيفة والثورى وأبو ثور وجماعة : يجمع بينهما بأذان واحد وإقامتين . وروى عن مالك مثل قولهم ، وروى عن أحمد أنه يجمع بينهما بإقامتين والحجة للشافعى فى حديث جابر الطويل فى صفة حجه عليه السلام وفيه أنه صلى الظهر بأذان واحد وإقامتين كما قلنا . وقول مالك يروى عن ابن مسعود وحجته أن الأصل هو أن يفرد كل صلاة بأذان وإقامة ولا خلاف بين العلماء أن الإمام لو لم يخطب [٢٨٥] يوم عرفة قبل الظهر أن صلاته جائزة بخلاف الجمعة . وكذلك أجمعوا أن القراءة فى هذه الصلاة سر ، وأنها مقصورة إذا كان الإمام مسافراً .

واختلفوا إذا كان الإمام مكيّا هل يقصر بمنى الصلاة يوم التروية ، وبعرفة يوم عرفات ، وبالمزدلفة أو كان من أحد هذه المواضع . فقال مالك والأوزاعى وجماعة : سنة ذلك الموضع التقصير ، سواء كان من أهلها أو لم يكن من أهلها . وقال الثورى وأبو حنيفة والشافعى وأبو ثور وداود : لايجوز أن يقصر من كان من أهل تلك المواضع . وحجة مالك أنه لم يُرْوَ أن أحداً أتم الصلاة معه ﷺ أعنى بعد سلامه منها . وحجة الفريق الثانى البقاء على الأصل المعروف أن القَصْر لايجوز إلا للمسافر حتى يدل الدليل على التخصيص .

واختلف العلماء فى وجوب الجمعة بعرفة ومنى . فقال مالك : لا تجب الجمعة بعرفة ولا بمنى أيام الحج لأهل مكة ولا لغيرهم ، إلا أن يكون هنالك من أهل عرفة . وقال الشافعى مثل ذلك ، إلا أنه اشترط فى وجوب الجمعة بها أن يكون هنالك أربعون رجلا على مذهبه فى اشتراط العدد فى الجمعة . وقال أبو حنيفة : إذا كان أمير الحج ممن لا يقصر الصلاة بمنى ولا بعرفة صلى بهم فيها

الجمعة إذا صادفها . وقال أحمد : إذا كان والى مكة يجمع بهم ، وبه قال أبو ثور . وأما شرطه فهو الوقوف بعرفة بعد الصلاة . وذلك أنه لم يختلف العلماء أن رسول الله ﷺ بعد ما صلى الظهر والعصر بعرفة ارتفع فوقف بجبالها داعياً إلى الله عز وجل . ووقف معه كل من حضر إلى غروب الشمس . وأنه لما استيقن غروبها وبان ذلك له دفع منها إلى المُزْدَلِفة . ولا خلاف بينهم أن هذا هو سُنَّة الوقوفِ بعَرَفة . وأجمعوا على أن من وقف بعرفة قبل الزوال وأفاض منها قبل الزوال لم يُعْتَدّ بوقوفه ، وأنه إن لم يرجع فيقف بعد الزوال أو يقف من ليلته تلك قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج . وروى عن عبد الله بن معمر الديلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحج عَرَفة ، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وهو حديث انفرد به هذا الرجل من الصحابة ، إلا أنه مُجمَع عليه . واختلفوا فيمن وقف بعرفة بعد الزوال ثم دفع منها قبل غروب الشمس فقال مالك : عليه حج قابل ، إلا أن يدفع قبل الفجر ، وإن دفع منها قبل الإمام وبعد الغيبوبة أجزاه . وبالجملة فشرط صحة الوقوف عنده هو أن يقف ليلاً . وقال جمهور العلماء : من وقف بعرفة بعد الزوال فحجُّه تامّ وإن دفع قبل الغروب . إلا أنهم اختلفوا فى وجوب الدّمِ عليه . وعمدة الجمهور حديث عُروَة بن مُضَرِّس وهو حديث مُجمَعَ على صحته قال : أتيت رسولَ الله ﷺ بجمع ، فقلت : هل لى [٢٨٦] من حج ؟ فقال : من صلى هذه الصلاة معنا ووقف هذا الموقف حتى يفيض وأفاض من قبل ذلك من عرفات ليلا ونهاراً فقد تم حجُّه وقضى تفثه . وأجمعوا على أن المراد بقوله فى هذا الحديث « نهاراً » ، أنه بعد الزوال . ومن اشترط الليل احتج بوقوفه بعرفة ﷺ حتى غربت الشمس . لكن للجمهور أن يقول إن وقوفه بعرفة إلى المغيب لما روى من حديث عروة بن مُضَرِّس أنه على جهة الأفضل ، إذ كان مخيراً بين ذلك . روى عن النبي ﷺ ، مِنْ طُرُقٍ أنه قال : عرفة كلها موقف ، وارتفعوا عن بطن عرفة ، والمزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر ، ومِنًى كلها منحر ، وفجاج مكة منحر ومبيت . واختلف الفقهاء فيمن وقف من عَرَفة بعرفةِ فقيل : حجُّه تام وعليه دم . وبه قال مالك . وقال الشافعى : لاحجَّ له . وعُمدَةُ مَن أبطل الحج النهى الوارد عن ذلك فى الحديث . وعمدة من لم يبطله أن الأصل أن الوقوف بكل عرفة جائز ، إلاّ ما قام عليه الدليل . قالوا : ولم يأت هذا الحديث من وجه يلزم بهذه الجهة والخروج عن الأصل . فهذا هو القول فى السنن التى فى يوم عرفة .

وأما الفعل الذى يلى الوقوف بعرفة من أفعال الحج فهو النهوض بعد غيبوبة الشمس وما يفعل بما تركناه لكونك لم تسأل عنه . ومن الناس من يريد جوابه أن يكتب مطابقاً ولا يكون زائداً ولا ناقصاً ولا معدولا ، ولعلك كذلك . والحكيم ينظر فى المصالح النافعة المدبرة المفيدة وبحسب الحق والمحق الواقع فى الوجوه بعد إذا لم يجد ذلك من جهة المخاطب القريب . وهذا أجل وأكمل بكثير من الأول . والأول يصرف فى الجدل وفى بعض العلوم النظرية قال له أول الوجه الأول لا حاجة لى بعد ذلك وانصرف وسلم بعد ماعلم . واعترض الرجل المتوسط فى ذلك الوجه عليه فقال له : لأى شىء أنت أكبر ولم يظهر بماذا ، وهذا الاسم لم يصح لك إلا على الزيادة وبعد لم تظهر فافتح ماوراء العادة وحرز طريق السعادة وما يحمد من العبادة وأنا نؤمن بجميع ما تذكر ونغتبط . قال : الإسعاف سيرتى ، والإنصاف شرف سريرتى . اعلم أن هذا اليوم وهذا الموضع وهذا الوقت وهذه النية فى هذه العبادة من هذا العابد استدعاء مافى القوة من الكمالات وما من أجله وُجد التكليف لكى يبصر داخل الذهن ، أو يحرر من عالم الملكوت ويحصل للنفس حضورها المنسوب إلى ضمير المُكَلَّف حتى يطلع على الأرواح المفارقة ويتوجه إليها ، ويثبت بالآنية بعد ما طاف حول الهُوِيّة ، ويستروح نفحات القرب ويرسل قصده بالتذلل إلى الجلال المبصر بالماهية المضافة وهى هى بعد ما كانت تظهر على مظاهر خفية ، فيلحظها الذهن ويهرول ، ثم يغيب عنه فيسكن ، ويجتمع بعد ما كان قد تبدد فى الأفعال ، ويعامل المقصود بالمباشرة الخبرية ، ويقيده بحقيقة الكنه المشترك ، وينظر نكتته التى تكفيه [٢٨٧] مرض العادة ، ولا يمكن معها الطلب على الأول لأن تلك الذنوب كانت تقال على الهوية المبعدة بالمغايرة ، قال له المتوسط المذكور قد أخذت قصدى فكفَّ عنى ما وراء ذلك ، فإن المؤمن لا يصلح به أكثر من ذلك إذا كان من المحسنين فالقوة والقصد والاستعداد . قال له هو الكلام على العموم من جهة المضاف فقط ، وهو بحسب الرجال ، ومن حيث المراتب . وها أنَّا نخبر آخر ذلك على الوجه بذلك كله ونحسن إليه فإنه فى مقام الإحسان ، و «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»[1] . فنقول : يوم عرفة هو اتصال النَّسَب ، وقطع لواحق

---

(١) سورة « الرحمن » آية ٦٠

السَّبب والخروج عن ذل الأغراض المهلكة، والدخول فى العالم الأعلى بالجوهر، ومشاهدة أول علامات الحد، والتعرض إلى نفحات خيرات المطلع حتى يُبصر أو يُبصَّر: أعنى يُبصِر بالجوهر المعنى المقوم لوجوده، أو يعلم ذلك أنه كذلك. هذا إذا كان أمره بالوجه الأكمل. وأما إذا كان بغيره الأنقص فيكون على جهة الشعور، أو يكاد يظفر بالسكينة الوهمية، قال له: تكلم بما يجب لك ومن حيثك فإنك تكلمت بما عندى وبالوجه الذى نعلمه ولم نفقده قط، قال له لا طاقة لك على ذلك كله إلا به، وهو قد خصص وخلص وعَيَّن، لا أنه أهمل واستدرج، ودَبَّرك تدبيرك المريد، وحرمك نور المراد، قال له تكلم بحاصلك القريب منى بالمرتبة، فإذا فعلت ذلك اتركنى مع المنعم فلعله يعلم ويلهم ويفهم ويقرر. والغرض منك الكلام عليها من كل الجهات وتطلع الكلام عليها حتى إلى عالم ثم إلى القريب منى فقط. قال له المذكور: عرفة هى وظيفة شرعية. قال له: هذا قدعلمته. قال له: عرفة اسم موضع، وهذا الاسم وضع بإزائه، وقد قيل إنه من الأسماء المستعارة أو من المشتقة، وقصة آدم مشهورة وتاريخ الخليل كذلك وجميع ماقيل فى هذا الاسم، وفى هذا الموضع وفى هذه الوظيفة هو من هذا القبيل، وقد قيل إنه من أسماء المرتبة التى يظفر بها هنالك، وقد قيل إنه من أسماء الوقت. وقد قيل إنه أخذ من بعض لواحق المعرفة وغيره، وقد قيل إنه كان جواباً من بعض الرجال لبعضهم حين سأله عن الحاصل فى ذلك وعن المدرك من الإنسان الكامل هل عرف معلومه على مايجب فى ذلك الموضع وبحسب هذه العبادة. قال: نعم! عرفه. وقد قيل إنه من أسماء النفس، وقد قيل إنه من المنازل المستقيمة، وقد قيل إنه من أمثلة التجلى، وقد قيل إنه من فصول المواقف المحصِّلة للمطلوب على العموم، وقد قيل فيه إنه قضية الفيض والتخصيص، وقد قيل إنه حكاية السالك الأول فى الأرض المتشبِّه بحكاية الأول فى السماء، وقد قيل فيه إنه زمان نصيب السعداء، وقد قيل إنه بشارة واردة فى دار الغرور، وقد قيل إنه من خواصّ الأنبياء، وقد قيل إنه فى الأمور العملية مثل الحروف المرسومة فى أوائل السور. قال له: قد علمتُ ذلك، وقد خرجتُ عن المراتب الخبرية والخلقية الخاصة والعامة. [٢٨٨] قال له: فأنت تسأل عن وزنه وفعله، أو عن تصحيفه وقلبه، أو عن مثاله أو حكمه، أو عن فائدته المشتركة، أو عن علته، أو عن اسمه، أو عن واضعه، أو عن جملته ؟

قال له : جميع ما تصف لا حاجة لى به ، ولا يمكنني البحث فيه من حيثك ، وإنما يجب البحث فيه من جهة الأعلى فقط . فقال له : صدقت ! يوم عَرَفة من أنواع التصريف والخواص الفعالة ، وفيه الـكشف الـكريم ، وهو من الأسماء المرسلة ، وله علامات لا يعلمها أحد إلاّ الله ، والمعلوم الذى وهبه هو تعلقه المنسوب وخلاصه المحسوب . قال له : صدقت ، غير أن الأمر الذى نريده منك غير هذا . قال له : عرفة من الوظائف السببية المنحطة بعد وجود لازمها ، ويكون ذلك اللازم مما قد عرفته من حيث هى حكمة لا من حيث هى عبادة ، ثم الفتح بحسب الصدور ، وهو فيهما على عدد المصادر . قال له : صدقت ، غير أن المطلوب عندى أجلُّ من هذا . قال له : عرفة قضية التطور الخامس أوسبها فى ذلك ، فإن كانت فى الحس وصحبة أعراض النفس الحيوانية والمحرك العقل والقوة المشتركة كانت من قبل التوجه الأوّل الذى يكابد الأوهام المموّجة ، وإن كانت فى الأفضل وبحسب الأفضل وعلى هذا النوع المذكور كانت من قبيل الأوهام الخالصة القريبة المستقيمة . وإن كانت فى مظهرها الثلاثى الذى لا خير فيه إلاّ إذا نظر إلى عاقبته وفائدته الـكلية فهو الخير المحمود عند صمٍّ أهل الـكمال الأول قبل تمام شروط الخلافة المعلاة ، وإن كانت من النقط الواقعة من حضرة قوانين الموجود المعروف بذلك وهى ذوات تلك وفيها صفات بل هى وجه وسيلة قدر وسيلة الوسائل فىّ أنا . وإن كانت من ظل المنسوب له من إضافة به برابط عنه فـكنهه دون الملـكة وفوق الحد الأصغر بفرض ماينصرف إلى أمثلة الاستفهام ، والعين متعددة بعدفهم وحدةالوجود ووجودها عنده ، وإنما كان ذلك لـكون الأعداد تقرب القطع بالماهية المبحوث عنها بالنصيب . قال له : قرَّبْتَ فى ذلك فتممٌّ . قال له : عرَفة هى الحركة الـكلية الواقعة بالمعنى الأكمل على المألوف الأعلى الأكبر ، ولذلك أقيم مثالها الطبيعى فى عالم الطبيعة على الأقلّ وبحسب الضعف فى الضد لـكى يستجلب فى حال قبضها نصيبه فهو يطلب بشبه التوجه وذلك بجد ، فتحدَّثْ من حال الواجد الحركة ومن حيث المستجلب السكون . قال له : قد كشفتُ وبَيَّنتُ فـكُفَّ عنى . قال له : بقى المحق المخاطب ، بل هى السكون والمثال على أصله هو على ماهو الأمرعليه من نفسه ، فإن الجليل يعطى والقابل على ضربين : قابل يقبل ، وحينئذ يقبل وآخر يسكن ، وبعد ذلك يجد ، والأول يتحرك إلى مألوف ما اعتبر فيه أنه المعتبر فنهض ، وذلك لأجل النصيب الحاصل له من غير أن يحرّر له

من التوقف المتابع الذى يطعن فى الماهية الراجعة المعتبرة بماهية وهمية [٢٨٩] هى الأصل فى تحصيلها فيها وفيها ذلك والثانى يبعث عنده الأمر فينبعث له وما منه به وما به منه وهذا له من ذاته ؛ وقد ذكرنا مفهوم هذا الأمر فى « الرسالة الحكمية » . وكل ماهية يلحقها الزائد فاعلم أنها تابعة ، فإن كانت على طريق التبدل فالأمر فى أول الجلالة ، وإن كانت فى وسطه فهو فى الوسط ، وإن كانت فى الآخر فهو فى الآخر .

وجملة الأمر لايعبر المعتبر إلا مظهر المعتبر ، ولا كل مألوف بل المألوف الذى تستند إليه الصفات ويكون لها كالمظهر وهى عنه فى الماهية الموصلة كأنها الآلة الطبيعية الثابتة فى الشكل ، وهو صور الأصوار وطور الأطوار وسُورُ الأسوار ودَوْر الأدوار ، والله هو المولى والله هو الأَوْلى ، والله هو الأعلى ، والله هو الآخرة والأولى ، والله هو الحليم ، وهو الحكيم ، وهو العليم .

فلما فرغ من هذا الكلام التفت للوجه الذى يليه فقال له : علمت أنت هذا ؟ قال : نعم ! ولكنه لا يقنعنى . قال له : حب الوجود المضمار فى الأمور الشريفة مضمار ثان وشرف أكمل . قال له : صدقت فعلِّم وفهِّم ولازم دعوة الحق وأهله ، وبحسب هذه الأحوال يظهر المقصود فى الجميع . قال له : عَرَفة هى الإضافة المتوحدة الناشئة بين الواحد والوحدة فقط ، وهى التشفع القائم بين الأحد والتوحيد . قال : كان ذلك فكُف . قال له: أمَّا من جهتك فنعم ، وأما من جهة الحق المخاطب بالقوة فلا يمكننى ذلك . قال له : شأنك والحق ومخاطبة أهله .

فلما فرغ قال للذى يليه : اعلم أنَّ عَرَفة هى الاستخارة التى تنشأ بين العبد الأصم ، وبين الأستاذ الراجع ، وهى التى تصدر من أهل الهويات فى السموات والأرض ، وهى المواقف المجرورة الممتدة ، وهى العجز الظاهر بعد الحصر الذى يجرد الماهية للوحدة المحضة أو للنقطة أو للقضية ، أو يرسم الذوات فى الذهن المغايرة وغير المغايرة . قال له : صدقت وقد فهمتُ فكُفَّ . قال له القول الأول ثم التفت إلى الذى يليه ، وقال له : عَرَفة هى مكنة مُحصلة فى العالم الموكل به المنعم المحسنة لخلافتها حتى كانت أو كادت . قال : كان المطلوب . ثم قال للذى يليه : عَرَفة هى العين الجاحدة لجميع الدول بالمضمار المهملة لأكثر المِلَل ، وهى المتقدمة على الوظائف المحصلة

وهي ثمرة التركيب . قال له : كان ذلك ، ثم التفت كما جرت عادته ، وقال له : عرفة هي النور المبثوث في الوحي بعد الملك ، وقبل الملك ، ومعه ؛ وهي الحق الراغب والباطن المرغوب ، وبالعكس . قال له : صدقت فكف ، ثم التفت إلى الذي يليه وقال له : عرفة هي كل خط لا يصح له الوقوف ولا يفوته التقوس في وضعه ، وكل دائرة لا محيط لها في الذهن ولا في خارجه ولا يلزم المحال فيها . قال له : صدقت فاقطع . ثم التفت إلى الآخر ، وقال له : عرفة هي توبة لواحق الخليفة وخلة كشف التركيب ، وعلة حب الوسائل . قال له : صدقت ولا أستطيع على أكثر من هذا .

ثم جمع الجميع في حضرة خليفة المألوف وقال لهم : [٢٩٠] ما عرفتم من عرفة ؟ قالوا له : جملة أحكام وبعض خواص وحقيقة واحدة . قال لهم : ما الأحكام؟ قالوا له : ثلاثة : الأول منها التدبيري والثاني الإضافي ، والثالث الجاحد المشوق الكاشف بذلك ذلك . قال لهم : فما هي الخواص؟ قالوا له : سبعة : الأول منها معرفة الخاتمة التي جهل الصم أمرها ، والوجه الأول والثانية كشف أسرار الارتباط ؛ والثالثة حصولها ماهية ، والرابعة الاطلاع على ذلك في حضرة الأمر حيث تظهر علل الأحكام ، وعيون الحكم ، ومقر الأرواح الوهمية ؛ والخامسة تحصيل الفروق المهلكة القاطعة المعللة ، والسادسة يحصل بها إدراك الأمور الشريفة في الماهية حتى أن الشيء الذي يبصره الناس في المنام يبصره هو في اليقظة ، والذي يتعلمه الغير أو يعلمه من جنس المعلومات المبحوث عنها بالأقيسة يلحقه هو بذلك النوع الخارج عن قبيل العلوم المألوفة والقوة الطبيعية التي يقدر بها الإنسان ويفعل المحمولة على أعضائه الشخصية التي هي شبه الآلة لها تقوم هذه الخاصية مقام جنسها ، بل هي أفعل وفعلها أثبت ، فإنها تفعل في الحال وبعده ، وقد يلزم المنفعل عنها بقاء أثرها فيه فاعلم ، وكذلك ما يعمله الرجل بجاهه ومكانته هي أقوى وأفضل ، فاعلم ذلك .

والسابعة نيل أصلها الواقع بالفعل ومن حيث ما يعلم من معاملة الله له ، والواقع بالقوة من حيث مكانتها ؛ وقد يدرك ذلك بعض الرجال دون الخاصية المذكورة ، وهو لا يحمد فإنه بغيرها لا عاقبة له إلا بالعرض أو في الأكثر ، وحالها هي بضد ذلك لأنها من المألوف الحاصل أو المعتبر المحصل والحقيقة هي بوجه ما الخبر الذي يحصر العدد للواحد ويصرفه إليه ، والواحد للوجود والوجود

فالموجود الذى يقال عليه بحسب هذا الاصطلاح أنه الوجود ، والموجود الذى يكون الوجود زائداً عليه وتكون الوحدة معه يمثل هذا القول وهى عندهم بوجه آخر أ كل ماهية لاتنفك عن نظائرها اللاحقة فهى فيها ذاتية لا أنها تحصرها حصر الكلى لما يحمل عليه أو الجنس لأنواعه وهى لا يعرض لها شيء ، ولا تتغير هى به ، أعني بما هو بها ، أو من حيث هى هى وهى عندكم بوجه آخر أجل من الذى ذكر قبل . فهى الآن ذات تخدم وكانت فى بعض الوجوه مخدومة فى الحال الذى تبصر الأشياء مفتقرة إليها ، ولا شيء يفعل بعدها إلاّ بما يسرى له منها . والآن قد انقطع المنتسب والنسب والروابط ، وبالجملة ظهر لكم أن معلومكم أو مدرككم أو ماهية ماهيتكم أو ذلك اللازم أو ذلك البُدّ الأول فى ظاهركم بما هو باطنكم ، وفى أولكم بما هو آخركم ، فى مظهر لا ينفعل عن ذات ولا هو ذات حاصلة ، وأنه هو الذى يخف الوهم عنده بل ينقطع . وهذا المظهر هو ذات المعنى الذى ينصرف إلى بُدّه ولا يخبر عنه إلا حقيقته ، أعني الله الذى [٢٩١] يتجلى لنفسه أعني الذى استجاب فى الكل ولا كل يعتبر معه بالمعنى الذى تقدم من الكلام فى الواحد والوجود . وحاصل هذا كله مطلب ماهو ذل ، وهل هو كل ، ولم هو قل ، وأين هو على ، ومتى هو زل ، وكيف هو هل ، وأى هو خَل ، ومن هو هل ، والبرهان شل .

وبلغتم الكلمة والكون على جهة الملكة والنور من جهة الحال والتركيب الأكبر . قالوا له : صدقتَ ! قال لهم : الأمر أعظم وشأن الله أعلىٰ من أن تأخذه علوم الصُم أو حقائق الوجوه المذكورة أو هِمَم الأقطاب ، ولو علمتم ما أعلم لكنتم نحو الصواب فى البعد والقرب وإهمال الغايات غاية والنهايات نهاية ، وجلال الله لا تفهمه العادة ولا يجهله بعض أهلها . ثم عزم وعزموا ، وأمر فامتثلوا ، وقال ففهموا ، وكان وكانوا ، وهمّ وهمّوا وهاموا . وأراد وامتنعوا وفعل وكفوا ، وذكر وأنكروا ، وخطب بماهية الوقت التى هى خليفة القضية الجامعة الحاكمة وقال الحمد لله الذى جعل عَرَفة من أسماء المواطن الرحمانية ، وزمانها قربة الاعتدال ، ومكانها نوره الواقف ، وحكمها برهانه المتلوّ بلسان السُنّة الإلهية قبل سُنّتها الربانية الحاكمة فى عالم الخلود المكتسب ، والحمد لله الذى جعلها تشعر بشمائل الظاهر السابع ، وتعظم السادس الماحى وتُحَرِّر قصد الأولياء فى ورقة الأسباب . والحمد لله الذى فرضها بغير نكال ، وقبلها كذلك ، وربطها بضد ذلك ، وجعل عاقبتها تجزُ إلى

حكم إتباعه . يا هذا ! قد أهملت الارتهان وحادت همتى عن طريق المطلوب الذى زعمت قبل هذا وإنّا نزعم بأكثر منه ونجدد الاصطلاح الذى يخصّنى ، فنقول : هى عقدة رأس آخر العبادة السيئة ، بل هى النيّة ، بل هى العقل ، بل هى القصد ، بل هى الأمر ، بل هى العين ، بل هى التذلل ، بل هى الزيادة الصاعدة ، بل هى من قبيل الألواح ، بل هى من قبيل فتح الماهية المغلقة التى لا يفتحها إلا الله العليم ، بل هى سبب فتحها ، بل هى أسُّ السلامة منه ، بل هى بُدٌّ كما فيه ، بل هى شهادة الله ، بل هى عين أمره وعلمه وسائر صفاته ، بل عندها يصل إليه المعتدل ويعد ثلاثة أخبار ويفرض الأسماء الكاشفة لسائر العادات المنجرّة العالية بعد أمر الله عند جوهرها بالأمر الذى يجمع على أمور ، ويحفظ بالأمر الذى يجمع على أوامر . ومفهوم ذلك من أخبر عن حقيقته بالحق وكان ذلك بالقوة الغالبة التى يجد الإنسان فيها ضميره كأنه يتكلم ويفعل مع السكوت وفى حال السكون . ومن قبيل هذا الأمر هو الذى يجده بعض هؤلاء الصوفية فيقول : ليت كذا ، وفعلت كذا ؛ وهذا لا يَلتفت إليه مَنْ عَلِمَ الحقّ ، لأنه من جنس الأحوال الكاذبة وكان هذا الخبر أو ذلك الخبر انتهى تصريفه حيث انتهى خبره مثل مايقوله الصمُّ فى سعيدهم إنه ينتهى حيث انتهى علمه ، وهذا هو البراق المكنون والمقام الكامن الذى هو فى جميع [٢٩٢] الناس، وهو الفصل الصحيح عند الخاصة أعنى فصل الإنسان من غيره لا الفصل الذى يقول له علماء الصم ، فإن ذلك مدخول الحد ، وهذا هو الفتح المبين أعنى فتح الماهية الذى يحيط بما يخبر عنه ، وقد يحيط بأكثر من خبره وفتحها أن يكشف له منها جميع ما يريده ولا يشقّ عنها ولا عنه فى الوجود ، أو فى الذى يريده شىء .

وأما الفتح الذى يفتح به على الانسان فى صدره ، أو فى ملكه وعادته أو فى تصرفاته كلها ، أو فى منقلبه ، وبالجملة الفتح الذى يملك به السرّ الإلهى والسرّ الطبيعى والظفر بالسلامة من كل الجهات ما هو هذا الذى أريده ، فإن ذلك كله خارجٌ من ماهيته . وأعوذ بالله من الفرح بغير النصيب ، وبنوع منه قيل للخليفة خليفة ، والنصيب هو أن يكون الحق يتولاك بقصد الرِّضى ، أعنى بفتح ، فترى الامتداد الذى يسع البشرية ، لا أنه يجعل فيك من المعلومات الجزئية التى لا يعلم فى وقت ما نيلها الإلهى ، وشاهدها فى المواد الطبيعية وبحسب ضرب الأمثلة مالك الكليات ومالك سببها ومالك حفظها ومالك ما يقدر فيها ، وهو مع ذلك فى العالم المفارق ، ومالك الشخصيات

وهو فى عالم الطبيعة ، أو الشخص الذى يبصر من قَصَبَة مجوّفة وتكون بحيث لا يبصر إلا المقابل لها ويكون ذلك فى وقت واحد ، والانسان الذى يبصر على الإطلاق ويرفع المانع أو الشخص الذى يدفع له الحكيم من بعض دراهم تصريفه العلمى ، وبآخر يدفع له السرّ الذى به يفعل ، والذى به يحفظ ، والذى به استخرجه ، والرجل الذى خُلق أكْمَهَ ثم فُتِح له فى وقت ما فأبصر مُبصراً ما ، وبآخر خلق يبصر ببصره وبصيرته وبالوارد .

فقل أعوذ بالله من الفتح الذى يشرح فيه الصدر ، أو تفتح من أجله أبواب الجنة وتغلق من أجله أبواب النار . وإنّما الفتح هو الأوّل ، وهو المفهوم من قوله تعالى : « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً »[1] ولا شىء أفتح من تحكم الصّمّ على حبيب الله حيث قالوا : أراد الله بذلك الفتح فتح مكة ، فلا هُمْ صدقوا فى المطلوب ، ولا هم أنصفوا النصر . وذلك أن الله قد أخبر عن مكانته الشريفة التى بها يقول ويعلم ويفرح والذى لا يسعه به إلا التوجه المطلق ؛ ولذلك كان آخر الأمر الكريم أول الأمر العزيز ؛ ولو كان الذى ذكروه على الوجه الذى يقال فيه إن الزمان فى حق الله لا يصح ، وإذا أخبر أخبر عن معلومه ، ومعلومه لا يفوت ولا يتجدد عليه شىء ، ولا ينظر إلى مطلوبه بالقوة ولا ينتظره ، ولا فقده قط — لكان الأمر قبيحاً بالاضافة إلى ما يريده . فكيف وعَرَفَةُ عند جميع الأنبياء فى غير هذه الصفة وبغير هذه الحلية ، وفى دون ذلك ، وكذلك فى السموٰات والأرض .

تم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً .

---

(١) سورة « الفتح » آية : ١ .

دار الطباعة الحديثة
ومكتبة الزهراء ، ٨ الك شارع الجيش
ت ١١٤٢٨٠١ - ص.ب ٨٩٦٦١١

دار الطباعة الحديثة
٦ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
ت ٩٠٨٢١٨ - س. ت ٨٩٦٩١

الثمن ٤٠ ص